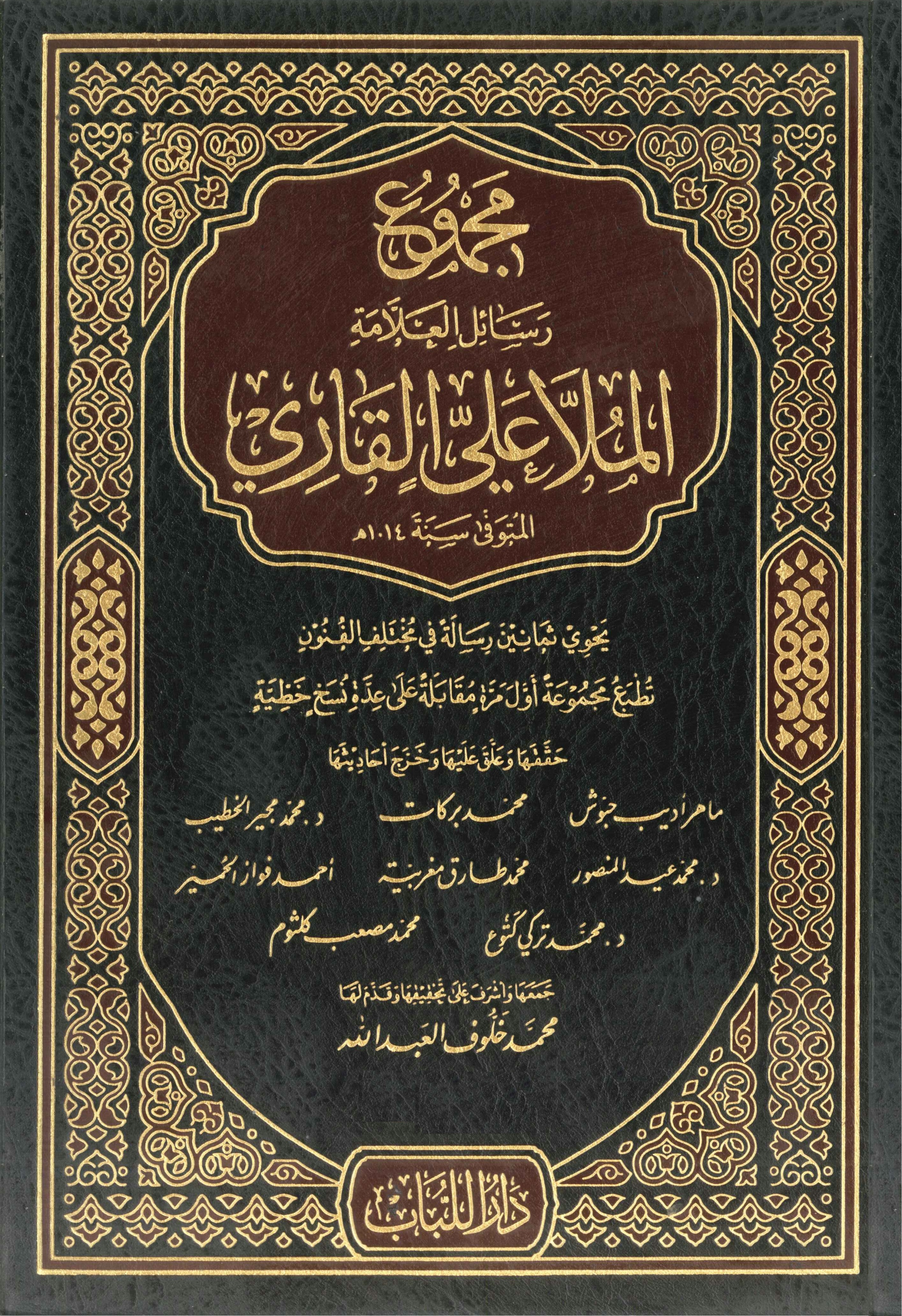
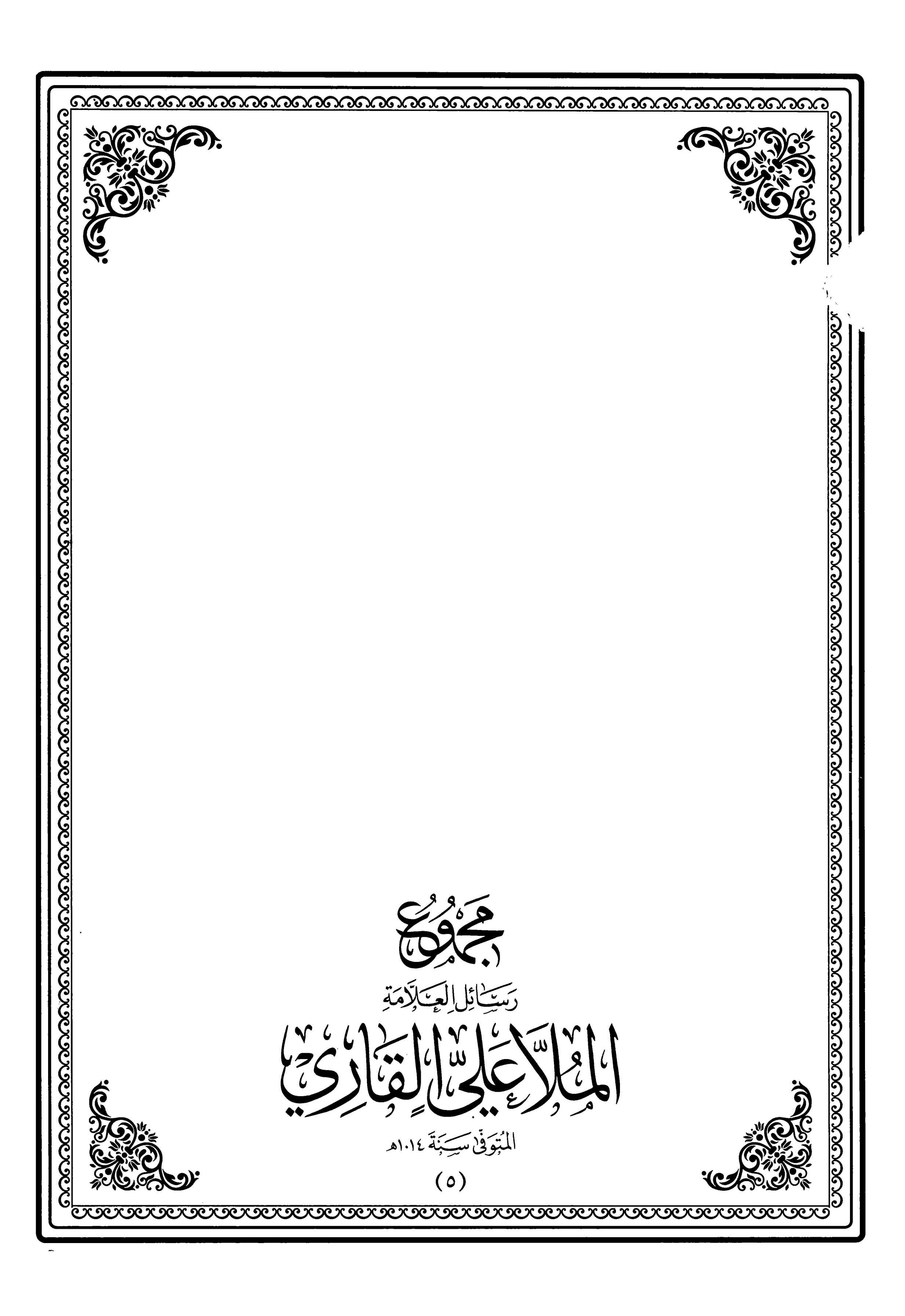
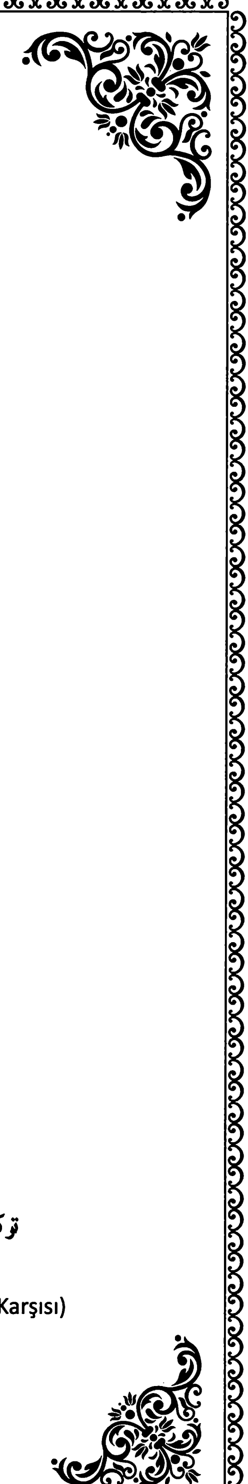
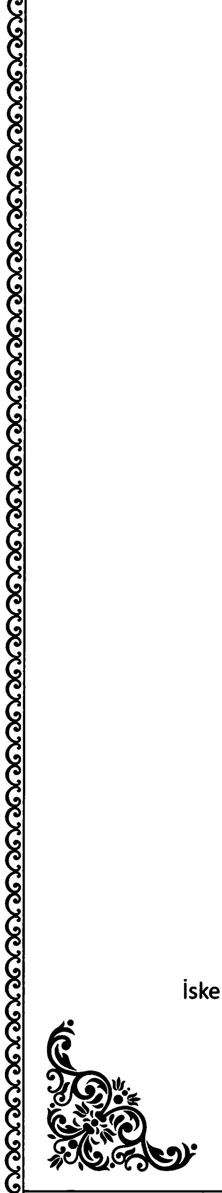

مجموع
رسائل العلامة
الملا علي القاري
المتوفى سنة ١٠١٤هـ
يحوي ثمانين رسالة في مختلف الفنون
تطبع مجموعة أول مرة مقابلة على عدة نسخ خطية
حققها وعلق عليها وخرج أحاديثها
ماهر أديب حبوش
محمد بركات
د. محمد مجير الخطيب
د. محمد عيد المنصور
محمد طارق مغربية
أحمد فواز الحمير
د. محمد تركي كتوع
محمد مصعب كلثوم
جمعها وأشرف على تحقيقها وقدم لها
محمد خلوف العبد الله
دار اللباب



مجموع
رسائل العلامة
الملا علي القاري
المتوفى سنة ١٠١٤هـ

(٥)

الطبعَة الأولىٰ

١٤٣٧هـ-٢٠١٦م

الخطوط بقلم :

عدنان الشّيخ عثمان

الإخراج الفنّي :

خالد محمّد ياسين علوان



دار اللُّبَاب

للدِّرَاسَاتِ وَتَحْقِيقِ التُّرَاثِ

تركيا ـ اسطنبول ـ الفاتح ـ اسكندر باشا ـ كزتاش ـ مفرق بنك الكويت

مقابل مستشفى الفاتح ـ بناء رقم ٧ ـ ط ٥

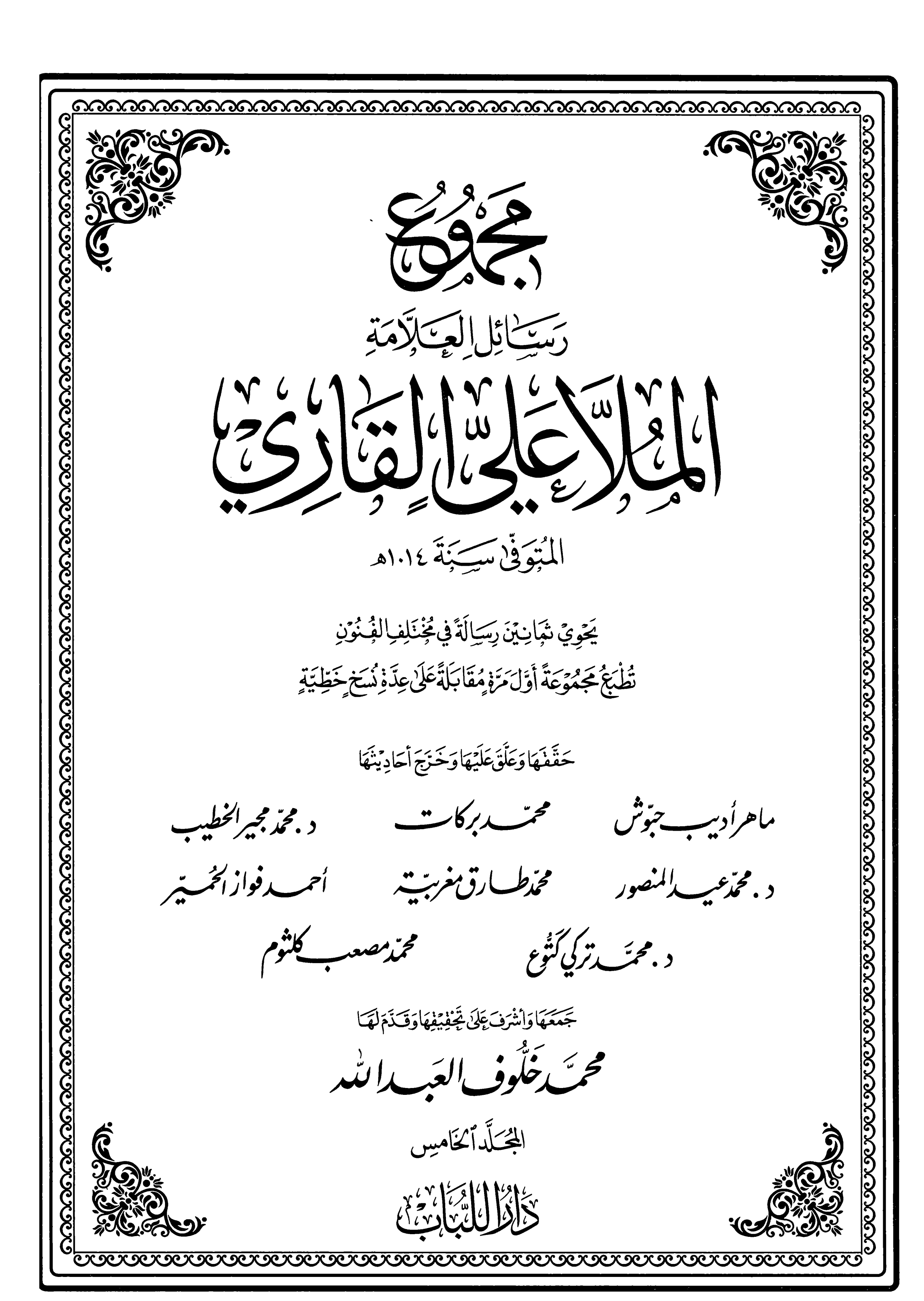
İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

Tel: 00902125255551 - Mob: 00905454729850

Www.allobab.com - Email: info@allobab.com





مجموع

رسائل العلامة

الملا علي القاري

المتوفى سنة ١٠١٤هـ

يحوي ثمانين رسالة في مختلف الفنون

تطبع مجموعة أول مرة مقابلة على عدة نسخ خطية

حققها وعلق عليها وخرج أحاديثها

ماهر أديب حبوش — محمد بركات — د. محمد مجير الخطيب

د. محمد عيد المنصور — محمد طارق مغربية — أحمد فواز الحمير

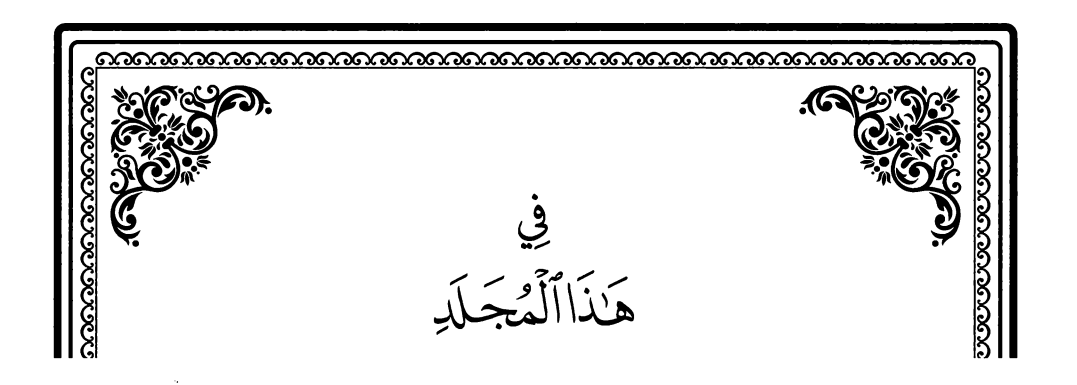
د. محمد تركي كتوع — محمد مصعب كلثوم

جمعها وأشرف على تحقيقها وقدم لها

محمد خلوف العبد الله

المجلد الخامس

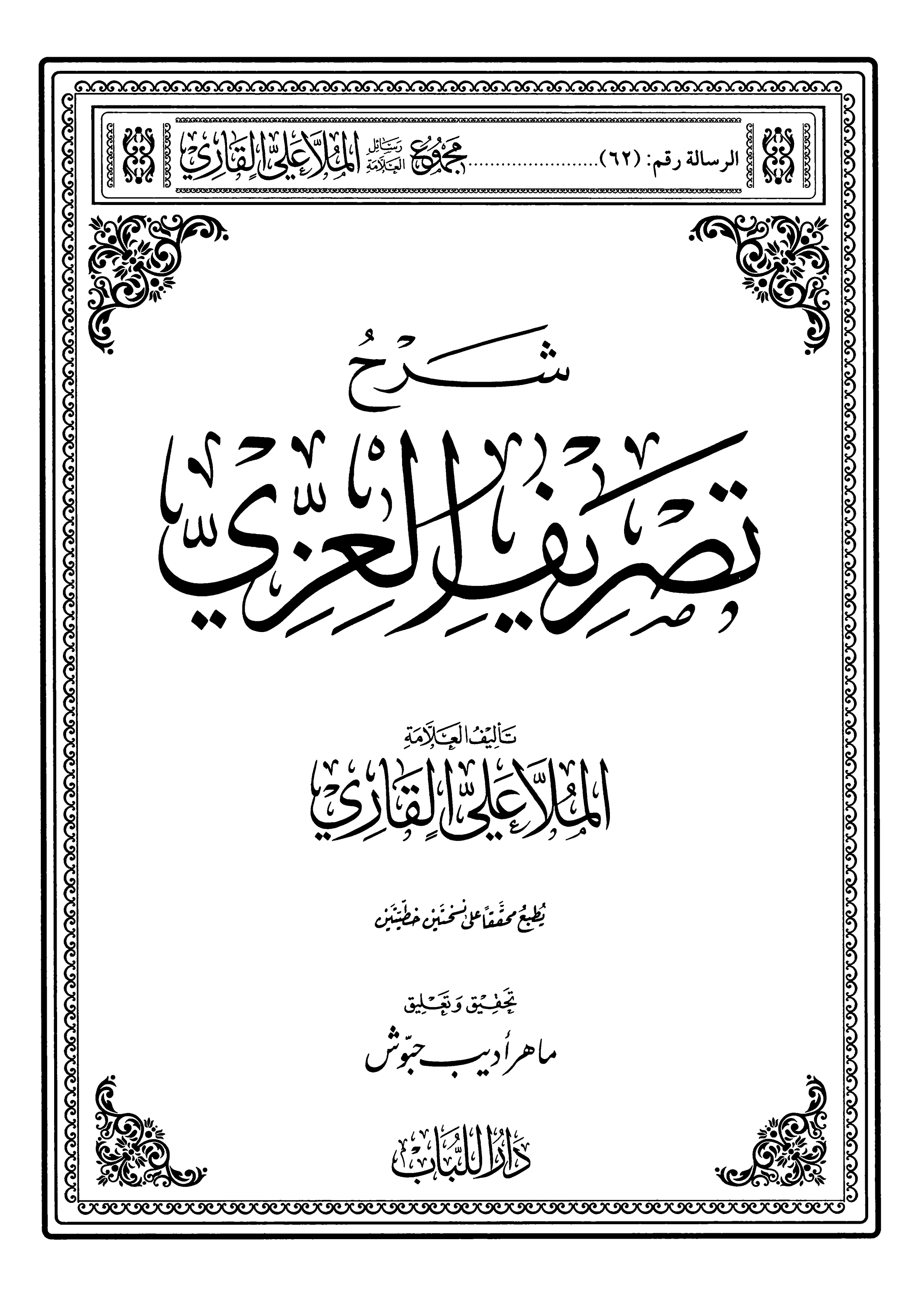
دار اللباب



في هَذَا ٱلْمُجَلَّدِ

الموضوع	الصفحة

***



مجموع رسائل العلامة الملا علي القاري .... الرسالة رقم: (٦٢)

شرح تصريف العزي

تأليف العلامة
الملا علي القاري

يطبع محققاً على نسختين خطيتين

تحقيق وتعليق
ماهر أديب حبوش

دار اللباب



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لمن يستحقه في الاولى والاخرى * في جميع الامكنة والازمان * ويجب صرف عنان الشكر الى نحو ثنائه بالاولى والاحرى * في اللسان والجنان * والصلوة والسلام الاتمان * على محمد عبده ورسوله الجامع لبديع المعاني والبيان * وعلى آله واصحابه * واتباعه واحبابه * المنعوتين بكمال الايمان * وجمال الايقان * اما بعد * فيقول الواثق بربه الباري علي بن سلطان محمد القاري ان هذا تعليق لطيف وتحقيق طريف يحل بعض المشكلات من جهة المبنى او المعنى في الكلمات المعضلات المنسوبة الى العلامة الرباني والفهامة الصمداني عز الملة والدين عبد الوهاب الزنجاني عملا بما في قوله تعالى * ولكن كونوا ربانيين * وقد فسر بانهم الذين يربون الناس بصغار العلوم قبل كبارها وقد قيل ان الخلق ما حرموا الوصول الا بترك الاصول والاشتغال بالفضول ومن المعلوم ان اصل العلوم ومدار اساسها علم اللغة وما يتعلق بها من جزئيها وكليها نبراسها فان به يتضح معاني الكتاب والسنة التي هي اصل المعرفة وفصل لباسها * قال * رضي الله تعالى عنه (اعلم) مخاطبا خطاب العام * لطالب هذا المرام * كما قال تعالى * فاعلم انه لا اله الا الله * خطابا

لمن

﴿ ٣ ﴾

لمن هداه * الى الاعراض عما سواه * وقد سد مسد مفعوليه قوله (ان التصريف في اللغة التغيير) واختاره على الصرف في المبنى وان كان هو اخصر ويشاركه في المعنى لانه قصد فيه التكثير كما في قوله تعالى * وتصريف الرياح * اي تغييرها جهة وصفة فتارة من اليمين واخرى من اليسار ونحو ذلك مرة حارة واخرى باردة ورخاوة وعاصفة كما يقتضي هنالك والمراد باللغة لسان العرب فانه ميزان الادب لقوله تعالى * وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه * ولما ورد * احبوا العرب لثلاث لاني عربي وكلام الله عربي ولسان اهل الجنة في الجنة عربي * (وفي الصناعة) بكسر الصاد وهي في اللغة حرفة الصانع وعمله الصنعة اعم من ان يكون حسيا او معنويا والمراد بها ههنا اصطلاح الصرفيين (تحويل الاصل الواحد) اي نقل المصدر على قول الاكثر والوجه المعتبر (الى امثلة مختلفة) اي ابنية متفاوتة وهيأت مؤتلفة من الماضي والمضارع واسمي الفاعل والمفعول والجحد والنفي والامر والنهي وامثالها على وجه تفصيلها واجمالها ثم اشار الى فائدة هذا التحويل الشريف * ونتيجة هذا التبديل المنيف * حيث علله بقوله (لمعان مقصودة) اي لاجل حصول مطالب مرادة في مقام وصول (لا تحصل) اي تلك المعاني المقصودة (الا بها) اي الا في ضمن الامثلة المختلفة المورودة وبيانه ان المصدر الذي هو الاصل من الضرب والنصر وغيرهما يشمل ما صدر عن واحد او اثنين او جماعة سواء يكون متكلما او غائبا او مخاطبا معلوما او مجهولا يستوي كونه في الزمان الماضي والحال والاستقبال او في لباس الجحد او النفي او بطريق الامر او النهي فلا بد من اختلاف المباني ليستفاد منه تفاوت المعاني * ثم اعلم ان اللغة بحر عميق لا يمكن الاحاطة بجميع اجزائه الا لمن اطلعه الله عليه من اهل اصطفائه الا ان في هذه المقدمة في معرفة اللغة العربية بيان بعض القواعد الكلية يستخرج منها الامثلة الجزئية وقد اشار المص الى وجه الارتباط الصوري بين المعنى اللغوي والاصطلاحي وافاد ان اللغوي هو المعنى الاعم والاصطلاحي هو المعنى الاخص الاتم كما في سائر الاصطلاحات الشرعية والاعتبارات العرفية فالصوم مثلا هو مطلق

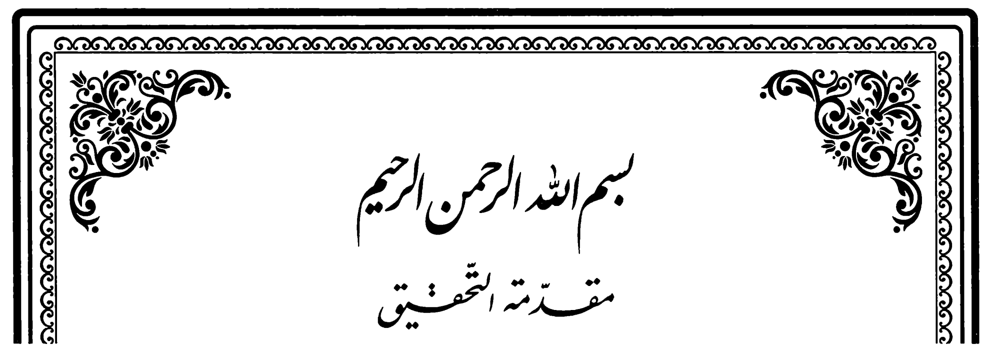
دار الطباعة العامرة (ط)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه

الحمد لمن يستحق في الاولى والاخرى في جميع الامكنة والازمان ويجب صرف عنان الشكر الى نحو ثنائه بالاولى والاخرى في اللسان والجنان والصلوة والسلام الاتمان على محمد عبده ورسوله الجامع لبديع المعاني والبيان وعلى آله واصحابه واتباعه واحبابه المنعوتين بكمال الايمان وجمال الايقان اما بعد فيقول الواثق بربه الباري علي بن سلطان محمد القاري ان هذا تعليق لطيف وتحقيق طريف يحل بعض المشكلات من جهة المبنى والمعنى في الكلمات المعضلات المنسوبة الى العالم الرباني والفهامة الصمداني عز الملة والدين عبد الوهاب الزنجاني عملا بما في قوله تعالى ولكن كونوا ربانيين وقد فسر بانهم الذين يربون الناس بصغار العلوم قبل كبارها وقد قيل ان الخلق ما حرموا الوصول الا بترك الاصول والاشتغال بالفضول ومن المعلوم ان اصل العلوم ومدار اساسها علم اللغة وما يتعلق بها من جزئيها وكليها نبراسها فان به يتضح معاني الكتاب والسنة التي هي اصل المعرفة وبه فصل لباسها قال رضي الله عنه اعلم مخاطبا خطاب العام لطالب هذا المرام كما قال تعالى فاعلم انه لا اله الا الله خطابا لمن هداه الى الاعراض عما سواه وقد سد مسد مفعوليه قوله ان التصريف في اللغة التغيير واختاره على الصرف في المبنى وان كان هو اخصر ويشاركه في المعنى اذ قصد فيه التكثير كما في قوله تعالى وتصريف الرياح اي تغييرها جهة وصفة فتارة من اليمين واخرى من اليسار ونحو ذلك مرة حارة واخرى باردة ورخاوة وعاصفة كما يقتضي هنالك والمراد باللغة لسان العرب فانه ميزان الادب لقوله تعالى وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ولما ورد احبوا العرب لثلث لاني عربي

وكلام الله تعالى عربي ولسان اهل الجنة في الجنة عربي وفي الصناعة بكسر الصاد وهي في اللغة حرفة الصانع وعمله الصنعة اعم من ان يكون حسيا او معنويا والمراد بها ههنا اصطلاح الصرفيين تحويل الاصل الواحد اي نقل المصدر على قول الاكثر والوجه المعتبر الى امثلة مختلفة اي ابنية متفاوتة وهيئات مؤتلفة من الماضي والمضارع واسمي الفاعل والمفعول والجحد والنفي والامر والنهي وامثالها على وجه تفصيلها واجمالها ثم اشار الى فائدة هذا التحويل الشريف ونتيجة هذا التحويل المنيف حيث علله بقوله لمعان مقصودة اي لاجل حصول مطالب مرادة في مقام وصول لا تحصل الا اي تلك المعاني المقصودة الا بها اي الا في ضمن الامثلة المختلفة الموردة وبيانه ان المصدر الذي هو الاصل من الضرب والنصر وغيرهما يشمل ما صدر عن واحد او اثنين او جماعة سواء يكون متكلما او غائبا او مخاطبا معلوما او مجهولا يستوي كونه في الزمن الماضي والحال والاستقبال او في لباس الجحد او النفي او بطريق الامر والنهي فلا بد من اختلاف المباني ليستفاد منه تفاوت المعاني ثم اعلم ان اللغة بحر عميق لا يمكن الاحاطة بجميع اجزائه الا من اطلعه الله تعالى عليه من اصطفائه الا في هذه المقدمة في معرفة اللغة العربية بيان بعض القواعد الكلية يستخرج منها الامثلة الجزئية وقد اشار المص الى وجه الارتباط الصوري بين المعنى اللغوي والاصطلاحي هو المعنى الاخص الاتم كما في الاصطلاحات الشرعية والاعتبارات العرفية فالصوم مثلا هو مطلق الامساك وشرعا امساك خاص هنالك وكذلك الجمع والنكاح وامثال ذلك وبلسان الاشارة وبيان البشارة ان الله تعالى سبحانه مظهر الاسماء والصفات ومظهر الافعال والمصنوعات فهو المصدر الحقيقي القصد الذي بدؤ منه ويرجع اليه الامر فليس في الكون غير ذاته وصفاته وافعاله ومكوناته ومن هنا قال بعض الابرار ليس في الدار غيره ديار ثم الفعل عطف على اسم ان وهو بكسر الفاء وفتحها

مكتبة قونية (و)



الحمدُ للهِ الذي صَرَّف قلوبَ العِبَادِ على نَحو ما أَرَاد، والصَّلاةُ والسَّلام على النبيِّ الأمين، سيِّد الأنبياءِ والمرسَلِين، وعلى آلِهِ الطَّيِّبين، وأصحابِهِ الأتقياءِ المُجاهِدِين، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

وبعدُ:

فإنَّ القرآنَ هو كتابُ اللهِ الذي أَنزلَهُ على خاتَمِ المُرْسَلين، ليكونَ المنهاجَ الواجِبَ اتِّباعُهُ على الناسِ أجمَعِين، كما أَنَّهُ المُعجزةُ العُظْمَى التي تَحدَّى بها الخَلْقَ جميعاً إلى يومِ الدِّين، فلا غَرْوَ أنْ جَعَلَ أشرفَ العلومِ تَعَلُّمَ هذا الكتابِ العَظيمِ الوَصْف، الذي أُنْزِلَ بلُغةِ العربِ وعلى قواعِدِها في اللُّغةِ والنَّحوِ والصَّرْف، وأسلوبِها في المَجَازِ والبيان.

فعلومُ اللُّغةِ هي المِرقاةُ لفَهْمِ هذا الكتابِ المُعْجِزِ، ومعرفةِ ألفاظِهِ ومَعَانِيه، وفَهْمِ تَراكيبِهِ ومَبَانِيه، وتَلَمُّسِ إشاراتِهِ ومَجازِهِ.

فمَن أرادَ العيشَ في حدائقِ حقائقِ هذا الكتاب، والنُّزولَ في مَرابِعِ دَقائِقِه، فلا بدَّ لهُ مِن الإلمامِ بقواعِدِ علومِ اللُّغةِ مِن نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ، وليسَ المرادُ التَّعَمُّقَ فيها والإحاطةَ بجميعِ فُروعِها، بل أنْ يأخُذَ المؤمِنُ مِن كلٍّ مِنْها بقسطٍ يمكِّنُه مِن الوصولِ إلى الغايةِ المنشودَة، وهي تَفَيُّؤُ ظلالِ هذا الكتابِ العظيم، والعملُ بمقتضَاهُ مِن تحليلٍ وتحريم، ليكونَ ذلك طريقاً إلى بلوغِ السَّعادةِ في الدُّنيا، والفوزِ بالنَّعيمِ في العُقْبَى.

وإذا كان عِلْمُ النَّحو هو السَّبيلُ لفهمِ العِبارة، وعِلْمُ البلاغَةِ به تُعرَفُ الإشارَة، فإنَّ عَلْمَ الصَّرف لهما كالأُسِّ للعِمارَة.

فما انْتَظَمَ عِقدُ علمٍ إلَّا والصَّرْفُ واسطتُهُ، ولا ارْتَفَعَ مَنارُه إلَّا وهو قاعِدَتُه، إذ هو إحدَى دعائمِ الأدب، وبه تُعرفُ سعَةُ كلامِ العرب، وتَنْجَلي فرائدُ مفرداتِ الآياتِ القرآنيَّة، والأحاديثِ النَّبَويَّة، وهما الواسطةُ في الوصولِ إلى السَّعادةِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة(١).

فبه مثلاً يُعلَمُ كيفَ أصبحَ معنَى ﴿دَسَّىٰهَا﴾: أَخْفاها؛ لأنَّه مِن: دَسَّسَها، قُلِبَتِ السِّينُ أَلِفاً كراهةَ اجتماعِ ثَلَاثِ سِيْناتٍ، وهو بحثٌ صَرْفيٌّ صِرْفٌ.

ومِن ذلك أيضاً يُفهم لماذا لَمْ تُؤنَّثْ كلمة ﴿قَرِيبٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وكذلك مَثَلاً عندَما يُعرَفُ البناءُ الصَّرْفيُّ لاسْمَي اللهِ سبحانه: الرَّحمنِ والرَّحيمِ، يُفْهَمُ سَبَبُ اختلافِ العلماءِ في أيِّهما أبلغُ.

ومِن مباحِثِ عِلْمِ الصرفِ معرفةُ الفَرْقِ في المَعَاني نتيجةَ اختلافِ المَبَاني للأفعالِ عندَ تَصْرِيفِها، وكيفيَّةُ التَّمييزِ بينَها؛ كفِعْلِ (سَلِمَ) الثُّلاثيِّ مَثَلاً، كيف أَصْبحَ (أَسْلَمَ) في الرُّباعيِّ بزيادةِ الهمزةِ، و(سالَمَ) الرُّباعيِّ بزيادةِ الألِفِ، و(سَلَّمَ) الرُّباعيِّ بالتَّضعيفِ، و(اسْتَلَمَ) الخُمَاسيِّ بزيادةِ الهمزةِ والتَّاء، و(اسْتَسْلَمَ) السُّداسيِّ بزيادةِ الهمزةِ والسِّينِ والتَّاءِ.

فانْظُرْ كيفَ تَصَرَّفَ هذا الفعلُ واخْتَلَفَتْ مَعانِيهِ بالزَّوائد، مع أنَّ الأصلَ في الجميعِ واحد.

---

(١) انظر: «شذا العرف في فن الصرف» (ص ٩).

وقد يَبْقَى المعنَى الأصليُّ لكنْ مع زيادةِ إفادَة، حَسْبَ القاعدةِ المعروفةِ مِن أنَّ زيادةَ المبنَى تُؤدِّي إلى زيادةِ المعنَى في العادَة، وهذه القاعدةُ مِن القواعدِ الـمُتَدَاوَلةِ عندَ المفسِّرينَ والبَلَاغيِّين، في بيانهم بلاغةَ القرآنِ وسرَّ نَظْمِهِ الـمَتين.

وقد صَنَّفَ العلَّامةُ الفاضِل، والعالِـمُ العامِل، قدوةُ المحقِّقين، عبدُ الوهَّاب ابنُ إبراهيمَ بنِ عبدِ الوهَّابِ الملقَّبِ بعِزِّ الدِّينِ، أبو الـمَعَالي الخَزْرَجيُّ الزَّنجانيُّ، مختصرهُ الـمُسمَّى: «تصريف العِزِّي»، الذي يُعَدُّ مِن أنفسِ الـمُخْتَصَراتِ في هذا الفَنِّ وأسدِّها، عارياً مِن الحشوِ والإكثار، كثيرَ الـمَعاني رَغْمَ الإيجازِ والاخْتِصَار، فلا عَجَبَ أنْ نال مِن العلماءِ القَبول، فأَقْبَلوا عليه يَشْرَحونَ مسائلَه ويُذلِّلونَ صِعَابَه[1].

ومِن أهمِّ ما كُتِبَ مِن الشُّروحِ عليهِ، هو شرحُ العلَّامةِ الرَّبَّانيّ سعدِ الدِّين التَّفْتازانيّ، فقد ذَكَرَ في خُطبتهِ: أنَّه لـمَّا رأى تَصْريفَ العِزِّيِّ مختصَراً يَنْطَوِي على مباحِثَ شَرِيفَة، ويَحْتَوِي على قواعِدَ لَطِيفَة، سَنَحَ له أنْ يَشْرحَهُ شرحاً يُذلِّلُ مِن اللَّفظِ صِعَابَه، ويَكْشِفُ عن وجهِ المعاني نِقَابَه..، مُضيفاً إليهِ فوائدَ شَرِيفة وزَوائِدَ لَطِيفة... إلى آخِرِ ما قال. وهذا الشرحُ هو مِن أهمِّ المراجِعِ التي اعْتَمَدَها مؤلِّفُ هذا الكتابِ كما سَيَرِدُ.

وقد رامَ العلامة القاري ـ رحمهُ اللهُ ـ شرحَ هذا المختصرِ الشَّرِيف، فكَتَبَ عليهِ هذا الشَّرحَ اللَّطِيف.

وهو كتابٌ مُفيد، خالٍ مِن الصُّعوبةِ والتَّعقيد، قال المؤلِّفُ عنهُ في خُطْبتهِ: إنَّ هذا تَعليقٌ لطيفٌ وتحقيقٌ طَرِيفٌ، يَحُلُّ بعضَ الـمُشْكلات، مِن جهةِ الـمَبْنَى أو الـمَعْنَى في الكَلِماتِ الـمُعْضِلات، الـمَنْسوبةِ إلى العلَّامةِ الرَّبَّانيِّ والفهَّامَةِ الصَّمَدانيِّ، عِزِّ الـمِلَّةِ والدِّينِ عبدِ الوَهَّابِ الزَّنجانيِّ...

---

(١) انظر ما كتب عليه من شروح في «كشف الظنون» (٢/ ١١٣٩ ـ ١١٤٠).

ثُمَّ إنَّ هذا الكتابَ لسهولةِ ألفاظِهِ، وشدَّةِ تبسيطهِ للموضُوعات، مع الشَّرحِ الوافي لها وحَلِّ الـمُشْكلات، إضافةً لِـمَا تَزَيَّن به مِن جمالِ التَّركيبات، الـمُطعَّمةِ بشيءٍ مِن السَّجْعِ في نهايةِ الفقَرات، ما يَجْعلُ القارئَ يستمتعُ بقراءتِهِ ولا يَمَلُّهُ = لَيُعَدُّ مِن أحسنِ الـمَراجِعِ لطلابِ العلمِ وحتَّى المبتدِئِين فيه، وكذا لِـمَن أرادَ مَعرفةَ كُنْهِ هذا الفَنِّ وفَهْمَ مَرَامِيه.

وقد اعْتَمدَ المؤلِّفُ في شَرْحهِ كثيراً على شرحِ التَّفْتازانيِّ، كما يَظْهَرُ مِن تشابُهِ المسائِلِ وتَقَارُبِ العِبَارات، بل حتَّى تَطابُقُ الألفاظِ والنُّقولِ في أكثرِ الحالات، لكنْ كونُه مِن أئمَّةِ التَّحقيق، كان يتعقَّبُه أحياناً إنِ اضْطرَّهُ لذلك التَّدْقيق، كما تَعَقَّبَهُ في وجهِ اختيارِ قَلْبِ تاءِ افْتَعَلَ طاءً إذا كانَتْ فاؤُه حرفَ إطْباقٍ، فقال: واخْتِيرَ الطَّاءُ لاتِّحادِهما مَخْرَجاً، لا لقُرْبِهما كما وَهِمَ التَّفْتازانيُّ.

كما نبَّهَ على وَهْمِهِ في الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، حيث وَقَعتْ في شرحِ التفتازانيِّ بلفظ: (إنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي مِن الحَقِّ).

وخالَفَهُ في موضعٍ آخَرَ فقال: وأمَّا حذفُ الهمزةِ مِن نحوِ: خُذْ، فوَقَعَ على خلافِ القياسِ، وليسَ كما ظَنَّهُ العلَّامةُ التَّفتازانيُّ...

بل تَشدَّدَ في موضعٍ فقال: وقد ثَبَتَ في حديثٍ: «اتَّزَرَ» مِن ائْتَزَرَ، فقولُ السَّعْدِ: إنَّ التَّشديدَ خطأٌ، فاسِدٌ يُخْشَى عليه؛ لأنَّ سَنَدَ المحدِّثِينَ أقوَى مِن سَنَدِ اللُّغَوِيِّين.

وثمةَ أمثلةٌ أُخرى ستَجِدُها في خلالِ الكتابِ إن شاء الله.

ومِن الـمُلاحَظِ في هذه الحاشيةِ حُسْنُ السَّبْكِ وسهولةُ الانتقالِ بينَ المتنِ والشَّرْحِ، بحيثُ لا يَشْعرُ القارئُ بوجودِ متنٍ وشرحٍ، بل الجميعُ في سياقٍ مُتَّصلٍ مُترابِطٍ كأنَّهُ نصٌّ واحدٌ، ثُم إذا خَرَجَ أحياناً عن الموضوعِ الأصليِّ، فإنَّه يعودُ ويمهِّدُ لنصِّ المتنِ كي لا يَظْهَرَ في الكلامِ نوعُ انْقِطاع. وكلُّ ما في الكتابِ شاهِدٌ على هذا، ولْيُراجَعْ في ذلك كلامهُ عن همزةِ الوصلِ..

كما يُلاحَظُ حُسْنُ تَقْييداتِهِ التي بها يَتوضَّحُ الكلامُ ويُعْرفُ الـمَرَام، كما في الكلامِ على ما يَلْحَقُ الفعلَ المضاعَفَ، حيثُ جاء ما بينَ متنٍ وشرحٍ: (**والحذفُ**)؛ أي: ويَلْحَقُه أيضاً حَذْفُ شيءٍ مِن حروفِ أُصولِهِ؛ (**كقولِهم: مسْتُ وظلْتُ**) بسكونِ السِّينِ واللَّامِ، وقولُه: (**بفَتْحِ الفاءِ**)؛ أي: فاءِ الفعلِ وهو الميمُ والظَّاءُ (**وكَسْرِها، وأَحَسْتُ**) بسكونِ السِّين؛ (**أي: مَسِسْتُ**) بكسرِ السِّينِ الأُولى، وهي اللُّغةُ الفَصيحةُ، ومُضارِعُه بفَتْحِها.

وقد اتَّبَعَ المؤلِّفُ أسلوباً فريداً في هذا الكتابِ، حيث إنَّه كلَّما أَنْهَى موضوعاً مِن المواضِيعِ يَذْكُرُ بعضَ الخَواطرِ مِن كلامِ أهلِ الإشاراتِ التي لها نوعُ ارتباطٍ ولو لفظيًّا مع الموضوعِ المذكور، ولَمْ أجِدْ لهُ في هذا الأسلوبِ سلفاً ولا خَلَفاً في عِلْمِ الصَّرفِ، اللَّهُمَّ إلَّا ما كانَ مَن بعضِهم في التفسيرِ كالنَّيسابوريِّ والآلوسيِّ.

ومِن المآخِذِ التي يُمْكِنُ أنْ تُذْكرَ على المؤلف: الشَّرحُ في مَوَاطِنَ المعنَى فيها ظاهرٌ واضحٌ ولا تَحتاجُ إلى الشرحِ البتةَ:

ومِن ذلك قولُ المتنِ: (**أمَّا الماضي**) فقال المؤلِّفُ: (أي: مِن الأفعال).

وقريبٌ منهُ ما جاءَ في المتنِ من قولِهِ: (**فالمَبْنيُّ للفاعلِ منهُ**) فقال المؤلف: (أي: مِن الماضي؛ أي: الفعل الماضي). فالعبارة الأولى كافية في المراد، ولا لزوم للثانية البتة.

وانْظُر كذلكَ الكلامَ في حذفِ لامِ الفعلِ النَّاقصِ، حيثُ مَثَّلَ ببعضِ الأفعالِ، فجاء بجميعِ تَصريفاتها متَّصِلةً مع الضَّمائرِ، مع أنَّ ذِكْرَ البعضِ يُغني عن الباقِي.

كما لا يَخْلُو الأمرُ مِن بعضِ الملاحَظاتِ الأخرى، كنِسْبتِهِ لابنِ مالكٍ القولَ بأنَّ لامَ الابتداءِ تُخلِّصُ المضارعَ للحال، في حينِ أنَّ ابنَ مالكٍ في «شرح التسهيل» قد ردَّ على مَن قال بهذا القَولِ.

وكذا في تخريجهِ لحديثِ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ عن وَدْعِهِمُ الجَماعاتِ...» عزاهُ لأحمدَ ومسلمٍ وغيرِهما مِن حديثِ ابنِ عباسٍ وابنِ عُمرَ موقوفاً، والصَّوابُ أنَّه عندَ جميعِ مَن ذَكَرَهم مرفوعٌ مِن حديثِهما، لكنَّهُ عندَ مسلمٍ من حديثِ ابنِ عمرَ وأبي هريرةَ، ما يَدُلُّ على أنَّ المؤلِّفَ مع سعةِ علمِهِ ودِقَّةِ نُقولِهِ لَمْ يَنظُرِ الحديثَ في هذهِ الكتبِ التي خَرَّجهُ مِنها، ولعلَّه نَقَلَه بالواسطةِ.

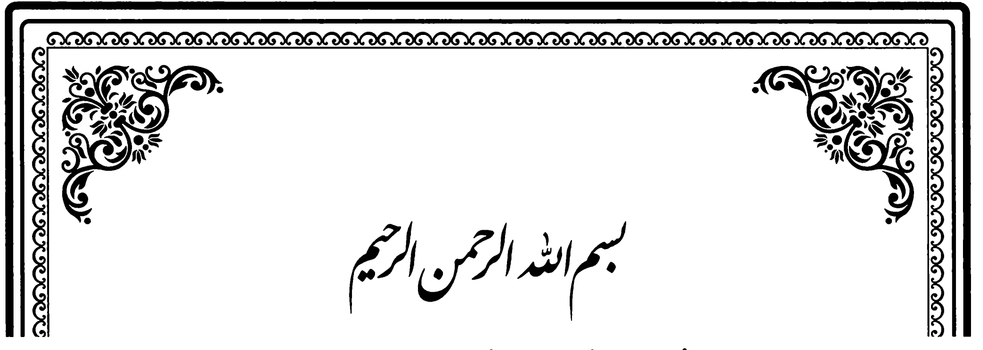
لكنَّ ما ذُكِرَ لا يَغُضُّ مِن فضلِ هذا الكتابِ، الذي كَثُرتْ فوائدُه واتَّسَعَتْ عوائدُه، لكنْ في قالَبٍ مِن الاختصار، وتَجَنُّبِ الحَشْوِ والتَّكرار.

وقد اعْتَمَدْنا في تحقيقِ هذا الكتابِ على نسخةٍ خطيَّةٍ وحيدة، ومطبوعة قديمة فريدة، فالنسخةُ هي نسخةُ قونية، ورَمَزْنا لها بـ «و»، والمطبوعةُ هي مِن نوادرِ دار الطِّباعةِ العامرةِ التي طُبعت سنةَ (١٢٨٩هـ)، لكنَّها كثيرةُ التَّحريفاتِ، أَشَرْنا لبعضِها في الحواشي، وأَضْربْنا عن الكثيرِ ممَّا لا لُزومَ لذِكْرِه، كما أنَّه خالٍ من الضَّبْطِ تماماً، وهو أمرٌ لا يُقْبَلُ في علمٍ يَعْتمدُ على الضَّبطِ أساساً، وقد رمزها لها بـ «ط».

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين

المحقق

* * *



الحمدُ لمَنْ يَسْتحِقُّه في الأُولَى والأُخْرَى في جَميعِ الأمكنةِ والأَزْمان، ويَجبُ صرفُ عنانِ الشُّكْرِ إلى نحوِ ثَنَائِهِ بالأَوْلَى والأَحْرَى في اللِّسانِ والجَنَان، والصَّلاةُ والسَّلامُ الأَتَمَّان، على محمَّدٍ عبدِهِ ورسولِهِ الجامِعِ لبَديعِ المَعَاني والبَيَان، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ وأتباعِهِ وأحبَّائِهِ الـمَنْعوتينَ بكمالِ الإيمانِ وجمالِ الإيقان.

أما بعد:

فيقولُ الواثِقُ بربِّهِ الباري عليُّ بنُ سلطانِ محمدٍ القارِيْ: إنَّ هذا تَعليقٌ لطيفٌ وتحقيقٌ طَريفٌ يَحُلُّ بعضَ المُشْكلاتِ مِن جهةِ الـمَبْنَى أو المَعْنَى في الكَلِماتِ المُعْضِلات، المَنْسوبةِ إلى العلَّامةِ الرَّبَّانيِّ والفهَّامَةِ الصَّمَدانيِّ، عِزِّ المِلَّةِ والدِّينِ عبدِ الوَهَّابِ الزَّنجانيِّ، عَمَلاً بما في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقد فُسِّرَ بأَنَّهم الذين يُرَبُّونَ النَّاسَ بصغارِ العُلومِ قبلَ كِبَارِها.

وقد قيل: إنَّ الخَلْقَ ما حُرِموا الوُصول إلَّا بتَرْكِ الأُصولِ والاشتِغَالِ بالفُضُول.

ومِن المعلومِ أنَّ أصلَ العلومِ ومدارَ أساسِها عِلْمُ اللُّغةِ وما يَتعلَّقُ بها مِن جُزْئيِّها وكُلِّيِّها[1] نِبْراسُها[2]، فإنَّ بهِ يتَّضِحُ معاني الكتابِ والسُّنَّة التي هي أصلُ المعرفةِ وفَصْلُ لِبَاسِها.

***

---

(١) في «و»: «جزئيتها وكليتها».

(٢) في هامش «و»: «النبراس: المصباح».

[تَعريفُ عِلْمِ الصّرْفِ]

(قـال) رضـي الله تعالـى عنـه: (اعْلَـمْ) مُخاطِبـاً خطـابَ العـامِّ لطالـبِ هـذا المَـرَام؛ كمـا قـال تعالـى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمـد: ١٩] خطابـاً لِمَـن هَدَاهُ إلـى الإعـراضِ عمَّا سِـوَاه.

وقد سَدَّ مَسَدَّ مفعولٍ به قولُه: (أنَّ التَّصْريفَ في اللُّغة: التَّغييرُ) واختارَهُ على الصَّرْفِ في المَبْنَى وإنْ كانَ هو أَخْصَرَ ويُشارِكهُ في المَعْنى؛ لأَنَّهُ قَصَدَ فيه التَّكثيرَ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ أي: تغييرِها جِهَةً وصِفةً، فتارَةً مِن اليَمينِ وأُخرى مِن اليَسارِ ونحو ذلك، مرَّةً حارَّةً وأُخْرَى باردةً، ورَخَاوَةً وعاصِفَة، كما يَقْتَضِي هنالك.

والمـرادُ باللُّغةِ: لسـانُ العَربِ؛ فإنَّهُ مِيـزانُ الأَدَبِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ [إبراهيـم: ٤]، ولِمَـا وَرَدَ: «أَحِبُّـو العَـرَبَ لثَلَاثٍ: لأنِّي عَرَبـيٌّ، وكلامُ اللهِ عَرَبـيٌّ، ولسـانُ أهلِ الجنَّةِ في الجنَّـةِ عَرَبِّي»[١].

(وفي الصِّناعةِ): بكَسْرِ الصَّاد[٢]، وهي في اللُّغةِ: حِرْفَةُ الصَّانعِ وعَمَلُه الصَّنْعَةَ، أعمُّ مِن أنْ يكونَ حِسِّيّاً أو معنويّاً، والمراد بها هاهنا: اصْطِلاحُ الصَّرْفيِّينَ.

(تَحْويلُ الأصلِ الواحِدِ)؛ أي: نَقْلُ المصدرِ على قولِ الأكثرِ والوجهِ الـمُعْتبَر.

(إلـى أَمْثِلـةٍ مختلِفـةٍ)؛ أي: أبنيـةٍ متفاوِتـةٍ، وهيئـاتٍ مُؤْتلفـةٍ؛ مِـن الماضـي، والمُضـارِعِ، واسْـمَي الفاعِـلِ والمفعـولِ، والجَحْـدِ والنَّفْـي، والأَمْـرِ والنَّهْـي، وأمثالِهـا، علـى وَجْـهِ تفصيلِهـا وإجمالِــها.

---

(١) رواه العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٣٤٨)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٣٤٨). قال العقيلي: منكر لا أصل له. وقال الذهبي في «الميزان» ترجمة العلاء بن عمرو الحنفي: هذا موضوع، قال أبو حاتم: هذا كذب.

(٢) تحرفت في «ط» إلى: «الصناعة»، والمثبت من «و».

ثُمَّ أشارَ إلى فائدةِ هذا التَّحويلِ الشَّريف، ونَتيجةِ هذا التَّبْديلِ الـمُنِيف، حيث علَّلَهُ بقوله: (**لِمَعانٍ مَقْصودةٍ**)؛ أي: لأَجْلِ حصولِ مَطالِبَ مُرادةٍ في مَقامِ وُصولٍ (**لا تَحْصُلُ**)؛ أي: تلكَ الـمَعاني الـمَقْصودةُ (**إلَّا بها**)؛ أي: إلَّا في ضِمْنِ الأمثلةِ المختلفةِ المورودة[١].

وبيانُهُ: أنَّ المَصْدَرَ الذي هو الأصلُ مِن الضَّرْبِ والنَّصْرِ وغيرِهما يَشْمَلُ ما صَدَرَ عن واحدٍ أو اثْنَيْنِ أو جماعةٍ، سَواءٌ يكونُ مُتكلِّماً أو غائباً أو مخاطَباً، معلوماً أو مجهولاً، يَستوي كونُهُ في الزَّمانِ الماضي والحالِ والاستِقْبال، أو في لِبَاسِ الجَحْدِ أو النَّفْي، أو بطَريقِ الأمرِ أو النَّهْي، فلا بدَّ مِن اختِلَافِ المَبَاني لِيُستفادَ منهُ تَفَاوُتُ المَعاني.

ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ اللُّغةَ بحرٌ عميقٌ لا يُمكِنُ الإحاطةُ بجميعِ أجزائِهِ إلَّا لِـمَن أَطْلعهُ اللهُ عليهِ مِن أهلِ اصْطِفائِه، إلَّا أنَّ في هذهِ المقدِّمةِ في مَعرفةِ لُغةِ العربيَّةِ بيانَ بعضِ القواعِدِ الكُلِّيَّةِ يُسْتَخْرَجُ منها الأمثلةُ الجُزْئيَّةُ، وقد أشارَ المصنِّفُ إلى وجهِ الارْتِباطِ الصُّوْريِّ بينَ المعنَى اللُّغَويِّ والاصْطِلاحيِّ، وأفادَ أنَّ اللُّغَويَّ هو المعنَى الأعمُّ، والاصْطِلاحيَّ هو المعنَى الأَخَصُّ الأَتَمُّ، كما في سائرِ الاصْطِلاحاتِ الشَّرعيَّةِ والاعتباراتِ العُرْفيَّةِ، فالصَّومُ مَثَلاً هو مُطْلَقُ الإمساك، وشرعاً: إمساكٌ خاصٌّ هناك، وكذلكَ الحجُّ والنِّكاحُ وأمثالُ ذلك.

هذا، وبلِسانِ الإشارةِ وبَيَانِ البِشارةِ: أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالى مَظْهَرُ الأسماءِ والصِّفات، ومُظْهِرُ الأفعالِ والـمَصْنوعات، فهو المصدرُ الحقيقيُّ القَدْر، الذي يَبْدو منهُ ويَرْجِعُ إليهِ الأَمْر، فليس في الكونِ غيرُ ذاتِهِ وصِفَاتِه، وأفعالِهِ ومكوَّناته.

ومِن هاهُنا قال بعضُ الأبرار: ليس في الدَّارِ غيرُه ديَّار.

***

---

(١) في «و»: «الموردة».

[تقسيمُ الفِعلِ]

(ثُمَّ الفِعْلُ) عطفٌ على اسمِ (أنَّ)، وهو بكسرِ الفاءِ وفتحِها مصدرُ: فَعَلَ يَفْعَلُ، بفتحِ العينِ فيهما، وقد قُرِئَ بهما قولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، إلَّا أنَّ فتحَها شاذٌّ[1]، وكذا وَرَدَ بهما في حديثِ: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ فِعلَ الخَيْراتِ وتَرْكَ الـمُنْكَراتِ»[2].

والمرادُ هنا: كَسْرُ الفاءِ؛ لأنَّهُ اسمٌ لكلمةٍ مَخْصوصةٍ، وهي: ما تَدُلُّ على معنًى في نَفْسِها مُقْترِنٍ بأحدِ الأزمِنَةِ الثَّلاثةِ مِن الماضي والحالِ والاستقبالِ؛ كـ: ضَرَبَ ويَضْرِبُ واضْرِبْ، بخلافِ الاسمِ فإنَّها كلمةٌ دالَّةٌ على معنًى في نَفْسِها غيرِ مُقْترِنٍ بأحدِ الأزمنةِ الثَّلاثةِ؛ كـ: زيدٍ ورَجُلٍ، بخلافِ الحرفِ فإنَّها تَدُلُّ على معنًى في غيرِه؛ نحو: (مِن) و(إلى)، والعَلَاماتُ لهذهِ الكَلِماتِ في مقدِّماتِ النَّحْوِ مِن الـمَعْلومات.

هذا، وفي مَشْرَبِ أهلِ التَّصوُّفِ ومَذْهَبِ أصحابِ التَّعرُّفِ لا يَبْعُدُ أنْ يُقالَ: إنَّ الخَلْقَ كلَّهم بمنزلةِ الحرفِ، ليس لهمُ اسْتِقلالٌ في الحُكْمِ والصَّرفِ، وإنَّما إسنادُهم في الإسناد، هو التَّعلُّقُ بذاتِ اللهِ وأسمائِهِ وأفعالِهِ سبحانهُ في جميعِ الـمُراد.

وإنَّما خَصَّ المصنِّفُ الفعلَ بالذِّكرِ لأنَّ التَّصريفَ فيهِ كثيرٌ، ولمْ يُصرَّفْ مِن الأسماءِ إلَّا قليلٌ؛ كاسْمَي الفاعِلِ والمفعولِ. وأمَّا الحرفُ فلا تَصْريفَ فيهِ أصلاً.

والحاصلُ: أنَّ مفهومَ الفعلِ باعتبارِ ما صَدَقَ عليه (**إمَّا ثُلاثيٌّ وإمَّا رُباعيٌّ**) بضمِّ أوَّلِهما مَنْسوبانِ إلى ثُلَاثَ ورُبَاعَ؛ لأنَّهُ لا يَخْلو مِن أنْ يكونَ حروفُهُ الأَصْليَّةُ ثلاثةً كـ: ضَرَبَ، أو أربعةً كـ: دَحْرَجَ، فالأوَّلُ الثُّلاثيُّ والثَّاني الرُّباعيُّ؛ إذ لَمْ يُبْنَ مِن الفعلِ الخُماسيِّ ـ بخلافِ الاسمِ كـ: سَفَرْجَل ـ ولا الثُّنائيِّ بخلافِ الاسمِ والحرفِ نحو: (مَن) و(مِن).

---

(١) لم أقف على القراءة بفتح الفاء، والقراءة بكسرها هي قراءة العشرة.

(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٣) من طريق أبي قلابة عن ابن عباس مرفوعاً.

(**وكلُّ واحدٍ منهُما**)؛ أي: مِن الثُّلاثيِّ والرُّباعيِّ (**إمَّا مجرَّدٌ**)؛ أي: عن الزائدِ، باقٍ على حُروفهِ الأصليَّةِ كـ: عَلِمَ وسَلْسَلَ، (**أو مَزيدٌ فيهِ**) بأنْ زِيدَ فيهِ على حُروفهِ الأصليَّةِ: إمَّا حرفٌ كـ: أَكْرَمَ وتَدَحْرَجَ، أو حرفانِ كـ: انْقَطَعَ واقْشَعَرَّ، أو ثلاثةٌ كـ: اسْتَغْفَرَ.

وهذا كلُّه بحَسَبِ الاستِقْراء، وفيهِ مِن الإيماءِ إلى أنَّ فِعْلَ اللهِ تعالى: إمَّا مُجرَّدُ عَدْلٍ في حَقِّ الكفَّار، وإمَّا مَزيدُ فضلٍ في حَقِّ الأبرار.

(**وكلُّ واحدٍ مِنهُما**)؛ أي: مِن هذهِ الأربعةِ، وهي: الثُّلاثيُّ المجرَّدُ والمَزيدُ فيهِ، والرُّباعيُّ المجرَّدُ والمَزيدُ فيه، (**إمَّا سالمٌ**) ويُسمَّى صحيحاً، (**أو غيرُ سالمٍ**) ويُسمَّى معتلًّا، وذلك لأنَّهُ إنْ خَلَتْ حروفُ أُصولهِ مِن حُروفِ العلَّةِ والهمزةِ والتَّضعيفِ ـ على ما سيأتي ـ فسالمٌ، وإلَّا فغيرُ سالمٍ، فصارتِ الأقسامُ ثَمانيَةً.

والأمثلةُ: نَصَرَ، وَعَدَ، أَكْرَمَ، أَوْعَدَ، دَحْرَجَ، زَلْزَلَ، تَدَحْرَجَ، تَزَلْزَلَ.

(**ونَعْني**)؛ أي: نُريدُ نحن مَعَاشرَ الصَّرْفيِّينَ، احْترازٌ مِن النَّحْويِّين؛ فإنَّ السالِمَ عندَهم ما ليس في آخِره حرفُ عِلَّةٍ وإنْ وُجِدَ فيه الهمزةُ والتَّضعيفُ.

(**بالسَّالمِ**)؛ أي: بالفعلِ السَّالمِ.

(**ما**)؛ أي: فعلاً[1]، أو الفعلَ الذي (**سَلِمَتْ حروفُه الأصليَّةُ التي**)؛ أي: وهي في الاصْطِلاحِ: الحروفُ التي (**تُقابَلُ بالفاءِ والعينِ واللَّامِ**)؛ أي: الواحدةِ في الثُّلاثيِّ كـ: ضَرَبَ، على زِنَةِ: فَعَلَ، واللَّامَيْنِ في الرُّباعيِّ كـ: دَحْرَجَ، على وَزْنِ: فَعْلَلَ.

والمعنى: أنَّهم جَعَلوا الفاءَ والعينَ واللَّامَ ميزاناً، فكلُّ حرفٍ مِن حُروفِ الكلمةِ وَقَعَ في مُقابَلةِ أحدِ حُروفِ (فَعَلَ) فهو أصلٌ، وما لَمْ يَقَعْ فهو زائدٌ، ويُقابَلُ الحرفُ الزَّائدُ على الأصلِ بلفظِ الزَّائدِ، فيُقابَلُ ضارَبَ على فاعَلَ، وضُورِبَ على

(١) في «ط» و«و»: «فعل»، والصواب المثبت لأنها بدل من «ما» المنصوبة بـ «نعني».

فُوعِلَ، وقَبِيلٌ على فَعِيلٍ، وأَكْرَمَ على أَفْعَلَ، وتَدَحْرَجَ على تَفَعْلَلَ، وإذا حُذِفَ حرفٌ أصليٌّ حُذِفَ في الميزانِ أيضاً، فيقال: وزنُ (كُلْ) على: فُلْ.

(**مِن حُروفِ العلَّةِ**): متعلِّقٌ بـ (سَلِمَتْ)؛ أي: خَلَصَتْ مِن الواوِ والياءِ كـ: وَعَدَ ويَسَرَ، والأَلِفِ المنقلِبةِ عن أحدِهما كـ: قالَ وباعَ، ودَعَى ورَمَى.

(**والهمزةِ**): كـ: أَمَرَ وسَأَلَ وقَرَأَ.

(**والتَّضْعيفِ**)؛ أي: التَّكريرِ لغةً، وأمَّا اصْطِلاحاً فهو على نَوْعين:

تَضعيفٌ في الثُّلاثيِّ: فهو ما يكونُ عينُه ولامُه مِن جنسٍ واحدٍ كـ: مَدَّ وأَعَدَّ.

وتضعيفٌ في الرُّباعيِّ: فهو ما يكونُ في مُقابَلةِ فائهِ ولامِهِ الأَوَّلِ جنسانِ، وكذا في مُقابَلةِ عينِهِ ولامِهِ الثَّانيةِ؛ كـ: زَلْزَلَ ووَسْوَسَ[1].

فتقييدُ الحروفِ بالأصولِ أَخرَجَ عن السَّالمِ نحوَ (ظَلْتُ) بحذفِ أحدِ حَرْفي التَّضعيفِ، فإنَّهُ غيرُ سالمٍ لوجودِ التَّضعيفِ في الأصلِ، وكذا نحوِ (قُلْ) و(بِعْ) و(قِهِ)؛ لوجودِ حرفِ العلَّةِ فيها في الأصلِ، وأَدْخَلَ في السَّالمِ نحوَ أَكْرَمَ واعْشَوْشَبَ واحْمَرَّ فإنَّها مِن السَّالمِ لخُلُوِّ أُصولِـها عمَّا ذُكِرَ.

وهذا التَّقسيمُ شامِلٌ للاسمِ أيضاً، فدَخَلَ في السَّالمِ ما أُبْدِلَ أحدُ حُروفِهِ الصَّحيحةِ الأصليَّةِ حرفَ علَّةٍ؛ كالدِّينارِ أصلُهُ: (دِنَّار) بإدغامِ النُّونِ في النُّونِ، ثمَّ أُبْدِلَتِ النُّونُ الأُولى ياءً للتَّخفيف، والأَنَاسيِّ أصلُهُ: (أَنَاسِين) جمعُ إنسان، أُبْدِلَتِ النُّونُ ياءً ثُمَّ أُدْغِمَتْ فيها، وكقولِ الشَّاعرِ:

---

(١) في «ط» و«و»: «وتوسوس»، والصواب المثبت. انظر: «شرح الألفية» لابن عقيل (٤/ ٢٦٨)، وفيه: وأما مضعف الرباعي فهو ما كانت فاؤه ولامه الأولى من جنس، وعينُه ولامه الثانية من جنس آخر، نحو: زلزل ووسوس وشأشأ.

قــد مَضَــى يومــانِ وهــذا الثَّالــي وأنــتَ بالهُجْــرانِ لا تُبَالــي[1]

الشَّاهِدُ في (الثَّالي) حيثُ أَبْدَلَ الثَّاءَ المثلَّثَةَ ياءً مُثنَّاةً مِن تَحْتُ.

ودخـلَ في غيرِ السَّـالمِ ما أُبْدِلَ أحدُ حروفـهِ العلَّةِ حرفٌ صحيحٌ؛ كـ: أُقِّتَتْ والتُّـراث، أصلُهما: وُقِّتَتْ، والـوُرَاثُ مِن المِيراث.

ويَتَحصَّـلُ مِـن مجمـوعِ مـا ذُكِـرَ: أنَّ الفعـلَ ـ وكـذا الاسـمُ الذي مِـن جُملةِ المَصْـدرِ ـ سـبعةُ أنـواعٍ؛ لأنَّهُ:

إمَّا سالمٌ ويُسمَّى: صحيحاً؛ كـ: حَمِدَ وشَكَرَ. أو غيرُ سالمٍ وهو:

إمَّا مُعتلُّ الفاءِ ويُسمَّى: مثالاً؛ كـ: وَعَدَ ويَسَرَ.

وإمَّا مُعتلُّ العينِ ويُسمَّى: أَجْوَفَ؛ كـ: قالَ وباعَ.

وإمَّا مُعتلُّ اللَّامِ ويُسمَّى: ناقصاً؛ كـ: عَفَا وسَعَى.

وإمَّا مُعتلُّ الفاءِ واللَّامِ ويُسمَّى: لفيفاً مَفروقاً؛ كـ: وَقَى ووَعَى.

وإمَّا مُعتلُّ العينِ واللَّامِ ويُسمَّى: لفيفاً مَقْروناً؛ كـ: طَوَى وحَيِيَ.

ولم يُوْجَدْ ما فيهِ فاؤُه وعينُه حَرْفَا علَّةٍ؛ كـ: وَيْلٍ ويَوْمٍ.

وإمَّـا مهمـوزٌ، وهو يَشْـمَلُ ما كان فاؤُه أو عينُـه أو لامُه همزةً؛ كـ: أَكَلَ وسَـأَلَ وبَرِئَ، ويُسـمَّى: مهموزَ الفاءِ، أو العيـنِ، أو اللامِ.

وإمَّـا مضاعَـفٌ بأحـدِ نَوْعَيْهِ، فيُسـمَّى مضاعَفاً ثلاثيَّـاً؛ كـ: مَدَّ وأَعَـدَّ، ورباعياً كـ: زَلْزَلَ وسَلْسَـلَ.

وقد انْتَظَمَ المجموعُ في هذا البيتِ إجماليَّاً:

---

(١) الرجز في «المفصل» للزمخشـري (ص ٥١١)، و«شـرح الشـافية» للرضي (٣/ ٢١٣)، و«الممتع» لابـن عصفـور (ص ٢٥٠)، وعندهم: «قد مـرَّ يومان...».

صَحِيحُ مَعْ مِثَالٍ مَعْ مُضاعَفِ لَفِيفُ ناقِصُ مَهْموزٌ أجْوَفُ

وقد يَتركَّبُ نحوُ: رَأَى، وأَنَّ، ووَدَّ، ووَأَى، وجاءَ.

وقد يُنْتَقَلُ مِن تقسيمِهِ إلى سالمٍ وغيرِ سالمٍ بطريقِ الإشارةِ إلى توزيعِ الخَلْقِ إلى مُسْلمٍ وغيرِ مُسْلمٍ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، فالمسلِمُ الكاملُ كما وَرَدَ: «مَن سَلِمَ المسلمونَ مِن لسانِهِ ويَدِهِ»(١)، وغيرُه إمَّا مُعتلٌّ بعلَّةِ الفِسْقِ والشِّقَاق، وإمَّا مُضَاعَفٌ لغَلَبةِ الكُفرِ والنِّفاق، وإمَّا مهموزٌ ومغموزٌ عليهِ بوُقوعِ الخُلْفِ وبتَرْكِ الوِفاق.

ثُمَّ لَمَّا كانَ الثُّلاثيُّ المجرَّدُ هو الأصلَ الذي يُبْنَى عليهِ غيرُه مِن المزيدِ والرُّباعيِّ، قدَّمهُ في التَّفصيلِ الصِّناعيِّ، فقال:

(١) رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

* (**أمَّا الثُّلاثيُّ المجرَّدُ**) وهو أَعَمُّ مِن أنْ يكونَ سالماً أو غيرَ سالمٍ؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ أبوابِهِ السِّتَّةِ، وهو لا يَختلِفُ بالسَّلامةِ والعِلَّةِ، وفي بعضِ النُّسخِ زيادةُ: (السَّالم) وهو غيرُ صَحيحٍ؛ لأنَّ في التَّمثيلِ بـ(سَأَلَ يَسأَلُ) ردٌّ عليهِ بوجهٍ صَريحٍ.

وفيه تنبيهٌ نبيهٌ على أنَّ المجرَّدَ مِن العَلَائقِ، والمتفرِّدَ عن العَوَائِقِ، هو الذي يَستحِقُّ التقدُّمَ على الخَلَائقِ، فقد وَرَدَ: «سَبَقَ المتفرِّدون»[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١١].

ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ ميزانَ الماضي المجرَّدِ لا يَخْلو مِن أنْ يكونَ عينُه مفتوحاً أو مكسوراً أو مضموماً، وكان القياسُ أنْ يكونَ عينُ مُضارِعِهِ كذلك، فيَصيرُ تسعةَ أبوابٍ، لكنْ لمْ يُوْجَدْ ثلاثةٌ فاقْتَصَرتْ على ستَّةٍ، كما بَيَّنَهُ بقولِهِ: (**فإنْ كانَ ماضِيه**)؛ أي: الثُّلاثيِّ (**على فَعَلَ**)؛ أي: على وَزْنِ فَعَلَ (**مَفْتوحَ العينِ**) بكسرِ الحاءِ[2] وفتحِها[3] (**فمُضارِعُهُ**)؛ أي: الثُّلاثيِّ (**يَفْعُلُ**)؛ أي: يَجيءُ على وَزْنِ يَفْعُلُ تارةً (**أو يَفعِلُ**)؛ أي: أُخرى (**بضمِّ العينِ**)؛ أي: في الأوَّلِ، (**أو كَسْرِها**)؛ أي: في الثَّاني، لفٌّ ونشرٌ مُرتَّبٌ.

(**نحوُ: نَصَرَ يَنْصُرُ**): مثالٌ لضمِّ العينِ في المضارعِ مع فَتْحِها في الماضي، يُقالُ: نَصَرَه؛ أي: أعانَهُ وأَغاثَهُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٢٥].

وقيل: نَصَرهُ؛ أي: رَزَقهُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ١٥]؛ أي: لن يَرْزُقهُ اللهُ.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وزاد: قالوا: وما الْمُفَرِّدُونَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «الذَّاكِرُونَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ».

(٢) في هامش «و»: «على أنه صفة (فَعَلَ)».

(٣) في هامش «و»: «على أنه خبر (كان)، وقوله: (على فَعَلَ) حالٌ من اسم (كان)، هكذا قيل، والظاهر أنَّ نصبَ قوله: (مفتوح العين) على أنه حال من (فَعَلَ) والخبرُ هو قوله: (على فَعَلَ)، كما في حالِ جرِّ قوله: (مفتوحِ العين)، فتأمل».

وأَقولُ: المعنَى الأوَّلُ أَعَمُّ وأَتَمُّ، واللهُ أعلمُ وأحكمُ.

(وضَـرَبَ يَضْرِبُ): مثالٌ لكسـرِ العينِ فـي المضارعِ مع فَتْحِهـا في الماضي، يقـال: ضَرَبَـهُ بالسَّـوطِ أو غيـرِه: أَوْجَعَهُ، وضَرَبَ فـي الأرضِ؛ أي: سـار فيها، ومنهُ قولُـهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٠١]؛ أي: سـافَرْتُم، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ [يس: ٧٨]؛ أي: بَيَّـنَ لنا قصَّـةً عَجيبةً، أو قَضيَّـةً غَريبةً.

* (ويَجِيءُ)؛ أي: مضارِعُ (فَعَلَ) مفتوحَ العَينِ (على يَفْعَلُ مفتوحَ العينِ) ـ وفي نسخة: (بفَتْحِ العين) ـ (إذا كانَ عينُ فِعْلِهِ) وهو الماضي، ولو قال: (عينُه) ـ كما في نسخةٍ ـ لكانَ أَخْصَرَ وأَظْهَرَ، (أو لامُهُ)؛ أي: لامُ فِعْلِهِ (حرفاً مِن حُروفِ الحَلْقِ)، وفي نسخةٍ: (أَحَدَ حُروفِ الحَلْقِ).

(وهي)؛ أي: حروفُ الحَلْقِ (ستَّةٌ)، ومَخارِجُها ثلاثةٌ:

(الهمزةُ والهاءُ): مِن أَقْصَى الحَلْقِ.

(والعينُ والحاءُ): المهمَلَتانِ، مِن الوَسَطِ.

ومِـن جملـةِ اللَّطائـفِ: أَنَّهُ قال الإمـامُ الأعظمُ لمُعْتزلـيٍّ: أينَ مَخْـرجُ الحاءِ؟ فقـال: مِن وَسَـطِ الحَلْـق، فقال لـهُ: إنْ كُنْتَ تَدَّعي الاسـتقلالَ في الخَلْـقِ فأَخْرِجْها مِن غيـرِ مَخرَجِها! فبُهِـتَ المُعْتَزليُّ.

(والغينُ والخاءُ): المعجَمَتانِ، مِن أدناهُ.

(نحوُ: سَأَلَ يَسْأَلُ): مثالٌ لِمَا عَيْنُه حرفُ حَلْقٍ.

(و: مَنَعَ يَمْنَعُ): مثالٌ لِمَا لامُهُ حرفُ حَلْقٍ.

(وأَبَـى يأبَـى شـاذٌّ): جوابٌ عن سـؤالٍ مقـدَّرٍ، تقريرُ السُّـؤال: أنَّ (أَبَـى يَأْبَى) جـاءَ علـى: (فَعَـلَ يَفْعَـلُ) بفتـحِ العيـنِ فيهما مـع انْتِفـاءِ الشَّـرطِ، وهو كـونُ حرفِ الحَلْـقِ عينـاً أو لامـاً، وهنا حـرفُ الحَلْـقِ فاءٌ.

وتقريرُ الجواب: أَنَّهُ وَقَعَ مُخالفاً للقياس.

فإنْ قيل: كيفَ يكونُ شاذًّا وهو واردٌ في أفصحِ الكلامِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢]؟

وأُجيبَ: بأنَّ الشَّاذَّ على ثلاثةِ أقسامٍ:

قِسْمٌ مُخالِفٌ للقياسِ دونَ الاستعمالِ؛ كـ: استَحْوَذَ، والـمَسْجِد بالكسرِ.

وقِسْمٌ مُخالِفٌ للاستعمالِ دونَ القياسِ؛ نحو: المسجَد بالفتح.

وكلاهما مقبولٌ في مقامٍ فَصيحٍ.

وقِسْمٌ مُخالِفٌ للقياسِ والاستعمالِ؛ كقولِهِ:

الحمدُ للهِ العليِّ الأَجْلَلِ(١)

إذ القياسُ والاستعمالُ: (الأَجَلِّ) بالإدْغام، وهو مردودٌ غيرُ صحيحٍ.

وقد يُجابُ بأنَّ (أَبَى يَأْبَى) محمولٌ على (مَنَعَ يَمْنَعُ) لتَوافُقِهما في المعنَى، كما أنَّ (يَذَرُ) حُمِلَ عَلَى (يَدَعُ) في المبنَى.

لا يُقالُ: وَرَدَ (دَخَلَ يَدْخُلُ) و(نَحَتَ يَنْحِتُ) و(جاءَ يَجِيءُ) ممَّا فيهِ حرفُ الحَلْقِ في مُقابَلَةِ عينِهِ أو لامِهِ ولَمْ يُفتَحْ عينُه.

فإنَّا نقولُ: لا يَلْزَمُ مِن وجودِ الشَّرْطِ حصولُ الـمَشْروطِ، بخلافِ عكسِهِ؛ كالطَّهارةِ والصَّلاةِ.

وأمَّا (قَلَى يَقْلَى) بالفتحِ فلُغَةُ بني عامرٍ، والفَصيحُ الكسرُ.

و(بَقَى يَبْقَى) بالفتحِ فيهما لغةُ طيِّئٍ، والأصلُ كسرُ العينِ في الماضي، فقَلَبُوه فتحةً واللامَ أَلِفاً تخفيفاً، وهذا القلبُ قياسٌ عندَهم.

---

(١) عزاه الخطابي في «غريب الحديث» (٣/ ٥٢) لرؤبة، وهو دون نسبة في «المقتضب» (١/ ١٤٢، ٢٥٣)، و«الأصول في النحو» لابن السراج (٣/ ٤٤٢)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٣٤٧).

وأمَّا (رَكَنَ يَرْكَنُ) بالفتحِ فيهما فمِن تَدَاخُلِ اللُّغتَينِ، فإنَّهُ جاءَ مِن بابِ (نَصَرَ يَنْصُرُ) و(عَلِمَ يَعْلَمُ)، فأُخِذَ الماضي مِن الأوَّلِ والمضارعُ مِن الثَّاني.

* **(وإن كان)**؛ أي: ماضِيهِ **(على فَعِلَ مكسورِ العينِ، فمُضارِعهُ يَفْعَلُ بفتحِ العينِ؛ نحو: عَلِمَ يَعْلَمُ)**، وهذا قياسٌ مطَّرِدٌ له **(إلَّا ما شذَّ)**؛ أي: تَفرَّدَ؛ أي: قَلَّ ونَدَرَ، مِن (**نحو: حَسِبَ يَحْسِبُ**) بكسرِ العينِ فيهِما على لُغةٍ، وقرأ بها نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو والكِسائيُّ، والباقون بفتحِ السِّينِ في المضارعِ وَفْقَ القِيَاس[1].

والمرادُ بـ (نحوه): نَعِمَ يَنْعِمُ؛ فإنَّهُ جاءَ بالوجهينِ أيضاً، وكذا ما جاءَ في الصَّحيحِ على مِنوَالِهِ وهو قليل.

(وأَخَواتِهِ)؛ أي: مِن الـمُعتلِّ وهو كثيرٌ، نحو: وَرِثَ يَرِثُ، ووزن يزن[2]، ووَرِعَ يَرِعُ، ووَمِقَ يَـمِقُ، ووَثِقَ يَثِقُ، ووَلِيَ يَلِي، ويَئِسَ يَيْئِسُ في لغةٍ، وقد جاءَ بفتحِ الهمزةِ أيضاً، ففي التَّنزيل: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الرعد: ٣١].

وأمَّا فَضِلَ يَفْضَلُ، ونَعِمَ يَنْعَمُ، ومِتَّ تَموتُ، بكسرِ العينِ في الماضي وفتحِها في المُضارعِ، فمِن التَّداخُلِ لأنَّها جاءَتْ مِن بابِ (عَلِمَ يَعْلَمُ) و(نَصَرَ يَنْصُرُ)، فأُخِذَ الأوَّلُ مِن الماضي والمضارعُ مِن الثَّاني.

وإنَّما مثَّلْنا بـ (مِتَّ تَموتُ) مُسنَداً إلى التَّاءِ لظهورِ الكسرِ فيهِ دُونَ غيرِه، فهو بكسرِ الميمِ مِن الماضي مَنْقولاً إليها مِن الواوِ المحذوفةِ لالْتِقاءِ السَّاكِنَين.

---

(١) وهذا في جميع القرآن. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص ١٩١)، و«التيسير في القراءات السبع» للداني (ص ٨٤). والمراد بالباقين باقي السبعة، وهم: ابن عامر، وعاصم، وحمزة.

(٢) قوله: «ووزن يزن» كذا في «ط» و«و»، وفيه نظر، فقد ذكر العلماء الأفعال التي يتعين فيها الكسر في هذا الباب، وهي ثمانية: ومِق ووثِق ووفِق وولي وورث وورع وورِم وورِي. ليس فيها «وزن». انظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (٣/ ٤٣٨)، و«فتح المتعال على لامية الأفعال» (١/ ١٩٠).

وبهذا يَظْهرُ لك وَجْهُ القراءتَينِ في ﴿مِتُّ﴾ [مريم: ٢٣] معاً، و﴿مُتُّمْ﴾ [آل عمران: ١٥٧ ـ ١٥٨] و﴿مِتْنَا﴾ [المؤمنون: ٨٢] بكسرِ الميمِ وفتحِها(١).

والحاصِلُ: أَنَّهُ جاء (ماتَ يَموتُ) كـ (قالَ يَقولُ) مِن بابِ (نَصَرَ)، و(ماتَ يَماتُ) كـ (خافَ يَخافُ) مِن بابِ (عَلِمَ)، فكلُّ قراءةٍ على مقتضَى لغةٍ.

* **(وإن كان)**؛ أي: ماضيهِ **(على فَعُلَ مَضمومِ العينِ فمُضارِعُهُ يَفْعُلُ بضمِّ العينِ؛ نحو: حَسُنَ يَحْسُنُ)**: وفي نسخةٍ: (وكَرُمَ يَكْرُمُ)، وفي أُخرى: (وأَخَواتِهِ كوَجُهَ يَوْجُهُ).

وهذا البابُ مُختصٌّ بالفعلِ اللَّازمِ بخلافِ الأبوابِ السَّابقةِ، وقد يكونُ بعضُ الأفعالِ له أبوابٌ متعدِّدةٌ كـ (قنط)، فإنَّه جاءَ مِن بابِ (نَصَرَ) و(ضَرَبَ) و(كَرُمَ) و(حَسِبَ) والمعنَى واحدٌ.

وقد يَختلِفُ المعنَى باختلافِ البابِ في المَبْنَى، فـ (لَبِسَ يَلْبَسُ) مِن بابِ (عَلِمَ يَعْلَمُ) مَصْدرُه اللُّبْسُ بالضم، ومِن بابِ (ضَرَبَ يَضْرِبُ) مَصْدرُه اللَّبْسُ بالفتحِ بمعنَى الخَلْطِ.

***

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عَمْرو وعاصِم في رِوَايَة أبي بكرٍ وابنُ عامر: ﴿مُتُّ﴾ و: ﴿مُتْنا﴾ و: ﴿مُتُّمْ﴾ بِرَفْع الْمِيم فِي كل الْقُرْآن، وتابعهم حفص على الضم في حرفي آل عمران: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ [آل عمرَان: ١٥٧] و: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ [آل عمرَان: ١٥٨] وَلم يكن حَفْص يرفع الْمِيم فِي شَيْء من الْقُرْآن غَيرهمَا. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص ٢١٨)، و«التيسير في القراءات السبع» للداني (ص ٩١).

* (**وأمَّا الرُّباعيُّ المُجرَّدُ**)؛ أي: عن الزائدِ سالماً أو غيرَ سالم (**فهو**)؛ أي: ميزانُ ماضِيهِ (فَعْلَلَ) بفَتْحِ الفاءِ واللَّامَيْنِ وسُكونِ العينِ (**كدَحْرَجَ**) فلانٌ الشيءَ؛ أي: دَوَّرَهُ (**يُدَحْرِجُ دَحْرَجةً**) مصدرٌ قياسيٌّ، (**ودِحْرَاجاً**) بكسرِ أَوَّلِهِ مصدرٌ سَمَاعيٌّ، وكذلك: زَلْزَلَ يُزَلْزِلُ زَلْزَلةً وزِلْزالاً، ويُلْحَقُ بهِ نحوُ: هَرْوَلَ وبَسْمَلَ، ودليلُ الإلحاقِ اتِّحادُ الـمَصْدَرينِ وزناً واختلافُهما مادَّةً وأصلاً.

ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ مصادرَ الثُّلاثيِّ الـمُجرَّدِ مَقْصورةٌ على السَّماعِ؛ كالنَّصْر والضَّرْب والمَنْع والسُّؤَال والعِلْم والحِسَاب والكَرَم ونحوِ ذلك، بخلافِ الثُّلاثيِّ الـمَزِيدِ فإنَّ مَصادِرَها منها سماعيٌّ وأكثرُها قياسيٌّ كما سيأتي مُفصَّلاً.

* * *

* (**وأمَّا الثُّلاثيُّ المَزِيدُ فيهِ**)؛ أي: عَلَى حروفِ أُصولِهِ (**فهو على ثَلاثةِ أقسامٍ**)؛ لأنَّ الزَّائدَ فيهِ إمَّا حرفٌ واحدٌ، أو اثْنانِ، أو ثلاثةٌ:

(**الأوَّل**)؛ أي: مِن الأقسامِ الثَّلاثةِ: (**ما كان**)؛ أي: وُجِدَ (**ماضيهِ على أربعةِ أحرفٍ**)؛ أي: مَبنيّاً عليها، بأنْ يكونَ الزَّائدُ فيه حَرفاً واحداً والباقي أصولاً، وهذا القِسْمُ ثلاثةُ أبوابٍ:

منها: بابُ الإفعالِ، فماضيهِ (**كأَفْعَلَ**) بزيادةِ الهمزةِ المقطوعةِ في قولِهِ: (**نحو: أَكْرَمَ إكراماً**) وهي للتَّعْدِيَةِ غالباً، فإنَّ (كَرُمَ) مَثَلاً لازِمٌ، فلمَّا أُدْخِلَ عليهِ الهمزةُ صار مُتَعدِّياً، يُقالُ: كَرُمَ زيدٌ، وأَكْرَمَ زيدٌ عَمْراً، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] فإنَّهُ مُتَعدٍّ، ولازِمُهُ: تَمَّ.

ومنها: بابُ التَّفْعيلِ، (**وفَعَّلَ**) بتكريرِ العينِ ميزانُ ماضيهِ، (**نحو: فَرَّحَ تَفْرِيحاً**)، أصلُه: تَفْرِرَحاً؛ لوجوبِ اشْتِمالِ المصدرِ على حروفِ فعلِهِ، ثُمَّ أُبْدِلَتِ الرَّاءُ الثَّانيةُ مِن جنسِ حركةِ ما قبلَها.

ثُمَّ اختُلِفَ أنَّ الزَّائدَ هو الأوَّلُ أو الثَّاني؟ والوجهانِ جائزانِ عندَ سيبويهِ، والأوَّلُ مَذهَبُ الخليلِ[1]، واختارَهُ ابنُ مالكٍ وجماعةٌ[2]، والثَّاني اختارَهُ ابنُ الحاجِبِ وطائفةٌ، وهو الأَظْهرُ فتَدَبَّرْ.

وهو للتَّعديةِ أيضاً غالباً مع إفادةِ التَّكثيرِ، ولذا جاءَ في وَصْفِ القرآنِ أنَّهُ (مُنَزَّلٌ) بالتَّشديدِ؛ لأنَّهُ نَزَلَ مُنجَّماً مُفصَّلاً، وفي حقِّ غيرِه مِن الكتبِ: (مُنْزَلٌ) بالتَّخفيفِ؛ لأنَّه نَزَلَ مُجْمَلاً ومُكمَّلاً. ومِن هذا البابِ ـ التَّفعيلِ ـ قولُه سبحانهُ وتعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: ٢٣].

---

(١) انظر: «الكتاب» لسيبويه (٤/ ٣٢٩)، و«همع الهوامع» للسيوطي (٣/ ٤٥٧).

(٢) انظر: «التسهيل» لابن مالك (ص ٢٩٧).

ومنها: بابُ الـمُفاعَلَةِ (**وفاعَلَ**) بزيادةِ الألفِ بعدَ الفاءِ ميزانُ ماضيهِ، (**نحو: قاتَلَ مُقَاتَلةً**) مصدرٌ قياسيٌّ، (**وقِتالاً**) مصدرٌ سَماعيٌّ، وجاء: قِتَّالاً، بتشديدِ التَّاءِ (**وقِيْتالاً**) بالياءِ، وأصلُهُ أنْ يكونَ الفعلُ بينَ اثنينِ فصاعداً؛ يَفْعَلُ أحدُهما بصاحبِهِ ما يَفْعَلُ الصَّاحِبُ بِهِ، نحو: ضارَبَ زيدٌ عَمْراً، ويكونُ البادِئُ هو الأَوَّلَ، فتأمَّلْ.

* (**والثاني**) من الأقسامِ الثَّلاثةِ (**ما كان**)؛ أي: ماضيهِ (**على خَمْسةِ أحرفٍ**) بأنْ يكونَ الزائدُ فيه حَرْفَينِ، ومجموعُه خمسةُ أبوابٍ، وهو على نوعينِ:

(**إمَّا أوَّلُه التَّاءُ مِثْلَ: تَفعَّلَ**) بزيادةِ التَّاءِ وتكريرِ العينِ (**نحوَ: تَكَسَّرَ تَكَسُّراً**) بضمِّ السِّينِ للمُغايَرةِ، وهو لـمُطاوَعةِ فَعَّلَ بتشديدِ العينِ، نحو: كسَّرْتهُ فتكَسَّرَ، وقَطَّعْتهُ فتَقَطَّعَ.

وقد يَجيءُ للطَّلَبِ، نحو: تَكَبَّرَ؛ أي: طَلَبَ أنْ يكونَ كبيراً، وكذا: تَعَرَّفَ وتعَلَّمَ؛ أي: طَلَبَ الـمَعرِفةَ والعِلْمَ. وللتَّكَلُّفِ؛ نحو: تَزَهَّدَ وتَحَلَّمَ؛ أي: تكلَّفَ الزُّهْدَ والحِلْمَ.

والفرقُ بينَهما: حصولُ أصلِ الفعلِ صورةً في التَّكَلُّفِ دونَ الطَّلَب.

(**وتَفَاعَلَ**) بزيادةِ التَّاءِ والألِفِ (**نحوَ: تَباعَدَ تَباعُداً**) بضمِّ العينِ، وهو لِـمَا يَصْدُرُ مِن اثنينِ فصاعداً، نحو: تَضَارَبَا تَضارَبوا، وقد يكونُ لمُطاوَعةِ فاعَلَ؛ نحو: باعَدْتُه فتَباعَدَ. وللتَّكَلُّفِ؛ نحو: تَجَاهَلَ؛ أي: أَظْهَرَ الجَهْلَ مِن نَفْسهِ بخلافِ الـمُتجاهِلِ.

(**وإمَّا أوَّلُهُ الهمزةُ مثلَ: انْفَعَلَ**) بزيادةِ الهمزةِ والنُّونِ (**نحو: انْقَطَعَ انْقِطاعاً**)، وهو لـمُطاوَعةِ فَعَلَ بالتَّخفيفِ؛ نحو: قَطَعَهُ فانْقَطَعَ.

(**وافْتَعَلَ**) بزيادةِ الهمزةِ والتَّاءِ (**نحو: اجْتَمَعَ اجْتِماعاً**) وهو للمُطاوَعةِ أيضاً؛ نحو: جَمَعْتُه فاجْتَمَعَ، وللمبالَغةِ في المعنَى؛ للزِّيادةِ في الـمَبْنَى، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وبمعنَى: تَفَاعَلَ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾ [الحج: ١٩]؛ أي: فَوْجانِ اخْتَصَموا.

(وافْعَلَّ) بزيادةِ الهمزةِ وإحدى اللَّامَيْنِ **(نحوَ: احْمَرَّ احْمِراراً)**؛ أي: اشْتَدَّ حُمْرتهُ، وهو للمُبالَغةِ، ولا يكونُ إلَّا لازِماً، واخْتَصَّ بالألوانِ والعُيوبِ الظَّاهرة.

* **(والثَّالثُ)**؛ أي: مِن الأقسامِ الثَّلاثةِ **(ما كان)**؛ أي: ماضيهِ **(على ستَّةِ أحرفٍ)** بأنْ يكونَ الزَّائدُ فيهِ ثلاثةَ أحرفٍ؛ نحو: اسْتَفْعَلَ، بزيادةِ الهمزةِ والسِّينِ والتَّاءِ؛ **(نحو: اسْتَخْرجَ استِخْراجاً)** وهو لطلَبِ الفِعْلِ؛ نحو: استَغْفَرَ ربَّه؛ أي: طَلَبَ مَغفِرتَهُ.

(وافْعَالَّ) بزيادةِ الهمزةِ والألفِ وإحْدَى اللَّامَيْنِ؛ **(نحو: احْمَارَّ احْمِيْراراً)** وهو أبلغُ مِن احْمرَّ؛ لأنَّ زيادةَ المَبْنَى تَدُلُّ على زيادةِ المعنَى.

(وافْعَوْعَلَ) بزيادةِ الهمزةِ والواوِ وإحْدَى العَيْنينِ؛ **(نحو: اعْشَوْشَبَ)** المكانُ **(اعْشِيْشاباً)**؛ أي: كَثُرَ عُشْبهُ؛ أي: كَلَؤُه[1] ما دامَ رَطْباً، وهو للمُبالَغةِ.

(وافْعَوَّلَ) بزيادةِ الهمزةِ والواوَيْنِ؛ **(نحو: اجْلَوَّزَ)** بهمُ السَّيرُ؛ أي: دامَ معَ السُّرعةِ **(اجْلِوَّازاً)** بكسرِ اللَّامِ وتشديدِ الواو.

(وافْعَنْلَلَ) بزيادةِ الهمزةِ والنُّونِ وإحْدَى اللَّامَيْنِ؛ **(نحو: اقْعَنْسَسَ اقْعِنْساساً)**؛ أي: ذَهَبَ صدرُه إلى خَلْفِه.

(وافْعَنْلَى) بزيادةِ الهمزةِ والنُّونِ والألِفِ للإلحاقِ؛ **(نحو: اسْلَنْقَى اسْلِنْقاءً)**؛ أي: وَقَعَ على القَفَا.

هذا، وفي لسانِ أهلِ البيانِ مِن أربابِ العِرْفانِ: أنَّ مَزيدَ الفَضْلِ في أفرادِ الإنسانِ: إمَّا بمجرَّدِ الإيمانِ، أو بانْضِمامِ الإيقانِ، أو بإتمامِ الإحسانِ.

---

(١) في «ط»: «كلاه»، وفي «و»: «كلأ»، والصواب المثبت.

فـالأَوَّلُ للعَـوَامِّ مـن الأوليـاءِ، والثَّانـي للخَـوَاصِّ مِـن الأصفيـاءِ، والثَّالـثُ للأخَـصِّ مِـن الرُّسُـلِ والأنبيـاء.

وكـذا المراتـبُ الثَّلاثـةُ مُعْتبَـرةٌ فـي كلِّ صِفـةٍ وحالَـةٍ كمـا هـو مسـطورٌ فـي مَنـازلِ السَّـائرينَ ومَراحِـلِ الطَّائِريـنَ، وبيانُـه: أنَّ التَّقْـوَى أقـلُّ مَراتِبِهـا مِن الشِّـرْكِ ونحـوِه، وأَوْسَـطُها مِـن الذَّنْـبِ وعَمْـدِهِ، وأَعْـلاهُ التَّقوَى مِـن خُطورِ ما سِـوَى اللهِ. وفَسِّـرْ على هـذهِ الصِّفـاتِ بَقِيَّةَ الـمَقامات.

***

* (وأمَّـا الرُّباعـيُّ المَزِيـدُ فيـهِ)؛ أي: حـرفٌ أو حَرْفـانِ، (فأَمْثلتُـهُ)؛ أي: أبنيَةُ أبوابِـهِ ثلاثةٌ:

(تَفَعْلَـلَ) بزيـادةِ التَّاءِ؛ كـ: تَدَحْرجَ تَدَحْرُجـاً، بضمِّ الرَّاءِ فَرْقاً بينَـهُ وبينَ فِعْلِهِ، وأُلْحِقَ بهِ: تَمَسْكَنَ؛ أي: أَظْهَرَ الـمَسْكنةَ؛ أي: السُّكونَ.

(وافْعَنْلَلَ) بزيادةِ الهمزةِ والنُّونِ (كـ: احْرَنْجَمَ احْرِنْجاماً)؛ أي: ازْدَحَمَ.

والفرقُ بينَ بابي (اقْعَنْسَسَ) و(احْرَنْجَمَ): أنَّهُ يجبُ في الأوَّلِ تكريرُ اللَّامِ في الموزونِ دونَ الثَّاني؛ لأنَّ الأوَّلَ ثُلاثيُّ الأصولِ والثَّاني رُباعيُّ الأُصولِ.

(وافْعَلَـلَّ) بزيـادةِ الهمـزةِ والـلَّامِ، فهـو بسـكونِ الفـاءِ وفتـحِ العيـنِ، واللَّامُ الأُولَـى مخفَّفـةٌ والأخيرةُ مشـدَّدةٌ؛ (كـ: اقْشَـعَرَّ) جِلْدُهُ (اقْشِـعْراراً) بكسـرِ الشِّـينِ؛ أي: أَخَذَتْـهُ قُشَـعْرِيرةٌ؛ أي: رِعْـدةٌ، ومنـهُ قولُـه تعالـى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

وبلسانِ أربابِ الإشارةِ: الزِّيادةُ في الكُمَّلِ لا يكونُ إلَّا بـمَرْتبتينِ بالنِّسبةِ إلى مَن دُونَهم في الدُّنيا، وبالدَّرَجتَينِ في العُقْبَى، أعني بهما مقامَي: الكَمَالِ والتَّكميلِ.

* * *

[تقسيمُ الفعلِ إلى مُتعدٍّ ولازمٍ]

(**تنبيهٌ**)؛ أي: هذا إعلامٌ بما وَقَعَ مُجْمَلاً ويَحتاجُ إلى بيانهِ مُفصَّلاً: (**الفِعْلُ**)؛ أي: جِنْسهُ (**إمَّا مُتَعَدٍّ فهو**)؛ أي: المتعدِّي، (**الذي**)؛ أي: الفعلُ الذي (**يَتعدَّى**)؛ أي: يَتَجاوَزُ مِن الفاعِلِ (**إلى المفعولِ بهِ**) وهو الذي وَقَعَ عليهِ الفعلُ؛ (**كقولكَ: ضَرَبْتُ زيداً**)، وقد يكونُ مُتعدِّياً إلى مفعولينِ نحوَ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، أو ثلاثةٍ نحوَ قولهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٣].

وإنَّما قيَّدَ المفعولَ بقولهِ: (به)؛ لأنَّ المتعدِّيَ وغيرَه سِيَّانِ في نَصْبِ ما عَدَا المفعولِ به؛ مِن المفعولِ مَعَهُ، والمفعولِ فيهِ، والمفعولِ المطلَقِ، والمفعولِ لهُ؛ نحو: اجْتَمَعَ القومُ والأميرُ في السُّوقِ يومَ الجُمُعَةِ فوقَ السَّطْحِ اجْتِماعاً لتأديبِ زيدٍ، أو تعليماً له.

(**ويُسَمَّى**) المتعدِّي (**أيضاً: واقِعاً**) لوُقوعهِ على المفعول به، (**ومُجاوِزاً**) لمجاوَزَتهِ الفاعِلَ، بخلافِ اللَّازِمِ لفاعِلِهِ التَّامِّ به غيرِ مُحتاجٍ إلى غيرِهِ.

(**وإمَّا غيرُ مُتَعدٍّ، وهو**)؛ أي: غيرُ المتعدِّي (**الذي**)؛ أي: الفعلُ الذي (**لَمْ يَتَجاوَزْ**) ـ وفي نُسخةٍ: (لم يُجاوِز) ـ (**الفاعلَ**)؛ أي: فاعِلَه؛ (**كقولكَ: حَسُنَ زيدٌ**)، فإنَّ الفعلَ الذي هو الحُسْنَ لَمْ يُتَصوَّرْ أنْ يَتَجاوَزَ زيداً، بل ثَبَتَ الحُسْنُ فيه.

(**ويُسَمَّى**) غيرُ المتعدِّي: (**لازِماً**)؛ للُزومِهِ على الفاعِلِ وعَدَمِ تَجاوُزِهِ عنه، (**و: غيرَ واقعٍ**)؛ لعَدَمِ وُقوعهِ على المفعولِ به، ويُسمَّى: قاصراً؛ لقَصْرِه على الفاعِلِ وعدمِ تجاوُزهِ إلى المفعولِ به.

فالنَّحْويُّ[1] مشغولٌ بزيدٍ وعمرٍو ونحوِه، والصُّوفيُّ مشغولٌ بأمرِ اللهِ ونَهْيِهِ، والاستغراقِ في بحرِ شُهودهِ ومَحْوِهِ.

---

(١) قوله: «فالنحوي»، كذا وقعت في «ط» و«و» دون تقديم، ولعل هذا من باب الإشارة كما جرت عادة المؤلف من تعقيب كل فقرة بنحو ذلك.

(**وتُعَدِّيهِ**)؛ أي: وتُعَدِّي أنتَ الفعلَ، وفي بعضِ النُّسخِ: (وتَعْدِيَتُه)؛ أي: وجَعْلُ اللَّازِمِ متعدِّياً (**في الثُّلاثيِّ المُجرَّدِ**) ـ أي: خاصَّةً ـ بأحدِ الشَّيْئَينِ:

(**بتَضْعيفِ العينِ**)؛ أي: بنَقْلِ الفعلِ الثُّلاثيِّ المجرَّدِ واللَّازِمِ إلى بابِ التَّفْعيلِ ليَصِيرَ مُتعدِّياً.

(**وبالهمزةِ**)؛ أي: وبنقلهِ إلى بابِ الإفعالِ لذلك.

(**كقولكَ: فَرَّحْتُ زيداً**) بتشديدِ الرَّاءِ، فإنَّ قولكَ: (فَرِحْتُ) ـ ثلاثيّاً مجرَّداً ـ لازِمٌ، فلمَّا قُلْتَ: (فَرَّحْتُهُ) بزيادةِ أحدِ الرَّاءَيْنِ صار متعدِّياً.

(و: **أَجْلَسْتُهُ**) فإنَّ قولكَ: (جَلَسْتُ) لازمٌ، فلمَّا قلتَ: (أَجْلَسْتُهُ) بزيادةِ الهمزةِ صارَ متعدِّياً.

(**وبحرفِ الجرِّ**)؛ أي: وتُعَدِّيهِ بحروفِ الجارِّ (**في الكلِّ**) مِن الثُّلاثيِّ والرُّباعيِّ، مُجرَّداً أو مَزِيداً فيه؛ لأنَّ حروفَ الجارِّ وُضِعَتْ لتَجُرَّ معانيَ الأفعالِ إلى الأسماءِ؛ (**نحو: ذَهَبْتُ بزيدٍ، وانْطَلَقْتُ به**) فإنَّ ذَهَبَ وانْطَلَقَ لازِمانِ، فلمَّا أَتَيْتَ بالجارِّ والمجرورِ ظاهراً أو مضمَراً صارَا متعدِّيينِ.

قال الرَّضيُّ: ولا يُعدَّى كلُّ فعلٍ بالهمزةِ والتَّضعيفِ، فإنَّ النَّقْلَ مِن المجرَّدِ إلى بعضِ الأبوابِ المشعَّبةِ موكولٌ إلى السَّماعِ، فلا تَقولُ: ذَهَّبْتُ خالداً، ولا: أَنْصَرْتُ زيداً عَمْرواً[1]، بخلاف: عَلَّمْتُ زَيداً بَكراً.

وهذا باعتبارِ التَّصرُّفِ، وأمَّا في طريقِ التَّصوُّفِ، فكلٌّ مِن العلمِ والظُّلمِ يكونُ قاصِراً ومتعدِّياً، والعِلْمُ المتعدِّي هو الذي يَتَجاوَزُ نَفْعُهُ إلى غيرِه بتعليمٍ ووَعْظٍ وتدريسٍ وتَصْنيفٍ ودلالةٍ إلى غيرِه، والقاصِرُ هو الذي يكونُ نافعاً لنَفْسِهِ؛ لاشتغالِهِ

(١) انظر: «شرح الرضي على الكافية» (٤/ ١٤٢).

بعبادةِ ربِّهِ، ودَفْعِ شَرِّهِ وضَرِّهِ، ولا شكَّ أنَّ الأوَّلَ أفضلُ، ومِن ثَـمَّـةَ قال عليه السَّلامُ: «فَضْلُ العالمِ على العابِدِ كفَضْلي على أَدْناكُم»[1]، وفيهِ مبالَغةٌ لا تَخْفَى.

وكذا الظُّلمُ تارةً يكونُ قاصراً على صاحِبِهِ ولا يتجاوَزُ ضَرَرُه إلى غيرِه كما في حُقوقِ اللهِ تعالى، وأُخْرى يكونُ متعدِّياً إلى غيرِه كحُقوقِ العِبَادِ، وهذا أعظمُ ضَرَراً وأشدُّ خَطَراً.

وحاصِلُـه: أنَّ العلـمَ المتعـدِّيَ بمنزلـةِ العِلْمَيْنِ، والظُّلْـمَ المتعدِّيَ فـي مَرْتبةِ ظُلْمَيْـنِ، وأكبـرُ العِلْـمِ هو معرفـةُ اللهِ، وأعظـمُ الظُّلمِ هو الشِّـركُ بـاللهِ، وأَقَلُّه خُطورُ إرادةِ مـا سِـوَاهُ؛ كما قال العـارِفُ ابـنُ الفارِضِ:

ولـو خَطَـرتْ لـي فـي سِـوَاكَ إرادةٌ   على خَطَرِي سـهواً حَكَمْـتُ بِرِدَّتي[2]

***

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وقال ـ كما في «تحفة الأشراف» (٤/ ١٧٧)، و«الترغيب والترهيب» للمنذري (١/ ٥٦) ـ: حسن صحيح. وزاد في «التحفة»: غريب.

(٢) البيت في «ديوان ابن الفارض» (ص ٥٢).

(فصلٌ
في أَمْثلةِ تَصْريفِ هذهِ الأفعالِ)

أي: في بيانِ تفصيلِ أبنيةِ الماضي والـمُضارِعِ وما أُخِذَ منهُ؛ مِن الأمرِ والنَّهْي، والجَحْدِ والنَّفْي، ونحوِ ذلك؛ مِن فعلِ الثُّلاثيِّ والرُّباعيِّ، المجرَّدِ أو مَزِيدٍ فيه، السَّالمِ أو غيرِه، ممَّا أُشيرَ فيما هنالك.

وقَدَّمَ الفعلَ الماضيَ لتَقدُّمِ زَمانهِ على الحالِ والاستقبالِ، مع اخْتِصاصهِ به على وجهِ الاستقلال، فقال:

[الفِعْلُ الماضِي]

(**أمَّا الماضي**)؛ أي: مِن الأفعالِ (**فهو الفِعْلُ الذي دَلَّ على معنًى**)؛ أي: حَدَثٍ مِن الضَّربِ ونحوِه (**وُجِدَ**) ذلك الحَدَثُ (**في الزَّمانِ الماضي**) فالماضي الأوَّلُ صناعيٌّ والثَّاني لُغَويٌّ، فلا يَلْزمُ تَصريفُ الشَّيء بنَفْسهِ، ولا حصولُ الدَّوْرِ في حَدِّه.

ثُمَّ اعْلَمْ: أنَّ الماضيَ إمَّا مَبْنيٌّ للفاعلِ، أو مَبْنيٌّ للمفعولِ، ولكلٍّ منهُما عَلَامةٌ في الـمَبْنَى ليكونَ تَفْرِقةً في المعنى:

١ ـ (**فالمَبْنيُّ للفاعلِ منهُ**)؛ أي: مِن الماضي؛ أي: الفعلِ الماضي الذي (**كانَ**)؛ أي: استَمَرَّ (**أوَّلُه**)؛ أي: أوَّلُ حُروفهِ (**مفتوحاً**) نحو: نَصَرَ (**أو أوَّلُ متحرِّكٍ منهُ مفتوحاً**) نحو: اجْتَمَعَ، فإنَّ أوَّلَ متحرِّكٍ مِن افْتَعَلَ هو التَّاءُ، وهو مفتوحٌ؛ لأنَّ الفاءَ ساكنةٌ، والهمزةَ غيرُ مُعْتدٍّ بها لسُقوطِها في الدَّرْجِ. و(أو) للتَّنْويع؛ أي: ما كان على أَحَدِ هذَيْنِ الوجهَيْنِ.

(**ومِثالُه**)؛ أي: مِثالُ الماضي المبنيِّ للفاعِلِ: (**نَصَرَ**) للغائبِ الـمُفرَدِ، ويُسْنَدُ

تارةً إلى مُظْهَرٍ؛ نحو: نَصَرَ زيدٌ، وأُخرى إلى مُضْمَرٍ نحو: زيدٌ نَصَرَ، (**نَصَرَا**) لـمُثنَّاهُ، (**نَصَروا**) لجَمْعِه، وقد يُحْذَفُ واوُه للضَّرورةِ في الوزنِ؛ كقوله:

فلَــوْ أنَّ الأَطِبَّــا كانُ حَوْلــي[1]

بضمِّ النُّونِ؛ أي: كانوا.

(**نَصَرَتْ**) للغائبةِ الـمُفْردةِ، (**نَصَرَتَا**) لمُثنَّاها، (**نَصَرْنَ**) لجَمْعِها.

(**نَصَرْتَ**) للمُخاطَبِ الواحدِ، (**نَصَرْتُما**) لمُثنَّاهُ، (**نَصَرْتُمْ**) لجَمْعِهِ.

(**نَصَرْتِ**) للمُخاطَبةِ الواحدةِ، (**نَصَرْتُما**) لمُثنَّاها، فهي كلمةٌ مشترَكةٌ، (**نَصَرْتُنَّ**) لجَمْعِها.

(**نَصَـرْتُ**) للمُتكلِّـم الواحِدِ مُذكَّـراً كانَ أو مُؤنَّثاً، (**نَصَرْنَـا**)؛ أي: مع غَيْرِه، أو للمُعظِّمِ نَفْسَـه كقولهِ تعالـى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: ١].

(**وقِسْ على هذا**) الـمَذْكورِ مِن تَصْريفِ (نَصَرَ) على وزنِ فَعَلَ مَوْزُوناتِ (**فَعْلَلَ**) كـ: دَحْرَجَ، (**وتَفَعْلَلَ**) كـ: تَزَلْزلَ، (**وافْتَعَلَ**) كـ: اجْتَمَعَ، (**وانْفَعَلَ**) كـ: انْقَطَعَ، (**واسْتَفْعَلَ**) كـ: استَغْفَرَ، (**وافْعَنْلَلَ**) كـ: احْرَنْجَمَ واقْعَنْسَسَ، وتَصَارِيفُها واضحةٌ.

(**وافْعالَّ**) كـ: احْمارَّ احْمِراراً، احْمارُّوا، احْمارَّتْ، احْمارَّتا، احْمارَرْنَ بفتحِ الرَّاءِ، وكذا إلى آخِرِه.

(**وافْعَلَلَّ**) كـ: اقْشَعَرَّ، وتَقولُ في الفَكِّ: اقْشَعْرَرْنَ، بفتحِ الرَّاءِ أيضاً.

(**وافْعَوْعَلَ**) كـ: اعْشَوْشَبَ.. إلخ، وكذلكَ سائرُ الأبوابِ.

ومِن المُشْكِلِ في الجُملةِ: (افْعَنْلَى) كـ: اسْلَنْقَى، اسْلَنْقَيَا، اسْلَنْقَوْا، اسْلَنْقَتْ،

---

(١) البيت دون نسبة في «مجالس ثعلب» (ص ٨٨)، و«الكشاف» (٣/ ١٧٧)، و«الإنصاف في مسائل الخلاف» لأبي البركات الأنباري (١/ ٣٨٥).

اسْلَنْقَتَا، اسْلَنْقَيْنَ.. إلخ، بفتحِ القافِ في الكُلِّ، وسيأتي بيانُ إعْلَالِ اسْلَنْقَوْا واسْلَنْقَيَا واسْلَنْقَيْنَ في الـمُعْتَلَّاتِ عندَ نحوِها مِن الكَلِماتِ.

(**ولا تَعْتَبِرْ**) أنتَ، بصيغةِ النهيِ، وفي بعضِ النُّسخِ مَبْنيّاً للمفعولِ بصيغةِ النَّفيِ، فيَختلِفُ إعرابُ (**حَرَكاتِ الأَلِفاتِ**)؛ أي: الهَمْزاتِ في صُوَرِ الأَلِفات (**في الأَوَائلِ**)؛ أي: أوائلِ الكلماتِ الواقِعَةِ في أبوابِ (افْتَعَلَ) و(انْفَعَلَ) و(اسْتَفْعَلَ) ونحوِه ممَّا في أوَّلِهِ همزةٌ زائدةٌ، سِوَى بابِ الإفعالِ لأنَّ همزتَهُ مقطوعةٌ مفتوحةٌ، بخلافِ غيرِها إذ هي موصولةٌ مكسورةٌ.

(**فإنَّها**)؛ أي: هذهِ الأَلِفاتُ (**زائدةٌ**) لدَفْعِ الابتداءِ بالسَّاكِنِ (**تَثْبُتُ في الابْتِداءِ**) للاحْتِيَاجِ إليها (**وتَسْقُطُ في الدَّرْجِ**)؛ أي: في وَسَطِ الكلامِ للاسْتِغْناءِ عنها.

٢ ـ (**والمَبْنيُّ للمفعولِ منهُ**)؛ أي: مِن الماضي، (**وهو**)؛ أي: المبنيُّ للمفعولِ مُطْلَقاً سَواءٌ كانَ مِن الماضي والـمُضارِعِ أو غيرِهما (**الذي لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه**)؛ أي: لَمْ يُذْكَرْ فاعِلُه معهُ في تركيبِهِ، وهذا الـمَقالُ ممَّا يَصْلُحُ للمِثالِ؛ كما يُقالُ: ضُرِبَ زيدٌ، فيُرْفَعُ زيدٌ لقيامِهِ مَقامَ فاعِلِهِ، ويُسمَّى: نائبَ الفاعِلِ، وقد يُقالُ له الفاعِلُ أيضاً مَجازاً لتَلَبُّسِهِ ـ وهو مفعولٌ، وحَقُّه النَّصْبُ ـ لِبَاسَ فاعِلِه مِن الرَّفعِ؛ لوُقوعِهِ في مَحلِّه.

والجملةُ[1] مُعترِضةٌ بينَ المبتدأ السَّابِقِ وخبرِه اللَّاحِقِ، وهو قولهُ (**ما كانَ**)؛ أي: الفِعْلُ الماضي الذي كانَ (**أوَّلُه مضموماً**) حقيقةً أو حُكْماً (**كـ: فُعِلَ**) نحو: نُصِرَ وقِيْلَ، (**وفُعْلِلَ**) كـ: زُلْزِلَ، (**وأُفْعِلَ**) كـ: أُكْرِمَ، (**وفُعِّلَ**) بتشديدِ العينِ كـ: نُزِّلَ.

(**وفُوْعِلَ**) كـ: قُوتِلَ مجهول قاتَلَ، بقَلْبِ الألِفِ واواً لانْضِمامِ ما قَبْلَها، ومنه قولُه تعالى: ﴿مَا وُۥرِىَ﴾ [الأعراف: ٢٠] فإنَّهُ مجهولُ: وارَى.

---

(١) يعني جملة المتن: «وهو الذي لم يسم فاعله».

(وتُفُعِّلَ) بضمِّ التَّاءِ والفاءِ أيضاً؛ لأنَّكَ لو قُلْتَ: تُفَعِّلَ، بضمِّ التَّاءِ فقط لَالْتَبسَ بمضارِعِ فَعَّلَ بتشديدِ العينِ: إمَّا في حالةِ الوَقْفِ، أو النَّصْبِ، أو مُطْلَقاً؛ لأنَّ مِثْلَ هذا التَّغايُرِ ممَّا لا يُعْتَدُّ به لرَفْعِ اللَّبْس.

(وتُفُوعِلَ)؛ أي: وكذا قالوا في مَجْهولِ تَفَاعَلَ: (تُفُوعِلَ) بضمِّ التَّاءِ والفاءِ، إذ لو اقْتَصَروا على ضمِّ التَّاءِ وقالوا: تُفَاعِلَ، لَالْتَبسَ بمضارِعِ فاعَلَ، ثُمَّ قُلِبَتِ الألِفُ واواً لانْضِمامِ ما قَبْلَها.

(أو كانَ أوَّلُ مُتَحَرِّكٍ منهُ مَضموماً) حقيقةً (نحو: افْتُعِلَ) كـ: اجْتُمِعَ، بضمِّ التَّاءِ الملفوظةِ، أو حُكْماً كـ: اخْتِيرَ، بضمِّ التَّاءِ المقدَّرةِ؛ لأنَّهُ أوَّلُ متحرِّكٍ منه كما تقدَّمَ في الـمَبْنيِّ للفاعِلِ، (واسْتُفْعِلَ) نحو: اسْتُغْفِرَ، بضمِّ التَّاء.

(وهمزةُ الوَصْلِ) فيما أوَّلُ مَتحرِّكٍ منهُ مَضمومٌ (تَتْبَعُ هذا المَضْمومَ) ـ الذي هو أوَّلُ مُتحرِّكٍ ـ (في الضَّمِّ)، يعني: يكونُ مضموماً عندَ الابتداءِ؛ كقولكَ مُبْتدِئاً: اُسْتُخْرِجَ المالُ، بضمِّ الهمزةِ لـمُتابَعةِ التَّاء، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، واسْتُحِقَّ.

(وما قَبْلَ آخِرِه)؛ أي: آخِرِ الـمَبْنيِّ للمفعولِ (يكونُ مَكسوراً أبداً) حقيقةً (نحو: نُصِرَ زيدٌ، واسْتُخْرِجَ المالُ)، أو حُكْماً؛ نحو: بِيعَ، وانْقِيدَ، واخْتِيرَ، ومُدَّ مجهولاً، وقَرأَ عَلْقمةُ: ﴿رِدَّت إلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥] بكسرِ الرَّاءِ المنقولةِ[1]، وكذا: ﴿وَلَوْ رِدُّوا العَادُواْ﴾ [الأنعام: ٢٨][2].

***

---

(١) انظر: «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» لابن جني (١/ ٣٤٥).

(٢) وهي قراءة يحيى بن وثاب والنخعي والأعمش. انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٢٨٢).

[الفِعْلُ المضارِعُ]

(وأمَّا المُضارِعُ)؛ أي: الفعلُ الـمُضارِعُ (فهو ما)؛ أي: الفعلُ (الذي يكونُ أوَّلُه إحْدَى الزَّوائِدِ الأربعِ)؛ أي: الدَّاخِلةِ على حُروفِ الماضي، (وهي: الهمزةُ والنُّونُ والياءُ)؛ أي: التَّحتيَّةُ، (والتَّاءُ) الفوقيَّةُ.

(يَجْمَعُها) ـ أي: تلكَ الزَّوائدَ ـ قولُكَ: (أَنَيْتُ) بفَتْحِ التَّاء وضمِّها مِن: أَنَى يَأْنِـي، بمعنَى: حانَ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

(أو: أَتَيْنَ، أو: نَأْتي)، أو: (نَأَيْتُ) على ما في نُسخةٍ.

وإنَّما زادُوها فَرْقاً بَيْنَه وبَيْنَ ماضيهِ، وبهذا يندفِعُ تَوَهُّمُ كونِ: أَكْرَمَ، وتَكَسَّرَ، ونَرْجِس، ويَرْنَى[1]، داخلاً في تَعْريفِهِ.

(الهمزةُ للمتكلِّمِ وَحْدَه) نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، و: أَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ.

(والنُّونُ للمتكلِّمِ إذا كانَ معهُ غيرُه) نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، أو للمُعَظِّمِ نَفْسَه نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

(والتَّاءُ للمُخاطَبِ مُفْرَداً) نحوَ: أنتَ تَنْصُرُ، (ومُثَنًّى) نحوَ: أنتُما تَنْصُرانِ، (ومَجْموعاً) نحوَ: أنتُم تَنْصُرونَ، (مُذكَّراً كانَ) الـمُخاطَبُ في هذه الثَّلاثةِ (أو مُؤنَّثاً) ففي جمعِ الإناثِ المخاطَبةِ تقولُ: أنتُنَّ تَنْصُرْنَ، وفي الواحدةِ المخاطَبةِ: أنتِ تَنْصُرِينَ، (وللغائبةِ المُفْرَدةِ) نحوَ: هي تَنْصُرُ، (ولمُثَنَّاها) نحوَ: هما تَنْصُران.

(والياءُ للغائبِ المُذكَّرِ مُفْرَداً) نحوَ: هو يَنْصُرُ، (ومُثَنًّى) نحوَ: هما يَنْصُرانِ،

---

(١) بفتح الياء وسكون النون: رملة في ديار بني سعد. انظر: «معجم ما استعجم» (١/ ٣١٠).

(ومَجْموعاً) نحوَ: هم يَنْصُرون، **(ولِجَمْعِ المُؤنَّثِ الغائبةِ)** نحوَ: هُنَّ يَنْصُرْنَ، وجاءَ جَمْعُهُنَّ بالتَّاءِ في لُغةٍ وقراءةٍ غَريبةٍ حَكَاها يونُسُ عن أبي عَمْرٍو، فإنَّهُ رَوَى: (تَتفطَّرْنَ) بالتَّاءَينِ[1] في قولِهِ تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ [الشورى: ٥].

ثُمَّ اعتُرِضَ بأنَّ الياءَ استُعْمِلَ في حقِّ اللهِ سبحانَهُ، وهو مُنزَّهٌ عن كونِهِ غائباً ومُذكَّراً.

وأُجيبَ: بأنَّهُ إذا قيل: اللهُ يَحْكُمُ، فـ(اللهُ) لَفْظُه مذكَّرٌ غائبٌ؛ لأنَّهُ ليس بالمتكلِّم ولا بالمخاطَبِ، وهو المرادُ بالغائبِ.

ثُمَّ نحوُ: (تَنْصُرُ) مشترَكٌ بينَ الغائبةِ والمخاطَبةِ، و(تَنْصُران) بين الغائبتَيْنِ والمخاطَبَيْنِ والمخاطَبَتَيْنِ.

وسُمِّيَ هذا: المضارِعُ، والـمُضارَعةُ في اللغة: الـمُشابَهةُ، مأخوذاً مِن الضَّرْعِ، كأنَّ كِلَا الشَّبيهَيْنِ ارْتَضَعَا مِن ضَرْعٍ واحدٍ، فهُمَا أَخَوانِ رَضاعاً.

والمضارِعُ مُشابِهٌ لاسمِ الفاعِلِ في الحركاتِ والسَّكَناتِ؛ كـ: يَضْرِبُ وضارِبٌ، ولِـمُطْلَقِ الاسمِ في وقوعِهِ مُشترَكاً؛ كما بَيَّنَه بقولِهِ: **(وهو)** وفي نُسخةٍ: (وهذا)؛ أي: الفعلُ الـمُضارِعُ **(يَصْلُحُ للحال)** المُعبَّرِ عنه بـ: الآنِ المتوسِّطِ بينَ الماضي والمُستقبَلِ بعدَ زَمانِكَ الذي أنتَ فيهِ مِن الأحوال.

---

(١) كذا ذكر المؤلف، وقال ابن خالويه في «القراءات الشاذة» (ص ١٣٤): «تنفطرن: بالتاء والنون يونس عن أبي عمرو»، ثم قال ابن خالويه: «هذا حرف نادر؛ لأن العرب لم تجمع بين علامتي التأنيث، لا يقال: النساء تقمن، ولكن: يقمن...».

وقراءة: «تتفطرن» بالتاءين ذكرها دون عزو لقارئ: البيضاوي في «تفسيره» (٥/ ٧٦).

ووقع عند بعضهم في نقل هذه القراءة قيل وقال، انظره في «الكشاف» للزمخشري (٤/ ٢٠٨)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (١٩/ ٧)، و«الدر المصون» للسمين الحلبي (٩/ ٥٣٩). وقال السمين في آخر كلامه: «ثم إنَّه سواءٌ قُرِئَ: «تَتَفَطَّرْنَ» بتاءَيْن أو بتاءٍ ونونٍ، فإنه نادرٌ كما ذَكَرَ ابنُ خالوَيْه، وهذه القراءةُ لم يُقْرَأ بها في نظيرتِها في سورةِ مريم».

والصُّوفيَّةُ وأربابُ الأحوالِ بسببِ تَرْكِ الماضي لعَدَمِ استِدْراكِهِ، وتَرْكِ الاستقبالِ لعَدَمِ تَحَقُّقِ وُجودِهِ، اشْتَغَلوا بالحالِ وأَدْرَكوا كمالَ الـمَنَالِ، وهذا معنى قولِهِم: الوقتُ سيفٌ قاطِعٌ، والصُّوفيُّ ابنُ الوقتِ، أو: أبو الوَقْتِ، في تعريفٍ جامِعٍ مانِعٍ، فإنَّهم يَعُدُّونَ كلَّ نَفَسٍ مِن أنفاسِهِم نَفَساً أخيراً؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]؛ أي: في النَّفَسِ الآتي، ولقولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]؛ أي: نَفَساً[١].

وقد وَرَدَ: وليس يَتحَسَّرُ أهلُ الجنَّةِ إلَّا على ساعةٍ مَرَّتْ بِهِمْ ولم يَذْكُروا اللهَ فيها.

ومِن كلامِ بعضِ الأكابرِ: الدُّنيا ساعةٌ فاجْعَلْها طاعةً، نَسأَلُ اللهَ التَّوفيقَ والاسْتِطاعَة.

(**تقولُ: يَفْعَلُ**)؛ أي: زيدٌ (**الآنَ**)؛ أي: بهذا القَيْدِ ونحوِه، (**ويُسمَّى**)؛ أي: المضارعُ حِينَئذٍ: (**حالاً وحاضِراً**)؛ أي: نَقْداً.

(**أو: يَفْعَلُ غداً**)؛ أي: في غدٍ ونحوِه، ويُسَمَّى: مستقبَلاً، بفتحِ الباءِ على المشهورِ؛ لأنَّكَ تَستقبِلُ الزَّمانَ، فهو مستقبَلٌ اسمُ مفعولٍ، وبكَسْرِها لأنَّهُ يَستقبِلُكَ فهو مستقبِلٌ اسمُ فاعلٍ.

ثُمَّ قيل: المضارِعُ موضوعٌ للحالِ ويُستَعْمَلُ مَجازاً في الاستِقْبال، وقيلَ بالعَكْسِ في المَقال، والصَّحيحُ أنَّهُ مُشترَكٌ بينَهُما؛ لأنَّهُ يُطْلَقُ عليهِما إطلاقَ كلِّ مُشترَكٍ اشتراكاً لَفْظيّاً على أفرادِهِ، وأنَّهُ مع القَرينةِ يَتعيَّنُ ما دَلَّتْ عليه، وبِدُونها يكونُ مُجْمَلاً، ولذا قيل: (**وإذا أَدْخَلْتَ**)؛ أي: أنتَ (**عليه**)؛ أي: على المضارِعِ المحتمِلِ للحالِ والاستقبالِ (**السِّينَ أو سَوْفَ**) الدَّالَّيْنِ على التَّأخيرِ (**فقُلْتَ: سيَفْعَلُ، أو: سَوْفَ يَفْعَلُ، اخْتصَّ**)

---

(١) أي: لن يؤخرها نَفَساً.

على البناءِ للفاعِلِ، أو المفعول؛ أي: صارَ مَخصوصاً (**بزمانِ الاستقبالِ**)، و(سَوْفَ) أكثرُ تَنْفيساً في الإمْهالِ لأنَّ كَثْرَةَ المَبْنَى غالباً يَدُلُّ على زيادةِ المعنى.

قيلَ كما في نُسخةٍ: (وإذا دَخَلَه لامُ الابْتِداءِ اخْتصَّ بزمانِ الحالِ)؛ نحوَ قولِكَ: لَيَفْعَلُ، وهذا ما ذَهَبَ إليه الكوفيُّونَ والزَّمَخْشَريُّ[١] وابنُ مالكٍ[٢] وغيرُهم.

وفي التَّنزيلِ: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ [يوسف: ١٣].

واستُشْكِلَ بأنَّ هذا الفعلَ مُستقبَلٌ؛ لأنَّ فاعِلَ (يَحْزُنُ) ـ وهو الذَّهابُ ـ لَمْ يُوجَدْ عندَ نُطْقِ يعقوبَ عليهِ السَّلامُ بـ (يَحْزُنُ)، ولا يَسْبِقُ الفعلُ فاعِلَه.

وأُجِيبَ بأنَّ التَّقديرَ: قَصْدُ أنْ تَذْهَبوا به، والقَصْدُ حالٌ[٣]، وهذا في بابِ المبالَغةِ كمالٌ.

وأمَّا في قولُهُ تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]، و: ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]، تَمَحَّضتِ اللَّامُ للتَّوكيدِ مُضمحِلًّا عنها معنَى الحاليَّةِ؛

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٣١)، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦].

(٢) كذا نقل المؤلف عن ابن مالك، والذي في «شرح التسهيل» لابن مالك (١/ ٢٢) الرد على من قال بأن لام الابتداء تخلِّص المضارع للحال، فقال: «وأما لام الابتداء فمُخلصةٌ للحال عند أكثرهم، وليس كما ظنوا، بل جائز أن يراد الاستقبال بالمقرون بها؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، و: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ فـ (يَحْزُنُ) مقرون بلام الابتداء، وهو مستقبل؛ لأن فاعله الذهاب، وهو عند نطق يعقوب عليه السلام بـ (يَحْزُنُ) غير موجود، فلو أُريدَ بـ (يَحْزُنُ) الحال لزم سبق معنى الفعل لمعنى الفاعل في الوجود، وهو محال». وسيذكر المؤلف الجواب على هذا لاحقاً.

(٣) أي: واقع في الحال لا الاستقبال، وليس المراد أنه حال في الإعراب، لأنه مرفوع على أنه فاعل (يحزن).

لأنَّها إنَّما تُفيدُ ذلك إذا دَخَلَتْ على المُضارِعِ المحتمِلِ لها، لا المستقبَلِ؛ لصَرْفِ المُنافي لمُقْتَضاها[١].

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [النحل: ١٢٤] نُزِّلَ مَنزلةَ الحالِ؛ إذ لا شكَّ في وقوعِهِ في المآلِ، وعندَ البَصْرِيِّينَ اللَّامُ للتَّوكيدِ فقط، فلا إشكال.

وربَّما يُقالُ بلسانِ أربابِ الأحوال: إنَّهُ قد يَخْتَلِفُ حالُ السَّالِكِ عندَ تَجَرُّدِهِ عن الخَلْقِ مِن الكمال، وعندَ تَعَلُّقِهِ بالغيرِ مِن النُّقْصانِ والزَّوَال.

ثُمَّ اعْلَمْ: أنَّ المضارِعَ أيضاً إمَّا مَبْنِيٌّ للفاعِلِ، أو المفعولِ، ولكلٍّ منهُما وَضْعٌ مَعمولٌ مَقْبول، يُسمَّى بالمعلومِ والمجهول، (**فالمَبْنِيُّ للفاعِلِ منه**)؛ أي: مِن المُضارعِ (**ما**)؛ أي: الفعلُ المضارعُ الذي (**كان حَرْفُ المضارَعةِ**) وهي إحدَى الزَّوائدِ الأربعِ (**منهُ مَفتوحاً**)؛ أي: في غالِبِ الأبوابِ؛ مِن الثُّلاثيِّ المجرَّدِ والمَزيدِ فيه وغيرِهما.

(**إلَّا ما كانَ ماضيهِ على أربعةِ أَحْرُفٍ؛ نحوَ: دَحْرَجَ**) مِن الرُّباعيِّ المجرَّدِ، (**وأَكْرَمَ وقاتَلَ وفَرَّحَ**) مِن الثُّلاثيِّ المَزيدِ (**فإنَّ حرفَ المُضارَعةِ منهُ**)؛ أي: ممَّا كانَ ماضيهِ على أربعةِ أحرُفٍ (**يكونُ مضموماً أبداً**)؛ أي: سواءٌ كانَ مبنيّاً للفاعِلِ أو المفعولِ، وإنَّما يُفرَّقُ بينَهُما حينئذٍ بحركةِ ما قَبْلَ آخِرِهما كما سيأتي، فيُكْسَرُ في المَبْنِيِّ للفاعِلِ (**نحو: يُدَحْرِجُ ويُكْرِمُ ويُقاتِلُ ويُفَرِّحُ**).

وهذا كلُّه على لغةِ الجارةِ[٢] للحِجازِيِّينَ، وأمَّا غيرُهم فيَكْسِرون حُروفَ المُضارَعةِ، فيقولون: يِعْلَمُ وتِعْلَمُ وإِعْلَمُ، ونِعْلَم[٣]، ويَشْتَرِطون في كسرِ الياءِ أنْ لا يكونَ بعدَها ياءٌ أخرى؛ كـ: يَيْسِرُ ويَيْأَسُ ويَيْجَلُ.

---

(١) قوله: «المنافي لمقتضاها»؛ أي: السين التي هي للاستقبال المنافي لمعنى الحال.

(٢) قوله: «لغة الجارة» كذا في «ط» و«و»، ولعل الصواب: «اللغة الجارية».

(٣) كلمة: «ونعلم» ليست في «ط».

وأمَّـا (أَهْـراقَ يُهْرِيـقُ) و(أَسْـطَاعَ يُسْـطِيعُ)[١] بضمِّ حـرفِ المضارَعَـةِ فيهما، فبنـاءً علـى أصلِهمـا، فـإنَّ الهـاءَ والسِّـينَ زائدتـان علـى خـلافِ القيـاسِ، فكأنَّهما علـى أربعةِ أحـرُفٍ.

وأمَّا (يَخصِّمُونَ) و(يَهدِّي) ففيهما لُغاتٌ وقراءاتٌ ليس هذا محلَّ بَسْطِها.

ولمَّا ضُمَّ حرفُ المضارَعةِ في الـمَبْنيِّ للفاعلِ مِن هذه الأربعةِ كما في الـمَبْنيِّ للمفعولِ، أرادَ أنْ يذكرَ علامةَ كونِ هذهِ الأربعةِ مبنيَّاً للفاعلِ، فقال: **(وعَلَامةُ بناءِ هذهِ الأربعةِ)** نحو: يُدَحْرِجُ ويُكْرِمُ ويُقاتِلُ ويُفَرِّحُ **(للفاعِلِ: كونُ الحرفِ الذي قَبْلَ آخِرِه)** وفي نسخةٍ: (قَبْلَ الآخِرِ)؛ أي: قبلَ آخِرِ كلِّ واحدٍ مِن هذهِ الأربعةِ حالَ كونِهِ للفاعِلِ **(مكسوراً أبداً)** بخلافِ المبنيِّ للمفعولِ فإنَّهُ فيهِ مفتوحٌ أبداً، سواءٌ كانَ الـمَبْنيُّ للمفعولِ مِن هذهِ الأربعةِ أو غيرِها.

وبهذا التَّقريرِ يَظهرُ أنَّ لفظَ (أبداً) في المتنِ سهوٌ قطعاً، اللَّهُمَّ إلَّا أنْ يُتكلَّفَ ويُقال: المرادُ بقولِهِ: (أبداً) جميعُ صِيَغِهِ، أو سواءٌ يكونُ سالماً أو مُعْتلَّاً أو غيرَهما.

(مِثالُـه)؛ أي: مثـالُ المبنـيِّ للفاعِلِ **(مِـن يَفْعُلُ)** بضـمِّ العينِ: **(يَنْصُـرُ يَنْصُرانِ يَنْصُـرونَ)** باليـاءِ للغيبةِ **(تَنْصُـرُ تَنْصُرانِ)** بالتاء للتأنيـث **(يَنْصُرْنَ)** باليـاءِ لئلَّا يَجتمِعَ عَلَامَتـي التَّأنيـثِ؛ إذ جَمْعُهمـا شـاذٌّ، **(تَنْصُـرُ تَنْصُـرانِ تَنْصُـرونَ تَنْصُريـنَ تَنْصُـرانِ تَنْصُـرْنَ)** بالتَّـاءِ للخطابِ في كلِّهـا، **(أَنْصُـرُ نَنْصُرُ)**.

وقد يُسْتعمَلُ لفظُ الاثنَيْنِ في بعضِ المواضِعِ للمُذكَّرِ الواحدِ؛ كقولهِ:

فـإنْ تَزْجُرَاني يـا ابْـنَ عفَّـانَ [أَنْزَجِرْ] وإنْ تَدَعَانـي أَحْـمِ عِرْضـاً مُـمَنَّعا[٢]

---

(١) أصله: «أطاع يطيع». انظر: «سر صناعة الإعراب» لابن جني (١/ ٢١٣).

(٢) البيـت لسـويد بن كـراع العكلي. انظـر: «طبقـات فحـول الشـعراء» (١/ ١٧٩)، و«خزانة الأدب» (١١/ ١٧)، و«التـاج» (مـادة: جـزز). ومـا بيـن معكوفتين مـن المصادر.

وكذا في الأمرِ، ومنهُ قولهُ:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبيبٍ ومَنْزِلِ(١)

وقيل: ثُنِّيَ للتَّأكيدِ، فإنَّهُ بمنزلةِ: قِفْ قِفْ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤].

وقد يُسْتَعْمَلُ لفظُ الجمعِ للمُفْرَدِ تَعظيماً؛ نحوَ قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، وقيل: معناهُ: رُدَّني رُدَّني، على أنَّ التَّكريرَ للتَّقريرِ أو التَّكثير.

(وقِسْ عَلَى هذا) المذكورِ مِن تصريفِ (يَنْصُرُ) بَقِيَّةَ الأبواب: **(يَضْرِبُ، ويَعْلَمُ، ويُدَحْرِجُ، ويُكْرِمُ، ويُقاتِلُ، ويُفَرِّحُ، ويَتكسَّرُ، ويَتَباعَدُ، ويَنْقَطِعُ، ويَجْتَمِعُ، ويَحْمَرُّ، ويَحْمارُّ، ويَسْتَخْرِجُ، ويَعْشَوْشِبُ، ويَقْعَنْسِسُ، ويَسْلَنْقِي، ويَتَدَحْرَجُ، ويَحْرَنْجِمُ، ويَقْشَعِرُّ)** وأمثالَ ذلك.

(والمَبْنيُّ للمفعولِ منهُ)؛ أي: مِن الفعلِ المُضارِعِ **(ما)**؛ أي: الفعلُ المضارِعُ الذي **(كانَ حرفُ المُضارَعةِ منهُ مَضموماً)** وكانَ ما قَبْلَ آخِرِه مفتوحاً **(نحو: يُنْصَرُ ويُدَحْرَجُ ويُكْرَمُ ويُقاتَلُ ويُفْرَحُ ويُسْتَخْرَجُ)** وتَعريفُها على قياسِ المبنيِّ للفاعل.

هذا، ولا خفاءَ أنَّ الفتحَ مُناسِبٌ للكامِلِ، وهو المَبْنِيُّ للفاعِلِ، والضَّمَّ مُلائِمٌ للذَّمِّ في مَقامِ العامِلِ، وهو المبنيُّ للمفعولِ، فكما لا يَسْتوِي الذينَ يَعْلَمون والذينَ لا يَعْلَمون، كذلكَ لا يَستوِي المعلومُ والمجهولُ عندَ أربابِ النُّقولِ وأصحابِ العُقول.

(واعْلَمْ أنَّه يَدْخُلُ على المُضارِعِ (ما) و(لا) النَّافِيَتانِ) لمعنَى الفعلِ **(ولا تُغيِّرانِ صيغتَهُ)**؛ أي: صيغةَ المضارِعِ عن هَيْئتِهِ وصُورتِهِ وبِنْيَتِهِ مِن الأصلِ، فلهُما التَّصَرُّفُ باعتبارِ المعنَى لا مِن طريقِ المَبْنَى، و(ما) لنَفْيِ الحالِ، و(لا) لنَفْيِ الحالِ والاستقبالِ، وسيَجِيءُ أنَّ (لن) لنَفْيِ الاستِقْبالِ، فاخْتَلَفَ الأحوالُ في الإعمالِ.

---

(١) صدر بيت لامرئ القيس، وهو في «ديوانه» (ص ٨)، وعجزه:

بِسِقْطِ اللِّوَى بينَ الدَّخولِ وحَوْمَلِ

(**تقولُ: لا يَنْصُرُ لا يَنْصُرانِ.. إلخ**) وكذلك: ما يَنْصُرُ ما يَنْصُرانِ.. إلخ.

(**ويَدْخُلُ**) على الفعلِ المضارعِ (**الجازِمُ**) وهو: (لَمْ)، و(لَمَّا)، واللَّامُ في الأمرِ، و(لا) في النَّهيِ، و(إنْ) الشَّرْطيَّةُ وأَخواتُها البَقِيَّة.

(**فيَحْذِفُ**)؛ أي: مِن آخِرِ المضارعِ (**حركةَ الواحدِ**) حقيقةً؛ نحوَ: لَمْ يَنْصُرْ ولَمْ أَنْصُرْ، أو حُكْماً؛ نحوَ: لَمْ نَنْصُرْ، بسكون الراء.

(و) يَحذِفُ (**نونَ التَّثْنيَةِ**) مُطْلقاً؛ نحو: لَمْ يَنْصُرَا، ولَمْ تَنْصُرَا.

(و) يَحْذِفُ نونَ (**الجَمْعِ المُذكَّرِ**)؛ أي: الغائبِ أو الحاضرِ؛ نحوَ: لَمْ يَنْصُروا، ولَمْ تَنْصُروا.

(و) يَحْذِفُ نونَ (**الواحِدَةِ المُخاطَبَةِ**) نحو: لَمْ تَنْصُرِي.

لأنَّ النُّونَ في هذهِ الأمثلةِ الخمسةِ كالضَّمَّةِ في الواحدِ، فكَمَا يَحذِفُ الحركةَ كذلكَ يَحْذِفُ النُّونَ.

(**ولا يَحْذِفُ**) الجازِمُ (**نونَ جماعةِ المُؤنَّثِ**)؛ أي: غَيبةً وخِطاباً (**فإنَّهُ**)؛ أي: نونُ جماعةِ المؤنَّثِ (**ضميرٌ كالواوِ في جَمْعِ المُذكَّرِ**) وهو فاعِلٌ فلا يُحْذَفُ، (**فيَثْبُتُ على كلِّ حالٍ**) سواءٌ يكونُ مرفوعاً أو مجزوماً أو منصوباً، بخلافِ النُّوناتِ الأُخَرِ، فإنَّها علاماتٌ للإعراب.

(**تقولُ: لَمْ يَنْصُرْ، لَمْ يَنْصُرَا، لَمْ يَنْصُروا، لَمْ تَنْصُرْ**).. إلخ.

(**ويَدْخلُ**) على المضارِعِ (**النَّاصِبُ**) وهو: (أنْ) و(لَنْ) و(كَيْ) و(إذَنْ)، (**فيُبْدِلُ مِن الضَّمَّةِ فتحةٌ**) كما هو مُقْتَضَى النَّاصِبِ، فإنَّ النَّصْبَ يكونُ بالفتحةِ أصالةً، كما أنَّ الرَّفْعَ يكونُ بالضَّمَّةِ، والجزمَ بالسُّكون.

(**ويُسْقِطُ النُّونات**) لأنَّها علامةُ الرَّفعِ (**سِوَى نونِ جمعِ المُؤنَّثِ**) لِمَا سَبَقَ مِن أَنَّهُ ضميرٌ لا علامةٌ للإعراب، (**فتقولُ: لَنْ يَنْصُرَ، لَنْ يَنْصُرَا، لَنْ يَنْصُروا، إلى: لَنْ أَنْصُرَ، لَنْ نَنْصُرَ**).

ومعنَى (لن) نَفْيُ الفعلِ للاستِقبالِ مُطْلَقاً، وهو الصَّحيحُ المشهورُ المختارُ لابنِ مالكٍ[١]، ومذهبُ سيبويهِ[٢] والجمهورِ، خلافاً للزَّمَخْشريِّ حيثُ قال في «المفصَّل» وفي «الكشَّاف» أنَّها تُفيدُ التَّأكيدَ[٣]، وتَبِعَهُ التَّفْتازانيُّ، وبه جَزَمَ ابنُ الحاجِبِ وغيرُه، وقال في «الأُنموذَج» نقلاً عن جماعةٍ: إنَّها تَقْتضِي التَّأبيدَ[٤]، قال في «المغني»: وكلاهُما دَعْوَى بلا دَليلٍ[٥].

(ومِن الجَوَازِمِ لامُ الأمرِ) وهي مكسورةٌ، وفتحُها لغةٌ، لكنَّه إنْ أُدْخِلَ عليها الواوُ أو الفاءُ أو (ثُمَّ) جازَ سكونُها للتَّخْفيفِ، قال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] قُرِئَ بسكونِ اللَّامِ وكسرِها في السَّبعة[٦].

(فتقولُ في أمرِ الغائبِ: لِيَنْصُرْ، لِيَنْصُرَا، لِيَنْصُروا، لِتَنْصُرْ، لِتَنْصُرَا، لِيَنْصُرْنَ، لِأَنْصُرْ، لِنَنْصُرْ) وجاءَ في المخاطَبِ المجهولِ: لِتُنْصَرْ أَنْتَ، بضمِّ أوَّلِهِ وفتحِ ما قَبْلَ آخِرِه، لِتُنْصَرَا، لِتُنْصَروا، لِتُنْصَرِي، لِتُنْصَرَا، لِتُنْصَرْنَ.

---

(١) انظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (٤/ ١٤).

(٢) انظر: «الكتاب» (٢/ ٢٢٠).

(٣) انظر: «المفصل» (ص ٤٠٧)، و«شرح المفصل» لابن يعيش (٨/ ١١)، و«الكشاف» عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(٤) كذا نقل المؤلف عن الزمخشري القول بتأبيد «لن» في «الأنموذج»، وقد سبقه في هذا النقل ابن مالك في «شرح التسهيل» (٤/ ١٤)، وابن هشام في «المغني» (ص ٣٧٤)، والسيوطي في «همع الهوامع» (٢/ ٣٦٥)، ونقل عنه السيوطي أنه قال: «فقولك: لن أَفعلهُ، كَقَوْلِك: لا أَفعلهُ أبداً، ومِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ [الْحَج: ٧٣]». ولم أجد هذا الكلام في «الأنموذج»، بل الذي فيه (ص ٣٢) القول بالتأكيد كما في «الكشاف» و«المفصل».

(٥) انظر: «مغني اللبيب» لابن هشام (ص ٢٧٤).

(٦) قرأ ورش وقنبل وابن عامر وأبو عمرو بكسر اللام، والباقون بسكونها. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥)، و«التيسير في القراءات العشر» للداني (ص ١٥٦).

وقوله: (في أمرِ الغائبِ) إشارةٌ إلى أَنَّهُ لا يُؤْمَرُ الفاعلُ المخاطَبُ باللَّام؛ لأنَّ أَمْرَ المخاطَبِ لهُ صيغةٌ تَخُصُّهُ كما سيأتي، وقُرِئَ: (فلْتَفْرَحوا) بالخطاب[1]، وهو شاذٌّ، وكان على المصنِّفِ أنْ يقولَ: فتقولُ في أمرِ غيرِ المخاطَبِ؛ لِيَشْمَلَ المتكلِّمَ والـمُخاطَبَ المجهول، ففي الحديث: «قُومُوا فلأُصَلِّ لَكُمْ»[2]؛ أي: إماماً، وفي التَّنزيلِ: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢].

وإذا كان المأمورُ جماعةً بعضُهم حاضرٌ وبعضُهم غائبٌ، فالقياسُ تغليبُ الحاضرِ نحوَ: افْعَلَا وافْعَلُوا، كما في قولهِ تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ [الإسراء: ٦٣].

ويَجوزُ على قِلَّةٍ إدخالُ اللَّامِ على المضارعِ المخاطَبِ ليُفيدَ التَّاءُ الخطابَ واللَّامُ الغَيْبَةَ، مع التَّنصيصِ على كونِ بعضِهم حاضراً وبعضِهم غائباً؛ كقولهِ ﷺ: «لِتَأْخُذوا مَصَافَّكم»[3]، وقد جاءَ في الضَّرورةِ حَذْفُها وجَزْمُ الفعلِ بها؛ كقولهِ:

مُحمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كلُّ نَفْسٍ إذا ما خِفْتَ مِن أمرٍ تَبالَا[4]

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القرآن» (ص ٦٢).

(٢) رواه البخاري (٣٨٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) كذا ذكره بهذا اللفظ النحاة، منهم الخليل في «الجمل في النحو» (ص ٢٦٧)، والزجاجي في «اللامات» (ص ٩٣)، والأزهري في «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٩٥)، وابن زنجلة في «حجة القراءات» (ص ٣٣٣)، والزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٣٣٦) عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، وأبو البركات الأنباري في «الإنصاف في مسائل الخلاف» (٢/ ٥٢٥). والحديث رواه الترمذي (٣٢٣٥)، والإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٤٣)، من حديث معاذ رضي الله عنه قال: «احْتَبَسَ عَلَيْنَا رسول اللهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ عن صَلاَةِ الصُّبْحِ حتى كِدْنَا نَتَرَاءَى قَرْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ رسول اللهِ ﷺ سَرِيعاً فَثُوِّبَ بِالصَّلاةِ وَصَلَّى وَتَجَوَّزَ في صَلاَتِهِ، فلما سَلَّمَ قال: كما أَنْتُمْ على مَصَافِّكُمْ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْنَا، فقال: إني سَأُحَدِّثُكُمْ ما حبسني عَنْكُمُ الْغَدَاةَ..».

(٤) انظر: «الكتاب» (٣/ ٨)، و«والمقتضب» (٢/ ١٣٢)، و«سر صناعة الإعراب» (١/ ٣٩١)، وعزاه ابن هشام في «شرح شذور الذهب» (ص ٢٧٥) لأبي طالب.

أي: وَبالاً؛ أي: لِـتَفْدِ.

وأجازَ الفرَّاءُ حَذْفَها في النَّثر؛ كقولِكَ: قُلْ لـهُ يَفْعَلْ، وحَمَلَ عليـه قولَه تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١][1]؛ أي: لِـيُقِيموها.

وقـال ابـنُ مالـكٍ: وليس بصحيـحٍ قولُ مَن قـال: إنَّ أصلَـهُ: قُلْ لهم فـإنْ تَقُلْ لهـم يُقِيمُـوا الصَّـلاةَ؛ لأنَّ تقديـرَ ذلـكَ [يَلْـزَمُ] منـهُ أنْ لا يَتخلَّفَ أحدٌ مِن الـمَقولِ لهـم عـن الطَّاعـةِ، والواقـعُ بخلافِ ذلـك، فوَجَـبَ إبطالُ مـا أَفْضَـى إليـهِ وإنْ كان قولَ الأكثرِ[2]، انتهى.

قال التَّفتازانيُّ: والحقُّ أنَّهُ جوابُ الأمرِ، والشَّرطُ لا يَلْزَمُ أنْ يكونَ علَّةً تامَّةً للجزاء[3]، بل يَكْفِي تَوَقُّفُ الجزاءِ عليهِ وإنْ كان مُتوقِّفاً على شيءٍ آخَرَ ـ كالتَّوقُّف[4] هنا ـ نحو: إنْ تَوَضَّأْتَ [صَحَّتْ] صَلاتُكَ[5].

وقيل: يَجوزُ أن يكونَ المرادُ بالعِبَاد: خُلَّصَ المؤمنينَ، فلا يَتَخلَّفُ أحدٌ منهُم عن الطَّاعةِ أصلاً.

ولا يَبْعُدُ أنْ يكونَ المعنَى: يَقْبَلوا إقامةَ الصَّلاةِ، أو: يَفْعَلوها في الجملةِ، فإنَّ هذه الأُمَّةَ لا تَجْتمِعُ على الضَّلالة.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٧) و(٣/ ٤٥). وقد نبه ابن هشام في «المغني» (ص ٢٩٧) أن هذا الجواز مشروط بتقدم: «قل». وأشار لهذا الفراء في خلال كلامه، حيث قال: «ولو كانَ جَزمُه على مَحْض الحكايـة لَجازَ أن تقولَ: قلتُ لكَ تذهـبْ يا هـذا، وإِنَّما جزمَ كما جُزِمَ قولـه: دَعْهُ يَنَمْ، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾ [الأعراف: ٧٣]».

(٢) انظر: «شرح الكافية الشافية» لابن مالك (٣/ ١٥٦٩)، وما بين معكوفتين منه.

(٣) انظر: «شرح تصريف العزي» للتفتازاني (ص ٦٨).

(٤) في «ط»: «كالتوفيق»، ولعله تحريف.

(٥) انظر: «حاشية القونوي على البيضاوي» (٣/ ٤٥٢)، وما بين معكوفتين منه.

وقال بعضُ المحقِّقينَ مِن أربابِ الأُصولِ: إنَّ كلمةَ (إنْ) غلَبَتْ في السَّببيَّةِ، وأمَّا الآيةُ ففيها إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنينَ ينبَغي أنْ يَتبادَرَ إلى امْتِثالِ قولِ النَّبيِّ ﷺ، حتَّى كانَ قولُه: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢] سَبَباً لإقامَتِهم إيَّاها لا يَتخلَّفُ تلك الإقامةُ عن تلكَ المَقالة.

وقال ابنُ الحاجِبِ: الجوابُ لا يَقْتَضِي الـمُلازَمةَ القَطْعيَّةَ، وإنَّما يَقْتَضِي الغالبيَّةَ، وذلك حاصِلٌ، فإنَّ أَمْرَ الشَّارعِ للمُؤْمِنِ بإقامةِ الصَّلاةِ يَقْتَضي إقامةَ الصَّلاةِ غالباً[١].

(**وقِسْ على هذا: لِيَضْرِبْ، و: لِيَعْلَمْ، و: لِيُدَحْرِجْ، وغيرَها**) نحوَ: لِيُكْرِمْ، و: لِيَفْرَحْ، و: لِيَنْقَطِعْ، ونحوِها.

(**ومنها**)؛ أي: مِن الجَوَازِمِ: (**لا النَّاهيَةُ**) وهي التي يُطْلَبُ بها كَفُّ النَّفْسِ عن الفعلِ، وإسنادُ النَّهْيِ إليها مَجازٌ كإسنادِ النَّفْيِ إلى (لا) وأمثالِها؛ لأنَّ النَّاهيَ والنَّافيَ هو الـمُتكلِّمُ بواسِطَتِها.

(**تقولُ في نَهْيِ الغائبِ: لا يَنْصُرْ، لا يَنْصُرَا، لا يَنْصُروا، لا تَنْصُرْ، لا تَنْصُرَا، لا يَنْصُرْنَ، وفي نَهْيِ الحاضِرِ: لا تَنْصُرْ، لا تَنْصُرَا، لا تَنْصُروا، لا تَنْصُرِي، لا تَنْصُرَا، لا تَنْصُرْنَ، وهكذا قياسُ سائرِ الأَمْثِلة**) مِن نحوِ: لا يَضْرِبْ، و: لا يَعْلَمْ، و: لا يُدَحْرِجْ، و: لا يَسْتَخْرِجْ.

وقد جاءَ في المتكلِّم قليلاً؛ كَلَامِ الأَمْر.

(**وأمَّا الأَمْرُ بالصِّيغةِ**) سُمِّيَ بها لأنَّ حُصولَهُ بالصِّيغةِ المخصوصةِ دونَ اللَّامِ، ولذا يقالُ للأمرِ الغائبِ: الأمرُ باللَّام، (**وهو الأمرُ الحاضِرُ**)؛ أي: الـمُخاطَبُ (**فهو جارٍ**)؛ أي: باعْتِبارِ آخِرِه (**على لَفْظِ المُضارِعِ المَجْزومِ**) مِن حَذْفِ الحركاتِ والنُّوناتِ

(١) انظر: «أمالي ابن الحاجب» (١/ ٢٣٥).

التي تُحْذَفُ في المُضارعِ المجزومِ دونَ نون جماعةِ الإناثِ كما هو المعلومُ، وهذا مَذْهَبُ البَصْرِيِّينَ: أنَّ الأمرَ مَبْنِيٌّ أُجْرِيَ مُجْرَى المضارعِ المجزوم.

وأمَّا الكوفيُّونَ فذَهَبوا إلى أنَّهُ مُعْرَبٌ مجزومٌ، وأصلُ (افْعَلْ): لِتَفْعَلْ، فحُذِفَتِ اللَّامُ لكثرةِ الاستعمالِ، ثُمَّ حُذِفَ حرفُ المُضارَعةِ خوفَ التَّلَبُّسِ بالمضارعِ في بعضِ الأحوالِ.

وإذا أُجْرِيَ على المَجْزوم؛ (**فإنْ كانَ ما بَعْدَ حرفَ المضارَعةِ مُتحرِّكاً**) كـ: تُدَحْرِجُ، وتُعَدِّدُ، وتَقُومُ، وتَبِيعُ، وتُرَدِّدُ، (**فتُسْقِطُ**)؛ أي: أنتَ (**منهُ**)؛ أي: مِن المُضارعِ (**حرفَ المُضارَعةِ**) ليَتَميَّزَ الأمرُ بهِ مِن مُضارِعهِ (**وتأتي بصورةِ الباقي**) بعدَ حَذْفِ حرفِ المُضارَعةِ (**مجزوماً**)؛ أي: كالمجزوم، فهو مِن بابِ التَّشْبيهِ البَلِيغِ، نحو: زيدٌ أَسَدٌ؛ أي: كأَسَدٍ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨] أي: هم[1] مِثْلُهم، أو مجزومٌ فيكونُ مِن قَبِيلِ المَجَازِ في الحَذْفِ، نحو: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: أهلَها.

ثُمَّ إذا حَذَفْتَ حرفَ المضارَعةِ وعامَلْتَ آخِرَه مُعامَلَةَ المجزومِ (**فتقولُ في الأمرِ مِن تُدَحْرِجُ: دَحْرِجْ، دَحْرِجَا، دَحْرِجُوا، دَحْرِجِي، دَحْرِجَا، دَحْرِجْنَ**).

وقد يُسْتعمَلُ لفظُ الجمعِ للواحدِ في موضعِ التَّفخيمِ؛ كقولهِ تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، ومنهُ قولُ الشَّاعرِ:

أَلَا فارْحَمُوني يا إلهَ مُحمَّدٍ   فإنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلاً فأنتَ لها أَهْلُ[2]

(**وهكذا تقولُ**) في كلِّ ما يكونُ بعدَ حرفِ المُضارَعةِ منهُ مُتَحرِّكاً؛ نحو: (**فَرِّحْ وقاتِلْ وتَكَسَّرْ وتَبَاعَدْ وتَدَحْرَجْ**).

---

(١) في «ط»: «ما هم» بزيادة كلمة «ما»، والمثبت من «و» وهو الصواب.

(٢) ذكر صدره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٢٠٢)، وعزاه الشنقيطي في «أضواء البيان» (٥/ ٣٥٥) لحسان بن ثابت أو غيره.

(وإنْ كانَ ما بعدَه)؛ أي: بعدَ حرفِ المضارَعةِ **(ساكناً)** كما في: تَنْصُرُ، **(فتَحْذِفُ منهُ حرفَ المضارَعةِ وتأتي بصُورةِ الباقي مجزوماً)**؛ أي: مِثْلَ مَجزومٍ حالَ كونِهِ **(مَزِيداً في أوَّلِهِ همزةُ وَصْلٍ)** لتَعَذُّرِ الابتداءِ بالسَّاكنِ، **(مكسورةً)** لأنَّها زِيدَتْ ساكنةً عندَ الجمهورِ؛ لِمَا في سُكونها مِن تَقْليلِ الزِّيادةِ، ثُمَّ لـمَّا احْتِيجَ إلى تحريكِها حُرِّكَتْ بالكسرِ كما هو الأصلُ في التَّحريكِ لالْتقاءِ السَّاكِنَينِ؛ لِـمَا بينَ الكسرِ والسُّكونِ مِن الـمُؤاخاة.

وظاهِرُ مَذْهبِ سِيبويهِ أنَّها زِيدَتْ مُتحرِّكةً بالكسرةِ التي هي أَعْدَلُ الحركاتِ؛ لأنَّها ليسَتْ في غايةٍ مِن الثِّقَلِ كالضَّمَّة، ولا في نهايةٍ مِن الخِفَّةِ كالفَتْحةِ؛ لأنَّها تحتاجُ إلى مُتحرِّكٍ لسكونِ أوَّلِ الكلمةِ، فزيادَتُها ساكنةً ليستْ بوجهٍ.

وإنَّما سُمِّيتْ همزةَ وَصْلٍ لأنَّها يُتوصَّلُ بها إلى النُّطْقِ بالسَّاكنِ، ويُسمِّيها الخليلُ: سُلَّمَ اللِّسان[1]، لذلك.

فتكونُ مكسورةً في جميعِ الأحوالِ **(إلَّا)** في حالٍ واحدٍ وهو **(أنْ يكونَ عينُ المُضارعِ منهُ)**؛ أي: مِن الباقي، أو مِن الـمُضارِعِ **(مَضْموماً فتَضُمُّها)**؛ أي: تلك الهمزةَ لِـمُناسَبةِ حركةِ العينِ، **(تقولُ: انْصُرْ، انْصُرَا، انْصُروا، انْصُرِي، انْصُرَا، انْصُرْنَ، وكذا: اضْرِبْ، واعْلَمْ، وانْقَطِعْ، واجْتَمِعْ، واسْتَخْرِجْ)**.

وأمَّـا (خُـذْ) و(كُلْ) و(مُـرْ) فجاءَ على خِـلَافِ القياسِ تَخْفيفـاً، وهو مختصٌّ بالمَهْموزِ كما سيأتي فـي بابِهِ.

ويُقـالُ هنا سـؤالٌ مِـن جهةِ وُرودِ إشـكالٍ، وهـو: أنَّ (أَكْرِمْ) بفتـحِ الهمزةِ أمرٌ مِـن (تُكْـرِمُ)، وما بعدَ حرفِ الـمُضارَعةِ منهُ سـاكنٌ، وعَيْنُهُ مكسـورةٌ، ومـع هذا لَمْ يُزَدْ فـي أوَّلِهِ همزةٌ مكسـورةٌ؟

---

(١) جاء في هامش «و»: «السلم كسكر: المرقاة كما في «القاموس» وبالتركي: نردبانة».

فأجابَ عنه المصنِّفُ بقوله: (**وفَتَحوا همزةَ أَكْرِمْ بناءً**)؛ أي: للبناءِ (**على الأَصْلِ المرفوضِ**)؛ أي: المتروكِ، (**فإنَّ أصلَ تُكْرِمُ: تُؤَكْرِمُ**)؛ لأنَّ حروفَ المضارِعِ هي حروفُ الماضي مع زيادةِ حرفِ الـمُضارَعةِ، فحَذَفُوا الهمزةَ لاجتماعِ الهمزتَيْنِ في نحوِ (أُكْرِمُ)، ثُمَّ حَمَلوا يُكْرِمُ وتُكْرِمُ ونُكْرِمُ عليهِ طَرْداً للباب.

وقد اسْتَعْمَلَ الأصلَ المرفوضَ مَن قال:

شيخٌ على كرسيِّه مُعمَّماً ... فإنَّهُ أهلٌ لأنْ يُؤَكْرَما[1]

فلمَّا رَأَوْا أنَّه تَزولُ علَّةُ الحذفِ عندَ أَخْذِ الأمرِ بحذفِ حرفِ الـمُضارَعةِ رَدُّوا الهمزةَ الأصليَّةَ؛ لأنَّ الهمزةَ الوَصْليَّةَ إنَّما هي عندَ الضَّرورةِ في القضيَّة، فقالوا مِن أُكْرِمُ: أَكْرِمْ، كما قالوا مِن تُدَحْرِجُ: دَحْرِجْ، فلا يكونُ مِن القِسْمِ الثَّاني، بل مِن القِسْمِ الأوَّل، فتأمَّلْ.

ولعلَّ مَقامَ الجَمْعِ في التَّفْرقةِ بينَ أمرِ الحاضرِ والغائبِ هو: أنَّ أمرَ الغائبِ يَحتاجُ إلى زيادةِ إفادةٍ من إفخام آلِهٍ[2] ليَنْتَبِهَ عن نومِ الغَفْلةِ ويأْتَمِرَ في مَقامِ الحَضْرةِ، بخلافِ الحاضرِ فإنَّ المتبادِرَ إلى الأمرِ الحاضِرُ، كما قيل: العاقِلُ يَكْفيهِ الإشارةُ، بخلافِ الغائبِ المحتاجِ إلى البِشارةِ والنِّذارةِ.

(**واعْلَمْ أنَّهُ**)؛ أي: الشَّأنَ (**إذا اجْتَمَعَ تاءانِ**) احْترازٌ عن النُّونَيْنِ، فإنَّ التَّخفيفَ فيهما بحَذْفِ إحداهُما قليلٌ، كقراءةٍ شاذَّةٍ: (ونُزِّلَ الملائِكَة)[3]، (**في أوَّلِ مُضارِعِ**

---

(١) البيت في «المقتضب» (٢/ ٩٨)، و«الأصول في النحو» (٣/ ١١٥)، و«الخصائص» (١/ ١٤٤).

(٢) أي: متحير. ووقع في «ط» و«و»: «آلة» بالتاء وهو تحريف، كما وقع في «و»: «إفحام»، مكان: «إفخام».

(٣) في سورة الفرقان، الآية (٢٥)، وهي بضم النون وشد الزاي وكسرها ورفع اللام، ونصب «الملائكة»، وخرجها ابن جني بعد أن نسبها إلى ابن كثير وأهل مكة على أن الأصل: «نُنَزِّلُ» فحذفت النون التي هي فاء الفعل تخفيفاً لالتقاء النونين. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٢٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٤). وقراءة ابن كثير المشهورة عنه: «نُنْزِلُ» بنونين الثَّانِيَة سَاكِنة وَتَخْفِيف الزَّاي وَرفع اللَّام. انظر: «التيسير» (ص ١٦٤).

مِثْلِ: **تَفَعَّلَ وتَفَاعَلَ وتَفعْلَلَ**) احْتِرازٌ عن الماضي نحوَ: تَتَبَّعَ وتَتَابَعَ وتَتَعْتَعَ.

وذلك حالَ كونهِ فِعْلَ الـمُخاطَبِ أو الـمُخاطَبةِ مُطْلَقاً، أو الغائبةِ المفرَدَةِ أو المثنَّاةِ، إحداهُما حرفُ المضارَعةِ، والثَّانيةُ التَّاءُ التي كانَتْ في الماضي زائدةً، فخَرَجَ نحوُ: (تَتْلو) فإنَّ التَّاءَ الثَّانيةَ منهُما أصليَّةٌ.

(**فيَجوزُ إثباتُهُما**)؛ أي: إبقاءُ التَّاءَينِ على حالِهما كما هو الأصلُ فيهما، (**نحوَ: تَتَجَنَّبُ وتَتَقاتَلُ وتَتَدَحْرَجُ**) أمثلةٌ للأبوابِ الثَّلاثةِ مُرتَّبةً.

(**ويَجوزُ حذفُ إحداهُما**) تخفيفاً، كما يَجوزُ إدغامُ الثَّانيَةِ فيما بعدَها إنْ كانَ ممَّا يُدْغَمُ فيه: مِثْلَ: تَذَّكَّرونَ، وتَسَّاءَلونَ، وتَصَّالَحَا، وهذا الحذفُ مُخْتصٌّ بالمبنيِّ للفاعلِ دونَ المبنيِّ للمفعول.

ثُـمَّ اعْلَـمْ أنَّه شـذَّ زيادةُ التَّـاءِ في أوَّلِ ماضـي تَفعَّـل وتَفَاعَل؛ نحـو: تَقَطَّعَتْ، ومنهُ قراءةٌ شـاذَّةٌ في (تَشَّـابَه) بالتَّشْـديد(١).

وأغـربُ مِـن ذلـك زيـادةُ اليـاءِ التحتيَّـةِ فـي أوَّل ماضـي تفاعَـل؛ كقـراءةِ: (يَشَّـابَه) بالتَّشْـديد أيضـاً(٢).

(**وفي التنزيل**: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٦]) والأصلُ: تَتَصَدَّى؛ أي: تَتَعرَّضُ وتَتَوجَّهُ إليه، وتُقْبِلُ عليه، ولو كانَ فِعْلَ الماضي لقال: تَصَدَّيْتَ؛ لأنَّه خطابٌ له عليه السلام، وكذا قولُه: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١٠].

(و: ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤])؛ أي: تَتَلظَّى، يعني: تَتَلهَّبُ، ولو كانَ ماضياً لقال: تَلَظَّتْ؛ لأنَّ النَّارَ مؤنَّثٌ سَماعيٌّ.

(و: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [القـدر: ٤])؛ أي: تَتَنـزَّلُ، وكونُـه مُضارِعاً واضحٌ؛ لضمِّ

---

(١) انظر: «القراءات الشاذة» لابن خالويه (ص ١٤).

(٢) المصدر السابق.

لامِـهِ، فإنَّـه لو كانَ ماضيـاً لفُتِحَـتْ. وجاءَ فـي التَّنزيلِ مِثْلُه فـي ثلاثةِ مواضِـعَ أُخَرَ.

وحَذْفُ الثَّانيةِ هو الأَوْلَى مِن الأُولَى، وبهِ قال البَصْريُّون.

ثُـمَّ اعْلَـمْ أنَّـه قرأ البَـزِّيُّ فـي حالةِ الوَصْـلِ بتشـديدِ التَّاءِ فـي الأمثلـةِ الثَّلاثةِ، وكـذا نظائرُها فـي مَحَـالَّ معروفةٍ[١].

(ومَتَى كانَ فاءُ افْتَعَلَ صاداً أو ضاداً أو طاءً أو ظاءً) وهي الحروفُ الـمُطْبَقةُ أَخَصُّ مِن الـمُسْتَعْليَةِ **(قُلِبَتْ تاؤُه)**؛ أي: تاءُ افْتَعَلَ **(طاءً)**؛ لتَعَسُّرِ النُّطْقِ بالتَّاءِ بعدَ هذه الحُروفِ، واخْتِيرَ الطَّاءُ لاتِّحادِهما مَخْرَجاً، لا لقُرْبِهما كما وَهِمَ التَّفْتازانيُّ[٢].

(فتقولُ [في][٣] **افْتَعَلَ مِن الصُّلْحِ: اصْطَلَحَ)** وفي الأصلِ: اصْتَلَحَ.

(و) فـي افْتَعَـلَ **(مِن الضَّـرْبِ: اضْطَرَبَ)** والأصـلُ: اضْتَـربَ، والاضْطِرابُ: الحركـةُ والمـوجُ، والبحرُ يَضْطـرِبُ؛ أي: يَمـوجُ بعضُها بعضاً.

(و) في افْتَعَلَ **(مِن الطَّرْدِ: اطَّرَدَ)** والأصلُ: اطْتَرَدَ؛ أي: اسْتَمرَّ.

(و) في افْتَعَلَ **(مِن الظُّلْمِ: اظْطَلَمَ)** والأصلُ: اظْتَلَمَ.

وقليـلاً ما جـاءَ: اصَّلَحَ واضَّـرَبَ، بقَلْبِ الثَّاني إلـى الأوَّلِ ثُـمَّ الإدغامِ، وهذا عكسُ قيـاسِ الإدغامِ.

وضُعِّفَ: (اطَّجَعَ) بالطَّاءِ المهمِلةِ المشدَّدةِ في اضْطَجَعَ؛ أي: نامَ على الجَنْبِ.

وقُرِئَ بالإدْغامِ في ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ [النور: ٦٢] للسُّوسيِّ[٤]، و: ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ﴾

---

(١) شدد البزي عن ابن كثير التاء التي في أول الأفعال المستقبلة في حال الوصل في إحدى وثلاثين موضعاً منها الأمثلة الثلاثة المذكورة. انظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني (ص ٨٤).

(٢) انظر: «شرح تصريف العزي» للتفتازاني (ص ٧٤).

(٣) ما بين معكوفتين سقط من «ط» و«و». انظر: «شرح تصريف العزي» للتفتازاني (ص ٧٤).

(٤) أي: بإدغام الضاد في الشين. انظر: «التيسير» للداني (ص ٢٣).

[سبأ: ٩] للكِسَائيِّ[١]، و: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٨] للدُّوْرِيِّ في وجهٍ وللسُّوسيِّ[٢]، و: ﴿ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٤٢] للسُّوسيِّ[٣].

وأمَّا (اطَّرَدَ) فيَجِبُ الإدغامُ لاجْتِماعِ الـمِثْلَينِ في كلمةٍ.

وأمَّا (اظْطَلَمَ) ففيهِ ثلاثةُ أَوْجُهٍ:

الأَوَّلُ: إظهارُه.

والثَّاني: (اطَّلم) بالطَّاء الـمُهْملةِ بقَلْبِ الـمُعْجَمةِ إليها كما هو القياسُ.

والثَّالثُ: (اظَّلمَ) بالظَّاء الـمُعْجَمةِ بقَلْبِ الـمُهْمَلةِ إليها.

ورُوِيَتِ الوُجوهُ الثَّلاثةُ في قولِ زُهيرٍ:

هــو الجــوادُ الــذي يُعْطِيــكَ نائِلَــهُ

أي: واصِلَهُ مِن العَطاءِ.

عَفْــواً ويُظْلَــمُ أحيانــاً فيَظْطَلِــمُ[٤]

فقولُهُ: (عَفْواً)؛ أي: بسهولةٍ ومِن غيرِ مِنَّةٍ، و(يُظْلَمُ) بصيغةِ المجهولِ، (فيَظْطَلِمُ) بصيغةِ الفاعِلِ؛ أي: فيَتَحَمَّلُ الظُّلمَ، فجَمَعَ للممدوحِ بينَ الكَرَمِ والحِلْمِ.

(وكذلك)؛ أي: مِثْلُ ما ذُكِرَ مِن الإبدالِ والإدغامِ وبدُونهِ **(جَميعُ مُتَصَرِّفاتهِ)** بكسرِ الرَّاءِ، وفتحُها لحنٌ لِلُزومِ الفِعْلِ، والمعنى: جميعُ ما تَصَرَّفَ فيه، والضَّميرُ

---

(١) بإدغام الفاء في الباء. المصدر السابق (ص ١٨٠).

(٢) بإدغام الراء في اللام. المصدر السابق (ص ٤٤).

(٣) بإدغام الشين في السين. المصدر السابق (ص ٢٣).

(٤) انظر: «الكتاب» لسيبويه (٤/ ٤٦٨)، و«غريب الحديث» لأبي عبيد (٤/ ٤٦٥)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٦٦)، و«سر صناعة الإعراب» لابن جني (١/ ٢١٩). وزاد بعضهم وجهاً رابعاً، وهو: «فينظلم».

عائدٌ إلى (افْتَعَلَ مِن الصُّلْح) وما عُطِفَ عليه، فهو أَوْلَى مِن تقديرِ التَّفْتازانيِّ: أي: مُتَصَرِّفاتِ كلِّ واحدٍ منها[1].

فإنَّه يَجْري ذلك فيها (**نحوَ: اصْطَلَحَ يَصْطَلِحُ**) فعلٌ مُضارعٌ (**اصْطِلاحاً، فهو مُصْطَلِحٌ**) بكسرِ اللَّامِ اسمُ فاعلٍ، (**وذاك مُصْطَلَحٌ عليه**) بفتحِ اللَّامِ اسمُ مفعولٍ، (**اصْطَلِحْ**) أمرُ الحاضرِ، (**لا تَصْطَلِحْ**) نهيُ الحاضرِ، وكذلك: يَضْطَرِبُ فهو مُضْطَرِبٌ، ويَطَّرِدُ فهو مُطَّرِدٌ، ويَظْطَلِمُ فهو مُظْطَلِمٌ، وكذا: يَضْطَرُّ فهو مُضْطَرٌّ مِن الضَّرَرِ، وكذا بَوَاقِي الأمثلةِ بأَسْرِها، فتَدَبَّرْ.

(**ومَتَى كان فاءُ افْتَعَلَ دالاً أو ذالاً أو زاياً قُلِبَتْ تاؤُه**)؛ أي: تاءُ افْتَعَلَ (**دالاً**) مهمَلةً تخفيفاً، (**فتقولُ في افْتَعَلَ مِن الدَّرْءِ**) وهو الدَّفْعُ (**والذِّكْر**) وهو ضِدُّ النِّسْيان (**والزَّجْرِ**) وهو المنعُ والنَّهْيُ:

(**ادَّرأَ**) بتشديدِ المُهْملةِ، والأصلُ: ادْتَرأَ، ولا يَجوزُ فيهِ إلَّا الإدغامُ؛ لاتِّحادِ مَخْرَجِهما.

(**وادَّكَرَ**) بالمُهْمَلةِ المشدَّدةِ، والأصلُ: اذْتَكَرَ، بالمُعْجَمةِ، وفيه ثلاثةُ أوجُهٍ: (اذْدَكَرَ) بلا إدغامٍ. و(اذَّكَرَ) بالذَّالِ المعجَمةِ بقَلْبِ المهمَلةِ إليها. و(ادَّكَرَ) بالدَّالِ المُهمَلةِ بقَلْبِ المُعْجمةِ إليها، وهذا هو الأصحُّ والأفصحُ.

وفي التنزيل: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

(**وازْدَجَرَ**) والأصلُ: ازْتَجَرَ، وفيه وَجْهانِ:

البيانُ: وهي الفُصْحَى في اللُّغةِ، وفي التَّنْزيلِ: ﴿وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾ [القمر: ٩] ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤].

---

(١) انظر: «شرح تصريف العزي» للتفتازاني (ص ٧٥).

والإدْغامُ: بقَلْبِ الدَّالِ زاياً؛ نحو: ازَّجَرَ، دونَ العكسِ فتَدَبَّرْ، ولعلهُ لئلَّا يَشْتَبِهَ بـ: اتَّجَر.

وأمَّا نحوُ: ﴿فَادَّارَٰءۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٧٢] و﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ [التوبة: ٣٨] فمِن بابِ التَّفاعُلِ، وأصلُهما: تَدَارَأْتُم وتَثَاقَلْتُم، فأُبْدِلَ التَّاءُ دالاً في الأُولَى، وثاءً في الثَّانية، ثُمَّ أُدْغِمَتْ فاحْتِيجَ إلى همزةِ الوَصْل؛ لتَعَذُّرِ الابتداءِ بالسَّاكنِ حالَ الفَصْل، فأُتِيَ بهمزةٍ مكسورةٍ لأنَّها الأَصْل، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ﴾ [النمل: ٦٦]؛ أي: تَدَارَكَ.

وأمَّا المُزَّمِّلُ والمُدَّثِّرُ فمِن بابِ التَّفعُّلِ، أصلُهما: مُتَزَمِّلٌ ومُتَدَثِّرٌ، فأُبْدِلَتْ وأُدْغِمَتْ.

ومنهُ قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا﴾ [النمل: ٤٧]؛ أي: تَطَيَّرْنا.

وهذا كلُّهُ باعتبارِ اتِّحادِ المَخْرَجِ في بعضِ الصُّورِ، فاقْتَرَبَ المَخرجُ في بعضٍ آخَرَ.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن تَقَرَّبَ إلى اللهِ وتَبَعَّدَ عمَّا سِوَاهُ، وَصَلَ إلى مَقامٍ لهُ إلى الله، كما يَدُلُّ عليهِ قولُه سبحانَهُ في الحديثِ القُدْسيِّ: «مَن تَقَرَّبَ إليَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إليه ذِراعاً، ومَن تَقَرَّبَ إليَّ ذِراعاً تَقَرَّبْتُ إليه باعاً»[1].

وفي الحديثِ الإنْسيِّ: «لا يزالُ العبدُ يَتَقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَهُ وبَصَرَهُ ويَدَهُ»[2].

ثم الإدْغامُ على نوعَيْنِ: مُماثِلٌ ومُتَقارِبٌ، ومثالُهما في هذا المَقامِ ومَرَامِ الكِرَام: أنْ يَتَخلَّقَ الإنسانيُّ[3] بالخُلُقِ الرَّبَّانيِّ، إذا وَصَلَ إلى مَرتَبةِ الكمال، وزالَ عنه التَّغايُرُ في حالِ الوِصال، يُعبَّرُ عنهُ بالإدْغامِ والإدْخال، كما قال بعضُ أربابِ الحال:

---

(١) قطعة من حديث رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «وإن تقرب... وإن تقرب..».

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في «ط»: «تخلق الإنساني»، وفي «و»: «يتخلق الإنسان».

أنـا مَـن أَهْـوَى ومَـن أَهْـوَى أنـا[١]

ويُقـالُ: فـي سيرِ[٢] سُـلوكِ عالَمِ الـمَلَكوت، فنبـت النَّاسُـوت ويُنْبِـتُ له[٣] اللَّاهـوت، لكنَّـه مُنَزَّهٌ عـن الحُلولِ والاتِّحـاد، والاتِّصـالِ والانْفِصال، كمـا يَتوَهَّمُه الوُجوديَّـةُ مِـن أصحـابِ الإلحـاد، وفَّقَنـا اللهُ طريـقَ السَّـدَاد، واللهُ رؤوفٌ بالعِبَـاد، وعَطُـوفٌ بالعِبَـاد، أَبَـدَ الآبَاد.

(ويَلْحَقُ الفعلَ)؛ أي: يَدْخُلُ آخِرَه ـ والمرادُ به جنسُهُ ـ حالَ كونِهِ (غيرَ الماضي والحالِ)، فيَلْحَقُ فِعْلَ الاستِقْبالِ (نُونانِ للتَّأكيد)؛ لأنَّ الطَّلبَ إنَّما يتوجَّهُ إلى الاستِقْبال، لا إلى الماضِي والحال، ولا يُتَوَهَّمْ جوازُ إلحاقِهما بالمستقبلِ الصِّرْفِ، أعني: غيرَ المَشُوبِ بمعنَى الطَّلَبِ؛ نحوَ: سَيَضْرِبنَّ، و: سوفَ يَضْرِبَنَّ، فإنَّهما لا يَلْحَقانِ في سَعَةِ الكلامِ إلَّا ما فيهِ معنَى الطَّلَبِ أو شِبْهِهِ، وعليهِ جميعُ المحقِّقينَ، حيثُ قالوا: ولا يَلْحَقُ إلَّا مُستقبَلاً فيه معنَى الطَّـلَبِ كالأمرِ والنَّهْي والاستِفْهامِ والتَّمَنِّي والعَرْضِ والقَسَمِ لكونِهِ غالباً على ما هو مطلوبٌ، ويُشَبَّهُ بالقَسَمِ نحوُ: (إمَّا تَفْعَلَنَّ) في أنَّ (ما) زِيدَ للتأكيدِ كَلَامِ القَسَمِ في مَقَامِ التَّأبيد.

وقد تَلْحَقُ بالنَّفْي تَشْبيهاً له بالنَّهْي[٤]، قيل: هو قليلٌ، ومنه قولُ الشَّاعرِ:

يَحْسَـبُهُ الجاهِـلُ مـا لَـمْ يَعْلَمَـا   شـيخاً علـى كرسـيِّه مُعمَّمـا[٥]

---

(١) الشعر للحلاج كما في «آثار البلاد وأخبار العباد» للقزويني (ص ٦٥).

(٢) في المطبوع: «مسير».

(٣) كلمة: «له» من «و» وليست في «ط».

(٤) في «ط» و«و»: «لشبهها له بالنفي»، والصواب المثبت.

(٥) الرجز دون نسبة في «الكتاب» (٣/ ٥١٦)، وعزاه الخليل في «الجمل في النحو» (ص ٢٥٦) للعجاج، ونسب أيضاً لابن جُبابة اللص، ومساور العبسي، وأبي حيان الفقعسي، وعبد بني عبس. انظر: «أمالي ابن الشجري» (٢/ ١٦٥)، و«خزانة الأدب» (١١/ ٤٤٣ـ٤٤٤).

أي: لَـمْ يَعْلَمَـنْ، فقُلِبَـتِ النُّـونُ أَلِفـاً للوَقْـفِ؛ كما في قولـهِ تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا﴾ [العلـق: ١٥]، ﴿وَلَيَكُونًا﴾ [يوسـف: ٣٢].

والصَّحيحُ أَنَّهُ واقعٌ كثيرٌ فصيحٌ، فهو مذهبُ أبي الفتحِ والزَّمَخْشريِّ[١]، ومُختارُ ابنِ مالكٍ[٢]، وظاهرُ قولهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقولهِ سبحانه: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ﴾ [النمل: ١٨]، يَدُلُّ عليهِ.

ومَنَعَهُ الجمهورُ إلَّا في تأكيدٍ أو ضَرورةٍ، فقد قال سيبويه: يَجوزُ في الضَّرورةِ: أنتَ تَفْعَلَنَّ[٣].

ثُمَّ هاتانِ النُّونانِ إحداهُما (**خفيفةٌ ساكنةٌ**)؛ كقولكَ: اذْهَبَنْ؛ أي: اذْهَبِ البَتَّةَ، (**و**) ثانيهما (**ثقيلةٌ مفتوحةٌ**)؛ نحو: اذْهَبَنَّ؛ أي: اذْهَبِ البَتَّةَ البَتَّةَ.

وفي بعضِ النُّسخِ بالنَّصْبِ؛ أي: حالَ كونِ إحداهُما خفيفةً ساكنةً والأُخرى ثقيلةً مفتوحةً في جميعِ الأحوالِ (**إلَّا فيما**)؛ أي: في الفعلِ الذي (**تَخْتَصُّ**) النُّونُ الثَّقيلةُ مِن بينِ النُّونينِ (**به**)؛ أي: بذلك الفعلِ، والمعنى: ما يَنْفرِدُ بلُحوقِ هذا الفعلِ[٤]؛ كما يُقالُ: نَخصُّكَ بالعبادةِ؛ أي: لا نَعْبُدُ غيرَك.

(**وهو**)؛ أي: ما يَخْتَصُّ به عن غيرِه (**فِعْلُ الاثْنَيْنِ**) مذكَّرينِ أو مُؤنَّثَينِ (**وفِعْلُ جماعةِ النِّساءِ، فهي**)؛ أي: النُّونُ الثَّقيلةُ (**مكسورةٌ فيه**)؛ أي: في فِعْلِ الاثنينِ وجماعةِ النِّساءِ، فالضَّميرُ عائدٌ إلى الفعلِ مع قَطْعِ النَّظَرِ عن العطفِ، وجُوِّزَ أَنْ يكونَ عائداً إلى (ما)، ولا يَبْعُدُ أَنْ يعودَ إلى ما ذُكِرَ مِن الفِعْلَينِ.

---

(١) انظر: «الخصائص» لأبي الفتح ابن جني (٣/ ٥١٧)، و«المفصل» للزمخشري (ص ٤٥٨)

(٢) انظر: «شرح التسهيل» (٣/ ٢١٠)، و«شرح الكافية الشافية» (٣/ ١٤٠٣)، كلاهما لابن مالك.

(٣) انظر: «الكتاب» (٢/ ٣٩١).

(٤) في «ط»: «فيما ينفرد ويلحق هذا الفعل».

(فتَقولُ: **اذْهَبَانِّ، للاثْنَينِ**) أو للاثْنَتَينِ، (**واذْهَبْنَانِّ للنِّسوةِ**) بكسرِ النُّونِ فيهما تَشْبيهاً لها بنُونِ التَّثْنيَةِ؛ لأنَّها واقعةٌ بعدَ الألِفِ مِثْلَ نونِ التَّثْنِيَة.

وأمَّا ما أجازَهُ يُونُسُ والكوفيُّونَ مِن دخولِ الخفيفةِ في فعلِ الاثْنَينِ وجماعةِ النِّساء باقيَةً على السُّكونِ عندَ يُونسَ، ونظيرُه قراءةُ نافعٍ: ﴿وَمَحْيَايْ﴾[الأنعام: ١٦٢](١)، ومتحرِّكةً بالكسرِ عندَ بعضٍ، وبه قالَ ابنُ مالكٍ ومَن تَبِعَهُ، وقد حَمَلَ عليهِ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانْ﴾ [يونس: ٨٩] في روايةِ ابنِ ذَكْوانَ بتخفيفِ النُّون(٢) = فقيل: هي الشَّديدةُ، ولكنْ حُذِفَ منها السَّاكنةُ تخفيفاً، فهي مخفَّفةٌ لا خفيفةٌ، فعلى هذا ﴿لَا﴾ ناهيَةٌ والفعلُ في محلِّ جَزْمٍ بها.

وقيل: النُّونُ نونُ رفعٍ، و﴿لَا﴾ للنَّفْي والمرادُ به النَّهيُ.

وقيل: النَّفْيُ على حالِهِ والجملةُ في محلِّ الحالِ، فلا إشْكَال، واللهُ أعلمُ بخَفِيَّةِ الأحوال، وحَقيقةِ الأقوال.

(**فتُدْخِلُ**) أنتَ (**أَلِفاً بعدَ نونِ جمعِ المُؤنَّثِ**) وقبلَ نونِ التَّثْنِيةِ، فتقولُ: اذْهَبْنانِّ، والأصلُ: اذْهَبْنَنَّ، فأَدْخَلْتَ أَلِفاً بينَهما (**لتَفْصِلَ**) تلك الألِفُ ـ أو أنتَ ـ بها (**بينَ النُّونات**) وهي: نونُ جماعةِ النِّساءِ، والمُدْغمةُ والمُدْغَمُ فيها، واخْتَصُّوا الألِفَ لخِفَّتِها، أو لشَبَهِها بألِفِ التَّثْنيَةِ، ولذا كُسِرَتْ نُونُه كنُونِها.

(**ولا تَدْخُلُهما**)؛ أي: فِعْلَ الاثنينِ وجماعةِ النِّساءِ النُّونُ (**الخفيفةُ**) خلافاً ليونُسَ، فلا يقالُ: (اضْرِبانْ) ولا (اضْرِبْنانْ) عندَ غيرِه؛ (**لأنَّهُ يَلْزَمُ**) مِن دخولِهما فيهما (**الْتِقاءُ السَّاكِنَيْنِ**) وهما الألِفُ والنُّونُ (**على غيرِ حَدِّه**)؛ أي: حَدِّ جَوازِه، (**فإنَّ الْتِقاءَ السَّاكِنَينِ إنَّما يَجوزُ إذا كانَ الأوَّلُ**) مِن السَّاكِنَينِ (**حرفَ مَدٍّ**) وهو الألِفُ والواوُ

---

(١) بسكون الياء قراءة نافع بخلاف عن ورش. انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص ١٠٨).

(٢) بتخفيف النون قراءة ابن عامر في رواية ابن ذكوان. المصدر السابق (ص ١٢٣). وانظر: «شرح الكافية الشافية» لابن مالك (٣/ ١٤١٨). وانظر قول يونس في «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٥٢٧).

والياءُ سَوَاكِنَ، وكان الثَّاني منهُما (**مُدْغَماً**) في حرفٍ آخَرَ (**نحو: دابَّةٌ**)، فإنَّ الألِفَ والياءَ ساكنانِ، والألِفُ حرفُ مَدٍّ والثَّاني ـ وهو الباءُ الأُولَى ـ مُدْغَمٌ في الثَّانيةِ.

وكان الأَوْلَى أنْ يقولَ: حرفَ لِينٍ، ليَدْخُلَ فيهِ (خُوَيْصَّة) تصغير (خاصَّة)؛ لأنَّ حرفَ اللِّينِ أعمُّ مِن حرفِ المدِّ، وكأنَّ المصنِّفَ لَمْ يُفرِّقْ بينَهما.

ثُمَّ قيل: (إنَّما) تُفيدُ الحَصْرَ، فيَرِدُ عليهِ أنَّ الْتِقاءَ السَّاكِنَينِ جائزٌ في الوَقْفِ مُطْلقاً، سَواءٌ كان على حَدِّه أو لا، لأنَّه مَحَلُّ التَّخفيفِ والاستراحةِ، فيقال: زيدْ، وعَمْرو، وبَكْرْ، وكذا حالُ التَّعدادِ ولو وَصْلاً، فيقالُ: مِيمْ، جِيمْ، عَينْ، سِينْ.

ويَنْبغي أنْ تُحملَ عبارتُه على ما إذا الْتَقَى السَّاكنانِ في كلمةٍ كما مَثَّلَه بـ(دابَّة)، وكذا فَعَلَه جارُ الله العلَّامةُ[1]، حتَّى لا يَرِدَ عليه ما أَجْمعَ القُرَّاءُ في نحوِ ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ [يونس: ٥١، ٩١] بسكونِ الألِفِ واللَّام، وكذا ﴿وَمَحْيايْ﴾ [الأنعام: ١٦٢][2]، و﴿ٱلَّٰٓـِٔى﴾ [الأحزاب: ٤][3] بسكونِ يائِهما عندَ مَن قرأ بهما، وكذا في بعضِ القراءاتِ مِن السَّبعةِ كـ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢][4]، و﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٥٢][5]، و﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ [النور: ٦٢][6] بإدْغامِ الأوَّلِ مِن المتغايرَيْنِ في الثَّاني، وأمثالِ ذلك.

فإنْ قلتَ: فلِمَ لَمْ يَجُزِ التِقاءُ السَّاكنَيْنِ في نحوِ: ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا ﴾ [النمل: ٤٧] بإثباتِ الواوِ وصلاً، مع أنَّ الأوَّلَ حرفُ مدٍّ والثَّاني مُدْغَمٌ؟

قلتُ: جوازُه مشروطٌ بذلك، ولا يَلْزَمُ مِن وجودِ الشَّرطِ هنالك وجودُ المَشْروطِ كما تَقدَّمَ، واللهُ سبحانهُ أعلمُ.

---

(١) انظر: «المفصل» لجار الله الزمخشري (ص ٤٩٣).

(٢) بسكون الياء قراءة نافع بخلاف عن ورش. انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص ١٠٨).

(٣) قراءة البزي وأبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص ١٧٧ ـ ١٧٨) «النشر» (١/ ٤٠٤).

(٤) بإدغام الشين في السين. انظر: «التيسير» (ص ٢٣).

(٥) بإدغام الدال في الذال. المصدر السابق (ص ٢٤).

(٦) بإدغام الضاد في الشين. المصدر السابق (ص ٢٣).

ثُـمَّ إنَّ النُّـونَ الخفيفـةَ لا تَقْبَـلُ الحركـةَ ـ لأنَّ سـكونَها بِنَائـيٌّ بخـلافِ نونِ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ [البينة: ١]، فـإنَّ سـكونَها إعرابـيٌّ ـ ولهـذا تُحـذَفُ فـي نحـوِ: اضْـرِبَ القـومَ، والأصـلُ: اضْرِبَـنْ، ولـذا قال الشَّـاعرُ:

لا تُهِيـنَ الفقيـرَ عَلَّـكَ أنْ تَـرْ كَـعَ يومـاً والدَّهـرُ قـد رَفَعَـهْ[1]

أي: تُهينَـنْ، وإلَّا لَوَجـبَ أنْ يُقـالَ: لا تُهِـنِ الفقيـرَ؛ لأنَّهُ نهيٌ، فحُذِفَـتِ النُّونُ الخَفيفـةُ لالْتِقاءِ السَّـاكنَيْنِ ولَـمْ تُحَرَّكْ.

والمعنَى: لا تَفْخَرْ بغِناكَ عليهِ، فإنَّ الدَّهرَ لا يَتركُ الفقيرَ على فَقْرِه ولا الغنيَّ على غِنَاهُ، فالرُّكوعُ كنايةٌ عن تَغيُّرِ الحالِ بانحطاطٍ بعدَ الارْتِفاع.

وقوله: (والدَّهرُ قد رَفَعه) جملةٌ حاليَّةٌ مِن ضميرِ (تَرْكعُ)، على حدِّ قولِهِ: «كُنْتُ نبيّاً وآدمُ بينَ الماءِ والطِّين»[2].

وقيل: مِن الضَّميرِ، وهو غلطٌ في المَبْنَى لفسادِ المعنى، ولو قال الشَّاعرُ: (تُخْفَضَ) بَدَلَ: (تَرْكعَ) لكانَ أحسنَ مَبْنًى، وأَبْيَنَ مَعْنًى.

هذا وقَبْلَه:

لـكلِّ هَـمٍّ مِـن الهمـومِ سَـعَهْ والصُّبْـحُ والمُسْـيُ[3] لا بقـاءَ مَعَـهْ

قـد يَجْمـعُ المـالَ غيـرُ آكِلِـهِ ويـأكلُ المـالَ غيـرُ مَـن جَمَعَـهْ[4]

---

(١) البيت للأضبط بن قريع كما في «خزانة الأدب» (١١/ ٤٧٩)، ودون نسبة في «الجمل في النحو» للخليل (ص ٣٣٣)، و«المفصل» (ص ٤٥٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٨/ ٣٦٩)، وفيه: لا أصل له، لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث بهذا اللفظ، وهو باطل فإنه لم يكن بين الماء والطين؛ إذ الطين ماء وتراب.

(٣) في «ط» و«و»: «والمساء»، والمثبت من المصادر كما يأتي.

(٤) انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٤/ ٣٨)، و«البيان والتبيين» للجاحظ (١/ ٥٤٤)، و«الأغاني» (١٨/ ١٣٢).

(ويُحْذَفُ مِن الفعلِ مَعَهُما): أي حالَ كونِ الفعلِ مَقروناً مع النُّونَيْنِ **(النُّونُ التي في الأمثلةِ الخَمْسةِ، وهي: يَفْعَلانِ)** للغائبَيْنِ، **(وتَفْعَلَانِ)** للغائِبَتَيْنِ والـمُخاطَبَيْنِ والـمُخاطَبَتَيْنِ، **(ويَفْعلونَ)** للغائبِينَ، **(وتَفْعلونَ)** للمُخاطَبِينَ، **(وتَفْعلينَ)** للمُخاطَبَةِ. مِن أيِّ بابٍ كانَتْ هذهِ الأمثلةُ: ثلاثيّاً أو رُبَاعيّاً، مُجرَّداً أو مَزِيداً، فالمقصودُ مِن الأمثلةِ: هي وأمثالُها.

وإنَّما يُحذَفُ النُّونُ فيها لِمَا تَقَدَّمَ مِن أنَّ النُّونَ فيها علامةُ الإعرابِ، والفعلُ مع نونِ التَّأكيدِ يَصير مَبْنيّاً كما ذَكَرْنا في نونِ جماعةِ النِّساءِ مِن هذا البابِ.

وقد تَقَدَّمَ أنَّه لا مَعيَّةَ بينَ الخفيفةِ وفِعْلِ الاثنينِ، فلا يكونُ فيهِ إلَّا على مَذهَبِ يُونسَ[1]، واللهُ أعلمُ بالصَّواب.

(ويُحْذَفُ) مع حَذْفِ النُّونِ **(واوُ يَفْعَلونَ)** للغائبِينَ، **(و)** واوُ تَفْعَلونَ للمخاطَبِينَ، و**(ياءُ تَفْعلِينَ)** للمخاطَبةِ؛ لأنَّ الْتِقاءَ الساكنَيْنِ وإنْ كانَ على حَدِّه على ما هو ظاهرُ كلامِ المصنِّفِ، لكنَّه ثَقُلَتِ الكلمةُ واسْتَطالَتْ، وكانَتِ الضمَّةُ[2] والكسرةُ تَدُلَّانِ على الواوِ والياءِ فحُذِفَتَا، وهذا مع الثَّقيلةِ، وأمَّا مع الخفيفةِ فالْتِقاءُ السَّاكنَيْنِ على غيرِ حدِّهِ فلا إشكالَ.

والقياسُ يَقتضي أنْ لا يُحذفَ الواوُ [والياءُ][3] أيضاً كالألِفِ كما هو مذهبُ بعضِهم، إذ كلٌّ منهُما في هذهِ الأمثلةِ ضميرُ الفاعِلِ، والفاعِلُ وحدَهُ لا يُحذَفُ، والْتِقاءُ السَّاكِنَيْنِ على حَدِّه، لكنْ سَبَقَ أنَّ الْتِقاءَ السَّاكنَينِ لا يَجِبُ أنْ يَجوزُ[4] عندَ وجودِ شرطِهِ؛ لأنَّ وجودَ الشَّرطِ لا يَلْزمُ منهُ وجودُ المشروط.

---

(١) تقدم مذهبه قريباً.

(٢) في «ط» و«و»: «الفتحة»، وجاء في هامش «ط»: «الصواب: الضمة». وهو كما قال.

(٣) زيادة يقتضيها السياق. انظر: «شرح تصريف العزي» للتفتازاني (ص ٨٤).

(٤) قوله: «لكن سبق...»، كذا وقعت العبارة في «ط» و«و»، ولعل الصواب: «لكن سبق أن ضمير =

هذا، والمعروفُ عندَ علماءِ هذا الفنِّ - بل حَكَى بعضُهم الاتِّفاقَ عليه -: أنَّ حدَّ اِلتِقاءِ السَّاكِنَيْنِ أنْ يكونَ الأوَّلُ حرفَ لِيْنٍ والثَّاني مُدْغَماً، ويَكونا في كلمةٍ، فهو هاهُنا ليس على حَدِّه لأنَّه في كلمتينِ: الفعلِ ونونِ التأكيد، لكنَّهُ اغْتُفِرَ في الألِفِ وإنْ لَمْ يَكُنْ على حدِّهِ لدَفْعِ الالْتِباسِ - وإنَّ الدَّفعَ أسهلُ مِن الرَّفعِ - وكونِ وجودِ الْتِقاءِ السَّاكنَينِ مع الألِفِ أخفَّ مِن حَذْفِ الألِفِ؛ لأنَّ فيهِ انتقالاً مِن الأخفِّ وهو الفتحُ إلى الأثقلِ وهو الكسرُ، مع حذفِ الواوِ والياءِ يَنْقُلُ مِن الأثقلِ وهو الضَّمُّ أو الكسرُ إلى الأخفِّ وهو الفتحُ.

ففي الجملةِ: يُحذفُ الواوُ والياءُ منهُما ولا تَثْبُتانِ في وقتٍ مِن الأوقاتِ **(إلَّا إذا انْفَتَحَ ما قَبْلَهما)**، فإنَّهما لا تُحْذَفانِ حينئذٍ لعَدَمِ ما يَدُلُّ عليهِما، أعني: الضَّمَّ والكَسْرَ، بل يُحرَّكُ الواوُ بالضَّمِّ والياءُ بالكسرِ لدَفْعِ الْتِقاءِ السَّاكنَينِ.

(نحوَ: لا تَخْشَوُنَّ) أصلُه: تَخْشَيُونَ، حُذِفَتْ ضمَّةُ الياءِ للثِّقَلِ، ثُمَّ الياءُ لالْتِقاءِ الساكِنَينِ، فقيل: تَخْشَوْنَ، وأُدْخِلَ (لا) النَّاهيَةُ فحُذِفَتِ النُّونُ فقيل: لا تَخْشَوْا، فلمَّا أُلْحِقَ نونُ التَّأكيدِ الْتَقَى السَّاكِنانِ: الواوُ والنُّونُ الـمُدْغَمَةُ، ولَمْ يُحْذَفِ الواوُ لعَدَمِ ما يَدُلُّ عليهِ، بل حُرِّكَ بما يناسِبُهُ وهو الضَّمُّ لكونها[1] أُختَهُ، فقيل: لا تَخْشَوُنَّ، فهي نهيُ المخاطَبِ لجماعةِ الذُّكور.

(و: لا تَخْشَيِنَّ) أصلُه: تَخْشَيِنَ، حُذِفَتْ كسرةُ الياءِ لِثِقَلِها، ثُمَّ الياءُ الأُولَى لالْتِقاءِ الساكِنَينِ، فصار: تَخْشَيْنَ، وأُدْخِلَ (لا) النَّاهيَةُ وحُذِفَتِ النُّونُ، فقيل: لا تَخْشَيْ، فلمَّا لَحِقَ نونُ التأكيدِ الْتَقَى ساكنانِ: الياءُ والنونُ، فلَمْ يُحْذَفْ لِـمَا مَرَّ، بل حُرِّكَتْ بالكسرِ لـمُناسَبَتِهِ الياءَ، وهو نهيُ المخاطَبَةِ.

= الفاعل عند التقاء الساكنين لا يجب أن يحذف بل يجوز...». انظر المصدر السابق وفيه: «لكن قد ذكرنا أنه لا يجب بل يجوز وإن كان على حده».

(١) في «ط» و«و»: «لكونه»، والصواب المثبت.

(و: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ [آل عمران: ١٨٦]) أصلُه: لتبْلَوُوْنَ، فأُعِلَّ إعلالَ (تَخْشَوْنَ) فقيل: لَتُبْلَوْنَ، فأُدْخِلَ نونُ التَّأكيدِ وحُذِفَتْ نونُ الإعرابِ لتَوالي الأمثالِ، وضُمَّتِ الواوُ كما في (لا تَخْشَوُنَّ)، وهو فعلُ جماعةِ الذُّكورِ المخاطَبِينَ مبنيّاً للمفعول مِن البلاءِ، وهو التَّجْربةُ والامْتِحانُ.

(و: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ [مريم: ٢٦]) أصلُه: تَرْأَيِينَ، على وزنِ: تَفْعَلِينَ، حُذِفَتْ همزتُه لِـمَا سيَجِيءُ في المهموزِ مِن أنَّ مُضارِعَ (رَأَى) قد الْتَزَموا حذفَ عينِهِ بعدَ نَقْلِ حركتِها إلى السَّاكِنِ قبلَها تخفيفاً لكثرةِ الاستعمالِ، فقيل: تَرَيِينَ، ثُمَّ حُذِفَتْ كسرةُ الياءِ ثُمَّ الياءُ لِـمَا تَقدَّمَ، فقيل: تَرَيْنَ، فأُدْخِلَ (إمَّا)، وهي مرُكَّبةٌ مِن (إنْ) الشَّرْطيَّةِ و(ما) الـمَزِيدةِ للتَّأكيدِ في القضيَّةِ، فحُذِفَتِ النُّونُ عَلَامةً للجَزْمِ، فأُلْحِقَ نونُ التَّأكيدِ وكُسِرَ الياءُ ولَمْ يُحْذَفْ لِـمَا ذُكِرَ في (تَخْشَيْنَ)، فصارَ (إمَّا تَرَيِنَّ).

وجازَ لكَ أنْ تقولَ في الجميعِ: قُلِبَتِ الواوُ والياءُ أَلِفاً لتَحَرُّكِهما وانفتاحِ ما قبلَهُما، ثُمَّ حُذِفَتِ الألِفُ، وهذا أَوْلَى؛ لأنَّه قياسٌ مُطَّرِدٌ مع طيِّ المسافةِ في الـمَبْنَى.

وقد أخطأَ الكَوَاشيُّ[1] في «تفسيره» حيثُ ظنَّ أنَّ المحذوفَ واوُ الضَّميرِ وياؤُه، بل المحذوفُ لامُ الفعلِ؛ لأنَّه أَوْلَى بالحذفِ مِن ضميرِ الفاعلِ؛ لأنَّ اللَّامَ مَحَلُّ التَّغييرِ؛ لكونِهِ آخِرَ الكلمةِ، وقد قيل: الأطرافُ محلُّ الأهدافِ، والفاعلُ لا يَجوزُ حَذْفُه خلافاً لأهلِ الاعْتِساف.

وقال ابنُ مالكٍ: حذفُ ياءِ الضَّميرِ بعد الفتحةِ لغةٌ طائيَّةٌ[2]؛ نحوَ: ارْضِنَّ، في: ارْضَيْ، وكذا: لا تَخْشِنَّ، في: لا تَخْشَيْ.

---

(١) موفق الدين أحمد بن يوسف بن حسن، أبو العباس الموصلي المفسر، ولد بكواشة وهي قلعة من الموصل، صنف التفسير الكبير والصغير، توفي سنة (٦٨٠هـ). انظر: «الوافي بالوفيات» (٨/ ٢٩١). ونقل المؤلف كلامه من «شرح تصريف العزي» للتفتازاني (ص ٨٦).

(٢) انظر: «التسهيل» (ص ٢١٦).

(ويُفْتَحُ) مع النُّونَينِ (آخِرُ الفعلِ) حقيقةً أو حُكماً؛ ليَشْمَلَ نحوَ: لا تَخْشَوُنَّ، و: لا تَخْشَيِنَّ، فإنَّ الواوَ والياءَ ليستَا آخِرَ الفعلِ، بل كلٌّ منهُما اسمٌ برأسِهِ؛ لأنَّ الفعلَ: يَخْشَى، وهما ضميرُ الفاعلِ، إلَّا أنَّ هذا الضَّميرَ كجزءٍ مِن الفعلِ فكأنَّهُ آخِرُ الفعلِ.

وقيل: المرادُ بالفعلِ غيرُ النَّاقصِ إذْ عُلِمَ حُكْمُه في (لَتُبْلَوُنَّ) و(تَرَيِنَّ).

(إذا كانَ)؛ أي: الفعلُ (فِعْلَ الواحِدِ) غائباً كانَ أو حاضراً (أو الواحدةِ الغائبةِ)؛ لأنَّ الفتحَ هو الأصلُ لخِفَّتِهِ، فالعدولُ عنه إنَّما يكونُ لغَرَضٍ عَرَضَ في عِلَّتِهِ.

(ويُضَمُّ)؛ أي: آخِرُ الفعلِ (إذا كانَ)؛ أي: الفعلُ (فِعْلَ جماعةِ الذُّكورِ)؛ ليَدُلَّ الضمُّ على الواوِ المحذوفةِ.

(ويُكْسَرُ)؛ أي: آخِرُ الفعلِ (إذا كانَ)؛ أي: الفعلُ (فِعْلَ الواحِدةِ المُخاطَبةِ)؛ ليَدُلَّ الكسرةُ على الياءِ المحذوفةِ.

(فتقولُ في أمرِ الغائبِ مُؤكِّداً) ـ بكسرِ الكافِ، ويجوزُ فتحُه ـ (بالنُّونِ الثَّقيلةِ: لِيَنْصُرَنَّ) بالفتحِ لكونهِ فِعْلَ الواحد (لِيَنْصُرانِّ لِيَنْصُرُنَّ) بالضَّمِّ لكونهِ فِعْلَ جماعة الذُّكور، أصلُه: لِيَنْصُرونَّ، حُذِفتِ الواوُ لالتقاءِ السَّاكِنَينِ، (لِتَنْصُرَنَّ) بالفتحِ أيضاً لأنَّهُ فعلُ الواحدةِ الغائبةِ، (لِتَنْصُرانِّ لِيَنْصُرْنانِّ) كما مرَّ.

(وبالخَفيفةِ: لِيَنْصُرَنْ) بالفتحِ، (لِيَنْصُرُنْ) بالضَّمِّ، (لِتَنْصُرَنْ) بالفتحِ لِـمَا عُلِمَ، وتَرَكَ البَوَاقيَ لأنَّ الخفيفةَ لا تَدْخُلُها.

(و) وتقولُ (في أمرِ الحاضِرِ مؤكِّداً) وفي نسخةٍ: المؤكَّدِ (بالثَّقيلةِ: انْصُرَنَّ) بالفتحِ لأنَّهُ فِعْلُ الواحِدِ، (انْصُرانِّ انْصُرُنَّ) بالضَّمِّ لأنَّهُ فِعْلُ جماعةِ الذُّكورِ، (انْصُرِنَّ) بالكسرِ لأنَّهُ فِعْلُ الواحِدةِ المخاطَبةِ، (انْصُرانِّ انْصُرْنانِّ) لجمعِ الإناث.

(وبالخَفيفةِ: انْصُرَنْ، انْصُرُنْ، انْصُرِنْ).

(وقِسْ على هذهِ نَظائِرَهُ)؛ أي: أشباهَ كلٍّ مِن لِيَنْصُرَنَّ وانْصُرَنَّ.. إلى آخِرِهما؛ مِن نَحْوِ: لِيَضْرِبَنَّ ولِيَعْلَمَنَّ وغيرِ ذلك، إلى سائرِ الأفعالِ والأمثلةِ التي تُوجَدُ هُنالِك.

(**وأمَّا اسمُ الفاعِلِ والمفعولِ مِن الثُّلاثيِّ المجرَّدِ**) احْتِرازٌ مِن الرُّباعيّ، ومِن الثُّلاثيِّ الـمَزيدِ فيهِ؛ لِـمَا سيأتي حُكْمُها.

(**فالأكثرُ**) استِعْمالاً (**أنْ يَجِيءَ اسمُ الفاعلِ منهُ**)؛ أي: مِن الثُّلاثيِّ المجرَّدِ (**على فاعِلٍ، تَقولُ: ناصِرٌ**) للواحِدِ (**ناصِرانِ**) للاثْنَينِ حالَ الرَّفْعِ، وناصِرَينِ حالَ النَّصْبِ والجَرِّ، (**ناصِرونَ**) لجماعةِ الذُّكورِ في الرَّفْعِ، و: ناصِرِينَ، في غيرِه.

وفَتَحُوا ما قَبْلَ الياءِ في الـمُثَنَّى وكَسَروهُ في الجَمْعِ، وفَتَحُوا النُّونَ في الجمعِ وكَسَروهُ في الـمُثنَّى فرقاً بينَهُما، لا سيَّما في نحوِ: الـمُصْطَفَيْنَ[1].

(**ناصِرةٌ**) للواحِدةِ (**ناصِرَتانِ**) للاثْنَتَينِ (**ناصِراتٌ**) لجماعةِ الإناثِ (**ونَوَاصِرُ**) لها أيضاً، إلَّا أنَّ الأوَّلَ جمعٌ سالمٌ والثَّاني مُكَسَّرٌ.

(**واسمُ المَفعولِ**)؛ أي: والأكثرُ (**أنْ يَجِيءَ على مفعولٍ، تقولُ: مَنْصورٌ، مَنْصورانِ، مَنْصُورونَ، مَنْصُورةٌ، مَنْصُورَتانِ، مَنْصُوراتٌ**) وفي نسخةٍ زيادةُ: (**ومَنَاصِرُ**) جمعٌ مُكسَّرٌ لمنصورٍ.

وإنَّما قال: (الأكثرُ فيهما)؛ لأنَّهما قد يكونانِ على غيرِ فاعِلٍ ومفعولٍ؛ نحوَ: ضَرَّابٍ، وضَرُوبٍ، ومِضْرابٍ، وعَليمٍ، وحَذِرٍ، في اسمِ الفاعِلِ، ونحوَ: قَتيلٍ وحَلُوبٍ في اسمِ المفعولِ، وكذا الصِّفةُ الـمُشَبَّهةُ باسم[2] فاعلٍ عندَ أهلِ هذهِ الصَّنعةِ، وأمَّا عندَ النَّحْوِيِّينَ فالنَّوعُ الأوَّلُ مشهورٌ بأمثلةِ الـمُبالَغةِ، والثَّاني وهو الفَعِيلُ بمعنى الفاعِلِ أو المفعولِ ـ كما سيأتي ـ خارِجان عن اسْمَي الفاعِلِ والمفعولِ.

وأمَّا الصِّفةُ المشبَّهةُ فالأمرُ فيها أَظْهَرُ، فتَدَبَّرْ.

---

(١) يعني: لما رأوا ما قبل الياء يفتح في بعض صور الجمع كالمثال المذكور، فتحوا النون في الجمع وكسروه في المثنى، للتمييز بينهما.

(٢) في هامش «ط»: «الباء متعلقة بـ: المشبهة».

(**وتقولُ**): رجلٌ (**مَمْرورٌ به**)، و: رَجُلانِ (**مَمْرورٌ بهما**)، و: رجالٌ (**مَمْرورٌ بهم**)، و: امرأةٌ (**مَمْرورٌ بها**)، و: امْرأتانِ (**مَمْرورٌ بهما**)، و: نساءٌ (**مَمْرورٌ بِهِنَّ**)؛ أي: لا يُثَنَّى اسمُ فاعِلٍ مِن الفعلِ اللَّازم إلَّا بَعْدَ أنْ تُعَدِّيَهُ؛ إذ ليسَ لهُ مفعولٌ في أصلِ وضعِهِ.

(**فتُثَنِّي**) أنتَ (**وتَجْمَعُ**) وتُذَكِّرُ (**وتُؤَنِّثُ الضَّميرَ فيما**)؛ أي: في اسمِ المفعولِ الذي (**يَتَعدَّى**) بحرفِ الجرِّ، (**لا اسمَ المفعولِ**) عَطْفٌ على (الضَّميرَ)؛ أي: لا تُغَيِّرُه عن حالِهِ، فلا تقولُ: مَمْرورانِ بهما، ولا: مَمْرورونَ بهم، ولا: مَمْرورةٌ بها، ونحوَ ذلك؛ لأنَّ القائمَ مَقامَ الفاعِلِ لفظاً ـ أعني: الجارَّ والمجرورَ ـ مِن حيثُ هو ليسَ بمؤنَّثٍ لا مُثنًّى ولا مجموعٍ، فلا وجهَ لتأنيثِ العاملِ وتَثْنيَتِهِ وجَمْعِهِ.

(**وفَعِيلٌ قد يَجِيءُ بمعنَى الفاعِلِ كالرَّحِيم**) بمعنَى الرَّاحِمِ مع المُبالَغةِ، (**وبمعنَى المفعولِ كالقتيلِ**) بمعنَى المقتولِ، وأَمْثِلتُهما في التَّثنيَةِ والجمعِ والتَّذكيرِ والتَّأنيثِ كأَمْثلةِ اسمِ الفاعلِ، إلَّا أنَّه يَستوي لفظُ المُذكَّرِ والمؤنَّثِ في الذي بمعنَى المفعولِ إذا ذُكِرَ الموصوفُ، نحوَ: رَجُلٌ قَتيلٌ، وامرأةٌ قَتيلٌ، بخلافِ: مَرَرْتُ بقَتيلِ فلانٍ وقَتيلتِهِ، فإنَّهما لا يَستوِيانِ خوفَ اللَّبْسِ.

ثُمَّ هذا في الثُّلاثيِّ، (**وأمَّا ما زادَ على الثَّلاثةِ**) ثلاثيّاً باعتبارِ أصلِهِ أو رُباعيّاً (**فالضَّابطُ فيه**)؛ أي: في بناءِ اسمِ الفاعِلِ والمفعولِ منه: (**أنْ تَضَعَ في مُضارِعِهِ الميمَ المضمومةَ مَوْضعَ حرفِ المُضارَعةِ، وتَكْسِرَ ما قَبْلَ آخِره**)؛ أي: آخِرِ المُضارِعِ (**في**) اسمِ (**الفاعِلِ، وتَفْتحَهُ**)؛ أي: ما قَبْلَ آخِره (**في**) اسمِ (**المفعولِ، نحوَ: مُكْرَمٍ**) بضمِّ الميمِ وكسرِ الرَّاءِ اسمَ فاعِلٍ، (**ومُكْرِمٍ**) بضمِّ الميمِ وفتحِ الرَّاءِ اسمَ مفعولٍ.

(**ومُدَحْرِجٍ ومُدَحْرَجٍ، ومُسْتَخْرِجٍ ومُسْتَخْرَجٍ**)؛ أي: بكسرِ ما قَبْلَ آخِرِهما في الفاعِلِ وفتحِهِ في المفعول.

وكذا قياسُ بَوَاقي الأمثلةِ إلَّا ما شذَّ في بعضِ اللُّغةِ؛ نحو: أَسْهَبَ في الكلامِ؛ أي: أَطْنَبَ، فهو مُسْهَبٌ بفتحِ الهاء.

(**وقد يَسْتوِي لفظُ**) اسمِ (**الفاعِلِ والمفعولِ في بعضِ المَوَاضعِ؛ كمُحَابٍّ ومُتَحَابٍّ**) بتشديدِ الباءِ فيهما، (**ومُخْتارٍ ومُضْطرٍّ**) وفي نسخةٍ زيادةُ: (**مُنْقادٍ**)، (**ومُعْتَدٍّ**) بتشديدِ الدَّالِ، وكذا نحوُهما ممَّا كان الفعلُ متعدِّياً بنَفْسِه.

(**ومُنْصَبٍّ**) في اسمِ الفاعلِ (**ومُنْصَبٍّ فيه**) في اسمِ المفعولِ، (**ومُنْجابٍ**)؛ أي: مُنْقَطِعٍ ومُنْكَشِفٍ في اسمِ الفاعلِ (**ومُنْجابٍ عنه**) في اسمِ المفعولِ، ونحوِهما ممَّا كانَ الفعلُ متعدِّياً بالحرفِ.

فإنَّ اسمَ الفاعِلِ والمفعولِ في هذهِ الأمثلةِ كلِّها مُسْتَوٍ؛ لسُكونِ ما قَبْلَ الآخِرِ: بالإدْغامِ في بعضٍ، وبالقَلْبِ في بعضٍ، والفَرْقُ إنَّما كانَ بحركتِهِ، فلمَّا زالتِ الحركةُ اسْتَوَيَا في التَّقدير.

(**وتَخْتَلِفُ**)؛ أي: حالُها (**في التَّقْديرِ**) ـ وفي نسخةٍ: (**ويَخْتلِفُ التَّقديرُ**) ـ أي: تقديرُها؛ لأنَّه يُقَدَّرُ كسرُ ما قَبْلَ الآخِرِ في اسمِ الفاعلِ، وفتحُه في اسمِ المفعولِ، ويُفرَّقُ في المتعدِّي بالحرفِ بأنَّه يَلزمُ منه ذكرُ الجارِّ والمجرورِ مع اسمِ المفعولِ بخلافِ اسمِ الفاعلِ.

وقد فَرَغَ المصنِّفُ مِن بحثِ السَّالمِ فحانَ أنْ يَشْرعَ في غيرِه، وهو ثلاثةٌ: الـمُضاعَفُ والـمُعْتَلُّ والمهموزُ، وقد ذَكَرهُ في ثلاثةِ فصولٍ، وكأنَّهُ أَلْحقَ الـمُضاعَفَ بالسَّالمِ لقلَّةِ تَغَيُّرِه، وأَلْحقَ المهموزَ بالمعتلِّ لكثرةِ تَغَيُّرِه في تَعْبيرِه، فقال:

(فصل)

أي: هـذا فَصْـلٌ ويؤيِّدُه أنَّ في نسـخةٍ: (فـي المضاعَفِ)، وفي نسـخةٍ بإضافةِ الفصـلِ إليـهِ، وفي أُخـرى وهي المعتمَـدَةُ (**المُضَاعَـفُ**) بالرَّفـعِ على أنَّهُ مبتـدأٌ، ثُمَّ هو اسـمُ مفعولٍ مِـن ضاعَفَ.

(**ويُقالُ لهُ: الأَصَمُّ**) لتَحقُّقِ الشِّدَّةِ فيهِ بواسطةِ الإدْغامِ، وكان أهلُ الجاهليَّةِ يُسمُّونَ رَجَباً: شَهْرَ اللهِ الأصمَّ، قال الخليلُ: إنَّما سُمِّي بذلك لأنَّه لا يُسمَعُ فيهِ صوتُ مُسْتغيثٍ؛ لأنَّه مِن الأشهُرِ الحُرُمِ، وهي: ذو القَعْدةِ، وذو الحَجَّةِ، والـمُحرَّمُ، ورَجَبٌ، ولا يُسْمَعُ فيه أيضاً حركةُ قتالٍ ولا قعقعةُ سلاحٍ[1]؛ أي: صوتُهما.

(وهو)؛ أي: المضاعَفُ (**مِن الثُّلاثيِّ المُجرَّدِ والمَزِيدِ فيه: ما كان عينُه ولامُه مِن جنسٍ واحدٍ**) سواءٌ كانا مِن حروفِ العلَّةِ كـ: حَيَّ، أو لا (**كـ: رَدَّ**) ومَدَّ في الثُّلاثيِّ المجرَّدِ، (**وأَعَدَّ**)؛ أي: الشيءَ: هيَّأهُ، وكذا الأمرُ في الـمَزيدِ فيه، (**فإنَّ أصلَهما: رَدَدَ**) ومَدَدَ، أُسْكِنَتِ الأُولى وأُدْغِمَتْ في الثَّانيَةِ، (**و: أَعْدَدَ**) نُقلَتْ حركةُ الأُولى إلى ما قَبْلَها فأُدْغِمَتْ في الثَّانيَة.

(**ومِن الرُّباعيِّ**) مُجرَّداً أو مَزيداً فيه: (**ما كانَ فاؤُه ولامُهُ الأُولَى مِن جنسٍ واحدٍ، وكذلكَ عينُه ولامُه الثَّانيةُ مِن جنسٍ واحدٍ، ويقالُ له**)؛ أي: للمُضاعَفِ الرُّباعيِّ: (**المُطابَقُ أيضاً**) وهو بفتحِ الباءِ اسمُ مفعولٍ مِن الـمُطابَقةِ بمعنى الـمُوافَقةِ؛ لأنَّه طُوبِقَ فيه بينَ الفاءِ واللَّامِ الأُولَى، وبينَ العينِ واللَّامِ الثَّانيةِ (**نحوَ: زَلْزَلَ**) الشَّيءَ؛ أي: حَرَّكَه (**زلزلةً**) مصدرٌ قياسيٌّ، (**وزِلْزالاً**) بكسرِ أَوَّلِهِ ويُفْتَحُ، ويَتعيَّنُ الكسرُ في السَّالمِ؛ نحوَ: دِحْراجاً، وهو مصدرٌ سماعيٌّ.

---

(١) انظر: «الصحاح» (مادة: رجب).

(وإنَّما أُلْحِقَ المُضاعَفُ بالمُعتلَّاتِ) حيثُ عُدَّ في غيرِ السَّالمِ مع أنَّ حروفَهُ حُروفُ الصَّحيحِ؛ (لأنَّ حرفَ التَّضْعيفِ يَلْحقُه الإبدالُ، كقولهم: أَمْلَيْتُ، بمعنَى: أَمْلَلْتُ) يعني أصلُه: (أَمْلَلْتُ) فقُلِبَتِ اللَّامُ الأخيرةُ ياءً لثِقَلِ اجتِماعِ الـمِثْلينِ مع تَعذُّرِ الإدغامِ لسكونِ الثَّاني.

قال ابنُ عُصْفورٍ: وإنَّما جَعَلْنا اللَّامَ أصلاً لأنَّ (أَمْلَلْتُ) أكثرُ مِن أَمْلَيْتُ[1].

وذهبَ بعضٌ إلى أنَّهما لُغتانِ لأنَّ تَصرُّفَهما واحدٌ، فليس جَعْلُ أحدِهما أصلاً والآخَرِ فَرْعاً أَوْلَى مِن العكسِ، فيجوزُ أنْ يكونَا أصليَّيْنِ في الـمَبْنَى متَّفِقَيْنِ في المعنَى، ومنه قولُهم: تَقَضَّى البازِيُّ؛ أي: نَزَلَ، وأصلُه: تَقَضَّضَ، استَثْقَلوا ثلاثَ ضادَاتٍ فأَبْدَلوا أُخْراهُما ياءً، كما قالوا: تَظَنَّى، في تَظَنَّنَ، وكـ: ﴿دَسَّـٰهَا﴾ [الشمس: ١٠]؛ أي: دسَّسَها وأَخْفاها، و: قَصَّيْتُ أظْفاري، في: قَصَصْتُ بمعنَى قَطَعْتُ.

(والحذفُ)؛ أي: ويَلْحَقُه أيضاً حَذْفُ شيءٍ مِن حروفِ أُصولِه؛ (كقولِهم: مسْتُ وظلْتُ) بسكونِ السِّينِ واللَّامِ، وقولُه: (بفَتْحِ الفاءِ)؛ أي: فاءِ الفعلِ وهو الميمُ والظَّاءُ (وكَسْرِها، وأَحَسْتُ) بسكونِ السِّين.

(أي: مَسِسْتُ) بكسرِ السِّينِ الأُولى، وهي اللُّغةُ الفَصيحةُ، ومُضارِعُه بفَتْحِها، وحَكَى أبو عُبيدةَ: مَسَسْتُ الشَّيءَ [بالفتحِ] أَمُسُّه بالضَّم[2].

(وظَلِلْتُ) بكسرِ اللَّامِ الأُولى لا غير.

(وأَحْسَسْتُ) على وزنِ: أَكْرَمْتُ؛ أي: أَيْقَنْتُ، وربَّما قالوا: أَحْسَيْتُ، وحَسيْتُ مخفَّفاً ومُشدَّداً، بإبدالِ السِّينِ ياءً.

---

(١) انظر: «الممتع» لابن عصفور (ص ٢٤٧).

(٢) انظر: «الصحاح» (مادة: مسس)، وما بين معكوفتين منه.

أمَّا فتحُها(١) فلأنَّه حُذِفَتْ عينُ الفعلِ ـ وهو السِّينُ الأُولى في المثالِ الأوَّلِ واللَّامُ الأُولَى في الثَّاني ـ بحركتِها، فبَقِيَ فاءُ الفعلِ في المثالَيْنِ مفتوحةً بحالها، وأمَّا كسرُها فلأنَّه نُقِلَتْ حركةُ عينِ الفعلِ إلى ما قَبْلَها بعدَ سَلْبِ حركتِها وحُذِفَتِ العينُ.

وأمَّا (أَحَسْتُ) فنُقِلَتْ فتحةُ السِّينِ إلى الحاءِ، فحُذِفَتْ إحدَى السِّينَيْنِ.

وفي التنزيلِ: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥]؛ أي: صِرْتُم تَعْجَبونَ، و: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧]؛ أي: صِرْتَ عليهِ مُلازِماً مُلاطِفاً.

(**والمُضاعَفُ يَلْحَقهُ الإدْغامُ**) مِن بابِ الإفْعالِ مِن عباراتِ الكوفيِّين، ومِن الافْتِعالِ مِن عباراتِ البَصْريِّينَ، وكلاهُما مُتعدٍّ، ففي «الصِّحاح»: أَدْغَمْتُ الحرفَ وادَّغَمْتُه، ويقالُ: أَدْغَمْتُ اللِّجامَ في الفَرَسِ؛ أي: أَدْخَلْتُه في فيهِ(٢).

وفي اصْطِلاحِ القُرَّاءِ: إدخالُ حرفٍ في حرفٍ ورَفْعُ اللِّسانِ بهما دفعةً واحدةً، وهو أنواعٌ: مِن المُتَماثِلَينِ والمُتَقارِبَينِ والـمُتَجانِسَينِ، في كلمةٍ أو كلمتينِ، كما هو مُبيَّنٌ في محلِّه الأَلْيَقِ به.

وأمَّا في اصْطِلاحِ الصَّرفيِّ: (**فهو أنْ تُسَكِّنَ الحرفَ الأوَّلَ**) مِن المتماثِلَينِ مَخرَجاً وصِفةً (**وتُدْرِجَ**)؛ أي: تُدْخِلَ (**في الثَّاني**) مِن الحَرْفَينِ بحيثُ يَصيرانِ كأنَّهما حرفٌ واحدٌ مُشدَّدٌ، ولذا يُكْتَبُ بواحدٍ؛ نحوَ: مَدَّ، فإنَّ أصلهُ: مَدَدَ، أَسْكَنْتَ الدَّالَ الأُولى وأَدْرَجْتَها في الثَّانية.

(**ويُسمَّى الأوَّلُ**) مِن الحرفَينِ إذا أَدْغَمْتَه: (**مُدْغَماً**) بصيغةِ المفعولِ لإدغامِكَ إيَّاه، (**والثَّاني: مُدْغَماً فيه**) لإدْغامِكَ الأوَّلَ فيه.

والإدْغامُ نوعٌ مِن التَّخفيفِ، وهو واجِبٌ وجائزٌ ومُمتنِعٌ؛ كما بيَّنهُ المصنِّفُ:

---

(١) أي: فتح الميم والظاء من «مست» و«ظلت».

(٢) انظر: «الصحاح» (مادة: دغم).

(**وذلك واجبٌ**)؛ أي: في الماضي والمضارعِ مِن الثُّلاثيِّ المجرَّدِ مُطْلَقاً، ومِن الـمَزيدِ فيه مِن الأبوابِ التي يَذْكُرُها، لكنَّه ما لَمْ يَتَّصِلْ بهما الضَّمائرُ البارِزةُ المرفوعةُ، فإنِ اتَّصلتْ ففيهِ تفصيلٌ يُذْكَرُ.

فعَبَّرَ عمَّا ذَكَرْنا بقوله: (**في نحوِ: مَدَّ يَمُدُّ، وأَعَدَّ يُعِدُّ، وانْقَدَّ يَنْقَدُّ، واعْتَدَّ يَعْتَدُّ**).

وقد يَطَّرِدُ الإدْغامُ فيما يُشابِهُ المضاعَفَ مِن الكلام، (و) منهُ: (**اسْوَدَّ يَسْوَدُّ**) مِن بابِ الافعِلَالِ، (**واسْوادَّ يَسْوادُّ**) مِن بابِ الافْعِيلالِ، وليسَا مِن الـمُضاعَفِ لأنَّ أصلَهما السَّوادُ.

(**واسْتَعَدَّ يَستعِدُّ**) مضاعَفٌ مصدرُهما الاسْتِعْدادُ.

(**واطْمأَنَّ**)؛ أي: سَكَنَ (**يَطْمَئِنُّ**) اطْمِئْناناً وطُمَأْنينةً، وليسَ مِن المضاعَفِ؛ لأنَّ عَيْنَه الميمُ ولامُهُ النُّونُ، وهو مِن بابِ الافْعِلَّالِ كالاقْشِعْرار.

(**وتَمَادَّ يَتَمادُّ**) مُضاعَفٌ مِن التَّفاعُلِ، وكذا إذا لَحِقَ هذهِ الأفعالَ تاءُ التأنيثِ في بعضِ الأحوالِ، فتقولُ: مَدَّتْ وأَعَدَّتْ.

(**وكَذَا هذهِ الأفعالُ**) التي أُدْغِمَتْ وُجوباً حالَ كونها مَبْنيَّةً للفاعلِ يَجبُ إدغامُها (**إذا بُنِيَتْ للمفعولِ**) ماضياً كانَ أو مضارِعاً (**نحوَ: مُدَّ يُمَدُّ، وكذا نَظائرُه**) مِن الـمَزِيدِ كـ: أُعِدَّ يُعَدُّ، وتمود يتماد[1].

(**وفي نحوِ مَدٍّ**) أعني (**مَصْدراً**) يجبُ إدغامُه أيضاً، واحْتَرزَ بقوله: (**مَصْدَراً**) عمَّا إذا كانَ اسماً نحوُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وعمَّا قد يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ ماضٍ لتَقَدُّمِه، أو أمرٌ لتأَخُّرِه.

(**وكذلك**) الإدغامُ واجبٌ (**إذا اتَّصلَ بالفعلِ**) المضاعَفِ حقيقةً أو صُورةً (**ألفُ الضَّميرِ أو واوُه أو ياؤُه**) سواءٌ كانَ ماضِياً أو مُضارِعاً أو أمراً، مُجرَّداً أو مَزيداً فيه، مَعلوماً أو مَجهولاً.

---

(١) قوله: «تمود يتماد» كذا في «ط» و«و»، ولعل الصواب بالنظر لما تقدم: «اعْتُدَّ يُعْتَدُّ».

فالألِفُ (**في نحوِ: مدَّا**) بفتحِ الميمِ مبنيّاً للفاعلِ، أو ضمِّه مبنيّاً للمفعولِ، كلاهما من الماضي، والأخيرُ أيضاً مِن الأمر.

والواوُ في نحوِ: (**مدُّوا**) بالوَجْهَين للثَّلاثةِ.

والياءُ في نحوِ: (**مُدِّي**) وهو بضمِّ الميمِ لأمرِ المؤنَّث.

(**ومُمْتَنِعٌ**)؛ أي: الإدْغامُ (**في نحوِ: مَدَدْتُ، ومَدَدْنا، ومَدَدْتَ.. إلى: مَدَدْتُنَّ**) يعني: مَدَدْتُ، مَدَدْنا، مَدَدْتُم، مَدَدْتَ مَدَدْتَ مَدَدْتُما مَدَدْتُنَّ (**ومَدَدْنَ ويَمْدُدْنَ**) للغائباتِ (**وتَمْدُدْنَ وامْدُدْنَ ولا تَمْدُدْنَ**) الثَّلاثةُ للمُخاطَبات.

(**وجائزٌ**)؛ أي: الإدغامُ (**إذا دَخَلَ الجازِمُ**) أيَّ جازِمٍ كان (**على الفِعلِ الواحدِ**)، فيَجوزُ عَدَمُ الإدغامِ وهو لغةُ الحِجازيِّينَ، والإدغامُ وهو لغةُ بني تَميمٍ، وقُرِئ بهما قولُه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ ﴾ [المائدة: ٥٤][1].

وإنَّما قيَّدَ الفعلَ بالواحِدِ لأنَّ الإدْغامَ واجِبٌ في فعلِ الاثْنَينِ وفعلِ جماعةِ الذُّكورِ وفعلِ الواحدةِ المخاطَبةِ كما مَرَّ، ومُمتنِعٌ في فعلِ جماعةِ النساءِ كما سَبَقَ، وكأنَّ الـمُصنِّفَ اكْتَفَى بما تَقَدَّمَ.

والحاصلُ: أنَّ الإدغامَ الجائزَ إنَّما هو في فِعْلِ الواحِدِ، غائباً كانَ أو مخاطَباً أو متكلِّماً ولو مع الغَيْر، وكذا في الواحِدةِ المخاطَبةِ لأنَّها في صورةِ المخاطَبِ.

ثُمَّ هذا المضارِعُ المجزومُ لا يَخْلُو مِن أنْ يكونَ مكسورَ العَينِ أو مفتوحَهُ أو مضمومَهُ، (**فإنْ كان مكسورَ العَينِ كـ: يَفِرُّ، أو مَفْتوحَهُ كـ: يَعَضُّ، فنقولُ: لَمْ يَفِرَّ، و: لَمْ يَعَضَّ، بفتحِ اللّامِ**) لكونِهِ أَخَفَّ (**وكَسْرِها**) لأنَّ السَّاكِنَ إذا حُرِّكَ حُرِّكَ بالكسر (**و: لَمْ يَفْرِرْ، و: لَمْ يَعْضَضْ، بفكِّ الإدْغام**).

---

(١) قرأ: ﴿يَرْتَدِدْ﴾ بفك الإدغام نافع وابن عامر، والباقون: ﴿يَرْتَدَّ﴾ بالإدغام. انظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني (ص ٩٩).

(وهكذا)؛ أي: بالأَوْجُهِ الثَّلاثةِ (حُكْمُ يَقْشَعِرُّ ويَحمرُّ ويَحْمارُّ) لأنَّها في حُكْمِ المضاعَفِ الحقيقيِّ، فنقول: لَمْ يَقْشَعِرَّ، ولَمْ يَحْمَرَّ، ولَمْ يَحْمارَّ، بكسرِ اللَّامِ وفتحِها، ولَمْ يَقْشَعْرِرْ ولَمْ يَحْمَرِرْ ولَمْ يَحْمارِرْ، بفكِّ الإدغامِ وكسرِ ما قَبْلَ الآخِرِ.

(وإنْ كانَ العينُ مِن المُضارِعِ المَجْزومِ مَضْموماً فيجوزُ الحركاتُ الثَّلاثُ): الضَّمُّ والفتحُ والكسرُ (مع الإدْغامِ وفَكِّهِ)؛ أي: ويجوزُ فكُّ الإدغامِ أيضاً، (فتقولُ: لَمْ يَمُدّ، بحركاتِ الدَّالِ) الفتحِ والكسرِ كما تَقَدَّمَ مِن الوَجْهينِ، والضَّمِّ لإتْباعِ العَينِ (و: لَمْ يَمْدُدْ) بالفكِّ.

(وهكذا حُكْمُ الأمرِ)؛ أي: أمرِ المُخاطَبِ، فإنَّ أمرَ الغائبِ عُلِمَ حُكْمُه مِن المجزومِ، والمعنَى أنَّه يجوزُ في الأمرِ إذا كان فِعْلَ الواحدِ ما يجوزُ في الفعلِ المُضارِعِ، فإنْ كانَ مَكسورَ العينِ أو مفتوحَهُ (فتقولُ: فِرّ وعَضّ بكسرِ اللَّام وفتحِها، وافْرِرْ واعْضَضْ) بفكِّ الإدْغامِ فيهما، (و) إنْ كانَ مضمومَ العينِ فتقولُ: (مُدّ، بحَرَكاتِ الدَّالِ، و: امْدُدْ، بالفكِّ) وقد رُوِيَتِ الحركاتُ الثَّلاثُ في قولِ جَريرٍ:

ذُمّ المنازِلَ بعدَ منزلةِ اللِّوَى ... والعيشَ بعدَ أولئكَ الأيَّامِ[1]

وأمَّا إذا اتَّصَلَ بالمجزومِ حالَ الإدْغامِ هاءُ الضَّميرِ لَزِمَ وجهٌ واحدٌ؛ نحوَ: رُدَّها ورُدَّهُ بالضَّمِّ، وقيل: بالكسرِ، وهو ضعيفٌ.

(وتقولُ في اسمِ الفاعلِ: مادٌّ) بالإدغامِ وجوباً (مادَّانِ، مادُّونَ، مادَّةٌ، مادَّتانِ، مادَّاتٌ) في جمعِ المؤنَّثِ السَّالم (ومَوَاد) في المُكَسَّرِ، وفي اسمِ (المفعولِ: ممدودٌ) بالفكِّ وجوباً (كمنصورٍ).

***

(١) انظر: «ديوان جرير» (٢/ ٩٩٠)، و«المقتضب» (١/ ١٨٥)، و«المفصل» (ص ١٨٠)، ورواية الديوان: «الأقوام»، مكان: «الأيام».

(فصل)

(المُعتلُّ) اسمُ فاعلٍ مِن اعْتَلَّ: إذا مَرِضَ وتغيَّرَ مِزاجُهُ، والمرادُ هنا بالاعتلالِ: ما يَقَعُ فيه مِن التَّغيُّرِ المسمَّى بالإعلالِ، وهو في الاصْطِلاحِ: (**ما كانَ أحدُ أُصولِهِ**)؛ أي: أحدُ حُروفِهِ الأصليَّةِ (**حرفَ علَّةٍ، وهي**)؛ أي: حروفُ العلَّةِ: (**الواوُ والألِفُ والياءُ**) يجمعُها: واي، الصادرُ مِن العليلِ.

(**وسُمِّيَتْ**) حروفُ العلَّةِ: (**حروفَ المَدِّ واللِّينِ**).

واعْلَمْ أنَّ حروفَ العلَّةِ إنْ كانَتْ متحرِّكةً لا تُسمَّى حروفَ المدِّ ولا اللِّينِ، وإنْ كانَتْ ساكنةً:

فإنْ كانَ حركةُ ما قَبْلَها مِن جِنْسِها، بأنْ يكونَ ما قبلَ الواوِ ضمةً، وما قَبْلَ الياءِ كسرةً، والألِفُ لا يكونُ ما قَبْلَها إلَّا فتحةً، تُسَمَّى حروفَ المدِّ واللِّيْنِ أيضاً.

وإنْ كانَ حركةُ ما قَبْلَها ليس مِن جنسِها فيُسمَّى لِيْناً لا مداً، فحروفُ العلَّةِ أعمُّ منهُما، وحروفُ اللِّينِ أعمُّ مِن حروفِ المدِّ.

وهذا في الواوِ والياءِ، وأمَّا الألِفُ فيكونُ حرفَ مدٍّ أبداً.

(**والألِفُ حينئذٍ**)؛ أي: حينَ إذْ كانَ أحدَ حُروفِ الأُصولِ مِن المعتلِّ (**تكونُ مُنْقَلِبةً عن واوٍ أو ياءٍ**)؛ نحو: قالَ وباعَ، بخلافِ: قاتَلَ وتَباعَدَ، ممَّا ليس مِن حروفِهِ الأصليَّة، فإنَّها ليستْ منقلبةً بل هي زائدةٌ.

(**وأنواعُهُ سبعةٌ**) كما تأتي مفصَّلةً:

(**الأوَّلُ: المُعْتَلُّ الفاءِ**) بإضافةِ (المُعْتَلِّ) إلى (الفاءِ) إضافةً لفظيَّة؛ أي: الذي اعْتَلَّ فاؤُه فقط، (**ويقالُ لهُ: المِثَالُ؛ لمُمَاثَلتِهِ**)؛ أي: لمُشابَهَتِه (**الصَّحيحَ في احْتِمالِ**

الحركاتِ) الثَّلاثِ؛ نحو: وَعَدَ ويَسَرَ، كما تقول: ضَرَبَ ونَصَرَ، بخلافِ الأجوفِ والنَّاقِصِ كـ: قال، وباع، ودَعَا، وسَعَى.

ثُمَّ الفاءُ إمَّا واوٌ وإمَّا ياءٌ؛ كما فصَّلَ المصنِّفُ بقوله: **(أمَّا الواوُ فيُحْذَفُ مِن الفعلِ المُضارعِ الذي)** يكونُ **(على)** وزنِ **(يَفْعِلُ بكسرِ العَينِ)** وهو أعمُّ مِن أنْ يكونَ الواوُ بينَ الياءِ والكسرةِ، أو التَّاءِ والنُّونِ والهمزةِ، **(و)** يُحذَفُ أيضاً **(مِن مَصْدرِهِ)**؛ أي: مصدرِ المُعتلِّ الفاءِ **(الذي)** يكونُ **(على)** زِنَةِ **(فِعْلَةٍ)** بكسرِ الفاءِ، **(وتَسْلَمُ)** الواوُ **(في سائرِ تَصَاريفِهِ)**؛ أي: باقي تَصَاريفِ الـمُعْتلِّ الفاءِ؛ مِن الماضي واسْمَي الفاعلِ والمفعولِ.

(تقولُ: وَعَدَ) بسَلَامةِ الواوِ **(يَعِدُ)** بحذفِها **(عِدَةً)** بحذفِها؛ لأنَّ أصلَها[1]: وِعْدَةٌ، فنُقِلتْ كسرةُ الواوِ إلى العينِ لِثِقَلِها عليه وحُذِفتِ الواو.

ومنه الحديثُ: «العِدَةُ دَيْنٌ»[2]؛ أي: الوَعْدُ بمنزلةِ الدَّيْنِ عندَ أربابِ الكَرَمِ والدِّين.

وأمَّا (الوِجْهةُ) فليس بمصدرٍ، بل هو اسمُ المصدرِ، وهو المصدرُ الجارِي على غيرِ فِعْلِهِ.

(ووَعْداً) بسلامةِ الواوِ، وكذا الوِصَالُ ونحوُه، **(فهو واعِدٌ)** في اسمِ الفاعلِ، **(وذاك موعودٌ)** في اسمِ المفعولِ، بسلامةِ الواوِ فيهما، **(عِدْ)** أمرُ المخاطَبِ بحذفِ الواوِ، **(ولا تَعِدْ)** نهيُ المخاطَبِ، وكذا: لَمْ يَعِدْ، ولا يَعِد، ولَنْ يَعِدَ.

---

(١) في «ط» و«و»: «أصلهما»، والصواب المثبت.

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٥١٤)، و«الصغير» (٤١٩)، من حديث علي وابن مسعود رضي الله عنهما، وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١٩٥): الطبراني في معجميه «الأوسط» و«الأصغر» من حديث عليٍّ وابن مسعود بسند فيه جهالة، ورواه أبو داود في «المراسيل». **قلت**: رواه أبو داود في «المراسيل» (٥٢٢) عن الحسن: أن امرأة أتت النبي ﷺ تسأله فلم توافق عنده شيئاً، فقالت: يا رسول الله! عدني، قال: «العدة عطية».

(**وكذلك**)؛ أي: بسلامةِ الواوِ في الماضي وحَذْفِها في المضارعِ والمصدرِ في نحوِ (**وَمِقَ**) بكسرِ الميمِ؛ أي: أَحَبَّ (**يَمِقُ مِقَةً**).

وإذا كانَ الحذفُ بسببِ الكسرةِ، (**فإذا أُزِيلَتْ كسرةُ ما بَعْدَها**)؛ أي: ما بَعْدَ الواوِ (**أُعِيدَتِ الواوُ**) المحذوفةُ لزَوَالِ عِلَّةِ الحذفِ؛ (**نحو: لَمْ يُوْعَدْ**) في المبنيِّ للمفعولِ، ولو مَثَّلَ بـ: (يُوْعَدُ) لكانَ أَخْصَرَ وأَظْهَرَ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

وأمَّا قولُ الشَّاعرِ:

عَجِيبٌ لمولودٍ وليسَ لهُ أبٌ ... وذي وَلَدٍ لَمْ يَلْدَهُ أَبَوَانِ[1]

بسكونِ اللَّامِ وفتحِ الدَّالِ فشاذٌّ.

(**وتَثْبُتُ**) الواوُ (**في يَفْعَلُ بالفتحِ**) لعَدَمِ ما يَقْتضِي حَذْفَها؛ إذ الفتحةُ خفيفةٌ، (كـ: **وَجِلَ**) بالكسرِ؛ أي: خافَ (**يَوْجَلُ**) بالفتحِ (**اِيْجَلْ**) أمرٌ مِن يَوْجَلُ، والأصلُ: اِوْجَلْ (**قُلِبَتِ الواوُ ياءً لسكونِها وانْكِسارِ ما قَبْلَها**) وهذا قياسٌ مطَّرِدٌ.

(**فإنِ انْضَمَّ ما قَبْلَها**)؛ أي: ما قَبْلَ الياءِ المنقلِبةِ عن الواوِ في نحوِ: اِيْجَلْ (**عادَتِ الواوُ**) لزوالِ علَّةِ القَلْبِ، وهي كسرةُ ما قَبْلَ الواوِ (**تقول: يا زيدُ ايْجَلْ، تُلْفَظُ بالواوِ**) لزوالِ الكسرةِ بسقوطِ الهمزةِ في الدَّرْجِ (**وتُكْتَبُ بالياءِ**)؛ لأنَّ الأصلَ في كلِّ كلمةٍ أنْ تُكْتَبَ بصورةِ لَفْظِها، على تقديرِ الابتداءِ بها في الأَوَّلِ والوقوفِ عليها في الآخِرِ، والابتداءُ بالياءِ [في][2] نحوِ: اِيْجَلْ، فيُكتبُ بالياء.

---

(١) البيت لرجل من أزد السراة كما في «الكتاب» (٢/ ٢٦٦) و(٤/ ١١٥)، و«خزانة الأدب» (٢/ ٣٣٦)، ورواية «الكتاب» في الموضع الأول: «ألا رب مولود...». قال البغدادي: الروايتان صحيحتان ثابتتان.

(٢) زيادة يقتضيها السياق. ووقع في «ط»: «والابتداء فيه بالياء».

(ويَثْبُتُ الواوُ في يَفْعُل بالضَّمِّ) أيضاً؛ لانتفاءِ مُوْجِبِ الحذفِ (كـ: وَجُهَ) بضمِّ الجيمِ؛ أي: صارَ وجيهاً ونبيهاً (يَوْجُهُ، أُوْجُهْ، لا تَوْجُهْ).

ثُمَّ استَشْعَرَ المصنِّفُ اعتراضاً على قولِهِ: (ويَثْبُتُ في يَفْعَلُ بالفتحِ) لأَنَّه منقوضٌ ببعضِ الأمثلةِ؛ إذ حُذِفَ[1] منها حرفُ العلَّةِ مع عَدَمِ وجودِ الكسرِ، فأجابَ بقوله: (وحُذِفَتِ الواوُ مِن: يَطَأُ ويَسَعُ ويَضَعُ ويَدَعُ)؛ أي: يَترُكُ (لأَنَّها في الأصلِ: يَفْعِلُ بالكَسْرِ، ففُتِحَتْ)؛ أي: العينُ بعدَ حَذْفِ الواوِ (لحَرْفِ الحَلْقِ) لئلَّا يَجْتَمعَ ثقيلانِ.

(و) حُذِفتْ أيضاً (مِن يَذَرُ) مع أَنَّهُ ليسَ مكسورَ العينِ وليسَ فتحتُه لأَجْلِ حرفِ الحَلْق (لكونهِ في مَعْنَى: يَدَعُ) فلمَّا حُذِفَتْ في (يدع) حُذِفتْ في (يَذَرُ)؛ لأنَّ الـمُشاكَلَةَ في الـمَبْنَى تَسْتَدْعي الـمُقابَلَةَ في المعنَى.

(وأَمَاتُوا ماضيَ: يَدَعُ ويَذَرُ)؛ أي: أَقَلَّ العربُ استعمالَ ماضِيْهما؛ إذ قُرِئَ قولُه تعالى: ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣] بتخفيفِ الدَّالِ[2]، وهي قراءةُ النبيِّ ﷺ، وقرأ بِهِ ابنُ الزُّبيرِ، وابنُه هشامٌ، وأبو حَيْوةَ، وابنُ أبي عَبْلَةَ[3].

ومنهُ قولُ الشَّاعرِ:

ليتَ شِعْرِي عن خَلِيلِي ما الذي ... غالَهُ في الحبِّ حتَّى وَدَعَهْ[4]

---

(١) في «ط»: «حذفت».

(٢) جاء في هامش «و»: «قوله: أي: أقل العرب، يعني أن المراد من الإماتة هنا الندرة والقلة، ويؤيده هذه القراءة الشاذة، فإذا كان كذلك لا يَرِدُ السؤال على قول الصرفيين: وأماتوا ماضي يدع، فتأمل. عرياني».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القرآن» (ص ١٧٥)، و«المحتسب» لابن جني (٢/ ٣٦٤)، و«روح المعاني» (٢٩/ ١٠٣).

(٤) انظر: «الخصائص» لابن جني (١/ ٩٩)، و«مقاييس اللغة» لابن فارس (٦/ ٩٦)، و«روح المعاني» للألوسي (٢٩/ ١٠٣).

أي: ما الذي عارَضَه.

وفي «القاموس»: وَدَعَهُ ـ كوَضَعَهُ ـ ووَدَّعَهُ بمعنًى[١].

وفي «الصحاح»: دَعْ؛ أي: اتْرُكْ، وأصلُه: وَدَعَ يَدَعُ، وقد أُمِيتَ ماضِيهِ، لا يُقال: وَدَعَهُ، وإنَّما يُقالُ: تَرَكهُ[٢]، ووَذِرَهُ يَذَرُه مِثْلُ وَسِعَهُ يَسَعُهُ، وقد أُمِيتَ مصدرُه[٣].

زاد في «القاموس»: وَذِرْتُهُ شاذٌّ[٤]، انتهى.

وقد جاءَ مصدرُ وَدَعَ في الحديثِ، ففي «مُسْنَدِ أحمدَ» و«مسلمٍ» و«النَّسائيِّ» و«ابنِ ماجَه» عن ابنِ عباس رضي الله عنه وابنِ عُمرَ موقوفاً: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ عن وَدْعِهِمُ الجَماعاتِ أو لَيَخْتِمَنَّ اللهُ على قُلوبهم، ثُمَّ لَيكونُنَّ مِن الغافِلِينَ»[٥]؛ أي: الكامِلينَ في الغَفْلةِ، وهم الكافرونَ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ثُمَّ لمَّا كانَ هنا مَظِنَّةُ سؤالٍ، وهو: إذا لَمْ يَكُنْ ماضِيهِما مُستَعْمَلاً فما الدَّليلُ على أنَّ فاءَهما واوٌ؟

أجابَ بقولِهِ: (**وحَذْفُ الفاءِ دليلٌ على أنَّه**)؛ أي: الفاءَ (**واوِيٌّ**) إذ لو كانَ ياءً لَما حُذِفَ؛ لقولِهِ: (**وأمَّا الياءُ فتَثْبُتُ على كلِّ حالٍ**) سواءٌ يكونُ ماضياً أو مضارعاً أو مصدراً أو أمراً، أو سواءٌ ضُمَّ ما بعدَه أو فُتِحَ أو كُسِرَ؛ لأنَّها أخَفُّ مِن الواو، (**نحو:**

---

(١) انظر: «القاموس» (مادة: ودع).

(٢) انظر: «الصحاح» (مادة: ودع).

(٣) المصدر السابق (مادة: وذر).

(٤) انظر: «القاموس» (مادة: وذر).

(٥) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٣٩)، ومسلم (٨٦٥)، والنسائي (١٣٧٠)، وابن ماجه (٧٩٤)، جميعهم رووه مرفوعاً لا موقوفاً كما قال المؤلف، لكنه عند مسلم عن ابن عمر وأبي هريرة.

يَمُنَ يَيْمُنُ) بضمِّ الميمِ فيهما، مِن اليُمْنِ وهو البَركةُ، يقالُ: يَـمُنَ الرَّجلُ: إذا صارَ ذا يُـمْنٍ، **(ويَسَرَ يَيْسِرُ)** كضَرَبَ يَضْرِبُ، مِن الـمَيْسِرِ وهو القِمارُ، وجاء: يَسُرَ يَيْسُرُ بالضمِّ فيهما، **(ويَئِسَ يَيْئَسُ)** كعَلِمَ يَعْلَمُ، مِن اليأسِ وهو القُنوطُ.

(وتقولُ في أَفْعَلَ من اليائيِّ)؛ أي: ممَّا فاؤُه ياءٌ: **(أَيْسَرَ يُوْسِرُ فهو مُوسِرٌ، بقَلْبِ الياءِ)** مِن الـمُضارِعِ واسمِ الفاعِلِ **(واواً)**؛ إذ الأصلُ: يُيْسِرُ، و: مُيْسِرٌ؛ لأنَّه يائيٌّ، وإنَّما قُلِبَتِ الياءُ **(لسُكونِها وانْضِمامِ ما قَبْلَها)** وذلك قياسٌ مطَّردٌ وفي مِثْلِها رفعاً.

(و) تقولُ **(في افْتَعَلَ منهُما)**؛ أي: مِن الواوِ والياءِ: **(اتَّعَدَ)**؛ أي: قَبِلَ الوَعْدَ، أصلُه: اوْتَعَدَ، قُلِبَتِ الواوُ تاءً وأُدْغِمَتْ في الأُخرى **(يَتَّعِدُ)** أصلُه: يَوْتَعِدُ **(فهو مُتَّعِدٌ)** أصلُه: مُوْتَعِدٌ، **(واتَّسَرَ يَتَّسِرُ فهو مُتَّسِرٌ)** والأصلُ: ايْتَسَرَ يَيْتَسِرُ فهو مُيْتَسِرٌ، قُلِبَتِ الياءُ تاءً وأُدْغِمَتْ.

(ويقالُ: ايْتَعَدَ) بقلبِ الواوِ ياءً **(يَاتَعِدُ)** بقلبِ الواوِ أَلِفاً **(فهو مُوْتَعِدٌ)** على الأصلِ، **(وايْتَسَرَ)** على الأصلِ **(يَاتَسِرُ)** بقلبِ الياءِ أَلِفاً **(فهو مُوْتَسِرٌ)** بقلبِ الياءِ واواً **(و: هذا مكانٌ مُوْتَسَرٌ فيه)** في اسمِ المفعولِ؛ أي: يُلْعَبُ فيه القِمارُ، وعَبَّرَ بهذِهِ العبارةِ لأنَّ الاتِّسارَ لازمٌ، فيَجِبُ تَعْدِيَتُه بحرفِ الجرِّ ليَنْبَنِيَ منه اسمُ المفعولِ، فعدَّاه بـ(في).

(وحُكْمُ وَدَّ يَوَدُّ) بفتحِ الواوِ فيهما **(كحُكْمِ عَضَّ يَعَضُّ)** في وجوبِ الإدْغامِ وامتناعِهِ وجَوَازِه، **(وتقولُ في الأمرِ: اِيْدَدْ)** بفتحِ الدَّالِ الأُولى **(كـ: اِعْضَضْ)** والأصلُ: اِوْدَدْ، قُلِبَتِ الواوُ ياءً لسكونها وانْكِسارِ ما قَبْلَها، ويجوزُ: (وَدّ) بالفتحِ والكسرِ أيضاً؛ كـ: عَضّ، وإنما ذَكَرَ (اِيدَدْ) لِـمَا فيه مِن الإعلالِ الـمُوجِبِ للإشكالِ.

(الثَّاني) من الأنواعِ السَّبعةِ: **(المُعْتَلُّ العينِ)** وهو ما يكونُ عَيْنُه حرفَ عِلَّةٍ **(ويُقالُ لهُ: الأجوفُ)** لخُلُوِّ ما هو كالجَوْفِ لهُ مِن الصِّحَّةِ، (و) يُقالُ له: **(ذو الثَّلاثةِ أيضاً؛ لكونِ ماضِيهِ على ثلاثةِ أحرُفٍ إذا أَخْبَرْتَ)** أنتَ **(عن نَفْسِكَ)** نحو: قُلْتُ

وبِعْتُ، فإنَّ الفاعلَ كالجزءِ مِن الفعلِ، وإلَّا فالفعلُ في الحقيقةِ هنا على حَرْفينِ، فالمجموعُ في الحقيقةِ جملةٌ.

(فالمُجَرَّدُ) الثُّلاثيُّ **(تُقْلَبُ عَيْنُه)** وجوباً **(في الماضي)** المَبْنيِّ للفاعِلِ **(ألِفاً سواءٌ كانَ عَيْنُه واواً أو ياءً؛ لتَحَرُّكِهما وانْفِتاحِ ما قَبْلَهما، نحو: صانَ وباعَ)** وأصلُهُما صَوَنَ وبَيَعَ.

وأمَّا (ليسَ) فليسَ على القِياسِ؛ لأنَّهُ ليسَ مِن الأفعالِ المتصرِّفةِ التي يَجيءُ لها الماضي مَجهولاً والمضارعُ مُطْلَقاً، وغيرُهما كالأمرِ والنَّهيِ ونحوِهما، إذْ لَمْ يَجِئْ منهُ إلَّا أربعةَ عَشَرَ بناءً للماضي معلوماً.

(فإنِ اتَّصَلَ به)؛ أي: بالماضي المجرَّدِ والـمَبْنيِّ للفاعلِ **(ضميرُ المتكلِّم)** مُطْلَقاً **(أو)** ضميرُ **(المخاطَبِ)** مُطْلَقاً **(أو)** ضميرُ **(جمعِ المُؤنَّثِ الغائبةِ، نُقِلَ فَعَلَ)** مفتوحُ العينِ **(مِن الواويِّ إلى فَعُلَ)** مَضمومِ العينِ، **(و)** **نُقِلَ** فَعَلَ مفتوحُ العينِ **(مِن اليائيِّ إلى فَعِلَ)** مكسورِ العينِ؛ **(دَلَالةً عليهِما)**؛ أي: ليَدُلَّ الضَّمُّ على الواوِ والكسرُ على الياءِ؛ لأنَّهما لا يُحذَفانِ كما سيُعْلَمُ مِن الأمثلةِ.

(ولا يُغَيَّرُ فَعُلَ) بضمِّ العينِ **(ولا فَعِلَ)** بكسرِ العينِ **(إذا كانا أصليَّيْنِ)** يعني نحو: طَوُلَ بضمِّ العين، وهَيِبَ أو خَوِفَ بكسرِ العين، لم يُنْقَلْ إلى بابٍ آخَرَ؛ لأنَّكَ تَنقُلُ مفتوحَ العينِ إليهِما، فيَلْزمُكَ إبقاؤُهما بالطَّريقِ الأَوْلَى للدَّلالةِ على الواوِ والياءِ.

والتَّقْييدُ بكونِهما أصليَّيْنِ ليسَ للاحترازِ لكنَّهُ لـمَّا ذَكَرَ أنَّ فَعَلَ الأصليَّ يُغيَّرُ، نَبَّهَ أنَّ فَعُلَ وفَعِلَ الأصليَّيْنِ لا يُغيَّرانِ مِن بابٍ إلى بابٍ آخَرَ، فتَدَبَّرْ.

ولَمْ يُرِدْ أنَّهما لَمْ يُغيَّرا عن حالِهما أصلاً؛ إذ هو ممنوعٌ؛ لأنَّهُ يَنقُلُ الضَّمَّةَ والكسرةَ ويَحْذفُ العينَ، كما أشارَ إليهِ بقوله: **(ونَقَلْتَ الضَّمَّةَ)** مِن الواوِ **(والكسرةَ)** مِن الياءِ **(إلى الفاءِ، وحَذَفْتَ العينَ)**؛ أي: الواوَ والياءَ **(لالْتقاءِ الساكِنَيْنِ)**.

(فتقولُ: صانَ صانَا صانُوا صانَتْ صانَتَا صُنَّ) والأصلُ: صُونَّ، نُقِلَ فَعَلَ الواويُّ إلى فَعُلَ مضمومِ العينِ لاتِّصالِ ضميرِ جمعِ المؤنَّثِ، ونُقِلَتْ ضمَّةُ الواوِ إلى ما قَبْلَه بعدَ إسكانهِ تخفيفاً، وحُذِفَتِ الواوُ لالتقاءِ السَّاكنَينِ فصارَ: (صُنَّ)، وكذلك بعينهِ إعلالُ بقيَّتِهِ، وهو قولُه: **(صُنْتَ صُنْتُما صُنْتُمْ، صُنْتِ صُنْتُما صُنْتُنَّ، صُنْتُ صُنَّا)**.

(وتقولُ) في اليائيِّ: **(باعَ باعَا باعُوا، باعَتْ باعَتَا بِعْنَ، بِعْتَ بِعْتُما بِعْتُمْ، بِعْتِ بِعْتُما بِعْتُنَّ، بِعْتُ بِعْنَا)** والأصلُ: بَيَعْنَ، نُقِلَ إلى مكسورِ العينِ، ونُقلتِ الكسرةُ إلى الفاءِ، وحُذِفتِ الياءُ.

وعلى هذا القياسِ كلُّ ما هو مفتوحُ العَيْنِ كـ: قال وزارَ، بخلافِ نحوِ: خافَ وهابَ وطالَ، فإنَّه لا نَقْلَ فيها إلى بابٍ آخَرَ، بل تقولُ: خِفْتُ، والأصلُ: خَوِفْتُ، و: هِبْتُ، والأصلُ: هَيِبْتُ، وطُلْتُ، والأصلُ: طَوُلْتُ، فاعْتَلَّ بنقلِ حركةِ العينِ ثُمَّ حَذْفِهِ.

(وإذا بَنَيْتَهُ)؛ أي: الماضيَ المجرَّدَ **(للمفعولِ كَسَرْتَ الفاءَ مِن الجميعِ)**؛ أي: مِن مفتوحِ العينِ ومَكْسورِه ومَضْمومِه واويّاً كانَ أو يائيّاً **(فقُلتَ: صِيْنَ)** في الواويِّ **(وإعلالُه بالنَّقلِ والقَلْبِ)** لأنَّ أصلَهُ: صُونَ، فنُقِلَتْ حركةُ الواوِ [إلى ما قَبْلَها وقُلِبَتْ][1] ياءً لسكونها وانكسارِ ما قَبْلَها. **(وبِيْعَ)** في اليائيِّ **(وإعلالُه بالنَّقْلِ)** لأنَّ أصلَه: بُيِعَ، نُقِلَتِ الكسرةُ إلى ما قَبْلَها بعدَ حذفِ ضمَّتِهِ.

هذه اللُّغةُ المشهورةُ، وفيه لُغتانِ أُخْرَيَانِ:

إحداهُما: (صُوْنَ) و(بُوْعَ) بالواوِ السَّاكِنِ فيهِما، وقَلْبِ الياءِ واواً لسكونِها وانْضِمامِ ما قَبْلَها.

وثانيهِما: الإشمامُ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأصلَ في هذا البابِ الضَّمُّ، وحقيقةُ هذا الإشمامِ: أنْ تَنْحُوَ بكسرةِ فاءِ الفعلِ نحوَ الضَّمَّةِ، فتُمِيلَ الياءَ السَّاكنةَ بعدَها نحوَ الواوِ

(١) زيادة يقتضيها السياق.

قليلاً؛ إذ هي تابعةٌ لحركةِ ما قبلَها، وهذا مُرادُ النُّحاةِ والقُرَّاءِ، لا ضمُّ الشَّفَتينِ فقط مع كسرةِ الفاءِ كسراً خالِصاً كما في باب الوَقْفِ، ولا الإتيانُ بضمَّةٍ خالِصةٍ بعدَها ياءٌ ساكنةٌ كما تَوَهَّمَ بعضُهم.

(**وتقولُ في مضارِعِهِ: يَصُونُ**) مِن الواويِّ، (**ويَبيعُ**) من اليائيِّ، (**وإعلالُهُما بالنَّقلِ**)؛ أي: نَقْلِ ضمَّةِ الواوِ وكسرةِ الياءِ إلى ما قَبْلَها؛ إذ الأصلُ: يَصْوُنُ، و: يَبْيِعُ؛ كـ: يَنْصُرُ ويَضْرِبُ.

(**ويَخافُ**) مِن الواويِّ، (**ويَهَابُ**) مِن اليائيِّ، (**وإعلالُهُما بالنَّقْلِ والقَلْبِ**)، فإنَّ الأصلَ: يَخْوَفُ ويَهْيَبُ؛ كـ: يَعْلَمُ، فنَقَلَ حركةَ الواوِ والياءِ إلى ما قَبْلَهما، ثُمَّ قَلَبَ الواوَ والياءَ أَلِفاً؛ لتَحَرُّكِهما في الأصلِ وانفتاحِ ما قَبْلَهما الآنَ.

وأمَّا المَبْنيُّ للمفعولِ مِن الجميعِ فبالنَّقْلِ والقَلْبِ؛ نحوَ: يُصانُ ويُباعُ ويُخافُ ويُهابُ.

(**ويَدْخُلُ الجازِمُ**) على المضارعِ مِن الأجْوَفِ (**فيَسْقُطُ العَيْنُ**)؛ أي: عينُ الفعلِ؛ مِن الواوِ والياءِ والألِفِ المنقَلِبةِ عن أحدِهما (**إذا سَكَنَ ما بعدَه**)؛ أي: ما بعدَ العينِ؛ لالْتِقاءِ السَّاكِنَينِ، (**ويَثْبُتُ**) العينُ (**إذا تَحَرَّكَ ما بعدَه**) حركةً أصليَّةً نحوَ: لَمْ يَصُونَا، أو مشابِهَةً نحوَ: لَمْ يَصونَنَّ، فإنَّ النُّونَ في الأصلِ ساكنةٌ، وإنَّما حُرِّكتْ لاقْتِضاءِ نونِ التَّأكيدِ تَحريكَ ما قَبْلَها في المفرَدِ، وإنَّما تَثْبُتُ لعَدَمِ علَّةِ الحَذْفِ.

(**تقولُ**) عندَ دخولِ الجازمِ في (يَصُونُ): (**لَمْ يَصُنْ**) بحذفِ حركةِ الواحِدِ، ثُمَّ حَذْفِ الواوِ لالْتِقاءِ السَّاكِنَينِ، (**لَمْ يَصُونَا لَمْ يَصُونُوا**) بالإثباتِ فيهما لتَحَرُّكِ ما بَعْدَه.

(**لَمْ تَصُنْ**) بالحَذْفِ، (**لَمْ تَصُونَا**) بالإثباتِ، (**لَمْ يَصُنَّ**)، كما تقولُ: يَصُنَّ؛ لأنَّ الجازمَ لا عَمَلَ لهُ فيهِ، والواوُ قد حُذِفَتْ عندَ اتِّصالِ النُّونِ لالْتقاءِ السَّاكِنَيْنِ.

(**لَمْ تَصُنْ لَمْ تَصُونَا لَمْ تَصُونُوا، لَمْ تَصُوني لَمْ تَصُونَا لَمْ تَصُنَّ، لَمْ أَصُنْ لَمْ**

نَصُنْ، وهكذا قياسُ) كلِّ ما كانَ عينُه ياءً أو ألِفاً نحوَ: **(لَمْ يَبِعْ)** بالحذفِ لسكونِ ما بعدَه، **(لَمْ يَبِيعا)** بالإثباتِ لتَحَرُّكِهِ، **(ولَمْ يَخَفْ)** بالحذفِ، **(ولَمْ يَخَافَا)**.

والضَّابِطُ: أنَّ المحذوفَ إنْ كانَ النُّونَ التي في الأمثلةِ الخمسةِ فلا تُحْذَفُ العينُ، وإلَّا فتُحْذَفُ.

(وقِسْ عليهِ)؛ أي: على المُضارِعِ الدَّاخِلِ عليه الجازِمُ **(الأَمْرَ)** بأنْ تَحذِفَ العينَ إذا سَكَنَ ما بعدَه **(نحو: صُنْ)**، ويَثْبُتُ إذا تَحرَّكَ نحو: **(صُونَا صُونُوا صُونِي صُونَا)**.

وأمَّا جمعُ المؤنَّثِ نحو: **(صُنَّ)** فقد حُذِفَتْ عينُه في المضارِعِ.

(والأَمْرُ بالتَّأكيدِ)؛ أي: مع نونِ التَّأكيدِ: **(صُوْنَنَّ، صُوْنَانِّ، صُوْنُنَّ، صُوْنِنَّ، صُوْنَانِّ)** بإعادةِ العينِ المحذوفةِ لزوالِ علَّةِ الحذفِ بتحرُّكِ ما بعدَه؛ لِـمَا تَقَدَّمَ مِن أنَّه يُفْتَحُ آخِرُ الفعلِ ويُضَمُّ ويُكْسَرُ دَفْعاً لالْتِقاءِ السَّاكِنَينِ.

وأمَّا جمعُ المؤنَّثِ نحو: **(صُنَّانِّ)** فحَذْفُ عينِه لازمٌ قطعاً.

(وكذا تقولُ في الخفيفةِ: صُونَنْ وبِيعَنْ وخافَنْ).

ولَمْ تَعُدِ العينُ في نحوِ: صُنِ الشَّيءَ، و: بِعِ الفَرَسَ، و: خَفِ القَوْمَ؛ لأنَّ الحركاتِ في هذهِ الأمثلةِ عارِضةٌ لا اعْتِدادَ بها، فوجودُها كعَدَمِها بخلافِ الحركةِ في نحوِ: صُونَا وبِيعَا وخافا، فإنَّها كالأصليَّةِ لاتِّصالِ ما بَعْدَها اتِّصالَ الجزءِ بما قَبْلَها.

(ومَزِيدُ الثُّلاثيِّ)؛ أي: الثُّلاثيُّ الـمَزيدُ فيه **(لا يَعْتَلُّ منهُ)**؛ أي: مِن الأجْوَفِ **(إلَّا أربعةُ أبْنيَةٍ)**؛ أي: أبوابٍ، **(وهي)**: أَفْعَلَ؛ نحو: **(أجابَ يُجيبُ)** وأَصْلُهما: أَجْوَبَ يُجْوِبُ، نُقِلَتْ حركةُ الواوِ منهُما إلى ما قَبْلَها، وقُلِبَتْ في الماضي ألِفاً لتَحَرُّكِها في الأصلِ وانْفِتاحِ ما قَبْلَها الآن، وفي المضارعِ ياءً لسُكونها وانْكسارِ ما قَبْلَها.

(إجابةً) أصلها: إجْواباً، نُقِلَتْ حركةُ الواوِ وقُلِبَتْ ألِفاً كما في الفعلِ،

ثُـمَّ حُذِفَـتِ الألِـفُ لالْتِقاءِ السَّـاكِنَينِ وعُوِّضَـتْ عنها تاءٌ فـي الآخِرِ، ويُحْـذَفُ عندَ الإضافـةِ نحـوَ: إقـامَ الصَّلاةِ.

(و) استَفْعَلَ نحو: (**اسْتَقامَ يَسْتقيمُ اسْتِقامةً**)، وإعلالُه كـ: أَجابَ يُجيبُ إجابةً، ونحوُ اسْتَحْوَذَ واسْتَصْوَبَ مِن الشَّواذ تنبيهاً على الأصلِ.

(و) انْفَعَلَ نحو: (**انْقادَ يَنْقادُ**) أصلُهما: انْقَوَدَ يَنْقَوِدُ، قُلِبَتِ الواوُ ألِفاً لتَحَرُّكِها وانْفتاحِ ما قَبْلَها (**انْقِيَاداً**) أصلُه: انْقِواداً، قُلِبَتِ الواوُ ياءً لانْكسارِ ما قَبْلَها؛ كقولِهم: قامَ يَقومُ قِياماً، وأمَّا: حالَ يَحولُ حَوْلاً، فلَمْ يُعامَلْ مُعامَلةَ فِعْلِه.

(و) افْتَعَـلَ نحو: (**اخْتـارَ يَخْتارُ**) والأصـلُ: اخْتَيَرَ يَخْتَيِرُ، وقد سَـبَقَ إعلالُهما (**اختيـاراً**) على الأصلِ.

(**وإذا بُنِيَتْ**) هذه الأربَعةُ (**للمفعولِ قيل: أُجِيبَ يُجابُ**) والأصلُ: أُجْوِبَ يُجْوَبُ، نُقِلَتْ حركةُ الواوِ إلى ما قَبْلَها، وقُلِبَتْ في الماضي ياءً كما في يُجيبُ، وفي المضارعِ ألِفاً كما في أجابَ.

(**واسْتُقِيمَ يُسْتَقامُ**) والأصل: اسْتُقْوِمَ يُسْتَقْوَمُ، فنُقِلَتْ وقُلِبَتْ.

(**وانْقِيدَ**)؛ أي: انْقِيدَ لهُ، والأصلُ: انْقُوِدَ، نُقِلَتْ حركةُ الواوِ إلى ما قَبْلَها بعدَ سَلْبِ حركتهِ وقُلِبَتْ ياءً كما في: صِيْنَ، (**يُنْقادُ**) أصلُه: يُنْقَوَدُ، قُلِبَتِ الواوُ ألِفاً لتَحَرُّكِها وانْفِتاحِ ما قَبْلَها.

(**واخْتِيْـرَ**) أصلُـه: اخْتُيِرَ، نُقِلَتْ كسـرةُ الياءِ إلى مـا قَبْلَها كما في بِيْـعَ (**يُخْتارُ**) أصلُه: يُخْتَيَرُ.

(**والأمـرُ منهـا**)؛ أي: مِـن هـذهِ الأربعـةِ: (**أَجِـبْ**) بحـذفِ العيـنِ لسُـكونِ ما بعدَهـا كـ: بِـعْ، (**أَجِيبَا**) بإثباتِـها كـ: بِيعَـا، (**واسْـتَقِمْ اسْـتَقِيمَا، وانْقَدْ انْقـادَا، واخْتَرْ اخْتـارَا**) إلـى آخِرِها.

(**ويَصِحُّ**)؛ أي: لا يُعَلُّ جميعُ ما هو غيرُ هذهِ الأربعةِ مِن المعتلِّ العينِ (**نحو: قَوَّلَ وقاوَلَ وتَقَاوَلَ، وزَيَّنَ وتَزَيَّنَ، وسايَرَ وتَسَايَرَ، واسْوَدَّ وابْيَضَّ، واسْوادَّ وابْياضَّ، وكذا**) يَصِحُّ ولا يُعَلُّ (**سائِرُ تَصَاريفِها**)؛ أي: جميعُ تَصَاريفِ هذه المذكوراتِ؛ مِن الـمُضارِعِ، والمصدرِ، والأمرِ، والنَّهْيِ، واسمِ الفاعلِ والمفعولِ؛ لعَدَمِ علَّةِ الإعلالِ، وكونِ العينِ في هذهِ الأمثلةِ في غايةِ الخفَّةِ؛ لسُكونِ ما قَبْلَها.

(**واسمُ الفاعلِ مِن الثلاثيِّ المُجرَّدِ يُعَلُّ عينُه بالهمزةِ**) سواءٌ كان واوِيّاً أو يائيّاً؛ (**كـ: صائِنٍ وبائِعٍ**) والأصلُ: صاوِنٌ وبايِعٌ، قُلِبَتِ الواوُ والياءُ همزةً؛ لأنَّ الهمزةَ في هذا الـمَقامِ أخفُّ منهُما، وتُكْتَبُ الهمزةُ بصورةِ الياءِ لأنَّ الهمزةَ المتحرِّكةَ السَّاكِنَ ما قَبْلَها تُكْتَبُ بصورةِ حركتِها.

(و) اسمُ الفاعلِ (**مِن**) الثُّلاثيِّ (**المَزِيدِ فيهِ يَعْتَلُّ بما اعْتَلَّ به المُضارِعُ**)؛ أي: مُضارِعُ الـمَزِيدِ (**كـ: مُجِيبٍ**) أصلُه: مُجْوِبٌ، (**ومُستَقيمٍ**) أصلُه: مُسْتَقْوِمٌ، (**ومُنْقادٌ**) أصلُه: مُنْقَوِدٌ، (**ومُختارٍ**) أصلُه: مُخْتَيِرٌ.

(**واسمُ المفعولِ مِن**) الثُّلاثيِّ (**المجرَّدِ يَعْتَلُّ بالنَّقْلِ والحذفِ؛ كـ: مَصُونٍ ومَبِيعٍ، والمحذوفُ واوُ مفعولٍ عندَ سيبويهِ**)؛ لأنَّها زائدةٌ، والزَّائدُ أَوْلَى أنْ يُحذَفَ، فأصلُهما: مَصْوُونٌ ومَبْيُوعٌ، نُقِلَتْ حركةُ العينِ إلى ما قَبْلَها، فحُذِفَتْ واوُ المفعولِ لالْتِقاءِ السَّاكِنَينِ، ثُمَّ كُسِرَ ما قبلَ الياءِ لئلَّا تَنْقَلِبَ واواً فيَلْتَبِسَ بالواويِّ، فـ(مَصونٌ) مَفْعُلٌ و(مَبِيعٌ) مَفْعِلٌ.

(و) المحـذوفُ (**عيـنُ الفعلِ عندَ أبي الحَسَـنِ الأخفشِ**)؛ لأنَّ العيـنَ كثيراً ما يَعْـرِضُ لهـا الحذفُ فـي غيرِ هـذا الموضِـعِ، فحَذْفُه أَوْلَـى، فأصلُ (مَبيـع): مَبيوعٌ، نُقِلَـتْ ضمَّـةُ الياءِ إلى مـا قَبْلَها وحُذِفتِ اليـاءُ، ثُمَّ قُلِبَـتِ الضَّمَّةُ كسـرةً لتُقْلَبَ الواوُ يـاءً لئلَّا يَلْتَبِـسَ بالواويِّ.

وأمَّا قولُهم: مَشِيبٌ، في الواويِّ مِن الشَّوبِ وهو الخَلْطُ، و: مَهُوبٌ، في اليائيِّ مِن الهَيْبةِ، فمِنَ الشَّوَاذِّ، والقياسُ: مَشُوبٌ ومَهِيبٌ.

(**وبنو تَميمٍ يُثْبِتونَ**) وفي بعضِ النُّسخ: يتمِّمُون (**الياءَ**) دونَ الواوِ؛ لأنَّها أخفُّ مِن الواوِ، (**فيقولونَ: مَبْيوعٌ**) كما تقولُ: مضروبٌ، وهذا مُطَّرِدٌ عندَهم.

(و) اسمُ المفعولِ (**مِن**) الثُّلاثيِّ (**المَزِيدِ فيهِ يَعْتَلُّ بالقَلْبِ**)؛ أي: بقَلْبِ العينِ ألِفاً كما في المبنيِّ للمفعولِ مِن الـمُضارِعِ (**إنِ اعْتُلَّ**) بصيغةِ المجهولِ؛ أي: أُعِلَّ (**فِعْلُه**)؛ أي: فِعْلُ اسمِ المفعولِ، وهو الـمَبْنيُّ للمفعولِ مِن المضارعِ، بأنْ يكونَ مِن الأبنيَةِ الأربعةِ (كـ: **مُجَابٍ ومُستَقامٍ ومُنْقادٍ ومُخْتارٍ**) والأصلُ: مُجْوَبٌ ومُسْتَقْوَمٌ ومُنْقَوَدٌ ومُخْتَيَرٌ.

(**الثالثُ**) مِن الأنواعِ السَّبعةِ: (**المُعْتلُّ اللَّامِ**) وهو ما يكونُ لامُهُ حرفَ عِلَّةٍ (**ويُقالُ له: الناقِصُ**) لنُقْصانِ آخِرِه مِن بعضِ الحركات، (و) يُقالُ له: (**ذو الأربَعةِ، أيضاً**) وذلك (**لكونِ ماضِيهِ على أربعةِ أحرُفٍ إذا أَخْبَرْتَ عن نَفْسِكَ**) نحو: غَزَوْتُ ورَمَيْتُ، وتسميةُ الشَّيءِ بالشَّيءِ لا يقتضِي اختصاصَه به، فلا يَرِدُ أنَّه قد يُوجَدُ في غيرِه.

(**فالمُجَرَّدُ يُقْلَبُ**)؛ أي: فيهِ (**الواوُ والياءُ**) اللَّتانِ هما لامُ الفعلِ مِن النَّاقِصِ (**ألِفاً إذا تَحَرَّكَتا**) بأيِّ حركةٍ كانَتْ (**وانْفَتَحَ ما قَبْلَهما؛ كـ: غَزَا ورَمَى**) في الفعلِ الماضي، والأصلُ: غَزَوَ ورَمَيَ، (**وعَصًا ورَحًى**) في الاسمِ، والأصلُ: عَصَوٌ ورَحَيٌ، قُلِبَتَا ألِفاً وحُذِفَتِ الألِفُ لالْتِقاءِ السَّاكنَينِ بينَ الألِفِ والتَّنوينِ.

وكانَ الأَوْلَى أنْ يقول: كالعَصَا والرَّحَى؛ ليَكونا على مِنْوالِ ما قَبْلَهما.

ثُمَّ المنقلِبةُ مِن الياءِ تُكْتَبُ بصورةِ الياءِ فيهِما فرقاً بينهُما وبينَ المنقلِبةِ مِن الواو.

وأمَّا نحوُ: (غَزَوَا ورَمَيَا) للتَّثنيَةِ، فأُبْقِيَ على حالِهما لئلَّا يَلْتَبِسا بـمُفْرَدِهما.

(وكذلكَ الفعلُ الزَّائدُ على الثَّلاثةِ) بقَلْبِ لامِهِ أَلِفاً عندَ وجودِ العلَّةِ المذكورةِ، (و) كذلك (اسمُ المفعولِ) مِن الـمَزِيدِ فيه، فإنَّ ما قبلَ لامِهِ يكونُ مفتوحاً البَتَّةَ.

ثُمَّ أشارَ إلى أمثلةِ الفعلِ واسمِ المفعولِ على طريقِ اللَّفِّ والنَّشْرِ بقوله:

(كـ: أَعْطَى) والأصلُ: أَعْطَوَ، (واشْتَرَى) والأصلُ: اشْتَرَيَ، (واسْتَقْصَى) أصلُه: اسْتَقْصَوَ، قُلِبَتِ الواوُ مِن أَعْطَوَ واسْتَقْصَوَ ياءً لِـمَا سيَجيءُ، ثُمَّ قُلِبَتِ الياءُ مِن الجميعِ أَلِفاً، (والمُعْطَى والمُشْتَرَى والمُسْتَقْصَى) أيضاً كذلك؛ لِـمَا ذَكَرْنا مِن أنَّ الألِفَ في الجميعِ مُنقلِبةٌ مِن الياءِ يَكتُبونَها بصورةِ الياءِ ولو كانَ أصلُها الواوُ.

ومَثَّلَ بثلاثةٍ أمثلةٍ لأنَّ الزَّائدَ إمَّا واحدٌ أو اثنانِ أو ثلاثةٌ، وذَكَرَ اسمَ المفعولِ مع اللَّامِ ليَبْقَى الألِفُ فيَتَحقَّقَ ما ذَكَرَ؛ إذْ لولا اللَّامُ لحُذِفَ الألِفُ لالْتِقاءِ السَّاكِنَينِ بينها وبينَ التَّنوينِ.

(وكذا) تُقْلَبانِ أَلِفاً إذا لَمْ (يُسَمَّ الفاعلُ)؛ أي: في المَبْنِيِّ للمفعولِ (مِن المُضارعِ) مجرَّداً كانَ أو مَزِيداً فيه، لأنَّ ما قَبْلَ لامِهِ مفتوحٌ البتَّةَ (كقولكَ: يُغْزَى ويُعْطَى) وأصلُهما: يَغْزُو ويُعْطِي، قُلِبَتِ الواوُ ياءً (ويُرْمَى) أصلُه: يَرْمِي، قُلِبَتِ الياءُ أَلِفاً مِن الجميعِ؛ لتَحَرُّكِها وانْفِتاحِ ما قَبْلَها.

(وأَمَّا الماضِي فتُحْذَفُ اللَّامُ منهُ في مِثالِ: فَعَلُوا، مُطْلَقاً)؛ أي: إذا اتَّصَلَ به واوُ ضميرِ جماعةِ الذُّكورِ، سواءٌ كانَ ما قَبْلَ اللَّامِ مفتوحاً كـ: غَزَوْا، أو مَضْمُوماً كـ: سَرُوْا[1]، أو مكسوراً كـ: رَضُوْا، واواً كانَ اللامُ كـ: غَزَوْا وسَرُوا، أو ياءً كـ: رَمَوْا، مجرَّداً كانَ الفعلُ كما سَبَقَ، أو مَزِيداً فيهِ نحوَ: أَعْطَوا وارْتَضَوا؛ لأنَّ اللَّامَ وما قَبْلَه متحرِّكانِ في هذهِ الأمثلةِ البتَّةَ، وحركةُ اللَّامِ الضَّمَّةُ لأَجْلِ الواوِ كـ: نَصَرُوا وضَرَبُوا، فحركةُ ما قَبْلَه إنْ كانتْ فتحةً تُقْلَبُ اللَّامُ أَلِفاً ويُحْذَفُ الألِفُ لالْتِقاءِ السَّاكِنَينِ، وإنْ

---

(١) «سَرُوَ» من باب ظَرُفَ: صار سريًّا. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: سرو).

كانَتْ ضمَّةً أو كسرةً تَسْقُطانِ أو تُنْقلانِ ـ كما سيأتي مفصَّلاً ـ لِثِقَلِهما على اللَّام، فتَسْقُطُ اللَّامُ لالْتِقاءِ السَّاكِنَين، ففي الكُلِّ وَجَبَ حَذْفُ اللَّام.

(و) يُحْذفُ اللَّامُ (**في مثالِ: فَعَلَتْ وفَعَلَتا**)؛ أي: إذا اتَّصلَتْ بالماضي تاءُ التَّأنيثِ للمُفْرَدِ أو المثنَّى (**إذا انْفتَحَ ما قَبْلَها**)؛ أي: ما قبلَ اللَّامِ، وفي نسخةٍ: (ما قبلَهما)؛ أي: الواوِ والياءِ؛ كـ: غَزَتْ وغَزَتَا، ورَمَتْ ورَمَتَا، وأَعْطَتْ وأَعْطَتَا، واشْتَرَتْ واشْتَرَتَا، واسْتَقْصَتْ واسْتَقْصَتَا. والأصل: غَزَوَتْ غَزَوَتَا، ورَمَيَتْ رَمَيَتَا.. إلى الآخِرِ، قُلِبَتِ الواوُ والياءُ أَلِفاً لتَحَرُّكِهما وانْفِتاحِ ما قَبْلَهما، ثُمَّ حُذفتِ الأَلِفُ لالْتِقاءِ السَّاكِنينِ، وهو في فِعْلِ الاثْنينِ تَقْديريٌّ؛ لأنَّ التَّاءَ ساكنةٌ تقديراً؛ لأنَّ المتحرِّكةَ مِن خواصِّ الاسمِ، فعَرَضَتِ الحركةُ هاهُنا لأَجْلِ أَلِفِ التَّثْنيَةِ، فلا عِبرةَ بحركتِه.

ومنهُم مَن لا يَلْمَحُ ـ أي: لا يَحذِفُ الألِفَ في التَّثْنيةِ ـ هذا، ويقولُ: غَزَاتَا رَمَاتَا، وليس بوَجْهٍ.

(**وتَثْبُتُ**)؛ أي: اللَّامُ (**في غيرِها**)؛ أي: في غيرِ مِثالِ (فَعَلُوا) مُطْلَقاً، ومثالِ (فَعَلَتْ وفَعَلَتَا) مفتوحَيْ ما قَبْلَ اللَّامِ، وهو ما لا يَكونُ على غيرِ هذه الأَمْثِلةِ[1]، أو يكونُ على (فَعَلَتْ وفَعَلَتَا) لكنْ لا يكونُ مفتوحاً ما قَبْلَ اللَّامِ، نحو: رَضِيَتْ رَضِيَتَا، وسَرُوَتْ سَرُوَتَا؛ لعَدَمِ مُوْجِبِ الحذفِ.

فإذا عَرَفْتَ هذا (فتقولُ) في فَعَلَ مَفتوحِ العينِ واويّاً: (**غَزَا غَزَوَا غَزَوْا، غَزَتْ غَزَتَا غَزَوْنَ، غَزَوْتَ غَزَوْتُما غَزَوْتُم، غَزَوْتِ غَزَوْتُما غَزَوْتُنَّ، غَزَوْتُ غَزَوْنَا، و**) في مَفتوحِ العينِ يائيّاً (**رَمَى رَمَيَا رَمَوْا، رَمَتْ رَمَتَا رَمَيْنَ، رَمَيْتَ رَمَيْتُما رَمَيْتُم، رَمَيْتِ رَمَيْتُما رَمَيْتُنَّ، رَمَيْتُ رَمَيْنا، و**) في فَعِلَ مكسورِ العينِ (**رَضِيَ رَضِيَا رَضُوا، رَضِيَتْ رَضِيَتَا رَضِيْنَ، رَضِيْتَ رَضِيْتُما رَضِيْتُم، رَضِيْتِ رَضِيْتُما رَضِيْتُنَّ، رَضِيْتُ رَضِيْنا**).

---

(١) قوله: «وهو ما لا يكون على غير هذه الأمثلة»، كذا في «ط» و«و»، ولعل الصواب حذف «لا» أو «غير».

والفعلُ المكسورُ العينِ سواءٌ كانَ واويّاً أو يائيّاً لامُهُ ياءٌ؛ لأنَّ الواوَ تُقْلَبُ ياءً لتَطَرُّفِها وانْكسارِ ما قَبْلَها؛ كـ: رضي، أصلُه: رَضِوَ، واليائيُّ كـ: خَشِيَ، ولذا لَمْ يَذْكُرِ المصنِّفُ إلَّا مِثالاً واحداً.

(**وكذلكَ تقولُ: سَرُوَ**)؛ أي: صار سيِّداً (**سَرُوَا سَرُوا.. إلى آخِرِه**): سَرُوَتْ سَرُوَتَا سَرُوْنَ، سَرُوْتَ سَرُوْتُما سَرُوْتُم، سَرُوتِ سَرُوْتُما سَرُوْتُنَّ، سَرُوْتُ سَرُوْنا. وذَكَرَ مثالاً واحداً لأَنَّهُ لا يكونُ إلَّا يائيّاً.

(**وإنَّما فَتَحْتَ**) أنتَ (**ما قَبْلَ واوِ الضَّميرِ في غَزَوْا أو رَمَوْا**) وهو الزَّايُ والميمُ (**وضَمَمْتَ**)؛ أي: ما قَبْلَها (**في رَضُوْا وسَرُوْا**) وهو الضَّادُ والرَّاءُ؛ (**لأنَّ واوَ الضَّميرِ إذا اتَّصَلَ بالفعلِ النَّاقصِ بعدِ حَذْفِ اللَّامِ**) فيُنْظَرُ فيهِ: (**فإنِ انْفَتحَ ما قَبْلَها**)؛ أي: ما قَبْلَ واوِ الضَّمِيرِ (**بقيَ على الفَتْحةِ**) إذ لا مانعَ منها مع كمالِها في الخِفَّة، (**وإنِ انْضَمَّ**)؛ أي: ما قَبْلَها (**أو كُسِرَ، ضُمَّ**)؛ أي: نُطِقَ بالضَّمِّ لـمُناسَبَتِهِ الواوَ.

ففُتِحَ في (غَزَوْا ورَمَوْا) لأنَّ ما قَبْلَ الواوِ بعدَ حذفِ اللَّامِ مَفتوحٌ؛ لأَنَّهما مَفتوحَا العينِ، فأُبْقِيَ الفتحُ، وكذا أُبْقِيَ الضَّمُّ في (سَرُوْا) لأَنَّهُ مضمومُ العينِ، وكذا ضُمَّ في (رَضُوا) لأَنَّه كانَ مكسوراً بعد حَذْفِ اللَّامِ، فقُلِبَتِ الكسرةُ ضمَّةً لتَبْقَى الواوُ.

وقد يُقالُ: نُقِلَتْ ضمَّةُ الياءِ إلى ما قَبْلَها بعدَ سَلْبِ حركتِه ثُمَّ حُذِفتِ الياءُ لالْتقاءِ السَّاكنَينِ، وهذا معنَى قولِه: (**وأصلُ رَضُوا: رَضِيُوا**) يعني: بعدَ قَلْبِ الواوِ ياءً؛ لأنَّ الأصلَ، رَضِوُوا، (**فنُقِلَتْ ضمَّةُ الياءَ إلى الضَّادِ وحُذفتِ الياءُ لالْتِقاءِ السَّاكِنينِ**) وهما الياءُ والواوُ.

(**وأمَّا المضارعُ**) مِن المعتلِّ اللَّامِ (**فتُسكَّنُ اللَّامُ**) وفي نسخةٍ: (الواوُ والياءُ والألِفُ) منهُ في الرَّفعِ؛ نحو: يَغْزُو ويَرْمِي ويَخْشَى، والأصلُ: يَغْزُوُ ويَرْمِيُ ويَخْشَيُ، فحُذِفتِ الضَّمَّةُ لثِقَلِها في: يَغْزُو ويَرْمي، وقُلِبَتِ الياءُ أَلِفاً في: يَخْشَى؛ لتَحَرُّكِها وانْفِتاحِ ما قَبْلَها.

(**وتُحْـذفُ**)؛ أي: الثَّلاثـةُ ـ وفي نسـخةٍ: (**فيُحْذَفْنَ**) ـ (**في الجَـزْمِ**) لأنَّها قائمةٌ مَقـامَ الإعـرابِ كالحركـةِ، فكمـا تُحْـذَفُ الحركةُ فكـذا هذه الحـروفُ، وقـد ثَبَتَتْ في لغـةٍ؛ كقولِه:

أَلَــمْ يَأتِيْــكَ والأنبــاءُ تَنْمِــي[١]

ومنهُ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِي وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠] في روايةِ قُنْبلٍ عن ابنِ كثيرٍ[٢].

وقيل: الياءُ متولِّدةٌ مِن إشباعِ الكسرةِ.

(**وتُفْتَحُ الواوُ والياءُ في النَّصْبِ**) لخفَّةِ الفتحةِ (**وتَثْبُتُ الألِفُ**) بحالِـها؛ لأنَّها لا تَقْبَلُ الحركةَ ولا مُوْجِبَ لحذفِها.

(**ويُسْقِطُ الجازِمُ والنَّاصِبُ النُّوناتِ**)؛ أي: جميعَها (**سِوَى نونِ جماعةِ المُؤنَّثِ**) كما سَبَقَ بيانُها، (**فتقولُ**) حينئذٍ:

(**لَمْ يَغزُ**) بحذفِ الواوِ (**لَمْ يَغزُوا**) بحذفِ النُّونِ، (و: **لَمْ يَرْمِ**) بحذفِ الياءِ (**لَمْ يَرْمِيَا**) بحذفِ النُّون، (و: **لَمْ يَرْضَ**) بحذفِ الألِفِ (**لَمْ يَرْضَيَا**) بحذفِ النُّونِ.

(و: **لَنْ يَغزُوَ**) بفتحِ الواوِ (و: **لَنْ يَرْميَ**) بفتحِ الياءِ، (و: **لَنْ يَرْضَى**) بإثباتِ الألفِ.

(**ويَثْبُـتُ لامُ الفِعـلِ**) واواً كانَ أو يـاءً (**فـي فِعْلِ الاثْنَينِ مفتوحةً**) نحـو: يَغْزُوانِ ويَرْمِيَـانِ، علـى أَصْلِهمـا، و: يَرْضَيَـانِ، بقَلْـبِ الألِفِ يـاءً؛ لأنَّ أَلِـفَ التَّثْنيَـةِ يَقتضِي فتحَ مـا قبلَه.

(و) يَثْبُتُ لامُ الفعلِ أيضاً في فِعْلِ (**جماعةِ الإناثِ**) ساكنةً؛ نحو: يَغْزُوْنَ ويَرْمِيْنَ ويَرْضَيْنَ؛ لعَدَمِ مُقتَضِي الحَذفِ.

---

(١) صدر بيت عزاه أبو زيد في «النوادر» (ص ٢٠٣) لقيس بن زهير، وهو دون نسبة في «الكتاب» (٣/ ٣١٦)، و«المحتسب» لابن جني (١/ ٦٧).

(٢) انظر: «التيسير» للداني (ص ١٣١).

(ويُحذَفُ)؛ أي: لامُ الفعلِ **(مِن جماعةِ الذُّكورِ)** مُخاطَبِينَ كانوا أو غائِبينَ؛ نحو: يَغْزُوْنَ ويَرْمُوْنَ ويَرْضَوْنَ، والأصلُ: يَغْزُوُوْنَ ويَرْمِيُوْنَ ويَرْضَيُوْنَ، فحُذِفَتْ حركاتُ اللّامِ لِثِقَلِ الضَّمَّةِ، ثُمَّ اللّامُ لالْتِقاءِ السّاكنَينِ، أو يُقالُ في يَغْزُوْنَ ويَرْمُوْنَ: نُقِلَتْ، وفي يَرْضَوْنَ: قُلِبَتْ أَلِفاً ثُمَّ حُذِفَتْ مِن الجَميعِ.

(و) يُحذفُ أيضاً مِن **(فِعْلِ الواحِدةِ المُخاطَبِةِ)** في نحوِ: تَغْزِيْنَ وتَرْمِيْنَ وتَرْضَيْنَ، والأصلُ: تَغْزُوِيْنَ وتَرْمِيِيْنَ وتَرْضَيِيْنَ.

فإذا تَقَرَّرَ هذا **(فتقولُ)** في يَفْعُلُ بالضَّمِّ: **(يَغْزُو يَغْزُوَانِ يَغْزُوْنَ، تَغْزُوْ تَغْزُوَانِ تَغْزُوْنَ، تَغْزِيْنَ تَغْزُوَانِ تَغْزُوْنَ، أَغْزُوْ نَغْزُوْ)** وعلى هذا القياسِ: يَدْعُوْ.

(ويَسْتوِي فيهِ)؛ أي: في مُضارعِ نحوِ غَزَا **(لفظُ جماعةِ الذُّكورِ والإناثِ في الخِطابِ والغَيْبةِ)**؛ أي: (جميعاً) كما في نسخةٍ:

أمّا في الخِطابِ فلأنَّكَ تَقولُ: أنتمْ تَغْزُوْنَ، و: أنتنَّ تَغْزُوْنَ، بالتّاءِ الفَوْقانيَّةِ فيهِما.

وأمّا في الغَيبةِ فلأنَّكَ تقولُ: الرِّجالُ يَغْزُوْنَ، و: النِّساءُ يَغْزُوْنَ، بالياءِ التَّحْتانيَّةِ فيهما.

(لكنَّ التَّقديرَ)؛ أي: تقديرَ كلٍّ منهُما **(مُختلِفٌ)** في التَّعبيرِ، **(فوَزْنُ المُذَكَّرِ)**؛ أي: جَمْعِهِ: **(يَفْعُوْنَ)** في الغَيبةِ **(وتَفْعُوْنَ)** في الخطابِ بحذفِ اللّامِ فيهِما؛ لِـمَا مَرَّ أنَّ الأصلَ: (يَغْزُوُوْنَ) حُذِفتِ اللّامُ، والواوُ ضميرٌ، **(ووَزْنُ المُؤنَّثِ)**؛ أي: جَمْعِهِ: **(يَفْعَلْنَ)** في الغَيْبةِ **(وتَفْعَلْنَ)** في الخطابِ؛ لِـمَا تَقَدَّمَ أنَّ اللّامَ يَثْبُتُ في فِعْلِ جماعةِ الإناثِ.

(وتقولُ) في يَفْعِلُ بالكسرِ: **(يَرْمِي يَرْمِيَانِ يَرْمُوْنَ، تَرْمِي تَرْمِيَانِ يَرْمِيْنَ، تَرْمِي تَرْمِيَانِ تَرْمُوْنَ، تَرْمِيْنَ تَرْمِيَانِ تَرْمِيْنَ، أَرْمِيْ نَرْمِيْ)** وعلى هذا القياسِ: يَهْدِي.

(وأصـلُ يَرْمُـوْنَ: يَرْمِيُـوْنَ، ففُعِلَ بِهِ مـا فُعِلَ بــ: رَضِيُـوا[١])؛ أي: نُقِلَتْ ضمَّةُ اليـاءِ إلـى الميـمِ وحُذِفـتِ اليـاءُ لالْتِقـاءِ السَّـاكِنَينِ، وخَصَّـهُ بالذِّكـرِ لأنَّـه خالَـفَ (يَغْـزُوْنَ) و(يَرْضَـوْنَ) فـي عَـدَمِ بقـاءِ عَينـهِ على حركتـهِ الأصليَّـةِ، فنبَّهَ علـى كيفيَّةِ ضـمِّ العيـنِ وانْتِفاءِ الكسـرِ.

(وهكذا)؛ أي: مِثْلُ يَرْمِي (حُكْمُ ما كانَ ما قَبْلَ لامهِ مَكْسوراً) في جميعِ ما ذُكِرَ (كيُهْدِي) مِن الإهداءِ، (ويُناجِي) مِن الـمُناجاةِ، (ويَرْتَجِي) مِن الارْتِـجَاءِ وهو طلبُ الرَّجاءِ (ويَنْبَرِي)؛ أي: يَعْرِضُ، وفي نسخةٍ: (يَعْتَرِي)؛ أي: يَعْتَرِضُ، (ويَسْتَدْعي) مِن الاستدعاء، فأَجْرِ عليها أحكامَ (يَرْمِي) وصَرِّفْها تَصْريفَه كما عَرَفْتَ في مَقامِ التَّفصيلِ، فإنَّ الذَّكيَّ كَفَاه هذا القَدْرُ من التَّعليل، وأمَّا البَليدُ فلا يُفيدُه التَّطْويل، ولو تَلَيْتَ عليهِ التَّوراةَ والإنجيل.

(و) على هذا القياسِ قولُه: (يَرْعَوِي)؛ أي: يَكُفُّ (ويَعْرَوْرِي) مِن اعْرَوْرَيْتُ الفَرَسَ؛ أي: رَكِبْتُه عُرْياناً.

(وتقولُ) في يَفْعَلُ بالفتحِ: (يَرْضَى يَرْضَيَانِ يَرْضَوْنَ، تَرْضَى تَرْضَيَانِ يَرْضَيْنَ) بالياءِ دونَ الألِفِ؛ لأنَّ الأصلَ الياءُ والألِفُ مُنْقلِبةٌ عنهُ، وهنا ليسَتْ متحرِّكةً فلا تُقْلَبُ، بل تَرْجِعُ إلى أصلِها (تَرْضَى تَرْضَيَانِ تَرْضَوْنَ، تَرْضَيْنَ تَرْضَيَانِ تَرْضَيْنَ، أَرْضَى نَرْضَى) وعلى هذا القياسِ: يَسْعَى.

(وهكذا قياسُ) ما كانَ ما قَبْلَ لامِه مفتوحاً؛ نحوَ:

(يَتَمَطَّـى) والأصـلُ: يَتَمَطَّوُ، مصدرُه: التَّمَطِّـي، وأصلُه: التَّمَطُّـوُ، وهو المدُّ، قُلِبَـتِ الواوُ يـاءً والضَّمَّةُ كسـرةً؛ لرَفْضِهِم الـواوَ المتطرِّفةَ المضمومَ مـا قَبْلَها.

(ويَتَصابَى) أصلُه: يَتَصابَوُ، مَصْدرُه: التَّصَابِي، أصلُه: التَّصابُوُ، لأنَّه مِن الصَّبْوةِ، فأُعِلَّ كما سَبَقَ.

---

(١) في «ط» و«و»: «رضوا»، والصواب المثبت.

(ويَتَقَلْسَى) أصلُه: يَتَقَلْسَوُ، مصدرُه: التَّقَلْسي، أصلُه: التَّقَلْسُوُ كالتَّدَرُّجِ.

(ولفظُ الواحدةِ المؤنَّثةِ في الخِطابِ كلفظِ الجَمْعِ)؛ أي: جمعِ المؤنَّثِ في الخِطابِ (في بابِ يَرْمِي ويَرْضَى)؛ أي: في كُلِّ ما كانَ ما قَبْلَ لامِه مَكسوراً أو مَفتوحاً، فإنَّه يُقالُ في الواحدةِ والجمعِ: تَرْمِيْنَ وتَهْدِيْنَ وتُناجِيْنَ ونحوها، وكذا: تَرْضَيْنَ وتَتَمَطَّيْنَ وتَتَصابَيْنَ وأمثالُها فيهما جميعاً.

(والتَّقْديرُ مختلِفٌ) في التَّعبيرِ؛ (فوزنُ الواحدةِ) مِن يَرْمِي: (تَفْعِيْنَ) بكسرِ العينِ (ومِن) يَرِضَى: (تَفْعَيْنَ) بفتحِ العينِ، واللَّامُ محذوفةٌ كما مرَّ، (ووزنُ الجمعِ) مِن يَرْمِي: (تَفْعِلْنَ) بالكسرِ ومِن يَرْضَى: (تَفْعَلْنَ) بالفتحِ، بإثباتِ اللَّامِ لأنَّها تَثْبُتُ في فعلِ جماعةِ النِّساءِ مُطْلَقاً.

(والأَمْرُ مِنها)؛ أي: مِن هذه الثَّلاثةِ المذكورةِ، وهي يَغْزُو ويَرْمِي ويَرْضَى: (اغْزُ اغْزُوَا اغْزُوْا اغْزِي اغْزُوَا اغْزُوْنَ، و) كذا: ادْعُ (ارْمِ ارْمِيَا ارْمُوْا ارْمِي ارْمِيَا ارْمِيْنَ، و) كذا: اِهْدِ (ارْضَ ارْضَيَا ارْضَوْا ارْضَيْ ارْضَيَا ارْضَيْنَ) وكذا: اسْعَ، وهذا أمرٌ واضحٌ لمَن له فهمٌ لائحٌ.

(وإذا أَدْخَلْتَ نونَ التَّأكيدِ)؛ أي: على نحوِ (اغْزُ) و(ارْمِ) و(ارْضَ) خفيفةً كانتِ النُّونُ أو ثقيلةً (أُعِيدَتِ اللَّامُ) المحذوفةُ (فقلتَ: اغْزُوَنَّ) بإعادةِ الواوِ (و: ارْمِيَنَّ) بإعادةِ الياءِ (وارْضَيَنَّ) بإعادةِ الألِفِ، ورَدُّها إلى أصلِها وهو الياءُ ضَرورةَ تحرُّكِها.

ولا تُعادُ اللَّامُ في فعلِ جماعةِ الذُّكورِ والواحِدةِ الـمُخاطَبةِ؛ أمَّا مِن (ارْضَ) فلأنَّ الْتِقاءَ السَّاكِنَينِ لَمْ يَرتفِعْ حقيقةً؛ لعُروضِ حركتَي الواوِ والياءِ الضَّميرَيْنِ، وأمَّا مِن (اغْزُ) و(ارْمِ) فلأنَّ سَبَبَ الحذفِ باقٍ؛ أعني الْتِقاءَ السَّاكِنينِ لو أُعِيدَ اللَّامُ.

(واسمُ الفاعلِ مِنها)؛ أي: مِن هذه الأفعالِ الثَّلاثةِ المذكورةِ: (غازٍ) أصلُه: غازِوٌ (غازِيَانِ) أصلُه: غازِوَانِ (غازُونَ) أصلُه: غازِوُوْنَ، ثم غازِيُوْنَ (غازِيَةٌ) أصلُه: غازِوَةٌ (غازِيَتانِ) أصلُه: غازِوَتانِ (غازِيَاتٌ) أصلُه: غازِوَاتٌ (وغَوَازٍ) أصلُه: غَوازِوٌ.

وكذا حكمُ داعٍ، و(**رامٍ رامِيَانِ رامُوْنَ**) أصلُه: رامِيُونَ (**رامِيَةٌ رامِيَتانِ رامِيَاتٌ ورَوَامٍ**)، وكذا حُكْمُ ساعٍ وغاشٍ، فيقالُ في جمعِ المذكَّرِ مِنْهُما: سَوَاعٍ وغَوَاشٍ، (**وراضٍ راضِيَانِ راضُون**) أصلُه: راضِوُوْنَ ثُمَّ راضِيُون (**راضِيَةٌ راضِيَتانِ راضِيَاتٌ ورَوَاضٍ، وأصلُ غازٍ: غازِوٌ**) كـ: ناصِرٍ (**قُلِبَتِ الواوُ ياءً لتَطَرُّفِها وانْكِسارِ ما قَبْلَها**) وهذا قياسٌ مطَّرِدٌ، وكذا (راضٍ) أصلُه: راضِوٌ، جُعِلَ: راضِيٌ، وأصلُ رامٍ: رامِيٌ، فحُذِفَتْ ضمَّةُ الياءِ مِن الجميعِ استثقالاً، فاجْتَمَعَ ساكِنانِ: الياءُ والتَّنْوينُ، فحُذِفَتِ الياءُ لالْتِقاءِ السَّاكِنَينِ دونَ التَّنوينِ؛ لأنَّها حرفُ علَّةٍ والتَّنوينُ حرفٌ صحيحٌ، فحَذْفُها أَوْلَى، فإنْ زالَ التَّنوينُ أُعِيدتِ الياءُ؛ نحوَ: الغازِي والرَّامِي.

(**كما قُلِبَتِ**) الواوُ ياءً (**في غُزِيَ**) مِن الـمَبْنيِّ للمفعولِ في الماضي، والأصلُ: غُزِوَ، (**ثُمَّ قالوا: غازِيَةٌ**) بقلبِ الواوِ ياءً مع عَدَمِ تَطَرُّفِها صورةً؛ (**لأنَّ المُؤنَّثَ فَرْعُ المُذَكَّرِ**)؛ لكونِ المؤنَّثِ غالباً على الزِّيادةِ، فلمَّا قَلَبوها في الأصلِ قَلَبوها في الفَرْعِ، فقالوا: غازِيَةٌ، وفي التَّنْزيل: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، (**والتَّاءُ طارِيَة**) على أصلِ الكلمةِ، وليستْ مِنها بل هي مُلْحَقةٌ، فكأنَّ الواوَ مُتطرِّفةٌ حقيقةً.

وأصلُ غَوَازٍ: غَوازِيٌ بالتَّنوينِ، أُعِلَّ إعلالَ غازٍ، ولا بَحْثَ لنا مَعْشَرَ الصَّرْفيِّينَ عن أنَّه مُنْصَرِفٌ أو غيرُه، وأنَّ تنوينَه أيُّ تَنوينٍ، وكذا حُكْمُ غَوَاشٍ.

ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ هذا الإعلالَ إنَّما هو حالَ الرَّفعِ والجرِّ، وأمَّا حالَ النَّصْبِ فتقولُ: رأيتُ غازياً ورامياً وغَوَازِيَ ورَوَامِيَ، كالصَّحيح.

(**وتقولُ في مفعولٍ مِن الواويِّ**)؛ أي: في اسمِ المفعولِ مِن الثُّلاثيِّ المجرَّدِ الواويِّ: (**مَغْزُوٌّ**) أصلُه: مَغْزُوْوٌ، أُدْغِمَتْ.

(**ومِن اليائيِّ**)؛ أي: مِن الثُّلاثيِّ المجرَّدِ اليائيِّ (**مَرْمِيٌّ**) أصلُه: مَرْمُوْيٌ (**فقُلِبَتِ الواوُ ياءً وأُدْغِمتِ الياءُ**) في الياءِ (**وكُسِرَ ما قَبْلَها**) لتَسْلَمَ الياءُ، وإنَّما

قُلِبتِ الـواوُ يـاءً (**لأنَّ الـواوَ واليـاءَ إذا اجْتَمَعَتَـا**)؛ أي: (فـي كلمـةٍ) كما في نسـخةٍ (**والأُوْلَـى منهما سـاكنةٌ**) سـواءٌ كانَتْ هي الـواوَ أو الياءَ (**قُلِبَـتِ الواوُ يـاءً وأُدْغِمَتِ اليـاءُ فـي اليـاءِ**) وهذا قيـاسٌ مُطَّـرِدٌ[1] طَلَبـاً للخِفَّةِ.

(**وتقـولُ في فعـولٍ مِن الواويِّ: عَـدُوٌّ**) والأصلُ: عَـدُوْوٌ، (**ومِن اليائـيِّ: بَغِيٌّ**) أصلُـه: بَغُـويٌ، اجْتَمَعتِ الواوُ والياءُ وسَـبَقَ السَّـاكِنُ[2]، فقُلِبَتِ الواوُ يـاءً وأُدْغِمَتْ في الياءِ وكُسِـرَ مـا قبلَها، وفي التنزيـل: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريـم: ٢٠]؛ أي: فاجِرةً.

وأمَّا قولُ بعضِهم: هو فَعِيلٌ، ولو كان فَعُولاً لقيل: بَغُوٌّ، فوَهْمٌ مِن وَجْهَينِ:

أحدُهما: أنَّهُ لو كانَ فَعِيلاً لوَجَبَ أنْ يُقالَ: (بَغْيَّةً)؛ لأنَّ فَعِيلاً بمعنى فاعِلٍ، فلا يَستوِي فيه المُذكَّرُ والمؤنَّثُ إلَّا بتأويلٍ، وهو أنْ يُشبَّهَ بما هو بمعنَى مفعولٍ؛ كما قالوا في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وثانيهما: أنَّ قولَه: لو كان فَعولاً لقيل: بَغُوٌّ، غيرُ مُستقيمٍ لأنَّهُ يائيٌّ.

(و) تقولُ (**في فَعِيلٍ مِن الواويِّ: صَبِيٌّ**) أصلُه: صَبِيْوٌ، قُلِبَتِ الواوُ ياءً وأُدْغِمَتْ، وهو مِن الصَّبْوةِ، وهي الـمَيْلُ إلى اللَّعِبِ واللَّهْوِ.

(**ومِـن اليائـيِّ: شَـرِيٌّ**) أصلُـه: شَـرِيْيٌ، أُدْغِمـتِ اليـاءُ فـي اليـاءِ، والفَـرَسُ الشَّـرِيُّ هـو الـذي يَشْـرِي فـي سَـيْرِه؛ أي: يُبالِـغُ فـي مَشْـيِهِ ويَلـجُّ فـي جَرْيـهِ، وأمَّـا ﴿سَرِيًّا﴾ فـي قولِـه تعالـى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريـم: ٢٤]، فهـو فَعيـلٌ مِـن السَّـرْيِ وهـو الشَّـرفُ؛ أي: سـيِّداً، وهو عيسـى عليـه السَّـلامُ، أو: جَـدْولاً[3]؛ كمـا رُوِيَ مرفوعـاً[4]، ولعـلَّ وجهَـهُ أنَّـه كثيـرُ الجَرَيـانِ والسَّـرَيَانِ.

---

(١) في «ط»: «مستمر».

(٢) تحرفت في «ط» إلى: «الساكنين».

(٣) تحرفت في «ط» و«و» إلى: «جدوة».

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٤١٣) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعاً وصححه، =

(و) الثُّلاثيُّ (**المَزِيدُ فيه**) مِن النَّاقصِ (**تُقْلَبُ واوُه ياءً**) لاستثقالِ الواوِ؛ (**لأنَّ كلَّ واوٍ وَقَعَتْ رابعةً فصاعِداً**)؛ أي: خامسةً أو سادسةً (**ولَمْ يُضَمَّ ما قَبْلَها**) احترازٌ مِن نحوِ: يغزو (**قُلِبَتْ ياءً**) طَلَباً للخِفَّةِ؛ لِثِقَلِ الكلمةِ بالإطَالةِ، (**فتقولُ: أَعْطَى يُعْطِي**) الأصل: أَعْطَوَ يُعْطِوُ، (**واعْتَدَى يَعْتَدِي**) وأصلُهما: اعْتَدَوَ يَعْتَدِوُ، (**واسْتَرْشَى يَسْتَرْشِي**) الأصلُ: اسْتَرْشَوَ يَسْتَرْشِوُ.

(**وتقولُ مع الضَّميرِ: أَعْطَيْتُ واعْتَدَيْتُ واسْتَرْشَيْتُ، وكذلكَ تَغَازَيْنا وتَرَاجَيْنا**) بقلبِ الواوِ ياءً في الجميعِ؛ لِـمَا قَدَّمْنا.

ويُفْهَمُ مِن الأمْثِلةِ أنَّ حُكْمَ هذهِ المسألةِ في لامِ الفعلِ دونَ غيرِه، فلا يَرِدُ نحوُ قولِه تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾ [المجادلة: ١٩]، ﴿وَجَٰوَزْنَا﴾ [الأعراف: ١٣٨].

(**الرَّابعُ**) مِن الأنواعِ السَّبعةِ: (**المُعْتَلُّ العينِ واللَّامِ**) وهو ما يكونُ عينُه ولامُه حرفَ علَّةٍ (**ويقالُ لهُ: اللَّفِيفُ**) لاجْتِماعِ حَرْفَي العلَّةِ فيه (**المَقْرُونُ**) لـمُقارَنَتِهما مِن غيرِ فَصْلٍ بينَهما.

(**فتقولُ: شَوَى يَشْوِيْ شَيّا؛ كـ: رَمَى يَرْمِيْ رَمْياً**) وأصلُ (شيّاً): شَوْياً، اجْتَمَعتِ الواوُ والياءُ وسَبَقَ السَّاكنُ فقُلِبَتِ الواوُ ياءً وأُدْغِمتْ.

وتقولُ: (**قَوِيَ يَقْوَى قُوَّةً**) والأصلُ: قَوِوَ يَقْوَوُ ـ فأُعِلَّ إعلالَ رَضِيَ يَرْضَى ـ قوَّةً على أصلِه، إلَّا أنَّها أُدْغِمَتْ للخِفَّةِ.

(**ورَوِيَ يَرْوَى رِيًّا**) أصلُه: رِوْياً (**مِثْلَ: رَضِيَ يَرْضَى رِضْياً**)، وأمَّا: رَوَى يَرْوِي، مِن بابِ ضَرَبَ، فمصدَرُه: رِوايةً، واخْتَلَفَا أيضاً دِرايةً (**فهو رَيَّانُ، وامرأةٌ**

= وذكره البخاري قبل الحديث (٣٤٣٦) تعليقاً موقوفاً عليه، ورواه موقوفاً عليه أيضاً: عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦ ـ ٧)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٠٦)، ولم يصح الرفع كما قال السيوطي. انظر: «روح المعاني» (١٦/ ٦٣).

رَيَّـى) وأصلُهمـا: رَوْيَانُ ورَوْيَى علـى فَعْلانَ وفَعْلَى **(مِثْلَ: عَطْشَـانَ وعَطْشَـى)** فبُنِيَا علـى الصِّفةِ المُشـبَّهةِ؛ لئلَّا يَشْـتبِهَ بالـرَّاوِي والرَّاوِيَةِ مِـن الرِّوَايةِ.

(وأَرْوَى) غيرَه **(كـ: أَعْطَى)** في بناءِ المَزِيدِ.

(وحَيِـيَ)؛ كـ: رَضِـيَ بلا إدْغامٍ **(وحَـيَّ)** بإدغامِهِ، وقد قُرِئَ بهمـا قولُه تعالى: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] فنافعٌ وشُـعبةُ والبَـزِّيُّ بالفَـكِّ[1]، **(يَحْيَى)** بـلا إدغـامٍ في مضـارعِ (حَيِـيَ) و(حَـيَّ) كِلَيْهِما، **(حَيَـوةً)** في المصـدرِ بقَلْـبِ الياءِ أَلِفـاً، ويُكْتَـبُ بصـورةِ الواوِ علـى لُغةِ بعـضِ العربِ مـمَّن يُميلُ الألِفَ إلـى الواوِ، وكذلـك ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ و﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

والأَظْهَرُ أنَّ مِثْلَ ذلك في المُصْحَفِ يُكتبُ بالواوِ اقتداءً بنَقَلَتِهِ، وفي غيرِه بالألِفِ، فقد قال ابنُ الحاجبِ في الخطِّ: كَتَبوا كلَّ أَلِفٍ رابعةٍ فصاعداً في اسمٍ أو فِعْلٍ ياءً إلَّا فيما قَبْلَها ياءٌ كـ: يَحْيَا[2].

(فهـو حـيٌّ) بالإدْغـامِ فقط فـي النَّعْـتِ، **(وحَيَّا)** فـي فِعْـلِ الاثْنينِ مِـن (حَيَّ) بالإدْغـام، **(وحَيِيَـا)** مِـن (حَيِيَ) بالفـكِّ **(فهما حَيَّـانِ)** في تَثْنيَـةِ: حَيٍّ.

(وحَيُّوا) في فِعْلِ جماعةِ الذُّكورِ مِن (حَيَّ) بالإدْغامِ **(فهُم أَحْيَاءٌ)** في جمعِ: حَيٍّ.

(ويَجوزُ) في فِعْلِ جماعةِ الذُّكورِ: **(حَيُوا)** بالتَّخْفيفِ **(كـ: رَضُوا)** من (حَيِيَ) بلا إدْغامٍ، والأصلُ: حَيِيُوا؛ كـ: رَضِيُوا، فأُعِلَّ إعلالَه كما سَبَقَ.

(والأَمْرُ: أَحْيِ) مِن تُحْيِي **(كأَرْضِ)** مِن تُرْضِي.

---

(١) انظر: «التيسير» للداني (ص ١١٦).

(٢) تحرفت في «ط» و«و» إلى: «يحيى» بالألف المقصورة، والصواب المثبت، وعبارة ابن الحاجب كما في «شرح الشافية» للرضي (٣/ ٣٣٢): «... إلا فيما قبلها ياء إلا في نحو يحيى وريَّى عَلَمين»، وهي صواب أيضاً.

(و) تَقـولُ في أَفْعَـلَ: (**أَحْيَا**[١] **يُحْيِي**) كـ: أَعْطَى يُعْطِي، وفـي فاعَلَ: (**حايا**[٢] **يُحَايِي مُحايَـاةً**) أصلُه: مُحَايَيَة.

(و) فـي اسْـتَفْعَلَ: (**اسْـتَحْيَا**[٣] **يَسْـتَحْيِي اسْـتِحْياءً، اسْـتَحْيِ**) فـي الأمرِ، فهو مُسْـتَحْيٍ، وذاك مُسْـتَحْياً[٤].

(**ومنهُم**)؛ أي: مِن العربِ (**مَن يقولُ: اسْتَحَى يَسْتَحِي**) بحَذْفِ إحدَى اليائَيْنِ، (**اسْتَحِ**)، وهذه لغةٌ تميميَّةٌ، والأُولَى حجازيَّةٌ وبها جاءَ التنزيلُ، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا**﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿**وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ**﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ووقع في «شرح العلَّامةِ التَّفْتازانيِّ»: (إنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي مِن الحَقِّ)[٥]، وهو وهمٌ منهُ نشأ مِن تركيبِ الآيتينِ وتلفيقِ الجُملتينِ.

(**وذلك**) الحذفُ (**لكثرةِ الاستعمالِ؛ كما قالُوا**)؛ أي: بعضُ العربِ: (**لا أَدْرِ، في: لا أَدْرِي**) ونظيرُه حذفُ النُّونِ مِن (يكونُ) حالَ الجزمِ، نحو: لَمْ أَكُ، و: لا تَكُ.

(**الخامسُ**) من الأنواعِ السَّبعةِ: (**مُعْتَلُّ الفاءِ واللَّامِ**) وهو الذي يكونُ فاؤُه ولامُه حَرْفي علَّةٍ، (**ويقالُ لهُ: اللَّفيفُ**) ـ لِـمَا مَرَّ ـ (**المَفْروقُ**) لاجتماعِ حَرْفي العلَّةِ مع الفارِقِ بينَهما بالعينِ الذي هو حرفٌ صحيحٌ؛ كـ: وَلِـيَ يَلِي، بكسرِ لامِهما.

(**فتقولُ**) من بابِ ضَرَبَ: (**وَقَى**)؛ أي: حَفِظَ، وقَيَا وقَوْا، والأصلُ: وَقَيُوا، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿**وَإِذَا خَلَوْا**﴾ [البقرة: ١٤] (**كـ: رَمَى**) رَمَيَا رَمَوْا، (**يَقِي يَقِيَانِ يَقُونَ**) ولم يَقُلْ: كيرمي؛ لأنَّه يخالفُه في حذفِ الفاءِ؛ إذ أصلُه: يَوْقِي، ومَرَّ إعلالُه في (يَعِدُ).

---

(١) كتبت في «ط» و«و»: «أحيى» بالمقصورة، والصواب المثبت. انظر التعليق السابق.

(٢) كتبت في «ط» و«و»: «حايى» بالمقصورة، والصواب المثبت. انظر التعليق السابق.

(٣) كتبت في «ط» و«و»: «استحيى» بالمقصورة، والصواب المثبت. انظر التعليق السابق.

(٤) في «ط» و«و»: «مستحي»، والصواب المثبت على أنه اسم مفعول.

(٥) انظر: «شرح تصريف العزي» للتفتازاني (ص ١٦٤).

وأمَّا حكمُ اللَّامِ منهُ فحُكْمُه كـ: يرمي، وتقولُ في الأمرِ: (قِ) ومنهُ قولُه تعالى: ﴿وَقِنَا﴾ [البقرة: ٢٠١]، (فيَصِيرُ على حرفٍ واحدٍ) عندَ عَدَمِ التَّركيبِ، ويَلْزمُه الهاءُ في الوَقفِ نحو: قِهْ؛ لئلَّا يَلزمَ الابتداءُ بالسَّاكِنِ إنْ سَكَّنْتَ الحرفَ الواحدَ للوَقْفِ، أو الوقفُ على المتحرِّكِ إنْ لم يُسكَّنْ، وكلاهُما ممتنِعٌ، وأمَّا في الوصلِ فتقولُ: (قِ يا رَجُلُ) (قِيَا) (قُوا) أصلُه: قِيُوا، (قِي) أصله: قِيِي (قِيَا) (قِيْنَ)، فهو واقٍ، والأصلُ: واقِي، وذاك مَوْقِيٌّ، وأصلُه: مَوْقَويٌ، فأُعِلَّ إعلالَ رامٍ ومَرْمِيٍّ.

(وتقولُ في التَّأكيدِ) بالنُّونِ: (قِيَنَّ) بإدْغامِ اللَّامِ لِـمَا سَبَقَ مِن الكلام (قِيَانِّ قُنَّ) بضمِّ القافِ في فِعْلِ جماعةِ الذُّكورِ، وحَذْفِ الواوِ لالْتقاءِ السَّاكنَينِ ودلالةِ الضَّمِّ عليها، (قِنَّ) بكسرِ القافِ في فِعْلِ الواحدةِ[1]، وحَذْفِ الياءِ لالْتِقاءِ السَّاكِنَينِ ودلالةِ الكسرِ عليها، (قِيَانِّ قِيْنَانِّ).

(وبالخَفيفةِ: قِيَنْ قُنْ قِنْ).

(وتقولُ) مِن بابِ عَلِمَ يَعْلَمُ: (وَجِيَ) الفَرَسُ: إذا وُجِدَ في حافرِه وَجَعٌ (يَوْجَى) كـ: رَضِيَ يَرْضَى، (والأمرُ: اِيْجَ) أصلُه: اِوْجَ؛ كـ: اِرْضَ، قُلِبَتْ واوُه ياءً لسُكونها وانْكِسارِ ما قَبْلَها.

(السادسُ) مِن الأنواعِ السَّبعة: (المُعْتَلُّ الفاءِ والعينِ) وهو ما يكونُ فاؤُه وعينُه حَرْفَي علَّةٍ (كـ: يَيْنٍ) بفتحٍ فسكونٍ (في اسمِ مكانٍ) وهو وادٍ أو عينٌ، (ويومٍ) بمعنى نهارٍ أو وقتٍ، (وويلٍ) وهو وادٍ في جهنَّمَ أو كلمةُ عذابٍ، (ولا يُبْنَى منهُ)؛ أي: مِن هذا النَّوعِ (فِعْلٌ)؛ أي: مُطْلَقاً.

(السَّابعُ) وهو آخِرُ السَّبعةِ: (المُعْتَلُّ الفاءِ والعَينِ واللَّامِ) ويُسَمَّى: مُعتَلَّ الكُلِّ،

---

(١) أي: الواحدة المخاطبة.

ولَمْ يَجِيءْ في الكلامِ مِن هذا النَّوعِ إلَّا مِثالانِ (**وذلك: واوٌ وياءٌ، لاسْمَي الحَرْفينِ**) وتركيبُ الياءِ مِن الياءاتِ الثَّلاثِ اتِّفاقاً، ويَجعلونَ لامَهُ همزةً تَخفيفاً، وأمَّا ألِفُ الواوِ فمُنْقَلبةٌ عن الواوِ كما قالَ الأخفشُ، وقيل: مِن الياءِ. والأوَّلُ أَوْلَى؛ لأنَّ الواويَّ أكثرُ مِن اليائيِّ، فالحملُ عليه أَحْرَى.

وفي «القاموس»: يُوَيٌّ ـ كـ: سُمَيٍّ ـ [كأنَّه] اسمٌ، انتهى.

وأمَّا (واي) فعجمٌ كما لا يَخْفَى.

* * *

(فَصْلٌ فِي) بيانِ (المَهْموزِ)

وهو ما يكونُ أحدُ حروفِ أصلِه همزةً، وهو على ثلاثةِ أنواعٍ؛ لأنَّ الهمزةَ: إمَّا فاءٌ كما مرَّ، ويُسمَّى: مَهموزَ الفاءِ، أو عينٌ ـ كـ: سَأَلَ ـ ويُسَمَّى: مَهموزَ العينِ، أو لامٌ ـ كـ: قرأ ـ ويُسمَّى: مَهموزَ اللَّامِ.

(**وحُكْمُ المهموزِ في تَصَاريفِ فِعْلِهِ**) ماضياً كان أو مُضارِعاً (**حُكْمُ الصَّحيحِ؛ لأنَّ الهمزةَ حرفٌ صحيحٌ**) بدليلِ قَبولِـها الحركاتِ الثَّلاثةِ، بخلافِ حُروفِ العِلَّةِ، وهذا إذا لَمْ يَقْتَرِنْ معهُ علَّةٌ أُخرى؛ مِن تَضعيفٍ أو حروفِ علَّةٍ، وإلَّا فيكونُ حُكْمُه حُكْمُ مُقارِنهِ؛ كـ: أَبَّ للسَّيرِ يَؤُبُّ: إذا تَهيَّأَ، وكـ: رَأَى وأَوَى ووَأَى.

(**لكنَّها**)؛ أي: الهمزةُ (**قد تُخَفَّفُ**) بإبدالِها ألِفاً أو واواً أو ياءً (**إذا وَقَعَتْ غيرَ أوَّلٍ**) حقيقةً مِن جنسِ حركةِ ما قَبْلَها؛ نحو: يَأكلونَ ويُؤمِنونَ وبِئْسَ، أو حُكماً؛ نحو: (وامُرْ) بالألِفِ، والأصلُ: (وأْمُرْ) بالهمزةِ، وكذا: ﴿لِقَآءَنَا ٱئْتِ﴾ [يونس: ١٥]، و: ﴿ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، و: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا﴾ [الأعراف: ٧٧][1].

فالمرادُ بـ(غير الأوَّلِ): أنْ لا يكونَ الهمزةُ في أوَّلِ الكلامِ؛ إذْ لا تُخفَّفُ حينئذٍ أصلاً، لا أوَّلِ الكلمةِ؛ إذ قد تُخفَّفُ وصلاً.

وأمَّا حذفُ الهمزةِ مِن نحوِ: خُذْ، فوَقَعَ على خلافِ القياسِ، وليسَ كما ظنَّهُ العلَّامةُ التَّفتازانيُّ أنَّه ليسَ مِن هذا البابِ، فإنَّ همزةَ الوصلِ حَذْفُها لازِمٌ عندَ فَقْدِ الاحْتِياجِ إليها[2]؛ إذ البَحْثُ في الهمزةِ التي هي فاءُ الفعلِ، لا في همزةِ الوصلِ.

---

(١) انظر: «التيسير» للداني (ص ٣٤)، وفيه: أن ورشاً كانَ يسهل الهمزَة المفردة سَوَاء سكنت أو تحركت إذا كَانَت فِي مَوضِع الفَاء من الفِعْل في الأمثلة المذكورة ونحوها.

(٢) انظر: «شرح تصريف العزي» (ص ١٧٠).

وإنَّما تُخَفَّفُ الهمزةُ **(لأنَّها حرفٌ شديدٌ)** في صِفَتها، **(مِن أَقْصَى الحَلْقِ)** مَخرجُها، فتخفَّفُ دَفْعاً لشدَّتها ورَفْعاً لحِدَّتها، وتخفيفُها يكونُ بالقلبِ والحذفِ وأنواعِ التَّسهيل، ممَّا لا يَليقُ ذكرُه على وجهِ الاسْتِيعابِ في مِثْلِ هذا الكتابِ، فإنَّهُ بابٌ طويلُ الذَّيلِ ممتدُّ السَّيلِ، يَعْرفُه أهلُه مِن أربابِ القراءةِ وأصحابِ اللُّغة.

وإذا تَقرَّرَ أنَّ حُكْمَه حُكْمُ الصَّحيحِ **(فتقولُ: أَمَلَ يَأْمُلُ؛ كـ: نَصَرَ يَنْصُرُ)** في جميعِ تَصَارِيفهِ، **(والأمرُ: أُوْمُلْ بقَلْبِ الهمزةِ)** التي هي فاءُ الفعلِ **(واواً)** فإنَّ الأصلَ: (أُؤْمُلْ) بهمزتَينِ: الأُولَى للوصلِ، والثَّانيةُ فاءُ الفعلِ، فقُلِبَتْ واواً لسُكونها وانْضِمامِ ما قَبْلَها، وذلك **(لأنَّ الهمزتَيْنِ إذا الْتَقَتَا)**؛ أي: اجْتَمَعتَا حالَ كونِـهما **(في كلمةٍ واحدةٍ ثانِيَتُهما ساكنةٌ)** جملةٌ حاليَّةٌ **(وَجَبَ قَلْبُها)**؛ أي: قلبُ الثَّانيةِ الساكنةِ **(بحركةِ ما قَبْلَها)**؛ أي: بحرفِ حركةِ الهمزةِ التي قَبْلَها رَوْماً للخِفَّةِ، فإنْ كانتْ حركةُ ما قَبْلَها فتحةً تُقْلَبُ بحرفِ الفتحةِ وهو الألِفُ، وإنْ كانتْ ضمَّةً تُقْلَبُ بحرفِ الضَّمَّةِ وهو الواوُ، وإنْ كانتْ كسرةً تُقْلَبُ بحرفِ الكسرةِ وهي الياءُ.

(كـ: آمَنَ) أصلُه: أَأْمَنَ، قُلبتِ الثَّانيةُ أَلِفاً **(و: أُوْمِنَ)** مجهولَ آمَنَ، أصلُه: أُؤْمِنَ، بهمزتينِ قُلِبتِ الثَّانيةُ واواً **(وإيماناً)** مَصدرُ آمَنَ، والأصلُ: إِئمانٌ، قُلِبتِ الثَّانيةُ ياءً، وهذا مُتَّفقٌ عليه بينَ القرَّاءِ وأهلِ العربيَّةِ.

وإنَّمـا قـال: (إذا الْتَقَتَـا)؛ لأنَّ الهمـزةَ السَّـاكنةَ التـي قَبْلَها غيرُ همـزةٍ لا يجبُ قَلْبُهـا بحـرفِ حركةِ مـا قبلَها، بـل يجوزُ في بعـضِ القـراءاتِ وبعضِ اللغـات؛ كـ: رَاسٍ وبُـوسٍ وبِيسَ.

وقـال: (في كلمـةٍ)؛ لأنَّهما لـو كانَتَا في كلمتيـنِ لا يَجِبُ ذلك أيضـاً، بل يجوزُ؛ نحو: ﴿قَالَ ٱئْتُونِي﴾ [يوسف: ٥٩]، و: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا﴾ [الأعراف: ٧٧]، و: ﴿ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقال: (**ثانِيَتُهما ساكنةٌ**)؛ لأَنَّها لو كانَتْ مُتحرِّكةً فلها أحكامٌ أُخَرُ في الحالاتِ مَحَلُّ بيانِها الكتبُ المطوَّلاتُ، ونَظَرَ فيه العلَّامةُ التَّفْتازانيُّ؛ لأَنَّه يَنْتَقِضُ بنحوِ: أَئِمَّة، والأصلُ: أَأْمِـمَة كأَحْمِرةٍ، فإنَّه لَمْ تُقْلَبِ الثَّانيةُ أَلِفاً كما في (آمَنَ)، بل نُقِلَتْ حركةُ الميمِ إليها وقُلِبَتْ ياءً فقيل: أَيِـمَّة.

قال: ويُمْكِنُ الجوابُ بأَنَّه شاذٌّ[١]، انتهى.

ولا يَخْفَى أَنَّ نَقْلَها مُقدَّمٌ على قَلْبِها، ولذا قرأَ جمهورُ القُرَّاءِ بتَحْقيقِ الهمزةِ الثَّانيَةِ، وبعضُهم سهَّلوها كالياءِ، وبعضُهم قَلَبوها ياءً[٢].

ولعـلَّ الحكمةَ فـي تقديمِ نَقْلِها حالَ إعلالِـها وجـوبُ الإدْغامِ عنـدَ اجتماعِ الـمِثْلَيْنِ اتِّفاقـاً، علـى أَنَّه لو أُبْدِلَ همـزةً وأُدْغِمَ معهُ لصارَ مُلْتَبِسـاً باسـمِ الفاعِلِ مِن الأَمِّ، واللهُ أعلمُ.

ثُمَّ إذا قُلِبَتِ الثَّانيةُ (**فإنْ كانَتِ الهمزةُ الأُولَى**) مِن الهمزتَينِ الـمُنْقلِبةِ ثانِيَتُهما واواً أو ياءً (**همزةَ وصلٍ تَعودُ الثَّانيَةُ**)؛ أي: تَصيرُ الهمزةُ الـمُنْقَلِبةُ واواً أو ياءً (**همزةً**) خالِصةً (**عندَ الوصلِ**)؛ أي: وصلِ تلك الكلمةِ بكلمةٍ قَبْلَها، يعني: عندَ سُقوطِ همزةِ الوَصلِ في الدَّرْجِ؛ لأَنَّه يَرْتَفِعُ حينئذٍ الْتِقاءُ الهمزتَينِ فلا تَبْقَى علَّةُ القلبِ، فتعودُ الـمُنْقلِبةُ إلى أصلِها حالَ وَصْلِها مُطْلَقاً، فقولُه: (**إذا انْفَتحَ ما قَبْلَها**) وهمٌ مَحْضٌ وَقَعَ في غيرِ محلِّها؛ لأنَّ الهمزةَ الثَّانيةَ تعودُ عندَ سقوطِ همزةِ الوصلِ سَواءٌ انْفَتَحَ ما قَبْلَها أو انْضَمَّ أو انْكَسَرَ؛ لزَوالِ العلَّةِ وهي اجْتِماعُ المِثْلَيْنِ.

فمِثالُ ما انْفَتَحَ ما قَبْلَها قولُه تعالى: ﴿**إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا**﴾ [الأنعام: ٧١]، أصلُه: (اِيْتِنا) بياءٍ لكسرةِ ما قبلَها ابتداءً، فلمَّا سَقَطتْ همزةُ الوَصْلِ عادَتِ الهمزةُ المنقلبةُ انتهاءً.

---

(١) انظر: «شرح تصريف العزي» للتفتازاني (ص ١٧٢).

(٢) انظر اختلافَ القراء في قراءتها في «السبعة» لابن مجاهد (ص ٣١٢)، و«التيسير» (ص ١١٧).

ومِثالُ ما انْضَمَّ ما قَبْلَها قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ [التوبة: ٤٩] وأصلُه: (اِيْذَنْ) فلمَّا سقطتِ الهمزةُ الأُولَى عادَتِ الثَّانيةُ.

ومِثالُ ما انْكسرَ ما قبلَها قولُه تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، والأصلُ: (اُوْتُمِنَ) بالواوِ لا بالياءِ كما تَوَهَّمَ بعضُ الفُضلاءِ، فعند سُقوطِ الهمزةِ الأُولى عادتِ الثَّانيةُ.

(**وحُذِفتِ الهمزةُ في خُذْ وكُلْ ومُرْ على غيرِ قياسٍ**) فإنَّه يَقتضِي أنْ يكونَ الأمرُ مِن تَأْخُذُ وتأكُلُ وتأمُرُ: أُوْخُذْ وأُوْكُلْ وأُوْمُرْ، لكنَّهم لَـمَّا اشْتَقُّوا الأمرَ منها حَذَفوا الهمزةَ الأصليَّةَ ولَمْ يَحتاجوا إلى همزةِ الوصلِ العارضيَّةِ، فقالوا: (خُذْ وكُلْ ومُرْ) في جميعِ الأحوالِ (**لكثرةِ الاستعمال**).

ولَـمَّا كان هذا الاستعمالُ واجباً في (خُذْ وكُلْ) وجائزاً في (مُرْ) اسْتَدْرَكَ بقولِهِ: (**وقد يَجِيءُ مُرْ على الأصلِ عندَ الوَصْلِ**)؛ أي: لا عندَ الابتداءِ (**كقولِهِ تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾** [طه: ١٣٢]) أصلُه: أُوْمُرْ، حُذِفَتْ همزةُ الوصلِ وأُعِيدتِ الثَّانيةُ فقيل: (وَأْمُرْ) وجاءَ في الحديثِ: «فمُرْ برأسِ التِّمثالِ.. ومُرْ بالسِّتْرِ»[1].

(**وأَزَرَ**)؛ أي: عَاوَنَ (**يَأْزِرُ**) ويُخفَّفُ قياساً، (**وهَنَأَ يَهْنِئُ**) وقد يُخفَّفُ شاذًّا (كـ: **ضَرَبَ يَضْرِبُ**) بلا فَرْقٍ في تصريفِهما (**إِيْزَرْ**) أمرٌ مِن: تَأْزِرُ، قُلِبتِ الثانيةُ ياءً كما في إيمان.

(**وأَدُبَ يَأْدُبُ**) كـ: كَرُمَ يَكْرُمُ (**أُوْدُبْ**) أمرٌ منه، وأصلُه: أُؤْدُبْ، قُلِبَتِ الثَّانيةُ واواً.

(**وسَأَلَ يَسْأَلُ كمَنَعَ يَمْنَعُ**) والأمرُ: (**اسْأَلْ، ويجوزُ**) في لغةٍ: (**سَالَ يَسَالُ**)

---

(١) قطعة من حديث رواه أبو داود (٤١٥٨)، والترمذي (٢٨٠٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح.

بقَلْبِ الثَّانيةِ أَلِفاً، وقيل: أجوفُ واويٌّ أو يائيٌّ، وقُرِئَ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ [المعارج: ١] بالوجْهَيْنَ في السَّبعةِ[١]، (والأمرُ) مِن الثاني: (سَلْ)، وقُرئَ بالأمْرَينِ في السَّبعةِ[٢].

ثم (سَلْ) يَحْتمِلُ أنْ يكونَ مأخوذاً مِن (تَسَالُ) بالألِفِ، وإعلالُه ظاهرٌ، وهو حذفُ التاءِ والألِفِ للالْتقاءِ[٣]، وأنْ يكونَ مِن (تَسْأَلُ) بالهمزةِ، ثُمَّ نُقِلَ حركةُ الهمزةِ إلى ما قَبْلَها وحُذِفتْ، واستُغْنيَ بحركتِها عن همزةِ الوصلِ.

وحَكَى الأخفشُ عن بعضِ العربِ: (اِسَلْ) موضعَ (سَلْ)[٤]، فتَأَمَّلْ.

(وآبَ يَؤُوبُ) مهموزُ الفاءِ الأجوفُ (وساءَ يَسوءُ) مهموزُ اللَّامِ الأجوفُ (كـ: صَانَ يَصُونُ) في تصاريفهِ، في كونِ عَيْنِهِ واواً وفي إعلاله؛ كـ: قالَ يَقولُ، (وجاءَ يَجِيءُ) مهموزُ اللَّام النَّاقِصُ (كـ: كالَ يَكِيلُ) في كونِ عينِهِ ياءً وفي إعلالِهِ؛ كـ: باع يبيع، (فهو ساءٍ) في اسمِ الفاعلِ مِن (ساءَ)، (وجاءٍ) فيهِ مِن (جاءَ)، وأصلُهما: ساوِءٌ وجايِءٌ، قُلِبتِ الواوُ والياءُ همزةً كما في قائلٍ وبائعٍ، فقيل: (ساءِءٌ) و(جاءِءٌ) بهمزتَيْنِ، فقُلِبتِ الثَّانيةُ ياءً لانْكِسارِ ما قَبْلَها كما في (أئِمَّة)، كذا ذَكَرهُ سعدٌ[٥]، وفيه نظرٌ؛ لأنَّ قلبَ الهمزةِ الثَّانيةِ فيه ليس لانْكِسارِ ما قَبْلَها، بل لانْكِسارِها في نفسِها؛ لأنَّ ابنَ الحاجبِ وغيرَه مِن علماءِ هذا الفنِّ ذَكَروا أَنَّهُ إذا اجْتَمعتِ الهمزتانِ وتحرَّكَتا:

---

(١) قرأ نافِع وابْن عامر: ﴿سَالَ﴾ غير مَهْمُوز، وقرأ الباقُونَ: ﴿سَأَلَ﴾ مهموزاً، وكلهمْ قرأَ: ﴿سَآئِلٌ﴾ بالهمْز بلا اخْتِلَافٍ. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ٦٥٠).

(٢) قرأ ابن كثير والكسَائِيّ بلا همز: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٣٢]، و﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ﴾ [يُونُس: ٩٤]، و﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإِسْرَاء: ١٠١]، و﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ [الزخرف: ٤٥]، ومَا كانَ مثله من الأمر المواجه به وقَبْله واو أو فاء، وقرأَ أبو عَمْرو ونافِع وعاصِم وابن عَامر وحَمْزَة بالهَمْز في ذلِك كُله. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ٢٣٢).

(٣) في هامش «و»: «أي: لالتقاء الساكنين، أحدهما: ألف (تسال)، والثاني: اللام لأجل الجزم».

(٤) انظر: «المقتضب» للمبرد (١/ ٢٥٤).

(٥) انظر: «شرح تصريف العزي» (ص ١٧٦).

تارةً تُقْلَبُ بحركةِ ما قَبْلَها كـ: جاءٍ، وتارةً بحركةِ نفسِها مثلَ: أئمَّة، أصلُه: أَءْمِـمَةٌ أَفْعِلةٌ، جمعُ إمامٍ.

والحاصلُ: أنَّه قيل فيهما: (سائِي) و(جائِي)، ثُمَّ أُعِلَّ إعلالَ غازٍ ورامٍ، فقيل: ساءٍ وجاءٍ، والوزنُ: فاعٍ، وهذا قولُ سيبويه المختارُ في إعْلالِه[1].

(**وأَسَـا**)؛ أي: واويٌّ (**يأسـو**) مهمـوزُ الفـاءِ النَّاقـصُ الواويُّ (**كــ: دعا يدعو**) فـي إعلالـهِ وتَصْريفـهِ، (**وأَتَى يَأْتِـي**) مهموزُ الفـاءِ النَّاقصُ اليائـيُّ (**كـ: رَمَـى يَرْمِي**) إعـلالاً وتَصْريفـاً، (**والأمـرُ**)؛ أي: مـن (أتى يأتـي): (**ايت**) أصلُـه: اِئْتِ.

(**ومنهُم**)؛ أي: مِن العربِ (**مَن يقولُ: تِ**) يا رَجُلُ؛ كـ: قِ، بحذفِ الهمزةِ والاستغناءِ عن همزةِ الوصلِ، وفي الوَقْفِ: تِهْ؛ كـ: قِهْ (**تَشبيهاً لهُ بـ: خُذْ**) كما مَرَّ.

(**ووَأَى**)؛ أي: وَعَـدَ، وهـو مَهمـوزُ العيـنِ اللَّفيـفُ المفـروقُ (**يَئِـي**) أصلُـه: يَوْئِـي، (**إِ**) أَمْـرٌ منـهُ (**كــ: وَقَـى يَقِـي قِ**) فـي جميـعِ تَصَاريفـهِ وإعلالهِ.

(**وأَوَى يَأْوِي**) مهموزُ الفاءِ اللَّفيفُ المقرونُ (**أَيًّا**) أصلُه: أَوْياً (**كـ: شَوَى يَشْوِي شَيًّا**) أصلُه: شَوْياً (**اِيْوِ**) أمرٌ مِن تَأْوِي؛ كـ: (اِشْوِ) أمرٌ مِن تَشْوِي، والأصلُ: اِئْوِ، قُلِبتِ الثَّانيةُ ياءً لِـمَا مرَّ، ثُمَّ الياءُ تَصِيرُ همزةً عندَ سقوطِ همزةِ الوصلِ في الدَّرْجِ كما تَقَدَّمَ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦]، وهو فعلُ جماعةِ الذُّكور مِن الأمرِ الحاضِرِ، والأصلُ: (اِئْوُوا) بهمزتينِ، فلمَّا اتَّصلَ بها الفاءُ سقطتْ همزةُ الوصلِ وعادتِ الهمزةُ المنقلِبةُ فصارَ: ﴿فَأْوُۥٓا۟﴾ بالهمزةِ السَّاكنةِ، وقرأ بعضُ السَّبعةِ بالألِفِ المنقلِبةِ[2].

(**ونَـأَى**)؛ أي: بَعُـدَ، وهو مهموزُ العيـنِ النَّاقِصُ (**يَنْـأَى؛ كـ: رَعَـى يَرْعَى، اِنْأَ**) كــ: اِرْعَ، في الأمر.

---

(١) انظر: «الكتاب» (٤/ ٣٧٦).

(٢) لم أقف عليها، بل في «التيسير» (ص ٣٤) خلافه، فقد ذكر الداني هذه الآية ضمن استثناءات ورش من تسهيله الهمزة المفردة الواقعة فاءً للفعل.

(**وكـذا قيـاسُ: رَأَى يَرْأَى**)؛ أي: كانَ قياسُ (يَـرَى) أنْ يكونَ كـ: يَنْأَى ويَرْعَى؛ لأنَّـه مِـن بابهمـا، ولأنَّهُ لا بـدَّ مِن وجـودِ جميعِ حـروفِ الماضي في الـمُضارعِ مع زيادةِ حروفِ الـمُضارَعةِ.

(**لكنَّ العربَ قدِ اجْتَمَعَتْ**)؛ أي: (أجْمَعتْ) كما في نسخةٍ، والمعنى: اتَّفَقَتْ (**على حَذْفِ الهمزةِ**) التي هي عينُ فِعْلِهِ (**مِن مُضارِعِهِ**)؛ أي: مضارعِ (رَأَى)، وظاهِرُ كلامِهِ أنَّه حُذِفَ مَجَّاناً وفُتِحَ الرَّاءُ للألِفِ بعدَها، والأَظْهَرُ أنَّ إعلالَهُ بالنَّقْلِ والحَذْفِ، واختِصاصُه بذلك دونَ أمثالِهِ هُنالك: كثرةُ الاستعمال، واللهُ أعلمُ بحقيقةِ الأحوال.

(**فقالـوا: يَـرَى يَرَيَانِ يَـرَوْنَ**) أصلُه: يَرَيُونَ، وأصـلُ أصلِهِ: يَرْأَيُونَ (**تَـرَى تَرَيَانِ يَرَيْـنَ**) أصلُـه: يَرْأَيْـنَ (**تَرَى تَرَيَانِ تَـرَوْنَ، تَرَيْنَ تَرَيَـانِ تَرَيْنَ، أَرَى نَـرَى**) وإعلالُ لامِهِ كـ: يَنْأَى ويَرْعَى.

(**واتَّفَـقَ فـي خطـابِ المؤنَّـثِ لفـظُ الواحِدةِ والجمـعِ**) لأنَّـكَ تقـولُ: تَرَيْنَ يا امـرأةُ، و: تَرَيْـنَ يـا نسـوةُ، (**لكـنَّ الواحـدةَ وزنُها تَفَيْـنَ**) بحـذفِ الـلَّامِ؛ لأنَّ أصلَهُ: تَرَييـنَ، وأصـلُ أصلِـهِ: تَرْأَيِيـنَ، نُقِلَتْ حركـةُ الهمـزةِ فحُذِفَتْ، ثُـمَّ قُلِبتِ اليـاءُ أَلِفاً وحُذِفَـتْ للالْتِقـاءِ، أو يُقـالُ: الكسـرةُ علـى اليـاءِ ثقيلـةٌ فحُذِفَتْ، ثُـمَّ حُذِفـتِ الياءُ للالْتِقـاءِ، فبَقِـيَ (تَرَيْـنَ) بحذفِ العيـنِ واللَّام.

(**والجمـعُ**)؛ أي: وزنُـهُ (**تَفَلْـنَ**)؛ لأنَّ أصلَـهُ: تَرْأَيْنَ كـ: تَرْضَيْـنَ، فأُعِلَّ كما مَرَّ فبَقِـيَ: (تَرَيْـنَ) بإثبـاتِ اللَّامِ، واليـاءُ هنا لامُ الفعـلِ، وفي الواحِدةِ ضميـرُ الفاعلِ.

(**فـإذا أَمَـرْتَ**) بتخفيفِ الميـمِ؛ أي: بَنَيْتَ الأَمْرَ (**منـه**)؛ أي: مِن تَرَيْـنَ (**فقُلْتَ عَلَـى الأصـلِ: اِرْأَ؛ كــ: اِرْعَ**) لأنَّـه مِـن تَرْأَى؛ كــ: اِرْعَ مِـن تَرْعَى إعـلالاً وتصريفاً، وكان حَقُّـه أنْ يقـولَ: (قُلْـتَ) كمـا في نسـخةٍ صحيحـةٍ؛ لأنَّ الجـزاءَ إذا كان ماضياً بغيـرِ (قـد) لَـمْ يَجُزْ دخـولُ الفـاءِ فيهِ، فيُقَـدَّرُ (قـد) ليَصِحَّ.

(و) قُلْتَ (على) تقديرِ (الحَذْفِ) مِن تَرَى: (رَ) بالفتحِ، والوزنُ: (فَ)، (ويَلْزمُهُ الهاءُ في الوَقْفِ) كما مرَّ في (قِهْ)، (فتقولُ: رَهْ رَيَا رَوا) وأصلُه: رَيُوا (رَي) أصلُه: رَيِي (رَيَا رَيْنَ) بفتحِ الرَّاءِ في الجميعِ على أصلِهِ.

(وبالتَّأكيد: رَيَنَّ) بإعادةِ اللَّام المحذوفةِ كما في: اُغْزُوَنَّ (رَيَانِّ رَوُنَّ) بضمِّ الواوِ دونَ الحذفِ كما في: اغْزُنَّ؛ لأنَّه لا ضمَّةَ هنا تدلُّ عليهِ؛ إذ ما قَبْلَهُ مفتوحٌ، (رَيِنَّ) بكسرِ ياءِ الضَّميرِ دونَ الحذفِ كما في اغْزِنَّ؛ لأنَّه لا كسرةَ هنا تَدُلُّ عليه إذ ما قَبْلَهُ مفتوحٌ (رَيَانِّ رَيْنَانِّ).

(وبالخفيفة رَيَنْ رَوُنْ رَيِنْ، فهو راءٍ) في اسمِ الفاعِلِ، أصله: رائِي، أُعِلَّ إعلالَ رامٍ (رائِيَانِ) في تثنيتِهِ (راؤُونَ) في جمعِهِ، أصلُه: رائِيُونَ، نُقِلَتِ الهمزةُ فحُذِفَتْ الياءُ، فوزنُه: فاعُونَ، وهو (كـ: راعٍ راعِيَانِ راعُونَ، وذلكَ مَرْئِيٌّ) في اسمِ المفعولِ (كـ: مَرْعِيٍّ) أصلُه: مَرْؤُويٌ؛ كـ: مَرْمُوي، قُلِبَتِ الواوُ ياءً وأُدْغِمتْ وكُسِرَ ما قَبْلَها.

(وبناءُ أَفْعَلَ) ماضي بابِ الإفْعالِ (منه)؛ أي: مِن (رَأَى) (مُخالِفٌ لأَخَواتِهِ أيضاً)؛ أي: كما كانَ (يَرَى) مُخالِفاً لأَخَواتِهِ مِن نحوِ (يَنْأَى) في الْتِزامِ حَذفِ الهمزةِ منهُ دونَ الأَخَوات، كذلكَ كانَ بناءُ بابِ الإفعالِ مُطْلَقاً ـ سواءٌ كان ماضياً أو مضارعاً أو أمراً أو غيرَهما[1] ـ مخالِفٌ لأخَواتِهِ مِن نحو: (أَنْأَى) في الْتِزامِ حَذْفِ الهمزةِ منهُ دونَ الأخواتِ، وذلك لكثرةِ الاستعمال.

(فتقولُ: أَرَى) في الماضي، أَصْله: أَرْأَى؛ كـ: أَعْطَى، نُقِلَتْ حركةُ الهمزةِ إلى الرَّاءِ وحُذِفتِ الهمزةُ، وكذا: أَرَيَا أَرَوْا أَرَتْ، أَرَتَا أَرَيْنَ.. إلخ، وللقُرَّاءِ مَذاهِبُ في نحوِ: ﴿أَرَءَيْتَ﴾؛ مِن تحقيقِ الهمزةِ وتسهيلِها وإبدالِـها[2].

---

(١) قوله: «غيرهما» كذا في «ط»، وسقطت العبارة من «و»، ولعل الصواب: «غيرها».

(٢) قرأ ابن كثير وعاصِم وأبو عَمْرو وابن عَامر وحَمْزَة في كل القرآن بالهَمْز، وقرأ نافِع من غير همز والألفُ على مِقْدَار ذوق الهَمْز، وقرأ الكسائيُّ بِغَيْر همز ولا ألفٍ. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ٢٥٧).

(يُرِي) في المضارعِ، أصلُه: يُرْئِي؛ كـ: يُعْطِي، نُقِلَتْ فحُذِفَتْ، وكذا: يُرِيَانِ، يُرُونَ أصلُه: يُرْئِيُونَ[١]، فأُعِلَّ كما مَرَّ، فوزنُه يُفُونَ، تُرِي تَرِيَانِ يُرِيْنَ وأصلُه: يُرْئِيْنَ[٢] ووزنُه بعدَ إعلالِه: يُفْعِلْنَ[٣]، مصدرُه: (إِرَاءَةٌ) أصلُه: إِرْآياً إفْعالاً، فقُلِبتِ الياءُ همزةً لوُقوعِها بعدَ الألِفِ زائدةً فصارَ: إِرْآءً إفْعالاً، نُقِلَتْ حركةُ الهمزةِ إلى الرَّاءِ فحُذِفَتِ الهمزةُ كما في الفعلِ، وعُوِّضَتْ تاءُ التأنيثِ عن الهمزةِ كما عُوِّضَتْ عن الواوِ في: إقامَة.

(و) يجوزُ: (إراءٌ) بلا تعويضٍ؛ لأنَّ ذلك ليسَ مِثْلَ إقامةٍ؛ لأنَّ عينَ الفعلِ لَمْ يُحْذفْ مِن الفعلِ في (إقامة) بخلافِ ذلك، فلمَّا حُذِفتْ مِن (إقامة) ولَمْ تُحْذَفْ مِن فِعْلِهِ التُزِمَ التَّعْويضُ في الأكثرِ، فإنَّها قد تُحْذَفُ حالَ الإضافةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وهاهُنا لـمَّا حَذَفْتَ [في المصدرِ][٤] ما حُذِفَ في فِعْلِه لَمْ يَحْتَجْ إلى لُزومِ التَّعْويضِ، فجُوِّزَ (إراء) كثيراً شائعاً.

(وتقولُ: إرايةٌ) بالياءِ أيضاً؛ لأنَّها إنَّما تُقْلبُ همزةً إذا وَقَعتْ طَرَفاً، ومَن قَلَبَ نَظَرَ إلى أنَّ الياءَ[٥] حُكْمُها حُكْمُ كلمةٍ أُخرى، فكأنَّها مُتطرِّفةٌ.

(فهو: مُرٍ) في اسمِ الفاعلِ، أصلُه: مُرْئِيٌ، حُذِفتِ الهمزةُ كما مَرَّ فأُعِلَّ إعلالَ رامٍ، فقيل: (مُرٍ) على وزنِ مُفٍ (مُرِيَانِ) أصلُه: مُرْئِيَانِ (مُرُونَ) أصلُه: مُرْئِيُونَ (وأَرَتْ) في فِعْلِ الواحدةِ الغائبةِ، أصله: أَرْأَيَتْ؛ كـ: أَعْطَيَتْ، حُذِفتِ الهمزةُ الثَّانيةُ وقُلِبَتِ الياءُ أَلِفاً وحُذِفَتْ للالْتِقاءِ فقيلَ: أَرَتْ، على وَزنِ: أَفَتْ، فهي (مُرِيَةٌ) في اسمِ الفاعِلِ للواحدةِ أصلُه: مُرْئِيَةٌ، (مُرِيَتَانِ) أصلُه: مُرْئِيَتانِ، (مُرِيَاتٌ) أصلُه: مُرْئِيَاتٌ (وذاك مُرًى) أصلُه:

---

(١) في «ط»: «وكذا يريان يريون أصله يرئيون» وفي «و»: «وكذا يريان يرون أصله يريون».

(٢) في «ط» و«و»: «يرئيين»، والصواب المثبت.

(٣) قوله: «يفعلن» كذا في «ط» و«و»، ولعل الصواب: «يُفِلْنَ»؛ لأن «يفعلن» هو وزنه قبل الإعلال.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) في «ط» و«و»: «بقاء»، والصواب المثبت.

مُرْأى، حُذِفتِ الهمزةُ كما تقدَّمَ وقُلِبَتِ الياءُ أَلِفاً ثُمَّ حُذِفَتْ للالْتِقاءِ، ووزنُه مُفًى.

وتقولُ في اسمِ الفاعِلِ: جاءَني مُرٍ، ومَرَرْتُ بمُرٍ، بالحذفِ، ورأيْتُ مُرِياً، بالإثْباتِ لخِفَّةِ الفتحةِ.

وفي اسمِ المفعولِ: جاءَني مُرًى، ورأيْتُ مُرًى[1]، ومَرَرْتُ بمُرًى، [بالحذفِ][2] في الجميعِ لبقاءِ العلَّةِ، وهي تَحَرُّكُها وانْفِتاحُ ما قَبْلَها.

وفي تثنيَةِ اسمِ المفعولِ: (**مُرَيَانِ**) بفتحِ الرَّاءِ، وفي الجمعِ: (**مُرَوْنَ**) بفتحِ الرَّاءِ أيضاً، أصلُه: مُرَيُونَ قُلِبَتِ الياءُ أَلِفاً وحُذِفَتْ، (**مُرَاةٌ**) في المؤنَّثِ، أصلُه: مُرَيَةٌ، قُلِبَتْ ياؤُه أَلِفاً فحُذِفَتْ[3]، (**مُرَيَاتٌ**) بفتحِ الرَّاء.

(و) في (**الأمرِ**: أَرِ) بناءً على الأصلِ المرفوضِ، وهو مِن (تُأَرِيُ) حَذَفْتَ حرفَ المُضارَعةِ واللَّامَ فبقيَ: أَرِ (**أَرِيَا أَرُوا**) أصلُه: أَرِيُوا، نُقِلَتْ ضمَّةُ الياءِ وحُذِفتْ، ووزنُه: أَفُوا.

(**أَرِي**) أصلُه: أَرِيي، ففُعِلَ ما سَبَقَ، ووزنُه: أَفِي (**أَرِيَا أَرِينَ**) على وزنِ: أَفِلَا أَفِلْنَ.

(**وبالتَّأكيد: أَرِيَنَّ**) بإعادةِ اللَّامِ كـ: أُغْزُوَنَّ (**أَرِيَانِّ أَرُنَّ**) بحذفِ الواوِ لدلالةِ الضمَّةِ عليها، (**أَرِنَّ**) بحذفِ الياءِ لدَلالةِ الكسرةِ عليها (**أَرِيَانِّ أَرِيْنَانِّ**).

(**وفي النَّهْي: لا تُرِ لا تُرِيَا لا تُرُوا، لا تُرِي لا تُرِيَا لا تُرِيْنَ، وبالتأكيد: لا تُرِيَنَّ لا تُرِيَانِّ لا تُرُنَّ، لا تُرِنَّ لا تُرِيَانِّ لا تُرِيْنَانِّ**).

(**وتقولُ في افْتَعَلَ مِن المهموزِ الفاءِ: ايْتالَ**)؛ أي: أَصْلَحَ (**كاختار، وايْتَلَى**)؛

---

(١) في «ط» و«و»: «مريا»، والصواب المثبت.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) قوله: «فحذفت»، كذا في «ط» و«و»، ولعل الصواب إسقاطها، فلا حذف هنا.

أي: قَصَّرَ (كاقْتَضَى) والأصلُ: (ائْتَالَ) و(ائْتَلَى) قُلِبَتِ الثَّانيةُ ياءً كما في: إيمانٍ، وقد ثَبَتَ في حديثٍ: «اتَّزَرَ»[1] مِن ائْتَزَرَ، فقولُ السَّعْدِ: إنَّ التَّشديدَ خطأٌ[2]، فاسِدٌ يُخْشَى عليه؛ لأنَّ سَنَدَ المحدِّثِينَ أقوَى مِن سَنَدِ اللُّغَوِيِّين.

وأمَّا (اتَّخَذَ) فالمُعْتَمَدُ أنَّهُ ليسَ مِن (أَخَذَ) بل مِن (تَخِذَ) بكسرِ الخاءِ بمعنَى: (أَخَذَ)، فلذلكَ أُدْغِمَ، وقد قُرِئَ قولُه تعالى: ﴿لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] بالوجهين في السبعة[3].

***

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: «وكان يأمرني فأتَّزِرُ..»، وفي البخاري أيضا (٣٠٣) من حديث ميمونة: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا أرادَ أنْ يُبَاشِرَ امرأةً مِن نِسائِهِ أَمَرَها، فاتَّزَرَتْ وهي حَائِضٌ»، وفيه أيضاً (٣٦١) من حديث جابر في الصلاة في الثوب الواحد: «فإنْ كانَ واسعًا فالْتَحِفْ به، وإنْ كانَ ضَيِّقًا فاتَّزِرْ به».

(٢) انظر: «شرح تصريف العزي» (ص ١٨٤).

(٣) قرأ ابن كثير وابو عَمْرو: ﴿لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ﴾ بتَخْفيف التَّاء وَكسر الخاء، والباقُونَ بتَشْديد التَّاء وفتح الخاء. انظر: «التيسير» للداني (ص ١٤٥).

(فصل)

في بناءِ اسْمَي الزَّمانِ والمكانِ

وهو اسمٌ وُضِعَ لزمانٍ أو مكانٍ باعتبارِ وُقوعِ الفعلِ فيه مِن غيرِ تقييدٍ بأحدِ الأزْمِنةِ الثَّلاثةِ، أو بمكانٍ مِن الأَمْكِنةِ، وهو مِن الألفاظِ الـمُشترَكةِ مِثْلَ: المَجْلِس، يَصْلُحُ لمكانِ الجلوسِ ولزمانِه.

وهما (**مِن يَفْعِلُ: مَفْعِلٌ، بكسرِ العينِ**) تَوَافُقاً (**كالمَجْلِسِ**) في السَّالمِ (**والمَبِيتِ**) في المعتلِّ، أصلُه: مَبْيِتٌ، نُقِلَتْ كسرةُ الياءِ إلى ما قَبْلَها.

(**ومِن يَفْعَلُ ويَفْعُلُ بفتحِ العينِ وضمِّه**) لَفٌّ ونشرٌ مرتَّبٌ (**على مَفْعَلٍ مفتوحِ العينِ**) أمَّا في مفتوحِهِ فللتَّوَافُقِ، وأمَّا في مَضمُومِهِ فلِتَعَذُّرِ الضَّمِّ؛ لرَفْضِهم مَفْعُلاً في الكلامِ، إلَّا: مَكْرُماً ومَعُوناً، ويُرَجَّحُ الفتحُ على الكسرِ لخِفَّتِهِ (**كالمَذْهَبِ**) مِن يَذْهَبُ بالفتحِ (**والمَقْتَلِ**) مِن يَقْتُلُ بالضَّمِّ (**والمَشْرَبِ**) مِن يَشْرَبُ بالفتحِ لكنَّه مِن بابِ عَلِمَ (**والمَقامِ**) مِن يَقومُ، وأصلُه: مَقْوَمٌ، أُعِلَّ إعلالَ قام.

(**وشَذَّ: المَسْجِدُ والمَشْرِقُ والمَغْرِبُ والمَطْلِعُ والمَجْزِرُ**) مكانُ نحرِ الإبلِ وذَبْحِ الجَزُورِ (**والمَرْفِقُ**) مكانُ الرِّفْقِ (**والمَفْرِقُ**) مكانُ الفَرْقِ، ومنهُ: مَفْرِقُ الرأسِ (**والمَسْكِنُ**) مكانُ السُّكونِ (**والمَنْسِكُ**) مكانُ العبادةِ (**والمَنْبِتُ**) مكانُ النَّباتِ (**والمَسْقِطُ**) مكانُ السُّقوطِ، ومنهُ: مَسْقِطُ الرَّأسِ.

والمعنى: أنَّ هذهِ الكلماتِ كلَّها جاءَتْ مكسورةَ العينِ وقياسُها الفتحُ؛ لأنَّ الـمَجْزِرَ مِن يَجْزَرُ بفتحِ العينِ، والباقي مِن مَضْمومِهِ.

(**وحُكِيَ الفتحُ**)؛ أي: فتحُ العينِ (**في بعضِها**)؛ أي: بعضِ هذه المذكوراتِ على وَفْقِ القياسِ، وهو (المسجَدُ) لغةٌ شاذَّةٌ، و(المَطْلَعُ) و(المَسْكَنُ) و(المَنْسَكُ) قراءاتٌ مُتواتِرة[1].

---

(١) قرأ: ﴿مَطْلَعِ﴾ [القدر: ٥] بفتح اللام السبعة عدا الكسائي فإنه قرأ بالكسر، وقرأ: ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ =

(وأُجِيزَ الفتحُ في كلِّها) على وَفْقِ القِياسِ.

(هذا) الذي ذُكِرَ (إذا كانَ الفعلُ صحيحَ الفاءِ واللَّامِ) سواءٌ كان وسطُه حرفَ علَّةٍ أو غيرها، (وأمَّا غيرُه)؛ أي: غيرُ صحيحِ الفاءِ واللَّامِ (فمِن المُعْتلِّ الفاءِ) اسمُ الزَّمانِ والمكانِ (مكسورٌ عينُه أبداً؛ كـ: الـمَوْضِعِ والمَوْعِدِ) لأنَّ الكسرَ هنا أسهلُ بشهادةِ الوِجْدان.

(ومِن المُعْتلِّ اللَّام) اسمُ الزَّمانِ والمكانِ (مفتوحٌ عينُه أبداً) سواءٌ كان مَفتوحَ العينِ أو مضمومَهُ أو مكسورَهُ، واوِيّاً أو يائيّاً، بقَلْبِ اللَّامِ ألِفاً (كالمَأْوَى والمَرْمَى) وكذا: الـمَوْتَى، وأَتَى بمثالَيْنِ للتَّنبيهِ على أنَّ الحُكْمَ واحدٌ فيما عينُه أيضاً حرفُ علَّةٍ، وفيما ليسَ كذلك.

(وقـد تَدْخُلُ على بعضِهـا تاءُ التَّأنيثِ) إمَّـا للمُبالَغـةِ، أو لإرادةِ البُقْعةِ، وذلك مقصـورٌ على سَـماعِ اللُّغـة (كالمَظِنَّةِ) بالكسـرِ، للمكانِ الـذي يُظَنُّ أنَّ الشَّـيْءَ فيه، (والمَقْبَـرةِ) بالفتـحِ لموضِـعٍ يُقبَـرُ فيه، (والمَشْـرَقةِ) بالفتـحِ: الموضعُ الذي تُشْـرِقُ منهُ الشَّـمسُ.

(وشَذَّ المقبُرة والمشرُقة بالضَّمِّ)؛ لأنَّ قياسَها الفتحُ؛ لكونِـهِما مِن (يَفْعُلُ) مضمومِ العينِ.

(و) بناءُ اسمِ الزَّمانِ والمكانِ (ممَّا زادَ على الثَّلاثةِ) ثلاثيّاً مَزيداً أو رباعيّاً مجرَّداً أو مَزيداً فيه (كاسمِ المَفعول) مِن بابِهِ (كالمُدْخَلِ والمُقَامِ) والمُدَحْرَجِ والمُجْتَمَعِ والمُسْتَخْرَجِ والـمُحْرَنْجَمِ.

(وإذا كَثُرَ الشَّيءُ بالمكانِ قيل فيه: مَفْعَلَةٌ) بفتحِ الميمِ والعينِ وسكونِ الفاءِ

= [سبأ: ١٥] بفتـح الـكاف حمـزة وحفـص، وقـرأ: ﴿مَنسَكًا﴾ [الحـج: ٣٤، ٦٧] بفتح السـين ابن كثير وابـن عامـر وأبو عمـرو ونافع وعاصـم. انظر: «السـبعة» لابـن مجاهـد (ص ٦٩٣، ٥٢٨، ٤٣٦).

مَبْنِيَّةً (**مِن الثُّلاثيِّ المجرَّدِ**)؛ أي: إنْ كانَ الاسمُ مجرَّداً بُنِيَ، وإنْ كان مزيداً فيهِ رُدَّ إلى المجرَّدِ وبُنِيَ (**فيُقالُ: أرضٌ مَسْبَعةٌ**)؛ أي: كثيرةُ السَّبُعِ (**ومَأْسَدَةٌ**)؛ أي: كثيرةُ الأُسْدِ (**ومَذْأَبَةٌ**)؛ أي: كثيرةُ الذِّئْبِ، وهذا كلُّه مِن المجرَّد.

(**ومَبْطَخَةٌ**)؛ أي: كثيرةُ البِطِّيخِ، (**ومَقْثَأَةٌ**) بفتحِ مثلَّثةٍ فهمزةٍ؛ أي: كثيرةُ القُثَّاءِ، بالضَّمِّ ممدوداً، وهذانِ مِن المزيدِ فيهِ، حُذِفَتْ إحدَى الطَّاءَينِ والياءُ مِن البِطِّيخ.

وفي نسخةٍ: (مَطْبَخةٌ) بتقديمِ الطَّاءِ، فيكونُ مِن الطَّبيخِ، لغةٌ في البِطِّيخِ، كما وَرَدَ في الحديثِ: أنَّه عليه السَّلامُ كان يأكُلُ البِطِّيخَ بالرُّطَبِ[1]. وفي رواية: الطِّبِّيخَ[2]. وفي رواية: القِثَّاءَ[3]، ولا منع من الجمع.

وحُذِفَ أحدُ الثَّاءَينِ والألِفُ مِن القُثَّاء.

(و[**أَمَّا**][4] **اسمُ الآلةِ، وهو**)؛ أي: الآلةُ، وذَكَّرَ باعتبارِ خبرِه (**ما يُعالِجُ به الفاعِلُ المفعولَ لوصولِ الأثرِ إليهِ**)؛ أي: إلى المفعولِ؛ كالمِنْحَتِ الذي يُعالِجُ به النَّجَّارُ الخَشَبَ لوصولِ الأثرِ إلى الخَشَبِ، والجملةُ معترضةٌ بين (أمَّا) وجَوَابِهِ، وهو قولُه: (**فَيَجِيءُ**)؛ أي: اسمُ الآلةِ (**على مِثالِ مِحْلَبٍ**) على مِفْعَلٍ بفتحِ العينِ قياساً (**ومِكْسَحةٍ**) على مِفْعَلَةٍ سَماعاً (**ومِفْتاحٍ**) على مِفْعالٍ (**ومِصْفَاةٍ**) أصلُه: مِصْفَوَةٍ، قُلِبَتِ الواوُ أَلِفاً.

(**وقالوا**)؛ أي: أكثرُ العربِ: (**مِرْقاةٌ**) بكسرِ الميمِ (**على هذا**)؛ أي: على أنَّها اسمُ آلةٍ كالمِصْفاةِ؛ لأنَّه اسمٌ لِـمَا يُرْقَى به؛ أي: يُصْعَدُ فيه، وهو السُّلَّمُ.

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٣٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» (٦٧٩) و(٦٨٠) من حديث عائشة أيضاً، ولفظ الرواية الثانية: «كان يعجبه الطبيخ...».

(٣) رواه مسلم (٢٠٤٣) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما. والقثاء يجوز فيه فتح القاف وكسرها.

(٤) ما بين معكوفتين سقط من «ط» و«و». انظر: «شرح مختصر تصريف العزي» للسعد (ص ١٨٨).

(ومَن فَتَحَ المِيمَ)؛ أي: ميمَ الـمرْقاةِ (أرادَ المكانَ)؛ أي: مكانَ الرَّقْيِ، دونَ الآلةِ، وقد قالوا: مِطْهَرةٌ ومَطْهَرةٌ، فمَن كَسَرَها شبَّهها بالآلةِ التي يُعْمَلُ بها، ومَن فَتَحَها قال: هذا موضعٌ يُجْعَلُ فيه.

(وشَذَّ مُدْهُنٌ) للإناءِ الذي جُعلَ فيه الدُّهْنُ (ومُسْعُطق) للَّذي جُعِلَ فيه السَّعُوطُ ـ بفتح أوَّلِه ـ، فهو دواءُ الأنفِ (ومُدُقٌّ) بتشديدِ القافِ لِمَا يُدَقُّ به (ومُنْخُلٌ) لِمَا يُنْخَلُ به (ومُكْحُلَةٌ) للإناءِ الذي يُجْعَلُ فيهِ الكُحْلُ (ومُحْرُضَةٌ) بالحاءِ المهمَلةِ والضَّادِ الـمُعْجَمةِ للإناءِ الذي يُجْعلُ فيه الأُشْنَانُ، حالَ كونِها (مضمومةَ الميمِ والعينِ) والقياسُ كسرُ الميمِ وفتحُ العينِ، (وجاء: مِدَقٌّ ومِدَقَّةٌ) بكسرِ الميمِ و[فتحِ][1] العينِ (على القياسِ) هذا.

* (تنبيهٌ) على كيفيةِ بناء الـمَرَّةِ، وهو المصدَرُ الذي قُصِدَ به الواحِدةُ مِن مَرَّاتِ الفعلِ باعتبارِ حقيقةِ الفعلِ، لا باعتبارِ خُصُوصيَّةِ نوعٍ منه: (المَرَّةُ مِن مَصدرِ الثُّلاثيِّ المُجرَّدِ) ويكونُ (على فَعْلَةٍ بالفتحِ)؛ أي: بفتحِ الفاءِ (تقولُ: ضربتُ ضربةً) في السَّالمِ (و: قُمْتُ قَوْمةً) في غيرِه؛ أي: ضَرْباً واحداً وقياماً واحداً.

(وممَّا زادَ على الثَّلاثةِ) رباعيًّا كانَ أو ثلاثيًّا مَزيداً فيهِ يَحصلُ (بزيادةِ الهاءِ) التي هي تاءُ التأنيثِ الموقوفُ عليها هاءً في آخِرِ المصدرِ (كالإعطاءَةِ والانْطِلاقةِ) والاسْتِخْراجةِ والـمَنْدوحةِ، وهذا الحُكْمُ عامٌّ فيما ذُكِرَ.

(إلَّا ما فيهِ تاءُ التَّأنيثِ منهُما)؛ أي: مِن الثُّلاثيِّ والرُّباعيِّ، فإنَّه إنْ كانَ فيهِ تاءُ التأنيثِ (فالوصفُ بالواحدةِ) واجبٌ (كقولكَ: رَحِمْتُهُ رَحمةً واحدةً) قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ [الحاقة: ١٣]، (ودَحْرَجْتُه دَحْرجةً واحدةً) وقابَلْتُهُ مُقابَلَةً واحدةً، واطْمَأْنَنْتُ اطْمِئْنانةً واحدةً.

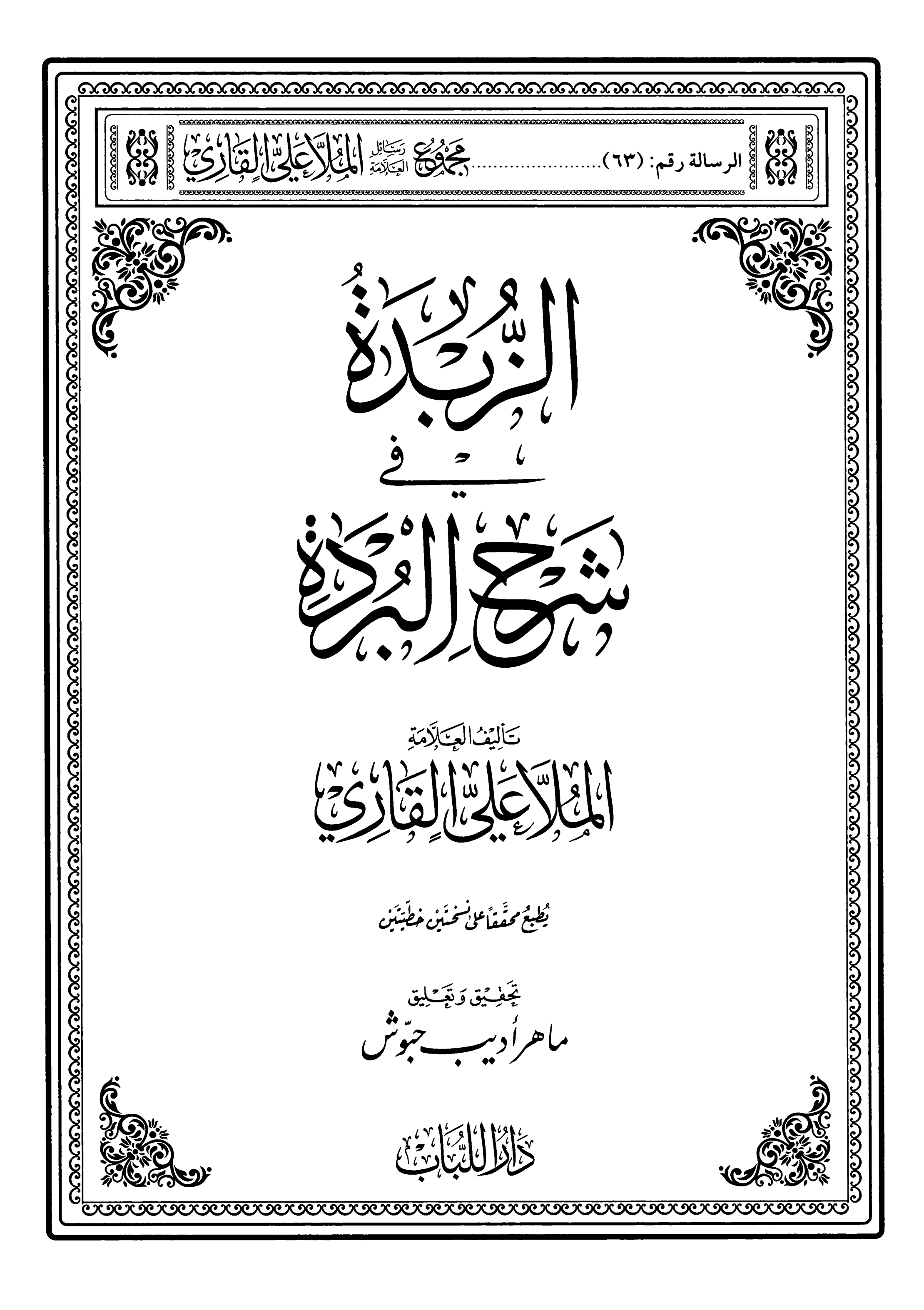
---

(١) ما بين معكوفتين سقط من «ط» و«و». انظر: «شرح مختصر تصريف العزي» للسعد (ص ١٩١).

(والفِعْلَةُ بالكسرِ)؛ أي: بكسرِ الفاءِ **(للنَّوعِ مِن الفعلِ)**؛ أي: الحالةِ التي عليها الفعلُ، **(تقولُ: هو حسنُ الطِّعْمةِ والجِلْسةِ)**؛ أي: حَسَنُ النَّوعِ مِن الطُّعْمِ والجُلوسِ.

ومنه: (القِتْلَةُ) بالكسرِ للحالةِ التي قُتِلَ عليها المَيِّتُ، و(المِيْتَةُ) للحالةِ التي أُمِيْتَ عليها، أماتَنا اللهُ تعالى على مَحبَّتِهِ تابِعِينَ لِدينِ نبيِّه ومِلَّتِهِ، بصَرْفِ قُلوبِنا إلى نحوِ عُيوبِنا لنَتُوبَ مِن ذُنوبِنا، وسلامٌ على المُرسَلِينَ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين.

* * *


مجموع رسائل العلامة الملا علي القاري
الرسالة رقم: (٦٣)
الزبدة
في
شرح البردة
تأليف العلامة
الملا علي القاري
يطبع محققاً على نسختين خطيتين
تحقيق وتعليق
ماهر أديب حبوش
دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يحصى آلاؤه لا أحصي شكره وأصلي على حبيبه وصفيه ورسوله ونبيه وعلى آله وصحبه وتابعيه وحزبه. وبعد فقد روي عن ناظم القصيدة المعروفة بالبرأة المشهورة بالبردة أنه قال أصابني خلط فالج أبطل نصفي ففكرت أن أعمل قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم لأستشفع بها إلى الله تعالى فأنشدته هذه القصيدة ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فمسح علي بيده المباركة فعوفيت لوقتي فخرجت غدوة من بيتي فإذا ببعض الفقراء يستنشدني قصيدة أولها أمن تذكر جيران بذي سلم فتعجبت إذ ما كنت أخبرت بها أحدًا فقال والله لقد سمعتها تنشد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتمايل تمايل الأغصان فأعطيته إياها فانتشر الخبر بين الناس ولما انتهى إلى الوزير الملك الطاهر استنسخها ونذر أن لا يسمعها إلا واقفًا حافيًا حاسرًا فرأى هو وأهله من بركاتها خيرًا كثيرًا ثم أصاب موقع هذا الوزير رمد عظيم أشرف منه على العمى فرأى في منامه كأن قائلًا يقول امض إلى الوزير وخذ منه البردة واجعلها على عينيك فعرض على الوزير ما رأى فقال ما عندي شيء يقال له البردة وإنما عندي مديح النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نستشفي به فأخرج به القصيدة ووضعها على عينيه وقرئت وهو جالس فشفاه الله من الرمد لوقته فسميت بالبردة وهي مجربة عند طلب الحاجات ونزول المهمات ولعلها سميت بردة لكونها في المعنى كسوة شريفة فضلت على قامة النبي صلى الله عليه وسلم وتسمية الصفة كسوة مجاز مشهور هذا وقد سنح لخاطر أفقر عباد الله الغني الباري علي بن سلطان محمد الهروي القاري أن أخدم هذه القصيدة المباركة الميمونة المرتبة رجاء لشفاء الأمراض الظاهرية والباطنية من الأخلاق الدينية وابتغاء لخلعة العافية الساترة للذنوب القولية والفعلية بوضع شرح لطيف على المقصود مطلّ غير مملّ ولا مخل جعله الله خالصًا لوجهه الكريم فإنه لعباده لغفور رحيم وسميته الزبدة في شرح البردة اعلم أن هذه القصيدة الشريفة مشتملة على فوائد لطيفة منها أن عادة الشعراء جرت بأنهم يذكرون في مطالع قصائدهم بتمثيل لوازم العشق من مقاساة الأحزان بذكر [illegible]

مكتبة جامعة الملك سعود (د)

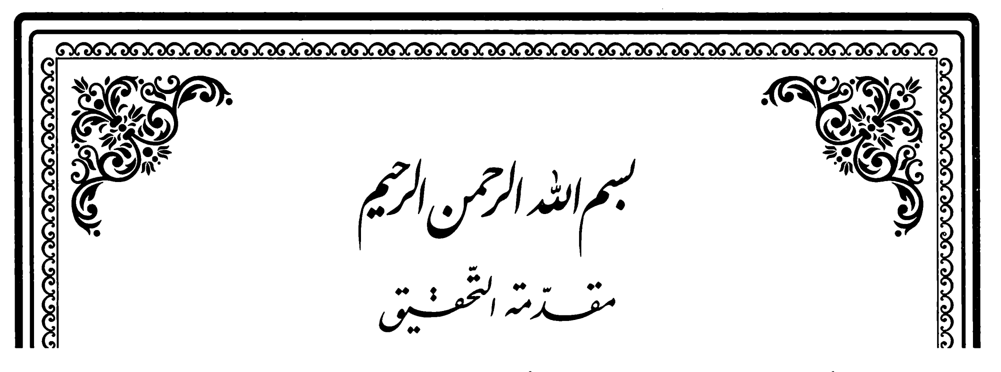
قال العاقل يكفيه الإشارات والغافل لا يفيده أصرح العبارات ولولا فيل العلم نقطة كثرها الجاهلون
ومع هذا كل حزب بما لديهم فرحون
[illegible]

[illegible] شرح البردة للملا علي القاري

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

أحمد الله الذي لا يحصى آلاؤه أشكره وأصلي على حبيبه وصفيه ورسوله ونبيه وعلى آله وصحبه وتابعيه وحزبه وبعد فقد روي عن ناظم القصيدة المعروفة بالبرأة المشهورة بالبردة أنه قال أصابني خلط فالج أبطل نصفي ففكرت أن أعمل قصيدة في مدح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأستشفع بها إلى الله تعالى فأنشأت هذه القصيدة ونمت فرأيت النبي عليه الصلاة والسلام في المنام فمسح علي بيده المباركة فعوفيت لوقتي فخرجت غدوة من بيتي فإذا بعض الفقراء يستنشدني قصيدة أولها أمن تذكر جيران بذي سلم فتعجبت إذ ما كنت أخبرت بها أحدًا فقال والله لقد سمعتها تنشد بين يدي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يتمايل تمايل الأغصان فأعطيته إياها فانتشر الخبر بين الناس ولما انتهى إلى الوزير الملك الظاهر استنسخها ونذر أن لا يسمعها إلا واقفًا حافيًا حاسرًا فرأى هو وأهله من بركاتها خيرًا كثيرًا ثم أصاب موقع هذا الوزير رمد عظيم أشرف منه على العمى فرأى في منامه كأن قائلًا يقول امض إلى الوزير وخذ منه البردة واجعلها على عينيك فعرض على الوزير ما رأى فقال ما عندك شيء يقال له البردة وإنما عندي مديح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن نستشفي به فأخرج القصيدة ووضعها على عينيه وقرئت وهو جالس فشفاه الله من الرمد لوقته فسميت بالبردة وهي مجربة عند طلب الحاجات ونزول المهمات ولعلها سميت بردة لكونها في المعنى كسوة شريفة فضلت على قامة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وتسمية الصفة كسوة مجاز مشهور هذا وقد سنح لخاطر أفقر عباد الله الغني الباري علي بن سلطان محمد الهروي القاري أن أخدم هذه القصيدة المباركة الميمونة المرتبة رجاء لشفاء الأمراض الظاهرة والباطنية من الأخلاق الدنية وابتغاء لخلعة العافية الساترة للذنوب القولية والفعلية بوضع شرح لطيف على المقصود مطل غير ممل ولا مخل جعله الله خالصًا لوجهه الكريم فإنه بعباده لغفور رحيم وسميته الزبدة شرح البردة أن هذه القصيدة الشريفة مشتملة على فوائد لطيفة منها أن عادة الشعراء جرت بأنهم يذكرون في مطالع قصائدهم تيمنًا بذكر لوازم العشق من مقاساة الأحزان والأشواق وتحمل مكاره البعد والفراق ويسمونه تغزلًا وتشبيبًا ويعدونه من جملة لطف الطبع [illegible]

مكتبة ولي الدين أفندي (ل)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على النبيِّ الكريمِ الأمين، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين.

اللَّهمَّ صَلِّ على مَن جُمِعَتْ له كلُّ الفَضَائِل، واجْتَمَعَتْ فيهِ خيرُ الشَّمائِل، فمَن لجَمْعِها وعَدِّها يُحاوِل، فمَهْما اسْتَعْملَ مِن وسائل، فسيَفْنَى العُمر ولا ينتهِي الإحْصَاء، كيف وهو خيرُ مَن حَمَلتِ الأرضُ وأظلَّتِ السَّماء؟ فصاحةُ الـمَنْطِقِ مع حُسْنِ البيَان، وبلاغةُ القولِ في طلاقةِ اللِّسان، شُجاعٌ لا يَعْرِفُ الخوفَ والفَزَع، قويٌّ لا يَملِكهُ القَلَقُ والجَزَع، لا يَجْبُنُ في الحادِثاتِ ولا لعدوٍّ يَسْتكين، بل يُواجِهُ برباطةِ جأشٍ وفؤادٍ مَكِين.

لا يَقْهَرُ يَتيماً ولا يَنْهَرُ سائلاً، ولا يَزْدَرِي بائساً ولا يَحْقِرُ عائلاً، يُجالِسُ الفُقراء ويُحبُّ المساكين، فقلبُه يُنْبوعُ رحمةٍ مَعِين، يُؤانِسُ الأصحابَ ويَسْتشيرُهم، ويَسأَلُ عنهم ويَزُورُهم، فكان أَحَبَّ إليهِم مِن النَّفْسِ والمالِ والبَنين، آذاهُ قومُه فأَكْثَروا، فحتَّى الرَّباعِيَةَ كَسَروا، فما زادَ أنْ قال: اللَّهمَّ اغْفِرْ لقومِي فإنَّهم لا يَعلَمُون، هو الموصوفُ باشتِمالِ الحُسْنِ وإحاطَتِه جميعَ حالاتِه ومَقَالاتِه، وحَرَكاتِهِ وسَكَناتِه، والمُتَّصِفُ بالبِشْرِ التَّامِّ، والبَشَاشةِ على طريقِ الدَّوَام، والابْتِسامِ في وجهِ الخاصِّ والعامّ، على وجهٍ يرتضِيهِ الملِكُ العلَّام، عليه الصَّلاةُ والسَّلام، ما دامَتِ اللَّيالي والأيَّام.

فضائلُ ليسَ لها حَدّ، فالعُذْرُ فقد أَعْيَاني العَدّ، والعِلْمُ بالمُنْتَهى عند الخالقِ العَليم، الذي حَلاَّهُ بقولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وجَلَّاهُ بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا

﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وتَوَلَّاه بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ووَصَفهُ بقولِهِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وبعد:

فقد كَثُرَ المادِحُونَ لهذا النبيِّ الكريم، والواصِفُون لِمَا أَوْلَاهُ اللهُ مِن الخُلُقِ العظيم، ومِن هؤلاءِ الشاعرُ الصُّوفيُّ شرفُ الدِّين البُوصيريُّ، حيث تُعَدُّ قصيدته «البُردة» الموسومَةُ بـ: «**الكواكبُ الدُّرِّيَّةُ في مَدْحِ خَيْرِ البَرِيَّة**» مِن أهمِّ القَصائدِ في هذا الـمَديحِ النَّبويِّ، كما كانَتْ مصدرَ وَحْيٍ لكثيرٍ مِن القصائدِ التي أُنْشِئتْ بعد البُوصِيريِّ في هذا الباب، ومَنْبَعَ إلهامٍ للشُّعراءِ والكُتَّاب، فكَمْ مِن قصائِدَ نُسِجَتْ على مِنْوالها، وكَمْ مِن كُتبٍ أُلِّفَتْ في شرحِها وإعرَابها، وكان كثيرٌ مِن شُرَّاحِها مِن علماءِ العربيَّة البارِزين، وفي شُروحِهم مِن الفوائدِ النَّحْويَّةِ، والصَّرْفيَّةِ، والبَلاغيَّةِ، واللُّغَويَّةِ، والأَدَبيَّةِ والتَّاريخيَّةِ، الشَّيءُ الكَثِير.

فمَن هو البُوصيريُّ؟ وما هي قصيدتُه «البردة»؟

البُوصيريُّ: هو محمدُ بنُ سعيدِ بنِ حمَّادِ بنِ عبدِ اللهِ الصِّنهاجيُّ المصريُّ، أبو عبدِ اللهِ، شَرَفُ الدِّين، كانَ أحدُ أَبَوَيْهِ مِن «بُوصِير» والآخَرُ مِن «دِلَاص» فركَّبَ لَهُ نِسْبَةً مِنْهُمَا وقال: «الدِّلاصِيريّ»، ولكن اشْتَهَرَ بـ«البُوصِيريّ»، وكانَت لهُ أشياءُ مثلُ هذا يركِّبُهَا مِن لَفْظَتينِ، اشْتَغَلَ بصناعةِ الكتابةِ والتَّصرُّفِ، وكان شاعراً حَسَنَ الدِّيباجةِ، مَلِيحَ المعاني، تُوفِّي سنة (٦٩٦هـ).

ولَـمْ يُذْكَر البُوصيريُّ عندَ مَن تَرْجَمَ له في عِدادِ العلماءِ، ولا أَنَّه مِن أصحابِ العلمِ الشَّرْعيِّ، بل هو صوفيٌّ مِن أتباعِ الطَّريقةِ الشَّاذِليَّةِ، كما أنه شاعرٌ ظريفٌ تَجرِي في شعرِه النُّكتُ المُسْتَمْلَحَةُ، ولهُ في مَدِيحِ النبيِّ ﷺ القصائدُ

الحِسَان، كما لهُ في شَكْوَى الحال وذمِّ الموظَّفِينَ في ذلك الزَّمَان، قصائدُ لا تَخْلُو مِن ذكاءٍ مع صَنعةِ الإتْقان، فهو يَذْكُرُ أنَّ الموظَّفينَ كانوا يَسْرِقونَ الغِلَال، وأنَّهم لولا ذلك ما لَبِسُوا الحريرَ أو شَربوا الخُمورَ وعاشُوا في الدَّلَال، وأنَّ مِن الكُتَّاب طائفةً تظاهَرَتْ بالتَّنَسُّكِ وعُدَّتْ مِن الزُّهَّاد، مع أنَّها تملأُ بُطونَها بالسُّحْتِ وأكلِ أموالِ البلادِ والعِبَاد، ويَذْكُرُ أنَّ القُضاةَ خانُوا الأمانة، وبرَّروا بتأويلِ القرآنِ والحديثِ تلك الخيانة، وفي ذلك يقولُ:

نَقَدْتُ طَوَائِفَ المُسْتَخْدَمِينا ... فلَمْ أَرَ فيهِمُو حُرًّا أَمِينا

فكَمْ سَرَقُوا الغِلَالَ وما عَرَفْنا ... بِهِمْ فكأنَّهمْ سَرَقُوا العُيونا

ولولا ذاكَ ما لَبِسوا حريراً ... ولا شَرِبُوا خُمورَ الأَنْدَرِينا

تَنَسَّكَ مَعْشَرٌ مِنْهُمْ وعُدُّوا ... مِنَ الزُّهَّادِ والمُتَوَرِّعِينا

تَفَقَّهتِ القُضَاةُ فخانَ كلٌّ ... أَمَانَته وسَمَّوهُ الأَمِينَا

وَمَا أَخْشَى على أَمْوَالِ مِصْر ... سِوَى مِن مَعْشرٍ يتأَوَّلُونا

كما يَذكُرُ أنَّ المسلمينَ والأقباطَ كانوا مختلِفِينَ، فكان المسلمونَ يقولونَ: لنا بمصرَ حقوقٌ، وكان القِبْطُ يقولون: نحنُ ملوكُ مصرَ، وكان اليهودُ يستَحِلُّون مالَ الطَّوائفِ أجمعين، وفي ذلك يقولُ:

يقولُ المُسْلِمون لنا حُقوقٌ ... بها ولَنَحْنُ أَوْلَى الآخِذِينا

وقال القِبْطُ نحنُ مُلوكُ مِصْرَ ... وإنَّ سِواهُمو هُمْ غاصِبَونا

وحَلَّلتِ اليهودُ بحفظِ سَبْتٍ ... لهمْ مالَ الطَّوائفِ أَجْمَعِينا[1]

---

(١) انظر: «الوافي بالوفيات» (٣/ ٨٨)، و«فوات الوفيات» (٣/ ٣٦٢). وانظر كذلك مقدمة «العمدة في إعراب البردة» لعبد الله الجاجة (ص ١٣).

وقصَّةُ شفائِه مِن الفالجِ بعدَ نَظْمِهِ للبُردةِ معروفةٌ مشهورةٌ، واللهُ أعلمُ بصحَّتها، وسيَذْكُرُها الشَّارِحُ في بدايةِ شَرْحِه، وقد جَعَلَها البعضُ دلالةً على عقليَّةِ البُوصيريِّ الموسومةِ بالطِّيبةِ والسَّذاجةِ مثلَ أكثرِ الصُّوفيَّة.

ولعلَّ حكايةَ البُوصيريِّ هذهِ ـ مع ما في قَصيدتهِ مِن القوَّةِ والجزالةِ ـ هي سببُ ما صاحَبَ البُرْدةَ مِن الخُرافات، فقد ذَكَر بعضُ الشُّرَّاحِ لكلِّ بيتٍ مِن أبياتها فائدةً: فبعضُها أمانٌ مِن الفقرِ، وبعضُها أمانٌ مِن الطَّاعون، وبيتٌ لمرضِ الصَّرْعِ، وبيتٌ للحفظِ مِن الحريقِ، وآخَرُ للتَّوفيقِ بينَ الزَّوجَينِ...!

وممَّا يَدلُّ على مكانَتِها عندَ البعضِ تلك العنايةُ التي كان يوجِّهُها العلماءُ الأزهريُّون في عَقْدِ الدُّروسِ في يَوْمَي الخميسِ والجُمعةِ لدراسةِ «حاشية الباجُوري على البُردة»، وهي دروسٌ كانَتْ تتلقَّاها جماهيرُ مِن الطُّلَّابِ، ويَتخيَّرونَ لها أوقاتَ الفراغ.

وأمَّا أثرُ البردةِ في الشِّعرِ والشُّعراءِ، فعظيمٌ جدًّا، فقد ضَمَّنوها، وشَطَّروها، وخَمَّسوها، وسَبَّعوها، وعَشَّروها، وعارَضوها[1].

وتسميتُها بالبردةِ ذُكِرت فيه قصصٌ وأقوالٌ ذَكَرها صاحبُ «كشف الظنون»، كما ذَكَرَ جمعاً ممَّن تَصَدَّوا لشرحِها، ومنهم:

١ ـ العلَّامةُ أبو شامَةَ: عبدُ الرَّحمنِ بنُ إسماعيلَ الشَّافعيُّ المُقْرِي النَّحْويُّ المُؤرِّخُ، المتوفَّى سنة (٦٦٥هـ)، وقد نَقَلَ العلَّامةُ القاري عنه مرَّةً واحدةً.

٢ ـ جمالُ الدِّينِ: عبدُ اللهِ بنُ يوسُفَ، المعروفُ بابنِ هشامٍ النَّحويِّ، المتوفَّى سنة (٧٦١هـ).

٣ ـ جَلَالُ الدِّينِ: محمدُ بنُ أحمدَ المحلِّيُّ الشَّافعيُّ، المتوفَّى سنةَ (٨٦٤هـ). وقد أَكْثَرَ القاري مِن النَّقلِ عنه.

---

(١) انظر: «العمدة في إعراب البردة» المقدمة لعبد الله الجاجة (ص ٢٢).

٤ ـ الشَّيخُ زَينُ الدِّينِ: خالدُ بنُ عبدِ اللهِ الأزهريُّ، المتوفَّى سنةَ (٩٠٥هـ). وقد جاءَ في هامشِ إحدَى النُّسخَتَينِ الخطيتين المعتمدتين في تحقيق هذه الرسالة بعضُ النُّقولِ عنه، وقد أَثْبتناها في الحَوَاشي.

٥ ـ الشيخُ شهابُ الدِّينِ: أحمدُ بنُ محمدٍ القَسْطَلانيُّ، شارحُ «البخاري»، المتوفَّى سنةَ (٩٢٣هـ)، وسمَّاه: «مَشَارِقُ الأنوارِ الـمُضِيَّة في شرحِ الكواكبِ الدُّرِّيَّة».

٦ ـ القاضـي: زكريَّـا بـنُ محمدٍ الأنصـاريُّ، المتوفَّى سـنةَ (٩٢٦هـ)، سـمَّاه: «الزُّبـدة الرَّائقـة، في شـرحِ البُـرْدةِ الفائِقَة».

٧ ـ عصامُ الدِّين: إبراهيمُ بنُ عَرَبْشَاه الإسْفَرايينيُّ، المتوفَّى سنةَ (٩٤٤هـ)، وهو مِن الشُّروحِ التي أكثرَ القاري مِن النَّقلِ عنها.

٨ ـ الشيخُ مُحيي الدِّين: محمدُ بنُ مُصطفى، المعروفُ بـ: شيخ زاده، المتوفَّى سنة (٩٥١هـ).

٩ ـ شرحُ الملَّا عليٍّ القارِي، الذي بينَ أَيْدِينا، وهو مِن أحسنِ الشُّروح كما قالَ صاحبُ «كشف الظنون»(١).

*** المآخذ على القصيدة:**

وهذه القصيدةُ انْتَقَدها كثيرٌ مِن أهلِ العلمِ في أبياتٍ مُعيَّنةٍ لِـمَا فيها مِن الغُلُو بنظرِهم، ودافَعَ عنها آخَرونَ مُعلِّلينَ ومُؤوِّلينَ ما نُقِدَ منها! ومِن هذهِ الأبياتِ الـمُنْتقدةِ قولُه في البيتين (٨٠) و(٨١):

ما سـامَني الدَّهرُ ضَيْماً واسْتَجَرْتُ به ... إلَّا ونِلْـتُ جِـواراً منـهُ لَـمْ يُضَـمِ

ولا الْتَمَسْـتُ غِنَـى الدَّارَيْـنِ مِـن يَدِهِ ... إلَّا اسْـتَلَمْتُ النَّـدَى مِن خيرِ مُسْـتَلَمِ

---

(١) انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١٣٣١).

ففيهما مخالَفةٌ لقولِهِ تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولحديثِ: «وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بالله»، ولقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧].

ومِن ذلك قولُه في البيتينِ (١٣٥) و(١٣٦):

ومَنْ تكُنْ برَسُولِ اللهِ نُصْرتُهُ إنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ في آجامِها تَجِمِ
ولَنْ تَرَى مِن وليٍّ غيرِ مُنتَصِرٍ بهِ ولا مِن عَدُوٍّ غيرِ مُنْقَصِمِ

فإنَّ طَلَبَ النَّصرِ لا يكونُ إلَّا مِن اللهِ، والنَّاصرُ والوليُّ هو اللهُ وحدَه ولا أَحَدَ سِوَاه، كيف وهو القائلُ ولَمْ يَسْتَثْنِ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧، والتوبة: ١١٦، والعنكبوت: ٢٢، والشورى: ٣١].

ومِثْلهُ قولُه في البيتِ (١٤٩):

ومُنْذُ أَلْزَمْتُ أفكارِي مَدَائِحَهُ وَجَدْتُه لخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

فإنَّ الانْتِصارَ والخلاصَ يكونُ بالالْتِجاءِ إليه سبحانهُ، وطَلَبِ العونِ منهُ، لا بإنشادِ القصائدِ في مَدِيحِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠] لا قصائدُ المديحِ.

وقوله في البيت (١٤٦):

فإنَّ لي ذِمَّةً مِنْهُ بتسمِيَتِي محمَّداً وَهُوَ أَوْفَى الخَلْقِ بالذِّمَمِ

فكَمْ ممَّن يُسمَّى محمداً ولا يَسْتحِقُّ مِن رسولِ اللهِ ذِمَّةً ولا عَهْداً، ولو نَظَرَ إلى زمانِنا لرَأَى مِن هذا العَجَبَ العُجَابَ.

ومِن المآخِذِ أيضاً القَسَمُ بغيرِ اللهِ تعالى في قوله في البيت (٧٥):

أَقْسَمْتُ بالقَمَرِ المُنْشَقِّ إنَّ لهُ ... مِن قَلْبِهِ نِسبةً مَبْرُورَةَ القَسَمِ

ومنها قوله في البيت (١٥٦):

لعلَّ رحمةَ ربِّي حينَ يَقْسِمُها ... تَأْتي على حَسَبِ العِصْيانِ في القِسَمِ

وفي هذا ما فيه، فإنَّ رحمةَ الله لا يُمْكنُ أنْ تُقْسمَ على حَسَبِ المعاصي، بل على قَدْرِ الطَّاعاتِ تكونُ الرَّحَماتُ مِن مالكِ الأرضِ والسَّماوات.

ومن ذلك أيضاً المبالَغةُ في المديحِ؛ كقولِهِ في البيتِ (٤٣):

دَعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصارَى في نَبِيِّهِمُ ... واحْكُمْ بما شِئْتَ مَدْحاً فيه واحْتَكِمِ

فكأنَّه يقولُ: امْدَحْه بما شِئْتَ مِن أنواعِ المديحِ، وصِفْه بما شِئْتَ مِن الأوصافِ، لكنْ لا يَصِلْ بكَ المدحُ إلى تأليهِهِ كما فَعَلَتِ النَّصارَى مع عيسى عليه السَّلامُ، وفي هذا ما فيه.

لكنْ لعلَّ أكثرَ بيتٍ أثارَ الجدَلَ حولَهُ هو قولُه في البيت (١٥٤):

فإنَّ مِن جُودِكَ الدُّنيا وضَرَّتَها ... ومِن عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ والقَلَمِ

كيف واللهُ سبحانهُ قد أَمَرَ النبيَّ ﷺ بأنْ يقولَ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

أي: لو كُنْتُ أعلمُ الغيبَ لكانَتْ حالي على خِلَافِ ما هي عليه؛ مِن استِكْثارِ الخيرِ واجْتِنابِ السُّوءِ والمضارِّ حتَّى لا يمسَّني شيءٌ منها، ولم أَكُنْ غالِباً مرَّة وغيرَ غالبٍ أُخرى في الحروب.

وقد ردَّ بعضُهم على البُوصِيريِّ في بيتِهِ هذا وما شابَهَهُ من أبياتٍ بقوله: مُقْتَضَى هذه الأبياتِ عِلْمُ الغيبِ للنَّبيِّ ﷺ، وأنَّ الدُّنيا والآخرةَ مِن جُودِه، وتَضَمَّنتِ الاستغاثةَ به ﷺ مِن أعظمِ الشَّدائدِ ورجائهِ لكَشْفِها... وهذه الأمورُ مِن خَصائصِ الرُّبوبيَّةِ والأُلُوهيَّةِ التي ادَّعَتْها النَّصارى في المسيحِ عليه السَّلامُ، وإنْ لَمْ يَقُلْ هؤلاءِ: إنَّ محمَّداً هو اللهُ، أو: ابنُ اللهِ، ولكنْ حَصَلتِ الـمُشابَهةُ للنَّصارى في الغُلُوِّ الذي نَهى عنه ﷺ بقولِهِ: «لا تُطْرُوني كما أَطْرَتِ النَّصارَى ابنَ مَريمَ، إنَّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه»[1]، والإطراءُ هو المبالغةُ في المدحِ حتَّى يَؤُولَ الأمرُ إلى أنْ يُجعَلَ للممدوحِ شيءٌ مِن خصائِصِ الرُّبوبيَّةِ والأُلوهية[2].

فهذا بعضُ ما قيلَ على البُوصيريِّ في هذه القصيدةِ.

* **محاسنُ القصيدة:** لكنَّ هذا كلَّه لا يمنعُنا أنْ نُشِيدَ بقوَّةِ شِعْرِه وجزالتِه، وخصوصاً في هذه القصيدةِ التي لَمْ تَزَلْ غُرَّةَ المَدَائحِ النَّبويَّةِ، حتَّى ذاعَ في الآفاقِ صِيتُها، وتَرَنَّمَت المجالسُ والمَحافِلُ بأبياتِها التي اتَّسَمتْ بما اتَّسمَ به شعرُ البُوصيريِّ مِن كونهِ فِي غَايَة الحُسْنِ واللَّطافةِ، وقمَّةِ العُذوبةِ والانْسِجام، فقد عُدَّتْ مِن أجملِ القصائدِ وأقواها؛ لِمَا حَوَتْه مِن براعةِ التَّصويرِ وحُسْنِ التَّعبير، ودِقَّةِ التَّشبيهِ والتَّصْوير، ورِقَّةِ الألفاظِ في مواضِعِ المدِيحِ والحِكَمِ ونحوِها، وشدَّتها وفَخَامَتِها في وصفِ الحروبِ وأشباهِها، فمِن جميلِ المديحِ قولُه:

أكْـرِمْ بخَلْـقِ نبـيٍّ زانَـهُ خُلُـقٌ ... بالحُسْـنِ مشـتَمِلٌ بالبِشْـرِ مُتَّسِـمِ

كالزَّهـرِ فـي تَـرَفٍ والبدرِ في شَـرَفٍ ... والبحـرِ فـي كَـرَمٍ والدهـرِ فـي هِمَمِ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) انظر: «الرد على البردة» لعبد الله بن عبد الرحمن الملقب بـ (أبابطين) (ص ١٣).

ومِن مَلِيحِ الحِكَمِ قولُه:

والنَّفْسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْه شَبَّ على ... حُبِّ الرَّضَاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

فاصْرِفْ هَوَاها وحاذِرْ أنْ تُوَلِّيَهُ ... إنَّ الهَوَى ما تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ

إلى آخِرِ الأبيات.

ومِن تصويرِ الحروبِ قولُه في وصفِ دينِ الإسلامِ وقد حلَّ بساحةِ الكفَّار:

كأنَّما الدِّين ضيفٌ حَلَّ ساحَتَهم ... بكلِّ قَرْمٍ إلى لَحْمِ العِدَا قَرِمِ

يَجُرُّ بَحْرَ خَميسٍ فوقَ سابِحَةٍ ... يَرْمِي بمَوْجٍ مِن الأبطالِ مُلْتَطِمِ

فانْظُرْ إلى هذِه التَّشبيهاتِ البليغةِ، والمعاني المَتينةِ، والألفاظِ الفخمةِ القويَّة، حيث استَعْمَلَ ألفاظَ: (القَرْم) و(اللَّحْم) و(الالْتِطام)، المناسِبةَ لمقامِ الطَّعنِ والضَّربِ في الحرب، كما شبَّهَ الخميسَ ـ وهو الجيشُ العظيمُ ـ بالبحرِ في المَهَابةِ والجَرَيان، والإهلاكِ واللَّمَعان، وتَمَوُّجِ بعضِهِ ببعضٍ في المَيْدانِ والهَيَجان، وشبَّه أفواجَ المقاتلينَ بأمواجِ البحرِ في التَّتابُعِ والتَّدافُع، وذلك البحرُ يَرْمِي مَوجاً مُتلاطِماً بتَلَاحُقٍ، وهو الأبطالُ التي تَتَصادَمُ وتَتَسابَق، وتتصاكَكُ أسلحتُهم وتتلاصَق.

*** شرحُ العلامةُ الملا علي القاري:**

فهذه القصيدةُ مِن أجملِ قصائدِ المديحِ إنْ لم تكنْ أجملَها، وإنْ كان بعضُ ألفاظِها ومَعانيها يحتاجُ إلى تَفْسير، وبعضُ صُورِها يتطلَّبُ بيانَ روعةِ ذلكَ التَّصوير، فقد جاءَ شرحُ العلامةُ القاري هذا ليُزيحَ الغموضَ عن مَعانيها، ويُبرزَ بُعْدَ مَرامِيها، بعباراتِهِ الجميلةِ الرَّخِيمة، وعِظَاتِهِ الحسنةِ الكريمة، وسمَّاها:

«الزُّبْدَةُ في شرحِ البُرْدَة»

فجاءَتْ كما أرادَها مؤلِّفُها، مِن أجملِ ما خَطَّهُ القَلَم، رائعةً مِن رَوائعِ الأدبِ

والحِكَم، وإذا كانَ صاحبُ البُردةِ فيَّاضَ المشاعرِ فيها، صادقَ العواطِفِ في مَعَانيها، فإنَّ الشَّارِحَ قد تَماهَى مع هذا الفَيضِ والصِّدْق، فجاءُ شرحُه بكلماتٍ تَدخُلُ إلى القلبِ فتجعلُه يَدُقّ، وعباراتٍ تَـهُـزُّ المشاعِرَ بما فيها مِن الصِّدْق، تَفِيضُ نُصحاً وشفقةً ودعوةً إلى التوبة واتِّباعِ الحقّ، فهي تعبيرٌ عن الفُيوضاتِ أكثرُ مِنها شرحاً للأبيات، وتصويرٌ للمَشاعِرِ أكثرُ مِن رَصْفِ الكلمات، فكانَ الشَّرحُ جُرْعةً إيمانيَّة، ونَفْحةً ربَّانيَّة مِن نفسٍ نَقِيَّة، ورُوحٍ طاهِرةٍ زَكِيَّة، هي دعوةٌ لإصلاحِ النُّفوسِ ومُراقبةِ القلوبِ، والوقوفِ على أبوابِها، حتَّى لا يكونَ سِوَى الخالقِ في محرابِها، ولا تَدُقَّ بغير حبِّ الإلهِ في خَلَجاتِها، وممَّا قال في شرحِ هذه الأحوال: «وأَعْدَى عَدُوَّيك: نَفْسُكَ التي بين جَنْبَيك، فإنَّ اللصَّ الدَّاخِلَ بداءٍ عُضال، لا يُمْكِنُ الاحْتِرازُ عنهُ بحال... ولأنَّها الـمَطِيَّةُ في الوصولِ إلى مَقامِ حصولِ المأمول، فلا يُـمْكِنُ مخالفتُها بالمرَّةِ وإلَّا تُذِلُّكَ، ولا مُوافقَتُها فتُضِلَّكَ، فإنْ سَمَّنْتَها تأكُلْكَ، وإنْ جوَّعْتَها تَخْذُلْكَ، فعليكَ بالاعْتِدال؛ لتُوْصِلكَ إلى منزلِ الوِصال، وأمَّا الشَّيطانُ فعدوٌّ لا صُلْحَ معه؛ إذْ هو مجبولٌ على عَدَاوتِك، وموكولٌ إلى ضَلالتِك، فتَشَمَّرْ لمحاربتِه، واجْتَهِدْ في مُخالَفتِهِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، قال بعضُهم: اسْتَعِذْ باللهِ مِن شرِّهِ، فإنَّه كلبٌ سُلِّطَ عليكَ فارْجِعْ إلى ربِّهِ، فإنَّه تعالى قادرٌ على صَرْفِهِ ومنعِهِ».

ومِن ذلك قولُه: «انْظُروا يا أَصْحَابي، واعْتَبِروا يا أَحْبَابي، مِن خَسَارةِ نَفْسي الفاسِدَة، في مُعامَلَتِها الكاسِدَة، مِن إيثارِ الدُّنيا الفانِيَة، مع مُعارَضَتِها للعُقْبَى الباقِيَة، على الدِّينِ القَوِيم، الـمُوْصِلِ إلى النَّعيمِ الـمُقِيم، حيثُ لَمْ تَشْتَرِ الـمُلْكَ الباقيَ بالثَّمنِ الفاني، ولَمْ تَقْصِدْ تَحصيلَ الدِّينِ بتَركِ الدُّنيا بحُسنِ النِّيَّة وصفاءِ الطَّوِيَّة».

وهكذا كانَ أكثرُ هذا الشَّرحِ، فهو لا يتركُ مناسَبةً دونَ أن يقدِّمَ فيها مَوْعِظة.

وقد سَلَكَ في شرحِ الأبياتِ ثلاثَ مَرَاحِلَ:

الأُولى: شرحُ المفردات.

الثانيَةُ: إعرابُ الكلمات.

الثالثةُ: الختمُ بالمعنى العامِّ لكلِّ بيتٍ مِن الأبيات.

وقد يختلفُ التَّرتيبُ بينَ الأوَّلِ والثَّاني، ويكون في ضِمْنِهما بعضُ الشَّرحِ الجُزئيّ، لكن المعنَى العامَّ يكون مؤخَّراً وشاملاً للكُلِّيّ.

ومِن الأساليبِ الحسنةِ التي تُطالِعُكَ في هذا الشَّرح: ربطُ المعاني الشِّعريَّةِ بالآياتِ القُرآنيَّةِ والأحاديثِ النبويَّةِ؛ كقولِ صاحِبِ البُردة:

واخْشَ الدَّسَائسَ مِن جوعٍ ومِن شِبَعٍ ... فَرُبَّ مَخْمَصةٍ شرٌّ مِن التُّخَمِ

ربطهُ الشَّارحُ بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].

وقولُه:

ولا تُطِعْ منهُما خصماً ولا حَكَماً ... فأنتَ تَعرِفُ كيدَ الخَصْمِ والحَكَمِ

قال الشارح: في البيتِ إيماءٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] أو إشارةٌ إلى قولهِ صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في مَعْصيَةِ الخالِقِ».

أمَّا قولُه:

ورَاوَدَتْهُ الجِبَالُ الشُّمُّ مِن ذَهَبٍ ... عن نَفْسِهِ فأَرَاها أيَّما شَمَمِ

فقال عنه المؤلف: وفيهِ تلميحٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣].

وقوله:

فَهْوَ الـذي تَـمَّ معنـاهُ وصُورَتُـهُ ثُـمَّ اصْطَفَـاهُ حَبيبـاً بـارِئُ النَّسَـمِ

قـال المؤلِّـفُ: وفـي البيـتِ تَلْويـحٌ إلـى قولـهِ تعالـى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ [الحج: ٧٥]، وتلميحٌ إلـى حديثٍ صحيحٍ، وهو قولهُ صلـى الله تعالـى عليـه وسـلم: «إنَّ اللهَ اصْطَفَـى كِنَانَةَ مِن وَلَـدِ إسـماعيلَ، واصْطَفَى مِـن كِنَانـةَ قريشـاً، واصْطَفَـى مِـن قريـشٍ بني هاشـمٍ، واصْطَفاني مِن بني هاشـم».

وقولُ صاحبِ البردة:

لَـمْ يَمْتَحِنَّـا بمَـا تَعْيَـا العُقـولُ بـه حِرْصـاً علينـا فلَـمْ نَرْتَـبْ ولَـمْ نَهِـمِ

قـال الشَّـارحُ: وفـي البيـتِ إيمـاءٌ إلـى قولـهِ تعالـى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبـة: ١٢٨].

وفي قوله:

وِقايـةُ اللهِ أَغْنَـتْ عـن مُضاعَفـةٍ مِـن الـدُّرُوعِ وعـن عـالٍ مِـن الأُطُـمِ

قـال المؤلـف: وفـي البيـتِ إيمـاءٌ إلـى قولـهِ تعالـى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ الآيـة [التوبـة: ٤٠]، وإشـارةٌ إلـى قولـهِ عـزَّ وجـلَّ: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [آل عمـران: ١٢٦].

وفي بيتِ البردةِ:

كأَنَّهُـمْ هَرَبـاً أبطـالُ أَبْرهـةٍ أو عَسْـكَرٌ بالحَصَى مِـن راحتَيْهِ رُمِي

قال: وفي بناءِ (رُمِي) على صيغةِ المجهولِ إيماءٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

وفي البيت الذي فيه:

وجَلَّ مِقْدارُ ما أُوْلِيْتَ مِن رُتَبٍ وعَزَّ إدراكُ ما وُلِّيْتَ مِن نِعَمِ

قال: قيل: المصراعُ الأوَّلُ إشارةٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، والثَّاني عبارةٌ عن قولِه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، وفي تفخيمِهما إيماءٌ إلى أنَّ الأفهامَ تَحيَّرتْ عن تفصيلِ تفسيرِ ما أَوْحَى، والأحلامَ تاهَتْ في تَبْيينِ تَعْيينِ الآياتِ الكُبرَى.

وأحياناً يشبِّهُ البيتَ ببيتٍ آخَرَ منسوجٍ على مِنوالِهِ، وما أجملَ تشبيهَهُ بيتَ البردةِ:

كأنَّما اللُّؤْلُؤُ المَكْنونُ في صَدَفٍ مِن مَعْدِنَيْ مَنْطِقٍ منهُ ومُبْتَسَمِ

ببيتِ البحتريِّ:

فمِنْ لُؤْلُؤٍ يُبْدِيهِ عندَ ابْتِسامِهِ ومِن لُؤْلُؤٍ عندَ الكلامِ يُسَاقِطُه

أمَّا قولُ صاحبِ البردةِ:

لا طِيْبَ يَعْدِلُ تُرْباً ضَمَّ أَعْظُمَهُ طُوْبَى لمُنْتَشَقٍ منهُ ومُلْتَثَمِ

فجَعَلهُ مقتبَساً مِن بيتِ الزَّهراءِ رضِيَ اللهُ عنها:

ماذا عَلَى مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ لَوْ لَمْ يَشَمَّ مَدَى الزَّمَانِ غَوَالِيَا

وفي بيت:

لَوْلَا الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً على طَلَلٍ ولا أَرِقْتَ لذِكْرِ البانِ والعَلَمِ

قال: فيهِ إيماءٌ إلى ما قيل:

وما حبُّ الدِّيارِ شَغَفْنَ قَلْبي ولكنْ حُبُّ مَن سَكَنَ الدِّيارَ

ولا يَخْلو كلامُه أحياناً مِن التَّنبيهِ على إيماءاتٍ بعباراتٍ تكونُ أحياناً أقربَ إلى كلامِ أهلِ الإشارات، كالبيتِ الذي فيه:

كأنَّما الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ ساحَتَهُمْ   بكُلِّ قَرْمٍ إلى لَحْمِ العِدَى قَرِمِ

قال: وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الدِّينَ ممَّا يجبُ القيامُ بخدمتهِ لوصولِهِ، والاغتنامُ لمَظْهَرِه وحُصولِهِ، وإلَّا فَلَّهُ الانْتِقالُ إلى قلوبِ أربابِ الكَمال، وفيهِ إشعارٌ بأنَّ الضَّجرَ مِن الضَّيفِ وأهلِ الارْتحال، دَيْدَنُ الكفَّارِ والجُهَّال.

وفي البيت الذي فيه:

تَمْضِي اللَّيالي ولا يَدْرُونَ عِدَّتَها   ما لَمْ تَكُنْ مِن ليالي الأَشْهُرِ الحُرُمِ

قال: وفي العُدولِ عن الأوقاتِ أو الأَيَّامِ إلى (اللَّيالي) إيماءٌ إلى سوءِ حالِ أوقاتهم؛ فإنَّ ظُلْمةَ الزَّمانِ وسوادَهُ كنايةٌ عن ذلك، أو إشارةٌ إلى أنَّ حالَهم في اللَّيالي التي هي مكانُ راحَتِهم، وزَمانُ اسْتِراحَتِهم، كانتْ كذلك، فكيف زمانُ أيَّامِهم المشوَّشَةِ المشؤومةِ عليهم بأنواعِ الكُدُورَات، وأَصْنافِ الضَّرُورات.

وأمثال هذا كثير في هذا الكتاب الرائع المفيد، لكن رغم كل ما ذكر لا يخلو الأمر من بعض الملاحظات:

فمِن المآخِذِ التي قد تؤخذُ على شرح العلامة القاري: القولُ ببعضِ الأمورِ المستَغربة؛ كنقلهِ عن البعضِ قولَه: صاحبُ الوِرْدِ مَلعونٌ.

وكقولِهِ في معرضِ تَعدادِ فضائلِ النبيِّ ﷺ: ومِن جملةِ مُعجزاتِهِ إحياءُ الموتَى حتَّى على أيدي بعضِ أمَّته.

وكقصةِ الرجلِ الذي أرادَ أن يخالِفَ هَوَى نَفْسِه، فتَركَ الخروجَ إلى الجهادِ لأنَّه اتَّهمَها بدفعهِ للجهادِ لغرضِ الرِّياء.

وكذا تلميحُه بهمِّ يوسُفَ عليه السلامُ بما يُنزَّهُ عنهُ الأنبياء.

وكذا ما نَقَله عن الغزاليِّ حيث قال: بل رُوِيَ عن الغزاليِّ: أنَّ تُربةً لَصِقَتْ بجسدهِ مِن الفَرْش، أَعْلى رتبةً مِن العرش.

ومِن ذلك نقلُه: أنَّ حمامَ الحرمِ اليومَ هو مِن نسلِ الحمامةِ التي نَسَجَتْ على فمِ الغارِ.

ومنه ما نَقَله عن بعضِ الظُّرفاء، ناعتاً إيَّاه بأنَّه مِن كُمَّلِ العُرفاء، أنه قال: مِن كمالِ ظُهورِ الرَّحمةِ في العُقْبَى يَنْدمُ المُذْنبونَ على تقليلِ مَعْصِيَتهم في الدُّنيا.

وهذا الكلامُ مِن أحدِ الظُّرفاءِ الكُمَّل مردودٌ بلا تمهُّل، فلعل جاهلاً مثلَه يسمعُه، فيسارِعَ إلى اغتنامِ الفرصةِ بالإكثارِ مِن المعاصي؛ لئلَّا يكونَ في الآخرةِ مِن النَّادِمين على ما فرَّط مِن تَرْكِها.

وكذا اعتبارُه أحدَ أبياتِ القصيدةِ نصًّا في الردِّ على المعتزلةِ في تفضِيلهمُ الملائكةَ على الأنبياء، وكأنه حديثٌ عن النبيِّ ﷺ، والبيتُ هو:

يا أَكْرَمَ الخَلْقِ ما لي مَن أَلُوذُ بهِ ... سِوَاكَ عندَ حُلولِ الحادِثِ العَمِمِ

وقد ذَكَرْنا الردَّ على كلِّ ما تقدم، كلٌّ في مكانِه، والحمدُ لله.

ومِن هذا البابِ موافَقتُه لبعضِ ما جاء في البردةِ ممَّا عَدَّه البعضُ مِن المُخالَفات، كالبيتينِ اللَّذَينِ فيهما:

ما سامَني الدَّهرُ ضَيْماً واسْتَجَرْتُ به ... إلَّا ونِلْتُ جِواراً منهُ لَمْ يُضَمِ

ولا الْتَمَسْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِن يَدِهِ ... إلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِن خيرِ مُسْتَلَمِ

ومِن ذلك الاستدلالُ بأحاديثَ لا أصلَ لها؛ كحديث: «السَّفَرُ قِطْعةٌ مِن سَقَر». والصحيحُ: «السَّفَرُ قطعةٌ مِن العذاب».

وكذا حديثُ: «أَوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ نُورِي، فنَظَر إليهِ تعالى نَظَرَ هيبةٍ فانْشَقَّ نِصْفينِ، فتَخَلَّقَ مِن نصفِه الكونَيْن». ولَمْ أَجِدْه في كتاب.

ولعلَّ مِن المآخِذِ قولُه بنزعِ الخافِضِ في مفعولِ اشْتكَى، مع أنَّه يتعدَّى بنَفْسهِ، وذلك في البيت:

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَن أَحْيا الظَّلامَ إلى ... أَنِ اشْتكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِن وَرَمِ

وإخلالُه أحياناً بالقواعدِ لضرورةِ السَّجْعِ؛ كقولِه: وقالتْ صفيَّةُ بنتُ عبدِ المطَّلب: رأيتُ نوراً على نورِ السِّراجِ غالِب. والصَّوابُ: غالباً.

ومنهُ تجويزُه كونَ (ما) استفهاميَّةً في بيتِ البردةِ:

يا أَكْرَمَ الخَلْقِ ما لي مَن أَلُوذُ بهِ ... سِوَاكَ عندَ حُلولِ الحادِثِ العَمِمِ

وهذا غيرُ ظاهرٍ في نظري إلَّا باعتبارِ (مَن ألوذُ) استِفْهاماً ثانياً، وفيه تكلُّفٌ، كما أنَّ الظاهرَ أنَّه لَمْ يَقْصِدْه؛ لأنَّه لم يُشِرْ إليه؛ أعني إلى الاستفهامِ في (مَن ألوذُ).

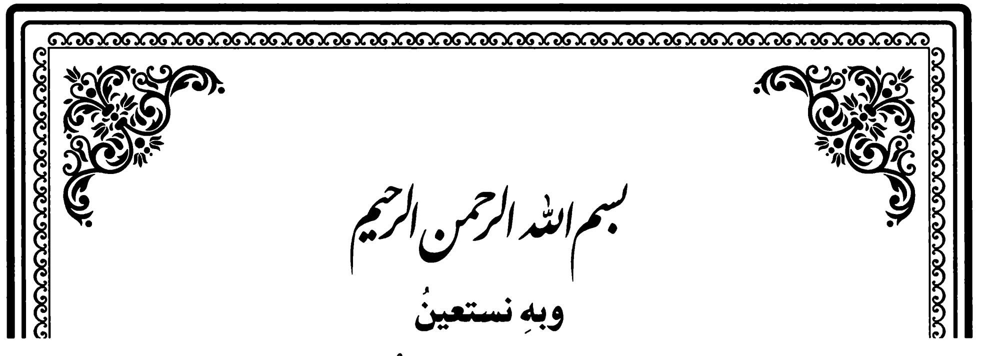
هذا، وقد اعْتَمَدْنا في تحقيقِ هذا الكتابِ على نُسختَيْنِ خطِّيَّتينِ نَفيستَينِ: الأُولَى نسخةُ جامعةِ الملكِ سعود، ورمزُها: «د»، والثَّانيةُ نُسخةُ وليِّ الدِّين أفندي ورمزُها: «ل».

وقد جاءَ في هامشِ «د» تعليقاتٌ مفيدةٌ بعضُها مِن شرحِ الشَّيخِ خالدِ بنِ عبدِ اللهِ الأزهريِّ، وفي هامشِ «ل» كذلك بعضُ التَّنبيهاتِ.

والحمد لله ربِّ العالمين

المحقق

***



بسم الله الرحمن الرحيم

وبهِ نستعينُ

أحمـدُه امتثـالاً لأمْرِه لا إحصاءً لشُـكرِه، وأُصلِّي على حَبيبهِ وصَفيِّهِ ورسـولهِ ونبيِّـهِ، وعلى آلهِ وصَحْبـهِ وتابِعِيهِ وحِزْبِه.

وبعدُ:

فقد رُوِيَ عن ناظمِ القصيدةِ المعروفةِ بالبُرءةِ المشهورةِ بـ «البردة» أنَّه قال: أصابَني خَلْطُ فالجٍ أَبطلَ نِصفي، ففكَّرتُ أنْ أَعمَلَ قصيدةً في مدحِ النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم لأَستشفِعَ بها إلى اللهِ تعالى، فأَنشأْتُ هذه القصيدةَ ونمتُ، فرأيتُ النبيَّ عليه الصلاةُ والسلامُ في المنامِ، فمَسَحَ عليَّ بيدهِ الـمُبارَكةِ فعُوفِيْتُ لِوَقْتي، فخَرَجْتُ غُدوةً مِن بيتي فإذا بعضُ الفقراءِ يَسْتَنشِدُني قصيدةً أوَّلُها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بِذِي سَلَمِ

فتَعَجَّبتُ إذْ ما كنتُ أَخبرتُ بها أحداً، فقال: واللهِ لقد سمعتُها تُنْشَدُ بينَ يدي النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يتمايَلُ تَمايُلَ الأغصانِ، فأعطيتُه إيَّاها، فنَشَرَ الخبرَ بينَ النَّاس، ولمَّا انْتَهَى إلى وزيرِ الملكِ الظَّاهرِ[1] اسْتَنْسَخَها ونَذَرَ أنْ لا يَسمعَها إلَّا واقفاً حافياً حاسراً، فرأَى هو وأهلُه مِن بركاتِـها خيراً كثيراً.

ثُمَّ أصاب مُوَقِّعَ[2] هذا الوزيرِ رَمَدٌ عظيمٌ أَشرفَ منهُ على العَمَى، فرأى في

---

(١) في هامش «د»: «وهو الصاحب بهاء الدين»، ووردت القصة في «الوافي بالوفيات» (٣/ ٣٦٨)، وفيه: «بهاء الدين بن حنا».

(٢) هو سعد الدين الفارقي. انظر المصدر السابق.

مَنامِهِ كأنَّ قائلاً يقولُ: امْضِ إلى الوزيرِ وخُذْ منه البُردةَ واجْعَلْها على عينيكَ، فعَرَضَ على الوزيرِ ما رأَى، فقال: ما عِندِي شيءٌ يقالُ له البُردةُ، وإنَّما عندي مَديحُ النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم ونحنُ نَستشفِي به، فأَخرجَ القصيدةَ ووضَعَها على عينيهِ وقُرِئتْ وهو جالسٌ، فشَفَاهُ اللهُ مِن الرَّمَدِ لوقتهِ، فسميت بالبردة[1].

وهي مجرَّبةٌ عندَ طلبِ الحاجاتِ ونُزولِ المُهِمَّاتِ، ولعلَّها سُمِّيتْ بُردةً لكونِها في المعنَى كِسوةً شَريفةً فُصِّلتْ على قامةِ النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم، وتسميةُ الصِّفةِ كِسوةً مَجازٌ مشهورٌ.

هذا، وقد سَنَحَ لخاطرِ أفقرِ عِبَادِ اللهِ الغنيِّ البارِي، عليِّ بنِ سلطانِ محمدٍ الـهَرَويِّ القارِيْ، أنْ أَخْدُمَ هذهِ القصيدةَ المبارَكةَ الميمونةَ الـمَرْضيَّةَ؛ رجاءً لشفاءِ الأمراضِ الظَّاهريَّةِ والباطنيَّة، مِن الأخلاقِ الدَّنيَّة، وابتغاءً لخِلْعةِ العافيةِ السَّاترةِ للذُّنوبِ القوليَّةِ والفعليَّة، بوضعِ شرحٍ لطيفٍ على المقصودِ، مُطِلٍّ غيرِ مُمِلٍّ ولا مُخِلٍّ، جَعَلَه اللهُ خالصاً لوجههِ الكريم، فإنَّه بعبادهِ لغفورٌ رحيم، وسمَّيْتُهُ:

«الزُّبْدةُ في شرح البُرْدَة»

اعْلَمْ أنَّ هذهِ القصيدةَ الشَّريفةَ مُشتمِلةٌ على فوائدَ لطيفةٍ:

منها: أنَّ عادةَ الشُّعراءِ جَرَتْ بأنَّهم يَذْكرونَ في مَطالعِ قصائِدِهم تيمُّناً بذِكْرِ لَوازِمِ العشقِ مِن مُقاساةِ الأحزانِ والأشواقِ، وتَحمُّلِ مَكارهِ البُعْدِ والفِراقِ، ويُسمُّونهُ تَغزُّلاً وتشبيباً، ويَعُدُّونَهُ مِن جُملةِ لُطفِ الـمَطْلِعِ تقريباً.

ومنها: أنَّهم يجرِّدونَ مِن أنفُسِهم مُخاطَباً يُحاوِرونهُ دَلالاً وعِتاباً، ويُحاضِرونهُ سُؤالاً وجَواباً، إشارةً إلى نُدرةِ خبيرٍ يُظْهِرون رموزَ العشقِ عليه، وإشعاراً إلى قلَّةِ صديقٍ يُضْمِرونَ كنوزَ الحُبِّ لدَيْه.

---

(١) في هامش «ل»: «الظاهر: بالبرءة».

ومنها: أَنَّهم يُغيِّرونَ كلامَهم مِن أسلوبٍ إلى آخَرَ على طريقِ الالْتِفاتِ تَكَلُّماً وخِطاباً وغَيْبَةً؛ تَطْرِبَةً للمسموعِ وتَنْشيطاً للسَّامعِ، فإنَّهم في ضيَافةِ الأرواحِ يَتصنَّعونَ بأساليبِ الإيراداتِ، كما أَنَّ النَّاسَ في إطعامِ الأشباحِ يَصنعونَ ألوانَ الأطعمةِ الوارِدات.

ومنها: معرفةُ الحبِّ والعِشقِ، فإنَّ الحبَّ في وضعِ اللِّسان: عبارةٌ عن مَيلِ النَّفْسِ إلى المُوافِقِ الذي تصَوَّرهُ مِن حُسْنٍ أو إحسان، والعشقُ هو الميلُ المُفْرِطُ الغالِبُ على الإنسان، وكلٌّ مِن الحُسْنِ والإحسانِ يُدْرَكُ تارةً بالبصرِ وتارةً بالبَصيرةِ، والحبُّ يَتْبَعُهما، وكمالُهما للحقِّ تعالى حقيقةٌ؛ إذْ لا يَصِحُّ نَفْيُه وانْتِفاؤُه عنه تعالى، بخلافِ صفاتِ الخَلْقِ فإنَّها بمنزلةِ ثوبٍ مُسْتعارٍ.

ثُمَّ المَجَازِيُّ قِسْمانِ:

نَفْسانيٌّ: وعلامتُه أنْ يكونَ أكثرُ إعجابِ المُحِبِّ بشمائلِ المحبوبِ، وهو يَجعلُ النَّفسَ ليِّنةً ذاتَ وَجْدٍ ورِقَّةٍ، مُنْقطِعةً عمَّا سِوَى محبوبِه، ولذا قيل: المَجازُ قَنطرةُ الحقيقةِ.

وحَيَوانيٌّ: وهو يُعِينُ الأمَّارةَ على استِخْدامِ العاقِلةِ في تحصيلِ اللَّذَّةِ العاجِلةِ، والأكثرُ مُقارَنتُه للفُجورِ حَقيقةً أو حُكماً.

ومنها: أنَّ القصيدةَ مُرتَّبةٌ على عشرةِ أبوابٍ:

الأوَّلُ: في التَّغَزُّلِ وبيانِ داءِ النَّفْسِ ودوائِها.

الثَّاني: في رياضَتِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم.

الثَّالثُ: في تفضيلِهِ على الكائِناتِ.

الرَّابعُ: في خَلْقِهِ وخُلُقِهِ.

الخامسُ: في إرهاصَاتِهِ.

السَّادسُ: في مُعْجِزاتِهِ.

السَّابعُ: في القرآنِ.

الثَّامِنُ: في مِعْراجِهِ.

التَّاسعُ: في غَزَواتِهِ.

العاشرُ: في عَرْضِ الحاجةِ على الممدوحِ والـمُناجاةِ مع الـمَوْلَى.

قال النَّاظِمُ شَرَفُ الدِّينِ أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ سعيدٍ البُوصِيريُّ المِصرِيُّ، وقيل: الدِّمَشْقيُّ الشَّاميُّ، كساهُ اللهُ حُلَلَ الغُفرانِ، وأَسْكنهُ بُحْبوحةَ الجِنَان:

١ ـ أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرانٍ بِذِي سَلَمِ   مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِن مُقْلةٍ بِدَمِ

همزةُ الاستفهامِ للتَّقريرِ مُنْصَبَّةٌ على (مَزَجْتَ) قُدِّمتْ للصَّدارةِ، و(مِن تَذَكُّرِ) مُتعلِّقٌ بـ (مَزَجْتَ) قُدِّمَ للحَصْرِ، و(تَذَكُّرِ) مصدرٌ مُضافٌ إلى مفعولِهِ، وفاعِلُه محذوفٌ؛ أي: مِن تَذَكُّرِكَ جيراناً، وهو جَمعُ جارٍ أو مُجاوِرٍ، وهو الأَوْلَى بالـمَقامِ. و(بذي سَلَمِ)؛ أي: صاحِبِ شجرةٍ في البادِيَةِ مُتَعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ أي: كائنَينِ بمكانٍ فيه هذا الشَّجرُ، وهو بفتحِ اللَّامِ، ورُوِيَ بكسرِها. و(دمعاً) ماءُ البُكاءِ مفعولٌ بِهِ لـ (مَزَجْتَ)، و(جَرَى) صِفَتُه؛ أي: دمعاً جارياً، (مِن مُقلةٍ) مُتعلِّقٌ بـ (جَرَى) وهي داخِلُ العينِ. و(بِدَمِ) متعلِّقٌ بـ (مَزَجْتَ).

والمعنَى: يُحاوِرُ مُخاطَباً جرَّدَه مِن نَفْسِهِ، ويقولُ: يا مَن يُبالِغُ في البُكاءِ لا بدَّ لعُروضِ بكائِكَ مِن سببٍ، فما هو؟ أهُوَ لوعةُ الفراقِ ومَشَقَّتُه بأنِ ابْتُلِيْتَ بفراقِ أحبابٍ كنتَ فَرِحاً بوِجْدانهِمْ فصِرْتَ وَجِعاً بهُجْرانهِمْ؟ أَمْ سببٌ آخَرُ يأتي في البيتِ الآتي.

٢ ـ أمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِن تِلْقاءِ كاظِمةٍ   وأَوْمَضَ البَرْقُ في الظَّلْماءِ مِن إضَمِ

(أم) مُنقطِعةٌ، و(هَبَّتْ) فعلٌ ماضٍ و(الرِّيحُ) فاعِلُه، وهي مُؤنَّثُ سَماعِيٌّ،

و(مِن تِلْقاءِ كاظِمةٍ)؛ أي: مِن جِهَتِها، مُتَعلِّقٌ بـ (هَبَّتْ)، وهي اسمٌ لموضِعٍ، وصَرْفُها للضَّرورةِ، و(أَوْمَضَ) بمعنَى: لَمَعَ، عَطْفٌ على (هَبَّتْ)، و(البَرْقُ) فاعِلُه، و(في الظَّلْماءِ) متعلِّقٌ بمحذوفِ حالٍ مِن الفاعلِ؛ أي: واقِعاً في اللَّيلةِ الظَّلْماءِ، و(مِن إضَمٍ) بكسرِ الهمزةِ مُتعلِّقٌ بـ (أَوْمَضَ) بتقديرِ مُضافٍ؛ أي: مِن تِلقاءِ إضَمٍ، فإنَّهُ جبلٌ، والبرقُ لا يَلْمعُ مِن نَفْسِ الجبلِ بل مِن جِهتهِ.

قيل: المرادُ بذي سَلَمٍ وكاظمةَ وإضَمٍ مواضعُ قُربَ مدينةِ الإسلام، مَدينتهِ عليهِ السَّلام، وهو يناسِبُ جدّاً في المَقام، وقريبُ المأخَذِ لمعنَى المَرام.

والمعنى: أو سَبَبُ بُكائِكَ لُـمْعةُ الوِصالِ، بأنْ تَمنَّيْتَ وِصالَهم بإهداءِ الرِّيحِ إليكَ نسيمَ أخبارِهم وأسرارِهم، وإبداءِ البرقِ عليكَ آثارَ مَساكنِهم وديارِهم.

وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّ مأواهُمْ في البُعْدِ بحيثُ لا يَنتهِي إليهِ إلَّا الرِّيحُ، وفي الرِّفعةِ بحيثُ لا يَرْتَقي إليهِ إلَّا السَّحابُ، فالقاصِدُ إليهِ يَتحمَّلُ جُهداً على جُهْدِه، ويقاسي وَجْداً على وَجْدِهِ.

ثُمَّ بُعْدُ المسافةِ استِعارةٌ لبُعْدِ المرتَبةِ، وعُلُوُّ المكانِ لعُلُوِّ القَدْرِ والـمَكانةِ.

وإنَّما قال: (في الظَلْماءِ)؛ لأنَّ الضَّوءَ في الظُّلمةِ أَجْلَى، ومِن مكانٍ عالٍ أَجْلَى.

ومُحصَّلُ معنَى البيتينِ: إنَّ بُكاءَكَ إمَّا لتَذَكُّرِ وصلٍ ماضٍ مُتطلَّع، أو لتَطَلُّبِ وصلِ حالٍ مُتوقَّع.

ويُمْكِنُ حملُ المعنَى على الحقيقةِ بتمهيدِ مُقدِّمةٍ، وهي: أنَّ المُريدَ قد يَبلُغُ بالرِّياضةِ حدًّا تَعْرِضُ لهُ خُلْساتٌ وجَذْباتٌ مِن اطِّلاعِ نورِ الحقِّ عليهِ لذيذةٌ، كأنَّها بُروقٌ تَلْمَعُ إليهِ ثُمَّ تَخْمُدُ لَدَيْه، وتُسَمَّى تلك الخُلْساتُ وقتاً، وهو أَوَّلُ دَرجاتِ الوِجدانِ والوُصولِ، وكلُّ وقتٍ محفوفٌ بوَجْدَيْنِ: وَجْدٌ إليهِ؛ أي: حُزنٌ على اسْتِبْطانِهِ، ووَجْدٌ عليه؛ أي: حُزنٌ وأَسَفٌ على فَوْتهِ، فيقولُ: أيُّها المريدُ المرتاضُ،

ما سببُ بكائكَ؟ هل تَذْكُرُ تلك الجَذْباتِ اللَّذيذةَ والاشْتِيَاقَ إليها بعدَ انقضائِها، أو تَطْلُبُ أمثالَها أو أَعْلَى مِنها إلى أنْ يَحِقَّ الوصول؟ بلَّغَنا اللهُ الحصولَ بجاهِ الرَّسولِ.
فكأنَّ المخاطَبَ أنكرَ ذلك الناشئَ عن الحبِّ، فقال له:

٣ـ فما لعَيْنَيْكَ إنْ قُلْتَ اكْفُفَا هَمَتَا ... وما لقَلْبِكَ إنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ

الفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ تُسمَّى فصيحةً؛ أي: إنْ لَمْ يكنْ بكاؤُكَ لأَجْلِ هذَيْنِ السَّببينِ، و(ما) استفهاميَّةٌ في الموضِعَينِ في محلِّ رفعٍ على الابتدائيَّةِ، والجارُّ والمجرورُ فيهما متعلِّقٌ بمحذوفٍ في محلِّ رفعٍ على الخَبَرِيَّة، وتقديرُه: أيُّ شيءٍ حادثٌ لعينيكَ ولقلبكَ؟ والشَّرْطيَّتانِ في محلِّ نَصْبٍ تقديرُه: ما حَدَثَ لعَينيكَ هامِيَتَينِ؟ أي: سائلَتينِ دمعُهما عند قولِكَ لهما: (اكْفُفَا)؛ أي: امْتَنِعَا عن البُكاءِ، وما حَدَثَ لقلبكَ هائماً؟ أي: حائراً عندَ قولكَ له: اسْتَفِقْ؛ أي: كُنْ مُفِيقاً حاضراً.

قال الخَبيصيُّ[1] في شرح القصيدة: يجوزُ: كُفَّا واكْفُفَا، بالإدغامِ والفَكِّ.

وهو وهمٌ منه؛ إذْ صرَّحوا بوجوبِ إدغامِ مِثْلِهِ في كتبِ الصَّرفِ.

وقال عصامُ الدِّينِ[2] في شرحِها: فَكُّه للضَّرورةِ.

وقال أبو شامَةَ في شرحِها: فَكُّه خلافُ القياس.

وقيل: تَعَدُّدُ العينِ إنَّما هو في الصُّورةِ، وأمَّا في المعنَى المطلوبِ منها فواحدةٌ، ولهذا قد يُرَى الشَّيءُ شَيئينِ، فالتَّعدُّدُ الصُّورِيُّ لا يَقْدحُ في الوحدةِ الحقيقيَّةِ؛ كما هو

---

(١) عبيد الله بن فضل الله، فخر الدين الخبيصي، متكلم منطقي. من كتبه: «التذهيب في شرح التهذيب» في المنطق، و«التجريد الشافي» منطق أيضاً، و«شرح منظومة اليافعي في التوحيد»، توفي في حدود سنة (١٠٥٠هـ). انظر: «هدية العارفين» (١/ ٦٥٠)، و«الأعلام» (٤/ ١٩٦).

(٢) إبراهيم بن محمد بن عرب شاه الإسفراييني، عصام الدين، من كتبه: «الأطول» في شرح «تلخيص المفتاح» للقزويني، في علوم البلاغة، و«ميزان الأدب» و«حاشية على تفسير البيضاوي»، توفي سنة (٩٤٥هـ). انظر: «الأعلام» (١/ ٦٦).

مذهبُ بعضِ المتصوِّفةِ المشتهِرةِ بالوُجوديَّة، فلفظُ (اكْفُفَا) بالنَّظرِ إلى الحقيقةِ مُفْردٌ وإنْ كان في صورةِ التَّثنيَةِ.

وهذا كما تَرَى تكلُّفٌ.

وقيل: فكُّ الإدغامِ على تَوَهُّمِ الإفرادِ، فلا يُخِلُّ بالفصاحةِ كما أَخَلَّ في قولهِ:

الحمــــدُ للهِ العَلــــيِّ الأَجْلَــــلِ(١)

ثُمَّ قال: ويُمكِنُ أنْ يقالَ: إنَّه أشارَ إلى أنَّه ـ أي: النَّاظمَ ـ قال بهِ بلسانِ الحَيْران، وهو لا يُعاتَبُ بهفَواتِ اللِّسان، ومثلُ هذا يعدُّ ظَرافةً مِن البُلغاءِ في البَيَان.

والمعنى: إنْ كنتَ تُنْكِرُ كونَ البكاءِ مِن أعماقِ المحبَّةِ بناءً على أنَّ له أسباباً أُخَرَ، فلِمَ لا تَمْلِكُ عينيكَ وقلبكَ، فإنَّكَ إنْ أَرَدْتَ تركَ البكاءِ سالَ دمعُهما، وإنْ أَرَدْتَ إفاقةَ القلبِ عن الوَجْدِ يتحيَّرْ ويَتَوَلَّهْ، ومِثْلُ هذا البكاءِ لا يكونُ إلَّا مِن الحبِّ، ومثلُ هذا التَّحيُّرِ لا يُوجَدُ إلَّا مِن البُعْدِ أو القُرْبِ.

ثُمَّ قال له مُلتفِتاً مِن الخطابِ إلى الغَيبةِ:

٤ ـ أَيَحْسَـبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ ... مــا بَيْــنَ مُنْسَـجِمٍ منــهُ ومُضْطَـرِمِ

همزةُ الاستِفهامِ للتَّعجُّبِ أو للإنكارِ التَّوْبيخيِّ؛ أي: لا يَنبغِي أنْ يكونَ.

و(يَحْسبُ) بكسرِ السِّينِ وفتحِها، و(الصَّبُّ): العاشِقُ، مِن صَبَّ الماءَ، غَلَبَ عليه لكثرةِ بكائهِ غالباً، و(ما) زائدةٌ، و(بَيْنَ) ظرفٌ لـ (مُنْكَتِمٌ)، والانْسِجامُ: السَّيَلانُ بشدَّةٍ، والاضْطِرامُ: الاشْتِعالُ بقوَّةٍ، والتَّقدير: بينَ دمعٍ مُنْسجِمٍ وقلبٍ مُضْطرمٍ. وضميرُ (منهُ) راجعٌ لـ (الصَّبّ)، وحذفُ بعدَ (مُضْطَرِم) لدلالةِ ما قَبْلَه عليهِ.

والمعنَى: ما يَليقُ للمُحِبِّ أنْ يَظُنَّ أنَّ حُبَّه يَخْفَى على النَّاسِ في حالِ كمالِ

---

(١) عزاه الخطابي في «غريب الحديث» (٣/ ٥٢) لرؤبة، وهو دون نسبة في «المقتضب» (١/ ١٤٢ و٢٥٣)، و«الأصول في النحو» لابن السراج (٣/ ٤٤٢)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٣٤٧).

ظُهورِه، بسبَبَ سَيَلانِ دمعهِ واضطِرابِ قلبهِ، فإنَّها بمنزلةِ شاهِدَينِ على إثباتِ حُبِّهِ ومُخْبِرَينِ مِن أهلِ بيتهِ على نَفْسهِ، فحسبانُ الكِتْمانْ بُطلانُ الحسبانِ.

وفي البيت إشارةٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢].

ثُمَّ استَدَلَّ على أنَّه مُحِبٌّ، فقال مُخاطِباً له:

٥ـ لَوْلَا الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً على طَلَلٍ ... ولا أَرِقْتَ لِذِكْرِ البانِ والعَلَمِ

(الهوَى) مصدرُ هَوِيَه: أحبَّهُ، والإراقةُ: الصَّبُّ، والطَّلَلُ: ما شَخَصَ مِن أثرِ الدَّارِ مِن نحوِ اللَّبِنِ والأحجارِ، وأَرِقَ بالكسرِ بمعنَى: سَهِرَ، و(البان): نوعٌ مِن الشَّجرِ يُشبَّهُ بِهِ القَدُّ، وطولُ القامةِ، وحُسْنُ الهيئةِ، وطِيْبُ الرَّائحةِ[1]، و(العَلَم) إمَّا العَلَامةُ أو الجبلُ، واللَّامُ فيهِما للجنسِ أو للعَهْدِ؛ أي: الذين في منازِلهم، قيل: المرادُ جبلُ إضمٍ[2]، والتَّنوينُ عِوَضٌ عن الـمُضافِ إليهِ؛ أي: على طَلَلِهِمْ، والظاهرُ أنْ يكونَ بتقديرِ مُضافٍ؛ أي: على تَذَكُّرِ الطَّلَلِ، وإلَّا فلا وصولَ إلى مَنزلِ المحبوبِ، ولا حُصولَ على أثرِ الـمَطلوب، وكلمةُ (لا) إمَّا زائدةٌ للعطفِ على الـمَنْفيِّ بتأويلِ (لَمْ تُرِقْ) بـ: لا أَرِقْتَ؛ لأنَّ (لَمْ) لَمْ تَدخلْ على الماضي، وإمَّا نافيةٌ مع أنَّها لا تدخلُ على الماضي بلا تَكرارٍ؛ لِـمَا تَقَدَّمَ مِن التَّأويل.

والمعنى: يَستَدِلُّ على حُصولِ الحبِّ بلا وُصولِ القُرْبِ، ويقولُ: لو لَـمْ يَتمكَّنْ سلطانُ المحبَّةِ في مدينةِ قَلْبكَ لتوقَّفَ أمرُكَ إلى مَشِيئتِكَ، فلَمْ تُرِقْ دمعاً على أثرٍ وخبرٍ، ولم تَسْهرْ لذِكرِ جبلٍ وشجرٍ، فلَاحَ أنَّ دَمعَكَ قطرةٌ مِن بحرِ الهوَى، وسَهَرَكَ شُعلةٌ مِن نارِ الجَوَى[3].

---

(١) في هامش «د»: «والبان شجر الخلاف، واحده: بانة، والعلم اسم جبل، والمراد بهما هنا: موضعان بالحجاز. خالد بن عبد الله الأزهري».

(٢) فوقها في «د»: «كذا»، وبعدها في «ل»: «وكذا التنوين...».

(٣) في هامش «د»: «ومن المعلوم أن السهر والبكاء من علامات أهل المحبة والبلاء والولاء، والمحب =

وفيهِ إيماءٌ إلى ما قيل:

ومـا حـبُّ الدِّيـارِ شَـغَفْنَ قَلْبـي ... ولكـنْ حُـبُّ مَـن سَـكَنَ الدِّيـارَ[١]

ثُمَّ تَعَجَّبَ مِن إنكارِه الحبَّ بعدَ ظهورِه فقال:

٦ ـ فكيـفَ تُنْكِـرُ حُبّاً بَعْدَما شَـهِدَتْ ... بـهِ عليـكَ عُـدُولُ الدَّمْـعِ والسَّـقَمِ

الاستفهامُ للإنكارِ التَّوبيخيِّ، أو للاستِبْعادِ والتَّعَجُّبِ[٢]، والفاءُ فَصيحةٌ في جوابِ شرطٍ محذوفٍ، يعني: إذا دَلَّتِ الأدلَّةُ على المطلوبِ الذي هو حُبُّ المحبوبِ، وتنوينُ (حُبّاً) للتَّعظيمِ، و(ما) مَصْدريَّةٌ، وضميرُ (به) للحُبِّ، و(عُدولُ الدَّمْعِ والسَّقَمِ) كقولِهِ تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤][٣].

وقيل: المرادُ بالعدولِ: دَمْعُ العينينِ مع السَّقَمِ، أو أنواعُ الدَّمعِ وأصنافُ السَّقَمِ، والإضافةُ بيانيَّةٌ، والمرادُ: الدَّمعُ والسَّقمُ الناشِئانِ[٤] عن الحبِّ والألَم.

٧ ـ وأَثْبَتَ الوَجْدُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وضَنًى ... مِثْلَ البَهَارِ على خَدَّيْكَ والعَنَمِ

= لا يبكي إلا للحبيب، والمريض لا يتمنى إلا لقاء الطبيب، ولذا قيل:

سهر العيون لغي وجهك باطل ... وبكاؤهن لغير فقدك ضائع».

(١) البيت لمجنون بني عامر، واسمه: قيس بن معاذ، ويقال: قيس بن الملوّح، أحد بني جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. انظر: «خزانة الأدب» للبغدادي (٢/ ٢١٢)

(٢) في هامش «د»: «و(كيف) حال لا مفعول فيه على ما تُوُهِّم، بدليل أنه يجاب بالحال مثل: راكباً، في جواب: كيف جاء زيد؟ وتبدل منه الحال؛ مثل: كيف جاء زيد أراكباً أم ماشياً، و(ما) مصدرية، وضمير (به) للحب، أو موصولة والضمير لها، والشهادة مستعارة للدلالة الصادقة. شرح آخر».

(٣) في هامش «د»: «وذِكْرُ العدول ترشيح لها ـ للشهادة ـ، وإضافته إلى الدمع والسقم للبيان، أو بمعنى (مِن)؛ أي: العدول المستفادة من جهتهما، وهي كما ذكرت خمسة فتأمل، أو المراد تحقق الدمع والسقم في الأوقات المختلفة وتواليهما. شرح آخر».

(٤) في «ل»: و«د»: «الناشئين»، والصواب المثبت.

(أَثْبتَ) عَطْفٌ على (شَهِدَتْ)، و(الوَجْدُ): الحُزْنُ مِن جهةِ الحبِّ، وهو بمعنَى كاتِبِ دارِ الحُكْم، والضَّنَى: الـهُزَالُ والضَّعْفُ، ويُلازِمُه عادةً صُفْرةُ الوجهِ، و(البَهَار) بفتحِ الباءِ: نوعٌ مِن الوردِ الأصفرِ، و(العَنَم): شجرٌ له أغصانٌ حُمرانيَّةٌ[1] تُشَبَّهُ به الأصابعُ، و(ضَنًى) على زِنَةِ رَحًى عَطْفٌ على (عَبْرةً) على وزنِ: قَطْرَة؛ أي: وأَثْبتَ على خدَّيْكَ اللَّذَينِ هما بمنزلةِ الوَرَقينِ خَطٌّ عبرةٍ؛ أي: الدَّمعُ الممزوجُ بالدَّمِ مِثْلَ العَنَمِ، على وزنِ العَلَمِ، وخَطٌّ ضَنًى مِثْلَ البَهارِ، فالنَّشْرُ مُشَوَّشٌ.

وقيل: المرادُ بالخطَّينِ: دمعُ العينينِ على الخدَّينِ، و(ضَنًى) عطفٌ على (خَطَّي)، و(مِثْلَ البَهارِ والعَنَم) صفةُ (خطَّي). لكنْ فيه فَصْلٌ بينَ الصِّفةِ والموصوفِ بالأجنبيِّ وهو (ضَنًى).

كذا قيل، والأَوْلَى أنْ يُعطَفَ (ضَنًى) على (خَطَّي)، ويُجعَلَ (مِثلَ البَهارِ والعنمِ) صفةً لمجموعِ المعطوفِ والمعطوفِ عليه.

ومعنَى البيتين: كيفَ تُنْكِرُ المحبَّةَ بعدَ أنْ شَهِدَ بها شاهِدَا عدلٍ ما قَدَرْتَ على جَرْحِهما، وحَكَمَ قاضٍ لا يُنْقَضُ حُكْمُه مع وُجودِهما، وكَتَبَ على صُفرةِ الخدَّينِ منشورُ المحبَّةِ بخطَّينِ أحمرينِ، أو سَجَّلَ قضيَّةَ المودَّةِ مع شُهودِ الأثرِ على وَرَقَيْ خَدِّكَ بخطٍّ أحمرَ وأصفرَ، فكلُّ مَن رآكَ يقرأُ آيةَ المحبَّةِ اللَّائحةِ مِن وَجْهِكَ، ويُطالِعُ العَلَامةَ الواضحةَ مِن خدِّكَ، فالإنكارُ بانحرافِ الضُّلوعِ لا يُسْمِنُ ولا يُغْني مِن جُوعٍ.

وأَسْنَدَ إثباتَ الحُمرةِ والصُّفرةِ إلى الوَجْدِ لأنَّه سببٌ قريبٌ لعُروضِ الحالاتِ للقلبِ مِن الحَيْرةِ والاضْطِرامِ والأَرَقِ والسَّقَمِ، والدَّمعِ مِن السَّيَلانِ والانْسجامِ والانْصبابِ والاحْمرارِ والاصْفرار، بلا اخْتيارٍ.

وأمَّا الحبُّ فهو سببٌ للحزنِ أوَّلاً وبالذَّاتِ، ولهذه الأحوالِ ثانياً وبالعَرَضِ.

---

(١) أي: حمر اللون، وهي تنبت في أصله، ولا تشبه سائر أغصانه. انظر: «المخصص» (٣/ ٢٥٧).

ولَمَّـا انْتَهَـى أمـرُ السَّـقَمِ إلـى صَبْـغِ البَشَـرِ[١] بالصُّفـرةِ، وأمـرُ الدَّمـعِ إلـى الانْصِبـاغِ بالحُمرةِ، وَصَفَهمـا بالعدالةِ إذْ لا مَجالَ للتُّهَمةِ والبَطالـةِ، فقد تأثَّرَ الظَّاهرُ والباطـنُ مِن العشـقِ والمودَّةِ، وفَنِـيَ المحبُّ عن ذاتـهِ في المحبَّـةِ، والظاهِرُ عنوانُ الباطـنِ، ونحنُ نَحكُـمُ بالظَّاهـرِ واللهُ أعلمُ بالسَّـرائرِ.

ولَمَّا انْكَشَفَ كونُ المخاطَبِ مُحِبّاً، وكان هو المُتكلِّمَ في المعنَى، رَجَعَ عن التَّجريدِ إلى التَّكلُّمِ، واعْتَرَفَ بالحبِّ فقال:

٨ ـ نَعَمْ سَرَى طَيْفُ مَن أَهْوَى فأَرَّقَني والحـبُّ يَعْتَـرِضُ اللَّـذَّاتِ بالأَلَـمِ

(نَعَمْ) تصديقٌ لِمَا أُثْبِتَ بالاستدلالِ مِن قرائنِ الأحوالِ وإقامةِ البيِّنةِ وتسجيلِ القاضي مِن المُحِبِّ؛ أي: ما ادَّعَيْتَ عليَّ مِن المحبَّةِ وأَثْبَتَّهُ حَقٌّ، وله كمالُ الصِّحةِ، فقد أَسْهرني خَيَالُ مَحبوبي، وأَوْجَعني فراقُ مَطْلوبي.

يعنـي: جاءَني فـي اللَّيـلِ خَيَالُه، وأَسْـهرَني أَلَمُ وِصالِـه، بَعْدَ أنْ كُنْـتُ في لذَّةِ النَّـومِ غافِلاً عـن حالهِ.

(والحـبُّ يَعتـرِضُ)؛ أي: يُعْدِمُ ويُزيـلُ ويَمنعُ اللَّذَّاتِ بسـببِ أَلَـمِ المحبوبِ بالـذَّات، وقيل: يَتَخلَّلُ بينَهما، والجملةُ حاليَّةٌ أو معترِضةٌ، واللَّذَّةُ: إدراكُ الـمُلَائِمِ، والأَلَمُ خِلافُه.

فالأَوْلَى في طريقِ محبَّةِ الـمَوْلَى: أنْ يُفسَّرَ اللَّذَّةُ بخيالِ الـمَهْويِّ والأَلَمُ بما يَخْطُرُ ببالهِ مِن السِّوَى، فالمعنَى: جاءَني في ليلةِ القَدْرِ خيالُ مآلِ الوِصالِ، ونبَّهَني مِن نومِ الغَفْلةِ وشَغَلني بذكرِه وفكرِه على طريقِ أربابِ الكمالِ، وانْقلبَتِ اللَّذَّاتُ الظَّاهريَّةُ آلاماً باطنيَّةً، والآلامُ الحِسِّيَّةُ لذَّاتٍ معنويَّةً، فطُوبَى لها، فطُوبَى لها.

---

(١) البشر: ظاهر جلد الإنسان، جمع بشرة. انظر: «القاموس» (مادة: بشر).

ثُمَّ اسْتَشْعَرَ لائِماً بلسانِ الحالِ فخاطَبَهُ فقال:

٩ - يا لائِمِي في الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً　　مِنِّي إليكَ ولو أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

(العُذْرِي): مَنسوبٌ إلى بني عُذْرَةَ - بضمِّ العينِ -: قبيلةٌ مِن العربِ في اليمنِ إذا عَشِقُوا ماتُوا؛ لأنَّ نساءَهم تكونُ جميلةً عفيفةً كثيرةَ الحياءِ، وفِتْيانَهم سريعَ الحبِّ قليلَ الصَّبرِ شديدَ الحياء.

وقيل: الـهَوَى العُذْرِيُّ: هو الـمُفرِطُ الذي مِن شأنِهِ أنْ يكونَ صاحبُهُ مقبولَ العُذْرِ عندَ كلِّ أحدٍ.

و(مَعْذِرةً) مفعولُ فعلٍ مقدَّرٍ؛ أي: اقْبَلْ مَعذِرةً، أو: اعْذُرْني معذرةً، و(مِنِّي) مُتعلِّقٌ بها، وقيل: مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، و(إليكَ) حالٌ، أو كلاهُما صِفَتَان؛ أي: معذرةً صادرةً منِّي متوجِّهةً إليكَ، أو: مُلقاةً إليكَ.

والمعنى: أَعْتذِرُ إليكَ بأنِّي مُبْتَلًى بالحبِّ المذكورِ على الوجهِ الـمَسْطورِ، (ولو أَنْصفتَ)؛ أي: لو أَتَيْتَ بالإنصافِ والعدلِ (لَمْ تَلُمْ) في الحبِّ وتركْتَ العَذْلَ؛ لعِلْمكَ بأنَّه ليس اختياريّاً، بل يكونُ العشقُ اضْطِراريّاً.

وقيل: المعذرةُ قولُه: (مَحَّضْتَني النُّصْحَ).

وقيل: قولُه: (والحبُّ يَعترِضُ اللَّذَّاتِ بالأَلَمِ).

وتفصيلُه: يا مَن يَلُومُني في الحبِّ المُفْرِطِ اقْبَلْ مَعْذِرتي ولا تَظْلِمْ بمَلامَتي، فإنَّ الحبَّ أذابَ لحمِي، وأسالَ دَمِي، وأزالَ دمعي عن حَدَقتي، وصَبَغَ بالصُّفرةِ بَشَرتي، ونَهَبَ قرارِي، وسَلَبَ اختيارِي:

وعيبُ الفَتَى فيما أَتَى باختيارِه　　ولا عيبَ فيما كانَ خَلْقاً مُرَكَّبا

فحاصلُ المعذرةِ: إنَّ حُبِّي عُذْريٌّ، وحُبُّ العُذْريِّ عُذْرِيٌّ.

وقال العصامُ: (مَعذِرةً) تمييزٌ مِن نِسبةِ (العُذْرِيِّ)، و(مِنِّي) متعلِّقٌ بـ (إليكَ) وهو اسمُ فِعْلٍ بمعنَى: ابْعُدْ.

١٠ ـ عَدَتْكَ حاليَ لا سِـرِّي بمُسْـتِتِرٍ عـن الوُشَـاةِ ولا دائـي بمُنْحَسِـمِ

يقالُ: عَدَا عنهُ عَدْواً: جاوَزَه، وإليهِ عَدْوَى: سَرَى إليه سِرَايةً، وعلى كلِّ تقديرٍ لا بدَّ من القول بحذف حرفِ الجرِّ، والمشهورُ تقديرُ (إلى)؛ ليكونَ دعاءً عليهِ، إشارةً إلى ما وَرَدَ: «مَن عَيَّرَ أخاهُ بذنبٍ لَمْ يَـمُتْ حتَّى ابْتَلَاهُ اللهُ به»[1].

و(الوُشَاة) بضمِّ الواوِ: جمعُ واشٍ؛ أي: الكَذَبةِ السَّاعينَ بالفسادِ بَيْني وبَيْنَ مَن هو بمنزلةِ الفؤادِ، والانْحِسامُ: هو الانْقِطاعُ.

والمعنى: ليَكُنْ حالُكَ مِثْلَ حالي؛ لتَذُوقَ وَبَالي، وحُرقةَ قَلْبي وبَالي، وهو أنَّ سِرِّي لا يَخْفَى عن الوَاشِينَ واللَّائِمينَ لأَخْلُصَ عن الشَّماتةِ والـمَلَامةِ، ومَرَضِي لا يَنقطِعُ بالوَصلِ لأفوزَ بالسَّلامةِ.

وقيل: المعنَى: تَجاوَزَ حالي عنكَ إلى الغَمَّازِينَ، وفاشَ[2] سِرِّي عندَ اللَّمَّازِينَ، وذاعَ عندَ الأحبَّاء، وشاعَ عندَ الأعداء، ولا يَنقطِعُ هذا الدَّاء، وليس له دواءٌ عندَ الأطبَّاء، فإذا عَلِمْتَ حالي في هذا الـمَقام، فأَنْصِفْ واتْرُكِ الـمَلام.

ويُمكنُ أنْ يكونَ بتقديرِ (عن) دعاءً لهُ بعَدَمِ الابْتلاءِ بحالِهِ، أو دعاءً عليهِ بالحِرْمانِ عن الوصولِ إلى مَرْتبةِ كمالِهِ.

و(لا) في الموضِعَينِ لنَفْيِ الجنسِ لا للمُشابَهةِ بـ: ليس؛ لعَدَمِ جوازِ دخولِـها على المعرِفةِ عندَ الجمهورِ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠٥) من طريق خالِدِ بن مَعْدَانَ عن مُعاذِ بن جَبَلٍ قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «من عَيَّرَ أَخاهُ بِذَنْبٍ لم يَمُتْ حتى يَعْمَلَهُ» قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ وليس إسنادُهُ بمتَّصِلٍ، وخالدُ بن مَعْدَانَ لم يُدْرِكْ مُعاذَ بن جَبَلٍ.

(٢) في هامش «ل»: «الظاهر: وفشا».

ولمَّا رأى مُبالَغةَ اللَّائمِ في مَلامَتِهِ، وظهرَ أنَّ قَصْدهُ مُنحصِرٌ في سلامَتِهِ، وقد بالَغَ في تدليسِ عَيْبِهِ، والاعتذارِ عمَّا ظهرَ مِن سُوءِ غَيبِهِ، ثُمَّ اسْتَيقَنَ أنَّ عُذْرهُ غيرُ نافعٍ، وتَدْليسَهُ غيرُ ناجعٍ، أَنْصفَ واعْترفَ بأنَّ التَّقصيرَ مِن قِبَلِهِ على كلِّ حال، فقال هذا الـمَقال:

١١ ـ مَحَّضْتَني النُّصْحَ لكنْ لَسْتُ أَسْمَعُه إنَّ المُحِبَّ عنِ العُذَّالِ في صَمَمِ

النَّصيحةُ: إرادةُ الخيرِ للغيرِ، والـمَحْضُ: الإخْلاصُ والتَّصفيَةُ، والمرادُ مِن عَدَمِ السَّماعِ ومِن الصَّمَمِ: عَدَمُ الالْتِفاتِ وعَدَمُ القبولِ والإجابةِ.

و(العُذَّال) بالذَّالِ الـمُعْجَمةِ: جمعُ عاذلٍ، وهو اللَّائِمُ النَّاصِحُ؛ أي: أَخْلَصْتَ لي[1] النَّصيحةَ وصَفَّيْتَها عن الأعراضِ الفاسدةِ في لَومِكَ لي في الـهَوَى مِن جهةِ أسبابِهِ؛ كالالْتفاتِ إلى ما يُحَبُّ، والتَّطَلُّعِ إليه، والتَّفَكُّرِ في مَحَاسنِهِ والتَّولُّعِ به، ولكنْ لا أَقْبَلُها، فإنِّي أَسيرُ العشقِ وأنتَ أمينُ العقلِ، ولا يَجرِي حُكْمُه في مملكةِ العشقِ، فالعقلُ يَبْني والعشقُ يَهْدِمُ، والعقلُ في التِّجارةِ والعشقُ في الغارَة.

وفي البيتِ تلميحٌ إلى الحديثِ الصَّحيحِ: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي ويُصُمُّ» رواهُ أحمدُ وأبو داودَ والبخاريُّ في «تاريخه»[2].

وبعدَ بيانِ حالٍ يَعُمُّ الـمُحِبِّينَ مِن عَدَمِ سَماعِ كلامِ اللَّائِمِينَ، ذَكَرَ ما يَخصُّه مِن عدمِ قبولِ النَّصيحةِ مع إفضائِهِ إلى حالةِ الفَضيحة:

١٢ ـ إنِّي اتَّهَمْتُ نَصيحَ الشَّيبِ في عَذَلي والشَّيبُ أَبعدُ في نُصْحٍ عن التُّهَمِ

---

(١) في «د»: «إلي».

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١٩٤) (٢١٦٩٤)، وأبو داود (٥١٣٠)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١٠٧) و(٣/ ١٧١)، من حديث أبي الدرداء رضِيَ اللهُ عنه. وهو حديث صحيح موقوفاً، أما المرفوع ففيه أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف. وانظر تفصيل الكلام عليه في التعليق على «المسند» ط الرسالة.

(نَصِيح) بمعنَى: ناصِحٍ، والإضافةُ بيانيَّةٌ، والعَذَلُ بفتحِ الذَّالِ: اسمُ مَصدرٍ، وبالسُّكونِ مصدرٌ، وقال العصامُ: هما مَصْدرانِ. وجملةُ: (والشَّيبُ...) حالٌ لازِمةٌ مِن مفعولِ (اتَّهَمْتُ) في المعنى وهو (الشَّيب).

والمرادُ من نصيحةِ الشَّيبِ: أنَّه يقولُ بلسانِ الحالِ: إنَّه قَرُبَ الارْتِحال، وآنَ زمانُ التَّوبةِ والانْتِقالِ مِن سَيِّئ الأحوال، وحَلَّ تركُ العشقِ الـمَجَازِيِّ، ووَجَبَ الحبُّ الحقيقيّ، وتَدارُكُ ما فات، مِن تَضْييعِ الأوقات، وعَدَمِ إصلاحِ الحالات.

ولذا لـمَّا رأى أبو يزيد البَسْطَاميُّ قدَّسَ اللهُ سِرَّه السَّامي مِرآةً، وطالَعَ فيها وقد ظَهرَ البياضُ في لحيتِهِ الشَّريفةِ وطَلْعتِهِ الـمُنِيفةِ، قال: ظَهَرَ الشَّيبُ ولَمْ يَذهبِ العَيبُ، وما أَدْرِي ما في الغَيْب.

فإذا كانَ حالُ العاشِقِ[1] أنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ نصيحةَ نَصيحِ الشَّيبِ الخالي عن التُّهَمةِ والعَيب، فبِالْأَوْلَى أنْ لا يَقبلَ كلامَ أهلِ الـمَلَامِ بلا كلام.

وقيل: المرادُ باتِّهامِ الشَّيب: حملُ وقوعِهِ على غيرِ أَوَانِهِ؛ لئلَّا يَستعِدَّ بما يجبُ في زمانِهِ، كما يقولُ كهولُ الأَوْباش: إسراعُ الشَّيبِ مِن الـمِحَن. ومِن كلامهم: الشَّيب نُورُ الهموم، والمعنى: إنِّي اتَّهمْتُ النَّاصحَ الذي هو أَبْرأُ مِن كلِّ تُهمةٍ وأَصدقُ مِن كلِّ ناصحٍ وهو الشيبُ، فإنَّه دليلُ انهزامِ القلبِ وانهدامِ القالَبِ، فالسَّعيدُ مَن يتَّعِظُ بوعظِهِ.

قيل: نَظَرَ رجلٌ إلى شيبةٍ في رأسِهِ، فجمعَ نساءَهُ فقال: انْدُبْنَني فقد ماتَ بَعْضِي، وأنشد:

إذا ما ماتَ بعضُكَ فابْكِ بَعْضاً فبعضُ الشيءِ مِن بعضٍ[2] قريبُ

---

(١) في «ل»: «العشق».

(٢) في النسختين: «من شيء»، والمثبت من المصادر. انظر: «الشعر والشعراء» (١/ ١٨٧)، و«الأغاني» (١٦/ ٤٣٣)، و«ولباب الآداب» للثعالبي (ص ١٥٥). وعزوه لأبي يعقوب الخريمي، واسمه: إسحاق بن حسان.

ثُمَّ عَلَّلَ اتِّهامَهُ للشَّيبِ مع بُعْدِهِ مِن الوقوعِ، فقال:

١٣ ـ فإنَّ أَمَّارَتي بالسُّوءِ ما اتَّعَظَتْ مِن جهلِها بنذيرِ الشَّيبِ والـهَرَمِ[١]

الفاءُ للعطفِ على (اتَّهمْتُ) مُفِيدةٌ للتَّسَبُّبِ؛ أي: إذا اتَّهمتُ نَصيحَ الشَّيبِ أَفْضَى بي[٢] الجهلُ إلى عَدَمِ الاتِّعاظِ مِن النَّذيرِ الـمُخْبِرِ بوصولِ الموتِ، وهو الشَّيبُ الكاملُ والـهَرَمُ، فالنَّذيرُ بمعنى الـمُنذرِ، والإضافةُ مِن بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، والهرمُ تَنَاهِي الشَّيبِ، والمنذِرُ بمعنَى: الـمُخَوِّفِ بقُربِ الموتِ الـمُفوِّتِ للتَّوبةِ وسائرِ الطَّاعاتِ، و(مِن جَهْلِها) علَّةٌ لعَدَمِ الاتِّعاظِ بما ذُكِرَ، وقيل: النَّذيرُ بمعنى الإنذارِ مصدرٌ، وهو متعلِّقٌ بالاتِّعاظِ أو بالجهلِ.

واعْلَمْ أنَّ النَّفْسَ ـ أعني: القوَّةَ الحيوانيَّةَ التي تَشْتمِلُ على القوَّةِ الـمُدْركةِ والـمُحرِّكةِ ـ إذا لَمْ يكنْ لها طاعةُ القوَّةِ العاقلةِ مَلَكةً، كانَتْ بمنزلةِ بهيمةٍ غيرِ مُرْتاضةٍ تَنْبَعِثُ إلى ما يَدْعوها إليهِ شهوتُها وغضبُها، وتَستخدِمُ العاقلةَ، فيكونُ النَّفْسُ أمَّارةً والعاقلةُ مُؤْتمرةً عن كرهٍ مُضطرَّةً.

أمَّا إذا راضَتْها العاقلةُ ومَنَعَتْها عن تلك الدَّعاوِي المختلفةِ، فإنْ تَأَدَّبَتْ في خِدْمتِها، وتَمرَّنتْ على طاعتِها بحيث تأتَمِرُ بأمرِها وتنتهِي بنَهْيِها، كانتِ العاقلةُ مطمئنَّةً والنفسُ مؤتمِرةً، وإنْ أطاعَتْ تارةً وعَصَتْ أُخرى، فحينَ عَصَتْ تَتَبَّعُ هَوَاها، ثُمَّ تندمُ فتَلومُ نَفْسَها فتكونُ لوَّامةً.

والأَخْصَرُ أنْ يُقالَ: الأمَّارةُ هي العاصيةُ، والمطمئنَّةُ هي الـمُطيعةُ، واللَّوَّامةُ هي المقتصِدةُ المختلِطةُ.

ثُمَّ عَطَفَ على (ما اتَّعَظَتْ) قولَهُ:

---

(١) في هامش «ل»: «الفصل الثاني في ذكر النفس وتتبع هواها».

(٢) في «ل»: «لي».

١٤ـ ولا أَعَدَّتْ مِنَ الفِعْلِ الجميلِ قِرَى ضيفٍ أَلَمَّ برأسِي غيرَ مُحْتَشِمِ

الفعلُ الجميلُ: هو ما اسْتَحْسَنَهُ الشَّرْعُ والطَّبْعُ، والقِرَى بكسرِ القافِ: الضِّيافةُ، والمرادُ هنا: الأعمالُ الصَّالحةُ مِن التَّوبةِ وغيرِها، والإلمامُ: النُّزولُ، والاحْتِشامُ: الاسْتِحْياءُ مِن جهةِ الاحْتِرامِ، والتَّقييدُ بنَفْيِ الاحتشامِ إشارةٌ إلى سُهولةِ قِرَاهُ عندَ الكِرَام، والتَّخصيصُ بالرَّأسِ لأنَّه أوَّلُ ما يبدو فيهِ الشَّيبُ، وإيماءٌ إلى أنَّه جاء على رأسِهِ بالغفلةِ.

وقيل: المرادُ أنَّ الشَّيبَ غيرُ مُحتشِمٍ عندَ النَّفْسِ لكراهَتِها إيَّاهُ.

(ولا أَعَدَّتْ) عطفٌ على (ما اتَّعظَتْ) عَطْفَ الخاصِّ على العامِّ، فإنَّ الاتِّعاظَ يكونُ بامْتثالِ الأوامرِ واجْتِنابِ الزَّواجِرِ.

ويُمكِنُ أنْ يُرادَ بالاتِّعاظِ: الاجْتِنابُ، وبالإعدادِ: إتيانُ المحاسِنِ، فالبيتُ الأوَّلُ إشارةٌ إلى أنَّ نَفْسَهُ لَمْ تَنْتَهِ بنَهْيِ العاقِلةِ، والبيتُ الثَّاني إلى أنَّها لَمْ تَأْتَمِرْ بأمرِ الكامِلةِ، فبانَ أنَّها في العصيانِ غايَةٌ، وفي الأمرِ بالطُّغيانِ نهايةٌ، و(غيرَ) منصوبٌ على الحاليَّةِ مِن ضميرِ[١] (أَلَمَّ)، يعني: أنَّ النَّفْسَ الأمَّارةَ بالسُّوءِ لَمْ تَجْتَنِبْ عن السَّيِّئات ولَمْ تَـمتَثِلْ بالطَّاعات، حتَّى إنَّها ما أَعَدَّتْ ضيافةَ ضيفٍ مُكرَّمٍ محمولٍ على الهامِ، نازلٍ على فَرقِ الأنام، بلا طريقِ الاحْتِشام، وإكرامُ الضَّيفِ واجبٌ عقلاً وثابتٌ نقلاً، سيَّما إذا كان ذا شَيْبَة، وجاءَ غَفْلَة، قال اللهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]، وقال ﷺ: «مَن كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ ضيفَهُ»[٢] وقال: «إنَّ مِن إجلالِ اللهِ إكرامَ ذي الشَّيبةِ المُسْلِمِ»[٣].

---

(١) كلمة: «ضمير» سقطت من «ل».

(٢) قطعة من حديث رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧)، عن أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه.

(٣) قطعة من حديث رواه أبو داود (٤٣٤٨) عن أبي موسى الأشعري رضِيَ اللهُ عنه.

١٥ ـ لو كنتُ أَعْلَمُ أنِّي ما أُوَقِّرُهُ كَتَمْتُ سِراً بَدَا لي منهُ بالكَتَمِ

(الكَتَم) بفتحتين: نَبْتٌ يُخْلطُ بالوَسْمةِ أو بالحِنَّاءِ ويُخْتَضَبُ به، والمرادُ بالسِّرِّ: إنذارُ الشَّيبِ عن الغفلةِ، وتنبيهُه على قُرْبِ الرِّحلةِ؛ أي: لو كنتُ أَعلمُ أنِّي ما أُعظِّمُ الشَّيبَ الذي هو واجبُ الإكرامِ عندَ العُقلاءِ الكِرَام، بعدَ نزولِهِ بي وظهورِه عندي، وقبلَ[1] ظهورِه عندَ غيري، أَخْفيتُ أسرارَهُ وأَسْررتُ إظهارَه، التي بَدَتْ على راسِي، وظَهَرتْ على سَاسِي[2]، مِن أثرِ الكِبَرِ وزوالِ الصِّغَرِ، (بالكَتَم)؛ أي: خَضَبتُه حتَّى لا أُنْسَبَ إلى الفَضيحة، وعَدَمِ سماعِ النَّصيحة، مِن لسانِ الحال، والحالُ أنَّه أبلغُ مِن بيانِ القال.

١٦ ـ مَن لي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِن غَوَايَتِها كما يُرَدُّ جِمَاحُ الخَيْلِ باللُّجُمِ

(الجِماح) بكسرِ الجيم: جمعُ جَموحٍ، شبَّهَ الأخلاقَ الذَّميمةَ بالدَّوابِّ الذَّميمةِ.

وقيل: (الجِماح) مصدرٌ، فالرَّدُّ بمعنَى الإزالةِ.

و(مِن غَوَايتِها) صفةُ (جِماح)؛ أي: ناشئةٍ مِن ضلالتِها، والاستفهامُ للتَّضرُّعِ، والاسْتِعانةِ بغيرِه، والاستعطافِ لنَفْسِهِ.

والمعنى: مَن يَتكفَّلُ لي بتبديلِ الصِّفاتِ الرَّديَّة، والأخلاقِ الدَّنيَّة، الحادثةِ مِن النَّفْسِ الأمَّارة، المَكَّارةِ الغَدَّارة، بتأديبِها وتحصيلِ الأحوالِ الجميلة، والمَقاماتِ الجَلِيلة، كما تُبدَّلُ الحركاتُ الغَيْرُ المَرْضيَّة، للخيولِ الغَيْرِ المَهْديَّة، باللُّجُمِ المشبَّهةِ بالمواعظِ السَّنِيَّة.

قال عصامُ الدِّين: وتشبيهُ النَّفْسِ بالفَرَسِ مأخوذٌ مِن لسانِ الشَّرعِ: «نَفْسُكَ مَطِيَّتُكَ فارْفُقْ بها»[3].

---

(١) في «ل» لعلها: «وقيل».

(٢) في «ل»: «شابي». والمثبت من «د»، والساس: القادح في السن.

(٣) ذكره محمد بن الحسن في كتاب «الكسب» (٨٦) عن النبي ﷺ دون سند.

قيل[١]: مقصودُه: مُرْشدٌ كامِل، وهو العالِـمُ العامِل، فاسْتَشْعَرَ قائلاً غيبيّاً يقولُ:

١٧ ـ فلا تَرُمْ بالمعاصِي كسرَ شهوتِـها   إنَّ الطَّعَـامَ يُقَـوِّي شَـهْوَةَ النَّهِـمِ

النَّهَمُ بفتحِ الهاءِ: إفراطُ الشَّهوةِ في الطَّعامِ، وبكَسْرِها صفةٌ منهُ.

والمعنى: إذا أَرَدْتَ ردَّ الجِمَاح؛ لإرادةِ التَّخلُّصِ مِن الجُنَاح، فلا تَطْلُبْ كسرَ شهوةِ النَّفسِ بالمَناهي، ولا حَسْمَ نَشْواتِها[٢] بالملاهي، يعني: لا تَظُنَّ أنَّكَ إذا شَبَّعْتَها بمقصوداتِها امْتنَعَتْ عن مَضَرَّاتها، فإنَّ الحرصَ يزدادُ بوِجْدانِ ما ابتغَاه، والطَّبْعَ يَتقوَّى بما يُلائِمُ مُقْتَضاه، كمَن ابْتُلِيَ بالمعدةِ النَّاريَّة، أو الجوعةِ البَقَريَّة، فإنَّه يزدادُ قوةُ مرضِهِ بالأكلِ كالبهائم، والمُسْتَسْقِي يزيدُ عطشُه بالشُّربِ الدَّائم، فالمعاصِي تَزيدُ شهوتَها ولا تَنْقُصُها، وتُفْسِدُها ولا تُصْلِحُها، ومِن المشهورِ بينَ أطبَّاءِ الأرواح: أنَّ معالجةَ النَّفسِ بالتَّخليَةِ والتَّحليَة، كما أنَّ المعروفَ بينَ أطبَّاءِ الأشباح: أنَّ الـمُداواةَ بالتَّقِيَّةِ والتَّقْوِية.

فالحاصلُ: أنْ ليسَ لها دواءٌ إلَّا الاحْتِمَاء، فإنَّ لها بحُبِّ المألوفِ ابتلاء، ويدُلُّ عليه قولُه:

١٨ ـ والنَّفْسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْه شَبَّ على   حُبِّ الرَّضَاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

شبَّ الصبيُّ: بَلَغَ[٣] الشباب، و(الرّضاع) بكسرِ الرَّاءِ وفتحِها.

والمعنى: مَثَلُ النَّفْسِ في الاستمرارِ على الـمُستَلَذَّاتِ الـمُضِرَّةِ حالَ إهمالِها، والانْزِجارِ عنها عندَ إعمالِها، مَثَلُ الطِّفلِ الرَّضيعِ: إنْ تَركْتَه على الرِّضاع، ينشأُ على حُبِّه بحُكْمِ الطِّبَاع، فيَرضعُ في غيرِ أوانِه، ويَفْسُدُ مِزَاجهُ بالأخلاطِ الرَّديَّةِ في زمانِه،

---

(١) في «د»: «قيل بقوله».

(٢) في «ل»: «شهواتها».

(٣) في «د»: «بلغ إلى».

وإنْ تَفْطِمْه بتنفيرِها عن الثَّدْي بالحِيَل، وتأنيسهِ بلذيذِ الأطعمةِ على المَهَل، يَنْفَطِمْ وفي سلكِ الخيرِ يَنْتَظِمْ، ونِعْمَ ما قال مَن قال:

النَّفْسُ راغِبةٌ إذا رَغَّبْتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ[1]

١٩ ـ فاصْرِفْ هَوَاها وحاذِرْ أنْ تُوَلِّيَهُ ... إنَّ الهَوَى ما تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ

صَرَفَه: مَنَعَه، وقيل: صَرَفَه: غَيَّرَه. والهوَى: مَيَلانُ النَّفْسِ إلى ما تَسْتلِذُّه مِن غيرِ داعيةِ الهُدَى، و(حاذِرْ) مبالغةُ احْذَرْ، فإنَّ المُفاعَلةَ إذا لم تَكُنْ للمُغالَبةِ فهي للمُبالَغةِ، ولذا قيل: معناهُ: احْذَرْ احْذَرْ.

وولّاه: جَعَلهُ والياً، وقلَّدهُ الوِلايةَ، وتَوَلَّى الأمرَ: تَقَلَّدَهُ والْتَزمهُ وصار والياً عليه، و(ما) شرطيّةٌ زَمَانيَّةٌ أو عُمُوميَّةٌ، وقيل: موصولةٌ، وصحَّحهُ العِصَاميُّ.

أَصْمَى الصَّيدَ: قَتَلهُ في مكانهِ الذي ضربهُ فيهِ، ووَصَمهُ: جَعَلهُ ذا عيبٍ.

وبينَ (يُصْمِ) و(يَصِم) تجنيسٌ خطِّيٌّ، وهو صَنيعٌ بَدِيعيٌّ.

والمعنى: إذا عَرَفْتَ أنَّ النَّفْسَ منبعٌ[2] للمفاسدِ العِظَام، وهي قابِلةٌ لقطعِها عنها بالفِطام، فامْنَعْها عن هَوَاها، وغيِّرْها عن مُشْتَهاها، واحْذَرْ كلَّ الحذرِ أنْ تجعلَ الهوَى أميراً على مملكةِ عَقْلِكَ وحِصْنِ قلبكَ، فإنَّه داعٍ إلى الضَّلالةِ والخَسارة، غيرُ صالحٍ للحكومةِ والإمَارة؛ لأنَّ الهوَى إذا اسْتولَى وخالفَ المولَى، يُهلكُ في الحالِ بسوءِ المآل، أو يَعِيبُكَ بالإضلال بقبيحِ الأعمال، وهذا المعنَى مأخوذٌ مِن قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، فإنَّه إنْ أُريدَ بنسيانِ يومِ القيامةِ عدمُ الاعتقادِ بحقيقتهِ فهو ضلالةٌ حقيقيَّة، وإنْ أُريدَ به عدمُ العملِ بمُقتَضاهُ فهو ضلالةٌ إضافيَّة.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي. انظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص ٢٠٦).

(٢) في «د»: «كان منبعاً».

ولـمَّا فَرَغَ عن بيانِ قابليَّةِ النَّفْسِ بالتربيّةِ، شَرَعَ في بيانِ التَّخليَةِ المتقدِّمةِ على التَّحليَة، ومِن المعلومِ أنَّ رياضةَ النَّفْسِ مَنْعُها هواها، وجَبْرُها على طاعةِ مَوْلاها، والأوَّلُ زهدٌ وتَبَرٍّ، والثاني عبادةٌ وتولٍّ، ولذا قال:

٢٠ ـ وراعِها وهي في الأعمالِ سائِمَةٌ وإنْ هي اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فلا تُسِمِ

المراعاةُ: المراقَبةُ، وسامَتِ الماشيَةُ: إذا رَعَتْ، والإسَامةُ: إخراجُها إلى المَرْعَى، واستَحْلَى الشَّيءَ: عدَّهُ حُلْواً، وأرادَ بالأعمالِ: الصَّالحاتِ، فكأنَّ السَّيِّئاتِ لخُلُوِّها عن النَّفْعِ ليستْ بأعمالٍ، وبالسَّوْمِ فيها: الاشْتِغالَ بها، وبالمَرْعَى: النَّوَافلَ لا الواجباتِ والـمُسْتحَبَّات، فإنَّهما لا يَسْتوجِبانِ التَّرْكَ بالاستَحْلاءِ.

والمعنى: راعِ النَّفْسَ وراقِبْها حالَ اشْتِغالِها بصالِحِ أعمالها، فَضْلاً عن بقيَّةِ أحوالِها، وازْجُرْها إذا عَمِلتْ بالنَّوافلِ على طريقِ العادَةِ الإلْفيَّة، مِن غيرِ إخلاصِ نيَّة، وحضورِ طَوِيَّة، فإنَّ العادَةَ غيرُ العِبادة، ولذا قيل: الإرادةُ تركُ العادة.

وقيل: المعنى: راقِبِ النَّفْسَ في أثناءِ العبادة، حتَّى لا تَجْريَ مَجْرَى العادة، بتَرْكِ أركانها وشرائطِها، وسُنَنِها وآدابِها، أو لا تَفْسُدَ بمُفسِداتِها الدَّاخِلةِ فيها والخارجةِ مِنها؛ مِن العُجْبِ والرِّياء، والغُرورِ والخُيَلَاء، واستِجْلابِ حُطامِ الدُّنيا، وإنِ اكْتَفتِ النَّفْسُ بظاهِرِ عبادَتِها، ولَمْ تُبالِ بفسادِ صُورتِها، أو معناها ومَرْتَبَتِها، فازْجُرْها فإنَّها ليستْ بعبادة، بل هي مَحْضُ عادَة، ولهذا المعنَى قيل: صاحبُ الوِردِ مَلعونٌ[1].

ويمكنُ أنْ يُجعلَ هذا البيتُ خِطاباً للعارِفِ الذي يَفهمُ الـمَعارِف، ويُقالَ: اعْمَلْ صالحاً ولا تُلاحِظْ في عملِكَ؛ لتَحْظَى بالوصولِ إلى أَمَلِك، وإنْ تَبَجَّحتِ

---

(١) قال المؤلف في «المرقاة» (٣/ ٢٨٠): «محمول على المرائي». وقال في «الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة» (ص ١٥٩): «باطل لا أصل له». قلت: التوفيق بين كلاميه: أن المراد بالبطلان كونه مرفوعاً، وبالتأويل حملا على المرائي كونه من أقوال القوم، ومع ذلك ففيه مبالغة لا داعي لها.

النَّفْسُ بتزيُّنِها بزينةِ الأعمال، أو تعجَّبتْ بحِلْيَةِ الأحوال، فازْجُرْها فإنَّ وراءَ الأعمالِ والأحوالِ حصولَ الكَمَال، وهو حقيقةُ الوِصال، رَزَقَنا اللهُ المهيمِنُ الـمُتَعال.

٢١ ـ كَمْ حَسَّنَتْ لَـذَّةً للمَـرْءِ قاتِلَةً   مِن حيثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السَّـمَّ في الدَّسَمِ

تعليلٌ لقولِهِ: (فلا تُسِمِ)، و(كَمْ) خبَرِيَّةٌ منصوبةُ الـمَحَلِّ على الـمَصدرِيَّةِ أو الظَّرْفيَّةِ؛ أي: كثيراً مِن التَّحسيناتِ[١] أو المَرَّات، وهي متعلِّقةٌ بـ (حَسَّنَتْ) أو (لَذَّةً) على سبيلِ التَّنازُعِ، أو (قاتلةً).

و(حيثُ) في الأصلِ بمعنَى المكانِ، فاستُعيرَ في مَقامِ التَّعليلِ بمعنَى الجهةِ.

و(السُّمّ) بتثليثِ السِّينِ، لكنَّ الرِّوايةَ هنا بالفتح للمُناسَبةِ، ومعنى حَسَّنهُ: جَعَلهُ حَسَناً، أو: نَسَبهُ إلى الحُسْنِ، و(للمَرْءِ) مفعولُ (قاتِلةً)، واللَّام للتَّقوِيَةِ.

والمعنـى: إنَّ النَّفْـسَ أَمَّـارةٌ غَـدَّارةٌ خَدَّاعةٌ مَـكَّارةٌ، فكثيراً مّا خَدَعـتِ المرءَ، وحسَّـنَتْ فـي باصِرَتـهِ مـا يُفسِـدُ فِطـرةَ بَـهْجتهِ، فانْخَـدَعَ بخُرافاتهـا، واسْتَحْسَـنَ الـمُهْلِكاتِ مِـن آفَاتِــها، فانْصَرَعَ فَجْـأة؛ لتَناوُلِ سُـمِّها فَلْتَة، إذ لذَّةُ الدَّسَـم، أَخْفَتْ طَعْـمَ السَّـم، فلَـمْ يَـدْرِ ضُـرَّهُ، وصـادَفَ شَـرَّهُ، وفيه إشـارةٌ إلـى قولـهِ تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وفي البيتِ لَطيفةٌ؛ وهي: أنَّ لفظَ (سَمّ) مذكورٌ في (الدَّسَم)، كما قيل في قوله عليه السلام: «السَّفَرُ قِطْعةٌ مِن سَقَر»[٢]، يعني: بزيادةِ نقطةٍ في (سَقَر)، أو بزيادةِ القافِ على الفاءِ بحسابِ الجُمَّلِ، وإلَّا فمعناهُ: أنَّ السَّقَرَ[٣] نوعُ عذابٍ مِن أنواعِ جهنَّمَ، فإنَّ مِن جملةِ أنواعِها الصَّعودَ، وهو جبلٌ عظيمٌ مِن نارٍ يُكلَّفُ الجَهَنَّميُّ بالطُّلوعِ والنُّزولِ

---

(١) في «ل»: «التحسنات».

(٢) لا أصل له كما في «كشف الخفاء» (١/ ٥٤٩)، والصواب: «السفر قطعة من العذاب»، كما رواه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧)، من حديث أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه.

(٣) في «ل»: «السفر».

مُنْضمّاً إلى بقيَّةِ أنواعِ العقابِ، وبهذهِ المعاني يَظهرُ أنَّ عكسَهُ لا يُفيدُ هذه الإفادَةَ، وإنْ كان يُفيدُ نوعَ مُبالَغةٍ غيرِ مُطابِقةٍ في الخارجِ بحسَبِ العادةِ، ونظيرُه: العِيَادةُ أفضلُ مِن العِبَادة، واللهُ أعلمُ.

ثُمَّ بيَّنَ أنَّ النَّفْسَ كما تُراعَى في العِباداتِ، كذلكَ تُراقَبُ ولا تُلاحَظُ في المُباحات، التي لا بدَّ للسَّالكِ مِنها في الحالات، فقال:

٢٢ ـ واخْشَ الدَّسَائسَ مِن جوعٍ ومِن شِبَعٍ ... فَرُبَّ مَخْمَصةٍ شرٌّ مِن التُّخَمِ

أي: اتَّقِ المكائِدَ الخبيثةَ والرَّذائلَ الخَفِيَّةَ الحاصلةَ مِن الجوعِ والشِّبَعِ مَثَلاً، فإنَّ في معناهُما السَّهرَ، والنَّومَ، والسُّكوتَ، والكلامَ، والعزلةَ، والخلطةَ، والفقرَ، والغِنَى، والعُزوبةَ، والتَّزوُّجَ، ففي كلٍّ مَنافعُ ومَضَرَّات، وفوائدُ وبَلِيَّات، فكثرةُ الأكلِ والشُّربِ تُوْرِثُ المَصائبَ في الدُّنيا والمَعائبَ في العُقْبَى، فإنَّها جالِبةٌ لأدواءِ الجسدِ الذي هو مَرْكَبُ رُوحِ السَّالِك، ولخَسارةِ النَّفْسِ وإيقاعِها في المَهالِك[1]، وبها تَحدُثُ كثرةُ النَّومِ المُقْتضيَةُ للكسل، وتضييعِ العُمرِ وقَساوةِ القلبِ وغَفْلتهِ ومَوتهِ بطولِ الأَمل، وقلَّةُ الأكلِ والشُّربِ سببٌ لحِدَّةِ المِزَاج، وسوءِ الخُلُقِ بلا عِلَاج، وذُبولِ النَّفْسِ والمَلَال، والكَلَالِ في تحصيلِ الكمال، فعليكَ في الاغْتِذاءِ بالاعْتِدال، فإنَّ الأطرافَ رذائلُ والأوساطَ فضائلُ، وهذا المعنَى مأخوذٌ من قولهِ تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ﴾ [الأعراف: ٣١]، ونِعْمَ ما قال مَن قال: جَمَعَ اللهُ الطِّبَّ ـ أي: الصُّوريَّ والمعنويَّ ـ في نصفِ الآيةِ.

وإنَّما قال: (فرُبَّ مَخْمصةٍ)؛ أي: شدَّةَ مَجاعةٍ (شرٌّ مِن التُّخَم): جمعُ تُخَمةٍ، وهي عدمُ انْهضامِ الطَّعامِ في المَعِدة، مع اشْتِعالهِ على صاحبهِ وتَعَفُّنهِ فيها وإيذائه، والمرادُ: شدَّةُ الشِّبَعِ، فإنَّ العربَ والحكماءَ تتمادَحُ بقلَّةِ الأكلِ والشُّربِ وتَتَذامُّ

---

(١) في هامش «د»: «يا مالك الممالك نجنا من المهالك، أنت الملك الباقي وكل شيء هالك».

بكثرتِهِ؛ لأنَّ قلَّتَهُما دليلٌ على القناعةِ ومِلْكِ النَّفْسِ وقَمْعِ الشَّهوةِ، وسببٌ للصِّحةِ، وباعِثٌ لصفاءِ الخاطرِ وحِدَّةِ الذِّهْنِ، وكثرتَهما دليلٌ على الحرصِ والشِّدَّةِ وغَلَبَةِ الشَّهوةِ وغيرِها ممَّا تقدَّمَ.

فيُتَوَهَّمُ في بادئِ الرَّأيِ أنَّ الجوعَ لا يكونُ فيهِ شرٌّ، ثُمَّ بدقَّةِ النَّظرِ يُعرفُ أنَّ فيه شروراً أيضاً، فدَفَعَ الوَهْمَ وأزالَهُ، وقرَّرَ الحق وأَجْلَى حالَهُ، و(رُبَّ) للتَّقليلِ، وقد يكونُ للتَّكثير.

ثُمَّ قال تحريضاً على التَّوبة، وتَحْضيضاً على الأَوْبة:

٢٣ـ واسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِن عينٍ قدِ امْتَلأَتْ   مِـن المَحَـارِمِ والْـزَمْ حِمْيَـةَ النَّـدَمِ

الاستفراغُ في علمِ الطِّبِّ: علاجُ الامْتِلاء، والحِمْيَةُ بمعنَى الاحْتِمَاء، والإضافةُ بيانيَّةٌ؛ أي: الاحْتِماءَ الذي هو النَّدَمُ، وقيل: بمعنَى: مِن؛ أي: الاحْتِماءَ الحاصلَ مِن النَّدَمِ النَّاشِئَ منه.

و(الـمَحَارِم): جمعُ مَحْرَمٍ بمعنَى حرامٍ، وامتلاءُ العينِ من الـمَحَارِمِ كنايَةٌ عن ارتكابِ كثرةِ الـمَنَاهِي، والالْتِذاذِ بالشَّهَواتِ والـمَلَاهي.

والمعنى: إنْ كانتِ امْتلأَتْ مَعِدَتُكَ المعنويَّة، بالأخلاطِ الفاسدةِ الرَّدِيَّة، ففَرِّغْ عن مَدخلِ عينِكَ الحِسِّيَّة، دمعَ النَّدامةِ لارْتكابِ الأمورِ الـمَنْهيَّة، ثُمَّ الْتَزِمِ الاحْتِماءَ الذي هو النَّدَمُ، فإنَّه الأصلُ في التَّوبة، وعليهِ الـمَدَارُ في الأَوْبة، ولذا قال صلى اللهُ تعالى عليه وسلم: «النَّدَمُ تَوبة»[1]، كما قال: «الحجُّ عَرَفة»[2]، وإنْ كان لكلٍّ منهما أركانٌ أُخَرُ، وكلٌّ منهُما في حقيقةِ كلٍّ منهما مُعْتَبـر؛ لأنَّ النَّدامةَ إذا حَصَلتْ تَستلزِمُ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) من حديث ابن مسعود رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٩٠٤)، وابن ماجه (٣٠١٥)، من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي رضِيَ اللهُ عنه.

بقيَّةَ أركانِ التَّوبةِ غالباً؛ مِن قَلْعِ المعصيةِ في الحال، ومِن العزمِ على عَدَمِ العَوْدِ في الاستقبال، وما يَتْبعُها مِن أداءِ حُقوقِ الملكِ الـمُتعال، ومِن قضاءِ حقوقِ العِبَاد ولو بالاستِحْلال.

وفي البيتِ إشارةٌ إلى أنَّ صَبَّ العَبَراتِ يضعُ السَّيِّئات ويَرفعُ الدَّرَجات، وإيماءٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، وفي[1] قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠] لمن له اليوم عينان بالدمع تجريان، وما أحسن من قال من أرباب الحال:

وكيفَ تَرَى ليلَى بعينٍ تَرَى بها ... سِوَاها وما طَهَّرْتَها بالمَدَامِعِ[2]

وقال آخَرُ:

طهِّرِ العَيْنَ بالمَدَامِعِ سَبْعاً ... مِن شُهودِ السِّوَى تَزُلْ كُلُّ عِلَّه

ثم قال مشيراً إلى مَقامِ المُجاهَدَة؛ للوصولِ إلى مَرْتبةِ الـمُشَاهَدة:

٢٤ ـ وخالِفِ النَّفْسَ والشَّيطانَ واعْصِهما ... وإنْ هما مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ

يعني: قد عَرَفْتَ وُلوعَ النَّفْسِ في هَوَاها، وحِرْصَها ومُبالَغتَها في مُشْتَهاها، ولها مُعِينٌ يَحثُّها على تحصيلِ مُراداتِها، ويُزيِّنُ لها مَقصوداتِها، وهو الشَّيطانُ، الذي له على غيرِ التَّائبِ سلطان، فهُما عَدُوَّاك فيما أَمَراكَ ونَهَياك، وأَعْدَى عَدُوَّيك: نَفْسُكَ التي بين جَنْبَيك، فإنَّ اللصَّ الدَّاخِلَ بداءٍ عُضال، لا يُمْكِنُ الاحْتِرازُ عنهُ بحال، ولأنَّها عدوٌّ محبوبٌ، وعيبُ المحبوبِ مستورٌ ومَحْجوب، ففي الحديثِ: «حبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ»[3]، وقال الشَّاعر:

---

(١) في «د»: «وقيل في».

(٢) البيت ليزيد بن معاوية كما في «وفيات الأعيان» (٤/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥).

(٣) تقدم تخريجه عند شرح البيت الحادي عشر.

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... ولكنَّ[1] عينَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا[2]

ولأنَّها المَطِيَّةُ في الوصولِ إلى مَقامِ حصولِ المأمول، فلا يُمْكِنُ مخالفتُها بالمرَّةِ وإلَّا تُذِلُّكَ، ولا مُوافَقَتُها فتُضِلَّكَ، فإنْ سَمَّنْتَها تأكُلْكَ، وإنْ جوَّعْتَها تَخْذُلْكَ، فعليكَ بالاعْتِدال؛ لتُوْصِلكَ إلى منزلِ الوِصال، وأمَّا الشَّيطانُ فعدوٌّ لا[3] صُلْحَ معه؛ إذْ هو مجبولٌ على عَدَاوتِك، وموكولٌ إلى ضَلالتِك، فتَشَمَّرْ لمُحارَبتِهِ، واجْتَهِدْ في مُخالَفتِهِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قال بعضُهم: اسْتَعِذْ باللهِ مِن شرِّهِ، فإنَّهُ كلبٌ سُلِّطَ عليك، فارْجِعْ إلى ربِّه، فإنَّه تعالى قادرٌ على صَرفِهِ ومَنعه.

وقال بعضُهم: جاهِدْ وحارِبْ.

وقال الغزاليُّ: اجْمَعْ بينَهما، فإنْ نَجوْتَ بالاستِعاذةِ فبِها، وإنْ تَغَلَّبَ عليكَ فجاهِدْ بعونِ ربِّها.

يعني: خالِفْهُما في أمرِهما واعْصِهِما في نَهْيِهِما، وإنْ أَتَياكَ بمحْضِ النُّصْحِ صورةً فانْسُبْهُما إلى الغدرِ والخيانةِ، والمكرِ والحيلةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

واسمعْ حكايتينِ لَطيفتينِ روايتينِ ظَريفتينِ:

---

(١) كتب فوقها في «د»: «كما أن»، ومثله في هامش «ل»، وقد ورد البيت في المصادر باللفظين.

(٢) البيت لعبد بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، كما في كتاب «الحيوان» للجاحظ (٣/ ٤٨٨)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٢٨٣)، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٨٢).

(٣) في «د»: «فعدو ولا»، وفي «ل»: «فعدوك لا»، والمثبت هو الأنسب بسياق الكلام.

إحداهُما: حكاها الـمَوْلويُّ الرُّوميُّ في كتابه «المثنوي»[1] المعنوي: أنَّ معاويةَ خالَ المؤمنينَ كانَ نائماً عندَ الصَّباحِ، فجاءَ الشَّيطانُ وقال: حَيَّ على الفَلاحِ، ففَطِنَ معاويةُ لـمَكْرِهِ وغَدْرِهِ في ظهورِهِ وأَمْرِهِ، فقال: أنتَ ما تأمُرُ إلَّا بالمعصيَةِ، فكيف أَمْرُكَ لي بالطَّاعة؟! فتعلَّلَ بعِلَلٍ لَمْ يَلتفِتْ إليها، ولا يُـمْكنُ أنْ يُقِرَّ العاقلُ عليها، فقال معاويةُ: لا بدَّ لك مِن إظهارِ سببِ هذا الأمرِ العجيب، فإنَّه مِنْ مْثلِكَ غريبٌ أيُّ غَريب! فقال: نَعَمْ، فاتَكَ الصُّبحُ يوماً مِن الأيامِ، بسببِ الـمَنامِ عن صلاةِ الجماعةِ مع سيِّدِ الأَنَام، فندِمْتَ على ما فاتَ، وتحسَّرْتَ عليهِ في الأَوْقات، فكُتِبَ لكَ أضعافُ ما كنتَ تَلحَقهُ مِن الطَّاعات، فخِفْتُ أنْ تنامَ عن الصَّلاةِ مرَّةً أُخرى، فيَحْصُلَ لك زيادةُ المَثوبةِ في الأُخرى.

وثانيتُهما: ما ذكره الغزاليُّ في «منهاجِ العابِدِين»: لقد بَلَغَنا عن بعضِ الصَّالحينَ يقالُ له: أحمدُ بنُ أَرْقمَ البَلْخيُّ، أنَّه قال: نازَعَتْني نَفْسي بالخروجِ إلى الغزوِ، فقلتُ: سُبحانَ اللهِ! إنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وهذه تأمُرُني بالخيرِ، فلا تكونُ هذه أبداً، ولكنَّها استَوْحَشَتْ فتريدُ لقاءَ النَّاسِ لتَسْتَرْوِحَ إليهِم، ويَتَسامعَ النَّاسُ بها فيَستقبِلونَها بالتَّعظيم، والبِرِّ والتَّكريم، فقلتُ لها: لا أُنْزِلُكِ العُمْرانَ، ولا أُنْزِلُكِ على ذي مَعْرفةٍ، فأجابَتْ، فأَسَأْتُ الظنَّ بها وقُلْتُ: اللهُ تعالى أصدقُ، فقَلْتُ لها: أُقاتِلُ العدوَّ حاسِراً ـ أي: بلا سلاحٍ ـ فتكونينَ مِن أوَّلِ قتيلٍ، فأجابَتْ، فأَسَأْتُ الظنَّ بها..، وعَدَّدَ أشياءَ ممَّا أرادَها، فأجابَتْ إلى ذلك كلِّه.

قال: فقُلْتُ: يا ربِّ! نبِّهْني لها فإنِّي مُتَّهِمٌ لها ومُصدِّقٌ لك، فكُوشِفْتُ كأنَّها تقولُ: يا أحمدُ! أنتَ تقتُلُني كلَّ يومٍ بمنعِكَ إيَّايَ مِن شَهَواتي مَرَّاتٍ، وبمخالَفَتِكَ لي

---

(١) «المثنوي» لجلال الدين محمد بن محمد البلخي ثم القونوي. انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١٥٨٨).
وقد ولد في بلخ، وقضى أكثر حياته في قونية، وهي من المدن التركية، فلذلك يقال له أيضاً: الرومي، أما المولوي فلعلها من كلمة: مولانا. توفي سنة (٦٧٠هـ).

ولا يَشعُرُ به أحدٌ، فإنْ قاتَلْتَ قُتِلْتُ مَرَّةً واحدةً فنَجَوْتُ منكَ، ويَتسامَعُ النَّاسُ فيُقالُ: استُشْهِدَ أحمدُ، ويكونُ لي شرفٌ وذِكْرٌ.

قال: فقعدْتُ ولَمْ أَخرجْ إلى الغزوِ في ذلك العامِ[1].

فانْظُرْ إلى خِداعِ النَّفْسِ وغُرورِها تُرائي النَّاسَ بعدَ الموتِ بعملٍ لَمْ يكنْ بعدُ، ولقد أَحْسنَ مَن قال:

تَــوَقَّ نَفْسَــكَ لا تَأْمَــنْ غَوَائِلَهــا ... فالنَّفْسُ أخبثُ مِن سَبعينَ شيطاناً

ولهذا قدَّمَها عليهِ ثُمَّ أكَّدَ الأمرَ السَّابقَ، فقال:

٢٥ ـ ولا تُطِعْ منهُما خصماً ولا حَكَماً ... فأنتَ تَعرِفُ كيدَ الخَصْمِ والحَكَمِ

(منهما) حالٌ مِن المفعولِ، والضَّميرُ للنَّفْسِ والشَّيطانِ، والفاءُ تعليليَّةٌ، وفي نسخةٍ بالواوِ والجملةُ حاليةٌ[2]، واللامُ للعهدِ الخارجيِّ، كذا قيل، والأظهرُ أنَّها للجِنْس، والخَصْمُ مَن يَظهرُ كونُه مِن جهتِهما، ويُروِّجُ لبَهْرجَتِهما، والحَكَمُ مَن يُبطِنُ ذلك، ويَستَدْرِجُ ليُوْقِعَ في المَهالِك.

والمعنى: لا تُطِعْ أحداً تَعْرِفُ كونَهُ مِن جهةِ النَّفْسِ والشَّيطان، خَصْماً كانَ أو حَكَماً، مِثْلَ المُبْتدِعةِ المُظْهِرةِ والفَسَقةِ المُتَستِّرة، فإنَّ قولَ كلٍّ مَكْرٌ وتلبيس، وفِعْلَه كيدٌ وتَدْليس، فإنَّ مُحِبَّ العدوِّ عدوٌّ، ومُبْغِضَ الحبيبِ إبليسُ، قال الشَّاعرُ:

تَــوَدُّ عَــدُوِّي ثُــمَّ تَزْعُــمُ أَنَّنــي ... صديقُكَ ليس النَّوْكُ عنكَ بعازِبِ[3]

أي: ليس الحماقةُ عنكَ ببعيدٍ عندَ القريبِ والبعيدِ.

---

(١) قد يقال: أهو الذي خالف نفسه بتركه الجهاد في ذلك العام، أم هي التي خدعته بمنعه من أمر يعد من أعظم القربات إلى الله؟

(٢) في «ل»: «وفي نسخة بالواو الحالية»، والمثبت من «د» والمعنى واحد.

(٣) البيت لبشار بن برد، وهو في «ديوانه» (١/ ٣٦٤).

وفي البيتِ إيماءٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أو إشارةٌ إلى قولِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في مَعْصيَةِ الخالِقِ»[1].

ولمَّا رأى العاقلُ الصَّادق، النَّاصحُ للعاشق، أنَّه بنَفْسِهِ متلوِّثٌ بالـمَنَاهي، ومُتلبِّسٌ بالمَلَاهي، وقد قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، والأمرُ بالمعروفِ مِن غيرِ العامِلِ وإنْ كان حَسَنةً، لكنَّه بحسَبِ العُرفِ الظَّاهرِ سيئةٌ = أنابَ إلى الله، وتابَ عمَّا سواه، وقال:

٢٦ ـ أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِن قولٍ بلا عَمَلٍ ... لقد نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذِي عُقُمِ

النَّسْلُ: الولدُ، والعَقَمُ ـ كالفَرَسِ ـ والعُقْمُ: عَدَمُ النَّسْلِ، يريدُ أنَّ نِسبةَ الولدِ إلى مَن ليس لهُ ولدٌ زُورٌ وبَهْت، فكذا نسبةُ الفضلِ والعَملِ إلى غيرِ أهلِهما كَذِبٌ بَحْت.

وبيانُه: أنَّ ظاهرَ حالِ الآمِرِ أنَّه مُؤْتَمِرٌ، فكأنَّه نَسَبَ إلى نَفْسِهِ أنَّه بالعملِ مُتأثِّرٌ، أو كأنَّهُ ادَّعَى أنَّ هذا الحالَ ثابتٌ له على هذا المنوال، والحالُ أنَّ فِعالَهُ تُخالِفُ الأقوال، فيكونُ كاذباً فيما ادَّعاهُ مِن المَقال[2].

ثُمَّ بيَّنَ أنَّ قولهُ بلا عَمَل، وأمرَهُ لغيرِه لا يَخْلُو عن زَلَل، فقال:

---

(١) رواه بهذا اللفظ: البزار في «مسنده» (١٩٨٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. ورواه البخاري (٦٨٣٠)، ومسلم (١٨٤٠)، من حديث علي رضي الله عنه بلفظ: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف».

(٢) في هامش «د»: «وحاصل معنى الكلام: استبعاد هذه الحالة، يريد أنه مضيع عمره فيما لا يعنيه، وتارك لما يعنيه؛ لأنه يقول ما لا يفعل، وإليه أشار رئيس الطائفة حيث قال: ويل للقائلين بالحق العاملين بالباطل، ادعوا في الدنيا منازل المقربين، ونزلوا في الأخيرة منازل المجرمين. مصنفك».

٢٧ ـ أَمَرْتُكَ الخيرَ لكنْ ما ائْتَمَرْتُ به وما اسْتَقَمْتُ فما قولي لكَ اسْتَقِمِ(١)

(ما) في الأوَّلَيْنِ نافيَةٌ، وفي الثَّالثِ استفهاميَّةٌ، و(الخيرَ) منصوبٌ بنَزْعِ الخافِضِ، كذا قالهُ أكثرُ الشُّرَّاحِ، ويَدُلُّ عليهِ قولُ البيضاويِّ في قولهِ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤] مِن أنَّ حذفَ الجارِّ مِن ﴿أَنْ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مِن المطَّرِدِ مع (أنَّ) و(أنْ)، وأنْ يكونَ مِن غيرِه؛ كقولهِ:

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافْعَلْ ما أُمِرْتَ بهِ(٢)

وقال المحلِّيُّ: (أمر) يتعدَّى إلى اثنينِ، ثانيهما بنَفْسهِ تارةً وبالباءِ أُخرى، والاستعمالانِ في البيتِ، انتهى. وكأنَّهُ نَظَرَ إلى ظاهرِ الاستعمال، واللهُ أعلمُ بالحال، وعَنَى أنَّهُ يُستعمَلُ تارةً بحذفِ الباءِ وتارةً بإثباتِها.

والمرادُ بالأمرِ: ما يَعُمُّ الأمرَ والنَّهْيَ، والخيرُ: ما له عاقبةٌ حَميدةٌ، والاستِقامةُ: الثَّباتُ، والإقامةُ على الطَّاعةِ والعبادةِ، وامْتِثالِ الأوامرِ واجْتنابِ الزَّواجِرِ.

يعني: هذا القولُ مِنِّي ليس له حقيقةٌ، وإنَّما هو مجرَّدُ صورةٍ، وحينئذٍ لا يكونُ له تأثيرٌ ونفعٌ كبيرٌ، ولذا قيل: عِظْ نَفْسَكَ، فإنِ اتَّعَظْتَ فعِظِ النَّاسَ، وإلَّا فاسْتَحِ. ويقالُ:

طبيبٌ يُداوِي النَّاسَ وهو مريضٌ(٣)

٢٨ ـ ولا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الموتِ نافِلَةً ولَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ ولَمْ أَصُمِ

---

(١) في هامش «ل»: «إن ثبتت للنفس الاستقامةُ فتلك عين الكرامة».

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١٢٥). والبيت في «الكتاب» (١/ ٣٧)، و«خزانة الأدب» (١/ ٣٣١)، واختلف في نسبته، قال البغدادي: نسب لعمرو بن معدي كرب، وللعباس بن مرداس، ولزرعة بن السائب، ولخفاف بن ندبة. وعجزه:

فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

(٣) وصدره كما في «المرقاة» (٩/ ٣٢٦):

وغيرُ تقيٍّ يأمرُ الناسَ بالتُّقى

التَّزَوُّد: طَلَبُ الزَّادِ وأَخْذُه عندَ التَّوجُّهِ إلى المرادِ، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ الدُّنيا مَعْبَرة، والنَّاسُ عليها عَبَرة، وأكثرهُم بلا عِبْرَة، فلا بدَّ مِن تحصيلِ الزَّادِ ليَصِلَ السَّالكُ المُريدُ إلى المُرادِ.

والنَّافلةُ في اللُّغةِ مُطْلَقاً: الزِّيادةُ، وفي الاصْطِلاح: الطَّاعاتُ الزَّائدةُ على الفَرائِضِ والسُّنَنِ المؤكَّدةِ، فكما أنَّ الزَّادَ وُصْلةٌ إلى قُرْبِ المَقْصِدِ في السَّفرِ الدُّنْيويِّ، فكذا النَّافلةُ وسيلةٌ إلى حيثُ المقصودُ الأصليُّ في السَّيرِ المعنويِّ، ففي الحديثِ القُدْسيِّ: «لا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ... وبَصَرَهُ...» الحديثَ[1].

والمعنى: ما جَعَلتُ شيئاً مِن النوافلِ زادَ السَّفرِ قبلَ الموتِ، ولا تَهيَّأتُ للوصولِ إلى مراتبِ الكمالِ قبل الفَوْتِ، واقتَصَرْتُ مِن قُصورِ هِمَّتي على فرضِ الصَّلاةِ والصِّيام، وما قُمْتُ بحقِّ العُبوديَّةِ حَقَّ القِيَام، بزيادةِ النَّوافلِ في اللَّيالي والأيَّام.

ثُمَّ انْتقَلَ مِن التَّشبيبِ إلى مَدْحِ الحبيبِ، فقال بلا وَصْلِ عَطْفٍ، مُشيراً إلى فَصْلِ لُطْفٍ:

٢٩ ـ ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَن أَحيا الظَّلامَ إلى ... أَنِ اشْتكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِن وَرَم[2]

الظُّلْمُ: وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِهِ، والمرادُ منهُ هُنا: التَّركُ. والسُّنَّةُ: الطَّريقةُ المَرْضِيَّةُ. والظَّلامُ[3]: ذَهابُ النُّورِ، يُرادُ به اللَّيلُ بذِكْرِ اللَّازمِ وإرادةِ المَلْزومِ، وإحْياؤُه: تركُ النَّومِ مُشتغِلاً بنوعِ عبادةٍ فيه، فإنَّ النَّومَ أخو الموتِ، واليَقَظةَ كالحياةِ، والإيقاظَ كالإحياءِ، فتنبيهُ النَّفْسِ مِن النَّومِ كإحيائِها، وفي الحديثِ: «الحمدُ للهِ الذي أَحْيانَا بعدَما أَمَاتَنا»[4].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) في هامش «ل»: «الفصل الثالث في ذكر المدائح والدخول».

(٣) في «د»: «والظلام بالفتح».

(٤) رواه البخاري (٦٣١٢) من حديث حذيفة بن اليمان رضِيَ اللهُ عنه. ورواه البخاري أيضاً (٦٣٢٥) =

والمرادُ مِن شِكايَةِ القَدَمينِ المكرَّمينِ: دَلالَتُهُما على الوَجَعِ النَّاشئِ مِن العَوَارِضِ البشريَّةِ والأمورِ الحِسِّيَّةِ، وأمَّا الرُّوحُ فكانَتْ مُتَلذِّذةً بالرَّاحةِ المعنويَّة، ومُطْمئنَّةً بالحالاتِ والمقاماتِ الأُنْسيَّةِ القُدْسيَّة، والعِبرةُ بالأحوالِ الباطِنيَّة، لا بالأعضاءِ الظَّاهريَّة، ولذا قال ﷺ: «ليس الغِنَى عن كثرةِ العَرَضِ، إنَّما الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[١].

و(الضُّر) بالضَّمِّ ويُفتحُ، منصوبٌ بنزعِ الخافضِ[٢]؛ أي: مِن الضُّرِّ الكائنِ مِن جهةِ الورَمِ.

والمعنى: تركتُ سُنَّةَ مَن أَحْيا اللَّياليَ بذِكرِ اللهِ تعالى ومُناجاتِه، والقيامِ بأنواعِ طاعاتِه، حتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَماه، ولا يَتركُ عبادةَ مولاه، فقيل لهُ: أتتكلَّفُ هذا وقد غُفِرَ لكَ ما تقدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تأخَّر؟ فقال: «أَفَلَا أكونُ عبداً شكوراً»، رواه البخاريُّ ومُسلمٌ[٣].

فإذا كانَ صلى الله تعالى عليه وسلم مع عُلُوِّ حالِهِ ورِفْعةِ كمالِهِ قامَ بهذا المَقام، وصلَّى والنَّاسُ نِيَام، فكيف يَصْلُحُ لسائرِ الأَنَام، أنْ يرقُدوا طُولَ اللَّيالي كالأنعام، وقد قيل: للعابِدِ في اللَّيلِ أَجْرانِ على الطَّاعة: أجرُ تَرْكِ النَّومِ والرَّاحةِ، وأجرٌ لتَحَمُّلِ العبادة.

وقد ورد: الأجرُ على قَدْرِ المَشَقَّة[٤].

= من حديث أبي ذر رضِيَ اللهُ عنه، ومسلم (٢٧١١)، من حديث البراء بن عازب رضِيَ اللهُ عنه.

(١) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١)، من حديث أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) فعل «اشتكى» يتعدى بنفسه، فلا داعي للقول بنزع الخافض هنا. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: شكا).

(٣) رواه البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رضِيَ اللهُ عنه.

(٤) وهذا غير لازم في كل حالة على قول بعض العلماء، واستدل لذلك بفضل كلمة الشهادة ـ مع سهولتها ـ على كثير من العبادات الشاقة. انظر: «فتح الباري» (٢/ ٣٢٨).

ولـمَّا ذَكَرَ عبادتَهُ صلى الله تعالى عليه وسلم، التي هي الوسيلةُ إلى الدَّرجاتِ العُلْيَا في العُقْبَى، أشارَ إلى مَقامِ زُهْدِهِ في الدُّنيا، واختيارِ الرِّياضةِ في مَرْضاةِ المَوْلَى، وقال:

٣٠ ـ وشَدَّ مِن سَغَبٍ أحشاءَهُ وطَوَى تَحْتَ الحِجارةِ كَشْحاً مُتْرَفَ الأَدَمِ

(شَدَّ) عطفٌ على (أَحْيا)، و(مِن) سَببيَّةٌ، و(السَّغَبُ) بفتحتينِ: الجوعُ، والحشَا: القلبُ وما أحاطَ به الجَوفُ، وحَشَا البَطْنِ: أمْعاؤُه، والجمعُ: أحشاءٌ.

وطَوَاه: لفَّهُ، والكَشْحُ: الخَصْرُ، وهو مفعولُ (طَوَى). والـمُتْرَفُ اسمُ مفعولٍ بمعنَى: الـمُفْرِطُ في النُّعومةِ. و(الأَدَم) بفتحتينِ: جمعُ الأَدِيمِ، وهو الجِلْدُ.

يعني: تركتُ طريقةَ مَن ارْتاضَ بالجوعِ حتَّى احتاجَ إلى شَدِّ أحشائِهِ، ورَبْطِ أضلاعِهِ مِن أعضائِهِ، وقد رَبَطَ الحجرَ على خصرِه النَّاعمِ ليستعينَ بثِقَلِ الحجرِ على خِفَّةِ الأَحْشاء، ويستريحَ ببردِهِ مِن حرارةِ باطنِ الأَعْضاء، مع أنَّه سيِّدُ الأَنْبياء، وسَنَدُ الأَوْليَاء؛ لاختيارِ المَوْلَى له الفقرَ على الغِنَى، فإنَّه أَوْلَى لسلوكِ طريقِ العُقْبَى، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦].

وأمَّا قولُه صلى الله تعالى عليه وسلم: «كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كُفراً»[1]، مع نُدْرتِه، إشارةٌ إلى كمالِ مَشَقَّتِه، وعَدَمِ تحمُّلِ كلِّ أحدٍ على مرارتِه، ولذا قال صلى الله تعالى

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٣٦)، وابن الجوزي في «العلل» (١٣٤٦)، من حديث أنس رضِيَ اللهُ عنه. قال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ». لكن قال الزركشي في «التذكرة» (ص ٢٠٩): ومن شواهده ما أخرجه النسائي وابن حبان في «صحيحه» من جهة أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر» فقال رجل: ويعتدلان؟ قال: «نعم». قلت: رواه النسائي (٥٤٨٥)، وابن حبان (١٠٢٦)، من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم به، ودراج في روايته عن أبي الهيثم ضعف كما في «التقريب».

عليه وسلم: «أشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ»[١] مِن الأَصْفِيَاء.

وشَدُّهُ الحجرَ على بطنهِ مِن الجوعِ وقعَ لهُ في حفرِ الخندقِ، رواهُ البخاريُّ عن جابرٍ[٢].

ورَوَى مسلمٌ عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه قال: جِئْتُ رسولَ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم يوماً فوَجَدْتُه جالساً مع أصحابهِ يحدِّثُهم وقد عَصَّبَ بطنَهُ بعصابةٍ، [فقُلْتُ لبعضِ أصحابِهِ: لِمَ عَصَّبَ رسولُ اللهِ ﷺ بَطْنَهُ؟] فقالوا: مِن الجوع[٣]. نقله المحلِّيُّ.

ولمَّا كان في البيتِ الأوَّلِ إشارةٌ إلى صَلاتهِ وعبادتهِ، وفي هذا البيتِ إيماءٌ إلى صومهِ ورياضتهِ، وقد يَتَوهَّمُ مُتوهِّمٌ مِن العَوَامِّ أنَّ[٤] رياضتَهُ كانتِ اضْطِراريَّة، وعندَ الخواصِّ تُعتبرُ الرِّياضةُ الاختِيَاريَّة، أزالَ ذلكَ المَقالَ، فقال:

٣١ ـ ورَاوَدَتْهُ الجِبَالُ الشُّمُّ مِن ذَهَبٍ ... عَـن نَفْسِـهِ فأَرَاهـا أيَّمـا شَـمَمِ

المُراوَدةُ: المُطالَبةُ، والمُفاعَلَةُ إذا لم تَكُنْ للمُغالَبةِ فهي للمُبالَغةِ، و(الشُّمُّ): جمعُ الأَشَمِّ، والشَّمَمُ: الارْتِفاعُ، و(مِن ذهبٍ) صفةٌ أو حالٌ، و(أيَّما شَمَم)؛ أي: شديدَ الارْتفاعِ، مفعولٌ ثانٍ لـ (أَرَاها)، وأصلُه: أنَّ (ما) زائدةٌ للتَّأكيدِ و(أيّ) مضافٌ إلى (شَمَمٍ) وهو مصدرٌ بمعنى الوصفِ؛ أي: مُرتفعاً أيَّ مُرتَفَعٍ، يقالُ: مَرَرْتُ برجلٍ أيِّ رجلٍ؛ أي: كاملٍ في الرُّجوليَّةِ، ثُمَّ استُعْمِلَ المضافُ والمضافُ إليه بمعنى الوَصْفِ المناسِبِ للمَقامِ.

والمعنى: أَعْرَضَ عن الدُّنيا وأَقْبلَ على الـمَوْلَى، وآثَرَ مَتاعِبَ الفقرِ على مناصِبِ الغِنَى، حتَّى إنَّ الجبالَ الشَّامخة مِن الدَّنانيرِ الرَّاسِخة عَرَضَتْ نفسَها عليه،

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضِيَ اللهُ عنه، وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري (٤١٠١).

(٣) رواه مسلم (٢٠٤٠)، وما بين معكوفتين منه.

(٤) في «د»: «أن هذه».

وتَزيَّنتْ بأنواعِ الزِّينةِ لَدَيه، ومالَتْ غايةَ الميلِ إليه، لعلَّه يَرفعُ النَّظرَ عليها، فترَفَّعَ عن الالْتِفاتِ إليها، قال تعالى: ﴿ مَازَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧]، وما ذلك إلَّا بأَمْرِهِ بعدَ قضائهِ وقَدَرِه، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١].

وفيهِ إشارةٌ إلى ما رُوِيَ: أنَّ جبريلَ عليه السَّلامُ قال لهُ: إنَّ اللهَ تعالى يقولُ لكَ: أتُحِبُّ أنْ أَجْعلَ لكَ هذهِ الجبالَ ذهباً وتكونُ معكَ حيثُما كنتَ؟ فأطرَقَ ساعةً ثُمَّ قال: «يا جبريلُ! الدُّنيا دارُ مَن لا دارَ لهُ، ومالُ مَن لا مالَ لهُ، وقد يَجْمعُها مَن لا عقلَ له»، فقال لهُ جبريلُ: ثَبَّتَكَ اللهُ تعالى بالقولِ الثَّابتِ. قال المحلِّي: ذكره صاحب «الشفا» وغيرُه[1].

وفي هذا برهانٌ شافٍ وبيانٌ كافٍ، على فضلِ الفقيرِ الصَّابرِ على الغنيِّ الشَّاكِر، كما أَجمعَتْ عليهِ السَّادةُ السُّنِّيَّة والطَّائفةُ الصُّفِّيَّةُ الصُّوفيَّة، نَفَعَنا اللهُ بأسرارِهم، وجَعَلَنا تابعينَ لآثارِهم، وكأنَّهُ أشارَ إلى معنَى هذا المَقال، مَن قال مِن أربابِ الكَمَال: همَّةُ الرِّجالِ تَهُدُّ الجِبال.

وفيهِ تلميحٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ [يوسف: ٢٣]، وإيماءٌ مَليحٌ إلى مَزيَّةِ فضيلةِ نبيِّنا صلى الله تعالى عليه وسلم حيثُ عَرَضَ عليه المَوْلَى جميعَ الدُّنيا؛ لأنَّ الذَّهبَ وسيلةٌ إلى تمامِ لذَّاتها، وجميعِ شَهَواتها، مع أنَّهُ على وجهِ

(١) انظر: «الشفا» (١/ ١١٣). وهذا الحديث ـ كما ذكر العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠٨٤) ـ ملفق من حديثين: الأول حديث أبي أمامة الذي رواه الترمذي إثر الحديث (٢٣٤٧)، والإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٥٤) (٢٢١٩٠)، بلفظ: «عَرَضَ علي ربي عزَّ وجلَّ لِيَجْعَلَ لي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَباً فقلت: «لاَ يا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْماً وَأَجُوعُ يَوْماً..» الحديث، وإسناده ضعيف، وانظر الكلام عليه في التعليق على «المسند». والثاني حديث عائشة رضِيَ اللهُ عنها الذي رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٧١) (٢٤٤١٩)، ولفظه: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له». وجوَّد إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٨٦).

الإباحةِ، بل بدونِ المحاسَبةِ، كما وردَ في روايةٍ: فأَعْرَضَ عنها ولَمْ يَقبَلْ شيئاً مِنها، مع كمالِ الاحتياجِ بها، وإمكانِ تحصيلِ العباداتِ الماليَّةِ بسببِها، وسيِّدُنا يوسفُ عليه السَّلامُ عَرَضتِ امرأةٌ نفسَها عليهِ على وجهِ الحُرْمةِ، فوقعَ فيما وَقَعَ مِن الهَمِّ والهِمَّة(١)، فيا لها مِن همَّةٍ عظيمَة، ويا لها مِن نعمةٍ جَسيمَة، ويا لها مِن عصمةٍ وَسيمَة.

٣٢ ـ وأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فيها ضَرورتُهُ إنَّ الضَّرُورةَ لا تَعْدُو عَلَى العِصَمِ

الزُّهدُ: عزوفُ النَّفْسِ عن الدُّنيا، والإعراضُ عن الهَوَى، والضَّرورةُ: شدَّةُ الحاجةِ، ومنها الاضْطِرارُ ضِدُّ الاختِيَار.

ويقالُ: عَدَا عليه: إذا غَلَبَهُ واستَوْلَى عليه.

والعِصَمُ: جمعُ عِصْمةٍ، وهي قوَّةٌ بالِغَة، أو زاجِرةٌ سابِغَة، أَوْدَعَها اللهُ تعالى في خَوَاصِّ عبادِهِ وأكابِرِ عُبَّادِه، يَمْنعُهم عن التَّعَرُّضِ لمَنْهِيَّاتِهِ، والإعراضِ عن مَأمُوراتِه.

يعني: أكَّد فَقْرَهُ الظَّاهريَّ، واحْتيَاجَهُ الحِسِّيَّ، زُهدُهُ وإعراضُهُ عن أعراضِ الدُّنيا، وعَدَمُ إقبالِهِ على جبالِ الذَّهَبِ الذَّاهبِ في الهَوَى، فإنَّ هذا أمرٌ خارِقٌ للعادةِ، ولا يَختارُ هذا إلَّا مَن تَلَذَّذَ بحلاوةِ العِبادةِ، ومع هذا لا يكونُ تَرْكُ الدُّنيا والتَّوجُّهُ إلى المَوْلَى

---

(١) هذا الكلام من المؤلف ـ رحمه الله ـ فيه نظر لا يخفى، ونبي الله يوسف منزه عما لمح إليه المؤلف من الهم، وقد قال أبو حيان رحمه الله في «البحر» (١٢/ ٤٤٤) (طبعة الرسالة) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]: طول المفسرون في تفسير هذين الهمين، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق، **والذي أختاره**: أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همّ بها البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارَفْتَ لولا أن عصمكَ الله... وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك، لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين، فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة. والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب...، إلى آخر ما قال، فراجعه ثمة.

إلَّا بعِصمةِ اللهِ في حقِّ الأنبياءِ، وبحفظِهِ في جانبِ العلماءِ والأولياء(١)، فإذا حَصَلتْ لهم العِصمةُ الجَليَّة، وغَلَبَتْ بحِفْظِ اللهِ همَّتُهم العَليَّة، لا تَعْدُو ولا تَغْلِبُ الضَّرورةُ الغالِبيَّة على القُوَّةِ القَلْبيَّة، رَزَقَنا اللهُ مِن أذواقِهِم القُدْسيَّة، ونَفَعَنا بنَفَحاتِـهِمُ الأُنْسيَّة.

٣٣ـ وكيفَ تَدْعُو إلى الدُّنْيا ضَرورةُ مَنْ لَـوْلَاهُ لَـمْ تُخْـرَجِ الدُّنْيـا مِـن العَـدَمِ

قال المحلِّيُّ: (تُـخْرَجْ) على بناءِ المفعولِ، وفيهِ نُكتةٌ لطيفةٌ لا تَخْفَى.

والدُّنْيا تأنيثُ الأَدْنَى بمعنى: الأَقْرب إلينا بالنِّسبةِ إلى الأُخرى، وقيل: مُشتقَّةٌ مِن الدَّناءَةِ والخِسَّةِ، وله بمقامِ التَّعجُّبِ غايةُ الـمُناسَبة، وهي في الأصلِ صفةُ الحياةِ أو الدَّارِ، وقد تُسْتعمَلُ بمعنَى أعراضِها الكاسِدَة، وأغراضِها الفاسِدَة، مِن الجاهِ والمال، وما يَتْبَعُهما ممَّا يَجرُّ إلى الوَبَالِ في المآل، وبهذا الاعتبارِ تكونُ الدُّنيا مَذمومةً دَنِيَّة، وأمَّا إذا صُرِفتْ في مَرضاةِ الـمَوْلَى تكونُ مُستَحْسَنةً مَرْضيَّة، كما وَرَدَ: «نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالح»(٢).

ومع هذا تركُها أفضلُ عندَ الأكابرِ الكُمَّل، ولذا قال عيسى عليهِ السَّلامُ: يا طالِبَ الدُّنيا لِتبرّ، تَرْكُكَ للدُّنْيا أَبرّ(٣).

وقـال ﷺ: «لـو أنَّ رجـلاً فـي حِجْـرِهِ دَراهمُ يَقْسِـمُها، وآخَـرَ يَذْكُـرُ اللهَ، كان الذاكـرُ اللهَ أفضـلَ»، رواه الطبرانـيُّ(٤).

---

(١) في «ل»: «الأولياء» دون واو العطف.

(٢) رواه الإمـام أحمـد فـي «المسـند» (٤/ ٢٠٢)، وابن حبان فـي «صحيحـه» (٣٢١١)، والطبراني في «الأوسـط» (٣١٨٩)، مـن حديـث عبـد الله بـن عمـرو رضِـيَ اللهُ عنهما، وإسـناده صحيـح كما قال العراقـي فـي «تخريج أحاديـث الإحيـاء» (٢/ ٨٩٢).

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٠٦).

(٤) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٩٦٩) من طريق أبي الوازع عن أبي بردة عن أبي موسى رضِيَ اللهُ عنه مرفوعاً. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٧٤): «رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله ثقوا». =

ثُمَّ الدُّنيا والآخرةُ على وجهِ الكمالِ لا تَجْتَمِعان، ولذا قيل: إنَّهما ضَرَّتان، أو: مِثْلُ كفَّتي الميزان.

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «مَن أَحَبَّ دُنْياهُ أَضَرَّ آخِرَتهُ، ومَن أَحَبَّ آخِرَتهُ أَضَرَّ بدُنْياه، فآثِرُوا ما يَبْقَى على ما يَفْنَى»(١).

والمعنى: كيف تَدْعو إلى الـمَيْلِ إلى الدُّنيا الدَّنيَّة، وأعراضِها الفانِيَةِ الرَّدِيَّة، الضَّرورةُ الاخْتيَاريَّة، أو الفقرُ والحاجةُ الاختياريَّة، لِمَن لولا وجودُهُ، وفَضْلُه وجُودُهُ، لَمْ تَظْهرِ الدُّنيا مِن العَدَمِ إلى الوُجود، ولا وُجِدَ في العالَمِ غيرَ المُوْجِدِ موجود، وفيه لائِحةٌ إلى أنَّ الدُّنيا تابعةٌ له(٢)، ولا خُلِقتْ إلَّا لهُ ولأَتْباعِهِ، فكيف يكونُونَ تابِعِينَ لها، أو مغلوبينَ لهواها، بل هِمَّـتُهمُ العاليَة، ونَهْمَتُهم الغالِيَة، عَدَمُ الالتِفاتِ إلى النَّعيمِ الباقيَة، فَضْلاً عن اللَّذَّاتِ الفانِيَة، ولذا قيل: الدُّنيا حرامٌ على أهلِ الآخِرةِ، والآخِرةُ حرامٌ على أهلِ الدُّنيا، وهما حَرَامانِ على أهلِ اللهِ.

وفي البيتِ إشارةٌ إلى ما وَرَدَ في الحديثِ: «لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الخطيئةَ، وكان(٣) قد رأى على قوائمِ العرشِ مكتوباً: لا إلهَ إلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ، فسألَ اللهَ بحقِّ محمدٍ أنْ يَغفرَ له، فقال: إذْ سَأَلْتَني بحقِّه فقد غَفَرْتُ لكَ، ولولا محمَّدٌ ما خَلَقْتُكَ»، رواه الحاكمُ والبيهقيُّ(٤).

= لكن قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٣٨): «الصحيح عن أبي الوازع عن أبي برزة الأسلمي من قوله، خرجه جعفرٌ الفريابي».

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤١٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٩) من حديث أبي موسى رضِيَ اللهُ عنه. وقال الهيثمي في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٨٤): رواه أحمد ورواته ثقات.

(٢) كلمة «له» من «د»، وليست في «ل».

(٣) كلمة «كان» من «د»، وليست في «ل».

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٢٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٤٨٩) وقال: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف.

وآدمُ أبو البَشَرِ، وقد خَلَقَ اللهُ لهم ما في الأرضِ، وسخَّر لهم الشَّمسَ والقمرَ واللَّيلَ والنَّهارَ وغيرَ ذلك، وأمَّا الحديثُ القُدْسيُّ المشهورُ: لولاكَ لَـمَا خَلقْتُ الأفلاكَ، فليسَ له أصلٌ، لكنَّ معناهُ صحيحٌ.

٣٤ ـ محمَّـدٌ سـيِّدُ الكونَيْـنِ والثَّقَلَيْـ ـنِ والفَرِيقَيْـنِ مِن عُـرْبٍ ومِن عَجَمِ

رُوِيَ في (محمَّد) الجرُّ على أنَّهُ بَدَلٌ مِن (مَن)، والرَّفعُ على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ وهو: (هو)، والأظهرُ أنَّه مبتدأٌ، و(سيِّدُ) خبرُه، و(الكونَيْنِ)؛ أي: الوُجودَينِ، بمعنى: المَوجُودَينِ، وهما: الدُّنيا والعُقْبَى، والمرادُ: أهلُهما، أو: عالَـمُ الغَيبِ وعالَمُ الشَّهادةِ.

وقيل: الإضافةُ بمعنى: (في).

وعطفُ (الثَّقَلَينِ والفَرِيقَيْن) للتَّخصيصِ بعدَ التَّعميمِ، وللرَّدِّ على مَن خَصَّ رسالتَه[١] إلى الأنسِ دونَ الجنِّ، وإلى العربِ دونَ العَجَم، و(مِن) الأُولى بيانيَّةٌ والثَّانيةُ زائدةٌ للضَّرورة[٢].

وفي العربِ والعجمِ لُغتانِ: فَتْحُهما، وضمُّ الأوَّلِ وسكونُ الثَّاني، ففي البيتِ تَفَنُّنٌ.

وتُقرأُ نونُ (الثَّقَلين) مِن المِصْراعِ الثَّاني.

والمعنى: محمدٌ الذي كَثُرتْ مَحامِدُه ومَناقِبُه، وكَثُرتْ حامِدِيَّتُه[٣] حيثُ عُرِفتْ مَراتبُه ـ فإنَّه في الأصلِ اسمُ مفعولٍ للمُبالَغةِ، ثُمَّ نُقِلَ مِن الوصفيَّةِ إلى الاسْميَّةِ، فرائحةُ الوصفيَّةِ لائحةٌ في العَلَميَّة ـ سيِّدُ مَن وُجِدَ في الكونَيْنِ، وأفضلُ مَن ظَهَرَ في العالَمينِ؛ لأنَّه تعالى خَلَقَ لأَجْلِهِ الدَّارَينِ، وأرسلهُ إلى الثَّقلَيْنِ مِن الجنِّ والإنسِ،

(١) في «د»: «الرسالة».

(٢) في هامش «د»: «و(من عرب) بضم أوله وسكون ثانيه، و(من عجم) بفتحتين معطوف على (من عرب) و(من) للبيان. من شرح الشيخ خالد الأزهري».

(٣) في «ل»: «حامديه».

والصِّنفينِ مِن العَرَبِ والعَجَمِ المكلَّفينِ، بل قيل: إنَّه مُرسَلٌ إلى الملائكةِ، وقيل: إلى الحجرِ والشَّجرِ والنَّباتاتِ، وجميعِ المخلوقاتِ، وسائرِ الحيواناتِ، بل قيل: إنَّه مُرسلٌ إلى الأنبياءِ السابقِين[1]، فهو أفضلُ الخَلْقِ أجمعين، على الإطلاقِ بالاتِّفاق.

٣٥ ـ نبيُّنا الآمِرُ النَّاهي فلا أحدٌ ... أَبرَّ في قولِ لا مِنهُ ولا نَعَمِ

النبيُّ أصلُه الهَمْزُ، وقد قُرِئَ به[2]، وهو فعيلٌ بمعنَى المفعولِ أو الفاعلِ، فإنَّه مُخْبَرٌ ومُخْبِرٌ، والجمهورُ بالياءِ المشدَّدةِ، والظاهرُ أنَّه مُبْدَلٌ.

وقيل: إنَّه مأخوذٌ مِن النَّبْوةِ وهو الرِّفْعةُ، فإنَّه مرفوعُ الـمَرتبةِ.

وهو إنسانٌ بعثَهُ اللهُ وأَوْحَى إليهِ سواءٌ أُمِرَ بالتَّبليغِ أم لا، فهو أعمُّ مِن الرَّسولِ، وأشارَ إليهِ بقولِهِ: (الآمِرُ النَّاهي). و(أَبرَّ) بمعنَى: أَصْدَق، مِن بَرَّ في الحديثِ: صَدَقَ.

يعني: سيِّدُنا ونبيُّنا ومولانا ورسولُنا هو الآمِرُ بما هو مأمورٌ مِن عندِ اللهِ؛ مِن العقائدِ الرَّضِيَّة، والأعمالِ السَّنِيَّة، والأخلاقِ البَهيَّة، والنَّاهي عن الأمورِ الدَّنِيَّة، والأفعالِ الرَّدِيَّة، وهو في تكميلِ النَّاقصِينَ حاذِقٌ، وفي إخبارِه بكلِّ ما أَخْبرهُ صادِقٌ؛ لأنَّه ما يَنْطِقُ عنِ الهوَى، بل بالوَحْيِ الجَلِيِّ أو الخَفِيِّ مِن عندِ المَوْلَى، فلا أحدَ أصدقُ منه في النَّفي والإثبات، ولا أحقُّ منهُ في الوعدِ والوعيدِ وسائرِ الحالات.

٣٦ ـ هو الحَبِيبُ الذي تُرْجَى شَفَاعتُه ... لكلِّ هولٍ مِن الأهوالِ مُقْتَحِمِ

(الحبيبُ) بمعنى: المحبوبِ، ومَحبَّةُ المخلوقِ: هي مَيلُ النَّفْسِ إلى مُلائِمِهِ،

---

(١) في «د»: «والسابقين».

(٢) قرأ نافع قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ و﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ و﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ و﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ بالهمز في كل القرآن، إلاَّ في موضِعين في سورة الأَحْزَاب: قوله تعالى: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ﴾، ففيهما تفصيل انظره في «التيسير» للداني (ص ١٥٧).

ومَحبَّةُ الخالقِ لعبدِه: تَمكينُه مِن سعادتِه، وتوفيقُه على عبادتِه، وتَهْيئةُ أسبابِ قُرْبتِه، والإفاضةُ عليهِ مِن خزائنِ رحمتِه.

والشَّفاعةُ: طَلَبُ العفوِ والفضلِ مِن الغَيْرِ للغَيْرِ.

والهولُ: مصدرٌ بمعنَى الخوفِ، يُستعمَلُ بمعنى الهائلِ أو الـمَهُولِ منهُ. واقْتَحَمَ في الأمرِ؛ أي: دخلَ فيه بشدَّةٍ، والتَّقديرُ: لكلِّ هولٍ مُقتحَمٍ فيه.

والمعنى: ذلك السيِّدُ العَلِيُّ الشَّان، والنَّبيُّ الجَليُّ البُرهان، هو حبيبُ اللهِ وأحبَّائِه، ولا عِبرةَ بمَن سِواهُمْ مِن أعدائِه، الذي ثَبَتَتْ شفاعتُه وتُرْجَى إجابتُه لكلِّ أمرٍ عسيرٍ وهولٍ خَطيرٍ وفيه إشارةٌ إلى أنَّ لهُ شفاعاتٍ متعدِّدَة؛ كما وَرَدَ بها الأحاديثُ المعتمَدَة:

منها: الشَّفاعةُ العُظْمَى، وهي المَقامُ المحمود، واللِّواءُ الممدود، الذي يَحتاجُ إليهِ الوالدُ والمولود.

ومنها: الشَّفاعةُ في إسقاطِ العذابِ، أو تخفيفِهِ عن المعذَّبين(١).

ومنها: الـمُسامَحةُ عن ذنوبِ الـمُستَحِقِّين.

ومنها: رَفْعُ درجاتِ مَن شاءَ اللهُ مِن المؤمنين.

٣٧ ـ دَعَا إلى اللهِ فالمُسْتَمْسِكونَ بِهِ مُسْتَمْسِكونَ بحبلٍ غيرِ مُنْفَصِمِ

الاسْتِمْساكُ: التَّمسُّكُ والتَّشَبُّثُ والتَّعَلُّقُ، والحَبْلُ معروفٌ، ويُستعارُ لِـمَا يَتعلَّقُ به ويُتَوَصَّلُ به إلى المطلوب. والانْفِصامُ: الانْقِطاعُ.

والمعنى: دَعَا الخَلْقَ إلى طاعَةِ الخالقِ دعوةً تامَّةً كاملة، غيرَ منسوخةٍ مخصوصةٍ بل هي شامِلَة، للخَلْقِ إلى يومِ القيامةِ واصِلَة، وفيه إشارةٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ

---

(١) يعني: من المؤمنين، فإن الكافرين في نار جهنم خالدين، لا يخفف عنهم وما هم منها بمخرجين.

سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، وإيماءٌ إلى قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت: ٣٣]، فمَن تمسَّكَ بدعوتهِ مِن كتابهِ وسُنَّته، فقد تمسَّك بحبلٍ وثيقٍ غيرِ منقطعٍ إلى حينِ وُصْلته، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ أي: لا انقطاعَ، وفيه إشارةٌ إلى بِشارةِ حُسْنِ الخاتمة.

٣٨ ـ فاقَ النَّبيِّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ... ولَمْ يُدانُوهُ في عِلْمٍ ولا كَرَمِ

فاقَهُ وفاقَ عليه: زادَ عليهِ في الرِّفعةِ مِن فوقٍ.

و(الخَلْق) بفتحِ الخاءِ: حُسْنُ الصُّورةِ، وهي اعتدالُ الأعضاءِ، وتَناسُبُ الأشكالِ، و(الخُلُق) بضمَّتينِ ـ وقد يُسكَّنُ الثَّاني ـ: حُسْنُ السِّيرةِ، وهي اعتدالُ قُوَى النَّفْسِ وأوصافِها بالكمال، وخَصَّ منها العِلْمَ لأنَّه رأسُ الفضائل، والكَرَمَ لأنَّه أُسُّ الفَوَاضل، وهو مَبْنيٌّ على القُدرةِ، فهما مَرْجِعَا الكمالاتِ بأسرِها، ومَدَارُ نظامِ الكائناتِ عن آخِرِها.

يعني: أنَّه صلى اللهُ تعالى عليه وسلم فاقَ الأنبياءَ في الجمالِ الصُّوريِّ، حتَّى رَجَّحوهُ على الكريم[١] بنِ الكريم بنِ الكريمِ، وفي الكمالِ المعنويِّ، حتَّى أَثْنَى اللهُ عليه بقولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ولَمْ يُقارِبْهُ أحدٌ مِن الأنبياء، فضلاً عن العلماءِ والكُرَماءِ مِن الأولياءِ والأصفياء، في جنسٍ مِن أجناسِ علمهِ، وفي نوعٍ مِن أنواعِ كَرَمهِ، واطْلُبْ تفصيلَ هذه المناقِبِ العَلِيَّة، في كتابِ «المَواهِبِ اللَّدُنِّيَّة».

٣٩ ـ وكُلُّهُمْ مِن رسولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ ... غَرْفاً مِن البحرِ أو رَشْفاً مِن الدِّيَمِ

(١) في هامش «ل»: «أي: يوسف عليه السلام».

الغَرْفُ والاغْتِرافُ: أخذُ الماءِ باليدِ مِلْءَ الكفِّ، والرَّشْفُ: المصُّ، والدِّيمُ: جمعُ الدِّيمةِ، وهي المطرُ الدَّائمُ المتَّصلُ باللَّيلِ والنَّهارِ.

والمعنى: وجميعُ الأنبياءِ ـ أو كلُّ واحدٍ مِنهُم ـ مُلْتمِسٌ ومُستَمِدٌّ مِن رسولِ اللهِ الفَرْدِ الأكمل، والغوثِ الأفضل، وهو مِن وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوضِعَ الـمُضْمَرِ؛ للتَّنبيهِ على الوَصْفِ النَّبيه.

(غَرْفاً)؛ أي: شيئاً يَسيراً، أو مَدداً كثيراً، مِن بحرِ عِلْمِه، (أو رَشْفاً)؛ أي: استِطْعاماً لطيفاً واستِسْقاءً شريفاً مِن أمطارِ كَرَمِه، ومِن مَوائدِ نِعَمِه.

٤٠ ـ وواقِفونَ لَدَيْهِ عندَ حَدِّهِمُ مِن نُقْطَةِ العِلْمِ أو مِن شَكْلَةِ الحِكَمِ

(لَدَيهِ)؛ أي: عندَه صلى الله تعالى عليه وسلم، وحَدُّ الشَّيءِ: غايتُه ومُنْتهاهُ، والنُّقطةُ بالضَّمِّ: ما حَصَلَ مِن النَّقْطةِ بالفَتْحِ، مِن نَقَطَ الكتابَ نَقْطاً ونَقَّطَهُ: وَضَعَ عليهِ النُّقْطةَ. و(الشَّكْلةُ) بالفتحِ مِن شَكَلْتُ الكتابَ: إذا قيَّدْتَه بالإعراب. و(الحِكَم): جمعُ الحِكْمةِ، وهي إحكامُ الرَّأي والتَّدْبير، وقيل: إتْقانُ العلمِ والعَمَلِ.

وخَصَّ النُّقْطةَ بالعلمِ والشَّكْلةَ بالحِكَمِ؛ لأنَّ الشَّكْلَ يَحصُلُ به مَزيدُ بيانٍ لا يحصلُ بالنُّقطة، كذا قيل.

والأظهرُ: أنَّ النُّقطةَ أَوْلَى بمزيَّةِ الظُّهورِ، ولذا أُضيفَتْ إلى العلمِ، والشَّكْلةَ أمرٌ زائدٌ خارجٌ عن ماهِيَةِ المفهومِ المتوقِّفِ على النُّقطةِ التي مَدارُ البِنْيةِ عليها، ولذا نُسِبَتْ إلى الحِكَمِ، وهي علومٌ دَقيقةٌ عقليَّةٌ مُتفرِّعةٌ على العلومِ الشَّرْعيَّة، ولذا لـمَّا أرادَ رئيسُ[1] الحُكماءِ الظَّاهريَّةِ أنْ يستغنيَ عن رئيسِ العلماءِ الباطنيَّةِ، رُدَّ عن الباب، ووَقَعَ في الحِجَاب، المُنْتجِ للعذاب، والحِرْمانِ عن الثَّواب.

(١) كتب فوقها في «ل»: «المراد به: علي بن أبي سينا قلت: لعله يريد (أبو علي ابن سينا)، الملقب بالرئيس».

ولمَّا كان كلٌّ مُفرَداً لفظاً وعبارةً عمَّا أُضيفَ إليهِ معنًى، جازَ إفرادُ الضَّميرِ العائدِ إليهِ أوَّلاً في (مُلْتَمِسٌ)، وجمعُه ثانياً في (واقفون)؛ كقولهِ تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ [ق: ١٤]، وقولهِ تعالى: دَعَا الخَلْقَ إلى طاعةِ الخالقِ دعوةً تامَّةً كاملة، غيرَ منسوخةٍ مخصوصةٍ بل هي شامِلَة، للخَلْقِ إلى يومِ القيامةِ واصِلَة ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

والمرادُ مِن (العلمِ): علمُ اللهِ الذي لا يَتَناهَى، ومِن (الحِكَم): حِكَمهُ التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

ثُمَّ إنَّ علومَ الأنبياءِ والعلماءِ بأسرِها بمنزلةِ نقطةٍ مِن كلماتِ اللهِ التي لا تَنْفَدُ، وحِكَمَ الحكماءِ عن آخرِها بمنزلةِ شَكْلَةٍ مِن حِكَمِ اللهِ التي لا تُعَدُّ، وهذه النُّقطةُ والحِكمةُ حاصِلَتانِ لهُ عليه السَّلامُ على وجهِ التَّمَام، والأنبياءُ لهم حَدٌّ مُعيَّن، ومَقامٌ معلومٌ مُبيَّن، يقفونَ عندَه لا يَتَخطَّونَ عنهُ قَدْرَ أُنْمُلة، ولا يَتعدَّونَ منهُ طُولَ نَـمْلة.

وما ذَكَرْتهُ في نُقطةِ العلمِ إيماءٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وإشارةٌ إلى قولِ الخَضرِ لموسى عليهما السَّلامُ لـمَّا غَمَسَ العصفورُ منقارَهُ في البحرِ: «ما عِلْمُكَ وعِلْمِي وعِلْمُ الخلائقِ في عِلْمِ اللهِ تعالى إلَّا مقدارُ ما غَمَسَ هذا العُصفورُ مِنقارَهُ» رواه البخاريُّ[1].

ويَحْتمِلُ أنْ يُرادَ بالعلمِ والحِكَمِ: عُلومُهُ وحِكَمهُ صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنَّ عِلْمَهُ حاوٍ لفُنونِ[2] العلمِ؛ كعلمِ القراءةِ والتفسيرِ والحديثِ والفقهِ والقِصَصِ والـمَوَاعظِ والعقائدِ وغيرِها، وفي كلٍّ مِنها صُنِّفَ مُجلَّداتٌ وأُلِّفَ مُدوَّناتٌ، وكذا حِكَمُهُ جامِعٌ لأنواعِ الحِكَمِ:

منهـا: علمُه بالطِّـبِّ الظَّاهـريِّ المتعلِّقِ بالأشـباح، وعِلْمُهُ بالعـلاجِ المعنويِّ المُصْلحِ لأمـراضِ الأَرْواح.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٢٧) من حديث ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما.

(٢) في هامش «ل»: «لعله: لأنواع».

ومنها: علومُ خَوَاصِّ الأشياءِ مِن مَنافِعِها أو مضارِّها.

ومنها: معرفةُ أحوالِ الفَلَكيَّةِ والآفاقيَّةِ، المسمَّاةِ بالهيئةِ السَّنِيَّةِ السُّنِّيَّة.

ومنها: عِلْمُهُ بالأمورِ الغَيبيَّةِ التي عَجزَ عنها الكَهَنةُ والـمُنَجِّميَّة.

ومنها: حقائقُ الصُّوفيَّةِ ودقائقُ العَرَبيَّة، فدَوَّنَ الدَّفاترَ وزَيَّنَ المنابرَ تحريرُها[1] وتقريرُها، حتَّى صار علماءُ أُمَّتي وَرَثةَ الأنبياء، وظَهَرتْ لهم خَوارِقُ العاداتِ المنسوبةُ إلى الأولياءِ الأَصْفيَاء.

فعِلْمُ كلِّ نبيٍّ وحِكْمتُهُ كنقطةٍ مِن كتابِ عِلمهِ، وشَكْلةٍ مِن بابِ حِكَمِهِ، يعني: حَدُّهم ورُتْبتُهم بالنِّسبةِ إلى مَقامهِ ومَنزِلتهِ مِثْلُ مَرْتبةِ النُّقطةِ مِن اللَّفظِ والـمَبنَى، أو نسبةِ الشَّكْلةِ والإعرابِ مِن المعنى، ولذا قالَ صلى الله تعالى عليه وسلم: «أُوْتِيتُ بجوامعِ الكَلِم»[2]، و: «أُمِرْتُ بمكارِمِ الأخلاق»[3]، وإليهِ الإشارةُ بقولهِ تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر: ٥٥]، فـ(مِن) في البيتِ على هذا بيانيَّةٌ، وعلى الوجهِ الأوَّلِ ابتدائيَّةٌ، و(أو) للتَّقْسيم.

٤١ ـ فَهْوَ الذي تَمَّ معناهُ وصُورَتُهُ ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبيباً بارِئُ النَّسَمِ

يُقرأُ البيتُ بسكونِ الهاءِ في (فهو) وبإشباعِها في (معناه)، وهما لُغتانِ مشهورَتان، وقراءَتانِ مُتَواتِرَتان، فأخْطأَ مَن قال: إنَّهما مِن ضَروراتِ الشِّعر.

و(حَبيباً) حالٌ، وقيل: مفعولٌ ثانٍ لـ(اصْطَفاهُ) بتَضْمينِهِ معنى: جَعَلَ،

---

(١) في «ل»: «بتحريرها».

(٢) رواه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣)، من حديث أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه. ولفظ البخاري: «بعثت بجوامع...»، ولفظ مسلم: «أعطيت جوامع...» وفي رواية: «أوتيت جوامع...»، وفي رواية كالبخاري: «بعثت». وأما لفظ المؤلف: «أوتيت بجوامع...» فلعله خطأ.

(٣) معناه صحيح لكن لم أجده بهذا اللفظ.

و(النَّسَم) بفتحتَينِ: جمعُ نَسَمةٍ، وهي النَّفْسُ، أو كلُّ ذي رُوحٍ، وقيل: هي الآدَميُّ، والفاءُ للجزاء.

أي: إذا عَرَفْتَ(١) أنَّه عَلَا على الأنبياءِ في الخَلْقِ والخُلُقِ، وفاقَ عليهِم في الشَّريعةِ والحقيقةِ، أو في الأعمالِ والأحوالِ(٢)، أو في العِلْمِ والعملِ، أو في الظَّاهرِ والباطنِ، أو في مُعامَلتهِ مع الخَلْقِ والحَقِّ، أو في الكمالِ المُطْلَق، ثُمَّ اختارَهُ واجْتَباه، واتَّخذَهُ مُحِبّاً أو مَحبوباً وارْتَضاه، مِن بينِ الخلائقِ باريءُ النَّسَمات، وفاطِرُ الأرضِ والسَّماوات.

و(ثُمَّ) لإفادةِ التَّرتيبِ في الصِّفات، وقيل: إنَّها على بابها مِن التَّراخي، يعني: قُرِّرَتْ لهُ مرتبةُ النُّبوَّةِ بعدَ تمامِ الصُّورةِ والسِّيرةِ، وإنْ كانَ إعطاءُ هذه الرُّتبةِ المعنويَّةِ غيرُ متوقِّفةٍ على وجودِ الكمالاتِ الصُّوريَّةِ، فإنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على كلِّ شيءٍ بالسَّويَّة، وإنَّما الاختلافُ مَبْنيٌّ على الأمورِ العاديَّة، وفيهِ إيماءٌ إلى وجهِ انتظارِ الاصْطِفاءِ إلى المدَّةِ الأَرْبَعينيَّة، وترجيحهِ على عيسَى ويَحْيَى ممَّن أُعطيَ النُّبوَّةَ في حالِ الطُّفوليَّة، وإنْ كان المتبادِرُ إلى الوهمِ عكسَ هذهِ القضيَّة، وهذا مستفادٌ مِن الكلماتِ العِصاميَّة.

وفي البيتِ تَلْويحٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وتلميحٌ إلى حديثٍ صحيحٍ، وهو قولُه صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنانةَ مِن ولدِ إسماعيلَ، واصْطَفَى مِن كنانةَ قُريشاً، واصْطَفَى مِن قُريشٍ بني هاشمٍ، واصْطَفاني مِن بني هاشمٍ» رواهُ مسلمٌ(٣).

وفي روايةٍ: «إنَّ اللهَ اصْطَفَى مِن وَلَدِ إبراهيمَ إسماعيلَ» الحديثَ رواهُ الترمذيُّ(٤).

---

(١) في «ل»: «عرف».

(٢) كتب تحتها في «د»: «جواب إذا». وهذا غير ظاهر، ولم أجد في السياق ما يصلح أن يكون جواباً لـ(إذا).

(٣) رواه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضِيَ اللهُ عنه.

(٤) رواه الترمذي (٣٦٠٥) من حديث واثلة رضِيَ اللهُ عنه وقال: حسن صحيح.

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يومَ القيامةِ ولا فَخْرَ، وبيدِي لِواءُ الحمدِ ولا فَخْرَ، وما مِن نبيٍّ يومئذٍ آدمَ فمَن سِوَاه إلَّا تحتَ لوائي، وأنا أوَّلُ مَن تَنْشقُّ عنهُ الأرضُ ولا فَخْرَ، وأنا أوَّلُ شافعٍ [وأوَّلُ] مُشَفَّعٍ ولا فَخْرَ» رواهُ أحمدُ والتِّرمذيُّ وابنُ ماجه[1].

٤٢ ـ مُنَزَّهٌ عن شَريكٍ في مَحَاسنِهِ فجوهَرُ الحُسْنِ فيه غيرُ مُنْقَسِمِ

(مُنَزَّهٌ) خبرٌ ثانٍ لـ (هو)، أو مُبتدَؤُه محذوفٌ، وهو: هو، والمحاسِنُ: جمعُ حَسَنٍ على خلافِ القياس، و(فيهِ) بإشباعِ الضَّمَّةِ صفةُ (الحُسْنِ) أو حالٌ منه.

وفي إثباتِ الجوهَرِ للحُسْنِ الذي هو عَرَضٌ والحُكْمِ عليه بعَدَمِ الانْقِسامِ لَطافةٌ لا تَـخْفَى.

يعني: أنَّه صلى الله تعالى عليه وسلم مُنْفرِدٌ في جمالِ الصُّورةِ البَهِيَّة، والسِّيرةِ السَّنيَّة، لا يُشارِكُه في كمالِهِما أحدٌ مِن البَرِيَّة، إمَّا في مجموعِ المحاسِنِ مِن حيثُ المجموعُ على الوجهِ الحقيقيِّ، وإمَّا في كلِّ واحدٍ منها على طريقِ الادِّعائيِّ، فكأنَّ مَحاسِنَ غيرِه غيرُ حُسْنٍ في جَنْبِ حُسنِهِ.

٤٣ ـ دَعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصارَى في نَبِيِّهِمُ واحْكُمْ بما شِئْتَ مَدْحاً فيه واحْتَكِمِ

يجوزُ في (نبيِّهم) التَّشديدُ والهمزُ، ويُقرأُ بإشباعِ ميمِ الجمعِ ولو وَقْفاً؛ تَنْزيلاً للوَقْفِ منزلةَ الوصلِ للوَزْنِ، و(مَدْحاً) تمييزٌ، والاحْتِكامُ: استِعمالُ الحِكمةِ وإتقانُ الحُكْمِ.

يعني: اتْرُكْ في مَدْحِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم مِثْلَ ما ادَّعَتْهُ النَّصارى في نبيِّهم عيسى عليهِ السَّلامُ مِن الاتِّحادِ، والحُلولِ، والتَّثْليثِ، والتَّناسُخِ، والتَّوالُدِ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٢)، والترمذي (٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، من حديث أبي سعيد رضِيَ اللهُ عنه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ونحوِ ذلك ممَّا يُوجِبُ الكفرَ والشِّرْكَ والضَّلَالَ، ويَترتَّبُ عليه العذابُ والنَّكَالُ، والوَبَالُ والأغلال، حيثُ قال بعضُهم: المسيحُ ابنُ اللهِ، وقال بعضُهم: إنَّ اللهَ هو المسيحُ، وقال بعضُهم: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، واحْكُمْ ما شِئْتَ في حقِّه مِن جهةِ نَعْتِهِ ومَدْحِهِ؛ مِن شَرفِ شأنِه، وعُلُوِّ مَنْصبِهِ ومكانِه، وتكلَّمْ بالحِكْمَة، وأَتْقِنْ في الحُكْمِ بالمِدْحِةِ، حتَّى لا تتجاوَزَ عن الحدِّ الإنسانيِّ إلى الوصْفِ الصَّمَدانيِّ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، أينَ التُّرابُ وربُّ الأرباب؟!

٤٤ ـ وانْسُبْ إلى ذاتِه ما شِئْتَ مِن شَرَفٍ وانْسُبْ إلى قَدْرِه ما شِئْتَ مِن عِظَمِ

(ما) موصولةٌ، و(مِن) بيانيَّةٌ، والتَّنوينُ للتَّعظيمِ فيهما، والفاءُ للعطفِ التَّفسيريِّ، أو للفَصاحةِ عن الشَّرطِ التَّقْديريِّ؛ أي: إذا تَركْتَ مِثْلَ دَعْوَى النَّصارَى وكلامَ الحَيَارَى فلكَ السَّعةُ في دائرةِ النِّسبةِ إلى ذاتِهِ المعظَّمةِ ما شِئْتَ مِن الأوصافِ المكرَّمةِ؛ مِن جمالِ الخَلْق، وكمالِ الخُلُقِ، وطِيبِ العِرْق، وذكاءِ اللُّبِّ وصَفاءِ الجَنَان، وبلاغةِ الكلامِ وفصاحةِ اللِّسان، وسائرِ كمالاتِ الإنسان، فإنَّه مَنْبَعُ الإحسان، ومُبْدَعُ الرَّحمن.

وأيضاً لك الرُّخصةُ في النِّسبةِ الدَّائرةِ على إحاطةِ كمالِ قَدْرِهِ ومَرْتبتِه، وجمالِ طَوْرِه وعَظَمتِه، ما أَرَدْتَ مِن أنواعِ العظمةِ وفنونِ الكرامةِ، وأجناسِ المعجزةِ التي لا يُسْتَقْصَى حَدُّها، ولا يُحْصَى عَدُّها[1].

٤٥ ـ فإنَّ فَضْلَ رسولِ اللهِ ليسَ لهُ حَدٌّ فيُعْرِبَ عنهُ ناطِقٌ بفَمِ

الفاءُ للتعليلِ لامْتِناعِ المدحِ بالتَّفصيل، ونَصْبُ (يُعْرِبَ) على جوابِ النَّفْي، وضميرُ (عنهُ) للحدِّ، ويُقرأُ بالإشباعِ على لُغةٍ مُراعاةً للزِّنَةِ، والباءُ للاستِعانةِ متعلِّقةٌ بـ (ناطقٌ) أو (يُعْرِبَ).

---

(١) في هامش «ل»:

«وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف»

والإعرابُ: الإفصاحُ والبيانُ والإيضاحُ، وهو لا يكونُ إلَّا باللِّسان، فالتَّعبيرُ عنهُ بالفمِ مِن بابِ إرادةِ الحالِ بذِكْرِ المكان، وفائدةُ ذِكْرِهِ مع أنَّ النُّطْقَ لا يكونُ بغيرِهِ: زيادةُ إفادةِ عمومِ الحكمِ في عَدَمِ حَصْرِ قَدْرِهِ، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣٨] مِن نظائرِهِ.

يعني: إنَّما أمرتُكَ بالنِّسبةِ الإجماليَّة، في عَدِّ صِفاتِهِ الكَماليَّة، فإنَّ فضائلَهُ التَّفصيليَّة ليس لها نهايَة، حتَّى يُمْكِنَ أنْ يُبَيِّنَهُ أحدٌ على غايَة، ولو بَلَغ مَبْلغَ البُلغاءِ والفُصَحاءِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه أفضلُ من جميعِ الملائكةِ وسائرِ الأنبياء، بل إيماءٌ إلى أنَّه لا يَعْلَمُ حقيقةَ الذَّاتِ المحمَّديَّة، وحقيقةَ الصِّفاتِ الأحمديَّة، إلَّا الموصوفُ بصفاتِ الرُّبوبيَّة، ولذا قال بعضُ العارِفين: الخَلْقُ عَرَفوا الصِّفاتِ الأُلوهيَّة، ولَمْ يَعرِفوا النُّعوتَ المُصْطفويَّة.

٤٦ ـ لو ناسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عِظَماً أَحْيا اسْمُهُ حينَ يُدْعَى دارِسَ الرِّمَمِ

العِظَمُ بكسرِ العينِ خِلافُ الصِّغَرِ، كذا في «القاموس»[1]، فيكونُ مُستعاراً للعَظَمةِ، والرِّمَمُ: جمعُ الرِّمَّةِ؛ كالقِطَعِ والقِطْعةِ، وهي العظامُ الباليَةُ.

ويقالُ: دَرَسَ الرَّسمُ: إذا عفَا، فانْدِراسُها زيادةٌ في البِلَى.

و(قَدْرَه) مفعولٌ به قُدِّمَ لاهتمامِهِ، و(عِظَماً) تمييزٌ؛ كـ: طابَ زيدٌ نفساً، و(اسْمُهُ) فاعلُ (أَحْيا)، والنِّسبةُ مَجازيَّة، فإنَّ الإحياءَ مِن الصِّفاتِ الإلهيَّة، وضميرُ (يُدْعَى) راجعٌ إلى (اسْمُهُ)، أو إلى الله، أي: يُسأَلُ باسْمِهِ، و(دارِسَ) مفعولٌ، والإضافةُ مِن قَبيلِ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ؛ أي: الرَّميمَ الدَّارِسَ، والجملةُ جوابُ (لو).

والمعنى: أنَّه ظَهَرَ لهُ الآياتُ البيِّناتُ الدالَّةُ على رسالتِهِ ونبوَّتِهِ، وتَبيَّنَتْ له الكراماتُ والمعجزاتُ المُشْعِرةُ على عُلُوِّ مَرْتبتِهِ ورِفْعتِهِ وعَظَمتِهِ بقَدْرِ ما

---

(١) انظر: «القاموس» (مادة: عظم).

اقْتَضَى مِن قضاءِ اللهِ وقَدَرِه وحكمتِهِ وإرادتِهِ، ومِن جملةِ مُعجزاتِهِ إحياءُ الموتَى حتَّى على أيدي بعضِ أمَّته، ومع هذا لو أرادَ اللهُ تعالى المناسَبةَ التَّامَّةَ السَّنِيَّة بينَ ذاتِهِ العَلِيَّة وآياتِهِ البَهِيَّة، لأَحْيا اللهُ تعالى باسمِهِ فضلاً عن رَسْمِهِ إذا دُعِيَ وذُكِرَ اسمٌ مِن أسمائِهِ أو وصفٌ مِن أوصافِ صفاتِهِ العظامَ الباليَةَ والأجسامَ الفانِيَةَ مِن الأمواتِ الحقيقيَّةِ والمَجَازِيَّة، حيثُ جَعَلَ خاصيَّةَ اسمِهِ المحمَّديِّ أو وَصْفِهِ الأحمديِّ[1] أنَّهُ إذا ذُكِرَ على ميتٍ حقيقيٍّ لصارَ حيّاً حاضِراً، وإذا ذَكَرهُ كافرٌ أو غافلٌ جُعِلَ مؤمناً وحُوِّلَ ذاكراً، لكنَّ اللهَ تعالى سَترَ جمالَ هذا الدُّرِّ المكنون، وكمالَ هذا الجوهرِ المَصُون، لحكمةٍ بالغةٍ ونكتةٍ سابِغَة، ولعلَّها ليكونَ الإيمانُ غيبيّاً، والأمرُ[2] تكليفيّاً، لا الشُّهودُ عينيّاً والعِيَانُ بديهيّاً، أو لئلَّا يَصيرَ مَزْلقةً لأقدامِ العَوَامّ، ومَزَلَّةً لتنصر[3] الجهَّال بمعرفةِ المَلِكِ العلَّام.

ولا شُبهةَ أنَّ في مَقامِ المبالغةِ عَودُ ضميرِ (يُدْعَى) إلى (اسْمُه) أَوْلَى مِن أنْ يُقالَ: يُدْعَى اللهُ تعالى بأسمائِهِ الحُسنَى. ولا يَرِدُ أنَّ القرآنَ لشَرفِهِ شأنٌ لا يُمْكنهُ البيانُ، فإنَّ الكلامَ في عظمةِ الدَّلالة، لا في شَرَفِ المَقالة، فإنَّهُ لو كان دلالةُ القرآنِ ظَهَرتْ على قَدْرِ عَظَمةِ نبيِّنا العظيمِ الشَّأْنِ لَمَا أنكرَ أحدٌ نبوَّتهُ ورسالتَه، وأَظْهَرَ اللهُ في الدُّنيا عظمتَه، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]؛ أي: لكانَ هذا القرآنَ، لكنَّه صُرِفَ عمَّا ذُكِرَ لَمَّا كان هناك مانعٌ منيعاً ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

ثُمَّ خَطَرَ لي أنَّ الناظِمَ لو قال:

لو ناسَبَتْ عُظْمَهُ آياتُه عِظَماً ... أَحْيا اسمُه حينَ يُدْعَى العَظْمَ في الرِّمَمِ

---

(١) في «د»: «اسمه الأحمدي أو وصفه المحمدي».

(٢) في «د»: «والأمرور»، وفي «ل»: «والأمور»، ولعل المثبت هو الأنسب بسياق الكلام.

(٣) كلمة: «لتنصر» كذا وقعت في «د»، وغير واضحة في «ل».

بضمِّ العينِ في (عُظْمَه)، وبفتحِها في (العَظْم) لكانَ أنسبَ بالمناسبةِ اللَّفظيَّة، والمُلاطَفةِ النُّطْقيَّة، مع مُراعاةِ اللَّطائفِ المعنويَّة، التي تَقْتَضِي الذَّاتَ الجامِعيَّة.

٤٧ ـ لَمْ يَمْتَحِنَّا بمَا تَعْيَا العُقولُ به   حِرْصاً علينا فلَمْ نَرْتَبْ ولَمْ نَهِمِ

الامتحانُ: الابتِلاءُ والاختبارُ، وعَيِيَ بالأمرِ: عَجَزَ عنهُ ولَمْ يَهْتدِ لوَجْهِهِ.

والعقلُ: مَلَكةٌ تَعْقِلُ صاحِبَها عن الفَضَائح، وتمنعُه عن القَبَائح.

والحرصُ: شدَّةُ الرَّغبةِ في الشَّيءِ والميلِ إليه، وصَرْفِ الهِمَّةِ عليه.

والارتيابُ: الشَّكُّ والتَّردُّدُ.

ويقالُ: وَهَمَ بالفتح: إذا رَجَّحَ جانبَ الباطِل، وهام: إذا تَحيَّرَ في عقلهِ العاقِل.

و(ما) موصولةٌ، والضَّميرُ في (به) راجعٌ إليه، و(حرصاً) مفعولٌ لهُ أو حالٌ.

والمعنى: أنَّ النَّبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم مِن غايةِ رأفتِهِ ونهايةِ رحمتِهِ لَمْ يأتِنَا بشيءٍ مِن عقائدِ الإسلام، ولَمْ يُكلِّفْنا بشيءٍ مِن تكاليفِ الأحكام، لَمْ يَهْتدِ العقلُ بإدراكِهِ أو يَعْجِزُ صاحبُه عن إدراكِه، بل أَتَانَا بالحَنيفيَّةِ النَّوْراء، والمِلَّةِ السَّمْحةِ البَيْضاء؛ لأَجْلِ حِرْصِهِ علينا، وكمالِ الْتفاتِهِ إلينا، فلَمْ نَشُكَّ في رسالتِه، ولَمْ نَتحيَّرْ في مُتابَعَتِه، ولَمْ نَخْتَرْ طريقاً على طَريقتِه، الجامعةِ بينَ شريعتِهِ وحَقيقتِه.

وفي البيتِ إيماءٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٤٨ ـ أَعْيَا الوَرَى فَهْمُ مَعْناهُ فليسَ يُرَى   فـي القُـرْبِ والبُعْدِ منـهُ غيـرَ مُنْفَحِمِ

الإعيـاءُ: التَّعْجيـزُ، و(الـوَرَى): الخَلْـقُ، وضميـرُ (مَعْنـاهُ) يُقـرأُ بالإشْـباعِ، و(المعنـى): مقصـودُ الـكلام، وكمـالُ كلِّ شـيءٍ علـى وجـهِ التَّمَـام، وفي نسـخةٍ: (للقُـرْب) فالـلَّامُ بمعنـى (فـي).

وضميرُ (مِنهُ) يُشْبَعُ، وكذا (فيه) في نسخةٍ، والضميرُ راجعٌ إليهِ صلى الله تعالى عليه وسلم، وفي نسخةٍ: (مِنْهُم) فالضميرُ راجعٌ إلى (الوَرَى)، وجوِّزَ على النُّسخةِ الثَّانيةِ عَودُ الضَّميرِ إلى (معناه).

والانْفِحامُ: قَبولُ الإلْزام، وأصلُه: أنَّ الخَصْمَ يَتَسَوَّدُ وجهُه كالفَحْمِ عند الإلْزام.

وإسنادُ الإعياءِ إلى الفَهْمِ مَجَازيٌّ؛ أي: أَعْيا اللهُ الوَرَى عن فهمِ معناهُ. و(فَهْمُ) مضافٌ إلى مفعولٍ؛ أي: فَهْمُهمْ معناهُ.

وما بعدَ (ليس) مُفسِّرٌ لضميرِ الشَّأنِ فيها، و(يُرَى) مَبنيٌّ للمفعولِ، و(في القُرْب) مُتعلِّقٌ به أو بـ(ليس)، ويجوزُ نصبُ (غيرَ) على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لـ(يُرَى) على تقديرِ أنْ يكونَ مِن الرُّؤيةِ القَلْبيَّة.

والمعنَى: أنَّ فَهْمَ مَعانيهِ الخَفيَّةِ البَهيَّة، وكَمَالاتهِ السَّرِيَّةِ السَّنِيَّة، أَعْجزَ الكائناتِ بأسرِها، والمخلوقاتِ بشَرَاشِرِها، فليسَ يُبْصَرُ ـ بل ولا يُعْلَمُ ـ في القُرْبِ والبُعْدِ المكانيَّينِ، أو العَهْدِ والعَصْرِ الزَّمانيَّين، منهُ صلى الله تعالى عليه وسلم غيرُ[1] عاجزٍ عن إدراكِ حَقيقةِ مَعْناه، وغيرُ ساكتٍ عن حَقِّيَّةِ مَبْناه، سواءٌ مَن تَشَرَّفَ بلُقْياه، وطُوبَى لِـمَن رآه، أو تَحسَّرَ على عدمِ مُطالَعةِ طَلْعةِ مولاه، مَقُولاً في حَقِّهِ: واشَوْقاه.

أو القُرْبُ والبُعْدُ بحسَبِ الـمَرْتبةِ واعتِبارِ المَنْزلةِ، يعني: يَستوِي في عَدَمِ العلمِ بإحاطةِ كمالاتهِ، والتَّحَيُّرِ في عُلُوِّ ذاتهِ ورفعةِ صِفاته، مَن قَرُبَ إليهِ في الحالِ والـمَقام؛ كأُولي العَزْمِ مِن الرُّسلِ الكِرَام، والملائكةِ المقرَّبينَ وحَمَلةِ العرشِ الكِرَام، ومَن بَعُدَ عن مُساهَمتهِ ومُسايَرتهِ مِن عَوَامِّ الأَنَام.

٤٩ ـ كالشَّمسِ تَظْهرُ للعينينِ مِن بُعُدٍ　　صغيرةً وتُكِلُّ الطَّرْفَ مِن أَمَمِ

---

(١) كلمة «غير» ضبطت في «ل» بالضم.

(بُعُد) بضمَّتينِ لغةٌ، والإكْلالُ: التَّعجيزُ عن الإدراكِ، و(الطَّرْف): البَصَر، و(أَمَمٍ) بفتحَتَينِ: القُرْبُ.

يعني: أنَّه صلى الله تعالى عليه وسلم في وَصْفِهِ الذي تَقَدَّمَ ـ مِن أنَّه عَجَزَ عن فَهْمِ مَبَانيهِ وإدراكِ مَعانيهِ القريبُ والبعيد، والشَّقيُّ والسَّعيد ـ كالشَّمسِ التي تَظْهرُ للعينينِ مِن جِهةِ البُعدِ حالَ كونِها صغيرةً، وتُعْجِزُ البَصَرَ والنَّظَرَ مِن القُرْبِ وتُصَيِّرُ نَفْسَ الرَّائي حَسيرةً، وهذا مِن تشبيهِ المعقولِ بالمحسوس؛ لتقريبِ الفَهْمِ المَنْكوس.

والحاصلُ: أنَّ الشَّمسَ ـ على ما قيل: إنَّها قَدْرُ كُرةِ الأرضِ مئةً وتِسعاً وسِتِّينَ مَرَّةً[1] ـ كما أنَّها تَظهرُ مِن المسافةِ البعيدةِ صغيرةً، وإذا تَقَرَّبَ الشَّخصُ لإدراكِ حقيقتِها ومَنزِلتِها يَرَى نَفْسَه عاجزةً حقيرةً، كذلك هو صلى الله تعالى عليه وسلم يُرَى في بادئِ النَّظَرِ أنَّه فردٌ مِن آحادِ البشرِ، وإذا تَأَمَّلَ الواحِدُ في جمالِ ذاتِهِ وكمالِ صِفاتِه، تَحيَّرَ وعَجَزَ عن إدراكِ مراتبِ دَرَجاتِه، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، قال المفسِّرون: المرادُ بالبَعْضِ: ذاتُه العَلِيَّةُ الصِّفات.

أو يقالُ: إنَّه ﷺ يُرَى في نظرِ الأغيارِ مِن أهلِ الغفلةِ عن الأسرارِ صغيراً[2]، وفي عينِ أهلِ البَصيرةِ مِن الأعيانِ وخُلاصةِ الإنسانِ كبيراً[3]، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ظاهراً ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]؛ أي: باطناً. ومنهُ قولُه صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهمَّ اجْعَلْني في عَيني صَغيراً»؛ أي: لمشاهَدةِ عَظَمتكَ «وفي أَعْيُنِ النَّاسِ كبيراً»[4]؛ أي: لـمُكاشَفةِ قُدْرتِكَ.

---

(١) في هامش «ل»: «مقدار الشمس».

(٢) في النسختين: «صغير»، والصواب المثبت.

(٣) في النسختين: «كبير»، والصواب المثبت.

(٤) رواه البزار في «مسنده» (٤٤٣٩) من حديث بريدة رضيَ اللهُ عنه، وقال أبو حاتم كما في «العلل» لابنه (٢/ ١٦٢): حديث منكر لا يعرف.

٥٠ ـ وكيفَ يُدْرِكُ في الدُّنْيا حَقيقتَهُ قومٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عنهُ بالحُلُمِ

(كيف) ظرفٌ متضمِّنٌ لاستفهامِ الإنكارِ والاستبعادِ، ومُتعلِّقٌ بـ (يُدْرِكُ)، وتَقَدَّمَ لصَدارةِ الاستِفْهام، و(الحُلُم) بضمَّتينِ لغةٌ، وهو ما يَراهُ النَّائمُ، والمرادُ هنا: الخَيَالُ. والقومُ همُ الوَرَى، أو ما وراءَ الأنبياءِ والأولياءِ.

والمعنى: كيفَ يَعلَمُ في الدُّنيا الدَّنيَّة حقيقةَ الذَّاتِ المحمَّديَّة، وحَقِّيَّةَ الصِّفاتِ الأحمديَّة، جماعةٌ غافلةٌ كالنِّيَام، قَنِعُوا عن معرفتهِ بالخَيَالاتِ والأوهام، وفيهِ تَنبيهٌ على ما رُوِيَ: «النَّاسُ نِيَامٌ فإذا ماتُوا انْتبَهُوا»[١]، وإشارةٌ تحتَها بِشارةٌ: أنَّ شمسَ جمالهِ وكوكبَ جلالهِ تَطْلعُ مِن أُفُقِ كمالهِ في الآخرةِ وقت النَّدَامة، كما قال: «آدمُ ومَن دُونَهُ تحتَ لِوَائي يومَ القِيَامةِ»[٢]، فإنَّ البصائرَ تَكْمُلُ حينئذٍ لإدراكِ السَّرائرِ للقريبِ والبَعيد، قال تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، ولذا قال بعضُ العارفين: إنَّما امْتَنعَ رؤيةُ اللهِ تعالى في الدُّنيا الفانيَةِ لأنَّ الباقيَ لا يُرَى إلَّا بالعينِ الباقيَة.

٥١ ـ فمَبْلَغُ العِلْمِ فيهِ أنَّهُ بَشَرٌ وأنَّهُ خيرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

يُقرأُ البيتُ بإشباعِ هاءِ (فيه) على قراءةِ المكِّيِّ، وكسرِ الميمِ في (كُلِّهِمِ)، والإشباعُ مِن الحُكْمِ الشِّعريِّ.

يعني: نهايةُ بلوغِ عِلْمِنا، وغايةُ وصولِ فَهْمِنا، في مَبْنَى ذاتِهِ: أنَّهُ بشرٌ عَظِيم، وجوهرٌ جَسِيم، مِن أفرادِ الإنسان، وآحادِ الأَعْيان، وفي معنَى صفاتهِ أنَّه أفضلُ الكائنات، وسيِّدُ المَوْجودات، وإنما أَكَّدَ بالـ (كُلّ) دَفْعاً لخلافِ البعضِ، وهذا إشعارٌ بالعجزِ والقُصورِ لأهلِ الثَّقَلَين، عن إحاطةِ كُنْهِهِ في الجانِبَين.

---

(١) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٩٩٣): «لم أجده مرفوعاً، يعزى لعلي بن أبي طالب». ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥٢) عن سفيان الثوري قوله.

(٢) رواه الترمذي (٣٦١٥) من حديث أبي سعيد رضِيَ اللهُ عنه، وقال: حسن صحيح.

٥٢ ـ وكلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الكِرَامُ بها فإنَّمـا اتَّصَلَـتْ مِـن نُـورِهِ بِهِـمِ

(كلُّ) مرفـوعٌ على الابتداءِ، والـواوُ لعطفِ الجملِ، ويَبْعُدُ قـولُ عصامِ الدِّينِ: إنَّـه منصوبٌ عطفاً على اسـمِ (أنَّ)، والآيُ: جمـعُ الآيةِ بمعنَى المعجزةِ، و(الرُّسْـلُ) بسـكونِ السِّـينِ تخفيفـاً: جمـعُ الرَّسـولِ، و(الكِـرَامُ): جمـعُ الكريـمِ، وهـو مِن بابِ الاكتِفـاءِ[1]، إذ يُفْهَمُ غيرُه بالطَّريـقِ الأَوْلَى.

يعني: جميعُ ما أَتَى الرُّسلُ والأنبياءُ مِن خَوَارِقِ العاداتِ فإنَّما اتَّصَلتْ تلك الآياتُ الظَّاهراتُ، أو المعجزاتُ الباهراتُ، مِن أثرِ نُورِهِ الأصليِّ، الذي اتَّصلَ إليهِم بالطَّريقِ الفَرْعيِّ، فمعجزاتُ السَّابقِينَ معجزةٌ له، كما أنَّ كراماتِ اللَّاحِقِينَ كرامةٌ له، فالسَّابِقونَ واللَّاحِقونَ إنَّما هُمْ في الحقيقةِ له نائِبون، كالمقدِّمةِ والسَّابِقةِ للأميرِ سائِرون، وإلى حُكْمِهِ صائِرون، وكذا كلُّ عِلْمٍ ومعرفةٍ ونُكتةٍ وحِكمةٍ فإنَّها مِن أشعَّةِ أنوارِه، ولمعةِ أسرارِه.

٥٣ ـ فإنَّه شمسُ فضلٍ هُمْ كَوَاكبُها يُظْهِـرْنَ أنوارَهـا للنَّـاسِ فـي الظُّلَـمِ

---

(١) الاكتفاء: أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة، ويختص غالباً بالارتباط العطفي كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ أي: والبرد، وخصص الحر بالذكر لأن الخطاب للعرب وبلادهم حارة، والوقاية عندهم من الحر أهم لأنه أشد عندهم من البرد، وقيل في تأويله غير ذلك.

ومنه: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]؛ أي: والشر، وإنما خص الخير بالذكر لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم، أو لأنه أكثر وجوداً في العالم، أو لأن إضافة الشر إلى الله ليس من باب الآداب.

ومنه: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣]؛ أي: وما تحرك، وخص السكون بالذكر لأنه أغلب الحالين على المخلوق من الحيوان والجماد، ولأن كل متحرك يصير إلى السكون.

ومنه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]؛ أي: والشهادة؛ لأن الإيمان بكل منهما واجب، وآثر الغيب لأنه أمدح، ولأنه يستلزم الإيمان بالشهادة من غير عكس. انظر: «الإتقان» للسيوطي (٢/ ٢٠٣).

تَخييلٌ حَسَنٌ وتعليلٌ مُسْتَحْسَنٌ، فإنَّ تشبيهَ النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم بالشَّمسِ تَشبيهٌ بليغٌ، والإضافةُ بمعنَى (مِن)؛ أي: مِن أفضالِ اللهِ، كذا قيلَ.

والأظهرُ: أنَّ الفضلَ بمعنى الفَضيلةِ والزِّيادةِ، والإضافةَ لأَدْنَى الـمُلابَسةِ، يعني: كما أنَّ الشَّمسَ متميِّزةٌ بزيادةِ الضَّوءِ وأصالةِ النُّورِ مِن سائرِ الأقمارِ والكواكبِ الكَوَامِلِ، كذلك نبيُّناً ممتازٌ بفضلِ أسرارِ الفضائلِ، وأصلِ أنوارِ الشَّمائلِ، عن سائرِ أربابِ الفَوَاضِلِ، وهم ـ يعني: الرُّسلَ والأنبياءَ ـ أمثالُ الكَوَاكبِ لتلك الشَّمسِ.

والإضافةُ تُفيدُ أنَّ كوكبَ الشَّمسِ مُخْتصٌّ بما يَستفِيضُ مِن فَيْضِه، ويَستفيدُ مِن ضَوئِه، وهو القمر، كما هو في محلِّه مُقرَّر، فجَمْعُه لتَعَدُّدِ المشبَّهِ به[1]، وقيل: باختلافِ أحوالِهِ مِن الهلاليَّةِ والبَدْريَّةِ وغيرِهما.

وقيل: المرادُ مُطْلَقُ الكواكبِ، فيكونُ الحُكْمُ تغليبيًّا أو مُبالغةً أو ادِّعائيًّا، (يُظْهِرْنَ)؛ أي: الكواكبُ أنوارَ الشَّمسِ للنَّاسِ، وخُصُّوا لشرفهم، ولو قال: للخَلْقِ، لعَمَّ.

(في الظُّلَمِ): جمعُ ظُلمةٍ؛ أي: ظُلَمِ اللَّيالي.

والمعنى: أنَّه صلى الله تعالى عليه وسلم بمنزلةِ الشَّمسِ في أفقِ سماءِ العَدْلِ والفَضْلِ، بزيادةِ النُّورِ ومَزِيَّةِ الأَصْلِ، وسائرُ الأنبياءِ في المشارقِ والـمَغَارِب، إنَّما هم بمنزلةِ القمرِ مِن بينِ الكواكِب، في أنَّهم يَستمدُّونَ مِن نورِ نُبوَّتِهِ القَدِيمة، ويَستنيرونَ مِن ضياءِ رسالتِهِ القَويمة، أو لأنَّهم كالنُّجومِ يُظْهِرونَ أنوارَهُم في اللَّيالي الـمُظْلِمَة، والأوقاتِ المُدْهِمَة.

(للناس)؛ أي: لبعضِهم، أو لكلِّهم، والتَّخصيصُ بالنَّاسِ لأنَّ الجِنَّ لَمْ يُبْعَثْ غيرُ نبيِّنا بهم.

وإذا طَلَعَ نورُ الشَّمسِ المحمَّديَّة، غابَ كواكبُ الأنبياءِ والرُّسلِ الأَحَديَّة، وعلى

(١) فوقها في «د»: «أي: الأنبياء».

هذا فالتَّعبيرُ عن الأنبياءِ المشبَّهينَ بالكواكبِ الـمُنوِّرين بضميرِ الإناثِ في (يُظْهِرْنَ) بناءٌ على حُكْمِ المعبَّرِ به، وهذا عكسُ ما وَرَدَ في القرآنِ مِن قولِهِ تعالى: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وفيه إشارةٌ إلى نَسخِ شريعةِ نبيِّنا صلى الله تعالى عليه وسلم شرائعَ مَن قَبْلَهُ مِن الأنبياء، وإيماءٌ إلى أنَّ يومَهُ ليسَ بعدهُ ليلٌ، ودِيْنَهُ لا يَعْقُبُه زوالٌ وفَناء.

٥٤ ـ أَكْرِمْ بخَلْقِ نَبيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ بالحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بالبِشْرِ مُتَّسِمِ

(أَكْرِمْ بـه) صيغةُ تَعَجُّبٍ، والخَلْقُ بالفتحِ: الخِلْقةُ والصُّورةُ، وبضَمَّتينِ: الصِّفةُ والسِّيرةُ.

والاشْتِمالُ في أصلِ الاستِعْمالِ: التَّلَفُّفُ بالشَّمْلةِ والتَّلبُّس بها مع الإحاطةِ.

و(البِشْر) بالكسرِ: ما يَظهَرُ في بَشَرةِ البَشَرِ مِن أثرِ السُّرورِ، ويسمَّى: البَشاشةَ، وفي بعضِ النُّسخِ: (بالبِرِّ)، وهو سَعَةُ الخيرِ والسَّماحةُ.

والاتِّسامُ بالشَّيْءِ: الاتِّصافُ به، مِن الوَسْمةِ وهي العَلامةُ.

وجملةُ (زانَهُ) صفةُ (نبيٍّ) أو (خَلْقِ نبيٍّ).

و(بالحُسنِ) متعلِّقٌ بـ(مُشْتمِلٍ) وهو بالجرِّ صفةٌ أُخرَى، ومِثْلُه ما بعدَه، والحُسْنُ راجِعٌ إلى الخَلْقِ، والبِشْرُ ناظِرٌ إلى الخُلُق، أو كلٌّ منهُما أعمُّ، وهو في ذَوْقي أَتَمُّ.

يعني: ما أَكْرمَ خَلْقَ نبيٍّ وصُورتَهُ الظَّاهِرةَ، الذي زَيَّنَهُ وحَسَّنهُ خُلُقُه وسيرتُه الباطِنةُ الطَّاهِرة، فهو كما قال تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، وقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] هو[1] الموصوفُ باشتِمالِ الحُسْنِ وإحاطَتِهِ جميعَ حالاتِهِ ومَقَالاتِه، وحَرَكاتِهِ وسَكَناتِه، والـمُتَّصِفُ بالارْتِسامِ بالبِشْرِ التَّامِّ،

(١) كلمة «هو» ليست في «ل».

والبَشَاشَةِ على طريقِ الدَّوَام، والابْتِسامِ في وجهِ الخاصِّ والعامّ، على وجهٍ يرتضِيهِ الملِكُ العلَّام، عليه الصَّلاةُ والسَّلام، ما دامَتِ اللَّيالي والأيَّام.

وإنْ كُنْتَ تُريدُ أنْ تُدْرِكَ لائحةً مِن صِفاتِ خَلْقِهِ الجَسيم، أو تَشَمَّ رائحةً مِن نُعوتِ خُلُقِهِ العَظيم، فعليكَ بـ«الشِّفا» و«المواهب»؛ لتَظْفَرَ بالعجائبِ والغَرَائب.

٥٥ـ كالزَّهْرِ في تَرَفٍ والبَدْرِ في شَرَفٍ والبحرِ في كَرَمٍ والدَّهْرِ في هِمَمِ

أي: هو صَلَّى اللهُ تعَالَى عليهِ وسلَّمَ، وشَرَّفَ وكَرَّمَ، مِثْلُ الزَّهْرِ والوَرْدِ في الظَّرافةِ والطَّراوة، وفي اللَّطافةِ والطَّلَاوة[1]. ومِثْلُ البَدْرِ وهو ليلةَ أربعةَ عَشَرَ، المُعبَّرِ عنه بطَرَفي الرِّفعةِ والتَّعْليَةِ على الكائنات، وفي غَلَبَةِ نُورِهِ على سائرِ المخلوقات، وهو وما قَبْلَهُ متعلِّقانِ بخَلْقِهِ المكرَّم، كما أنَّ الوصفانِ المتأخِّرانِ راجِعانِ إلى خُلُقِهِ المُعظَّم، ومِثْلُ البحرِ في أنواعِ الإحسانِ إلى أفرادِ الإنسان، كما قال تعالى في سورةِ الرَّحمن: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٢ـ٢٣]. ومِثْلُ الدَّهرِ ـ وهو أعمُّ مِن العَصْرِ ـ في الهمَّة، والقَصْدِ والنيَّة، والظاهرُ أنَّ المرادَ بها مَلَكةُ الشَّجاعةِ، وعُلُوُّ همَّةِ الزَّمانِ تَخْييليٌّ، وأمَّا وَصْفُه فتَحْقيقيّ، والتَّشبيهُ مِن بابِ تشبيهِ النَّعتِ المَعْنويِّ بالأمرِ الحِسِّيّ.

وممَّا وَرَدَ في نُعومةِ بَدَنِهِ ورعانةِ جَسَدِه: ما أَخْرجهُ الشَّيخانِ عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه: ما مَسِسْتُ حريراً ولا دِيباجاً ألينَ مِن كفِّ النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم[2].

وممَّا جاء في عُلُوِّ مَقامِهِ ونُورِ وجهِهِ: ما أشارَ إليه صلى الله تعالى عليه وسلم بقولِهِ: «فَضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البَدْرِ على سائرِ الكواكِبِ»،

---

(١) في «د»: «والطلاقة».

(٢) رواه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٣٠).

رواهُ أحمدُ والتِّرمِذيُّ وغيرُهما[١]، وقال في حديثٍ آخَرَ: «فَضْلُ العالِـمِ على العابِدِ كفَضْلِي على أَدْناكُمْ»، رواه الترمذي وغيره[٢].

وممَّا رُوِيَ في كَرَمِهِ وإحسانِه وبِرِّهِ وامْتنانِه: ما رواهُ مسلمٌ عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه قال: ما سُئِلَ رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم على الإسلامِ شيئاً إلَّا أعطاهُ، قال: فسألهُ رجلٌ غَنَماً بينَ جَبَلينِ فأعطاهُ إياهُ، فأَتَى قومهُ فقال: يا قومِ أَسْلِموا، فواللهِ إنَّ محمَّداً يُعطِي عطاءَ مَنْ لا يخافُ الفقرَ[٣].

وممَّـا يَـدُلُّ علـى قُـوَّةِ قَلبِـهِ وهِمَّتِـهِ ومَلَكـةِ شَـجَاعتهِ: رَكْـضُ بغلتهِ لمَّـا ولَّى المسـلمونَ فـي حُنَيـنٍ قِبَـلَ الكفَّـارِ إلـى أنِ انْهَزَمُـوا بحَصَيـاتٍ رماهُـم بها[٤].

وعن البَرَاءِ: كنَّا واللهِ إذا احْمَرَّ البأسُ نتَّقِي بِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم[٥].

رَوَى الحديثينِ مُسلمٌ، والتَّشبيهُ الأخيرُ على عادةِ شُعراءِ العربِ ومُبالَغتِهم في تَحسيناتِ الأدبِ، ونظيرُه قولُ الشَّاعرِ في ممدوحِهِ:

لـه هِمَـمٌ لا مُنْتَهَـى لكبيرِهـا وهمَّتـهُ الصُّغـرَى أَجَـلُّ مِـن الدَّهْـرِ[٦]

وقد نُسِبَ هذا البيتُ إلى حسَّانٍ مَدَحَ به النَّبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١٩٦)، والترمذي (٢٦٨٢)، من حديث أبي الدرداء رضِيَ اللهُ عنه. ورواه أيضاً أبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٥) من حديث أبي أمامة رضِيَ اللهُ عنه وقال: حديث غريب.

(٣) رواه مسلم (٢٣١٢).

(٤) رواه مسلم (١٧٧٥).

(٥) رواه مسلم (١٧٧٦).

(٦) أنشده ضمن أبيات أعرابي لداود بن المهلب، وفيه قصة ذكرها التنوخي في «المستجاد من فعلات الأجواد» (ص ٣٢).

٥٦ ـ كأنَّهُ وهو فَرْدٌ في[1] جَلَالَتِهِ   في عَسْكَرٍ حينَ تَلْقاهُ وفي حَشَمِ

(في جلالته) صفةٌ لـ(فردٍ)، و(في عَسكرٍ) متعلِّقٌ بمحذوفٍ في محلِّ رفعٍ على أنَّهُ خَبَرُ (كأنَّ)؛ أي: كأنَّ النبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم والحالُ أنه مُنْفرِدٌ بذاتِه، وثابتٌ في عَظَمةِ صِفاتِه، وكائنٌ في ظهورِ كَمَالاتِه، مِن كمالِ هيبتِه، وجَلالِ أُبَّهتِه، قائمٌ في قلبِ عسكرٍ كبير، وفي وَسْطِ حَشَمٍ كثير، حينَ تَلْقاهُ أيُّها المخاطَبُ، وتَراهُ في ذلك الموكِبِ.

وفي البيتِ إشارةٌ إلى قوَّةِ شجاعتِه، وعَظَمةِ مَهابَتِه، بأنْ يكونَ حالَ الانْفِرادِ مِن قوَّةِ الجَأْشِ كمَن يكونُ في قلبِ الجيوشِ مِن حالِ الانْتِعاش، وإيماءٌ إلى أنَّه لا يَخلُو عن مُتابعةِ أعوانِه، ومُشايَعةِ خِلَّانهِ مِن الرِّجالِ الغَيبيَّة، والملائكةِ السَّماويَّة.

وفي نسخةٍ: (مِن جَلَالتِهِ) على أنَّه علَّةٌ للتَّشبيهِ الـمُستفادِ مِن (كأنَّ)، وهو في المعنَى وجهُ الشَّبَهِ؛ إذِ القَصْدُ تَشْبيههُ مُفْرَداً بنَفْسهِ الـمُختار، مصحوباً بعسكرٍ وحَشَمٍ في الهيبةِ والوَقَار.

وفي نسخةٍ: (بُهَم) ـ بدلَ (حَشَم) ـ بضمِّ الباءِ: جمعُ بَهْمٍ بفتحِها، وهو الشَّجِيعُ، وقيل: جمعُ بُهمةٍ كـ: تُهمة، وهو العسكرُ أو الرُّكبانُ، والنُّسخةُ المشهورةُ أَوْلَى؛ لإتيانِ هذهِ اللَّفظةِ في القَوَافي الآتيَةِ.

٥٧ ـ كأنَّما اللُّؤْلُؤُ المَكْنونُ في صَدَفٍ   مِن مَعْدِنَيْ مَنْطِقٍ منهُ ومُبْتَسَمِ

يُقرأُ البيتُ بسكونِ الهمزةِ الأُولَى وإبدالِها مِن (اللُّؤلؤ)، وبإشباعِ هاءِ (منه)، وهو راجعٌ إليهِ صلى الله تعالى عليه وسلم.

والمَنْطِقُ: مكانُ النُّطْقِ، وهو القلبُ أو اللِّسانُ، وهما مَظْهَرُ البيانِ.

والمُبْتَسَمُ بصيغةِ المفعولِ: مكانُ التَّبَسُّمِ وهو الشَّفَتانِ، وهما مَظْهَرُ الأسنانِ.

---

(١) في هامش «ل»: «من»، وهي نسخة كما سيرد.

ويُـمْكِنُ أنْ يكونَ الـمَنْطِقُ والـمُبْتَسَمُ مَصْدرانِ، والإضافةُ بمعنَى اللَّام، وعلى الأوَّلِ للبيانِ.

وفي البيتِ تَشْبيهانِ: أحدُهما مَعْنويٌّ، والآخَرُ حِسِّيٌّ، يعني: أنَّ جَوَامِعَ كَلِمِهِ ودُرَرِه، ومَنْظومَ أسنانِهِ وثَغْرِهِ؛ كاللُّؤلؤِ المَصُونِ في لَطَافتِهِ وغُرَرِه، كما قال البُحْتُريُّ:

فمِـنْ لُؤْلُـؤٍ يُبْدِيـهِ عنـدَ ابْتِسـامِهِ ... ومِـن لُؤْلُـؤٍ عنـدَ الـكلامِ يُسَـاقِطُه[1]

وشبَّهَ الفمَ والقلبَ بالمَعْدنِ في أنَّه لا يَنْفَدُ بكثرةِ لَطافتِهِ، ووَصَفَ اللُّؤْلؤَ بالمكنونِ الدَّالِّ على طَرَاوَتِهِ، وتقييدُه بكونِهِ في صَدَفِهِ ومَعْدِنِهِ لكونِهِ فيهِ أحسنَ منهُ في غيرِه.

قال المحليُّ: حُكِيَ أنَّ بعضَهم رأى في المنامِ أنَّ الصِّدِّيقَ يَزُفُّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بهذا البيتِ والبيتِ الذي قَبْلَه، بأحسنِ الأنغامِ.

ولَمَّا أشارَ ببعضِ كمالاتِهِ الصُّوريَّةِ والمعنويَّةِ مِن خَلْقِهِ وخُلُقِهِ حالَ الحياةِ، أَوْمَأَ بأنَّه أيضاً متميِّزٌ عن سائرِ المخلوقاتِ في حالِ المَمَات، كما قالَ صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنَّ اللهَ حَرَّمَ على الأَرْضِ أنْ تَأْكُلَ أَجْسادَ الأَنْبِيَاء»[2].

٥٨ ـ لا طِيْبَ يَعْدِلُ تُرْباً ضَمَّ أَعْظُمَه ... طُوْبَـى لِمُنْتَشَـقٍ منـهُ ومُلْتَثَـمِ

الطِّيبُ: اسمٌ لِمَا يُتطَيَّبُ بِهِ، وعَدَلَ به: ساواهُ، والتُّرْبُ بالضمِّ بمعنَى التُّربةِ أو التُّرابِ، ونَصبُهُ بنزعِ الخافضِ، والضَّمُّ بمعنَى الجمعِ واللَّمِ.

والأَعْظُمُ: جمعُ العِظَام، والمرادُ: جميعُ أعضائِهِ المعظَّمةِ، مَجازاً بِذِكْرِ الجزءِ وإرادةِ الكلِّ.

---

(١) البيت في «الصناعتين» لأبي هلال العسكري (ص ٢٠٨)، و«وزهر الآداب» للقيرواني (١/ ٢١٥)، و«محاضرات الأدباء» لأبي القاسم الأصبهاني (٢/ ٣٢٦)، وروايته في المصادر:

فمِـن لؤلـؤٍ تَجْلُـوهُ عنـد ابتسـامِها ... ومِـن لؤلـؤٍ عنـد الحديـثِ تُسـاقِطُهْ

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٨)، وأبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٤٧٤)، وابن ماجه (١٦٣٦)، من حديث أوس بن أوس رضِيَ اللهُ عنه.

و(طُوبَى) مصدرٌ مِن بابِ طابَ؛ كبُشْرَى وزُلْفَى، والواوُ منقلِبةٌ عن الياءِ لضمَّةِ ما قَبْلَها، وهو مرفوعُ المحلِّ؛ كقولكَ: سلامٌ لك، أو منصوبُ المحلِّ؛ كـ: طِيباً لكَ، و: سلاماً لك. واللامُ للبيانِ كما في: سَقْياً لكَ، ومعناهُ: أَصَبْتَ خيراً أو طِيباً، وفيهِ معنَى التَّعجُّبِ والتَّمَنِّي.

وانْتَشَقَ؛ أي: شَمَّ، وتُقرأُ هاءُ (منهُ) بالإشباعِ، وضَميرُهُ راجعٌ إلى (ترب)[1]، وهو أبلغُ مِن أنْ يكونَ عائداً إليهِ صلى الله تعالى عليه وسلم. ولَثَمَهُ والْتَثَمهُ: قَبَّلهُ.

يعني: لا يُوجَدُ طيبٌ[2] مِن مِسْكٍ أو عبيرٍ أو عنبرٍ أو غيرِها يُساوي نفسَه بترابِ تربتِهِ التي لَمَّتْ أعضاءَهُ وجَمَعَتْ أجزاءَه، وأحاطَتْ بجسمِهِ الشَّريفِ، وقُرِنَتْ بقُرْبِ بدنهِ اللَّطيف.

ولهذا يَتعجَّبُ ويَتمَنَّى ـ ويُقالُ: ويَترَنَّى ـ بأنَّ الحالَ المستَطابةَ حاصلةٌ لـمُنْشَمٍّ مِن ذلك التُّراب، ومُقبِّلٍ مِن ذلكَ الأَعْتاب، وهو كنايةٌ عن الزِّيادةِ والاقْتِراب، مِن ذلك البَاب، ففي الحديثِ المتَّفقِ عليه عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه قال: ما شَمَمْتُ عَنْبراً ولا مِسْكاً ولا شَيْئاً أَطْيَبَ مِن رِيحِ رسولِ اللهِ ﷺ[3].

والبيتُ مُقْتَبَسٌ مِن مَرْثِيَةِ البَتُولِ الزَّهْراءِ فاطِمةَ الكُبْرى رضِيَ اللهُ عنها:

صُبَّتْ عَلَيَّ مَصائِبٌ لَوْ أَنَّها ... صُبَّتْ عَلَى الأَيَّامِ صِرْنَ لَيَالِيَا

ماذا عَلَى مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ ... لَوْ لَمْ يَشَمَّ[4] مَدَى الزَّمَانِ غَوَالِيَا[5]

---

(١) في النسختين: «تربة»، والمثبت هو الموافق لما في البيت.

(٢) في النسختين: «طيبك»، والصواب المثبت.

(٣) رواه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٣٠).

(٤) في هامش «ل»: «أن لا يشم»، وانظر التعليق الذي بعده.

(٥) البيتان في «الوفا بحقوق المصطفى» لابن الجوزي (ص ٨١٩)، و«نهاية الأرب» للنويري (١٨/ ٢٦٥)، و«سلوة الكئيب» لابن ناصر الدين الدمشقي (ص ١٦٢). وفيها جميعاً: «أن لا =

ثُمَّ صَرَّحَ العلماءُ بأنَّ ضَريحهُ صلى الله تعالى عليه وسلم أفضلُ مِن الكعبةِ، وإنَّما الخلافُ المشهورُ بينَ مكَّةَ والمدينةِ، بل رُوِيَ عن الغزاليِّ: أنَّ تُربةً لَصِقَتْ بجسدهِ مِن الفَرْش، أَعْلى رتبةً مِن العرش[١].

ثُمَّ لمَّا ذَكَرَ أنَّه بَلَغَ مَبْلَغَ الكمالِ في جميعِ الأحوال، أشارَ إلى أنَّه ظَهَرَ مِن مَبادِيهِ لوائحُ الجَمَال، فقال:

٥٩ ـ أَبَانَ مَوْلِدُه عن طِيبِ عُنْصُرِه   يـا طِيْـبَ مُبتـدَأ مِنـهُ ومُخْتَتَـمِ

الإبانةُ: الإظهارُ، والمَولِدُ والمبتدأُ والمختَتَمُ، وفي نسخةٍ: (المُفْتَتح): أسماءُ زمانٍ.

والعُنْصُرُ: الأصلُ والأركانُ. و(منه) بإشباعِ الهاءِ، والضميرُ راجعٌ إليهِ ﷺ.

يعني: أَظْهرَ زمانُ ولادتِه، بإظهارِ اللهِ وإرادتِه، عن نظافةِ مادَّتِه وأصلِهِ ونَسَبِه، ولَطَافةِ خِلْقَتِهِ وحَسَبِه، فيا قومِ انْظُروا طِيْبَ زمانِ ابتِداءِ خِلْقتِه، وطَهَارةَ وقتِ اختتامِ رِحْلتِه.

والنِّداءُ للتَّعجُّب والتَّعْجيب، والحثُّ على فَهْمِهِ والتَّرْغيب، وفيهِ إيماءٌ إلى حُسْنِ فاتِحتهِ وخاتِمَتِه، وإنْباءٌ إلى عُلُوِّ سعادَتِهِ في بِدَايتِه، التي هي أساسُ نهايتِه، ولذا قال الصِّدِّيقُ الأكبرُ لـمَّا قبَّلَهُ بعدَ مماتِه: طِبْتَ حيّاً ومَيِّتاً[٢]، وكما قال الشَّاعر:

فـي المَهْـدِ يَنْطِـقُ عـن سَـعادَةِ جَـدِّهِ   أثـرُ النَّجَابـةِ سـاطِعَ البُرْهـانِ[٣]

والمرادُ بالابتداءِ والاخْتِتام: الاستمرارُ والدوام؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٢]، ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

٦٠ ـ يـومٌ تَفَـرَّسَ فيـهِ الفُـرْسُ أنَّهـمُ   قـد أُنْـذِروا بحُلـولِ البُـؤْسِ والنِّقَـمِ

= يشم»، وفيها أيضاً عكس الترتيب في البيتين.

(١) في هذا الكلام والاستدلال نظر، فإن مثل هذه الأمور الغيبية يستدل لها بالحديث والأثر.

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٧).

(٣) انظر: «خزانة الأدب» (٢/ ٢٠٠).

المـرادُ باليـوم: مُطْلَقُ الزَّمان؛ لقولِهِ فـي البيتِ الآتي: (وباتَ إيوانُ كسـرى)، وهـو بدلٌ مِن (مولـدُه)، أو خبرُ مقـدَّرٍ هو: هو.

و(تَفَـرَّسَ)؛ أي: نَظَـرَ وعَلِمَ بالفِراسـةِ، وهي قـوَّةٌ يُدْرِكُ بها الإنسـانُ المعانيَ الباطِنَـةَ مِن المخايـلِ الظَّاهرةِ.

و(الفُـرْسُ): اسـمُ جمعٍ لأهـلِ بلادِ فارِسَ، وهو بكسـرِ الرَّاءِ في لغـةِ العربِ، وبسُـكونها في كلامِ العَجَمِ.

و(أَنَّهمُ) يُقرأُ بصِلَةِ الميم. و(البُؤْس) يُهْمَزُ ولا يُهْمَزُ، وهو الشِّدَّةُ الـمُوْرِثةُ للهَمِّ والحزنِ. و(النِّقَم) بكسرِ النُّونِ وفتحِ القافِ: جمعُ نِقْمةٍ بمعنَى العُقوبةِ.

يعني: زمانُ وِلادَتِه، وأوانُ بدَايَتِه صلى الله تعالى عليه وسلم، هو وقتٌ ظَهَرَ بطريقِ الفِرَاسَة، في ساعتِه الموصوفَةِ بالنَّفَاسَة، لأهلِ الفُرْسِ مِن عُظمائِهِمْ وعُلَمائِهِمْ، أَنَّهم قد أُعْلِموا إعْلاماً مُتضمِّناً للتَّخويف، بنزولِ الشَّدائِدِ والعُقوباتِ بهِمْ على وَجْهِ التَّضعيف، مِن زوالِ دولَتِهم، وانْقِراضِ مِلَّتِهِمْ، حيثُ قارَنَ ولادَتَهُ الآياتُ والعلاماتُ، التي يُقالُ لها: الإرْهاصَاتُ، وهي خَوَارِقُ العادات، المتقدِّمةُ على ظُهورِ المُعْجِزات، كما أشارَ إلى بعضِها المصنِّفُ، ويَعْجِزُ عن إحصائِها المُنْصِف.

٦١ ـ وباتَ إيوانُ كِسْرَى وهو مُنْصَدِعٌ ... كشَـمْلِ أصحابِ كِسْـرَى غيرَ مُلْتَئِمِ

(باتَ) عطفٌ على (تَفرَّسَ)؛ أي: صارَ في وقتِ البَيْتوتةِ، والمرادُ: ليلةُ مِيلادِهِ عليهِ التَّحِيَّةُ، والإيوانُ بكسرِ الهمزةِ مُعرَّبٌ لـمُسقَّفٍ لا يكونُ لجانبِهِ المقدَّمِ جدارٌ.

و(كِسْرَى) بكسرِ الكافِ وفتحِها مُعرَّبُ خُسْرُو، وهو اسمٌ لملِكِ الفُرْسِ؛ كفِرْعونَ لمِصْرَ، وقَيْصَرَ للرُّومِ، والنَّجاشيِّ للحَبَشةِ، والخاقَانِ للتُّرْكِ، وتُبَّعٍ لليَمَن.

والانْصِـدَاعُ: الانْشِـقَاقُ. والشَّـمْلُ: التَّفَرُّقُ بعـدَ الاجْتِماعِ. والالْتِئـامُ بالهمزِ: الاتِّصالُ.

والمـرادُ بـ (كسرى) الثَّاني غيرُ الأوَّلِ، وليس مِن بابِ الإظهارِ موضعَ الإضمارِ، فإنَّ الأوَّلَ أَنُوشَرْوَانُ بنُ قُبَاذَ العادِلُ، وحديثُ: «وُلِدْتُ في زمانِ الملِكِ العادِلِ» لا أصلَ لهُ كما قاله السَّخَاوِيُّ[1]، وأمَّا الثَّاني فهو أَبْرَوِيزُ بنُ هُرْمُزَ بنِ يَزْدَجِرْدَ بنِ أَنُوشَرْوَانَ.

وفي «شرح المنظومة»: أنَّ هذا الثَّانيَ عمُّ والدِ الإمامِ الأعظَمِ أبي حنيفةَ نُعمانَ ابنِ ثابتِ بنِ طاوُسِ بنِ هُرْمُزَ، وتلميذُه الإمامُ محمدٌ يَصِلُ إليهِ في طاوُسٍ، وهو محمدُ بنُ حسنِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ طاوُسٍ[2].

و(غيرَ مُلْتَئِمِ) خبرُ (باتَ)، و(كَشَمْلِ) متعلِّقٌ بـ (غيرَ ملتئِمِ)، وإنَّما لَمْ يَلْتَئِمْ ليكونَ تذكرةً باقِيَة، وتَعِيَهـا أُذُنٌ واعِيَة.

ويجوزُ أنْ يكونَ (كَشَمْلِ أصحابِ كِسْرَى) خبرَ (بات)، و(غيرَ مُلْتَئِمِ) حالاً مِن الشَّمْلِ، فيرادُ مِن الالْتِئامِ: الاتِّفاقُ.

والمعنى: صارَ ليلةَ ظُهورِه وبُدُوِّ نُورِه صلى الله تعالى عليه وسلم طاقُ إيوانِ كِسْرَى مكسوراً إشارةً إلى كَسْرِهم، وغيرَ مُلتئمٍ إيماءً إلى عَدَمِ جَبْرِهم؛ كتفرقةِ أصحابِ كسرَى الآخَرِ بعدَ اتِّفاقِهم اتِّفاقاً لَمْ يَتَّفِقْ لأحدٍ مِن مُلوكِ الأرض؛ كمَسْنَدِه، ومَقَامِه وحَشَمِه وجُيوشِه وأعوانِه وخَدَمِه، فلَمْ يَزالوا في الانْهِدامِ والانْهِزام حتى جاءَ تَباشيرُ الإسلام.

رُوِيَ: أنَّه لمَّا ارْتَجَّ إيوانُه، خافَ هو وأعوانُه، إذْ سقطَ أربعَ عَشْرةَ شُرْفةً، فوجَّهَ قاصِداً إلى النُّعمانِ بنِ مُنذرٍ أحدِ ملوكِ العربِ؛ ليَستفسِرَ عن سِرِّ ما بدا، فرَفَعَ الخبرَ إلى سَطِيحٍ وقد أَشْفَى على الضَّريح، وهو أحذقُ كَهَنةِ العرب، ما كانَ لهُ عَظْمٌ سِوَى

---

(١) انظر: «المقاصد الحسنة» (ص ٧٠٧).

(٢) في «د»: «تابوس» في المواضع الثلاثة.

رأسِهِ أصلاً، فقال: يكونُ أسبابُ شَتَاتٍ، ويموتُ مُلوكٌ ومَلِكاتٌ بعدَدِ الشُّرُفات.

قيل: قال كِسْرَى: بينَما يعيشُ أربعةَ عَشَرَ مَلِكاً ويموتون، يُدَبِّرُ اللهُ فيما سيكون.

فماتَ عَشَرةٌ مِنهم في أربعِ سِنين، وانْقَرَضَ أربعتُهم إلى خلافةِ أميرِ المؤمنين، عثمانَ رضي الله تعالى عنهُ وعن كلِّ الصَّحابةِ أجمعين.

٦٢ ـ والنَّارُ خامِدةُ الأنفاسِ مِن أسفٍ   عليـهِ والنَّهْـرُ سـاهِي العينِ مِن سَـدَمِ

الخُمودُ: الانْطِفاءُ، ونَفَسُ النَّارِ كِنايةٌ عن لَـهَبِها، والأَسَفُ: الحُزْنُ، والسَّاهي: الغافِلُ، والسَّدَمُ: الحَيْرةُ. وجملةُ: (النَّارُ خامِدَة) عَطْفٌ على قوله: (وهو مُنْصَدِعٌ)، ويجوزُ أنْ تكونَ عطفاً على (بات)؛ لأنَّ هذهِ الجُملَ في تقديرِ المفرداتِ.

يعنـي: والنَّارُ التـي كانَتْ مُوقَـدةً مُدَّةَ ألفِ سـنةٍ ـ لأنَّهم كانـوا يَعْبدُونَها، ولها خَدَمـةٌ يَحفظونَهـا ويفقدونهـا[1] ـ خَمدَتْ وهَمـدَتْ عندَ ظهورِ نورِ ولادتِه، وأشـعَّةِ شـمسِ نبوَّتِهِ وولايتِه.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مَن اقْتبَسَ مِن هذا النُّورِ انْطَمَسَ وانْطَفَأَ عنهُ النَّارُ، ويُؤيِّدهُ أنَّ نارَ جهنَّمَ تقولُ: «جُزْ يا مُؤمنُ فإنَّ نُورَكَ أَطْفأَ لَـهَبي»[2].

وقولُه: (مِن أَسَف)؛ أي: مِن تَأَسُّفٍ وتَحَزُّنٍ على كسرَى، أو الفُرْسِ، أو على كفرِهم حيثُ عَبَدُوها وتَركوا عبادةَ خالِقِها، أو مِن أَجْلِ حصولِ الأَسَفِ والحُزْنِ لهم بتَفَقُّدِ[3] مَعْبودِهم.

---

(١) قوله: «ويفقدونها»، كذا في النسختين، ولعل الصواب: «ويتفقدونها».

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٢٥٨)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٩٤)، وابن الجوزي في «العلل» (١٥٣٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٦٠): فيه سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف.

(٣) كذا في النسختين، ولعل الصواب: «بفقد».

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الحادثَ والفانيَ غيرُ مستحِقٍّ للعبوديَّة، بل الحيُّ الذي لا يموتُ يَسْتحِقُّ الرُّبوبيَّة.

وقولُـه: (والنهـر)؛ أي: وصـار في تلـكَ اللَّيلـةِ الـمُظْلِمةِ والسَّـاعةِ المكرَّمةِ نهـرُ الفـراتِ غافـلاً يَنْبوعُـه عـن مَجْـراهُ مِـن حَيـرةِ الفِـراقِ، ووَقَـعَ في سـاوةَ وهي باديـةٌ بيـنَ دمشـقَ والعراقِ.

أو المرادُ بالعينِ: الباصرةُ، فالمعنى: سَهَا عينُ ماءِ الفُراتِ لتَحَيُّرِه مِن مفاجأةِ البَلْوَى، وضلَّ الطَّريقَ لطُرُوِّ العَمَى، كذا قيل.

وقيل: أي: نهرُ كسرَى الذي جَعَلَ فوقَهُ سدًّا عظيماً ومَقاماً كريماً، وصَرَفَ فيه خَرَاجَ العالَمِ، ولَمْ يَرَ مِثْلَه عينُ بني آدَمَ، يَبِسَ في تلك اللَّيلةِ عَيْنُه، مِثْلَ قاسي قلبٍ لَمْ تَدْمَعْ عينُه مِن الحيرةِ في القُدرةِ الإلهيَّة، والخشيةِ مِن العَظمةِ السُّلطانيَّة.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الجماداتِ لها تَغَيُّراتٌ بتغييرِ المغيِّرِ الرَّبَّانيّ، وتأثيراتٌ بتأثيرِ المؤثِّرِ الصَّمَدانيّ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

وفي هذا كلِّه ردٌّ على الطَّبيعيَّة، التي تُخالفُ الأصولَ الشَّرعيَّة، وفيه إشعارٌ إلى أنَّ كلَّ نهرٍ مِن العلومِ العقليَّة، المتضمِّنةِ للدَّقائقِ الفَلْسفيَّة، ليس لها وجودٌ عندَ بحرِ عُلومِهِ الشَّرْعيَّة، ويَنْبوعِ مَعَارِفِهِ الحقيقيَّة.

٦٣ ـ وساءَ ساوَةَ أنْ غاضَتْ بُحَيْرَتُها وَرُدَّ وارِدُهـا بالغَيْـظِ حيـنَ ظَمِـي

ساءَهُ: أَحْزَنَهُ، و(ساوَة): بلدةٌ بعينِها تابِعةٌ لـهَمْدانَ في قديمِ الزَّمان، وصارَتْ أيَّامَ هارونَ الرَّشيدِ مِن أتْباعِ قُمْ قريباً مِن كاشانَ.

و(غاضَ) بمعنَى: نَقَصَ، جاء لازِماً ومُتعدِّياً، والبُحيرةُ: تصغيرُ البحرِ، قيل: وهي عَظيمةٌ، فتصغيرُها للتَّعظيم. و(رُدَّ) على بناءِ المفعولِ، وواوُه للعطفِ أو للحالِ. والوارِدُ: هو الـمُشرِفُ على الماءِ دَخَلَهُ أو لَمْ يَدْخُلْه، ويقالُ للسَّابقِ أيضاً.

والباءُ للمُلابَسةِ إنْ كان (الغَيْظ) بالظَّاء الـمُشَالةِ، أو للسَّببيَّة على روايتِهِ بالضَّادِ بمعنَى النَّقْصِ، وهو متعلِّقٌ بـ(رُدَّ). و(حينَ) يتعلَّقُ بـ(رُدَّ) أو بـ(الغيظ) أو بـ(وارد).

و(ظَمِي) فِعْلُ ماضٍ مِن الظَّمأ بالهمزِ، وهو العطشُ، فلمَّا سَكَّنَ الهمزةَ وَقْفاً أَبْدَلَ ياءً، وما وَقَعَ في بعضِ النُّسخِ مِن حذفِ الياءِ فهو سَهْوُ قَلَمٍ.

والمعنى: أَحْزَنَ أهلَ ساوَةَ ـ وكانَتْ حَوَالَيْها صوامعُ لليهودِ وكنائسُ للنَّصارَى مُعْتبَرة، ومُتنزَّهاتٌ مُشْتَهرة ـ نُقْصانُ بُحيْرتِـها مائِها، وانْتِقاصُ[1] ماءِ بُحيرتها في ليلةِ الميلادِ على خِلَافِ المُعتاد، ورَجَعَ قاصِدُ مائِها وطالِبُ ما بها[2] بالقَهْرِ والغَضَب، أو بسببِ النَّقْصِ والتَّعَب، حينَ عَطِشَ ورَجَعَ عَطشانَ، وعلى نَفْسِهِ غَضْبان.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ بحرَ أهلِ العذابِ إنَّما هو كسرابٍ بقِيعَةٍ يَحسبهُ الظَّمآنُ ماءً، بخلافِ الكَوْثرِ الذي أُعْطِيَ خيرُ البَشَر، فإنَّهُ مَن شَرِبَ منهُ شَربةً لا يَظمأُ بعدَها أبداً.

وفي نسخةٍ: (غارَتْ) بدلَ: (غاضَتْ) وهو أظهرُ في المعنَى، وأدلُّ على المُدَّعَى، ويندفِعُ وهمُ النُّقْصانِ بقولِهِ: رُدَّ الوارِدُ السابِقُ فكيفَ باللَّاحق؟ وأكَّدَ دَفْعَه أيضاً بقولِهِ:

٦٤ ـ كأنَّ بالنَّـارِ مـا بالمـاءِ مِـن بَلَـلٍ ... حُزْنـاً وبالمـاءِ مـا بالنَّـارِ مِـن ضَـرَمِ

---

(١) في «ل»: «ماءها أو انتقاص».

(٢) في «د»: «أو طالب مائها».

(الضَّرَم) بفتحتَيْن: الْتِهابُ النَّارِ، والألِفُ واللَّامُ في (الماءِ) و(النَّارِ) للعَهْدِ؛ أي: نارِ فارِسَ وماءِ بحيرة، وقيل: للجِنْس. والأوَّلُ أظهرُ.

والمعنى: أنَّ الذي كان بالماءِ مِن بَلَلٍ كأنَّه حَصَلَ بالنَّار؛ لأَجْلِ الحزنِ على زوالِ الكُفْرِ والكفَّار، فكأنَّها تَبْكي على اضْمِحْلالِ الكفرِ وجَلَاءِ عَبَدتِـها، وتَحترِقُ على مُفارَقةِ أحِبَّتِها، وكأنَّ بالماءِ حَصَلَ[1] الذي كانَ بالنَّارِ مِن شُعلةِ الالْتِهاب، حُزناً على مُفارَقة الأصحابِ والأَحْباب، فكأنَّه يَحترِقُ وَجْداً لفُقْدانِ شارِبَتِها، وتأسُّفاً لذهابِ مُنَزَّهاتِـها.

٦٥ ـ والجِـنُّ تَهْتِفُ والأنوارُ ساطِعَةٌ والحَـقُّ يَظْهـرُ مِـن معنًـى ومِـن كَلِمِ

(الجـن) مأخـوذٌ مِـن جَنَّهُ: إذا سَـتَرهُ، سُـمُّوا به لاسْـتِتارِهم عن أعيُـنِ النَّاس. وهَتَـفَ؛ أي: صـاحَ وأَفْهَـمَ الكلامَ مِـن حيث لا يَراهُ السَّـامِعُ.

يعني: وطائفةُ الجِنِّ أيضاً عَلِموا بولادتِه، وأَخْبَروا بحُلولِ وقتِ رسالتِه، والأنوارُ في زمانِ ظهورِ ذلك النُّورِ ظَهَرتْ على الأنَام، بحيثُ أضاءَتْ قُصورَ الرُّومِ والشَّام.

و(الحقُّ)؛ أي: أَمْرُ نبوَّتِه (يَظهَرُ مِن مَعْنًى) قارَنَ ولادَتَه وهو الإضاءَةُ، (ومِن كَلِمٍ) نَطَقَتْ بِهِ الجنُّ لإرادةِ الإشاعَة.

رُوي: أنَّـه سَـمِعَ النَّاسُ مِن جبلِ أبي قُبيـسٍ والحَجُون، عنـدَ ولادةِ ذلك الدُّرِّ الـمَكْنون، أصـواتَ الجـنِّ فـي مدحِ أمِّـهِ آمِنَـةَ، ولَمْ يَـرَوا مِنهـم أَحَداً: لقـد وَلَدْتِ خيرَ البَرِيَّـةِ أحمدَ.

ونُقِـلَ عن أمِّ عثمـانَ بنِ أبي العَاصِ أنَّهـا قالَتْ: كنتُ حَضَرْتُ ليلةَ الـمِيلاد، فرأيتُ الأنوارَ سـاطِعةً على جميعِ العِبَـادِ والبِلَاد[2].

---

(١) في «ل»: «وصل».

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٥/ ١٤٧ و١٨٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» =

وقالتْ صَفيَّةُ بنتُ عبدِ المطَّلب: رأيتُ نوراً على نورِ السِّراجِ غالِب.

وقيل: المرادُ مِن هَتْفِ الجِنِّ: إخبارُهم للكَهَنةِ أنَّه سيُولَدُ صاحبُ النُّبوَّةِ، ومِن الأنوارِ السَّاطعةِ الواضِحة: أنوارُ جِباهِ آبائهِ وأجدادِهِ اللَّائِحَة.

وقيل: تَظْهرُ حقيقتُه مِن صُورَتهِ ومعناه، أو مِن ظاهِره وباطِنه، أو مِن الأمورِ المعقولةِ والمحسوسَة[1]، أو مِن مَعَاني القُرْآنِ وألفاظِ الفُرْقان.

٦٦ ـ عَمُوا وصَمُّوا فإعْلانُ البَشَائِرِ لَمْ تُسْمَعْ وبارِقَةُ الإنذارِ لَمْ تُشَمِ

الضَّميرُ في (عَمُوا وصَمُّوا) ـ بفتحِ الصَّادـ إلى أهلِ العِناد، والدَّالُ قَرِينةُ الحال؛ لأنَّ ذِكْرَ الحبيبِ يَدلُّ على العدوِّ، والأشياءُ تَتَبيَّنُ بأضدَادِها.

و(الإعلانُ) بالكسرِ: مصدرُ أَعْلَنَ بمعنَى أَظْهَرَ، وبالفتحِ: جمعُ عَلَنٍ بمعنَى عَلَانيَةٍ.

و(البَشَائر): جمعُ البَشِيرةِ، وهي المُبَشِّرةُ، وقيل: جمعُ البِشَارةِ بكسرِ الباءِ، وهي الخبرُ المورِثُ لسرورِ البَشَرةِ.

و(لَمْ يُسمَع) رُوِيَ بالتَّذكيرِ والتَّأنيثِ.

والبارَقةُ مصدرٌ بمعنَى البرقِ؛ كالكاذِبةِ في قولهِ تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢]، وقيل: اسمُ فاعلٍ وهي السَّيفُ، ويُرادُ بها: الإنذاراتُ اللَّامِعةُ.

و(الإنْذار): إعلامٌ فيه تخويفٌ ونصيحةٌ. وشامَ البَرْقَ: نَظَر إليه.

والمعنى: عَمِيَ الكفارُ عن رؤيةِ الأنوارِ فلَمْ يَنظروا إلى إنذاراتِهِمُ المَرْئيَّةِ بالضِّياءِ واللَّمَعان، وصَمُّوا عن الأخبارِ والآثارِ فلَمْ يَسمَعُوا بشائرَ النُّبوَّةِ الواقعةَ على وجهِ الإعلان، قال الشاعر:

= (٨/ ٢٢٠): فيه عبد العزيز بن عمران وهو متروك.

(١) في «ل»: «المعقولة المحسوسة».

لقــد أَسْــمَعْتَ لــو نادَيْــتَ حيّــاً ولكــنْ لا حيــاةَ لــمَنْ تُنــادِي

والحاصل: أَنَّهم ما انْتَفَعوا بِبشارةِ البَشِير، ولا تأَثَّروا بنِذَارةِ النَّذير، لا مِن الآياتِ والمعجزاتِ الـمَرْئيَّة، ولا مِن الدَّلالاتِ والحِكَميَّاتِ السَّمْعيَّة، أو: لا مِن رُؤْيةِ الأنوارِ في ليلةِ ولادتِه، ولا مِن أخبارِ الجنِّ بظهورِ رِسالتِه، أو: لا مِن كَسْرِ قَصْرِ كِسرَى حينَ أَبْصَروا، ولا مِن قولِ الكَهَنةِ لهم حينَ أَخْبَروا. لكونِـهم صُمًّا عن سماعِ الحقِّ وقَبولِه، وعُمْياً عن رؤيةِ الحقِّ ووُصولِه.

وفي البيتِ لَفٌّ ونَشْرٌ مشوَّشٌ، والأظهرُ أنَّه عَكَسَ ليتعلَّقَ ما بعدَهُ بما قبلَهُ لفظاً ومَعْنًى، فيكونَ مِن قَبيلِ: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦].

٦٧ ـ مِن بعدِ ما أَخْبَرَ الأَقْوَامَ كاهِنُهُمْ بــأَنَّ دِينَهُــمُ الــمُعْوَجَّ لَــمْ يَقُــمِ

الجـارُّ تَنَـازَعَ فيـه الفِعْلانِ المتقدِّمـانِ. والكاهِنُ: الـمُخْبِرُ عن بعـضِ الأمورِ الغيبيَّـة، بالسَّـمَاعِ مِـن الطَّائفـةِ الجِنِّيَّة، المُسْـترِقَةِ مِن الملائكـةِ السَّـماوِيَّة، وقد قال تعالـى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمـل: ٦٥].

والاعْوِجَـاجُ فـي الأمـورِ الحِسِّـيَّة: عَـدَمُ الاسـتِقامةِ الصُّورِيَّـة، وفـي غيـرِ الحِسِّـيَّة: عَـدَمُ الاسـتِقامةِ المعنَوِيَّـة.

وقامَتِ السُّوق: إذا نَفَقَتْ.

والمعنـى: صَمُّـوا حيثُ لَمْ يَسـمعوا بشـائرَ الإنذار، مِـن بعدِ ما أَخْبَـرَ كاهِنُهُم أقوامَهُـم الكفَّـار، بـأَنَّ طريقتَهُـم التـي تَدَيَّنـوا بهـا، وخَرَجـوا عـن طريـقِ الصَّوابِ الـذي فُطِـروا عليه بسـببِها، لم يَقُـمِ اعْوِجاجُهـا، ولَمْ يَحْصُـلْ رَوَاجُها، قـال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الإسـراء: ٨١].

وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّه أَجْمَعَ المُحِقُّ والمُبْطِلُ على حَقِّيَّةِ نُبوَّتِهِ وصِدْقِ رِسالتِهِ، فالإصرارُ على الإنكارِ؛ لإطفاءِ نورِ الأبصار، ولذا قال النَّاظِمُ ـ رحمهُ اللهُ تعالى ـ بعدَهُ:

٦٨ ـ وبَعْدَ ما عايَنُوا في الأُفْقِ مِن شُهُبٍ مُنْقَضَّةٍ وَفْقَ ما في الأَرْضِ مِن صَنَمِ

(بعد) رُوِيَ بالجرِّ والنَّصبِ، و(ما) مَصْدريَّةٌ أو موصولةٌ، و(الأُفْق) بسكونِ الفاءِ مخفَّفٌ وضمِّها: مفردُ الآفَاقِ، وهي جَوَانبُ السَّماءِ.

و(الشُّهُبُ) بضمَّتينِ: جمعُ شِهابٍ بمعنَى الكوكبِ الـمُضيءِ، ويُطْلَقُ على شُعْلةِ نارٍ ساطعةٍ، والأصحُّ أنَّها مُنْفصِلةٌ مِن نارِ الكَوَاكبِ وليسَتْ نَفْسَ الكَوَاكبِ؛ لضَمِّها قارَّةً في الفَلَكِ على حالِـها، وما ذاكَ إلَّا كَقَبسٍ يُؤْخَذُ مِن النَّارِ وهي ثابتةٌ كامِلةٌ غيرُ ناقِصةٍ.

والانْقِضاضُ: السُّقوطُ، يُقالُ: انْقَضَّ السَّهْمُ: سَقَطَ، وتَجوزُ الحَرَكاتُ الثَّلاثُ في (مُنْقضَّة)، ونُصِبَ (وَفْقَ) بنزعِ الخافضِ، أو على الحاليَّةِ؛ أي: حالَ كونِها مُوافِقةً لِمَا في الأرضِ.

والمعنى: عَمُوا حينَ لَمْ يَرَوا بَوَارِقَ الإنذارِ الواضِحة، مِن بعدِ مُعايَنَتِهِمْ في أطرافِ السَّماءِ بعضَ الشُّهُبِ السَّاقِطةِ اللائِحَة، على وَفْقِ سقوطِ ما في الأرضِ مِن الأصنامِ الكالِحَة.

والحاصلُ: أنَّه ما نَفَعَهم الآياتُ الآفاقيَّة، مِن مَنْعِهِمُ الاسْتِراقاتِ السَّمْعيَّة، ولا الآياتُ الأنْفُسيَّة، مِن انْكِبابِ الأصنامِ على الوجوهِ الـمَقْلوبيَّة، فلَمْ يَنْجَحْ فيهِمُ العِيَانُ، كما لَمْ يَنفعْ لهمُ البَيَان، واللهُ المستعانُ، وعليهِ التُّكْلان.

٦٩ ـ حتَّى غَدَا عن طَريقِ الوَحْيِ مُنْهَزِمٌ مِن الشَّياطينِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمِ

(حتَّى) عاطِفةٌ أو ابتدائيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بـ (مُنقَضَّةٍ)، و(غَدَا) بمعنَى: صارَ، وقيل:

بمعنـى: ذَهَـبَ، معطوفٌ على (مُنْقَضَّـةٍ)؛ كما في قولـهِ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

و(منْهَزم) اسـمُ (غـدا)، و(يقفو) خبرُه، (إِثْـرَ) ظرفٌ، و(مِن الشَّـياطينِ) صفةُ (مُنْهـزِمٌ)، و(عـن طَريـقِ الوَحْـي) وفي نسـخةٍ: (الحـقِّ) متعلِّقٌ بـ (يَقْفُـو) لتَضَمُّنهِ معنـى: يَهْـربُ، كـذا قيل، وقيل: مُتعلِّـقٌ بـ (غـدا)، والأَظْهَرُ أنَّـه مُتعلِّقٌ بـ (مُنْهَزِمٌ)، و(طريـق الوَحْي): أبوابُ السَّـماءِ.

يعنـي: وقـتَ ظهـورِ نُـورِ وِلادتـهِ الميمونَـةِ، وحيـنَ نِفَـاسِ وِلادةِ أمِّـهِ الآمِنةِ المأمونَـة، انْقَضَّ الشُّـهُبُ حتَّى صارَ الشَّـياطينُ الـمُسْترِقُونَ مُنْهَزِميـن هارِبين، عن أبـوابِ السَّـماءِ التـي هي طُرُقُ وحـيِ الأنبيـاءِ والـمُرسَلِين، ويَتْبَعُ كلَّ منهـزِمٍ منهُم عَقِبَ مُنْهـزِمٍ آخَـرَ مُتتابِعين.

والحاصـلُ: أنَّ تَتَابُعَ الشُّـهبِ مع كثرتـهِ ظَهَرَ أيَّامَ ظهـورِ النَّبيِّ صلى الله تعالى عليـه وسـلم ووَقْـتَ ولادتهِ، ولـمْ يَكُنْ للكفَّـارِ عهدٌ بمثـلِ ذلـك، وإنْ كانَ لهم علمٌ فـي الجُمْلـةِ بانْقِضَاضِهـا رُجومـاً لأولئـك، كما قـال تعالـى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وأمَّـا قولُـه تعالـى حكايـةً عنهـم ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ٩]، فالمـرادُ بـه: بعدَ البِعْثـةِ، كذا حقَّقَهُ الشَّـيخُ جـلالُ الدِّينِ المَحَلِّـيّ، رَفَـعَ اللهُ تعالى مَحلَّـه العَلِيّ.

٧٠ ـ كأَنَّهُـمْ هَرَبـاً أبطـالُ أَبْرهـةٍ أو عَسْـكَرٌ بالحَصَى مِـن راحَتَيْهِ رُمِي

ضميـرُ (كأنَّهـم) إلـى الشَّـياطين، و(هَرَبـاً) تمييـزٌ، أو حـالٌ بمعنَـى: هارِبين، و(الأبطـالُ) جمعُ بَطلٍ بمعنَى الشُّـجاع، و(أَبْرهة) اسـمُ رئيسِ أصحـابِ الفيلِ، (أو

عَسْكرٌ) بالرَّفعِ عطفاً على (أبطالُ)، والرَّاحةُ: بطنُ الكفِّ، والضَّميرُ راجعٌ إلى النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم، وضميرُ (رُمِي) راجعٌ إلى العَسْكرِ.

والمعنى: كأنَّ الشَّياطينَ حينَ يُقْذَفون بالشُّهُبِ مِن السَّماءِ الدُّنيا، وهُم هارِبونَ إلى الأرضِ السُّفْلَى، شجعانُ أبرهةَ حيثُ شَرَدوا مع الفيلِ لـمَّا رَمَتْهم الأبابيلُ بحجارةٍ مِن سِجِّيلٍ، أو كأنَّهم عسكرُ بدرٍ أو حُنينٍ حيثُ انْهزَموا حينَ رُمُوا بالحَصَياتِ مِن كفَّيهِ الكريمتَينِ.

وفي بناءِ (رُمِي) على صيغةِ المجهولِ إيماءٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٨].

فالمصراعُ الأوَّلُ: إشارةٌ إلى قضيَّةِ أصحابِ الفيلِ؛ إذْ كانَ مَوْلدُه عامَ الفيلِ ليلةَ الإثنينِ لاثْنَيْ عَشَرَ مِن شهرِ ربيعٍ الأوَّلِ.

وسَبَبُ القِصَّةِ: أنَّ مَلِكَ اليمنِ بَنَى كنيسةً بصَنْعاءَ ليَصْرِفَ الحاجَّ إليها، فأَحْدثَ رجلٌ مِن كِنانةَ فيها ولَطَّخَ بالعَذِرةِ قِبْلتَها، فحَلَفَ ليَهْدِمَنَّ الكعبةَ، فجاءَ بجيشٍ كثيرٍ وفيلٍ عظيمٍ مع أفيالٍ إلى مكَّةَ، فحينَ تَهَيَّؤُوا للدُّخولِ غُشِيَ عليهِم وولَّوا هارِبينَ، ورُمُوا بحجارةٍ مِن سِجِّيلٍ، قيل: كلُّ حَجَرٍ أصغرُ مِن الحِمِّصِ وأكبرُ مِن العَدَسِ يَجيءُ على مِغْفَرِ العسكريِّ، ويَخْرجُ مِن دُبُرهِ الدَّابِريّ، وهو قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

والمِصراعُ الثَّاني: إشارةٌ إلى غزوةِ بدرٍ، رواهُ البُخاريُّ(١)، وإلى غزوةِ حُنينٍ

---

(١) لم أجد في البخاري رمي الكفار بالحصى، لكن روى الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٦٨) من حديث ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما: أن المَلأَ من قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا في الحِجْرِ فَتَعَاهَدُوا باللاتِ والعُزَّى ومَنَاةَ الثَّالِثَةِ الأُخْرَى لو قد رَأَيْنَا مُحَمَّداً قُمْنَا إليه قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فلم نُفَارِقْهُ حتى نَقْتُلَهُ... فَأَقْبَلَ رسول اللهِ ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فَأَخَذَ قَبْضَةً من تُرَابٍ فَحَصَبَهُمْ بها، وقال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ» قال: فما أَصَابَتْ رَجُلاً منهم حَصَاةٌ إلا قد قُتِلَ يوم بَدْرٍ كَافِراً.

رَواهُ مُسلمٌ(١)، وهو من معجزاتِهِ عليه السَّلامُ، فإنَّه أَخَذَ كفّاً مِن ترابٍ وقال: «شاهَتِ الوُجوهُ»، وحَثَا في وجوهِ الكفَّارِ، فلَمْ يَبْقَ منهم عينُ أحدٍ إلَّا وقد دَخَلَها منه شيءٌ(٢).

قال عصامُ الدِّينِ: المشهورُ أنَّه كان كفّاً مِن الحَصَى، والمفهومُ مِن البيتِ خِلَافُه.

قلتُ: تَثْنِيَةُ الرَّاحَتينِ باعتبارِ الواقِعَتينِ في الغَزْوتَينِ، وقد سبَّحتْ تلك الحَصَى في كَفَّي المصطَفَى حتَّى سَمِعهُ أصحابُ أهلِ الصَّفا، وهذه معجزةٌ أُخرى أشارَ الناظِمُ إليها، حيث قال:

٧١ ـ نَبْذاً بـهِ بعـدَ تسبيحٍ ببطْنِهِمـا ... نَبْـذَ الـمُسَبِّحِ مِـن أحشـاءِ مُلْتَقِـمِ

(نبذاً) مصدرُ (رَمَى) مِن غيرِ لَفْظِهِ، أو التَّقديرُ: نَبَذهُ نَبْذاً به، والباءُ زائدةٌ لتَقْوِيَةِ عَمَلِ المصدرِ، والضَّميرُ في (به) إلى (الحَصَى)، والتَّذكيرُ لأنَّه اسمُ جِنْسٍ.

وضميرُ بطنِهِما لـ (راحَتَيهِ) ففيهِ تَجريدٌ، والباءُ بمعنَى: في.

و(نَبْذَ المسبِّح) صفةُ (نَبْذاً) بتقديرِ مضافٍ؛ أي: نَبْذاً مِثْلَ نَبْذِ المسبِّحِ، أو بَدَلٌ منهُ.

وهو مُضافٌ إلى المفعولِ؛ أي: نَبْذَ اللهِ المُسبِّحَ وهو يونُسُ عليه السَّلامُ، والأحشاءُ: جمعُ الحَشَى، وهو ما في البَطْنِ، والـمُلْتَقِمُ: الحوتُ.

يعني: رُمِيَ رَمْياً بالحَصَى مِن راحَتَيْه الشَّريفتَيْنِ وكفَّيهِ الكَريمتَينِ بعدَ تسبيحٍ عظيمٍ، حيثُ سمعَهُ بعضُ أصحابِهِ الكريم، كما رُمِيَ يونُسُ عليه السَّلامُ مِن بطنِ الحوتِ بعدَ الالْتِقام، حيثُ قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقد قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤٤ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢ ـ ١٤٥]، والقَصْدُ

---

(١) رواه مسلم (١٧٧٥) من حديث ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما.

(٢) رواه مسلم (١٧٧٧) من حديث سلمة بن الأكوع رضِيَ اللهُ عنه في قصة حنين. وانظر حديث ابن عباس عند أحمد الذي تقدم قريباً.

تَشبيهُ نَبْذِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ بالحَصَى المسبِّحِ على وجوهِ العسكرِ فهَرَبَ[١] مُنْكسِراً، كنَبْذِ اللهِ يونُسَ عليهِ السَّلامُ مِن بطنِ الحوتِ حيّاً فرَجَعَ مُنْجَبِراً، في أنَّ كلًّا منهما خارقٌ للعادةِ، وكما أنَّ نَبْذَ الـمُسبِّحِ كان سبباً لنجاتهِ وهدايةِ قومهِ، كذلك نَبْذُه عليه السَّلامُ كان سبباً لخلاصِ المؤمنينَ وهدايَةِ بعضِ الكافرِينَ.

قال الجلالُ الـمَحَلِّيُّ: وكأنَّ النَّاظِمَ وَقَفَ على دليلِ تسبيحِ الحَصَى الـمَرْميِّ به، ولَمْ يَقِفْ عليهِ مَن اعْتَرضهُ بالنَّفْي في ذلك، أو قَصَدَ التَّسْبيحَ الثَّابت في غيرِ ذلك[٢]، قال أنسٌ رضِيَ اللهُ عنه: أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كفّاً مِن حصًى، فسبَّحْنَ في يدهِ حتَّى سَمِعْنا التَّسبيحَ، ذَكَرهُ صاحِبُ «الشِّفا» وغيرُه[٣]، وعلى هذا فقولُ النَّاظِمِ: (بعدَ تَسبيحٍ)؛ أي: لجِنْسِ الحَصَى في موطِنٍ آخَرَ، انتهى.

لكنْ لا يَظْهرُ حينئذٍ وجهُ التَّعبيرِ بالنَّبْذِ، والتَّشبيهِ بنَبْذِ المُسبِّحِ.

٧٢ـ جاءَتْ لدَعْوتهِ الأشجارُ ساجِدةً ... تَمْشِي إليهِ على ساقٍ بلا قَدَمِ

السَّجْدةُ: الانْخِفاضُ، وذا يَتِمُّ بوضعِ الرَّأسِ على الأرضِ، ولذا يُفَسَّرُ بوَضْعِ أفضلِ الأجزاءِ على أرذلِ الأشياء، أو المرادُ الخضوعُ والانْقِيادُ.

---

(١) في «د»: «فهزموا».

(٢) في هامش «ل»: «وعن جابر رضِيَ اللهُ عنه قال عطش الناس يوم الحديبية وبين يدي رسول الله ﷺ ركوةٌ، فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه وقالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به ونشرب إلا ما في ركوتك، فوضع النبي عليه السلام يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قيل لجابر: كم كنتم؟ قال: لو كنا مئة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مئة. رواه البخاري [٤١٥٢] ومسلم [١٨٥٦]».

(٣) انظر: «الشفا» (٢/ ٢٥٦). ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ١٢٠)، وابن الجوزي في «العلل» (٣٢٧)، وقال: هذا حديث لا يصح. وفيه أنهن سبحن في كف عمر وعثمان أيضا. وروى ابن الجوزي نحوه في «العلل» (٣٢٦) من حديث أبي ذر رضِيَ اللهُ عنه، ونقل عن النسائي قوله: هذا حديث باطل منكر.

والمعنى: جاءتِ الأشجارُ لأَجْلِ دعوتِه، وأجابَتْ وقتَ طَلَبِهِ ومُناداتِه، حالَ كونِها مُنْقادةً خاشِعَة، على رأسِها واقِعَة، وتمشي إليهِ ﷺ خاضِعَة، على ساقٍ بلا قدمٍ رافعةً واضِعَة.

وفي البيتِ أنواعٌ مِن خَوارقِ العادات؛ الأولى: فَهْمُ الخطابِ مِن النَّبَاتات، مع أنَّها ليسَتْ مِن ذواتِ الحَيَاة، ثُمَّ مَجيئُها وتَعَدُّدُ الحَرَكاتِ والسَّكَنات، ثُمَّ قَصْدُها إليهِ وتَوَاضُعُها لَدَيْه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

ثُمَّ مَشْيُها على ساقٍ بلا قَدَمٍ: إمَّا على رأسِها، أو مع انْخِفاضِها وخُضُوعِها وأدَبِها.

قال عِصَامُ الدِّين: المجيءُ إنَّما حَصَلَ مِن شجرةٍ واحدةٍ على ما وَرَدَ في التَّواريخِ والأخبار، فجَمْعُ (الأشجار) محمولٌ على التَّكْرَار.

يعني: تَكْرارَ حركتِها مع وجودِ وَحْدَتها، وغَفَلَ عمَّا ذكرهُ صاحبُ «الشِّفَاء»، وغيرُه مِن أهلِ الوَفَاء، في شَمائلِ الـمُصْطَفَى عليهِ التَّحيَّةُ والثَّناء: أنَّ أعرابيّاً سأَلَ النبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم آيةً، فقال لهُ: «قُلْ لتلك الشَّجرةِ: رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم يَدْعوكِ»، فمالَتْ [عن] يمينِها وشمالِها، وبينَ يَدَيْها وخَلْفَها، فقطَعَتْ عُروقَها ثُمَّ جاءَتْ تَجرُّ عُروقَها في الأرضِ حتَّى وَقَفتْ بينَ يَدَيْه، فقالتْ: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ الله، قال الأعرابيُّ: فمُرْها فلْتَرجِعْ إلى مَنْبِتِها، فأمَرَها فرَجَعتْ، فدَلَّتْ عُروقَها في مَنْبِتها فاسْتَوَتْ فيه[1].

ورَوَى مسلمٌ عن جابرٍ رضِيَ اللهُ عنه في حديثِهِ الطَّويلِ آخِرَ الكتابِ: ذَهَبَ رسولُ اللهِ ﷺ يَقْضِي حاجتَهُ، فنَظَرَ فلَمْ يَرَ شيئاً يَستَتِرُ به، فإذا شَجَرتَينِ بشاطئِ الوادِي،

(١) انظر: «الشفا» (١/ ٢٢٥). والحديث رواه البزار في «مسنده» (٤٤٥٠)، وفيه: فأمرها رسول الله أن ترجع، فقام الرجل فقبل رأسه ويديه ورجليه وأسلم. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٠): رواه البزار، وفيه صالح بن حيان وهو ضعيف. وما بين معكوفتين من «الشفا»، ولفظ البزار: «... فمالت على كل جانب منها حتى قلعت عروقها...».

فانْطَلَقَ إلى إحداهُما فأَخَذَ بغُصْنٍ مِن أغصانِـها وقال: «انْقادِي معي بإذْنِ اللهِ تعالى»، فانْقادَتْ معهُ حتَّى أَتَى الشَّجرةَ الأُخرَى، فأَخَذَ بغُصْنٍ مِن أغصانِها وقال: «انْقادِي معي بإذْنِ اللهِ تعالى»، حتَّى إذا كانَ بالـمَنْصَفِ ممَّا بينَهما فقال: «الْتَئِمَا عَلَيَّ بإذْنِ اللهِ» فالْتَأَمَتَا، ثُمَّ بعدَ انقضاءِ حاجتِهِ افْترقَتَا، فقامَتْ كلُّ واحدةٍ مِنهُما على ساقٍ[1].

٧٣ ـ كأنَّما سَطَرَتْ سَطْراً لِمَا كَتَبَتْ فُرُوعُها مِن بَدِيعِ الخَطِّ في اللَّقَمِ[2]

(ما) في (كأنَّما) كافَّةٌ، والسَّطرُ: الكتابةُ، فاللَّامُ في (لِـمَا) بمعنَى الوقتِ.

والسَّطرُ: الصَّفُّ مِن الشَّيءِ، والفُروعُ: الأغصانُ، والبَدِيعُ: الغَريبُ العَجيبُ؛ فَعِيلٌ بمعنَى المفعولِ، والإضافةُ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، و(مِن) بيانٌ لـ (ما) الموصولةِ، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: كَتَبتْه.

و(اللَّقَم) بفتحتينِ: وَسَطُ الطَّريقِ، وقيل: اللَّوحُ، قيل: الأَوْلَى روايةً ودرايةً: (باللَّقَمِ) والباءُ بمعنَى (في). و(اللَّقَم): تَقْليبُ القَلَمِ الذي هو أداةُ الكتابةِ، ففيهِ نوعُ غَرابةٍ، وهي مِن المحسِّناتِ البَدِيعيَّة.

وحاصِلُ المعنَى: أنَّهُ شَبَّهَ آثارَ أغصانِ الأشجارِ في الأرضِ المفيدةِ للمُعْتَبِر، بالخطِّ الدَّالِّ على اللَّفظةِ المفيدةِ للمَعاني للمُتَدَبِّر.

٧٤ ـ مِثْلَ الغَمَامةِ أنَّى سارَ سائرةٌ تَقِيْهِ حَرَّ وَطِيسٍ للهَجِيرِ حَمِي

(مِثْلَ) منصوبٌ على أنَّه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ؛ أي: مَجيئاً مِثْلَ الغَمَامةِ، بفتحِ الغينِ المُعْجَمةِ، ووَهِمَ عصامُ الدِّينِ حيثُ قال: على وزنِ العِمَامةِ. فإنَّها بكسرِ المهمَلةِ كما في «القاموس» وغيرِه[3].

---

(١) رواه مسلم (٣٠١٢).

(٢) في هامش «ل»: «باللقم»، وهي رواية كما سيرد.

(٣) انظر: «القاموس» (مادة: عمم).

وبالرَّفْعِ خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هي ـ يعني: الأشجارَ ـ مِثْلُ الغَمَامةِ في الانْقِيَادِ إليه، والقيامِ بوظائفِ الخدمةِ لَدَيه، ﷺ، أو: مجيءُ الأشجارِ مِثْلُ تَظْليلِ الغَمَامةِ، على حَذْفِ المُضَافِ.

و(أَنَّى) بمعنى: مِن أين؟ أي: أيّ موضعٍ إلى أيِّ موضعٍ[1]، أو بمعنى: كيف؛ أي: ماشياً أو راكباً، سريعاً أو بطيئاً.

و(سائرةٌ) بالرَّفعِ خبرٌ لمُقدَّرٍ؛ أي: هي سائرةٌ، و(تَقِيهِ) بمعنى: تَحْفظُه، خبرٌ ثانٍ لهذا المقدَّرِ، أو استئنافٌ. وبالنَّصْبِ على أنَّها حالٌ كما بعدَها؛ أي: تشبيهُ الغَمَامةِ حالَ كونِها سائرةً أنَّى سارَ.

والوطيسُ: التَّنُّورُ، والمرادُ: تَنُّورُ الهواءِ، و(حَمِي) فعلٌ ماضٍ، وسكونُ آخِرِه عارِضٌ في الوَقفِ، وهو صفةٌ للوَطِيس، يُقالُ: حَمِيَ الوَطِيسُ: إذا اشْتَدَّ الحربُ، وكذا: إذا صَعُبَ الأمرُ.

والهَجيرُ: نِصْفُ النَّهارِ الحارِّ، والباءُ بمعنَى: في، وكذا اللَّامُ كما في بعضِ النُّسخِ.

يعني: جاءتِ الأشجارُ ساجدةً لديهِ وماشيَةً إليهِ مثلَ مجيءِ الغمامة، ساتِرةً عليهِ حافِظةً له عن شدَّةِ حرِّ النَّهار، وظاهرةً عندَ الأَخْيارِ والأَغْيار، حيثُ سارَ النَّبيُّ المُخْتار، فالأشجارُ تشرَّفتْ بخدمتِهِ، والغمامةُ تشمَّختْ وارْتَفَعتْ بظلَّتِهِ، فقد دانَتْ له الأسافلُ والأعالي، بعونِ اللهِ الملكِ المُتَعَالي.

قال المحلِّيُّ: وتظليلُها لهُ عليهِ السَّلامُ وَقَعَ في سفرِ عمِّه أبي طالبٍ به في رَكْبٍ تاجراً إلى الشَّام، رواهُ التِّرمِذيُّ[2].

---

(١) قوله: «إلى أي موضع» ليس في «د».

(٢) رواه الترمذي (٣٦٢٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٤). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ٥٥): تفرد به =

قال عصامُ الدِّينِ: لو قال:

مِثْــلَ الغَمَامــةِ لَمَّــا ســارَ ســائرةً   وَقَتْــهُ حَــرَّ وَطيــسٍ للهَجِيــرِ حَمِــي

لـكان أَوْلَى؛ لأنَّ (أنَّـى) مُتضمِّنةٌ معنـى: إنْ، وهي تجعلُ مدخولَها مسـتقبَلاً، والحـالُ أنَّ المَقـامَ يَقتَضِـي الماضي، وغايـةُ ما يَخْطرُ بالبـالِ في دَفْعِ الإشـكالِ: أنْ يُعْتبَـرَ الاسـتقبالُ بالنَّظـرِ إلى ما قَبْلَ السَّـيْرِ، وهـو أوَّلُ زمانِ وجـودِ الغَمَامة.

٧٥ ـ أَقْسَمْتُ بالقَمَرِ المُنْشَقِّ إنَّ لهُ   مِــن قَلْبِــهِ نِســبةً مَبْــرُورَةَ القَسَــمِ

قيل: القَسَمُ بغيرِ اللهِ جَرَى على العادَةِ، وإلَّا فالشَّرعُ عَدَّهُ شِركاً، ولهذا يُقدَّرُ في أمثالِهِ المضافُ؛ أي: لفظةُ الرَّبِّ.

ويُمكنُ أنْ يكونَ حكايةً عن كلامِ اللهِ تعالى، وللهِ أنْ يُقْسِمَ بما شاءَ مِن مخلوقاتِهِ تعظيماً لبعضِ موجوداتِهِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٢ ـ ٣٤].

وأغربَ العصاميُّ حيثُ قال: القَسَمُ الذي يُرادُ به تأكيدُ الحكمِ ليس بمنْهِيٍّ عنه، ولهذا في المحاوراتِ يُقسَمُ بالعُمرِ ونحوِه، ومَنَعَ أن يكون المنعُ عنه منقولاً.

وأقولُ: قد ثَبَتَ عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنَّه قال: «مَن حَلَفَ بغيرِ اللهِ تعالى فقد أَشْرَكَ»، رواهُ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ والحاكمُ بسندٍ صحيحٍ عن ابنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما[1].

= قراد، واسمه: عبد الرحمن بن غزوان، ثقة احتج به البخاري والنسائي؛ ورواه الناس عن قراد وحسنه الترمذي، وهو حديث منكر جداً...، ثم ذكر سبب نكارته من وجوه، فراجعه ثمة.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٦٩)، والترمذي (١٥٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤٥). قال الترمذي: هذا حديث حسن، وَفُسِّرَ هذا الحديثُ عندَ بعضِ أهلِ العِلْمِ أنَّ قولَهُ: «فَقَدْ كَفَرَ أو أَشْرَكَ» على التَّغْلِيظِ.

وجاء في «الصَّحيحين» عن ابنِ عُمرَ أيضاً: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ ينهاكُم أنْ تَحْلِفوا بآبائكم، مَن كانَ حالِفاً فلْيَحْلِفْ باللهِ أو لِيَصْمُتْ»(١).

قال الطِّيبيُّ: وذلك لأنَّ الحَلِفَ تعظيمٌ للمحلوفِ به، وحقيقةُ التَّعظيم مختصَّةٌ باللهِ تعالى، ويُكْرهُ الحَلِفُ بغيرِ أسماءِ اللهِ تعالى، سواءٌ في ذلك النبيُّ والكعبةُ والملائكةُ والأمانةُ والحياةُ والرُّوحُ وغيرُها(٢).

والقمرُ يُطْلَقُ على النَّيِّرِ المُنيرِ باللَّيلِ بعدَ مُضِيِّ ثلاثِ ليالٍ، وأمَّا قَبْلَهُ فيُقالُ له: الهلالُ، والضَّميرُ في (لهُ) وفي (قَلْبِه) لهُ صلى الله تعالى عليه وسلم(٣).

و(مبرورةَ القَسَمِ) صفةٌ لـ (نِسْبةً)؛ أي: نِسبةً مُصحِّحةً للقَسَمِ، بحيثُ لو حَلَفَ حالِفٌ على ثُبوتِ تلك النِّسبةِ كان بارًّا وصادقاً.

وقيل: صفةُ (يميناً) دلَّ عليها (أقسمتُ).

والمعنى: إنَّ للقمرِ المُنْشَقِّ مُناسَبةٌ صَريحةٌ ومُشابَهةٌ صَحيحةٌ بقَلْبِهِ الأَنْورِ وصَدْرِه الأَزْهرِ، بحيثُ يُصدِّقُ الحالِفَ بثُبوتِ تلكَ النِّسبةِ كلُّ مَن لهُ مُسْكةٌ(٤)، ومِن وُجوهِ النِّسبةِ: الانْشِقاقُ بلا ضَررٍ، والالْتِئامُ بلا أَثَر، وإنَّ واحدةً آيةٌ مِن آياتِه، والأُخْرَى مُعجِزةٌ مِن مُعْجزاتِه.

وأمَّا انْشِقاقُ القلبِ: فقد رَوَى مسلمٌ عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه: أنَّ جبريلَ عليه السَّلامُ أتاهُ وهو يَلعَبُ مع الغِلْمانِ، فأَخَذَه فصَرَعهُ فشَقَّ صَدرَهُ عن قَلْبِه، فاستَخْرَجَ القلبَ واسْتَخْرجَ منهُ عَلَقةً فقال: هذا حظُّ الشَّيطانِ منكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ

---

(١) رواه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) انظر: «شرح المشكاة» للطيبي (٨/ ٢٤٣٦).

(٣) في «ل»: «والضَّميرُ في له له، وفي قبله له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم». وفيها زيادة وتحريف.

(٤) المسكة: العقل الوافر. انظر: «القاموس» (مادة: مسك).

فـي طَسْـتٍ مِـن ذهـبٍ، ثُمَّ لأَمَـهُ، ثُـمَّ أعـادَهُ فـي مكانِهِ، قـال أنـسٌ رضِـيَ اللهُ عنه: كنْـتُ أَرَى أثَـرَ المِخْيَطِ في صَـدْرِه[١].

وفـي «الصَّحِيحَيـنِ» عـن أبـي ذَرٍّ رضِـيَ اللهُ عنـه حديثُ: «فُـرِجَ سَـقْفُ بَيْتي وأنـا بمكَّـةَ، فنَـزَلَ جبريـلُ ففَرَجَ صَـدْرَي ثُمَّ غَسَـلَهُ مِـن ماءِ زَمْـزمَ، ثُمَّ جاءَ بطَسْـتٍ مِـن ذَهَـبٍ مُمْتلـئٍ حِكْمـةً وإيمانـاً فأَفْرغَهـا في صَـدْري ثُـمَّ أَطْبقَـهُ، ثُمَّ أَخَـذَ بيدي فعَرَجَ بـي إلـى السَّـماءِ..» الحديثَ[٢].

وأمَّـا انْشِـقاقُ القمـرِ: فقـد قـال اللهُ تعالى فـي كتابـهِ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١ ـ ٢].

وفـي «الصَّحِيحَيـنِ» مِـن حديـثِ أنـسٍ رضِـيَ اللهُ عنـه: أنَّ أهـلَ مكَّةَ سـألوا رسـولَ اللهِ صلـى الله تعالى عليه وسـلم أنْ يُرِيَهُم آيةً، فأَرَاهُم انْشِـقاقَ القمرِ شِـقَّتَينِ حتَّـى رَأَوا أنَّ حِـراءَ بينَهُمـا[٣]، انتهى.

وثَبَـتَ أنَّ القمـرَ انْشـقَّ مَرَّتينِ[٤]، وتقدَّمَ أنَّ شَـقَّ الصَّـدرِ كان كرَّتينِ، فصارتِ النِّسـبةُ بين القلبِ المنيرِ والقمرِ المُسْـتَنيرِ نِسْـبتَينِ.

٧٦ ـ وما حَوَى الغارُ مِن خَيْرٍ ومِن كَرَمٍ ... وكلُّ طَـرْفٍ مِـن الكفَّـارِ عنـهُ عَمِـي

---

(١) رواه مسلم (١٦٢/ ٢٦١).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).

(٣) رواه البخاري (٣٨٦٨).

(٤) في هامش «د»: «شق القمر مرتين، وشق الصدر أيضاً مرتين». وحديث انشقاق القمر مرتين رواه مسلم (٢٨٠٢) عن أنسٍ: أنَّ أهلَ مكَّة سألُوا رسولَ الله ﷺ أنْ يُرِيَهُم آيَةً، فأَراهُمُ انْشِقَاقَ القَمَرِ مَرَّتيْنِ. لكن المراد بالمرتين عند المحققين: شقتين أو فلقتين، لا أنه وقع الانشقاق مرتين كما يوهم ظاهر اللفظ. انظر تفصيل ذلك في «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ٣٠٠ ـ ٣٠١).

أي: اذْكُرْ ما جَمَعهُ غارُ ثورٍ مِن جبالِ مكَّةَ، و(مِن) بيانٌ لـ(ما)، والمرادُ مِن الخيرِ الفَضائلُ، ومِن الكَرَمِ الفَوَاضِلُ، أو الأفعالُ الجميلةُ والأخلاقُ الجليلةُ، أو الخصالُ المُكْتسبةُ والخِلَالُ المُسْتوهَبةُ، وهو على حَذْفِ مضافٍ؛ كـ: أهل، أو الإطْلاقُ مِن بابِ المُبالَغةِ؛ كـ: رجلٌ عَدْلٌ، والمرادُ بهما: الجامِعَينِ لهما مِن النَّبيِّ والوَليِّ، أو على طريقِ اللَّفِّ والنَّشرِ المرتَّبِ، فالخيرُ الـمُطْلَقُ خيرُ البَرِيَّة، والكَرَمُ يُرادُ به أفضلُ الأمَّةِ.

وقد رَوَى التِّرمِذِيُّ عن أبي هريرةَ رضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما لأحدٍ عندَنا يدٌ إلَّا وقد كافَيْناه، ما خَلَا أبا بكرٍ فإنَّ لهُ عندَنا يداً يُكافِيهِ اللهُ بها يومَ القيامةِ، وما نَفَعَني مالُ أحدٍ قطُّ ما نَفَعَني مالُ أبي بكرٍ»[1].

(وكلُّ طَرْفٍ)؛ أي: بَصَرٍ ونَظَرٍ (مِن الكفَّار) الدُّوَّارِ حولَ الغار، مُتَتبِّعينَ للآثار، (عنه)؛ أي: عن النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم، وأَفْرَدَهُ بالذِّكرِ لأنَّه الأصلُ الـمَتبوعُ.

أو التَّقديرُ: عن كلِّ واحدٍ منهُما (عَمِي) حيثُ لَمْ يَرَوْهما، وهو إمَّا ماضٍ وهو الأظهرُ، فالياءُ أصليَّةٌ، أو صِفةٌ فالياءُ إشْباعيَّةٌ، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، وقال الشاعر:

ويُؤْذِي ضَوءُ شَمسٍ عينَ خُفَّاشِ[2]

وقال:

كما يَضُرُّ رِيَاحُ الوَرْدِ بالجُعَلِ[3]

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٦١).

(٢) لم أجده.

(٣) عجز بيت للمتنبي، وصدره كما في «ديوانه» بشرح الواحدي (ص ٢٠٣):

بذي الغباوةِ من إنشادها ضررٌ

في «الصَّحيحين»: قال الصِّدِّيقُ: نَظَرْتُ إلى أقدامِهِم فوقَ رُؤوسِنا فقُلْتُ: يا رسولَ الله! لو أنَّ أحدَهم نَظَرَ إلى قَدمَيْهِ لأَبْصرَنا، فقال: «ما ظنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثالِثُهُما»[1].

وفي التَّنزيلِ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

٧٧ـ فالصِّدْقُ في الغارِ والصِّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا   وهُمْ يَقولُونَ ما بالغارِ مِن أَرِمِ

(الصِّدْق) مصدرٌ بمعنى: الصَّادقُ، أو الـمَصْدُوقُ، أو ذو الصِّدْق، بالمعنى الأعمِّ، أو على طريقِ المبالَغةِ؛ كـ: رجلٌ عَدْلٌ.

يعني: الصَّادِقُ المصدوقُ الذي انْحَصَرَ فيه الصِّدْقُ بل هو عَينُ الصِّدقِ قارٌّ في الغارِ، فارٌّ مِن الكفَّارِ، بأمرِ الجبَّارِ، والصِّدِّيقُ معه في الغارِ والأَسْفار، إذ الصِّدِّيقُ ـ وهو كثيرُ الصِّدْقِ ـ لا يُفارِقُ الصِّدْقَ، فهو الجزءُ الذي لا يَنْفَكُّ.

ثُمَّ قيل: (لَمْ يَرِمَا) بفتحِ الياءِ وكسرِ الرَّاءِ؛ أي: لَمْ يَبْرَحا ولَمْ يَزُولَا، وأصلُه بياءٍ بعدَ الرَّاءِ هي عينُ الفعلِ، حُذِفَتْ تَبَعاً لحَذفِها في إسنادِهِ إلى الـمُفْرَدِ لالْتِقاءِ السَّاكِنَينِ، والأصلُ في استعمالِ مِثْلِهِ إثباتُ الياءِ عندَ تَحريكِ الميمِ اعْتِداداً بالعارِضِ، وِزَانَ ما في التنزيلِ: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٩]، فهذا الوجهُ ـ وهو أن يكونَ الحذفُ لعَدَمِ اعْتِبارِ العارِضِ ـ أَوْجَهُ مِن الحملِ على ضَرورةِ الشِّعرِ لأنَّه محلُّ نَظَرٍ، فإنَّه ليسَ مِن قَبيلِ حَذفِ القياسِيِّ مِن ضَرُوراتِ الشِّعريِّ، وأيضاً يوجِبُ الالْتِباس المُشوِّش في إرادةِ المعنَى على النَّاس، ونظيرُه ما قيل: إنَّهُ مجهولٌ من الرَّوْمِ[2] بمعنى الطَّلَب.

ومِن اللَّطائفِ: أنَّهما مَطْلوبانِ ولَيْسَا بمطلوبَيْنِ، بل إنَّهما مَحبوبانِ ولكنْ كانَا عن أَعْيُنِ الأعداءِ محجوبَيْنِ.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١)، من حديث أبي بكر رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) في «ل»: «الورم»، وهو تحريف.

وقيـل: إنَّـهُ مشـتَقٌّ مِـن الـوَرَمِ، يعنـي: مـا انْتَفَخَـا مِـن الغضـبِ؛ لـلأدَبِ مع حُكْمِ الـرَّبِّ.

وقيـل: مـا انْتَفَخَـا مِـن الـوَرَمِ النَّاشـئِ مِـن السُّـمِّيَّاتِ، فـإنَّ الغـارَ كان مَأْوَى الحيَّـات، فيكـونُ مِـن خَـوارِقِ العـادات.

وقيـل: إنَّـه مُفْـرَدٌ مُؤكَّدٌ بالنُّـونِ الخفيفـةِ، فأُبْدِلَتِ الفـاءُ للوَقْـفِ، والضَّميرُ لـ (الصِّدِّيـق)، ويكـونُ خَبـراً عنـهُ حيثُ لَسـعَتِ الحيَّـةُ رِجْلَـهُ المبارَكـةَ، وارْتَفَـعَ عنهُ الـوَرَمُ ببركـةِ دعائهِ المكـرَّم، ﷺ.

وفي بعضِ النُّسخِ بصيغةِ المجهولِ مِن الرُّؤيةِ، وهو ظاهرُ المعنَى، لكنْ قال بعضُ الشُّرَّاح: إنَّه مِن تَصحيفِ الكتَّاب، واللهُ أعلمُ بالصَّوَاب.

(وهم يقولون)؛ أي: والحالُ أنَّ الكفَّارَ الواقِفينَ على بابِ الغارِ العَمِيِّ عن الأَبْصار، بعَوْنِ اللهِ الملِكِ القَهَّار: (ما بالغارِ)؛ أي: ليس فيهِ (مِن أَرِمِ) بفتحِ الهمزةِ وكسرِ الرَّاءِ؛ أي: أحدٌ، و(مِن) مَزِيدةٌ للمُبالَغةِ، ناظِرينَ إلى حَوْمِ الحَمَامِ وبَيْضهِ حولَ الغارِ، ونَسْجِ العنكبوتِ على فَمِ الدَّار، كما أشارَ إليهِ بقوله:

٧٨ـ ظَنُّوا الحَمَامَ وظَنُّوا العنكبوتَ على خيـرِ البَرِيَّـةِ لَـمْ تَنْسُـجْ ولَـمْ تَحُـمِ

(البَرِيَّة) بتشديدِ الياءِ وبالـهَمْزِ: أي: الخلائِقُ، والمرادُ بخيرِهِمْ هو النَّبيُّ المكرَّمُ صلى الله تعالى عليه وسلم، أو المرادُ: سيِّدُ الأنبياءِ وسَنَدُ الأولياء.

وقوله: (لَمْ تَنْسجْ) بكسرِ السِّينِ وضمِّها، (ولَمْ تَحُمِ) بضمِّ الحاءِ مِن الحَوْمِ وهو الدَّوْرُ حولَ الشَّيءِ، والتَّأنيثُ في الفِعْلَينِ باعتبارِ الجِنسينِ، وقيل: في العنكبوتِ لِمَا اشْتَهَرَ مِن أنَّ النَّسْجَ شُغْلُ الأُنْثَى كما أنَّ البيضَ مُختَصٌّ بالحمامة.

والمعنى: أنَّ الكفَّارَ لعَدَمِ يَقينِهِمْ بالنبيِّ الـمُختار، حَسِبُوا أنَّ العنكبوتَ لَمْ يَنْسُجْ على بابِ الدَّار، والحمَامَ لَمْ يَحُمْ حولَ الغار، فظنُّوا أنْ ليس في الدَّارِ دَيَّار،

ورجعوا عن تَتَبُّعِ الآثار، وقالوا: لو كانَ أحدٌ في الغار، لَـمَا كان هذهِ الآثار، حتَّى قال أميَّةُ بنُ خَلَفٍ حينَ قال بعضُهم: نَدْخُلُ الغار: أَمَا تَرَوْنَ مِن نَسجِ العنكبوتِ عليه؟ ما أُرَى إلَّا أنَّه قَبْلَ أنْ يُولَدَ محمدٌ(١).

وهذا مِن أعظمِ الآياتِ على كمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، حيث وَقَاهُ اللهُ مِن أعظمِ الأعداء، بأَوْهَنِ البِنَاء، ومِن أَظْهَرِ العلاماتِ على إعلاءِ قَدْرِ نَبيِّه العَلِيِّ، وصَفِيِّهِ الجَلِيِّ، حيثُ اسْتَخْدَمَ له الطَّيرَ والحشرات، كما أَظْهرَ له تسبيحَ الجَمَادات، وتَسخيرَ النَّبَاتات، ولقدْ أَحْسَنَ النَّاظِمُ في تَبْيينِ أنواعِ الـمُعْجِزات، وأصنافِ خَوَارِقِ العادات.

قيل: وحمَامُ الحَرَمِ الآنَ مِن نسلِ تلك الحَمَامة، ونَهَى النبيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم عن قتلِ العنكبوتِ بتلكَ الغَمَامة(٢).

٧٩ ـ وِقايةُ اللهِ أَغْنَتْ عن مُضاعَفةٍ مِـن الـدُّرُوعِ وعـن عـالٍ مِـن الأُطُـمِ

(الأُطُم) بضمَّتينِ: جمعُ أَطَمَةٍ وهي الحُصَيْنُ؛ أي: حِفْظُ اللهِ الملكِ الجبَّارِ لنبيِّه الـمُختارِ جَعَلَهُ مُسْتَغْنياً عن الدُّروعِ والأسلحةِ المتعدِّدَة، وعن الحصونِ العاليَةِ المرتَفِعَة، فإنَّ عنايَتَهُ كِفَايَة، ووِقايَتَهُ كلُّ وِقَايَة؛ لأنَّه يَحفَظُ مَن شاءَ بما شاءَ مِن

(١) رواه أبو نعيم من طريق الواقدي حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه عن النبي ﷺ. انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (١/ ٣٠٦). والواقدي متروك كما أن الخبر منقطع. وقصة نسج العنكبوت رواها أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (٣٢٥١) ـ طبعة الرسالة ـ بإسناد ضعيف، وانظر الكلام عليه في التعليق على «المسند». وقصة الحمامتين رواها ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٢٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٤٤٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣)، وفي إسناده عون ـ ويقال: عوين ـ بن عمرو القيسي، أعله العقيلي به وقال: لا يتابع عليه، وأبو مصعب المكي مجهول. وانظر: «نصب الراية» للزيلعي (١/ ١٢٣).

(٢) حديث النهي عن قتل العنكبوت قطعة من خبر موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه. انظر التعليق السابق.

مخلوقاتِه، ويَقِي مَن أَرادَ وِقايَتَهُ ببديعِ مَصنوعاتِه، كما جَعَلَ الغارَ له بمنزلةِ الحِصْنِ الحَصِينِ، وصيَّرَ نَسْجَ العنكبوتِ في قوَّةِ الدِّرعِ الـمَتين.

رُوِيَ عـن عائشـةَ رضـي الله تعالـى عنهـا قالـت: كان النبـيُّ صلـى الله تعالى عليه وسـلم يُحْـرَسُ، حتَّى نَزَلـتْ هـذه الآيـةُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأَخْـرجَ رسـولُ اللهِ صلـى الله تعالى عليه وسـلم رأسَـهُ مِن القُبَّةِ وقـال: «يا أيُّها النَّـاسُ! انْصَرِفـوا فقد عَصَمَنـي ربِّي»(١).

والمعنى: أنَّ العِصْمةَ أَوَّلاً كانَتْ بواسطةِ الحِجَاب، ولَـمَّا ارْتَفَعَ الحِجابُ حُفِظَ بربِّ الأرباب.

وفـي البيتِ إيماءٌ إلـى قولهِ تعالـى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية [التوبـة: ٤٠]، وإشـارةٌ إلى قولهِ عـزَّ وجـلَّ: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

٨٠ـ ماسامَني الدَّهرُ ضَيْماًواسْتَجَرْتُ به إلَّا ونِلْـتُ جِـواراً منـهُ لَـمْ يُضَـمِ

السَّـوْمُ: إذاقَـةُ الشِّـدَّةِ والمِحْنـةِ، ومنـهُ قولُـه تعالـى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقـرة: ٤٩].

وفي نسخةٍ: (ما ضَامَني) مِن الضَّيْم، وهو الظُّلْمُ.

والنِّسبةُ إلى الدَّهرِ الذي هو مُطْلَقُ الزَّمانِ مَجَازِيَّةٌ عُرْفيَّةٌ، والأحسنُ أنْ يُقدَّرَ مُضافٌ؛ أي: خالِقُ الدَّهرِ ومُقَلِّبهُ ومُصَرِّفُهُ. و(ضَيْماً) مفعولٌ ثانٍ على نُسخةِ السِّينِ، ومفعولٌ مُطْلقٌ على نُسخةِ الضَّاد، وفي نسخةٍ: (يوماً) منصوبٌ على الظَّرْفيَّة.

---

(١) رواه الترمـذي (٣٠٤٦) مـن حديث عائشـة رضِـيَ اللهُ عنها، وقـال: حديث غريب. وأشـار إلى أنه روي مرسـلاً دون ذكر عائشـة رضِـيَ اللهُ عنها.

و(اسْتَجَرْتُ) عطفٌ على (سامَني)، والاسْتِجارَةُ: طَلَبُ الجِوَار، وهو المُهْلَةُ والخَلَاص، وقيل: الالْتِجاءُ والالْتِيَاذُ وطَلَبُ المَنَاص.

وقيل: (اسْتَجَرْتُ) حالٌ بتقديرِ: قد، وهو الأظهَرُ.

والاستثناءُ مُفرَّغٌ، والضَّميرُ في (بـه) راجعٌ إليهِ صلى الله تعالى عليه وسلم، و(نِلْتُ) بكسرِ النُّونِ مِن نالَـهُ يَنالُهُ: إذا وَصَلَ إلى مُرادِهِ وحَصَّلَ مُنَاهُ ومَقْصودَهُ.

والجِوَارُ بكسرِ الجيمِ: المُجاوَرَةُ أو المُحافَظَةُ، والضَّميرُ في (مِنهُ) للضَّيْمِ المدلولِ عليه بـ(ضَامَ) إنْ أُرِيدَ بالجِوَارِ الخَلَاصُ، وبـ(خيرِ البَرِيَّة) إنْ أُريدَ به طَلَبُ المَنَاص.

و(لَمْ يُضَمِ) مَبْنِيٌّ للمفعولِ.

ثُمَّ هذا البيتُ وما بعدَهُ وَقَعَ في بعضِ النُّسَخِ قبلَ قولِهِ: (خَدَمْتُه بمديحٍ) في آخِرِ القصيدةِ.

والمعنى: ما أَذَاقَني اللهُ تعالى في الزَّمانِ ضَرَراً مِن أمورِ الأكوانِ، وفي[١] وقتٍ مِن الأوقات، وساعةٍ مِن السَّاعات، والحالُ أنِّي قد الْتَجَأْتُ إليه، أو أَحَلْتُ الخَلاصَ عليه، إلَّا وقد نِلْتُ منهُ خلاصاً، ووجدْتُ فيه مَنَاصاً، لَمْ يُغْلَبْ ولَمْ يُظْلَمْ، أو لَمْ يُحْقَرْ بل يُحْتَرَم.

٨١ـ ولا الْتَمَسْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِن يَدِهِ إلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِن خيرِ مُسْتَلَمِ

(المُسْتَلَم) بفتحِ اللَّامِ اسمُ مكانٍ أو مفعولٍ؛ أي: ما طَلَبْتُ غِنَى الدُّنيا بالكفايةِ وغِنَى العُقْبَى بالسَّلامةِ مِن إحسانهِ وامْتِنانِهِ، إلَّا أَخَذْتُ العطاءَ ونِلْتُ المُنَى مِن خيرِ مستلَمٍ منهُ ومطلوبٍ عنهُ.

وحاصلُ البيتينِ: أنَّ دَفْعَ الضَّررِ الصُّوْريِّ والمعنويِّ، وجَلْبَ النَّفْعِ الدِّينيِّ

(١) في «د»: «في».

والدُّنْيويِّ، حاصلٌ بالتَّمَسُّكِ إلى جَنَابِهِ، وواصِلٌ بالوقوفِ على عَتَبَةِ بابه[١].

٨٢ ـ لا تُنكرِ الوحيَ مِن رُؤْياهُ إنَّ لهُ قَلْباً إذا نامَتِ العينانِ لَمْ يَنَمِ

(لَمْ يَنَم) بفتحِ النُّون، وفي نُسخةٍ (مَتَى) مكانَ (إذا)؛ أي: لا تُنْكِرْ أيُّها الـمُنْكِرُ، ولا تَسْتَغرِبْ أيُّها المُقِرُّ، الوَحْيَ الرَّبَّانيَّ والإلهامَ الصَّمَدانيَّ الحاصِلَ مِن رؤياهُ في المنام؛ لأنَّ لهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قلباً عظيماً وصَدْراً كريماً إذا نامَتْ عيناهُ لَمْ يَنَمْ قلبُه في رُؤياهُ، وفي «الصَّحيحينِ»: أنَّه ﷺ قال: «إنَّ عَيْنيَّ تنامانِ ولا ينامُ قَلْبي»[٢].

٨٣ ـ وذاكَ حينَ بلوغٍ مِن نُبُوَّتِهِ فليسَ يُنْكَرُ فيهِ حالُ مُحْتَلِمِ

يُقرأُ البيتُ بإشباعِ هاءِ (فيهِ) والضَّميرُ راجعٌ إلى (حين البُلوغ).

والمحتلَمُ بفتحِ اللَّام مصدرٌ ميميٌّ بمعنى الاحْتِلَام، كذا قيل، والأظهرُ أنَّهُ بكسرِ اللَّام بمعنى: بالِغٍ.

يعني: وذلك الوحيُ المعظَّمُ والحالُ المكرَّمُ كان في ابتداءِ أمرِ نبوَّتِهِ وفي بدءِ بدوِّ رسالتِهِ، وقد نُبِّئ على رأسِ أربعينَ سنةً، وهو حَدُّ مبدأ النُّبوَّةِ، فليس يُنكَرُ في ذلكَ الزَّمانِ وبلوغِ ذلك الأوَانِ حالُ بالغٍ مبلَغَ الرِّجالِ، موصوفٍ بأوصافِ الكَمال، مِن دَعْوَى الوَحي في المنام، فإنَّه مِن مقدِّماتِ وحيِ النبيِّ عليهِ السَّلام.

وفي «شرح السنة»: أنَّ مِن جُملةِ أيَّامِ الوَحيِ ـ وهو ثلاثةٌ وعشرونَ سنةً ـ كان

---

(١) الالتجاء والاستجارة إنما يكونان إلى الله، كما أن التماس الغنى لا يكون إلا منه سبحانه، وحاشا لرسول الله أن يقبل من عبد أن يلتجئ إليه أو يطلب منه شيئاً من هذه الأمور التي هي من خصائص العلي القدير سبحانه وتعالى، وفي البيتين مخالفة لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولحديث: «وإذا استعنت فاستعن بالله»، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت: ١٧].

(٢) رواه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨)، من حديث عائشة رضِيَ اللهُ عنها.

ستَّةُ أشهرٍ في المَنام، وبهذا فُسِّر قولُه ﷺ: «رؤيا المؤمن جزءٌ مِن ستَّةٍ وأربعينَ جُزءاً مِن النُّبوة»[1].

٨٤ـ تَبارَكَ اللهُ ما وحيٌ بمُكْتَسَبٍ ولا نبيٌّ على غيبٍ بمُتَّهَمِ

(مُكتَسَب) و(متَّهم) صِيغتَا مجهولٍ.

يعني: تكاثَرَ خيرُه ودامَ نفعُه، أو تعالَى وتعظَّمَ كبرياؤه، وهذا إنشاءٌ للتعجُّبِ؛ أي: سبحانهُ ليسَ وحيُه حاصِلٌ باكتِسابِ الأعمالِ، ولا بتحسينِ الأخلاقِ والأحوال، بل مَحضُ موهبةٍ، ومجرَّدُ عطيَّةٍ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولا يوجدُ نبيٌّ ثَبَتَتْ نبوَّتُه وتحقَّقَتْ معجزتُه متَّهَماً على ما يأتي من المغيَّباتِ وإخبارِ أمورِ الكائنات، قال الله تعالى: ﴿وَما هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤] على قراءة الظاء المشالة[2]؛ أي: بمتَّهمٍ.

٨٥ ـ كَمْ أَبْرأَتْ وَصَباً باللَّمْسِ راحتُه وأَطْلَقَتْ أَرَباً عن رِبْقَةِ اللمَمِ

(كم) خبريَّةٌ، و(الوَصَب) بفتحتين: الألَمُ والتَّعبُ، وفي نسخةٍ بكسرِ الصَّاد؛ أي: المريض، وهو أوضحُ.

والراحةُ: الكفُّ، أو باطنُه.

والإطلاق ضدُّ التَّقييدِ، و(الأَرَبُ) بفتحتين: الحاجةُ، وفي نسخةٍ بكسرِ الرَّاء؛ أي: صاحبَ الحاجةِ، وهو أظهرُ معنًى.

---

(١) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٢/ ٢٠٤). والحديث رواه البخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٢٢٦٤)، من حديث أنس رضِيَ اللهُ عنه. ورواه البخاري (٦٩٨٨)، ومسلم (٢٢٦٣)، من حديث أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عَمْرو والكسائي: ﴿بظنين﴾ بالظاء، وقرأ نافع وعاصِم وابن عامر وحَمْزَة: ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضاد. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ٦٧٣).

والرِّبْقَـةُ بالكسـرِ: حبلٌ لـهُ عقدةٌ يُشـدُّ بِهِ التَّمائـمُ، و(اللَّمَـم) بفتحتين: صغارُ الذُّنـوبِ، وطَرَفٌ مِـن الجنون؛ لأنَّ الجنـونَ فُنون.

يعنـي: كثيـراً مِـن الآلامِ، أو ذَوِي الأسْـقامِ، حَصَلـتْ لهـمُ الرَّاحـةُ مِـن الأَلَمِ والسَّـقَم، ببركـةِ راحتـهِ الأَكْـرَم، وكَفِّـه الأَفْخَـم، وكَـمْ أَخْلَصـتْ أربـابَ الحاجاتِ عـن عقـدةِ عُقـودِ السَّـيِّئات: إمَّـا بالتَّوبـةِ الماحِيَـةِ عـن العُقوبـات، وإمَّـا بالشَّـفاعةِ الباعِثـةِ علـى رِفْعـةِ الدَّرجات.

أو: كَمْ أَرْسَلَتْ أربابَ الجنونِ الظَّاهِريِّ أو الباطِنيِّ عن عُروةِ جُنونِهم، وعن ظُلْمةِ فُنونِهم، وجَعَلَهم مَجاذيبَ متوجِّهينَ إلى الـمَحَاريب.

رُوِيَ: أنَّ امـرأةً أتـتِ النبـيَّ صلـى الله تعالـى عليـه وسـلم بابنٍ لها بـهِ جنونٌ، فمسـحَ بيـدهِ المبارَكـةِ صدرَه فثَـعَّ ثَعَّـةً ـ بالمثلَّثـةِ والمهمَلـةِ؛ أي: قاءَ قيئـةً ـ فخرجَ مِن جوفـهِ مِثْـلُ الجروِ الأَسْـودِ[١].

وكان في كفِّ شُرحبيلَ الجُعْفيِّ سِلْعةٌ ـ بكسرِ السِّينِ؛ أي: زيادةُ لحمٍ ـ تمنعُه مِن القَبْضِ على السَّيفِ وعلى عِنَانِ الدَّابَّةِ، فَطَفَهَا صلى الله تعالى عليه وسلم بيدهِ المبارَكةِ، فذَهَبتْ ولَمْ يَبْقَ لها أثرٌ[٢]. ذكَرهُ صاحبُ «الشِّفا» وغيرُه مع وقائعَ كثيرةٍ[٣].

٨٦ ـ وأَحْيَتِ السَّنَةَ الشَّهْباءَ دَعْوَتُهُ حتَّى حَكَتْ غُرَّةً في الأَعْصُرِ الدُّهُمِ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٥٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٤٦٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢): رواه أحمد والطبراني، وفيه فرقدٌ السَّبخي وثقه ابن معين والعجلي وضعفه غيرهما.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٢١٥) من طريق مخلد بن عقبة بن عبد الرحمن بن شرحبيل الجعفي، عن جده عبد الرحمن، عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وبكفي سلعة...، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٩٨): رواه الطبراني، ومخلد ومن فوقه لم أعرفهم، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) انظر: «الشفا» (١/ ٢٤٢).

في «القاموس»: الشَّهَبُ محرَّكةً: بياضٌ يَصْدَعُه سوادٌ؛ كالشُّهْبةِ بالضمِّ، وسَنَةٌ شَهْباءُ: لا خُضْرةَ فيها، أو لا مَطَرَ.

و(الغُرَّةُ) بالضَّمِّ: بياضٌ في الجَبْهةِ.

و(الأَعْصُر): جمعُ عَصْرٍ، وهو الزَّمانُ، و(الدُّهُم) بضمَّتين: جمعُ أَدْهَمَ، وهو الأَسْوَدُ.

ونِسبتُهُ الإحياءَ إلى الدَّعوةِ مَجازِيَّةٌ سَببيَّةٌ، يعني: أَحْيَتْ دعوتهُ الـمُبارَكةُ بالسُّقْيا السَّنةَ التي كانَتْ مَيِّتةً ويابسةً أرضُها لقلَّةِ المطر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ أي: سَنَةَ القَحْطِ التي هي شَهْباءُ لغَلَبةِ بياضِ الأرضِ فيها بعَدَمِ النَّباتِ على سَوَادِها بالنَّباتِ، فهي بالنِّسبةِ إلى البياضِ مَيِّتةٌ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الرِّزقَ قد يَقِلُّ لكنْ لا يُعْدَمُ بالكلِّيَّةِ، إلى أنْ شابَهَتْ تلك السَّنَةُ بياضاً واضِحاً في جَبينها، وضياءً لامحاً في أوَّلِ حِينها، مستعارٌ مِن غُرَّةِ الفَرَسِ في الأَزْمنةِ السُّودِ لشدَّةِ خُضرةِ الزَّرعِ فيها حتَّى يُرى أسودَ مِن كثرةِ الزَّرعِ بها، يعني: تلك السَّنةُ أخصبُ منها حتَّى كأَنَّها غُرَّةٌ فيها، وغُرَّةُ كلِّ شيءٍ: أَحْسَنُهُ وأَيـمَنُه.

وقيل: المرادُ بالأعْصُرِ الدُّهُمِ: أَزْمِنَةُ القَحطِ والغَلَاء.

٨٧ـ بعارِضٍ جادَ أو خِلْتَ البِطاحَ بها سَـيْباً مِـن اليَـمِّ أو سَـيْلاً مِـن العَـرِمِ

العارِضُ: السَّحَابُ، والباءُ مُتعلِّقٌ بـ(أَحْيَتْ) أو (دَعْوتُه) أو (حَكَتْ).

و(جادَ) مِن الجَودِ بفتحِ الجيمِ، وهو إكثارُ المطرِ، وقيل: مِن الجُودِ بالضَّمِّ.

و(أو) بمعنَى: إلى أَنْ. و(خِلْتَ) بكَسرِ الخاءِ مِن الخَيَالِ وهو الظَّنُّ والحُسبانُ.

و(البِطَاح): جمعُ أَبْطَحَ أو بَطْحاءَ، وهو الوادي المتَّسِعُ الـمُشْتَمِلُ على البَطْحاءِ، وهي الحَصْباءُ، وضميرُ (بها) راجعٌ إلى (السَّنَة الشَّهْباء).

و(سَيباً)؛ أي: عطاءً؛ أي: ماءً جارياً، وهو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لـ(خِلْتَ)، ورُوِيَ بالرَّفْعِ على أنَّه مبتدأٌ و(بها) خبرُه، والجملةُ في محلِّ النَّصبِ مفعولٌ ثانٍ له.

والمعنى: أَحْيَتْ دَعوتُه الأرضَ الميتةَ بسببِ عُرُوضِ سحابٍ أَكْثَرَ المطرَ ـ أو جادَ بالمطرِ ـ إلى أنْ ظَنَنْتَ أيُّها المخاطَبُ وحَسِبْتَ الأوديَةَ المتَّسِعةَ في تلك السَّنةِ عطاءً وافياً وماءً جارياً مِن البحرِ لكثرتِهِ، أو سَيلاً سارياً مِن الوادي المنكسِرِ سَدُّه لقوَّتِه.

وفيه تنبيهٌ نبيهٌ على أنَّ لدَعوةِ نبيِّه صلى الله تعالى عليه وسلم تأثيراً في ملكوتِ سمائِهِ وأرضِهِ، رَوَى الشَّيخانِ عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه: أنَّ رجلاً دَخَلَ المسجدَ يومَ الجمعةِ ورسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم قائمٌ يَخْطُبُ، فقال: يا رسولَ الله! هَلَكتِ الأموالُ وانْقَطَعتِ السُّبُلُ، فادْعُ اللهَ يُغيثُنا، فرفَعَ رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم يَدَيْهِ فقال: «اللهمَّ أَغِثْنا» ثلاثاً، وما نَرَى في السَّماءِ مِن سَحَابٍ ولا قَزعةٍ، فطَلَعَتْ سَحابةٌ ثُمَّ أَمْطرتْ، واللهِ ما رَأَيْنا الشَّمسَ سَبْتاً. ثُمَّ دَخَلَ رجلٌ مِن الجُمعةِ المقبِلةِ ورسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم قائمٌ يخطُبُ، فقال: يا رسولَ الله! هَلَكتِ الأموالُ وانْقطَعتِ السُّبُلُ، فادْعُ اللهَ أنْ يُمسِكَها عنها، فرفعَ يديهِ ثُمَّ قال: «اللهمَّ حَوَالَيْنا ولا عَلَيْنا...» إلى آخره، فأَقْلعتْ وخَرَجْنا نمشِي، وسُئل أنسٌ رضِيَ اللهُ عنه: أهو الرجلُ الأوَّلُ؟ فقال: لا أَدْرِي[1].

وقولُه: (سَبْتاً) بموحَّدةٍ بينَ السِّينِ والتَّاءِ؛ أي: قِطْعةً مِن الزَّمان، وفي روايةٍ للبخاريِّ: فما زِلْنا نُمْطَرُ إلى الجمعةِ القابِلة[2].

و(القَزَعة) بفتحِ القافِ والزَّاي: قطعةُ سحابٍ، كذا ذَكَرهُ الـمَحَلِّيُّ.

والأنسبُ بالرِّوايةِ الأخيرةِ للبخاريِّ أنْ يُفسَّرَ السَّبْتُ بالأسبوعِ مِن السَّبْتِ

(١) رواه البخاري (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧)، من حديث أنس رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) رواه البخاري (١٠١٥).

إلـى السَّـبْتِ كمـا ذَكَـرهُ صاحـبُ «النِّهايـةِ»، ثُـمَّ قـال: وقيـل: أراد مـدَّةً مِـن الزَّمانِ قليلـةً كانتْ أو كثيـرةً(١).

٨٨ ـ دَعْنِي ووَصْفِي آياتٍ لهُ ظَهَرتْ ظُهـورَ نـارِ القِـرَى ليـلاً عَلَـى عَلَـمِ

(القِرَى) بكسرِ القافِ: الضِّيَافةُ، و(العَلَم) بفَتْحتينِ: الجَبَل.

ويُقرأُ البيتُ بفتحِ ياءِ الإضافةِ في (وَصْفِي)، والواوُ بمعنَى: مع؛ لأنَّ عَطْفَه على الضَّميرِ المنصوبِ يُخِلُّ بالمقصودِ والمطلوب.

والمعنى: اتْرُكْني أيُّها النَّاصِحُ لي بالاخْتِصارِ في الكلامِ؛ لأنَّه يَنجرُّ إلى الملالِ والسَّآمِ، فإنَّ ذِكْرَ الحبيبِ لا يَشْبعُ منه اللَّبيب، فخَلِّني مع وَصْفي لهُ صلى الله تعالى عليه وسلم بآياتٍ بيِّناتٍ، وعلاماتٍ واضحاتٍ، ومعجزاتٍ لائحاتٍ، ظَهَرتْ ظهوراً بيِّناً في الآفاق، في وقتِ ظُلْمةِ الجهلِ بمحاسِنِ الأخلاق، مِثْلَ شعاعِ نارِ الضِّيَافةِ على رُؤوسِ الجبل؛ للعَلَامةِ في اللَّيلِ الذي هو أَدْهَى للويلِ؛ لحضورِ المحتاجِينَ ووصولِ المُشتاقِين مِن المُسافرينَ والمُجاوِرِين.

والحاصـلُ: أنَّ الآيـاتِ القُرْآنيَّـة، والـدَّلَالاتِ الفُرْقانيَّـة، ظَهَـرتْ وقتَ شـدَّةِ الاحْتِيَـاجِ إليهـا، وعَلَـتْ عُلُوًّا لا يُمكـنُ الارْتفـاعُ عليها.

٨٩ ـ فالدُّرُّ يَزْدادُ حُسْناً وَهْوَ مُنْتَظِمٌ وليـسَ يَنْقُـصُ قَـدْراً غَيْـرَ مُنْتَظِـمِ

(حُسْناً) و(قَدْراً) تَمييزانِ، و(يَنْقُصُ) رُوِيَ مَعْلوماً ومَجْهولاً، و(غيرَ مُنْتَظِم) حالٌ، والفاءُ للتَّعليل.

يعني: أنَّ أوصافَ جَمالهِ وأسبابَ كمالهِ في غايةِ الاشْتِهَار، كما وَرَدَ في الأخبارِ والآثار، وإنَّما نَظَمْتُ بعضَها في سِلْكِ النَّظْمِ؛ لأنَّه أَضْبَطُ وأَحْفَظُ وأقربُ إلى الفَهْمِ،

---

(١) انظر: «النهاية» لابن الأثير (مادة: سبت).

كما أنَّ الدُّرَّ وهو اللُّؤْلُؤُ المعلومُ يَزيدُ حُسْنُه في حالهِ الـمَنْظوم، ولا ينقصُ قَدْرُه حالَ كونهِ مَنْشوراً عند أربابِ العُلُوم.

٩٠ ـ فما تَطَاوُلُ آمالِ الـمَدِيحِ إلى ... ما فيـهِ مِـن كَـرَمِ الأخـلاقِ والشِّـيَمِ

تَطَاوَلَ إليه: مَدَّ عُنقَهُ مُرِيداً للاطِّلاعِ عليه، والآمالُ: جمعُ الأَمَلِ، وهو الرَّجاءُ، وهو مُضافٌ إلى (المَدِيحِ) وهو اسمٌ لِـمَا يُمْدَحُ به.

وقيل: بمعنى الممدوحِ، واللَّامُ للعَهْدِ أو الاسْتِغراقِ، وهو أَوْلَى.

وفي نسخةٍ: (آمَالي) بياءِ المتكلِّمِ ونَصْبِ (المديحَ) بنزعِ الخافِضِ.

والأخـلاقُ الكريمةُ: هي الخِصَالُ الكَسْـبيَّةُ أو الطَّبيعيَّةُ، والشِّـيَمُ الـمَرْضيَّةُ: هي الأحـوالُ الوَهْبيَّةُ.

قيـل: (مـا) الأُولَـى اسـتفهاميَّةٌ بمعنَـى النَّفْـي، ولا بـدَّ مِـن تقديـرٍ؛ أي: فـإنَّ تطـاولَ آمالـي بالمديـحِ إلى صفاتـهِ الحَسَـنةِ، لا أَصِـلُ إلى بيـانِ جميعِهـا وإنْ طالَ عُمـري ألفَ سـنةٍ.

وقيل: (ما) نافيَةٌ[١]، والفاءُ للتَّعليلِ.

وقيل: (ما) موصولةٌ، والفاءُ للعطفِ على (وَصْفي).

وحاصلُ المعنَى: إنِّي إنَّما انْتَقلْتُ مِن الاشتِغالِ عن وصفِ حالاتهِ إلى وصفِ آياتهِ ومُعْجزاتهِ؛ لأنَّ الآمالَ لا تتطاوَلُ إلى أوصافهِ البهيَّةِ وأخلاقهِ السَّنِيَّة، فأَرَدْتُ أنْ أَتشرَّفَ بوصفِ الآياتِ البيِّناتِ وأَرْتَشِحَ مِن بحرِ لطائفِها برَشَحاتٍ فائِضات، فما لا يُدْرَكُ كلُّه لا يُتْرَكُ كُلُّه، ودَرْكُ بعضِ الخيرِ خَيْرٌ مِن تركِ الكُلِّ.

---

(١) فـإن كانـت نافيـة كان الأَوْلَـى جعلُ (تَطَـاوَلُ) فعـلًا مضارعاً محـذوف التـاء مفتوح الـواو، أما في الاسـتفهامية فتكـون بضـم الـواو ورفع الـلام ـ وكذا ضبطـت في «ل»، ولـم تضبط فـي «د» ـ على أنهـا اسـم هو خبـر (مـا) الاسـتفهامية التي هي فـي محل رفـع علـى الابتداء.

٩١ ـ آياتُ حقٍّ مِن الرَّحْمنِ مُحْدَثَةٌ   قَدِيمةٌ صفةُ المَوصوفِ بالقِدَمِ

(آياتُ حَقٍّ) إمَّا مرفوعٌ على أنَّه مبتدأٌ، و(مِن الرَّحمنِ) صفةٌ، والخبرُ (مُحْدثةٌ قَديمةٌ)، أو على أنَّهُ خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هي، يعني: الآياتُ الموصوفةُ، والبَوَاقي أخبارٌ مُترادِفةٌ، أو صفاتٌ مُتلاصِقةٌ.

وإمَّا منصوبٌ على أنَّه عَطْفُ بيانٍ لـ(آياتٍ) في قوله: (دَعْني وَوَصْفي آياتٍ)، أو على المدحِ، وكذلك (مُحْدَثَةً) و(قَديمةً)، و(صِفَةَ الموصوف). وفي نسخةٍ: (مُحْكَمَة) بدل (مُحْدثَة).

ثُمَّ الحقُّ صِفةٌ مُشبَّهةٌ؛ أي: آياتٌ ثابتةٌ وصادقةٌ، و(صَفةُ الموصوف) مبتدأٌ، و(قديمةٌ) خبرُه، كذا قالوا، والأظهرُ أنَّ (صفةُ الموصوفِ) خبرُ مبتدأ محذوفٍ هو: هي؛ أي: هذه الآياتُ.

والمعنى: إنَّ الآياتِ القرآنيَّةَ والكمَالاتِ الفُرْقانيَّةَ آياتٌ ثابتةٌ، ومعجزاتٌ صادقةٌ، نازلةٌ مِن الرَّحمنِ، بمقتضَى الرَّحْمانيَّة على أفرادِ الإنسان، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، وهي (مُحْدَثةٌ)؛ أي: نزولُها (قديمةٌ) وجودُها وحُصولُها، أو: مُحدثةٌ لفظاً قديمةٌ معنًى، وهي صفةُ الموصوفِ بالقِدَمِ، فلا يَجْري عليها سِمَةُ العَدَم.

وفيهِ ردٌّ على المعتزِلةِ حيثُ قالوا بحدوثِ كلامِ اللهِ القديمِ، وعلى الحَنابِلَةِ حيث قالوا بقِدَمِ ألفاظِهِ، بل تفوَّهوا بقِدَمِ كتابتِهِ ومِدَادِهِ وأوراقِهِ، وهو في غايةٍ مِن السَّخافة، الظَّاهِرِ بطلانُه على طريقِ البَدَاهَة، لِـمَن لَمْ يكنْ مِن أهلِ البَلَاهة، فأهلُ التَّحقيقِ في المسألةِ على مَذْهَبَين:

أحدُهما: أنَّ القرآنَ هو الكلامُ النَّفْسيُّ، وإطلاقهُ على المركَّبِ مِن الأصواتِ

والحروفِ مَجَازٌ، وهو مذهبُ قُدماءِ المشايخِ، ولهذا عرَّفوهُ بأنَّه صفةٌ تَجلَّتْ في مَظْهرِ الحروفِ والأصواتِ، فباعْتِبارِ الـمَظهَرِ حادثٌ، وباعتبارِ صفةِ الـمَظهرِ قديمٌ.

وثانِيْهِما: أنَّه يُطلَقُ عليهما بالاشتراك، وهو بالمعنَى الأوَّلِ قديمٌ، وبالمعنَى الثَّاني حادثٌ، وهذا هو المشهورُ، والمذهبُ المنصورُ، وتمامُ التَّفصيلِ يُفْضِي إلى التَّطويل.

٩٢ ـ لَـمْ تَقْتَـرِنْ بزمـانٍ وهـي تُخْبِرُنا عـن المَعَـادِ وعـن عـادٍ وعـن إِرَمِ

يعني: لَمْ تَقْتَرِنِ الآياتُ القديمةُ والبيِّناتُ الكريمةُ بزمانٍ مِن الأزْمِنةِ، وحالٍ مِن الأحوالِ؛ مِن الماضي والحالِ والاسْتِقبال؛ لأنَّه يَلْزمُ مِن الاقْتِرانِ إمَّا حُدوثُ الآياتِ أو قِدَمُ الزَّمان، وهما خلافُ ذَوقِ أهلِ العِرْفان، والحالُ أنَّها تُخْبرُنا عن أمورِ الـمَعادِ، وهو عَوْدُ الخَلْقِ بعدَ موتهِ يومَ التَّلَاقِ والتَّناد، وعن أمورِ الـمَبَادي، وهو المرادُ بقولهِ: (وعن عادٍ)؛ أي: وعن نحوِ قصَّةِ عادٍ الأُولَى وهم قومُ هودٍ، وعن الثانيةِ وهي عادُ إِرَمَ، وأمثالهِ مِن نحوِ قومِ نوحٍ وثمودَ.

والمقصودُ: أنَّ الماضَوِيَّةَ والاستِقْباليَّةَ المفهوميَّةَ مِن المعاني القُرآنيةِ إنَّما هي بالإضافةِ إلينا، وإلَّا فالكلامُ النَّفْسيُّ مبرَّأٌ عن الحدوثِ كما هو مُقرَّرٌ لدينا.

وأيضاً فيه: أنَّ الآياتِ كما أنَّها بألفاظِها مُعجِزةٌ، كذلك باعتبارِ مَعَانِيها مِن حيثُ الإخبارُ عن الأمورِ الكائنةِ في الأَزْمِنَة.

٩٣ ـ دامَتْ لَدَيْنَا ففَاقَتْ كلَّ مُعجزةٍ مِـن النَّبِيِّـنَ إذْ جـاءَتْ ولَـمْ تَـدُمِ

ضميرُ (جاءَتْ) راجِعٌ إلى (كلَّ معجزةٍ) وهو اكْتَسَى التَّأنيثَ مِن المضافِ إليهِ.

يعني: دامَتْ واسْتمرَّتِ الآياتُ القرآنيَّةُ والمعجزاتُ الفُرْقانيَّةُ، فصارَتْ فائقةً بسببِ وَصْفِ القِدَم، وإخبارِ مَعَادِ عادٍ وإِرَم، وعَدَمِ عُروضِ النَّسخِ والتَّبديلِ الذي في حُكْمِ العَدَم، على كلِّ مُعجزةٍ حاصلةٍ مِن النَّبيِّين ولو مِن نبيِّنا، إذ جاءتْ وحَدَثتِ

المعجزةُ، فلا تكونُ قديمةً بصفةٍ موصوفةٍ، ولَمْ تَدُمْ، فإنَّ مُعجزةَ كلِّ نبيٍّ تَنْقَضي بموتِهِ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]؛ أي: مِن التَّغييرِ والتَّبديلِ، والنَّسخِ والتَّحْويل.

والحاصلُ: أنَّ الآياتِ قديمةٌ ثابتَةٌ، ومعجزةٌ مستمرَّةٌ دائمَةٌ، بخلافِ غيرِها مِن المعجزات.

٩٤ ـ مُحَكَّماتٌ فما يُبْقِيْنَ مِن شُبَهٍ لِذِي شِقَاقٍ ولا يَبْغِيْنَ مِن حَكَمِ

(يُبْقِيْنَ) بضمِّ الياءِ، و(يَبْغيْنَ) بفتحِها، و(شُبَهٍ): جمع شُبْهةٍ، وهي باطلةٌ تُشْبهُ الحقَّ.

و(الشِّقَاق) بالكسرِ هو[1] الخِلَافُ؛ لأنَّ كلًّا مِن المخالِفَينِ يكونُ في شِقٍّ، أو يريدُ مَشَقَّةَ الآخَرِ.

و(الحَكَم) بفتحتينِ، وهو الحاكِمُ، وقيل: بكسرٍ وفتحٍ: جمعُ حِكْمةٍ.

و(محكَّماتٌ) بالتشديدِ مبالغةُ: مُحْكَمات، ويؤيِّدُه روايةُ: (ومُحْكَماتٌ) بالواوِ مع التَّخفيف، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، أو التقديرُ: مِن الآياتِ مُحْكَماتٌ، فيكونُ إشارةً إلى قولِهِ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]، وهذا المعنى أَوْفَقُ، وبالسِّياقِ أَلْصَق.

والمعنى: أنَّ الآياتِ جَعَلَها اللهُ تعالى مُحْكَمةً لا تُنْسَخُ ولا تُبدَّلُ، أو جَعَلَها مشتمِلةً على حِكَمٍ ومُثُلٍ، أو جَعَلَها ذاتَ حُكْمٍ، فتَحْكُمُ على كلِّ مُجمَلٍ، أو حاكمةٌ على غيرِه مِن الكتبِ السَّماويَّة، والسُّننِ النَّبويَّة، والأَقْيسةِ العَقْليَّة، والاتِّفاقاتِ الإجْماعيَّة، أو تَدُلُّ على الحقِّ والباطلِ، أو تَحْكُمُ بالحُرمةِ والحِلِّ،

---

(١) في «د»: «وهو».

(فما يُبْقِيَن) ولا يُخلِّينَ تلك الآياتُ شُبْهةً مِن الشُّبُهات لذي خلافٍ للحقِّ من الخلافيَّات، (ولا يَبْغِينَ)[1]: ولا يَطْلُبْنَ حاكماً يَحْكُمُ بغيرِها عليها؛ لظهور براهينِها، أو حِكَماً زائدةً[2] يُحْتاجُ إليها؛ لوضوحِ قوانينها.

٩٥ـ ما حُورِبَتْ قطُّ إلَّا عادَ مِن حَرَبٍ أَعْدَى الأَعَادِي إِلَيْها مُلْقِيَ السَّلَمِ

(حُورِبَتْ) مجهولُ حارَبَتْ، مِن المحارَبةِ بمعنَى الـمُعارَضةِ، والحَرَبُ بفتحتَيْنِ: الشِّدَّةُ، وحقيقتُه: سَلْبُ المالِ، ويَلْزمُ المسلوبَ منهُ الشِّدَّةُ، وقيل: إنَّهُ لغةٌ في الحَرْبِ.

و(السَّلَم) بفتحتينِ: الاسْتِسْلامُ والانْقِيَادُ والصُّلْحُ.

و(الأَعَادِي): جمعُ الأعداءِ، جمع العَدُوِّ، و(أَعْدَى) أَفْعَلُ تَفْضيلٍ مِن العَدَاوةِ.

يعني: ما عارَضَ الآياتِ أحدٌ قطُّ إلَّا وقد رَجَعَ مِن مُعارَضَتِها لأَجْلِ كمالِ بَلَاغتِها وفصاحَتِها أكبرُ المُعارِضِينَ وأَقْوَى المعانِدِينَ حالَ كونهِ مُلْقياً آلَةَ المعارَضة، ومُلْغياً حالةَ[3] المعانَدة، ومُسلِّماً لها ظهورَ المعجزة، وخَرْقَ العادَة.

ثُمَّ اعْتِراءُ الرَّوعةِ للمُعارِضِين، وعَجْزُ مُعارَضةِ الـمُعانِدِين: هل هو بخُروجِهِ عن مَقْدورِ البَشَرِ لاشْتِمالِهِ على جزالةِ الألفاظِ وحُسْنِ المعاني مِن كمالِ الفصاحةِ وكونهِ على أَعْلَى طبقاتِ البلاغةِ فيكونَ كإحياءِ الموتَى وقلبِ العَصَا وتسبيحِ الحَصَى، أو هو الصَّرفةُ وأنَّ المعارَضةَ كانَتْ في مقدورِهِمْ؟

ففيهِ اختِلافُ أئمَّةِ أهلِ السُّنَّةِ، والجمهورُ على الأوَّل، وعليه المعوَّلُ، والثاني مذهبُ الشَّيخِ أبي الحسنِ الأشعريِّ وجماعةٍ مِن أصحابِهِ، وقد ردَّه الشَّاطبيُّ في «الرَّائيَّة».

---

(١) بعدها في «د»: «وفي نسخة: وما يقين».

(٢) في «د»: «زائدا».

(٣) في «ل»: «وملقياً حال».

وعلى القولينِ قد تَرَكَ العربُ المعارَضةَ بما هو في مَقْدورِهم، أو ما هو مِن جِنْسِ مَقْدورِهم[1]؛ لعَجْزِهم عن الإتْيانِ بمِثْلِه، وإلَّا لَمَا رَضُوا في البلادِ بالبَلَاءِ والجَلَاءِ والسِّباءِ والإذلال، والتَّقريعِ والتَّوبيخِ وسَلْبِ النُّفوسِ والأموال، وقد أَخْبرَ اللهُ تعالى عن تلكَ الأحوالِ بقولهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

٩٦ ـ رَدَّتْ بلاغَتُها دَعْوَى مُعَارِضِها ... رَدَّ الغَيُورِ يدَ الجاني عنِ الحُرَمِ

البلاغَةُ: مُطابَقةُ الكلامِ لـمُقْتَضى الحالِ، وهو أمرٌ يُوْجِبُ أنْ يَتكلَّمَ المتكلِّمُ بكيفيَّةٍ مخصوصةٍ. وعارَضَ الشَّيءَ: قابَلَهُ به، وساواهُ إيَّاهُ، و(الحُرَم): جمعُ حُرْمةٍ؛ كغُرَفٍ وغُرْفةٍ، وهي ما تكونُ في حَريمِ الرَّجلِ.

وفي المِصْراعِ الأوَّلِ إيماءٌ إلى قولِ الجمهورِ، وفي الثَّاني إشعارٌ إلى قولِ غيرِهم، ففيهِ دَلَالةٌ على أنَّه لا مانعَ مِن القولِ بأنَّ هناكَ وجوهٌ للإعجاز، كما هو مُقرَّرٌ في مَحلِّه.

يعني: رَدَّتْ ودَفَعتْ بلاغةُ الآياتِ القرآنيَّة، وفَصَاحةُ الكلماتِ الفُرْقانيَّة، دَعْوَى مُعارِضِها فَضْلاً عن ظهورِ مُعارَضَتِها ووقوعِ مُقابَلَتِها، مِثْلَ ردِّ الموصوفِ بكمالِ الغَيْرةِ والمنعوتِ بشدَّةِ الحَمِيَّةِ مدَّ يدِ الجاني، وتَصَرُّفَ الخائنِ الباغي، عن حَوْلِ حَريمِ حَرَمِهِ، وعن الوصولِ إلى حصولِ حُرَمِه.

٩٧ ـ لها مَعَانٍ كَمَوْجِ البحرِ في مَدَدٍ ... وفَوْقَ جَوْهَرِه في الحُسْنِ والقِيَمِ

---

(١) قوله: «بما هو في مَقْدورِهم، أو ما هو مِن جِنْسِ مَقْدورِهم» الفرق بينهما: تمكُّنُهم على الأول منه إلا أنهم صرفوا عنه، وعَدَمُ تَمَكُّنِهم منه على الثاني مع كونه من جنس مقدورهم. قاله المؤلف في «شرح الشفا» (١/ ٧٦٢).

(فَوْقَ) معطوفٌ على (كمَوْج) صفةِ (مَعَان) المرفوعِ بالابتدائيَّةِ، ونَصْبهُ لازِمٌ على الظَّرْفيَّة، وإنْ كانَتْ مَجازِيَّة، ونحوُه في كلامِ الحَكيم: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

يعني: للآياتِ البيِّناتِ الموصوفاتِ بالمعجِزاتِ مع قَطْعِ النَّظرِ عن فَصَاحَتِها وبلاغَتِها معانٍ ثابتةٌ كثيرةٌ كموجِ البحرِ في الازْدِيادِ وعَدَمِ النَّفَاد، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]؛ يعني: معانيها، وبهذا يزولُ الإشكالُ القويُّ الوارِدُ مِن جهةِ القَبْليَّةِ في الآيةِ كما حَرَّرْناه في «حاشِيَة الجَلَالَيْنِ»[1]، أو في النُّصرةِ والإمدادِ[2]، فإنَّ القرآنَ يُفسِّرُ بعضُه بعضاً، كما أنَّ الموجَ يُؤيِّد بعضُه بعضاً، ولها مَعَانٍ وأحكامٌ حَسَنة، وحِكَمٌ مُسْتحسَنة، فوقَ جَوَاهرِ البحرِ مِن نحوِ اللُّؤلؤِ والمَرْجانِ في الحُسْنِ والقِيمةِ، عند أربابِ البَصيرةِ وأصحابِ الخِبْرةِ، قد عَلِمَ كلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهم.

٩٨ ـ فلا تُعَدُّ ولا تُحْصَى عَجَائِبُها ... ولا تُسَامُ على الإكثارِ بالسَّامِ

الفاءُ للنَّتيجةِ، وفي نسخةٍ: (فما تُعَدُّ)، وفي نسخةٍ: (عَجَائبُه) فالضَّميرُ للقرآنِ.

(ولا تُسَامُ) مِن السَّوْمِ؛ أي: لا تُقابَلُ، و(على) بمعنى: مع، ويُرْوَى: (ولا تُقَاسُ).

و(الإكثار): الإتْيانُ بالكثيرِ. و(السَّام) بفَتْحتينِ: السَّآمةُ والمَلَالةُ.

يعني: معاني الآياتِ لا تَدْخلُ تحت العدِّ، ولا تُضْبَطُ مَعانيْها العَجيبةُ في حينِ الحَدِّ، وهي العِبَرُ والحِكَم، والآدابُ والشِّيَم، والمواعِظُ والبَرَاهينُ، والعَوَارِفُ والمعارِفُ، والتَّرْغيبُ والتَّرهيبُ، والوعدُ والوَعيدُ، والأحكامُ والأمثالُ، إلى غيرِ ذلك، ولا تَعْرِضُ المَلَالةُ بكثرةِ التِّلاوَة:

---

(١) في هامش «ل»: «للمصنف حاشية الجلالين».

(٢) قوله: «في النصرة والإمداد»، معطوف على قوله: «في الازدياد...».

هــو المِسْــكُ مــا كرَّرْتَــهُ يَتضَــوَّعُ[١]

وفي الحديثِ: «إنَّ القرآنَ لا يَخْلَقُ عن كثرةِ الرَّدِّ، ولا تَفْنَى عجائبُه، ولا تَنْقَضِي غَرائبُه، ولا تَشْبَعُ منهُ العلماءُ»[٢].

وفـي البيتِ إشـارةٌ إلى تَفَوُّقِ حُسْـنِ مَعَانِيهـا على جَوَاهِرِ البحرِ، حيثُ يَــمَلُّ راغِبُها بوجودِ كَثْرتِــها أو كثرةِ قيمتِها.

٩٩ ـ قَــرَّتْ بها عينُ قارِيْهـا فقُلْتُ لهُ　　　لقــد ظَفِــرْتَ بحَبْــلِ اللهِ فاعْتَصِــمِ

سَكَّنَ همزةَ (قاريها) للنَّظْمِ، ثُمَّ أُبْدِلَتْ، والقِرَّةُ في الأصلِ: البُرودةُ، وهي أعزُّ الأشياءَ عندَ العربِ، ولذا يَتَمَنَّى قُرَّةَ العينِ وبَرْدَ العيشِ.

يعني: فَرِحَ بها قارِئُها حينَ قراءَتها، وزادَ نورُ عينِهِ برُؤْيَتِها، حيثُ تَلذَّذَ بتِلاوَتها، فقلتُ له على جهةِ الرَّغبةِ أو على طريقِ الغِبْطةِ: واللهِ لقد ظَفِرْتَ بما يُوْصِلُكَ إلى مرضاتِهِ، ويُرَقِّيكَ إلى درجاتِ جنَّاتِهِ، فاسْتَمْسِكْ بألفاظِها ومَبَانِيها، وتحقيقِ معالِـمِها ومَعَانِيها، والعملِ بأوامرِها ومَنَاهِيها.

١٠٠ ـ إنْ تَتْلُها خِيْفَةً مِن حرِّ نارِ لَظَى　　　أَطْفَــأْتَ نــارَ لَظَى مِــن وِرْدِها الشَّــبِمِ

(لَظَـى) مِـن أعلامِ جهنَّـمَ، أو طبقةٌ مِـن طَبَقاتها، وهي غيرُ مُنْصَـرِفٍ، وما قيل مِـن أنَّ التَّنْويـنَ للضَّـرورةِ فغَفْلـةٌ مِن مَعْرفـةِ الميـزانِ؛ إذ التَّنوينُ والألِفُ مُتسـاوِيانِ فـي الوزنِ.

---

(١) عجز بيت صدره كما في «تاج العروس» (مادة: ضوع):

أَعِـدْ ذِكْـرَ نُعمـانَ لنـا إنَّ ذِكْـرَهُ

(٢) رواه الترمـذي (٢٩٠٦) مـن طريـق الحـارث الأعـور الهمداني عـن علي رضِـيَ اللهُ عنـه مرفوعاً، ثـم أعلـه بقولـه: هذا حديـث لا نعرفه إلا مـن هذا الوجه، وإسـناده مجهـول، وفي الحـارث مقال.

قلـت: لكن معنـاه صحيح.

و(لَظَى) الثَّانيةُ وُضِعتْ موضعَ الضَّميرِ لئلَّا يَلْتبِسَ أو يحصلَ التَّفْكيكُ، وفي نسخةٍ: (حرَّ لَظَى) بدلَ: (نارَ لَظَى)، والثَّانيةُ أَنسبُ بالإطفاءِ كما لا يَخْفَى.

والوِرْدُ يُطْلَقُ على وِرْدِ القرآنِ وعلى وِرْدِ الماءِ، فإضافتُه إلى الآياتِ يؤيِّدُ الأوَّلَ، ووَصْفُه بـ (الشَّبِمِ) ـ بفتحِ المعجَمةِ وكسرِ الموحَّدةِ؛ أي: البارِدِ ـ يُقوِّي الثَّاني، فإنْ حُمِلَ على الأوَّلِ فمَعْنَى (الشَّبِم) هو: الدَّافِعُ للحرارةِ، وإنْ حُمِلَ على الثَّاني فتَشبيهُ الآياتِ به لأنَّها سببُ حياةِ الأرواحِ كما أنَّهُ مُوْجِبُ حياةِ الأَشْباح.

يعني: إنْ تَقْرأ الآياتِ القرآنيَّةَ، أو تَتَّبعِ الأحكامَ الفُرْقانيَّة، خوفاً مِن حرارةِ النَّار، متنزِّلاً عن درجةِ الإحْرارِ والإبْراد، أطفأْتَ حرَّها ودَفَعْتَ ضرَّها مِن أَجْلِ مُلَازَمةِ وِرْدِ القرآنِ الدَّافِعِ لحرارةِ النِّيران.

وفيه اقتباسٌ مِن الحديثِ الواردِ: أنَّه إذا وَقَفَ المؤمِنُ على الصِّراطِ تقولُ النَّارُ: «جُزْ يا مؤمنُ فقد أطفأَ نُورُكَ لَـهَبي»[1].

١٠١ ـ كأنَّها الحوضُ تَبْيَضُّ الوُجُوهُ بِهِ ... مِـن العُصَـاةِ وقـد جـاؤُوهُ كالحُمَـمِ

عَبَّـرَ عـن المـاءِ بالحـوضِ لأنَّـه مَحَلُّه، فيكـونُ مَجـازاً بِذِكْـرِ المحـلِّ وإرادةِ الحـالِّ، أو على حَـذْفِ المضافِ؛ أي: مـاءُ الحوضِ، وهو حوضُ الكوثـرِ، والمرادُ بالوُجـوهِ الـذَّوَاتُ؛ إذْ بيَّنَها بالعُصَاةِ وشـبَّهَها بالحُمَمِ ـ بضمِّ المهمَلـةِ وفتحِ الميمِ ـ: جمـع حُمَمَـةٍ كتُهَمَةٍ، وهـي الفَحْمُ.

يعني: تلاوةُ الآياتِ القرآنيَّة، والعملُ بالأحكامِ الصَّمَدَانيَّة، في الدَّارِ الدُّنيويَّة، مُوْجِبةٌ لبياضِ قلوبِ المؤمنين، ونُورِ صُدورِ الـمُوْقِنين، بمنزلةِ حوضِ النَّبيِّ ﷺ

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٢٥٨)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٩٤)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٥٣٢)، من حديث يعلى بن منية رضِيَ اللهُ عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٦٠): فيه سليم بن منصور بن عمار وهو ضعيف.

في الدَّارِ الأُخْرَوِيَّة، حيثُ تَبْيَضُّ وجوهُ العُصاةِ بالحوضِ والحالُ أَنَّهم جاؤوه سُوداً كالفَحْمِ، وفي حديثِ «الصَّحيحينِ»: «فيُخْرَجُونَ منها.. فيُلْقَوْنَ في نهرِ الحياة»[1]، وفي روايةٍ: «فيُصَبُّ عليهم ماء الحياة»[2]؛ أي: فيَذْهَبُ السَّوادُ عنهم ويَظْهَرُ البياضُ، وكذلك الآياتُ بقراءَتِها والعملِ بها تبيضُّ الوجوهُ؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

١٠٢ ـ وكالصِّراطِ وكالمِيزانِ مَعْدَلَةً فالقِسْطُ مِن غَيْرِها في النَّاسِ لَمْ يَقُمِ

يعني: والآياتُ كالصِّراطِ في أَنَّها تُميِّزُ بَيْنَ المُحِقِّ والمُبْطِلِ، وكالميزانِ مِن جهةِ العدالةِ، حيثُ إِنَّها تُبيِّنُ حقَّ كلِّ أحدٍ كما يَنبغِي، وتَرفعُ الخصومةَ بالوجهِ الشَّرعيِّ المَقْرونِ بالدَّليلِ العقليِّ، فإذا كانَ كذلكَ فطَلَبُ العدلِ في الدُّنيا مِن غيرِ الآياتِ بينَ النَّاسِ لَمْ يَستقِمْ ولَمْ يَثْبُتْ؛ لأنَّ جميعَ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ راجعةٌ إليها، والسُّنَّةُ والإجماعُ والقياسُ كلُّها مَبْنِيَّةٌ عليها.

١٠٣ ـ لا تَعْجَبَنْ لحَسُودٍ راحَ يُنْكِرُها تَجَاهُلاً وهو عينُ الحاذِقِ الفَهِمِ

(الحسودُ) بفتحِ الحاءِ: مُبالَغةُ الحاسدِ، وهو الذي يريدُ زوالَ نِعمةِ الغَيْرِ.

و(الفَهِمِ) بكسرِ الهاء؛ أي: شَديدِ الفَهْمِ.

يعني: لا تَتعَجَّبْ ولا تَسْتغرِبِ البَتَّةَ مِن مُبالِغٍ في الحسدِ على الحسدِ على النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم؛ كاليهودِ والنَّصارَى وبعضِ المشركينَ، حيث ذَهبَ يُنْكِرُ الآياتِ البيِّنات، ويَجحَدُ المعجِزاتِ الواضِحَات، (تجاهُلاً)؛ أي: إظهاراً للجَهْلِ مع العِلْمِ بحقيقتِها، والمعرفةِ بحقِّيَّتِها، والحالُ أنَّ هذا المُنْكِرَ المتجاهِلَ عينُ الماهِرينَ وخيرُ الفَهِمِينَ بما اشْتَمَلتِ الآياتُ من أنواعِ الدَّلالاتِ على صدقِ الجائي بها عن اللهِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى، فإنكارُها منه عنادٌ[١] له دَعَا إليه الحَسَدُ على نعمةِ النُّبوَّة ومِنْحَةِ الرِّسالةِ؛ كما قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤]، فلا عَجَبَ في إنكارِها للحسدِ، فإنَّ الموجودَ قد يُنْكَرُ لأمرٍ؛ كما في قوله:

١٠٤ ـ قد تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِن رَمَدٍ ... ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِن سَقَمِ

(السَّقَم) بفتحتينِ: المرضُ.

يعني: قد تَنْفِي العينُ وجودَ نُورِ الشَّمسِ مِن أَجْلِ علَّةٍ بها وإنْ شاهَدَتْ وحقَّقَتْ ضِيَاءَها؛ كذلك الآياتُ ظهورُها أظهرُ مِن الشَّمسِ، ولكنَّ الأَعْمَى لا يُبْصِرُها، والخُفَّاشَ[٢] لا يُدْرِكُها، والرَّمْدانُ لا يَبْغِيها، فلا يَلْزَمُ مِن نُقصانِ الرَّائي نُقصانُ المَرْئيِّ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وقد يُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ اللَّذيذِ المتعارَفِ المعروفِ بأنَّه حياةُ كلِّ شيءٍ، مِن أَجْلِ علَّةِ سَقَمٍ تَمنعُه عن إدراكِ لذَّتهِ، وكذلك الذِينَ في قلوبهم مرضٌ مُزْمنٌ لا يَنْفعُهم شفاءُ القرآن، ولا يَسْتلِذُّون بطعمِ الفُرْقان، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فهو كالنِّيلِ ماءٌ للمَحْبوبِينَ ودماءٌ للمَحجوبين، يُضِلُّ به كثيراً ويَهْدِي به كثيراً.

ثُمَّ الْتَفتَ مِن نعتِ الممدوحِ إلى خطابهِ، فقال:

١٠٥ ـ يا خيرَ مَن يَمَّمَ العَافُونَ ساحَتَهُ ... سَعْياً وفوقَ مُتُونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ

(يَمَّمَ): قَصَدَ، و(العافُونَ): جمعُ العافي، هو السَّائلُ، و(السَّاحةُ): العَرْصَةُ، و(سَعْياً) حالٌ بمعنَى: ساعِينَ، و(فوقَ) عطفٌ عليه بمعنى: كائنينَ فوقَها.

---

(١) في «د»: «عناداً».

(٢) في هامش «ل»: «فخفاش طير ليس للشمس رائياً».

و(المُتونُ): جمعُ المتنِ وهو الظَّهرُ.

و(الأَيْنُق) بتقديمِ الياءِ على النُّونِ: مقلوبُ الأَنْيُقِ، أصلُه: أَنْوُقٌ، قُدِّمَتِ الواوُ ثُمَّ قُلِبتْ ياءً لمزيدِ الخِفَّةِ(١)، جمعُ النَّاقة.

و(الرُّسُم) بضمَّتينِ، وهي الإبلُ التي تُؤثِّرُ في الأرضِ مِن شدَّةِ الوَطْء.

والمعنى: يا سيِّدَ مَن قَصَدَ السَّائلونَ ساحةَ كَرَمِهِ، وتَوَجَّه الطَّالِبونَ إلى فَضاءِ حِلْمِهِ وحُكْمِه، مُسرِعينَ على إقدامِهم، ومُسْتعجِلِينَ على أقدامِهم، وراكِبينَ فوقَ ظهورِ النَّاقاتِ القويَّة، كهيئةِ حُجَّاجِ الكعبةِ العليَّة: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧] دُنْيويَّةً وأُخْرويَّة، بمشاهَدةِ بيتِ اللهِ العتيق.

وفيه إشارةٌ إلى تعميمِ تَوَجُّهِ أنواعِ السائِرينَ إلى حَضْرتهِ، وقَصْدِ أصنافِ السَّالِكينَ إلى خِدْمتهِ، مِن القريبِ والبعيدِ في مسافةِ الطَّريق، والقويِّ والضَّعيفِ في الوُسْعِ والضِّيق، والفقيرِ والغنيِّ على المَجَازِ والتَّحقيق.

١٠٦ ـ ومَن هو الآيةُ الكُبْرَى لـمُعْتَبِرٍ ... ومَن هو النِّعمةُ العُظْمَى لـمُغْتَنِمِ

معطوفٌ على المُنادَى، و(الآيةُ): العَلَامةُ تصدقُ على الدَّليل، يَعْتَبِرُ بها ويَقيسُ مِنها مَن يريدُ أنْ يُميِّزَ بينَ الحقِّ والباطلِ، و(النِّعمةُ) بمعنى: المُنْعَم به.

وفي المِصراعِ الأوَّلِ إشارةٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ويوضِّحهُ البيتُ الآتي:

كَفَاكَ بالعِلْمِ في الأُمِّيِّ مُعْجِزَةً

(١) كلام المؤلف فيه نظر، فقوله: «مقلوب الأنيق» يدل على أن الواو قلبت ثم قدمت، وهو عكس قوله بعده: «قدمت الواو ثم قلبت»، فلعلهما وجهان في التعليل، وقد اقتصر ابن الأثير على الثاني فقال: الأَيْنُق: جمعُ قِلَّةٍ لِناقة، وأصلُهُ: أَنْوُق، فقلب وأبدل واوهُ ياءً. انظر: «النهاية» (مادة: نوق).

وفي المِصْراعِ الثَّاني إيماءٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وبه صلى الله تعالى عليه وسلم فُسِّرَ قولُه تعالى: ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢] بصيغةِ الجمعِ لإفادةِ المبالغةِ.

ومُجْمَلُ معناه: أنَّ مَن تَأمَّلَ في مَبْناهُ؛ مِن خَلْقِه الخَلِيق، وخُلقِه الحَقِيق، وتَدَبَّرَ في جميلِ أثرِه، وحَمِيدِ سِيَرِه، وبراعةِ عِلْمِه، ورَجاحَةِ حِلْمِه، وجُملةِ كَمَالِه، وجِلَّةِ خِصَالِه، لَمْ يَمْتَرِ في صحَّةِ نُبوَّتِه، ولَمْ يَشُكَّ في صِدْقِ دعوتِه، فيَغْتَنِمُ بوجودِه[1] وما ظَهَرَ مِن عِلْمِهِ وَجُودِه.

وتكرارُ النِّداءِ[2] لإظهارِ الرَّغبةِ في الإصْغاء، وجوابُ النِّداءِ قولُه:

١٠٧ ـ سَرَيْتَ مِن حَرَمٍ ليلاً إلى حَرَمٍ كما سَرَى البَدْرُ في داجٍ مِن الظُّلَمِ

سَرَى لغةٌ في أَسْرَى، بمعنَى: سارَ في اللَّيلِ، و(ليلاً) نصبٌ على الظَّرفيَّة[3]، وذكَّرَه للتَّأكيدِ، وتَنْكيرُه للتَّقليل، والمرادُ من (حَرَمٍ) الأوَّلِ: حَرَمُ مكَّةَ شرَّفَها اللهُ تعالى، ومِن الثَّاني: المسجدُ الأَقْصى، وليس لهُ حَرَمٌ، فالمرادُ به: مكانٌ مُحْتَرَمٌ.

و(داجٍ) اسمُ فاعِلٍ مِن الدُّجُوِّ، وهو شدَّةُ الظُّلْمةِ، صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ؛ أي: ليلٍ داجٍ، و(مِن) بيانيَّةٌ، و(الظُّلَم) بضمٍّ ففتحٍ: جمعُ ظُلْمةٍ.

والمعنَى: سَرَيْتَ بإسراءِ اللهِ تعالى سُرًى عَجيباً، وسَيْراً غريباً؛ كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء: ١] مِن الحَرَمِ المُحْتَرَمِ المكِّيِّ، في ساعةٍ قليلةٍ مِن ليلةٍ جَليلةٍ، إلى الحرمِ المعظَّمِ القُدْسيِّ، كما دلَّ عليه

---

(١) في «د»: «وجوده».

(٢) قوله: «وتكرار النداء»، كذا في النسختين، ولم أجد في الكلام السابق تكراراً للنداء، وإنما الذي تكرر هو الموصول.

(٣) في «ل»: «الظرف».

قولُـه عـزَّ وجـلَّ: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] كسَرَيانِ البـدرِ وهـو القمرُ فـي أَوَانِ كمـالِ ظُهـورِه، وعُلوِّ جمالِ نُـورِه، في وقـتِ الخفاءِ عن الأغيـارِ، تحتَ قِبَابِ الأستار.

ووَجْـهُ الشَّـبَهِ: سـرعةُ السَّـيرِ في الوُصـولِ إلى الـمَقام، وكمالُ الإضـاءةِ في شـدَّةِ الظَّـلام، والمـرادُ بالظُّلْمـةِ حينئـذٍ مـع وجـودِ البَـدْرِ المتبـادِرِ إلى فَهْـمِ بعضِ فُضـلاءِ زمانِنـا أنَّه يَقْتضِي التَّناقُـضَ ويُوْجِبُ التَّعـارُضَ: هو الظُّلْمةُ بالقـوَّة لولا نُورُ البـدرِ فـي الطَّلعـةِ، علـى أنَّ اللَّيلَ لا يَخْلُـو مِن نوعِ ظُلْمَـة مع حُصولِ نـورِ البدرِ في الجُمْلَـة، كما أشـارَ إليـه سـبحانهُ بقولـهِ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

ونُقـلَ: أنَّ سـيرَه ورُجوعَـهُ كان فـي ثلاثِ سـاعاتٍ أو أربـعٍ، وهذا القَـدْرُ مِن المعـراجِ بجسـمهِ وحـالَ يقظتـه[1] بالإجماع، ومُنْكِـرُه كافرٌ بلا نـِزَاع، وأمَّـا مُنْكِرُ ما فوقَـه، وهو الـذي يُذْكَرُ بعـدَه، فيُعَـدُّ مِن أهـلِ الابْتِداع.

١٠٨ ـ وبِـتَّ تَرْقَـى إلـى أنْ نِلْـتَ مَنزِلةً ... مِن قابِ قَوْسَينِ لَمْ تُدْرِكْ ولَمْ تُرَمِ

(بِتَّ) ماضٍ مُخاطَبٌ مِن البَيْتوتةِ، وفي نسخةٍ: (وظَلْتَ) بفتحِ الظَّاءِ وكسرِها، أصلُه: ظَلِلْتَ بمعنى: صِرْتَ. و(تَرْقَى) بفتحِ القافِ؛ أي: تَصْعدُ.

و(نِلْتَ) معروفٌ مِن النَّيْلِ بمعنَى الوصولِ، أو مجهولٌ مِن النَّوْلِ بمعنى العطاءِ، والأوَّلُ أَظْهَرُ، وفي الرِّوايةِ أشهَرُ.

والقـابُ: القَـدْرُ، رُوِيَ بالجرِّ على الإعـرابِ، وبالنَّصْبِ علـى الحِكايَةِ، وهو أقـربُ إلى الصَّـواب. و(مِن) بيانيَـةٌ. و(لَمْ تُـدْرَكْ) مجهولٌ مِـن الإدراك. (ولَمْ تُرَم) مِـن الرَّوْمِ وهـو القَصْدُ.

---

(١) في «د»: «اليقظة».

يعني: كنتَ في تلكَ اللَّيلةِ الخَفِيَّة، تَرْتَقي وتَصْعدُ في المعارِج الجَلِيَّة، والمَصاعِدِ السَّنِيَّة، باختراقِ السَّماواتِ السَّبْعيَّة، إلى أنْ وَصَلْتَ منزلةً عَلِيَّة، ومَرْتبةً بَهِيَّة، هي قَدْرُ قُرْبِ قَوْسَين، عندَ تَلَاقي الطَّرْفَين، مِن رَبِّ الكَوْنين، وهو كنايةٌ عن كمالِ القُرْبِ، والمرادُ: قُرْبُ المكانةِ لا المكان؛ لتَنَزُّهِهِ تعالى عن المكانِ والزَّمان، أو يُقال: مِن عَرْشِ الرَّحمن، أو مِن مَقامِ الوَحْي على وَجْهِ الامْتِنان.

وتَرْكُ: (أو أَدْنَى) بمعنَى: بل أقربُ إلى الملكِ الأَعْلَى، مِن ضرورةِ الشُّعراءِ، وفي حكايةِ المقدَّمِ إشعارٌ بالوراء.

(لَمْ تُدْرَكْ) تلك المنزِلةُ العَلِيَّة، بالمكاسِبِ الاجتِهَاديَّة، مِن الفضائلِ العِلْميَّةِ والعَمَليَّة، وإنَّما حَصَلَتْ لهم بالمواهِبِ اللَّدُنِّيَّة، ولَمْ تُقْصَدْ ولَمْ تُطْلَبْ تلكِ المرتَبةُ الجَلِيَّة لغيرِه مِن الأنبياء، فضلاً عن الأَوْلياء.

واخْتُلِفَ في هذا التَّرَقِّي: هل كان جِسْمانيًّا، أو رُوحانيًّا؟ وهل رَأَى ربَّه بعينِ البَصَرِ أو بعينِ البَصيرةِ؟ ومَتَى كان، وكَمْ كان، وكيفَ كان؟ مِن تفاصيلِ قصَّةِ المعراج، يُعْرَفُ مِن كُتُبِ السِّيَرِ لأَهْلِ الاحْتِيَاج.

١٠٩ ـ وقَدَّمَتْكَ جَميعُ الأنبياءِ بها والرُّسْلِ تَقْديمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ

(الرُّسْلِ) مجرورٌ على الصَّحيحِ، وهو بسكونِ السِّين مخفَّفُ المضمومِ: جمعُ رسولٍ، وهو أَخَصُّ مِن النبيِّ.

يعني: وقَدَّمَتْكَ جميعُ الأنبياءِ وسائرُ الأصفياءِ بسببِ تلكَ المنزِلةِ العَلِيَّةِ والمرتَبةِ الجَلِيَّةِ، تقديماً مِثْلَ تَقديمِ المخدومِ على الخُدَّامِ، وتَسْليمِ المُقْتَدينَ في الأحوالِ بالإمام.

واختلفوا أنَّ الإمامةَ كانتْ في المسجدِ الأَقْصَى أو في السَّماواتِ العُلَى؟ ولا مَنْعَ مِن الجمعِ إيماءً إلى مَقامِ الجمعِ في عالَمِ المُلْكِ والمَلَكوتِ، بتوفيقِ الحيِّ الذي لا يموت.

١١٠ ـ وأنتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِمْ   في مَوْكِبٍ كُنْتَ فيهِ صاحِبَ العَلَمِ

الواوُ حاليَّةٌ، والخَرْقُ: المُرورُ، والعُدولُ إلى المضارعِ استحضاراً للحالِ الماضيَةِ، والموكبُ بكسرِ الكافِ: جماعةُ الفرسانِ، والعَلَمُ: الرَّايةُ، ويُقْرأُ (فيهِ) بالإشباع.

يعني: وأنت تَقْطعُ السَّماواتِ السَّبعِ التي يُطابِقُ بعضُها بعضاً، أو بعضُها فوقَ بعضٍ، مأخوذٌ مِن قوله: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ [الملك: ٣]، حالَ كونِكَ مارًّا بالأنبياءِ أو بأرواحِهِم، ففي «مسلم»: أنَّهُ مَرَّ في السَّماءِ الدُّنيا بآدَمَ، وبالثَّانيةِ بعيسى ويحيى، وفي الثَّالثةِ بيوسُفَ، وفي الرابعةِ بإدريسَ، وفي الخامسةِ بهارونَ، وفي السَّادسةِ بموسى، وفي السَّابعةِ بإبراهيمَ[(١)]، عليهم السَّلامُ والتَّحيَّةُ والإكرام، في جمعٍ عظيمٍ مصحوبٍ بهيبةٍ عَظيمةٍ وهَيئةٍ كريمةٍ؛ إذْ كان معهُ جبريلُ عليه السَّلامُ، ويعبَّرُ عنه بالجمعِ؛ كقوله تعالى: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [آل عمران: ٣٩]؛ فإنَّه فُسِّرَ بجبريلَ، أو أُقيمَ مُقامَ جمعٍ مِن الكِرَام، وقومٍ مِن العِظَام.

(كُنْتَ فيه)؛ أي: في ذلك الموكبِ (صاحِبَ العَلَم)؛ أي: المُشارَ إليه، والمدارَ عليه.

والعَلَم: الرُّمْحُ في رأسهِ رايَة؛ ليكونَ على صاحِبِ المُلْكِ علامةً وآيَة، وقد كان جبريلُ يستفتِحُ في كلِّ سماءٍ بالتَّمجيدِ المُمَجَّد، فيُقالُ له: مَن مَعَك؟ فيقولُ: مُحمَّد.

١١١ ـ حتَّى إذا لَمْ تَدَعْ شَأْواً لمُسْتَبِقٍ   مِن الدُّنُوِّ ولا مَرْقًى لمُسْتَنِمِ

(حتَّى) غايةٌ للاخْتِراقِ، و(إذا) ظَرْفيَّةٌ مَجازيَّة؛ أي: أنتَ دخلْتَ البابَ وقَطَعْتَ الحِجَاب، إلى أنْ لَمْ تَتْرُكْ غايةً لساعٍ إلى السَّبْقِ مِن كمالِ القُرْبِ المُطْلَقِ إلى جنابِ

---

(١) رواه مسلم (١٦٢) من حديث أنس رضِيَ اللهُ عنه.

الحقِّ، ولا تركْتَ موضعَ رُقيٍّ وصُعود، وقيامٍ وقُعود، لطالبِ رِفعةٍ في عالَمِ الوُجود، بل تجاوَزْتَ ذلك إلى مَقامِ قابِ قوسَيْنِ أو أَدْنى، فأَوْحى إليكَ ربُّكَ مِن الحكمةِ ما أَوْحى.

١١٢ ـ خَفَضْتَ كلَّ مَقامٍ بالإضافةِ إذْ ... نُودِيْتَ بالرَّفْعِ مِثْلَ المُفْرَدِ العَلَمِ

هذا لبيانِ اخْتِصاصِهِ بالدُّنوِّ الـمُشَارِ إليهِ بقوله: ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، وبالـمَحبَّةِ الذَّاتيَّةِ الإلهيَّةِ التي هي أعلى الـمَقاماتِ وأَغْلَى.

وقولـه: (خَفَضْـتَ) جوابُ (إذا) علـى تقديرِ شَـرْطيَّتِها، وبدلٌ مِـن قوله: (لَمْ تَـدَعْ) علـى تقديـرِ ظَرْفيَّتِها، والخَفْـضُ: حَطُّ رُتبةٍ، وجَعْلُ شـيءٍ تحتَ شـيءٍ، ومنه الخفضُ فـي الإعراب.

والإضافةُ: الإلصاقُ والنِّسبةُ، و(إذْ) متعلِّقٌ بـ (الإضافة).

والمعنى: خَفَضْتَ كلَّ مَقامٍ ومَرْتبةٍ مِن مَقاماتِ الأنبياء، ومَرَاتبِ الأصفياء، ببركةِ إضافتِكَ إلى الحَضْرةِ العَليَّة، ونِسبتِكَ إلى المحبَّةِ البَهيَّة، أو بالإضافةِ إلى مَقامِكَ الجَليّ، وبالنِّسبةِ إلى حالِكَ العَلِيّ، حينَ ناداكَ بالرَّفعِ إلى الـمَقامِ الأَعْلَى، المُعبَّرِ عنه بقولِهِ: ﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، مِثْلَ المُفرَدِ العَلَمِ في التَّعظيم، والمُشارِ إليه المشهورِ بالتَّكريم، فيما أُفْرِدَ به مِن بينِ[1] أفرادِ جِنْسِهِ، وتَميَّزَ عن أقرانِهِ بإمدادِ نَسَبِهِ.

ولا يَخْفَى ما في البيتِ مِن الصِّفةِ الإيمائيَّةِ إلى الاصْطِلاحاتِ النَّحْويَّة[2]؛ مِن الخَفْضِ والرَّفْعِ والإضافةِ والنِّداءِ والـمُفْرَدِ والعَلَمِ والمناسَبات الجَلِيَّة.

١١٣ ـ كَيْمَا تَفوزَ بوَصْلٍ أيِّ مُستتِرٍ ... عن العُيونِ وسِرٍّ أيِّ مُكْتَتَمِ

عِلَّةٌ غائيَّةٌ لقولِهِ: (سَرَيْتَ) و(بِتَّ)؛ أي: فَعَلْتَ ذلك الـمُنْتَهي[3] إلى منزلةِ قابِ

---

(١) كلمة: «بين» من «د»، وليست في «ل».

(٢) في هامش «ل»: «بل فيه صنعة التوحيد، وتفصيله في شرح عقود الجمان نظم التلخيص».

(٣) في «ل»: «المنهي».

قوسَيْنِ أو أَدْنَى لـ (تفوزَ بوَصْلٍ) مِن الله، وقَطْعِ عمَّا سِوَاه، (أيِّ مُسْتترٍ عن العُيونِ)؛ أي: عن عيونِ الخَلْقِ (وسرٍّ)؛ أي: وبحصولِ سِرٍّ عظيمٍ مِن أسرارِ المحبوب، ومِن آثارِ المطلوب (أيِّ مُكْتَتَمِ)؛ أي: خَفِيٍّ عن أبصارِ الأغيارِ.

و(أيِّ) فـي الموضعَيْـنِ مجـرورٌ صفـةٌ لِـمَا قَبْلَها، دالَّـةٌ على معنَـى الكمال؛ أي: بوصـلٍ كامِـلٍ في الاسـتِتَار، وسـرٍّ كامـلٍ فـي الاكْتِتام.

و(تَفوزَ) منصوبٌ بـ (أنْ) مُقدَّرةٍ بعدَ (كي) بمعنَى اللَّام، أو بـ (كي) بمعنَى (أنْ) واللامُ مقدَّرةٌ قَبْلَها، و(ما) زائدةٌ على الوجهَيْن.

قال الشَّيخُ جلالُ الدِّينِ الـمَحَلِّيُّ: وهذا السِّرُّ مأخوذٌ مِن حديثِ: «عَلَّمَني ربِّي ليلةَ الإسراءِ علوماً شتَّى، فعِلْمٌ أَخَذَ عَلَيَّ كتمانَهُ، وعِلْمٌ خَيَّرني فيه، وعِلْمٌ أَمَرني أنْ أُبلِّغه» قال عليٌّ: فكان يُسِرُّ إلى أبي بكرٍ وعُمرَ وعثمانَ وإليَّ ما خُيِّرَ فيه. ذَكَره جمعٌ مِن الشُّرَّاحِ، ولَمْ أَقِفْ له على أصلٍ في كتبِ الحديث.

ولا يُنافـي مـا رَوَى البخاريُّ عن أبـي جُحَيْفةَ قال: قلتُ لعلـيٍّ رضِيَ اللهُ عنه: هـل عندَكُمْ شـيءٌ مِـن الوَحْي ما ليسَ فـي القرآن؟ قـال: لا والَّذي فَلَقَ الحَـبَّ وبَرَأَ النَّسَـمَةَ، إلَّا فَهْمـاً يُعطيـهِ اللهُ رجـلاً فـي القـرآنِ، وما في هـذهِ الصَّحيفة. قلـتُ: وما فـي هذهِ الصَّحيفة؟ قـال: العَقْلُ، وفَكَاكُ الأسـيرِ، وأنْ لا يُقْتَلَ مُسـلِمٌ بكافرٍ[1]= لأنَّ هـذا فيمـا يتعلَّقُ بتبليـغِ النَّاس، وذلك فـي غيرِه كما هـو ظاهرٌ.

ثُمَّ في البيتِ إيماءٌ إلى رؤيتهِ لربِّهِ، ومُناجاتهِ بلُبِّهِ، وقد اختُلِفَ في أنَّهُ رآه بعينهِ أو بقلبهِ، أو رأى جبريلَ في صورتهِ، وكذلك اختُلِفَ في مُناجاتهِ وأنَّهُ ناجَى ربَّه أو جبريلَ، والأصلُ فيهما قولُه تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، وقولُه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، على ما يُبيَّنُ في التَّفاسير.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤٧).

وليس المُرادُ مِن القُرْبِ والوَصْلِ القُرْبَ المكانيَّ والوَصْلَ الصُّوريَّ، بل ظهورُ عِظَمِ مَنزلتِهِ وإشراقِ أنوارِ مَعرفتِه، ومشاهدةُ أسرارِ غيبيَّتِهِ وقُدرتِه، والتَّخلُّقُ بأخلاقِه، وقَصْرُ النَّظرِ على مُطالَعةِ جمالِه وشُهودِ كَمالِه.

١١٤ ـ فحُزْتَ كلَّ فَخَارٍ غيرِ مُشْتَرَكٍ وجُزْتَ كلَّ مَقامٍ غيرِ مُزْدَحَمِ

(حُزْتَ) و(جُزْتَ) كلاهما على وزنِ: قُلْتَ، والأوَّلُ بالحاءِ المهمَلةِ مِن حازَهُ: جَمَعَهُ، والثَّاني بالجيمِ مِن جازَهُ؛ أي: تَجاوَزَ عنه.

والفِخَارُ بكسرِ الفاءِ: ما يُفْتَخَرُ به مِن الفَضائلِ والفَوَاضِلِ والشَّمائلِ، أو مصدرٌ بمعنى المُفاخَرَةِ، و(غير) في الموضعَيْن إمَّا مجرورٌ صفةٌ لِمَا قبله[1]، وإمَّا منصوبٌ على أنَّه صفةُ (كُلَّ)، أو على أنَّه حالٌ مِن الفاعِلِ. والمُشْتَرَكُ والمُزْدَحَمُ اسْمَا مفعولٍ بمعنى المَصْدَر.

قيل: المرادُ مِن الفِخَار الغَيْرِ المشترَكِ: مِثْلُ الوَسيلةِ والفَضيلةِ والدَّرجةِ الرَّفيعةِ، والكَوْثَرِ، والشَّفاعةِ العُظْمَى، والمَقامِ المحمودِ، واللِّواءِ الممدود، إلى غير ذلك.

ومِن المَقامِ الغيرِ المُزْدَحَم: مقامُ المحبَّةِ، وخَتْمِ النُّبوَّةِ، والمِعْراج، والرِّسالةِ العامَّةِ، وأمثالِها.

أو المرادُ: مَقاماتُ العارِفِينَ الواصِلِين، المسمَّاةُ عندَهم: منازِلُ السَّالِكينَ والسَّائِرين، التي لا يُمْكِنُ التَّعبيرُ عنها، ولا الإشارةُ إليها، فمَن أحبَّ أنْ يُدْرِكَها فلْيُجاهِدْ ليُشاهِد، فإنَّ الخبرَ ليس كالمُعايَنة، والمُقابَلَةَ ليستْ كالمُبايَنة، وهذه الدَّرجاتُ تَنْتَهي بالفَناءِ في التَّوحيد، والاستغراقِ في بحرِ التَّفْريد، وَقَانَا اللهُ مِن حِجابِ الأَيْنِ إلى قِبابِ العَيْن.

---

(١) في النسختين: «بعده»، والصواب المثبت.

١١٥ ـ وجَلَّ مِقْدارُ ما وُلِّيْتَ مِن رُتَبٍ   وعَزَّ إدراكُ ما أُوْلِيْتَ مِن نِعَمِ[١]

(وُلِّيْتَ)؛ أي: جُعِلْتَ والياً، و(أُوْلِيْتَ)؛ أي: أُعْطِيْتَ وافِياً، والإدراكُ: الإحاطةُ بالشَّيءِ ذاتاً وصِفةً، والـمِقْدارُ: ما يُقدَّرُ به كيفيَّةً وكمِّيَّةً، والرُّتَبُ: جمعُ الرُّتْبةِ، والنِّعَمُ: جمعُ النِّعمة.

قيل: المصراعُ الأوَّلُ إشارةٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، والثَّاني عبارةٌ عن قولِه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، وفي تفخيمِهما إيماءٌ إلى أنَّ الأفهامَ تَحيَّرتْ عن تفصيلِ تفسيرِ ما أَوْحَى، والأحلامَ تاهَتْ في تَبْيينِ تَعْيينِ الآياتِ الكُبرَى.

١١٦ ـ بُشْرَى لنا مَعْشَرَ الإسلامِ إنَّ لنا   مِن العنايةِ رُكْناً غيرَ مُنْهَدِمِ

(بُشْرَى) مصدرٌ أُريدَ به ما يَحْصُلُ به مِن المَسَرَّةِ المُغيِّرِ للبَشَرة، وهي الحالةُ الطيِّبةُ والبَهْجةُ الصَّالحةُ، ونَصْبُ (مَعْشَرَ الإسلامِ) على الاخْتِصاصِ؛ كما في قولِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم: «نحنُ مَعاشِرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ»[٢].

وقيل: هو هنا منادًى.

و«إنَّ» بالكسرِ للتَّعليلِ.

والمرادُ مِن العنايةِ: الأَلْطافُ الخفيَّةُ الأزليَّة التي تُوْرِثُ السَّعاداتِ الجَلِيَّةِ الأَبَدِيَّة.

ورُكْنُ الشَّيءِ: جُزْؤُه الذي يَسْتَنِدُ إليه، ومَرْجِعُه الذي يَعْتَمِدُ عليه.

---

(١) وقع في «د»:

«وعز إدراك ما وليت من رتب   وجل مقدار ما أوليت من نعم»

ومثله في «ل» مع التبديل بين «أوليت» و«وليت»، وقد صحح في هامش كلا النسختين كما هو مثبت.

(٢) رواه النسائي في «الكبرى» (٦٢٧٥) من حديث ابن عمر رضِيَ اللهُ عنهما بلفظ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث»، وهو عند البخاري (٦٧٢٨)، ومسلم (١٧٥٧)، دون قوله: «إنَّا معاشرَ الأنبياء».

والمعنى: تَبَاشيرُ صُبحِ السَّعادةِ والإقبال، ومَنَاشيرُ البِشْرِ والبِشارةِ والإجْلَال، أَشْرقَتْ ونُشرتْ لمعاشِرِ الإسلام، مِن أقوامِ العَرَبِ وجماعاتِ الأَعْجام، حيث خُصُّوا بركنٍ رَكينٍ مَتين، ودِينٍ ناسخٍ راسخٍ إلى يومِ الدِّين.

١١٧ ـ لمَّا دَعَا اللهُ دَاعِيْنَا لطاعَتِهِ   بأَكْرَمِ الرُّسْلِ كنَّا أَكْرَمَ الأُمَمِ

(دعا) بمعنى: سمَّى، و(اللهُ) فاعلُه، و(داعِيَنا) مفعولُه، وسكونُ الياءِ ضَرورةٌ، وقد جاءَ في غيرِ الضَّرورةِ أيضاً في قولِهم: أَعْطِ القوسَ بارِيْها، و(لطاعَتِهِ) متعلِّقٌ بـ (داعينا)، واللَّامُ بمعنى: إلى، وضميرُه للهِ، و(بأَكْرَم) مُتعلِّقٌ بـ (دعا)، و(الرُّسْل) بسكونِ السِّينِ لُغةٌ في ضمِّها: جمعُ رسولٍ.

وقيل: (دَاعِينا) بَدَلٌ مِن الفاعلِ، و(لطاعَتِهِ) متعلِّقٌ بـ (دَعَا)، وكذا قولُه: (بأَكْرَمِ الرُّسْلِ)؛ إذْ هو واسطةٌ بَيْنَنا وبينَ اللهِ تعالى.

ومعنَى قولِهِ: (كنَّا أَكْرَمَ الأُمَمِ)؛ أي: عندَ اللهِ؛ لأنَّ شَرَفَ الأمَّةِ لشَرَفِ نبيِّهِ صلى الله تعالى عليه وسلم، وفي التَّنزيلِ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ أي: أنتم.

والنَّاظِمُ أشارَ إشارةً خَفِيَّة، إلى أنَّ المفهومَ مِن كونِ الأمَّةِ موصوفةً بنعتِ الخيريَّةِ، أنْ يكونَ رسولُهم مَنعوتاً بنعتِ الأَكْرَميَّة، ولكنْ عَكَسَ القضيَّةَ الاستدلاليَّة[1]؛ إجلالاً لمَرْتبةِ الرسالةِ العَلِيَّةِ الـمُصْطَفويَّةِ الـمُرْتَضويَّة، فإنَّ كونَنا خيرَ أمَّةٍ مِن بُقْيَا جائزتِهِ، وجَدْوَى مُتابَعَتِه، فإنَّ تكريمَ التَّبَعِ مِن تكريمِ الـمَتْبُوع، على مُقْتَضَى المعقولِ والمَشْرُوع.

ولمَّا فَرَغَ مِن قضيَّةِ المعراجِ وما يتعلَّقُ به مِن حصولِ الوصولِ وبلوغِ الـمُنَى

---

(١) في هامش «ل»: «بل أشار الناظم إلى الدليل اللميِّ استدلالًا من العلة إلى المعلول في المؤثر لا الأثر، فافهم».

والمُراد، شَرَعَ في بيانِ غَزَواتِهِ وشجاعةِ سراتِهِ في مجاهَدَةِ الجِهَاد، ومُكَابَدَةِ الكِبَادِ[1]، لدَفْعِ أهلِ الكفرِ والعِنَاد، والزَّيغِ والفَسَاد، فقال:

١١٨ ـ راعَتْ قُلُوبَ العِدَى أنباءُ بِعْثَتِهِ كنَبْأَةٍ أَجْفَلَتْ غُفْلاً مِن الغَنَمِ

الرَّوْعُ بمعنى التَّخويفِ، و(العِدَى) بكسرِ العينِ مقصوراً: اسمُ جمعٍ للعدوِّ، والأنباءُ: جمعُ النَّبأ: وهو الخبرُ الذي فيه شأنٌ، والبِعثةُ: الرِّسالةُ، والنَّبْأَةُ: صوتُ الأسدِ، والإجْفالُ: الإزْعاجُ عَدْواً واضْطِراباً، والغُفْلُ بضمِّ المعجَمةِ: جمعُ غافلٍ، كبُزْلٍ وبازِلٍ.

المعنى: خوَّفَتْ أخبارُ نُبوَّتِهِ وآثارُ رسالتِهِ قلوبَ أعداءِ الدِّين، مِن الكفَّارِ والمُشْركين، مِثْلَ صيحةِ الأسدِ أَفْزعَتِ الأغنامَ الغافلةَ، حيثُ تَنْزعِجُ وتَفِرُّ بمجرَّدِ صوتِه بدونِ سَطْوَتِهِ.

وقَيْدُ الغَفْلة لزيادةِ تأثيرِ الهَيْبَة.

وفيه إشارةٌ إلى حديثِ «الصَّحيحين»: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرةَ شهرٍ»[2].

ورَوَى الطَّبَرانيُّ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ شَهْرَيْن»[3].

والمرادُ به ما في «شرح العُمْدة»، لابْنِ المُلَقِّنِ: ورُوِّينا: «ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ شَهْراً أمامي وشَهْراً خَلْفي»[4]، ويُقاسُ بذلك اليمينُ والشِّمالُ، فيكونُ المرادُ بالأوَّلِ: شهراً مِن كلِّ جهةٍ.

١١٩ ـ ما زالَ يَلْقَاهُمُ في كُلِّ مُعْتَرَكٍ حتَّى حَكَوا بالقَنَا لَحماً عَلَى وَضَمِ

(١) قوله: «الكباد»، لعله جمع الكَبَد بمعنى الشدة، والمكابدة مصدر كابَدَه بمعنى قاساه، فيكون المعنى: ومقاساة الشدائد.

(٢) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، من حديث جابر رضِيَ اللهُ عنه.

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (١١٠٤٧) من حديث ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما بلفظ: «... ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ حتى إنَّ العَدُوَّ ليخافوني من مَسِيرَةِ شَهْرٍ أو شَهْرَيْنِ...». وروى فيه أيضاً (١١٠٥٦) عن ابن عباس أيضاً قال: نُصِرَ رسول الله ﷺ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ على عَدُوِّهِ.

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» (٦٦٧٤)، من حديث السائب بن يزيد رضيَ اللهُ عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٥٩): فيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وهو متروك.

(يَلْقاهُم) يُقْرأُ بإشباعِ الميمِ، و(الـمُعْتَرَك) على صيغةِ المفعولِ بمعنى: المعركة، وحكاه: شابهه، و(القَنَا): الرُّمْحُ، و(الوَضَم) بفتحِ المعجَمةِ: خَشَبٌ يَقْطَعُ القَصَّابُ اللَّحْمَ فيَضَعُه عليه ليُرغِّبَ فيه الـمُشْترِيَ.

يعني: ما زالَ النبيُّ عليه السَّلامُ جاهِداً أعداءَ الإسلامِ في كلِّ معركةٍ ومَلْحمةٍ ومَقامٍ، حتَّى تَركهم قَتْلَى على رُؤوسِ القَنَا مُشابِهينَ اللَّحْمَ الموضوعَ على الخَشَبِ المُعلَّق مِن السَّماءِ، عِبرةً للنَّاظِرين، ونُزْهةً للمتفرِّجين.

وفي تشبيهِ الأصحابِ بالقَصَّابِ والكفَّارِ بالغَنَمِ مُبالَغةٌ في كمالِ شجاعةِ أحبَّائِه، ودَلالةٌ على ضَعْفِ وجُبْنِ قُلوبِ أعدائِه.

١٢٠ ـ ودُّوا الفِرَارَ فكادُوا يَغْبِطُوَن بِهِ أَشْلَاءَ شالَتْ مَعَ العُقْبانِ والرَّخَمِ

الغِبْطَةُ: إرادةُ نِعمةٍ مع عَدَمِ إرادةِ زَوَالِـها عن صاحِبِها، و(أَشْلَاء) كأَشْياءَ: جمعُ شِلْوٍ بكسرِ الشِّين، وهو العضوُ، و(شَالَتْ) بمعنى: ارْتَفَعَتْ، و(العِقْبان) بكسرِ العين: جمعُ عُقَابٍ بالضَّمِّ، وهو والرَّخْمةُ نوعانِ مِن الطَّيرِ يَقَعانِ على الـمَيْتةِ يأكلانِ منها ويَحمِلانِ لفراخِهما[1].

يعني: الكفَّارُ تَمنَّوُا الفِرارَ عن سيِّد الأبرارِ وسَنَدِ الأَخْيارِ، الذي يَتَمنَّونَ خِدْمتَه الأحرار، فقارَبُوا ـ مِن كمالِ نُفْرتِـهِم وضَعْفِ غفرتِـهِم[2] ـ أنْ يتمنَّوا أنْ يَحصُلَ لهم مِثْلُ ما حَصَلَ للأعضاءِ، حيثُ ارْتَفعتْ بها الطُّيورُ إلى الهواء؛ ليَخْلُصوا مِن جهادِ سيِّدِ الأنبياء، وأصحابِهِ ساداتِ الأَوْلياء.

---

(١) في «ل»: «يأكلان منهما ويحملان لفرخهما»، والمثبت من «د»، وهو الصواب.

(٢) في «د»: «عفرتهم» بالعين المهملة، والمثبت من «ل»، ولعله يريد به: جمعهم، من قولهم: جاؤوا جَمًّا غَفيراً، وجَمَّ الغَفير، وجمَّاءَ الغَفير، وجمَّ الغَفيرة، وجماءَ الغَفيرة، ونحوها، والمعنى: جاؤوا جميعاً. انظر: «القاموس» (مادة: غفر).

١٢١ ـ تَمْضِي اللَّيالي ولا يَدْرُونَ عِدَّتَها ... ما لَمْ تَكُنْ مِن ليالي الأَشْهُرِ الحُرُمِ[١]

أي: تَـمُرُّ اللَّيالي بأيامِها، وتنقضِي الأوقاتُ بأعلامِها، ولا يَعلَمُ الكفَّارُ عَدَدَها، مِن شدَّةِ هُمومِ اجتهادِهم بمجاهَدةِ النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم وحسابِ عُدَدِها، ما لَمْ تكُنِ اللَّيالي مِن ليالي الأشهُرِ الحُرُمِ، وهي: رَجَبٌ وذو القَعْدةِ وذو الحِجَّةِ والـمُحَرَّمُ، فإنَّهم يَدْرُونَها بإمساكِ النبيِّ عليه السَّلامُ القتالَ في الشَّهرِ الحرامِ.

وفي العُدولِ عن الأوقاتِ أو الأيَّامِ إلى (اللَّيالي) إيماءٌ إلى سوءِ حالِ أوقاتهم؛ فإنَّ ظُلْمةَ الزَّمانِ وسوادَهُ كنايةٌ عن ذلك، أو إشارةٌ إلى أنَّ حالَهم في اللَّيالي التي هي مكانُ راحَتِهم، وزَمانُ اسْتِراحَتِهم، كانتْ كذلك، فكيف زمانُ أيَّامِهم المشوَّشَةِ المشؤومةِ عليهم بأنواعِ الكُدُورَات، وأَصْنافِ الضَّرُورات؟!

١٢٢ ـ كأنَّما الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ ساحَتَهُمْ ... بـكُلِّ قَـرْمٍ إلـى لَحْـمِ العِـدَى قَرِمِ

(القَـرْم) بفتحِ القافِ وسُـكونِ الرَّاءِ: السَّـيِّدُ، وبكسـرِ الرَّاءِ: شـديدُ الاشْـتِهاءِ إلـى اللَّحْمِ.

أي: إنَّمـا الكفَّـارُ وَقَعـوا فيما وَقَعـوا مِـن وَهْنِهم؛ لأنَّ دِيـنَ الإسـلامِ مَثَلَ في أَعْيُنِهـم بتمثـالِ سـلطانٍ نَزَلَ ضيفـاً في سـاحةِ دارِهم، مُسْـتولِياً على حَيْطَـةِ بلادِهم وديارِهـم، ومعـهُ مِن جنودِهِ كلُّ سـيِّدٍ مُطاعٍ حريصٍ لأكلِ[٢] الأعداء، وسَـنَدٍ شـجاعٍ مَهِيـبٍ فـي عيونِ الأشـقيَاء، فلَـمْ يَعْلموا ما هُـوْ، فقَلِقُـوا وتاهُوْا.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الدِّينَ ممَّا يجبُ القيامُ بخدمتهِ لوصولِهِ، والاغتنامُ لـمَظْهَرِه[٣] وحُصولِهِ، وإلَّا فَلَّهُ الانْتِقالُ إلى قلوبِ أربابِ الكَمَال.

---

(١) وقـع هـذا البيت فـي النسـختين مقترناً مـع البيت السـابق، وحقـه أن يكون هنـا، فلذلـك أثبتناه في هـذا الموضع.

(٢) في «ل»: «كل».

(٣) في «ل»: «لحضرته».

وفيهِ إشعارٌ بأنَّ الضَّجرَ مِن الضَّيفِ وأهلِ الارْتحال، دَيْدَنُ الكفَّارِ والجُهَّال.

١٢٣ ـ يَجُـرُّ بَحْـرَ خَميسٍ فوقَ سـابِحَةٍ   يَرْمِـي بمَـوْجٍ مِـن الأبطـالِ مُلْتَطِمِ

الجرُّ: الجَذْبُ والقَوْدُ، والخميسُ: جيشٌ كبيرٌ له خمسةُ أركانٍ: مُقدِّمةٌ، وساقةٌ، وقلبٌ، ومَيْمَنةٌ ومَيْسَرةٌ. والجيشُ يشبَّهُ بالبحرِ في الـمَهَابةِ والجَرَيان، والإهلاكِ واللَّمَعان، وتَـمَوُّجِ بعضِهِ ببعضٍ في الـمَيْدانِ والـهَيَجان، وجَرَّارُ العَسكرِ: مَن يَرِدُونَ في الهيجاءِ بحُكْمِه، ويَصْدُرونَ عنها بأَمْرِه.

و(فوقَ سابحةٍ) صفةُ (بحر)؛ أي: طائفةٌ جارِيَةٌ مِن الفَرَسِ والإبِلِ، وكذا (يَرْمي بموجٍ)، والباءُ للتَّعْدِيَة؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ [المرسلات: ٣٢]، والضميرُ في (يَرْمي) إلى البَحْرِ أو الخَميس، لا إلى السَّابحةِ كما تُوُهِّمَ.

والموجُ: ما يَحْصلُ مِن التَّلاطُمِ والاضْطِرابِ، و(مِن) بيانيَّةٌ، و(مُلْتَطِم) صفةُ (موج)؛ أي: ضارِبٍ بعضُه على بعضٍ مِن شدَّة الهَيْجاءِ وقوَّته، والالْتِطامُ هنا: مُصادَمةُ الأبطالِ عند الـمُسابَقةِ، واصْطِكاكُ أسلحَتِهم.

والأبطالُ: جمعُ بطلٍ، وهو الشُّجاع.

والمعنى: ما زالَ النبيُّ عليه السَّلامُ يَجرُّ جُنداً مخمَّساً مُشبَّهاً ببحرٍ مموَّجٍ يَجْرِي على خيولٍ رائضةٍ ونُوقٍ خائضةٍ في ميدانِ المعارِكِ ومِضْمارِ الـمَهالِكِ، تُقْبِلُ وتُدْبِرُ في أوانِه ومكانِه، وتُوْصِلُ وتَحْمِلُ في زمانِه، وذلك البحرُ يَرْمِي مَوجاً مُتلاطِماً بتَلاحُقٍ، وهو الأبطالُ التي تَتَصادَمُ وتَتَسابَق، وتتصاكَكُ أسلحتُهم وتتلاصَق.

١٢٤ ـ مِـنْ كُلِّ مُنْتَـدِبٍ للهِ مُحْتَسِـبِ   يَسْـطُو بمسـتأصِلٍ للكُفْرِ مُصْطَلِمِ

يقال: نَدَبهُ: دَعَاهُ، وانْتَدَبَ: أجابَ، وأمَّا ما قال الجَلَالُ الـمَحَلِّيُّ مِن أنَّه بفتحِ الدَّالِ بمعنى: مَدْعُوٍّ[1]، فهو في غيرِ مَحَلِّه. وأَغْرَبَ الشَّيخُ زَكَرِيَّا حيثُ تَبِعهُ ولَمْ

(١) في «د»: «المدعو».

يَتعقَّبْه، ففي «القاموس»: نَدَبهُ إلى الأمرِ ـ كنَصَرَه ـ: دَعَاهُ وحَثَّهُ ووَجَّهَهُ، و«انْتَدَبَ اللهُ لِمَن خَرَجَ في سبيلِهِ»[١]؛ أي: أجابهُ إلى غُفْرانهِ[٢].

والاحْتِسابُ: طلبُ الثَّوابِ والاجْتِهادُ في تحسينِ النِّيَّةِ وتَحْصيلِ الإخْلاص، والحِسْبَةُ: الأَجْرُ.

قيل: (للهِ) متعلِّقٌ بـ (مُحتَسِبٍ)، والأَظْهَرُ تعلُّقُه بـ (مُنْتَدِبٍ)؛ لأنَّ الاخْتَصاصَ مفهومٌ مِن بِنْيَةِ الاحْتِساب، بخلافِ الانْتِدابِ، ويَحْتمِلُ التَّنازُع.

و(يَسْطُو)؛ أي: يَصُولُ، واسْتَأْصَلَهُ: قَلَعَهُ مِن أصلِه، واصْطَلَمَهُ: أَهْلَكهُ.

و(مِن كلِّ) بَدَلٌ مِن قولِهِ: (مِن الأبطال)، أو بيانٌ لها[٣]، وهو الأَوْجَهُ، فإنَّ هذا البيتَ مَسُوقٌ لوَصْفِ تلكَ الأبطالِ بالهِمَمِ العاليَةِ والمقاصِدِ الغالِيَة، كما أنَّ البيتَ الأَوَّلَ مَسُوقٌ لوَصْفِ الجيشِ بكثرةِ العَدَد، وجَوْدَةِ العُدَد، وغايةِ المَدَد، ونهايَةِ المُدَد.

يعني: أولئكَ الأبطالُ، المَهَرةُ في إبطالِ أهلِ الضَّلال، هم كلُّ مُجيبٍ لدَعْوةِ الحقِّ بالرَّغبةِ الكامِلَة، ومُجتَهِدٍ في إخلاصِ النِّيَّةِ بالحِسْبةِ الشَّامِلَة، يَصُولُ ويَجُول، وبقوَّتهِ وبقُدرَتهِ تعالى يَحُول، مُلْتَبِساً بمستأصِلٍ للكفرِ وأهلِه، ومُصْطَلِمٍ للباطِلِ مِن أصلِه ونَسْلِه؛ مِن آلاتِ القتالِ مِن سيفٍ ونَبْلٍ ونَصْلِه.

١٢٥ ـ حتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الإسلامِ وَهْيَ بِهِمْ ... مِن بَعْدِ غُرْبَتِها موصولةَ الرَّحِمِ

(حتَّى) غايةٌ لـ (يَجرُّ)، و(هي بِهِمْ) جملةٌ حاليَّةٌ، و(مَوصُولةَ الرَّحم) صفةُ مَوصوفٍ محذوفٍ؛ أي: ذاتَ رَحِمٍ مَوْصولةَ الرَّحِمِ، وهي خبرٌ لـ (غَدَتْ).

---

(١) رواه بهذا اللفظ البخاري (٣٦) من حديث أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه، ورواه مسلم (١٨٧٦) بلفظ: «تضمن الله...».

(٢) انظر: «القاموس» (مادة: ندب).

(٣) كلمة: «لها» من «د» وليست في «ل».

والرَّحِمُ: القَرَابةُ.

وصِلَةُ الرَّحِمِ: رعايةُ الأقارِبِ بصِلَةٍ أو زيارةٍ أو تَعَهُّدٍ أو تَفَقُّدٍ، ونحوها ممَّا يَلْتَمِسونَ منهُ، ووَرَدَ: «صِلُوا أرحامَكم ولو بالسَّلَامِ»[1].

و(مِن بَعْدِ) مُتعلِّقٌ بـ (غَدَتْ).

والمعنى: ما زال النَّبيُّ ﷺ يَجرُّ الجيوشَ والسَّرايا، ويُجيفُ الخيولَ والـمَطَايا، حتَّى صارَتْ مِلَّةُ الإسلامِ والحالُ أنَّها مُلْتبِسةٌ بهم، لا يُفارِقُهم شدَّةُ القِرَاع، ولا كثرةُ الدِّفَاع، وبقيتْ ذاتَ شوكةٍ وأعوان، بَعْدَ كونِـها غَريبةً ذاتَ عَجْزٍ وهَوَان. فالمرادُ مِن الغُرْبةِ والوُصْلةِ لازِمُهُما في الـمَقام، أعني: الإهانةَ والإكرام.

وفيه إيماءٌ إلى قولِهِ عليه السَّلامُ: «بَدَأَ الإسلامُ غَرِيباً وسَيَعودُ غَرِيباً، فطُوبَى للغُرَباء»، رواه مسلمٌ[2]، ضُبِطَ (بَدَأَ) بالهمزةِ؛ أي: جاءَ وظَهَرَ بينَ قومٍ لا يَقومونَ به، فهو مقطوعُ الرَّحِمِ، ثُمَّ قامَ به الصَّحابةُ رضي الله تعالى عنهم، فوَصَلُوا رَحِمَهُ وشَكَرُوا نِعَمَه.

١٢٦ ـ مَكْفولـةً أبـداً مِنْهُـمْ بخَيْـرِ أبٍ ... وخَيْـرِ بَعْـلٍ فلَـمْ تَيْتَـمْ ولَـمْ تَئِـمِ

(مَكفولـةً) خبـرٌ ثانٍ لــ (غَدَتْ)، أو خبـرُ مبتدأ محذوفٍ، هو: هـي، ومعناها: مَحفوظـةٌ، فضميرُ (مِنهـم) راجعٌ إلى الكفَّـار، أو: مُتَكَفَّلةٌ، فالضَّميـرُ إلى (الأبطال) الأبـرار، وفي نسـخةٍ: (منـه)، فالضَّميرُ إلى النبـيِّ المختار.

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ١٥٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عنهما. قال ابن طاهر في «ذخيرة الحفاظ» (٣/ ١٥٢٤): رواه محمد بن عبد الملك الأنصاري عن نافع عن ابن عمر، ومحمد متروك الحديث. وروي من حديث أبي الطفيل رَضِيَ اللهُ عنه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٥٢): رواه الطبراني، وفيه راو لم يسم. وروي من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عنهما، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٥٢): رواه البزار، وفيه يزيد بن عبدالله بن البراء الغنوي وهو ضعيف.

(٢) رواه مسلم (١٤٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عنهما.

ويريدُ بالأبِ والبَعْلِ سيِّدَ المُرْسَلين، وبعدَه الخلفاءَ الرَّاشِدِين وبعدَهم العلماءَ المجتهِدِين والأمراءَ المُجاهِدِين.

ويُقالُ: يَتِمَ الولدُ ـ بكسرِ الفَوْقانيَّة ـ يَيْتَمُ بفَتْحِها: إذا ماتَ أبوهُ وهو صغيرٌ، وآمَتِ المرأةُ تَئِيمُ ـ كباعَتْ تَبيعُ ـ: إذا خَلَتْ مِن زوجِها، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢].

وفي قوله: (أبداً) إيماءٌ إلى أنَّها مَصُونةٌ عن النَّسخِ والتَّبديل.

والمعنى: صارَتْ مِلَّةُ الإسلامِ محفوظةً بكَفَالةِ اللهِ تعالى لها مِن جهةِ النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنْ يَجعلَها دائماً في حَضانةِ مُرَبٍّ مُشْفِق، وحمايَةِ قَيِّمٍ مُرْفِق، بل هي أبداً مَنْضودةٌ بأُوْلي الأَمْرِ وأُوْلي العِلْمِ، أصحابِ العَدْلِ والكَرَمِ والحِلْم، مَصُونةً بحمايةِ الملِكِ الجليل، فنِعْمَ الكَفِيلُ ونِعْمَ الوَكيل.

١٢٧ ـ هُمُ الجِبالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهم ... مـاذا رَأَى مِنْهُـمُ فـي كلِّ مُصْطَدَمِ

(هُمُ الجبال) مِن قَبيلِ التَّشبيهِ[1] البَليغِ؛ كما في: زيدٌ الأسدُ، ووَجْهُ الشَّبَهِ: الثَّباتُ والتَّمكينُ والقَرَارُ مِن غيرِ فِرار، والصَّلابةُ والعَظَمة، والهيبةُ والـمَعْدِنيَّة.

والمُصَادَمـةُ: المُقارَعة، والمُصْطَدَمُ: مَصْدرٌ، أو اسـمُ مـكانٍ أو زمانٍ. و(ماذا رأى) بَـدَلٌ مِن ضميرِ (عنهُـمْ): (هم)[2].

و(مِنهمُ) في البيتِ يُقرأُ بالإشباعِ.

والفاءُ في (فَسَلْ) جوابُ شرطٍ محذوفٍ؛ أي: إنْ لَمْ تُصدِّقْني فاسْأَلْ عنهم مُصَادِمَهم، فإن مُصادِمَ الجبالِ ينكسِرُ ويَهْلِكُ، أو يتأخَّرُ ويَنهَزِمُ في المآل، وسَلْ عنهم

---

(١) في «د»: «تشبيه».

(٢) كلمة: «هم» من «د»، وليست في «ل».

ماذا رَأَوْا مِن الرِّجالِ كالجبالِ؛ مِن الثَّباتِ في الشِّدَّة، والصَّبرِ في الـمِحْنة، والشُّكرِ في المِنْحة، في كلِّ مَعْركَةٍ وزمانِ حركَة.

وفي نسخةٍ: (مُصادَمهم) بفتحِ الدَّال[١]؛ أي: مَوَاضعَ حربِهم، و(ماذا رَأَى) بصيغةِ الإفرادِ؛ أي: كلُّ واحدٍ مِن الأمكِنةِ، وهو أنسبُ بالبيتِ الآتي على طريقِ العَطْفِ التَّفسيريِّ، أو مِن بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ.

١٢٨ ـ وسَلْ حُنَيناً وسَلْ بَدْراً وسَلْ أُحُداً فُصولَ حَتْفٍ لَهُمْ أَدْهَى مِن الرَّخَمِ

حنينٌ وادٍ بينَ مكَّةَ والطَّائفِ، وبدرٌ: موضعٌ بينَ مكَّةَ والمدينةِ، وأُحُدٌ: جَبَلٌ بقربِ المدينةِ.

و(فصولَ) بدلٌ، أو خبرُ محذوفٍ[٢]؛ أي: اسْأَلْ أهلَ هذه الأَمْكِنَة، مِن الذين اطَّلَعوا على وقائعِ تلكَ الأَزْمِنَة، حيثُ وُجِدَ فيها أنواعُ هلاكٍ للأعداء، وأنواعُ بلاءٍ أشدُّ إصابةً مِن الوَباء، وتفصيلُ هذه الغَزَواتِ في كتبِ السِّيَرِ مَسْطُور، وفي بعضِ التَّفاسيرِ مَذْكُور.

قيل: ذِكْرُ أُحُدٍ غيرُ مناسِبٍ؛ لـمَا وَقَع فيهِ مِن الهزيمة.

وأُجيبَ: بأنَّ الشَّجاعةَ إنَّما تُعْرفُ حالَ الكَسْرِ بالثَّباتِ والتَّحفُّظ، وأيُّ شجاعةٍ أَقْوَى مِن حالِهم أنْ بعدَ الهزيمةِ ثَبَتوا حتَّى رَجَعَ الكفَّارُ خائبينَ إلى بلدِهم ولَمْ يَقْدِروا على الاسْتِئْصال، بعونِ اللهِ المَلِكِ الـمُتَعال.

والأَحْسنُ أنْ يُقال: إنَّ المؤمنينَ غَلَبوا[٣] أوَّلاً، ثُمَّ لـمَّا تفرَّقوا في غَنائمِهم وتَرَكَ رُماةُ المسلمينَ المراكزَ ومَحَلَّ القَرار، احْتالَ الكفَّارُ بعدَ الفِرَار، ودَخَلوا مِن ورائِهم،

---

(١) في النسختين: «بفتح الميم»، وهو سهو أوسبق قلم.

(٢) فإن كانت بدلاً من الأمكنة الثلاثة فهي منصوبة، وإن كانت خبراً فهي مرفوعة.

(٣) في «د»: «غلبوهم».

فوقَعَ ما وقعَ مِن قتالِهم، ومع هذا ثبَّتَهُم اللهُ تعالى بالتَّحَفُّظِ مِن أعدائِهِم، والتَّخَلُّصِ مِن استِئْصالِهِم، فالغَلَبَةُ لهم أوَّلاً وآخِراً، وباطِناً وظاهِراً، والحمدُ للهِ على ذلك[١].

١٢٩ ـ المُصْدِرِي البِيْضِ حُمْراً بَعْدَما وَرَدَتْ   مِـن العِـدَى كلَّ مُسْـودٍّ مِـن اللِّمَـمِ

أَصْدَرَه عن المَنْهَلِ: أَخْرجَهُ، وأَوْرَدَه فيهِ: أَدْخَلَه، ووَرَدَ فيهِ: دَخَلَ. و(ما) مَصْدَرِيَّة.

و(المُصْدِرِي) مضافٌ إلى (البِيض)، ولهذا أُسْقِطَ[٢] نُونُهُ، وهو[٣] منصوبٌ بتقديرِ: أَمْدَحُ.

و(البِيض): السُّيوفُ المَصقولةُ، ويجوزُ نصبُه كما قرئ في: (والمُقِيمِي الصَّلاةَ)[٤]، وحُذِفَ النُّونُ تَخفيفاً.

و(حُمراً) حالٌ مِن (البِيض)؛ أي: مُلطَّخةً بالدِّماء.

و(مِن العِدَى) حالٌ مِن (كلَّ)، و(مِن) للتَّبعيضِ، وهو[٥] مفعولُ (وَرَدَتْ).

و(مِن اللِّمَمِ) بيانُ (مُسْوَدٍّ)، و(اللِّمَم): جمعُ لِـمَّةٍ، وهي الشَّعَرُ الـمُسْترسِلُ إلى المَنْكِبِ والمرادُ: مَنْبِتُها، وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّ الكفَّارَ المقتولينَ غالِبُهم شبابٌ.

١٣٠ ـ والكاتِبِينَ بسُمْرِ الخَطِّ ما تَرَكَتْ   أقلامُهم حَرْفَ جِسْمٍ غيرَ مُنْعَجِمِ

(الكاتِبِينَ) عَطْفٌ على (المُصْدِرِي)؛ أي: الطاعِنِينَ (بسُمْرِ الخطِّ) وهي الرِّماحُ: جمعُ أَسْمرَ، و(الخَطّ) شَجَرُها، وقيل: موضعٌ باليَمامةِ يُجْلَبُ إليهِ مِن الهندِ،

---

(١) في «د»: «على ذلك ظاهراً».

(٢) في «ل»: «سقط».

(٣) أي: «المصدري».

(٤) هي قراءة ابن أبي إسحاق كما في «المختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص ٩٧).

(٥) أي: «كلَّ».

(ما تَرَكَتْ أقلامُهم)؛ أي: أَسِنَّةُ رِمَاحِهِم (حرفَ جِسمٍ) مِن الكفَّار؛ أي: طَرَفَه (غير مُنْعَجِمِ)؛ أي: بلا أَثَرٍ، و(غير) بالنَّصبِ صفةٌ لـ (حَرْفَ)، وبالجرِّ صفةٌ لـ (جسمٍ).

والجملـةُ المَنْفيَّـةُ حـالٌ مِـن (سُـمْر) علـى روايـةِ: (أقلامُهـا)، ومِـن ضميـرِ الفاعـلِ في (الكاتِـبينَ) على رواية: (أقلامُهـم)؛ أي: غيرَ تارِكةٍ أقلامُهـم، ويَحْتمِلُ أنْ يكـونَ جملةً اسـتئنافيَّةً.

وقيل: (ما) موصولةٌ مفعولٌ لـ (الكاتِبين) والعائدُ إلى (ما) محذوفٌ.

ولا يَخْفَى ما في طَيِّ البيتينِ مِن لطائفِ العِبَارة، وظَرَائفِ الإشارَة، ومُجْمَلُ معناهُما: أنَّ الأصحاب، الذين هُمْ أُولُوا الألباب، بتوفيقِ ربِّ الأَرْباب، يُوْرِدونَ السُّيوفَ في أعناقِ الأعداءِ مُبْيَضَّةً، ويُصْدِرونَها بتَلَطُّخِ دمائِهِم مُحْمَرَّةً، ويكتبونَ على صَفَحاتِ[1] رِقَاعِ وُجوهِهِم مَنْشورَ الخَسارِ بأقلامِ الرِّماحِ الخَطِّيَّةِ المأْنُونةِ عن الانْكِسار، وما تَرَكَتْ هذه الأقلامُ طَرَفَ جسمٍ منهُم مُهْمَلةً بلا نُقْطَة، ولا مَنْبِتَ شَعَرٍ مِنهم مُجْمَلةً بلا طَعْنَة.

١٣١ ـ شَاكِي السِّلاحِ لَهُمْ سِيْما تُمَيِّزُهُم ... والـوِرْدُ يَمتازُ بالسِّـيما مِن السَّـلَمِ

(شـاكي السِّـلاح) صفةُ (المُصْدِرِي البيـضِ) أو بَدلٌ أو حالٌ منـه؛ أي: تامِّيهِ، وقيـل: حادِّيهِ، وهو اسـمُ فاعلٍ مِن الشَّـوكِ بعـدَ القَلْبِ.

والسِّـيما: هي العَلَامةُ، والسَّـلَمُ: شـجرٌ يُشْـبِهُ شـجرَ الوَرْدِ، ويمتازُ الوَرْدُ عنه بحُسْـنِ الخِلْقـةِ وبَهـاءِ الـمَنظَرِ وطِيـبِ الرَّائحـةِ، وقيل: شـجرٌ ذو شـوكٍ يكونُ في الباديَـةِ، وقيل: مُطْلَقُ الشَّـجر.

والمعنَى: هؤلاءِ الشُّجْعانُ أصحابُ سيِّدِ الأبرارِ، بإمدادِ الأسلحةِ وإعدادِ القوَّةِ، أشدَّاءُ على الكفَّار، رُحَماءُ بينَهم بالتَّواضُعِ والانْكِسار، والكَرَمِ والإيثار، يمتازونَ في

(١) في «د»: «صحفات».

عينِ الأحبَّاءِ مِن الأعداءِ بحُسْنِ السِّيماء، كما يمتازُ الوَرْدُ مِن الشَّجر، والشَّجرُ مِن الثَّمَر، فهُمْ أزهارُ حدائقِ الوجود، سِيمَاهُم في وجوهِهم مِن أثرِ السُّجود.

١٣٢ ـ تُهْدِي إليكَ رياحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمُ فتَحْسَبُ الزَّهْرَ في الأَكْمَامِ كُلَّ كَمِ

يُقرأُ البيتُ بإشباعِ ضمَّةِ ميمِ (نَشْرَهم)، و(تَحسبُ) بكسرِ السِّينِ وفتحِها، والإهْداءُ: إرسالُ الهديَّةِ، والمرادُ برياحِ النَّصْرِ: بركاتُه وثَمَراتُه، وقد يُرادُ بالرِّياحِ الدَّوْلاتُ، قال:

إذا هَبَّتْ رياحُكَ فاغْتَنِمْها فعُقْبَى كلِّ عاصفةٍ سُكُونُ[1]

والمرادُ بـ (نَشْرهم): أخبارُهمُ الطَّيِّبةُ، و(الأَكْمَام): جمعُ كِمٍّ بكسرِ الكافِ، وهو الغِلَافُ، و(الكَمِيُّ): الشُّجاعُ، وهو بتشديدِ الياءِ، فقيل: خُفِّفَ للضَّرورة.

وقولُه: (فتَحْسَبُ الزَّهْرَ) مِن قَبِيلِ التَّشبيهِ المقلوب؛ أي: فتحسَبُ كلَّ كَمِيٍّ في الدُّروعِ زهراً في الأَكْمام، وفيه ادِّعاءُ أنَّ نشرَهُمْ أَخذَ[2] المَشَامَّ، بحيثُ كلَّما وَصَلَ إليها رائحةٌ طيِّبةٌ تَظُنُّها نَشْرَهم.

وقيل: (كُلَّ كَمِي) مفعولٌ أوَّلُ لتَحْسَبُ، وما قَبْلَه الثَّاني.

والزَّهرُ في أكمامِه أحسنُ مَنظراً، وأطيبُ رائحةً منهُ خارِجَ الأكمام.

١٣٣ ـ كأنَّهم في ظُهُورِ الخيلِ نَبْتُ رُبًى مِن شِدَّةِ الحَزْمِ لا مِنْ شَدَّةْ الحُزُمِ

الرُّبَى: جمعُ ربْوةٍ بتثليثِ الرَّاء، وهي: ما ارْتَفَعَ مِن الأرضِ، ونَبْتُها أَثْبَتُ في الأرضِ مِن نَبْتِ غيرِها؛ لطولِ عُروقِهِ حتَّى يَصِلَ إلى الماء، بخلافِ نبتِ غيرِها.

---

(١) البيت لابن هند؛ كما في «غرر الخصائص الواضحة» لبرهان الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالوطواط (ص ٢٤٠).

(٢) في «ل»: «أخذهم»، والصواب المثبت.

فهُمْ في ظُهورِ الخيلِ أَثْبتُ مِن غيرِهم بكثيرٍ، لكنْ (مِن شِدَّةِ الحَزْمِ) بكسرِ الشِّين وفتحِ الحاء؛ أي: مِن قوَّةِ الثَّباتِ ومُراعاةِ الاحْتِيَاط، (لا مِن شَدَّةِ الحُزُمِ) بفتحِ الشِّينِ وضمِّ الحاءِ والزَّاي: جمعُ حِزَامٍ، وهو: ما يُشَدُّ بهِ السَّرْجُ وغيرُه على ظَهْرِ الدَّابَّةِ بالرَّبطِ التَّامِّ، والاسْتِحْكامِ التَّمام.

١٣٤ ـ طارَتْ قُلوبُ العِدَى مِن بأسِهم فَرَقاً فمـا تُفَـرِّقُ بيـنَ البَهْـمِ والبُهَـمِ

(فَرَقاً) بفَتْحتَينِ؛ أي: خوفاً وفَزَعاً، وهو تمييزٌ مِن نِسبةِ الطَّيرانِ إلى القُلوب[1].

و(البَهْـم) بفتحِ الباءِ وسـكونِ الهاءِ: جمعُ بَـهْمَةٍ، وهي السَّـخْلةُ وَلَـدُ الغَنَم، و(البُهَـم) بضمٍّ ففتـحٍ: جمعُ بُهْمَةٍ بضمٍّ فسـكونٍ: الشُّـجاعُ.

والمعنى: إنَّ قلوبَ الأعداءِ اضْطَرَبتْ، ومِن أَجْلِ شدَّتهم في الحربِ فَزِعَتْ[2]، إلى أنْ صارَتْ لا تُميِّزُ بينَ المذكورِين، ولا تُفرِّقُ بينَ المسطورِين؛ لأنَّ نَظرَهُم محصورٌ على الظاهِر، ولا يُفرِّقُونَ بينَ القَذِرِ والطَّاهِر، وأمَّا المؤمنونَ فبِنَظَرِهم الدَّقيق، الـمَقْرونِ بالمعنَى الحَقيق، يُميِّزونَ بينَ الـمُحِقِّ والـمُبْطِل، ويُفرِّقون بينَ الحقِّ والباطِل، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾ [فاطر: ١٢]؛ أي: وإنْ كان في نَظَرِ الحَيْرانِ بَيَانُ أَنَّهما مُسْتوِيَان، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، ومَن لَمْ يَذُقْ لَمْ يَعْرِفْ، ومَن لَمْ يَعْتَرِفْ لَمْ يَعْتَرِفْ.

١٣٥ ـ ومَـنْ تَكُـنْ برَسُـولِ اللهِ نُصْرتُـهُ إنْ تَلْقَـهُ الأُسْـدُ فـي آجامِهـا تَجِمِ

النُّصْـرةُ مصـدرٌ مَبْنـيٌّ للمفعـولِ، و(الأُسْـدُ) بضـمِّ الهمزةِ وسـكونِ السِّـينِ: جمعُ أَسَـدٍ.

---

(١) أو مفعول لأجله.

(٢) في «د»: «فرغت».

والآجامُ بالمدِّ: جمعُ أَجَمَةٍ، وهي أرضٌ كثيرةُ القَصَبِ. و(تَجِم) بفتحِ التَّاءِ وكسرِ الجيم، مِن وَجَمَ، أي: حَزِنَ، أو سَكَتَ مُهْتَمًّا.

والشَّرطُ الثَّاني وجوابُه جوابُ الأوَّلِ، وليس هذا[1] مِن تَوَالي الشَّرْطينِ المشهورِ بأنَّ ثانيَهُما حالٌ مِن الأوَّلِ، وأنَّ الجوابَ له؛ نحوَ: إنْ جِئْتَني إنْ تَأدَّبْتَ أَكْرمْتكَ؛ أي: إنْ جِئْتَني مُتَأدِّباً أَكْرمْتُكَ، ولا بدَّ مِن تقديمِ التَّأدُّبِ على المجيءِ ليَتحقَّقَ مُقارَنتُه له، ونحوَ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

والمعنى: مَن يَكُنْ نُصرتُه وإعانتُه وقوَّتُه وإغاثَتُه على مُحارَبةِ الأعداء، بواسطةِ سيِّدِ الأحبَّاء، إنْ تَلْقَهُ جميعُ أفرادِ الأُسْدِ المشهورِ بالشَّجاعةِ والمَهَابَة، في مَحَالِّها المسمَّاةِ بالغابَة، وهي فيها أَجْرأُ منها في غيرِها في إيصالِ الكآبَة، تَسْكُنْ على حالِها، ولا تتحرَّكْ خوفاً منه في مَآلِها.

وفي هذ البيتِ إشعارٌ بما رَوَى مُحْيي السُّنَّةِ في «شرح السُّنة» عنِ ابنِ المُنْكَدِرِ: أنَّ سَفينةَ مولَى رسولِ اللهِ ﷺ أَخْطأَ الجيشَ بأرضِ الرُّومِ أو أُسِرَ، فانْطَلَقَ هارِباً يتلمَّسُ الجيشَ، فإذا هو بالأَسَدِ، فقال: يا أبا الحارثِ! أنا مَوْلَى رسولِ اللهِ ﷺ، كان مِن أَمْرِي كَيْتَ وكَيْتَ، فأقبلَ الأسدُ له بَصْبَصةٌ حتَّى قامَ إلى جَنْبِهِ، كُلَّما سَمعَ صوتاً أَهْوَى إليه، ثُمَّ أقبلَ يمشي إلى جَنْبِهِ حتَّى بَلَغَ الجيشَ، ثُمَّ رَجَعَ الأسدُ[2]. ذكره صاحب «المشكاة» في (بابِ الكَرَامات)[3].

١٣٦ ـ ولَنْ تَرَى مِن وليٍّ غيرِ مُنتَصِرٍ   به ولا مِن عَدُوٍّ غيرِ مُنْقَصِمِ

---

(١) في «ل»: «وهذا»، بإسقاط «ليس»، وهو خطأ.

(٢) رواه البغوي في «شرح السنة» (٣٧٣٢)، ورواه أيضاً عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٥٤٤)، ومن طريقه رواه البغوي.

(٣) انظر: «مشكاة المصابيح» (٥٩٤٩).

(مِن) في الموضعَيْنِ زائدةٌ، وضميرُ (به) للرسول، والانْقِصَامُ بالقافِ هو الرِّوايةُ، وهو الانْكِسارُ فوقَ الانْفِصَامِ بالفاء، أعني: الانْكِسارَ مع البَيْنونةِ، و(غيرِ) في الـمَحَلَّينِ جارٍ جَرُّه على الوَصْفيَّة، ونَصْبُه على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لـ (تَرَى)، على أنْ تكونَ مِن رؤيةِ القلبِ، ورفعُه على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ هو: هو.

يعني: ولن تَعْلَمَ وليًّا له صلى الله تعالى عليه وسلم غيرَ منصورٍ به، ولا تبصر عدواً حال كونه غير مكسور ومقهور به، بل كلُّ وليٍّ به مُنْتَصِر[1]، وكلُّ عدوٍّ لهُ منكسِر.

١٣٧ ـ أَحَلَّ أُمَّتَهُ في حِرْزِ مِلَّتِهِ ... كاللَّيْثِ حَلَّ مع الأشبالِ في أَجَمِ

الإحلالُ: الإنزالُ، والأشبالُ: جمعُ شِبْلٍ بكسرِ الشِّين، وهو ولدُ الأَسَدِ، والأَجَمُ بفَتْحَتَينِ: جنسُ مُقَامةِ الأسد، والواحدةُ: أَجَمَة.

أي: أَحَلَّ أمَّتهُ المرحومَة، في حِصْنِ مِلَّتِهِ الـمَعْصومَة، كما أنَّ الأَسَدَ ينزلُ مع أولادِه في أَجَمتهِ المأجومَة.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الملَّة كالحِصْنِ للأُمَّة، فمَنِ الْتَجَأَ إليها سَلِمَ مِن الآفات، ومَن خَرَجَ عنها تَعَرَّضَ للبَلِيَّات، كما وَرَدَ في الحديثِ القُدْسيِّ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ حِصْني، فمَن دَخَلَ حِصْني أَمِنَ عذابي»[2].

وفي المِصْراعِ الثَّاني إشارةٌ إلى أنَّه صلى الله تعالى عليه وسلم مِن كمالِ شَفَقتهِ

---

(١) الناصر هو الله، القائل ولم يستثن: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧، والتوبة: ١١٦، والعنكبوت: ٢٢، والشورى: ٣١].

(٢) رواه الشهاب في «مسنده» (١٤٥١) من حديث علي رضِيَ اللهُ عنه، وإسناده ضعيف جدًّا كما قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١١٩)، وزاد: وقول أبي منصور الديلمي: إنه حديث ثابت، مردود عليه.

ومَرْحَمتِه، وتأديبِهِ وتعليمِهِ لأمَّتِه، كالأبِ لهم، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وفي قراءةٍ شاذَّةٍ: (وهو أبٌ لهم)[1].

١٣٨ ـ كَمْ جَدَّلَتْ كَلِماتُ اللهِ مِن جَدِلٍ ... فيهِ وكَمْ خَصَمَ البُرْهانُ مِن خَصِمِ

(كم) خَبَرِيَّةٌ، و(جَدَّلَتْ) بالتَّشديد؛ أي: أَوْقَعتْ على الجَدَالةِ وهي وجهُ الأرضِ.

و(فيه) يُقرأُ بإشباعِ الهاءِ، والضَّميرُ إليهِ صلى الله تعالى عليه وسلم.

و(خَصَمَ)؛ أي: غَلَبَ في الخُصومةِ، مِن خاصَمْتُ زيداً فخَصَمْتُه.

و(الجَدِل) و(الخَصِم) بكسرِ عينِهما صِيْغَتَا مُبالَغةٍ، وهما مَفْعولانِ، و(مِن) زائدةٌ فيهما.

والمعنى: كثيراً مِن المرَّاتِ قَطَعَتْ وغَلَبَتْ كلماتُ اللهِ تعالى مِن الآياتِ البيِّنات الـمُبالِغَ في الـمُجادَلَة، والـمُجاهِدَ في الـمُعارَضَة؛ لإظهارِ نبوَّتِه، وإشعارِ رسالتِه، وكَمْ مِن الكرَّاتِ أَلْزمَتِ الحُجَجُ الواضِحات والـمُعجِزاتُ الظَّاهِرات الـمُخاصِمَ غايةَ الخُصومةِ في الـمُعالَجات.

١٣٩ ـ كَفَاكَ بالعِلْمِ في الأُمِّيِّ مُعْجِزةً ... في الجاهِليَّـةِ والتَّأديبِ في اليُتُمِ

الباءُ زائدةٌ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، واللَّامُ في (العِلْم) للجِنْس، والمرادُ به الفَرْدُ الكامِلُ.

و(الأُمِّـي) منسـوبٌ إلـى الأُمِّ، وهو مَن لَمْ يُـدْرِكْ تَربيَـةَ الأبِ، أو على وصفِ [مَـن][2] خـرجَ مِـن بطـنِ أمِّـه بـدونِ اكتسـابِ قـراءةٍ وكتابـةٍ، أو منسـوبٌ إلـى أُمَّةِ العَـرَبِ، وهـم قومُ عـادةٌ[3] غالبِهـم عَدَمُ معرفـةِ الكتابِ والحِسـاب.

---

(١) نسبت لابن مسعود كما في «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص ١٢٠). وأمثال هذه القراءات إن صحت فهي محمولة على التفسير؛ لمخالفتها سواد المصحف الذي أجمعت عليه الأمة.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) كلمة: «عادة» من «د».

و(التَّأديب) مصدرُ المجهولِ، وهو معطوفٌ على (العِلْم).

و(اليُتُم) بضمَّتينِ مَصدرٌ جُعِلَ حِيناً في المعنى، وهو بمعنَى اليَتِيم، كالعَدْلِ بمعنَى العادِلِ، وتُرِكَ قولُه: مُعْجِزةً، بعدَ قولِهِ: (في اليُتُم) للعِلْمِ بها ممَّا قَبْلُ.

وأرادَ بالمعجزةِ: مجرَّدُ الأمرِ الخارِقِ للعادةِ، وإنِ اعْتَبَروا فيها مع ذلك اقْتِرانَهُ بالتَّحدِّي، وهو دَعْوَى الرِّسالةِ مع عَدَمِ الـمُعارَضةِ مِن الـمُرْسَلِ إليهِم.

والمعنى: أنَّ معجزاتِهِ كثيرةٌ لا تُحصَى، وخَوارِقَ عاداتِهِ شَهيرةٌ لا تَخْفَى، وإذا نَظَرْتَ بعينِ البَصيرةِ والاهْتِداء، وكَحَلْتَ بصرَكَ بنورِ التَّوفيقِ والاقْتِفاء، رأيتَ ذاتَهُ الشَّريفة، مع صِفَاتِهِ الـمُنِيفَة، مَحَلَّ خارِقِ العاداتِ الرَّبَّانيَّة، ومَظْهَرَ الـمُعْجزاتِ السُّبْحانيَّة، وحينئذٍ كَفَاكَ أَيُّها الطَّالِبُ لمُعْجزاتِه، وحَسْبُكَ أَيُّها الرَّاغِبُ لخَرْقِ عاداتِه، الدَّالَّةِ على كمالِ كَراماتِه: العِلْمُ المشتَمِلُ على الأصولِ والفُروع، المحيطُ بالمعقولِ والمَسْموع، فيمَن لَمْ يَتعلَّمْ مِن العُلماء، ولَمْ يُكتَبْ مع الأُدَباء، في زمانِ كثرةِ الجُهَّالِ والسُّفهاء، حيثُ حُرِّفَ فيهِ الشَّرعُ السَّابِق، وصُرِفَ الوحيُ اللَّاحِق.

وكذا كَفَاكَ كونُه مُؤدَّباً بمكارِمِ الخِصَال، ومتأدِّباً على وجهِ الكَمَال، في أوانِ يُتْمِه، وزمانِ حَدَاثتِه، وأوَّلِ خِلْقتِهِ وفِطْرتِه، بلا وجودِ اكتسابٍ رياضيّ، بل بجُودٍ إلهيٍّ فيَّاضيّ، بَغَّضَ إليهِ الأَوْثان، وكرَّهَ إليه العِصْيان، وحَبَّبَ إليهِ الإيمان، وزَيَّنَ إليهِ الفُرْقان، ووَصَلَ إلى مقامِ الإحسان، وهذا معنَى قولِهِ ﷺ: «أدَّبَني ربِّي فأَحْسَنَ تَأْدِيبي»[1]، وقولِ بعضِهم: حَسْبِي رَبِّي مِن كُلِّ مُرَبِّي.

١٤٠ ـ خَدَمْتُـهُ بِـمَدِيحٍ أَسْـتَقِيلُ بِـهِ ... ذُنوبَ عُمْرٍ مَضَى في الشِّعرِ والخِدَمِ

المديحُ: ما يُمْدَحُ به، وقيل: إنَّه مصدرٌ. والاسْتِقالةُ: طَلَبُ العفوِ.

---

(١) قال أبو العباس في «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٣٧٥): المعنى صحيح لكن لا يعرف له إسناد ثابت.

وأرادَ بالشِّعرِ هاهُنا معناهُ المصدريَّ؛ أي: الإتيانَ بالكلامِ المَوْزونِ المُقَفَّى، وكثيراً ما يُطْلَقُ على نَفْسِ ذلك الكلامِ، فيُمْكِنُ أنْ يُقدَّرَ مضافٌ؛ أي: في استِعْمالِهِ أو تأليفِه.

و(الخِدَم) بكسرِ الخاءِ: جمعُ خِدْمةٍ، والمرادُ بها: خِدْمةُ المَخلوقِينَ؛ كما أنَّ المرادَ بالشِّعر: الشِّعرُ المذمُومُ.

وجملةُ (أَسْتقيلُ) صفةٌ لـ(مَدِيح)، وقيل: حالٌ مِن فاعِلِ (خَدَمْتُه).

والمعنى: تَشَرَّفْتُ بخِدْمتِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم باستعانةِ مَدْحٍ أَطلبُ العفوَ مِن اللهِ تعالى بسببِهِ مِن ذنوبِ مُدَّةَ حياةٍ مَضَتْ في الاشتِغالِ بالشِّعرِ في مَدْحِ النَّاسِ ومَذَمَّتِهم، وضاعَتْ في خَدَماتِ أربابِ الدُّنيا لأغراضٍ فاسدةٍ في صُحْبَتِهم.

١٤١ ـ إذْ قَلَّدَانيَ ما تُخْشَى عَوَاقِبُهُ … كأنَّني بهِمَا هَدْيٌ مِن النَّعَمِ

(إذْ) تعليليَّةٌ لـ(أَسْتقِيل)، والتَّقليدُ: ربطُ العُنُقِ، ويجيءُ بمعنَى الإلْزامِ، ويُقرأُ البيتُ بفتحِ الياءِ مِن (قَلَّدَاني)، والضَّميرُ فيه وفي (بهما) راجِعٌ إلى الشُّعراء والخِدْمةِ المذمومَيْنِ.

والهَدْيُ: ما يُهْدَى مِن النَّعَمِ ـ وهو الإبلُ والبقرُ والغنمُ ـ للذَّبحِ في الحَرَم، ومِن شأنِهِ أنْ يُقلَّدَ بتعليقِ شيءٍ في عُنُقِهِ ليُعْلَمَ أنَّه هَدْيٌ فلا يُتعرَّضَ له بشيءٍ، ثُمَّ يُنْحَرُ. و(من) بيانيَّة.

والمعنى: لأنَّ فُضُولَ الشِّعر وحُصولَ خِدْمةِ الخَلْق أَلْزَمَاني وعَلَّقا في رَقَبتي الآثامَ والأَوْزار، التي تُخْشَى عواقبُها مِن أنواعِ العقابِ في عاقبةِ الدَّار، وكأنَّني عُيِّنْتُ للهلاكِ[1] بسببِهما، فإنَّهما أَوْقَعاني في مَهْلكةِ البَوَار[2].

---

(١) في «د»: «للإهلاك».

(٢) في «ل»: «الوبار».

١٤٢ ـ أَطَعْتُ غيَّ الصِّبَا في الحالَتينِ وما حَصَلْتُ إلَّا على الآثامِ والنَّدَمِ

أي: أَطَعْتُ ضلالةَ الصِّبا وجَهالةَ الشَّبابِ النَّاشئةَ عنهُما، في حالَتي اسْتِعمالِ الشِّعر، واشتغالِ الخِدْمةِ وتَضْييعِ العُمُرِ بهما، والحالُ أنِّي ما حَصَّلْتُ شيئاً مِن جِهَتِهما، إلَّا الوقوعَ على المَعاصِي، والنَّدامةَ والتَّحَسُّرَ والتَّحَزُّنَ على ما وَقَعَ مِن المَناهِي.

والمرادُ بالنَّدَم: ما يَترتَّبُ عليه النَّدَامةُ، وإلَّا فالنَّدمُ نَفْسُه توبةٌ، وهي مُوْجِبةٌ للنَّجاةِ وللدَّرجاتِ وسيلةٌ، فلا تَدخُلُ تحتَ الشِّكايَةِ.

ويُرْوَى: (حَصَلْتُ) بالتَّخفيف، فالمعنى: ما وَقَعْتُ على شيءٍ مِن الأغراضِ الباطِلةِ والمقاصِدِ الفاسِدَة، إلَّا على المعاصي والنَّدَامة، ويُمْكِنُ أنْ يكونَ لفًّا ونشراً، فالآثامُ مُتَرتِّبٌ على مَدْحِ الفَسَقةِ، والنَّدامةُ على خدمةِ الجَهَلة.

١٤٣ ـ فيا خَسَارَةَ نَفْسِي في تِجَارَتِها لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بالدُّنْيا ولَمْ تَسُمِ

في بعضِ النُّسخ: (فيا خسارةَ نَفْسٍ) على التَّنكيرِ، والمنادَى هنا محذوفٌ؛ أي: يا قومِ اعْتَبِروا خسارةَ نَفْسي، أو المُنادَى هو (خَسَارةَ نَفْسي)؛ أي: تعالَيْ؛ ليَعْجَبوا مِنكِ وفي أَمْرِكِ، ونداءُ غيرِ العُقلاءِ شائعٌ في كلامِهم.

قال المَحَلِّيُّ: فيه معنَى التَّعَجُّبِ؛ أي: ما أَخْسَرَها!

والمرادُ بالاشتراءِ: الاستِبْدالُ، و(الدُّنيا) بمنزلةِ الثَّمَن، فلهذا دَخَلَه الباءُ. والسَّومُ: طَلَبُ الشِّراء، مِن بابِ نَصَرَ.

والمعنَى: انْظُروا يا أَصْحَابي، واعْتَبِروا يا أَحْبَابي، مِن خَسَارةِ نَفْسي الفاسِدَة، في مُعامَلَتِها الكاسِدَة، مِن إيثارِ الدُّنيا الفانِيَة، مع مُعارَضَتِها للعُقْبَى الباقِيَة، على الدِّينِ القَويم، المُوْصِلِ إلى النَّعيمِ المُقِيم، حيثُ لَمْ تَشْتَرِ المُلْكَ الباقيَ بالثَّمنِ الفاني، ولَمْ تَقْصِدْ تَحْصيلَ الدِّينِ بتَركِ الدُّنيا بحُسنِ النِّيَّة وصفاءِ الطَّوِيَّة، وفيه مُبالَغةٌ لا تَخْفَى، وإيماءٌ إلى عَدَمِ إمكانِ الجمعِ بينَ الدِّين والدُّنيا.

وقال بعضُ أهلِ الإشارة: أي: لَمْ يَسْتَبْدِلِ الدُّنيا بالدِّين مع أنَّه يَحصلُ بأَدْنَى تبديلٍ، وهو حَكُّ الأَلِفِ الدَّالَّةِ على خِسَّةِ الأُنوثةِ، وتقديمُ ياءِ اليمينِ الـمَعْطورةِ[1] لتقديمِ الـمَبَرَّة، وتقديمُ الِهمَّةِ على تأخيرِ[2] نُون النَّفسِ المائلة إلى الزَّهرة.

١٤٤ ـ ومَـن يَبِـعْ آجِـلاً مِنـهُ بعاجِلِـهِ　　　يَبِـنْ لـهُ الغَبْـنُ فـي بَيْعٍ وفـي سَـلَمِ

الآجِلُ بالمدِّ هو الآتي بعدَ أَجَلٍ، والمرادُ به العُقْبَى، والعاجِلُ: الواصِلُ على عَجَلٍ، والمرادُ به الدُّنيا، و(منهُ) يُقرأُ بالإشباعِ، وضميرُه راجعٌ إلى (مَن)، وكذا ضميرُ (عاجِله)، ورُوِيَ: (بعاجِلَةٍ) بالتَّأنيثِ.

وقيل: ضميرُ (مِنه) يعودُ إلى (الدِّين).

ومَدْخولُ الباءِ هو الثَّمنُ المأخوذُ دونَ الثَّمَنِ المتروكِ، على عكسِ الشَّرْي، وتنوينُ (بيعٍ) و(سَلَمٍ) عِوَضٌ عن المضافِ إليه؛ أي: بَيْعِه وسَلَمِه.

و(يَبِنْ) مضارعٌ مجزومٌ؛ مِن بانَ يَبِينُ ـ كباعَ يَبيعُ ـ بمعنى: ظَهَر.

والبيعُ أنواعٌ: بيعُ العينِ بالعينِ وهو المقايَضةُ، وبيعُ الدَّينِ بالعينِ وهو السَّلَمُ بفتحتين، وبيعُ العينِ بالدَّينِ وهو الـمُدَايَنة، وبيعُ الثَّمَنِ بالثَّمَنِ وهو الصَّرْفُ.

ومـا نحـنُ فيـهِ مِـن قَبِيلِ السَّـلَم، ولـذا تَعَـرَّضَ لـه مـع انْدِراجِه تحـتَ البيع، وفيـهِ إشـارةٌ إلـى ردِّ مَن يقـولُ مِـن الـمَلاحِدة: الدُّنيا نقدٌ والآخـرةُ نَسِـيئةٌ، وإعطاءُ النَّقـدِ لهـا غيـرُ معقـولٍ، فـإنَّ السَّـلَمَ إنَّمـا يكـونُ بإعطـاءِ النَّقـدِ للنَّسـيئةِ، وحُـذَّاقُ التُّجَّـارِ[3] تلقَّـوهُ بالقَبـول، ولـذا ذَمَّ اللهُ الكفَّـارَ بقولـه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامـة: ٢٠ ـ ٢١]، وقـال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾؛ أي:

(١) في «د»: «المقطورة».

(٢) في «د»: «وتأخير»، بدل: «على تأخير».

(٣) في «د»: «التجارة».

لا ما يَشاءُ ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾؛ أي: لا لـكُلِّ مَن يُريد ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾؛ أي: مَطْروداً، ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢٠]؛ أي: ممنوعاً.

حاصلُ المعنى: مَن أَخذَ العاجِلَ وتَركَ الآجِلَ، يَظهرُ له الخسارةُ الكُلِّيَّةُ في تجارتهِ، والغَبْنُ الفاحشُ في مُعامَلته.

قال الغزاليُّ رحمهُ اللهُ: لو كانتِ الدُّنيا ذَهَباً فانياً، والآخِرةُ خَزَفاً باقياً، لاختارَ العاقلُ الخزفَ الباقيَ على الذَّهبِ الفاني، فكيف والأمرُ بالعكسِ.

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾؛ أي: بإعطاءِ الدُّنيا له أيضاً، ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾؛ أي: بعضَها، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

١٤٥ ـ إنْ آتِ ذَنْباً فما عَهْدِي بمُنْتَقِضٍ مِن النَّبيِّ ولا حَبْلِي بمُنْصَرِمِ

رُوي: (عَقْدِي) موضعَ: (عَهْدِي).

والمعنى: إنْ أَفْعَلْ ذَنْباً أو أُسِئْ كَسْباً، وعَدَلَ عن قولهِ[1]: إنْ أَذْنَبْتُ، إمَّا للاسْتِحضار، أو لإرادة الاستِمْرار (فليس عَهْدِي) وهو الإيمانُ بالنَّبيِّ ـ أو الأَمَانُ منه ـ مُنْتَقِضاً؛ لأنَّ نقضَ التَّوبةِ بارتكابِ المعصيةِ لا يَنقُضُ عهدَ الإيمانِ، ولا عَقْدَ الأمَان، (ولا حَبْلي)؛ أي: ولا تَعَلُّقي بذيلِ محبَّتهِ ورجاءِ شفاعَتهِ بـمُنْقطِعٍ، لا مِن جانبي ولا مِن جِهَتهِ.

وقيل: المرادُ مِن العهدِ ما يُفْهَمُ مِن قولهِ صلى الله تعالى عليه وسلم: «مَن

---

(١) في «ل»: «قوله الظاهر».

قالَ لا إلهَ إلَّا اللهُ دَخَلَ الجنَّةَ»[1]، وبالحَبْلِ ما يُعْلَمُ مِن قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

١٤٦ ـ فإنَّ لي ذمَّةً مِنْهُ بتسمِيَتي محمَّداً وَهُوَ أَوْفى الخَلْقِ بالذِّمَمِ

يُقرأُ (منهُ) بإشباعِ الضَّميرِ الرَّاجعِ إليهِ صلى الله تعالى عليه وسلم، و(تَسْمِيَتي) مصدرٌ مجهولٌ مُضافٌ إلى مَفعولِهِ الأوَّل، و(محمَّداً) مفعولُه الثَّاني، و(الذِّمَم) بكسرِ أوَّلِهِ: جمعُ الذِّمَّة، وهي العهدُ والأَمَان، والإسلامُ والإيمان.

وقيل: المرادُ بالذِّمَّة هنا: وعدُ الشَّفاعةِ لِمَن يُسَمَّى بمحمدٍ وأحمدَ على ما رُوِيَ[2].

وحاصلُ هذا البيتِ تعليلٌ للحُكْمِ في البيتِ السَّابقِ، والمعنى: لأنَّ اسْمِي محمدٌ، وهو دالٌّ على محبَّةِ أحمدَ، والاسمُ لا يتغيَّر بمخالَفةِ المسمَّى، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم بمراعاةِ الذِّمَمِ أَوْفَى، فيقومُ بحقِّها بالشَّفاعةِ لأهلِها في دارِ العُقْبَى!

١٤٧ ـ إنْ لَمْ يَكُنْ في مَعَادِي آخِذاً بيَدِي فَضْلاً وإلّا فَقُلْ يا زَلَّةَ القَدَمِ

الـمَعَادُ: مصدرٌ أو مكانٌ أو زمانٌ، والمرادُ به: رجوعُ الأرواحِ إلى الأبدانِ.

والأَخْذُ باليدِ كنايةٌ عنِ المُعاوَنةِ، و(فَضْلاً) تمييزٌ.

و(إلّا) بكسرِ الهمزةِ وتشديدِ اللّامِ، ورُوِيَ بالتَّنوينِ، وهو بمعنَى الذِّمَّةِ والعهدِ،

---

(١) رواه مسلم (٩٤) من حديث أبي ذر رضِيَ اللهُ عنه بلفظ: «ما مِن عَبْدٍ قال: لا إلهَ إلاَّ اللهُ، ثُمَّ ماتَ عَلَى ذلكَ إلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ».

(٢) روي فيه خبر مرسل لا يحتج بمثله على هذا الأمر الظاهر البطلان، فليس كل من تسمى بمحمد صارت له ذمة بهذه التسمية، فكم ممن اسمه محمد وهو ممن تسجر بهم النار، ولو نظر المؤلف إلى زماننا لرأى من هذا العجب العجاب. والخبر أورده القاضي عياض في «الشفا» (١/ ١٣٩) عن جعفر بن محمَّدٍ، عن أبيه قال: إذا كان يومُ القيامةِ نادى مُنادٍ: ألا لِيَقُمْ مَن اسمُه محمَّدٌ فلْيدخُلِ الجنَّةَ؛ لكرامةِ اسمِه عليه السلام.

قال اللهُ تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ١٠]، وهو الصَّحيحُ؛ أي: إنْ لَمْ يَكنْ مُعِيناً لي (فَضْلاً)؛ أي: إحساناً زائداً على الوَعْد، أو عَدْلاً وهو الوفاءُ بالذِّمَّة والعَهْد. فالواوُ بمعنى (أو).

ورُوِيَ بغيرِ تنوينٍ، فهو مركَّبٌ مِن (إنْ) الشَّرطيَّةِ و(لا) النَّافيَةِ، بمعنَى: وإنْ لَمْ يكنْ كذلك، وظاهِرُه مُفْسِدٌ للمعنَى كما لا يَخْفَى، فهو بمعنَى الشَّرطِ الأوَّلِ وتأكيدٌ له.

والجوابُ: (فقُلْ) خطاباً لمَن جرَّدَه مِن نَفْسِه؛ أي: فقُلْ: يا زَلَّةَ القَدَمِ احْضُرِي فهذا أَوَانُكِ، وهي عبارةٌ عن الوقوعِ في المهالِكِ، ويُـمْكِنُ حملُها على مَزْلقةِ القَدَمِ عن الصِّراطِ بالوقوعِ في النَّارِ.

ويُمْكِـنُ أنْ يُقـال: الخطـابُ عـامٌّ؛ أي: فقُـلْ لـي أيُّهـا المخاطَـبُ: يـا فلانُ، احْـذَرْ زَلَّـةَ القَدَمِ.

وأمَّا ما قيلَ مِن أنَّ تقديرَه: وإنْ لَمْ يَكنْ عهدٌ في الأُولَى وفَضْلٌ في الأُخْرى، ففيهِ: أنَّ الشَّرطَ الأوَّلَ حينئذٍ يبقَى بلا جزاءٍ، اللَّهُمَّ إلَّا أنْ يُقالَ: يَدُلُّ عليه الجزاءُ الثَّاني.

وأمَّا ما قيلَ مِن أنَّ المعنَى: وإنْ لَمْ يَكنْ فضلاً بأنْ يكونَ عدلاً، ففيه مع ما تَقدَّمَ: أنَّه غيرُ صحيحِ المعنَى؛ لأنَّه لا يُنْسَبُ العدلُ في ذلك اليومِ إلَّا إلى اللهِ تعالى، وأيضاً يَرْجعُ الكلامُ إلى أنَّه: إن كان آخِذاً[1] بيدي عَدْلاً، وهو غيرُ مُلائِمٍ كما لا يَخْفَى.

١٤٨ ـ حاشَـاهُ أنْ يُحْرَمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ أو يَرْجِـعَ الجـارُ منـهُ غيـرَ مُحْتَرَمِ

(حاشَاهُ) تَنزيهٌ له، أو معناه: جانَبَهُ، و(يُحْرَم) مِن حَرَمَهُ يَحْرِمُه؛ كـ: ضَرَبَهُ يَضْرِبُه، أو من أَحْرَمَهُ بمعنى: مَنَعهُ، يتعدَّى إلى مفعولَيْنِ، وهو مَبْنِيٌّ على المفعول.

وقيل: على الفاعِلِ، وسكونُ (الرَّاجي) مِن ضَرورةِ الشِّعر.

(١) في «ل»: «إن أخذ»، والمثبت من «د»، لكن وقع فيها «آخذ» بالرفع، والصواب المثبت.

و(الجارُ) مرفوعٌ، فـ(يَرْجِعُ) لازِمٌ بمعنَى: يَصِيرُ ويَعُودُ، أو منصوبٌ، فهو مُتَعدٍّ بمعنَى: يَرُدَّ ويُعيدَ. والجارُ بمعنَى الـمُستجيرِ الدَّاخِلِ في الجِوارِ والعهدِ والأمانِ.

وضميرُ (منهُ) بالإشباعِ إلى النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم، و(مُحْتَرَم) اسمُ مفعولٍ، ونُصِبَ (غيرَ) على الحاليَّةِ مِن (الجار).

والمعنى: أنَّه صلى الله تعالى وسلم مُنزَّهٌ عن أنْ يَحْرِمَ راجِيَهُ عن الإكرام، أو يَرُدَّ المُستَجِيرَ منه بغيرِ احْتِرام، فإنَّه مَعْدِنُ الكَرامات، ومَنْبَعُ الاحْتِرامات.

١٤٩ ـ ومُنْذُ أَلْزَمْتُ أفكارِي مَدائِحَهُ وَجَدْتُه لخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

(منذُ) بمعنى: أوَّلَ المُدَّةِ، مفعولٌ فيه لـ(وَجَدْتُ)، ولـ(خَلاصي) مفعولٌ لـ(مُلْتَزِم) بكسرِ الزَّاي، واللَّامُ لتقويةِ العملِ، يقالُ: أَلْزَمْتُه الشَّيءَ فالْتَزَمهُ؛ أي: جَعَلْتُه كفيلاً للشَّيءِ فتكَفَّلَ به وأَوْجَبَهُ على نَفْسهِ.

والأَظْهَرُ أنَّ اللَّامَ للعلَّةِ متعلِّقةٌ بـ(وَجَدْتُه).

والمعنى: أنَّ مِن مَكارِمهِ الحَسَنةِ وأخلاقهِ المستَحْسَنةِ أنِّي مِن حينِ تَوَجَّهْتُ إليه صلى الله تعالى عليه وسلم بصَرْفِ أفكارِي لَدَيهِ في إنشاءِ مَدائِحهِ بإخلاصِ النِّيَّةِ وصفاءِ الطَّوِيَّة، تَكفَّلَ لي وقامَ بتخليصِي مِن كلِّ شِدَّةٍ وبَلِيَّة[1].

١٥٠ ـ ولَنْ يَفُوتَ الغِنَى منهُ يَداً تَرِبَتْ إنَّ الحَيَا يُنْبِتُ الأزهارَ في الأَكَمِ

(الغِنَى) بالكسرِ مع القَصْرِ بمعنَى اليَسَارِ، ومع المَدَّةِ بمعنَى التَّغَنِّي، وبالفتحِ مع القَصْرِ: الإقامةُ، ومع الـمَدَّةِ: الكِفَايةُ، وقد جَمَعَ الأربعةَ مَن قال:

مَنْ يَكُنْ ذا غِنًى يَمِلْ في غِنَائِي فـي دُرُوءٍ[2] غَنَى لأهـلِ الغَنَاءِ

---

(١) وهذه المحبة لا بدَّ لها من شواهد عملية من متابعة سنة خير البريَّة، ولعلَّ الناظم ثم الشارح أغفل هذا التنبيه؛ لوضوحه عند كل نبيه.

(٢) في «ل»: «دور».

و(منهُ) بإشباعِ الضَّميرِ صفةٌ لـ (الغنى)؛ أي: مِن جِهَتِهِ، و(يداً)؛ أي: عن يَدٍ، و(تَرِبَتْ)؛ أي: افْتَقَرتْ، وأُرِيدَ باليدِ أَيْدِي المحتاجِينَ، والنَّكِرةُ في سياقِ النَّفْي تُفيدُ العمومَ.

ويجوزُ أن يُرادَ بالغِنَى: المالُ، ويُؤيِّدُه نُسخةُ: (النَّدَى) بفتحِ النُّونِ بمعنَى العطاء.

و(الحَيَا) بالقَصْرِ: المطرُ، و(الأزهار): جمعُ زَهْرٍ، و(الأَكَم): جمعُ أَكَمَةٍ بمعنَى: الرَّبْوةِ، وهي التَّلّ، والمقصودُ تَشْبيهُ جُودِهِ بالجَوْدِ في عُمومِ النَّفْعِ، وقَطْعِ النَّظرِ عن أنَّ مَحلَّه يستأهِلُ العطاءَ أو يَستحِقُّ الـمَنْعَ.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّه رحمةٌ للعالَمِين، وسببٌ للغِنَى الظَّاهِريِّ والباطِنيِّ للعلماءِ العامِلِين.

والبيتُ الذي قَبْلهُ كان مُفيداً لدَفْعِ الضُّرِّ عن الـمُلْتَجئِ إليه، وهذا مُشيرٌ إلى حصولِ النَّفعِ من الطَّامِعِ لَدَيه.

ثُمَّ لـمَّا كانَ مُوْهِماً أنَّه أرادَ النَّفْعَ الدُّنْيويَّ دونَ الحظِّ الأُخْرويِّ، فدَفَعَ الوهمَ عن الخيالِ فقال:

١٥١ ـ ولَمْ أُرِدْ زهرةَ الدُّنيا التي اقْتطَفَتْ يَدَا زُهيرٍ بما أَثْنَى على هَرِمِ

في أكثرِ النُّسخ: (اقْتَطَفتْ)، يُقال: قَطَفَ الثَّمرةَ واقْتَطَفَها: جناها، وفيهِ إشعارٌ بأنَّ المذمومَ إنَّما هو تَكلُّفُ الحصولِ وطَلَبُ الوصولِ إلى الأمرِ الفاني، وأمَّا إذا وقعَ الفاني تَبَعاً للمَقْصودِ الباقي مِن غيرِ قَصْدٍ للفاني فلا يَضُرُّ؛ كما في مُوافَقةِ الهَوَى للهُدَى.

والمرادُ بـ (زَهْرة الدُّنيا): مُسْتلَذَّاتُها المشبَّهةُ بالزَّهرةِ في زِينةِ جمالِها وسُرعةِ زَوَالها.

و(زهير) بالتَّصغير: هو ابنُ أبي سُلْمَى ـ بضمِّ السِّين ـ أحدُ الشُّعراءِ السَّبعةِ الذين كانَتْ قصائدُهم مُعلَّقةً على بابِ الكعبةِ، فأُسْقِطَتْ عندَ نزولِ قولِهِ تعالى:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ الآية [هود: ٤٤]، والباقي: خالُه وأبوه وأُختُه وابنُه وبنتُه وسِبْطُه؛ أي: حفيدُه[١].

و(هَرِم) بفتحِ الهاءِ وكسرِ الرَّاء: ابنُ سِنَانٍ، رئيسُ قبيلةِ غَطَفانَ، وهو مِن أَجْودِ مُلوكِ العربِ، ولزهيرٍ فيه مَدَائحُ وأشعارٌ وَصَلَ بها منهُ إليهِ كثيرٌ مِن الصِّلَات، وعَطَايا بالمطَايا فوقَ العادات.

وقيل: الشُّعراءُ أربعةٌ: امْرُؤُ القيسِ إذا رَكِب، والنَّابِغةُ إذا رَهِب، وزُهيرٌ إذا رَغِب، والأَعْشَى إذا طَرِب.

والباء في (بما) للسَّبَبيَّة، و(ما) مصدريَّةٌ أو موصولةٌ، والعائدُ محذوفٌ.

١٥٢ ـ يا أَكْرَمَ الخَلْقِ ما لي مَن أَلُوذُ بِهِ   سِوَاكَ عندَ حُلولِ الحادِثِ العَمِمِ

(الخَلْق) بمعنَى المخلوقِ، واللَّامُ للجنسِ أو الاسْتِغْراق، وفي نسخةٍ: (الرُّسْلِ) بسكونِ السِّينِ: جمعُ الرسولِ[٢]، ويَلْزمُ منه أنْ يكونَ أفضلَ الخَلْقِ بالأَوْلَى، ويكونُ نصًّا للرَّدِّ على المعتزلةِ القائلينَ بتفضيلِ الملائكةِ[٣].

و(ما) نافيةٌ، أو استِفْهاميَّةٌ إنكاريَّة[٤].

واللَّوْذُ بمعنَى: الالْتِجاءِ والعَوْذ، والحُلُول: الوُقوعُ والنُّزولُ، و(الحادث) مُفْرَدُ الحادِثات، بمعنَى: الآفاتِ والبَلِيَّات.

---

(١) قوله: «أي حفيده» ليس في «ل».

(٢) في «ل»: «جمع رسول الله».

(٣) في هذا الكلام نظر، فكيف يكون بيت شعر لأحد المتأخرين، نصاً في الرد على طائفة تتذرع بنصوص الدين؟ وهل يكون هذ إلا بالقرآن الكريم، أو حديث سيد المرسلين، أو إجماع من الصحابة رضِيَ اللهُ عنهم أجمعين؟

(٤) وجه الاستفهام هنا غير ظاهر، إلا أن يعتبر الاستفهام أيضاً في: «من ألوذ..»، وفيه تكلف. على أنه لو أراده لأشار إليه.

و(العَمِم) بفتحِ العينِ المهملةِ والميمِ الأُولَى، أو بكسرِ الميمِ الأُولى، وكِلَاهُما مسموعٌ مِن (عَمَّ) ضِدِّ (خَصَّ).

والمرادُ بـ(الحادث): الشَّامِلُ إمَّا الموتَ وهي القيامةُ الصُّغرَى، وإمَّا السَّاعةَ، وهي القيامةُ الكُبرى، والـمُرادُ[1]: الشَّفاعةُ العُظْمَى.

واعْلَمْ أنَّه لـمَّا ذَكَر النَّاظِمُ نُعوتَ ذاتِهِ وكمالَ صِفَاتهِ ﷺ، انْتَقَلَ مِن حالِ الغَيبةِ إلى مَقامِ الحُضورِ، فناداهُ بالخِطَابِ بأحسنِ الآدابِ، كما قيل في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ في صَدْرِ الكتاب:

١٥٣ ـ ولن يَضِيقَ رَسولَ اللهِ جاهُكَ بي إذا الكريمُ تَحلَّى باسمِ مُنْتَقِمِ

(رسولَ اللهِ) منادى حُذِفَ حرفُ نِدائِهِ، والجاهُ مِن الوَجَاهَةِ، وهي رِفْعةُ المنزِلة، وسَعَةُ الـمَرْتَبة، و(بي) مُتَعلِّقٌ بـ(يَضِيقُ)؛ أي: بسببِ شَفاعَتي، و(إذْ) كـ(إذا) في نسخةٍ للظَّرْفيَّة، و(تَحلَّى) بالحاءِ: اتَّصَفَ، وبالجيمِ: انْكَشَفَ، والأَوَّلُ أصحُّ رِوايةً، والثَّاني أَوْضحُ دِرايةً، فإنَّ الاتِّصافَ أزليٌّ، والانْكِشافَ زَمانيٌّ.

و(الكريمُ) هو اللهُ تعالى، وخُصَّ بالذِّكْرِ مع أنَّه مِن صفاتِ الجَمَال، في مَقامِ الانتقامِ مع أنَّه مِن صفاتِ الجَلَال؛ ليَحْصُلَ الاعْتِدال، ولا تَنْقَطِعَ قلوبُ الرجال، وهذا مَزْجٌ لَطيف، ومعجونٌ شَريف، كما في قولهِ تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، تعليماً لأنْ يقولَ: ما غَرَّني إلَّا كَرَمُكَ. أو في الجمعِ بينهُما إيماءٌ إلى ما قيل: نعوذُ باللهِ مِن غَضَبِ الحَلِيم.

ثُمَّ يَحتمِلُ أنْ يكونَ البيتُ الأَوَّلُ مُشيراً إلى الشَّفاعةِ الكبرَى عند عمومِ البَلْوَى حين يقولُ الخَلْقُ: نَفْسِي نَفْسِي، حتى الأنبياءُ، والبيتُ الثَّاني مُشْعِراً إلى الشَّفاعاتِ الخاصَّةِ لهذه الأمَّةِ في مَوَاطِنِ القيامةِ، وهذا مِن جاهِهِ عندَ اللهِ؛ لأنَّ الجاهَ هو القَدْرُ والمَنْزِلةُ، ولا مَنْزِلةَ فوقَ هذه المَرْتبة.

---

(١) في «د»: «والمراد باللوذ».

١٥٤ ـ فإنَّ مِن جُودِكَ الدُّنيا وضَرَّتَها ومِن عُلُومِكَ عِلْم اللَّوْحِ والقَلَمِ

(مِن) تَبْعيضيَّةٌ، و(ضَرَّتَها) بالنَّصْبِ عطفاً على (الدُّنيا) بالاسميَّةِ، وهي الآخرةُ شُبِّهتْ بالضَّرَّةِ لتَعَذُّرِ الجمعِ بينها وبينَ صاحبتِها كتَعَسُّرِ الجمعِ بين المرأتَيْنِ، كما قال ﷺ: «مَن أَحَبَّ آخِرَته أَضَرَّ بدُنْياهُ، ومَن أَحَبَّ دُنياهُ أَضَرَّ بآخِرتِهِ، فآثِرُوا ما يَبْقَى على ما يَفْنَى»[١].

ومن اللَّطائفِ ما قيل[٢]:

عَتَبْتُ على الدُّنيا لتأخيرِ عالِمٍ وتقديمِ ذي جَهْلٍ فقالَتْ خُذِ العُذْرَا
بنو الجَهْلِ أبنائي لذاكَ رَفَعْتُهُمْ وأهلُ النُّهَى أولادُ ضَرَّتي الأُخْرَى

و(عِلْم اللَّوحِ) منصوبٌ، وقيل: مرفوعٌ، ووَجْهُهما ظاهِرٌ.

والجودُ صفةٌ هي مبتدأُ[٣] إفادةِ ما يَنبغي لا لِعِوَضٍ ولا لغَرَضٍ.

والمعنى: لن يَضِيقَ جاهُكَ بجُودِكَ بواحدٍ مِن أمَّتِكَ؛ لأنَّ مِن جملةِ جُودِكَ وإحسانِكَ إلى الخلقِ جميعاً خيرَ الدُّنيا بالهدايَة، وخيرَ العُقْبَى بالشَّفاعَة.

وقيل: مَعنَى كونِ الكونَيْنِ مِن جُودِه: أنَّه واسِطةٌ في فَيَضانِ الوجودِ على الماهِيَات، وسَيَلانِ الجُودِ على الموجودات، وفيه تلميحٌ إلى حديثِ: «لولاكَ لَمَا خَلَقْتُ الأَفْلاكَ»[٤].

واضْطَرَبَ الشُّرَّاحُ في المِصْراعِ الثَّاني:

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤١٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) في هامش «ل»: «من الطويل».

(٣) في «ل»: «مبدأ».

(٤) ليس له أصل كما تقدم عند شرح البيت رقم (٣٣).

فقيل: العلمُ مصدرٌ مضافٌ إلى فاعِلِهِ؛ أي: عِلْمُ اللَّوحِ والقلمِ بالأشياءِ، فاحتاجَ إلى القولِ بأنَّ لهما إدراكاً وشعوراً بما نُسِبَ إليهما.

وقيل: إنَّه مضافٌ إلى المفعولِ؛ أي: عِلْمُ النَّاسِ باللَّوحِ والقَلَمِ، فاحْتاجَ إلى القولِ بأنَّ فيه أقوالاً.

وقيل: إنَّ اللهَ أَطْلعَه على ما كَتَبَ القَلَمُ في اللَّوحِ المحفوظِ[١]، وهو عِلْمُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ، وهو الأظهرُ، وتوضيحُه: أنَّ المرادَ بعلمِ اللَّوحِ: ما أُثْبِتَ فيه مِن النُّقوشِ القُدْسيَّة، والصُّورِ الغيبيَّة، وبعِلْمِ القَلَمِ: ما أُثْبِتَ فيه كما شاءَ، والإضافةُ لأَدْنَى مُلابَسةٍ، وكونُ عِلْمِهما مِن عُلومِهِ: أنَّ عُلومَهُ تتنوَّعُ إلى الكُلِّيَّاتِ والجُزئِيَّات، وحقائقَ ودَقائقَ، وعَوَارِفَ ومَعارِفَ، تتعلَّقُ بالذَّاتِ والصِّفاتِ، وعِلْمُهما إنَّما يكونُ سَطْراً مِن سُطورِ عِلْمِهِ، ونَهراً مِن بُحورِ عِلْمِه، ثُمَّ مع هذا هو مِن بركةِ وُجودِهِ على ما نُقِلَ أنَّه وَرَدَ: «أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ نُورِي، فنَظَر إليهِ تعالى نَظَرَ هيبةٍ فانْشَقَّ نِصْفينِ، فتَخَلَّقَ مِن نصفِه الكونَيْن»[٢]، وهو المرادُ مِن القلمِ، ولذا وَرَدَ: «أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ»[٣]، فلا تَعارُضَ.

والحاصلُ: إنَّ الدُّنيا والآخرةَ مِن آثارِ وُجُودِكَ وَجُودِك، وما ظَهَرَ مِن القلمِ على اللَّوحِ مِن أسرارِ مَعَارِفكَ وأنواعِ عُلُومِك[٤].

---

(١) في هامش «ل»: «قوله: وقيل: إن الله أطلعه على ما كتب القلم في اللوح، كما ترى مخالف لما ذكره المفسرون المحققون في قوله تعالى ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال البيضاوي: لا يطلع على اللوح إلا المطهرون من الكدورات الجسمانية وهم الملائكة، وقال صاحب «الكشاف»: لا يطلع على اللوح غير الملائكة، وقال أبو السعود: لا يطلع على اللوح في سواهم إلا الملائكة، وكذا سائر المفسرين المحققين فليطلب ثَم. لمحرره».

(٢) لم أجده.

(٣) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣١٩)، من حديث عبادة بن الصامت رضِيَ اللهُ عنه، قال الترمذي: حسن غريب.

(٤) تقدم الكلام عن هذا البيت في طليعة التقديم لهذا الشرح.

وفي البيتِ إيماءٌ إلى أنَّ الجاهَ على الحقيقةِ إنَّما هو بالعِلْمِ باللهِ، والجودِ على الخَلِيقةِ؛ كما وَرَدَ: أنَّ كمالَ الإيمانِ هو التَّعظيمُ لأمرِ الله، والشَّفَقةُ على خَلْقِ الله.

١٥٥ ـ يا نَفْسُ لا تَقْنَطِي مِن زَلَّةٍ عَظُمَتْ إنَّ الكبائرَ في الغُفْرانِ كاللَّمَمِ

رُوِيَ (نَفْس) بضمِّ السِّينِ على أنَّهُ منادًى مُفْردٌ معرفةٌ، وبكَسْرِها على أنَّه منادًى مُضافٌ إلى ياءِ المتكلِّم، وفي تخصيصِ النَّفْسِ بالخِطاب، وما يترتَّبُ عليه مِن العِقاب، إشعارٌ بأنَّ القُنوطَ إنَّما يَنشأُ مِن النَّفْسِ، وإلَّا فالعقلُ مُجوِّزٌ والنَّقلُ مُصحِّحٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وفيه ردٌّ على المعتزِلةِ والخَوارِج، الخارِجِينَ عن وَرْطةِ العَقْلِ وإحاطةِ النَّقْلِ، الدَّاخِلِينَ في حَضِيضِ النَّفسِ، القانِطِينَ مِن رحمةِ الله، الآيِسِينَ مِن فَضْلِ الله، قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّ الكفرَ هو محلُّ اليأسِ، لا غيرُه من الكبائر.

و(لا تَقْنَطي) بفتحِ النُّونِ وكسرِها، و(إنَّ الكبائر) استئنافٌ فيه معنَى التَّعليلِ.

والمعنى: أيُّها النَّفْسُ ـ أو: يا نَفسِي ـ لا تَيْأَسي مِن غُفْرانِ زَلَّةٍ، أو مِن أَجْلِ إتْيانِ معصيةٍ كَبُرتْ في الكيفيَّة، أو كثُرتْ في الكمِّيَّة، فإنَّ الكبائرَ مِن الذُّنوب، في جنبِ غُفرانِ غَفَّارِ الذنوب، كالصَّغائرِ مِن العُيوب، فإنَّهما تستوِيَانِ في كونهما تحتَ القُدْرةِ، وضِمْنَ المَشيئةِ، كما تُشير إليه الآيةُ.

وقد وَرَدَ: أنَّه لمَّا نَزلَ قولُه تعالى في حَقِّ خُلَّصِ عِبادِه، وكُمَّلِ عُبَّادِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] أَنشدَ صلى الله تعالى عليه وسلم:

«إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ فاغْفِرْ جَمَّا فأيُّ عَبْدٍ لكَ لا أَلَمَّا»(١)

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٨٤) من حديث ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما، وقال: حسن صحيح غريب.

وقال القُشيريُّ في قولهِ تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾ الآيةَ: التَّسميةُ بـ ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ مدحٌ، والوصفُ بأنَّهم أَسْرَفُوا ذَمٌّ، فلمَّا قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ طَمِعَ الـمُطِيعون أنْ يَكونوا هم المقصودِينَ بالخِطَاب، والمطلوبِينَ بالعِتَاب، فرفَعُوا رُؤوسَهم، ونكَسَ العُصاةُ أعناقَهم، وقالوا: مَن نحنُ حتَّى يقولَ لنا هذا؟ ولـمَّا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾ انْقَلَبَ الحالُ، وتَقَلَّبَ الآمالُ، والذين نَكَسُوا رُؤوسَهم انْتَعَشوا وزالَتْ ذِلَّتُهم، والذينَ رَفَعوا رُؤوسَهم أَطْرقوا وارْتَفعَتْ صَوْلَتُهم، ثُمَّ سلَّاهُم بقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، ثُمَّ قوَّاهُم بقوله: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، ثُمَّ أَكَّدَ ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾ المستغرِقَ بالألِفِ واللَّامِ بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فكأنَّه قال: أَغْفِرُ ولا أَتْرُكُ، فإنْ كان لكم جِنايةٌ عَمِيمَة، فلي عِنَايَةٌ قَدِيمَة[1]، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

١٥٦ ـ لعلَّ رحمةَ ربِّي حينَ يَقْسِمُها تَأْتي على حَسَبِ العِصْيانِ في القِسَمِ

(القِسَم) بكسرِ القافِ: جمعُ القِسْمةِ؛ أي: أَرْجُو مِن حُسْنِ ظنِّ قلبي أنَّ رحمةَ ربِّي حينَ يَقْسِمُها ويُظْهِرُها يومَ القيامَة، على أربابِ النُّفوسِ اللَّوَّامَة، تأتي على مِقْدارِ عِصْيانِهم، لا على حَسَبِ حِرْمانِهم، وإلَّا فرَحْمتُه أوسعُ مِن ذنوبِنا، وفضلُه أشملُ مِن عُيوبِنا، أو تَظهرُ على مَراتبِ العِصْيان، الصَّادرةِ مِن نوعِ الإنسان، بأنْ تكونَ الرَّحمةُ الصَّغيرةُ على طبقِ السَّيِّئةِ الصَّغيرة، والكبيرةُ على وَفْقِ الكبيرة، وكذا القليلةُ والكثيرة، ولذا قال بعضُ الظُّرَفاء مِن كُمَّلِ العُرَفاء: مِن كمالِ ظُهورِ الرَّحمةِ في العُقْبَى يَنْدمُ الـمُذْنبونَ على تقليلِ مَعْصِيَتِهم في الدُّنيا، ويَدلُّ عليه ما وَرَدَ في المعنى: أنَّ اللهَ تعالى يُظْهِرُ صَغائرَ عبدٍ ويعفُو عنها، ويُعْطي في مُقابِلِها أجوراً كثيرةً، فيقولُ العبدُ: كان

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ٢٨٧).

لي ذُنوبٌ كبيرةٌ؟ فضحكَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُه[1]. فهذا يَدُلُّ على سَعَةِ الرَّجاءِ، فيجبُ الْتِزامُ الدُّعاءِ واللَّجاء.

١٥٧ ـ يا ربِّ واجْعَلْ رَجَائي غيرَ مُنْعَكِسٍ لَدَيْكَ واجْعَلْ حِسَابي غيرَ مُنْخَرِمِ

(رَبِّ) محذوفُ الياءِ اكْتِفاءً بالكسرةِ، وفي نسخةٍ: (فاجْعَلْ) بالفاء. والانْخِرامُ بالخاءِ المعجَمةِ بمعنى: الانْقِطاع.

والمعنى: (يا ربِّ) ارْحَمْني بمحوِ عُيوبي وغُفْرانِ ذُنوبي، (واجْعَلْ رَجائي غيرَ مُنْعَكسٍ) عِندكَ بأنْ يكونَ الخِذْلانُ موضعَ الغُفْرانِ، والعقوبةُ مكانَ الرَّحمةِ، (واجْعَلْ حِسَابي)؛ أي: حُسْباني وظنِّي بكَ غيرَ مُنْقطِعٍ عن فضلِكَ؛ لقولكَ في الحديثِ القُدْسيِّ: «أنا عندَ ظَنِّ عَبدي بي»[2].

١٥٨ ـ والْطُفْ بعبدِكَ في الدَّارَيْنِ إنَّ له صَبْراً مَتَى تَلْقَهُ الأهوالُ يَنْهَزِمِ

اللُّطْفُ هو الإحسانُ الخَفيّ، أو الذي ليسَ له سببٌ جَلِيّ.

وقيل: مِن لُطْفِهِ تعالى بالعبدِ إبهامُ عاقبتِهِ عليه، لأنَّهُ لو عَلِمَ سعادتَهُ لقلَّ عملُه واسْتَنَدَ إليه، ولو عَلِمَ شَقاوَتَهُ أَيِسَ وتركَ التَّذلُّلَ لَدَيْه.

وقيل: مِن لُطْفِهِ إليه إخفاءُ أجَلِهِ عليه؛ لئلَّا يَستَوْحِشَ إنْ كان قد دَنَا أجلُه، ولا يَسْتعصِيَ إذا طالَ أملُه، ويَستأخِرَ عَمَلَه.

---

(١) رواه مسلم (١٩٠) من حديث أبي ذر رضِيَ اللهُ عنه. وتبديل السيئات حسنات ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. لكن هذا لا يعني أن الإنسان يتمنى لو كان قد زاد من المعاصي في الدنيا، فإن هذا مخالف لنصوص الشريعة ومقاصدها التي تدل على أن الإنسان يندم في الآخرة على لحظة من حياته قضاها في غير طاعة الله، فكلام ذلك الظريف من الكمَّل ليس صواباً، فلعل جاهلاً يسمعه فيبادر إلى اغتنام الفرصة في الدنيا بالإكثار من المعاصي لئلا يكون في الآخرة من النادمين!

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه.

وفي نسخةٍ: (وارْفُقْ) موضعَ: (والطف)، وفي نسخةٍ: (تَدْعُهُ) موضع: (تَلْقَهُ)، واللُّقِيُّ أَظْرفُ.

والمعنى: اُلْطُفْ يا لطيفُ بعبدِكَ الضَّعيف، في الدُّنيا بتوفيقِ الطَّاعَة، وفي العُقْبَى بالرَّحمةِ ونَيْلِ الشَّفاعَة، إنَّ لهُ صبراً قليلاً يتقلَّبُ في الأحوال، مَتَى تَلْقَهُ الأفزاعُ والأهوال، يَنْهَزِمْ ولا يَثْبُتْ كالجبالِ مِن الرِّجال.

ثُمَّ لا مَلْجأَ أقوَى مِن مُتابَعَتِهِ ومُلَازَمته صَلاتَهُ ﷺ، وشرَّفَ وكرَّم، ولذا قال:

١٥٩ ـ وائْذَنْ لسُحْبِ صلاةٍ مِنكَ دائمَةٍ على النَّبـيِّ بـمُنْهَلٍّ ومُنْسَجِمِ

(أَذِنَ) بمعنى: أَمَرَ[١]، مِن بابِ عَلِمَ. (السُّحُبُ) بضمَّتينِ: جمعُ سَحَابٍ، وسُكِّنَ حاؤُه تخفيفاً، والـمُرادُ مِن الصَّلاةِ مَزيدُ الشَّرفِ والكرامةِ. و(مِنْكَ) صفةُ (صَلاةٍ)؛ أي: واقعةٍ. و(دائمَةٍ) صفةٌ بعدَ صفةٍ. و(على النَّبيِّ) متعلِّقٌ بـ(صلاةٍ) أو (دائمةٍ).

و(بـمُنْهَلٍّ) متعلِّقٌ بـ (ائْذَنْ)، و(مُنسَجِم) بكسرِ الجيمِ على الصَّحيحِ عطفٌ عليه، والتقديرُ: ائْذَنْ لها بإفاضةِ مطرٍ مُنْصَبٍّ سائلٍ.

قيـل: أَتَـى النَّاظِـمُ بالصَّـلاةِ علـى سيِّدِ[٢] الكِـرَامِ، بأبلـغِ الوُجـوه وأحسـنِ الإكـرام، حيـث جَمَـعَ في بيتـهِ ذِكْـرَ الصَّـلاةِ، ودوامِهـا، ونُزولِــها، ومُبتَـدَأ النُّزولِ ومُنْتَهـاهُ، وكثرتِــها فـي ضِمْـنِ الانْصِبـاب، وعُمومِهـا في طَـيِّ السَّـيَلان، ومَحَلِّها، وتَشْـبيهِها بالأمطـار، وإثْبـاتِ السُّـحُبِ لها، فهذه عشـرةُ أشـياءَ تُسـتَفادُ مِـن كلامِه، بعضُهـا بالدَّلالَـةِ وبعضُها بالإشـارَة.

وفـي لفظَـةِ (ائْـذَنْ) إيـذانٌ بـأنَّ سُـحُبَ الصَّـلاةِ حاضـرةٌ واقِفةٌ موقوفـةٌ على إذنـهِ تعالـى، والإذنُ متحقِّـقٌ، فإنَّه سـبحانهُ وتعالى مع المـلأ الأَعْلَى يُصلُّـونَ عَلَيْه،

---

(١) في «د»: «أَذِنَ أَمْرٌ».

(٢) في «ل»: «سبيل»، والمثبت من «د»، وهو الأنسب بالسياق.

وقـد أَمَرَ عَبيـدَه المُنْقادِينَ لَدَيْه، بقولـه: ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] تَشـريفاً لـه وتَعظيماً، ومَهابـةً وتكريماً[١].

١٦٠ ـ ما رَنَّحَتْ عَذَبَاتِ البانِ رِيحُ صَباً وأَطْرَبَ العِيسَ حادِي العِيسِ بالنَّغَمِ

(رَنَّحتْ) بتشديدِ النُّونِ المفتوحةِ، والحاءِ المهمَلةِ؛ أي: مَيَّلَتْ، و(ما) مصدريَّةٌ ظَرْفيَّةٌ لـ (ائذن)، قيل: وتُسَمَّى: دَوَامِيَّةً على عُرفِهِم؛ لإرادةِ الدَّوامِ بها، و: (مَا) مَدِّيَّةً؛ لدَلالتِها على مُدَّةٍ مَديدةٍ؛ فإنَّ هُبوبَ الصَّبَا وتَرْنيحَها لأفنانِ البانِ وإنْ لَمْ يُوجَدْ على الدَّوامِ، لكنْ يمتدُّ على مَديدِ الأَوَانِ وامتدادِ الزَّمان، انتهى.

وحاصلُ كلامِهِ: أنَّ المرادَ: ما دامَتِ الدُّنيا، وعبَّر بما لا يَخلُو عنهُما، ولهذا قال بعضُ الشُّرَّاحِ: وهذا كنايةٌ عن التَّأْييد.

و(عَذَبات) بالحركات؛ أي: أغصانَ البانِ، وهو شجرٌ له أغصانٌ لَطيفةٌ، وأصلُ عَذَبةِ الشَّيءِ: طَرَفُه اللَّطيفُ.

والصَّبَـا: هـي الرِّيـحُ التي تَهبُّ مِن مَطْلَعِ الشَّـمسِ إذا اسْـتَوَى اللَّيـلُ والنَّهارُ، وتُقابِـلُ بـابَ الكعبـةِ، فكأنَّهـا تَصْبُو إليهـا وتَمِيلُ، وقـد يُقالُ لهـا: القَبـولُ، وتُقابِلُها الدَّبـورُ، التـي تَهبُّ مِن دُبُرِ الكعبـةِ، وفي الحديـثِ: «نُصِرْتُ بالصَّبَـا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور»[٢].

قيل: ولكونِ الصَّبا حارَّةً رَطْبَةً تُؤثِّرُ في الأشجارِ والأَغْصانِ وتُلَيِّنُها، وتَهِيجُ القُوَى النَّامِيَةَ في الأرضِ وتُزيِّنُها بأنواعِ الأنوارِ وأصنافِ الأزهار، يَتبرَّكُ الشُّعراءُ بذِكْرِها في الأشعار؛ كما قال:

---

(١) في هامش «ل»:
«وآلـه العـز والصَّحـب الذيـن عَلَـوا أهـلُ الصفـا والوفـا والعقـلِ والكـرمِ»

(٢) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما.

أَلَا يـا صَبَا نَجْـدٍ متَى هِجْـتَ مِن نجدِ فقد زادَني مَسْـراكَ وَجْداً على وَجْدِ[١]

وإضافةُ الرِّيحِ إلى الصَّبَا مِن إضافةِ العامِّ إلى الخاصِّ، وهي فاعِلٌ، و(عَذَبات) مفعولٌ، كذا ذَكَره غالِبُ الشُّرَّاحِ، وهو المشهورُ على لسانِ الجمهور، لكنْ ذَكَرَ العلَّامةُ مولانا عِصامُ الدِّينِ أنَّ فيهِ إشكالاً، وهو أنَّ (رُنِّحَ) في اللُّغةِ مبنيٌّ للمجهولِ كما يَدُلُّ عليه «التَّاج» و«الصِّحاح»[٢]، فينبغي أنْ يُقرأ مجهولاً، ويُجْعَلَ (ريحُ صباً) فاعلَ فِعْلٍ محذوفٍ، أي: أَمَالَتْهُ ريحُ صباً؛ ليكونَ التَّركيبُ مِن قَبِيلِ: (يُسبَّحُ[٣] له في الغُدُوِّ والآصالِ رجالٌ) [النور: ٣٦ ـ ٣٧]، انتهى.

والصواب: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

ثم رأيتُ «القاموس» وافَقَ بـ«الصحاح» فقال: تَرَنَّحَ: تَمايَلَ سُكْراً أو غيرَه، ورُنِّحَ عليهِ تَرْنِيحاً بالضَّمِّ: غُشِيَ عليه، أو اعْتَراهُ وَهْنٌ في عِظَامِهِ فتَمَايَلَ، وهو مُرَنَّحٌ كمحمَّدٍ[٤].

لكنْ ظَهَرَ لي أنَّ بناءَ المجهولِ مُخْتَصٌّ بما إذا تَعَدَّى بـ (على)، ويَدُلُّ عليه خُصوصُ المعنى، ولأنَّ (تَرَنَّحَ) مُطاوِعٌ، فلا بدَّ له مِن فعلٍ مُتَعَدٍّ، وهو لا يكونُ إلَّا مَعلوماً كما هو معلومٌ، فارْتَفَعتِ الجَهَالةُ وصحَّ ما وَرَدَ، و[٥]: «لا تَجْتَمِعُ أُمَّتي على الضَّلالةِ»[٦].

---

(١) البيت من قصيدة لعبد الله بن الدمينة الخثعمي؛ كما في «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (٢/ ١٠١).

(٢) انظر: «الصحاح» و«تاج العروس» مادة: (رنح). لكن الصواب أن المراد بـ«التاج» ليس «تاج العروس»، فإن الزبيدي صحاب «التاج» وفاته سنة (١٢٠٥هـ)، بينما المؤلف توفي سنة (١٠١٤هـ)؛ أي: قبله بحوالي مئتي عام، ووفاة العصام الإسفراييني سنة (٩٤٥هـ). انظر: «الأعلام» (٧/ ٧٠) و(٥/ ١٢) و(١/ ٦٦).

(٣) بالبناء للمفعول قراءة ابن عامر، وشعبة عن عاصم. انظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني (ص ١٦٢).

(٤) انظر: «القاموس» (مادة: رنح).

(٥) الواو من «د»، وليست في «ل».

(٦) رواه الطبراني في «الكبير» (١٣٦٢٣) و(١٣٦٢٤) من حديث ابن عمر رضِيَ اللهُ عنهما، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢١٨): رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات رجال الصحيح، خلا =

ثُمَّ رأيتُ: قال ابنُ الغازي: يقالُ: رَنَّحَتِ الرِّيحُ الغُصونَ؛ أي: أَمَالَتْهُ. ثُمَّ ذَكَرَ ما في «الصحاح».

والطَّرَبُ[١]: الخِفَّةُ الحاصِلةُ مِن الـمَسَرَّةِ، الـمُقْتَضِيَةُ للهَزَّةِ والحركةِ، مِن طَرِبَ يَطْرَبُ؛ كـ: حَفِظَ يَحْفَظُ، ويُعَدَّى بالهمزِ. و(العِيسَ) منصوبٌ على المفعوليَّة: جمعُ أَعْيَسَ، وهي الإبلُ التي يُخالِطُ بياضَها شُقرةٌ؛ أي: أَبيضُ يَقْرُبُ إلى الحُمْرةِ، وهي كرائمُ الإبلِ، ولذا وَرَدَ في بعضِ الأحاديث: «أفضلُ مِن حُمرِ النَّعَم»[٢].

والحَدْوُ: سَوْقُ الإبلِ، وقيل: الغِناءُ بها، قال:

فغَنِّها وهي لك الفِداءُ ... إنَّ غِناءَ الإبِلِ الحُدَاءُ[٣]

والنَّغَمُ بفتحتين: الصَّوتُ الحَسَنُ.

وفي[٤] «القاموس»: النَّغَمُ محرَّكةً وتُسَكَّن: الكلامُ الخَفِيُّ، الواحِدةُ بهاءٍ، ونَغَمَ في الغِنَاء كضَرَبَ ونَصَرَ وسَمِعَ، وتَنَغَّمَ[٥]، انتهى.

فما نَقَلَ ابنُ الغازي عن ابنِ المرزوق: أنَّ (النِّغَمَ) في بيتِ القَصيدةِ بكسرِ النُّون، يَحتاجُ إلى نقلٍ صَريح، أو دليلٍ صَحيح.

= مرزوق مولى طلحة وهو ثقة. ورواه الترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عمر أيضاً بلفظ: «إِنَّ اللهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي ـ أو قال: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ـ على ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللهِ مع الجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إلى النَّارِ»، قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجهِ. وله شاهد رواه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس رضِيَ اللهُ عنه.

(١) في «د»: «هذا والطرب».

(٢) رواه البخاري (٢٩٤٢) من حديث سهل بن سعد رضِيَ اللهُ عنه، وفيه: أن النبي ﷺ قال لعلي رضِيَ اللهُ عنه في فتح خيبر: «فَوَاللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».

(٣) الرجز في «جمهرة اللغة» (٢/ ١٠٤٧)، و«دلائل الإعجاز» (ص ٢١٢).

(٤) في «د»: «هذا وفي».

(٥) انظر: «القاموس» (مادة: نغم).

والجامِعُ بينَ تَرْنيحِ الأغصان، وتفريحِ الـهَيَجان: إيصالُ طائفةٍ مِن النَّباتِ وجماعةٍ مِن الحيواناتِ إلى ظهورِ جمالِهما وحُصولِ كمالِهما، وفيهِ تنبيهٌ نبيهٌ على أنَّ الصَّلاةَ عليه مُوْجِبةٌ لجمالِ الـمُصَلِّي وكَمَالِه، ومُقْتضيَةٌ لطَرَبِ حالِهِ وحُسْنِ مَآلِه.

وصلَّى اللهُ على رسولِنا محمدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أَجْمَعين، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين[1].

قال مؤلِّفُه: فَرَغَ في أوائلِ شهرِ صَفَر، خُتِمَ بالخيرِ والظَّفَر، عامَ ستٍّ بعدَ الألْفِ مِن هجرةِ سيِّدِ البَشَر، في مكَّةَ المكرَّمَة، قُبالةَ الكعبةِ المعظَّمَة، زادَها اللهُ تعالى شرفاً[2] وكرامة، وبِرًّا ومَهَابة.

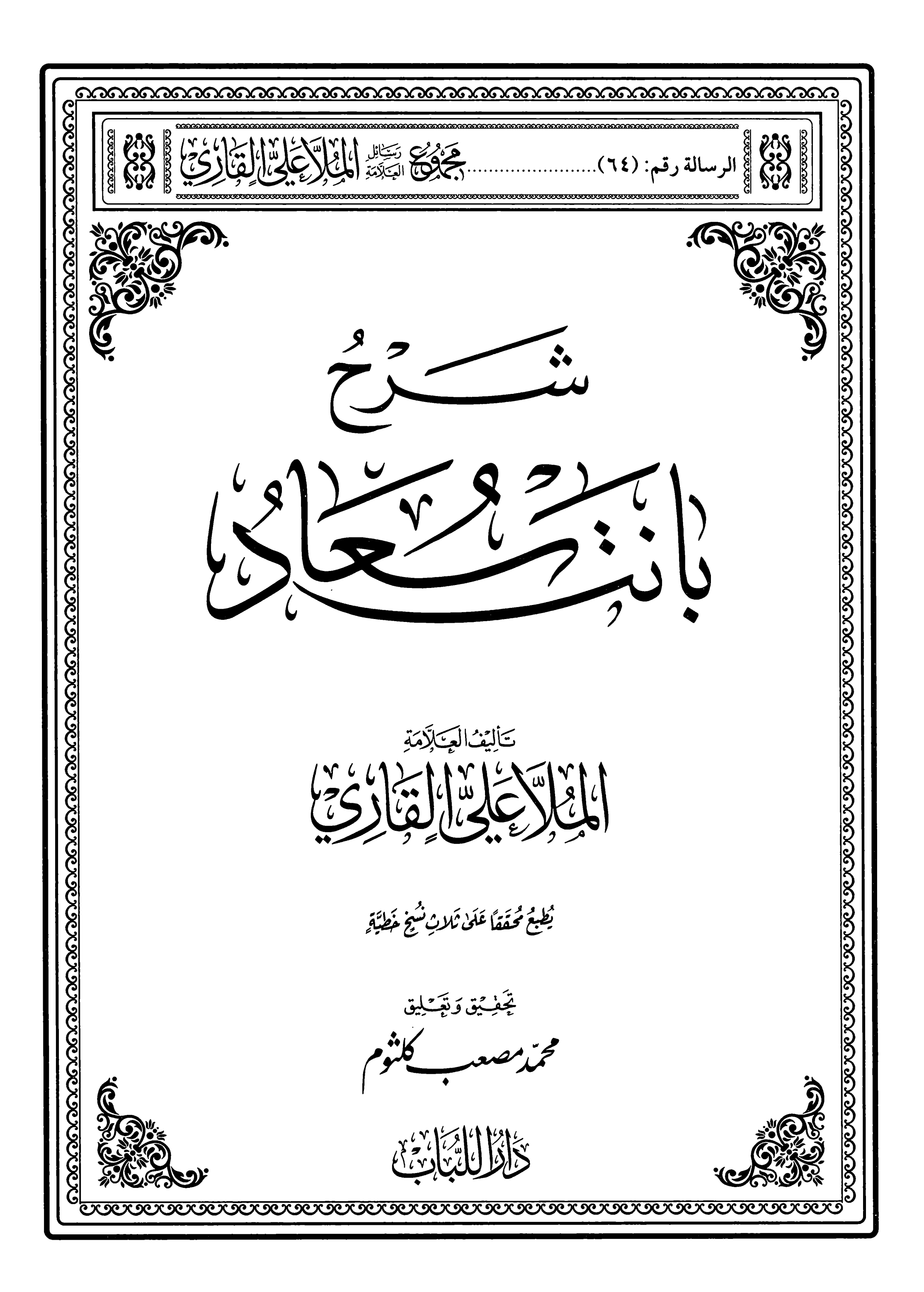
والبيتانِ المشهورانِ في ذكرِ الآلِ والصَّحابةِ مُلْحَقانِ بالقصيدةِ، وليسا مِن كلامِ النَّاظِمِ، ولِذَا ما نَظَمْناهُ في سِلْكِ الشَّرحِ، فلا يَتوهَّمْ خِلَافَ ذلك الواهِمُ.

***

---

(١) في «ل»: «وصلى الله وسلم عليه وعلى آله وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين». وفي الهامش: «بلغ مقابلة وتصحيحاً (٢٤) جمادى الأولى، سنة (١٠٦٥هـ) على يد أفقر الورى: محمد بن أبي أحمد عفي عنهما». وجاء في «د»: «تَـمَّتِ الأوراقُ بعونِ الملِكِ الرَّزَّاق، على يدِ العبدِ الـمُشْتاق، إلى رؤيةِ ربِّه الخَلَّاق، السيِّدِ عليٍّ غَفَرَ اللهُ لهُ ولوالدَيْهِ، ولسائرِ المؤمنينَ والمؤمنات، والمسلمينَ والمسلمات، سنةَ أربعٍ وستِّين ومئةٍ وألفٍ».

(٢) جاء بعده في «د»: وإحسانه، آمين بحرمة قرآن العظيم يا رحمن يا رحيم، بحرمة عرش العظيم، آمين يا معين».



مجموع رسائل العلامة الملا علي القاري .... الرسالة رقم: (٦٤)

شرح بانت سعاد

تأليف العلامة

الملا علي القاري

يطبع محققاً على ثلاث نسخ خطية

تحقيق وتعليق

محمد مصعب كلثوم

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق السعدا من العباد، وجعل منهم الاشقيا كما اراد
بمقتضى نعوت الجمالية، وبموجب صفاته الجلالية، والصلاة والسلام
على سيد السادات، ومنبع السعادات، وعلى من سعد بقربه وصحبته
وخدمته ومتابعته من امته اصحاب الكمالات، وارباب الهمم العاليات
اما بعد فيقول المفتقر الى رحمة ربه الغني الباري علي بن سلطان محمد
القاري عامله الله بلطفه الخفي وكرمه الوفي هذا شرح لطيف
وفتح شريف لحل بعض مشكلات القصيدة الشهيرة ببانت سعاد من
منظومات كعب بن زهير بن ابي سلمى الذي هداه الله الى سبيل الرشاد
وتشرف بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وعرض
قصيدته على سامعه الشريفة وحصل له النكات اللطيفة والصلاة
المنيفة فاحببت ان اخدم تلك القصيدة السعيدة ببيان بعض ما فيها
من المقاصد الحميدة لاكون من جملة خدمة المادحين في المراصد
العديدة ولقد احسن من قال من ارباب الحال،

ما ان مدحت محمدا بمدحتي ولكن مدحت مدحتي بمحمد

وقال آخر من الفضلاء

جحود فضيلة الشعر أعجب ونفخم المديح من الرشاد
محت بانت سعاد ذنوب كعب واعلت كعبه في كل ناد
وما افتقر النبي الى قصيد مشببة ببانت من سعاد
ولكن سن اسداء الايادي وكان الى المكارم خير هاد

قال ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب لاحوال الاصحاب ان كعب ابن
زهير كان شاعرا مجيدا مكثرا مقدما في طبقته هو واخوه بجير وهو
بضم الموحدة وفتح الجيم وسكون التحتية فراو كعب اشعرهما وابوهما
زهير فوقهما واشهرهما ولكعب ابنان شاعران جليلان احدهما
عقبة والاخر العوام ما كان لهما نظير بين الخواص والعوام وقد قدم
كعب بن زهير على النبي صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من الطائف
ورجوع الوافدين اليه من الطوائف فانشده قصيدته اليتي اولها
بانت سعاد باسرها واثنى على المهاجرين ولم يذكر الانصار فيها
فكلمه الانصار في ذلك فصنع فيهم شعرا هنالك ولا اعلم له صحبة
ورواية غير هذا الخبر وكان من بني مزينة لكنه سكن بين بني غطفان
كما في الاثر واخرج الحاكم في المستدرك وصححه البيهقي في دلائل النبوة
باسانيدهما ان كعبا واخاه بجيرا خرجا حتى اتيا ابرق العزاف فقال
بجير لكعب اثبت في هذا المكان حتى آتي هذا الرجل العجيب الشان
يعني النبي صلى الله عليه وسلم فاسمع ما يقول فجاء واسلم فبلغ ذلك
كعبا فقال

الا ابلغا عني بجيرا رسالة على اي شيء ويب غيرك دلكا
على خلق لم تلف اما ولا ابا عليه ولم تدرك عليه اخا لكا

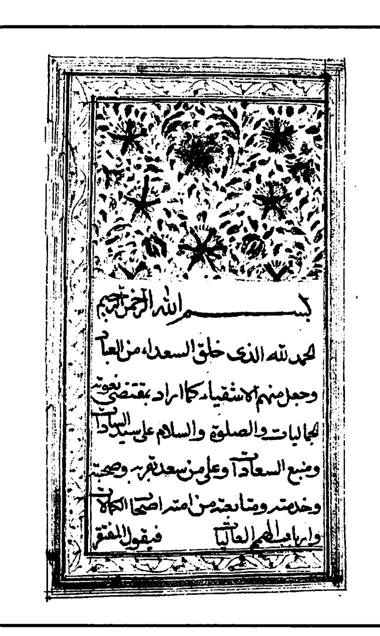
روي انه عليه الصلوة والسلام لما سمع هذا الكلام قال اجل لم يلف
عليه اباه ولا امه، وفي رواية

شربت بكاس عند آل محمد وانهلك المامون منها وعلكا

فلما بلغ الابيات اليه صلى الله عليه وسلم اهدر دمه وقال من لقي
كعبا فليقتله فكتب بذلك بجير الى اخيه وقال اعلم ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا ياتيه احد يشهد ان لا اله الا الله الا قبل ذلك
وكتب اليه يخوفه ويدعوه الى الاسلام بقوله

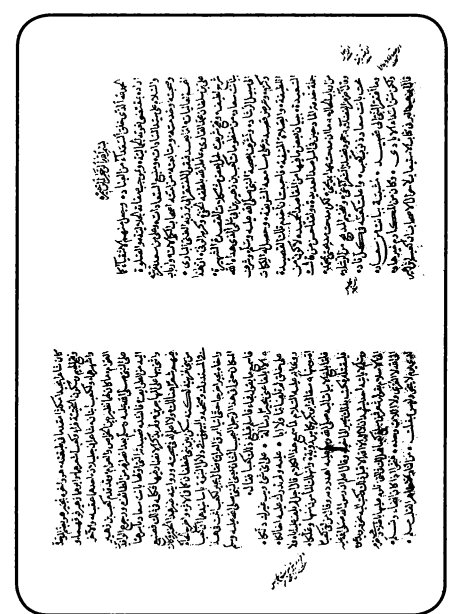
فمن مبلغ كعبا فهل لك في التي تلوم عليها باطلا وهي احزم
الى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجو اذا كانت النجاة وتسلم

المكتبة السليمانية (س)

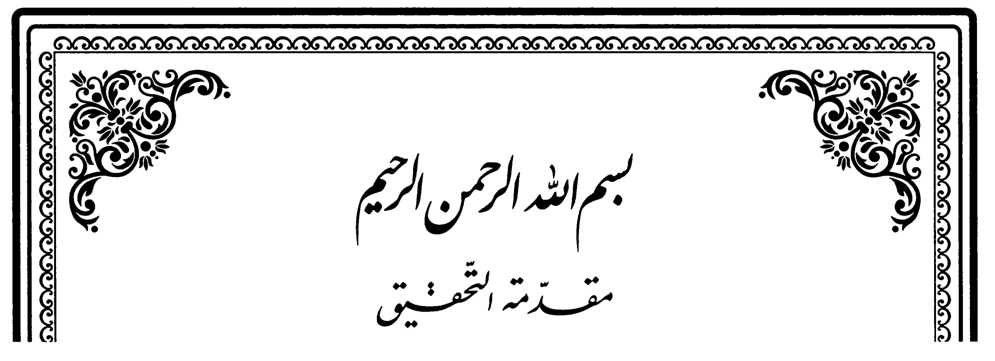


بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي خلق السعداء من العباد
وجعل منهم الاشقياء كما اراد بمقتضى نعوت
الجماليات والصلوة والسلام على سيد السادات
ومنبع السعادات وعلى من سعد بقربه وصحبته
وخدمته ومتابعته من امته اصحاب الكمالات
وارباب الهمم العاليات فيقول المفتقر

مكتبة جامعة أم القرى (ج)



مكتبة ولي الدين أفندي (و)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمدُ للهِ الذي شرَّفَ مقدارَ مَنْ أرادَ منَ العِبادِ، فأنقذهُم مِن عبادةِ العِبادِ إلى عبادةِ خالقِ العِبادِ، فأنطقَ كعباً بذكرِ سُعاد، تفاؤلاً بها ففازَ بالقُربِ والإسعادِ، فكانَ من أسعدِ العِبادِ، بصحبةِ سيِّدِ العَبيدِ والأسْيادِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ بيدِهِ الإشقاءُ والإسعادُ، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمداً عبدُه ورسولُه مَن قامَ يدعو إلى الهُدى والرَّشادِ، فكانَ رحمةً لجميعِ العِبادِ.

وبعدُ:

فهذا شرحٌ لطيفٌ مُنيفٌ، للقَصيدةِ السَّعيدةِ الشهيرةِ بـ(بانتْ سُعَادُ)، لكعبِ بنِ زُهيرِ بنِ أبي سُلْمَى رضي الله عنه، الذي هداهُ اللهُ إلى سبيلِ الرَّشادِ، فتشرَّفَ بصُحبةِ النبيِّ ﷺ هادِي العبادِ، فتفجرتْ قريحتُه بهذهِ القَصيدةِ، وهو من فُحولِ الشُّعراءِ المُخَضرمينَ، فأبدى فيها اعتذارَه، بعدَ أنَّ مدحَ الرَّسولَ ﷺ، بأسلوبٍ راقٍ ورائقٍ ومُتألِّقٍ، فقبِلَ النبيُّ عُذرَهُ، وألقى إليهِ بُردتَهُ الشريفةَ، فطارَ صِيتُ هذهِ القصيدةِ السعيدةِ في الآفاق؛ فنالتْ من العُلماء كُلَّ العنايةِ والاعتناءِ، لِمَا حوتهُ من علومِ العربيةِ، من البلاغةِ في التصويرِ الفنيِّ الإبداعيِّ التخييليِّ، والمجازاتِ والتشبيهاتِ والاستعاراتِ، فاشتَهَرتْ هذهِ القصيدةُ باسم:

«بانتْ سُعَادُ»

فجاءَ الشُّعراءُ مِن بعدهِ يَنظمونَ على مِنوالِه، حتى ذُكرَ أنَّ بُندارَ الأصفهانيَّ كانَ يحفظُ تسعَ مئةِ قَصِيدةٍ، أولُ كلِّ قصيدةٍ منها: بانتْ سُعَادُ. بل إنَّ بعضَ الشُّعراءِ جاءَ فعارَضَها، فقامَ بتخمِيسها وتسبيعها.

ولما كانت القصيدةُ قد حوتْ ألفاظاً يَحتاجُ قارئُها إلى شرحِ غريبِها ومعرفةِ المُراد منها، فقد قامَ بعضُ العلماءِ بشرح ألفاظِها، وتبيينِ غريبِها، فكشفَ عن مُخْدَراتِ هذهِ القصيدةِ؛ كابنِ جَمَاعةَ، وابنِ هشامٍ الأنصاريِّ، وابنِ حجرٍ الهيتميِّ، والفاضلِ الهنديِّ بهاءِ الدِّين مُحَمَّدِ بن تَاج الدِّين الأصبهانيِّ، وإبراهيمَ الباجوريِّ، وغيرِهم.

ثم جاءَ العلَّامةُ المُلَّا عليٌّ القارِي، فأرادَ أنْ يخدمَ تلكَ القَصيدةَ السَّعيدةَ؛ ببيانِ بعضِ ما فيها من المقاصدِ الحَمِيدةِ؛ ليكونَ من جُملةِ خَدَمةِ المادحينَ في المراصدِ العديدةِ، فشرعَ بهذا الشرحِ المُباركِ، فشرحَ المُفرداتِ، وقامَ بضبطِها وإعرابِها وبيانِ جُملِها ومحلِّها، فأزالَ الإشكالَ عن غريبِ الألفاظِ، وتحرَّى في ضبطِها كلَّ التَّحرِّي، واستَشهدَ بكثيرٍ من آيِ الذِّكرِ الحَكيمِ، وأحاديثِ الرسولِ الكريمِ، وبيَّنَ ما فيها من حُسنِ المَقطعِ والمَطلعِ، وصَنعةِ تَشابُهِ الأطرافِ، وغيرِهِ من بدائعِ الأصنافِ، وما حَوتْه من الدُّررِ والنُّكتِ والفَوائدِ.

وقامَ أيضاً بعد أن شرحَ ألفاظَ القصيدةِ، ببيانِ المعنى العامِّ للبيتِ، وبيَّنَ ما فيهِ من الأساليبِ البلاغيةِ، ولم يخلُ شرحهُ من نُكَتٍ لطيفةٍ، وحِكَمٍ شَريفةٍ.

هذا، ولقدْ أشارَ العلَّامةُ القَارِي إلى ما وقعَ في هذهِ القصيدةِ من رواياتٍ واختلافاتٍ في النُّسخِ، ووجَّهَ بعضَها وبيَّنها، فالقصيدةُ مليئةٌ بالعلومِ اللُّغويَّةِ والبَلاغيَّةِ، مما يستلزِمُ على الطُّلابِ إذا أرادوا أنْ تَقوى بلاغتُهم وفصاحتُهم أن يقوموا بِحفظِها ومُطالعتِها.

فها هوَ يستنبطُ من هذهِ القصيدةِ السعيدةِ: استحبابَ سماعِ هذهِ القَصيدةِ، وتحسينَ مراتبِ مرامهِ العديدةِ، على ما فيها من لفتِ الحَضْرةِ المُصطفويةِ، ووصفِ أصحابهِ المَرْضيَّةِ، وغيرِهَا من الفضائلِ البَهيَّةِ، والشَّمائلِ السَّنِيَّةِ،

ومعرفـةِ القواعـدِ العربيـةِ، والفوائـدِ الأدبيةِ، التـي بها فاقـتْ جميعَ القَصائـدِ، ونالَ صاحبُهـا بهـا أعلـى المراتـبِ والمقاصدِ.

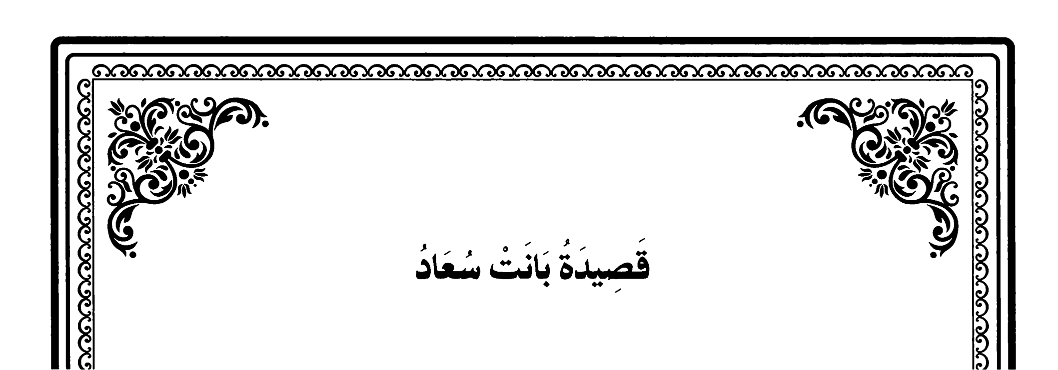
وقد اعتمَدنا في تحقيقِ هذهِ الرسالةِ على ثلاث نسخ خطية؛ الأولى نسخةُ ولي الدِّين أفندي ورمزها «و»، وهي نسخةٌ جيدةٌ كاملةٌ، والثانية: نسخة المكتبة السليمانية ورمزها «س»، والنسخةُ الثالثة نسخةُ جامعةِ أمِّ القُرى بمكةَ المكرمةِ، وهي نسخةٌ جيدةٌ مُذهَّبةٌ، إلا أنها ناقصةٌ غيرُ كاملةٍ ورمزها «ج».

هذا، وقد أثبتنا القصيدةَ كاملةً ليسهلَ الرجوعُ إليها ومطالعتُها، وحفظُها، فإنها جديرةٌ بالوقوف عليها، فهي مِنْ غُرر القصائِد والشعرِ العربي.

سائلينَ المَولى سبحانهُ وتعالى أن نكونَ قد وُفِّقنا لإخراجِ هذهِ الرسالةِ كما أرادَ المُصنِّفُ، وأنْ يتجاوزَ عمَّا وقعَ فيها من خطأٍ وزللٍ، وأنْ يجعلَنا منْ عبادِه السُّعداءِ؛ إنَّهُ عفوٌّ كريمٌ وبالإجابةِ جديرٌ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

المحقق

* * *



قَصِيدَةُ بَانَتْ سُعَادُ

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ　　مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ البَيْنِ إِذْ رَحَلَتْ　　إِلَّا أَغَنُّ غَضِيْضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً عَجْزَاءُ مُدْبِرَةً　　لَا يُشْتَكَى قِصَرٌ مِنْهَا وَلَا طُوْلُ

تَجْلُوْ عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ　　كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ

شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ　　صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهْوَ مَشْمُولُ

تَنْفِي الرِّيَاحُ القَذَى عَنْهُ وَأَفْرَطَهُ　　مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ بِيضٌ يَعَالِيلُ

أَكْرِمْ بِهَا خُلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ　　مَوْعُودَهَا أَوْ لَوَ اَنَّ النُّصْحَ مَقْبُولُ

لَكِنَّهَا خِلَّةٌ قَدْ سِيطَ مِنْ دَمِهَا　　فَجْعٌ وَوَلْعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ

فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا　　كَمَا تَلَوَّنُ فِي أَثْوابِهَا الغُولُ

وَلاَ تُمَسِّكُ بِالعَهْدِ الَّذِي زَعَمَتْ　　إِلاَّ كَمَا يُمْسِكُ الْمَاءَ الغَرَابِيلُ

فَلاَ يَغُرَّنْكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ　　إِنَّ الأَمَانِيَّ وَالأَحْلاَمَ تَضْلِيلُ

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً　　وَمَا مَواعِيدُهَا إِلاَّ الأَبَاطِيلُ

أَرْجُو وَآمُلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتُهَا　　وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكِ تَنْوِيلُ

أَمْسَتْ سُعَادُ بِأَرْضٍ لاَ يُبَلِّغُهَا　　إِلاَّ العِتَاقُ النَّجِيبَاتُ الْمَرَاسِيلُ

وَلَنْ يُبَلِّغَهَا إِلاَّ عُذَافِرَةٌ　　لَهَا عَلَى الأَيْنِ إِرْقَالٌ وَتَبْغِيلُ

مِـنْ كُلِّ نَضَّاخَـةِ الذِّفْـرَى إِذَا عَرِقَـتْ ... عُرْضَتُهَـا طَامِـسُ الأَعْـلاَمِ مَجْهُـولُ

تَرْمِـي الغُيُـوبَ بِعَيْنَـيْ مُفْـرَدٍ لَهِـقٍ ... إِذَا تَـوَقَّــدَتِ الْحِــزَّانُ وَالْـمِيــلُ

ضَـخْـمٌ مُـقَـلَّـدُهَا عَـبْلٌ مُـقَـيَّـدُهَا ... فِـي خَلْقِهَا عَنْ بَنَـاتِ الفَحْـلِ تَفْضِيلُ

غَلْبَـاءُ وَجْنَـاءُ عُلْكُـومٌ مُذَكَّـرَةٌ ... فِـي دَفِّهَـا سَـعَةٌ قُدَّامَهَـا مِيـلُ

وَجِلْدُهَـا مِـنْ أَطُـومٍ لاَ يُؤَيِّسُـهُ ... طِلْـحٌ بِضَاحِيَـةِ الْمَتْنَيْـنِ مَهْـزُولُ

حَـرْفٌ أَخُوهَـا أَبُوهَـا مِـنْ مُهَجَّنَـةٍ ... وَعَمُّهَـا خَالُهَـا قَـوْدَاءُ شِـمْلِيلُ

يَمْشِـي القُـرَادُ عَلَيْهَـا ثُـمَّ يُزْلِقُـهُ ... مِنْهَـا لَبَـانٌ وَأَقْـرَابٌ زَهَالِيـلُ

عَيْرَانَـةٌ قُذِفَـتْ بِالنَّحْـضِ عَـنْ عُـرُضٍ ... مِرْفَقُهَـا عَـنْ بَنَـاتِ الـزَّوْرِ مَفْتُـولُ

كَأَنَّــمَا فَـاتَ عَيْـنَيْـهَا وَمَـذْبَـحَهَـا ... مِـنْ خَطْمِهَـا وَمِـنَ اللَّحْيَيْـنِ بِرْطِيـلُ

تُمِـرُّ مِثْـلَ عَسِـيبِ النَّخْـلِ ذَا خُصَـلٍ ... فِـي غَـارِزٍ لَـمْ تَخَوَّنْـهُ الأَحَالِيـلُ

قَنْـوَاءُ فِـي حُرَّتَيْهَـا لِلبَصِيـرِ بِهَـا ... عِتْـقٌ مُبِيـنٌ وَفِـي الْخَدَّيْـنِ تَسْـهِيلُ

تُخْـدِي عَلَـى يَسَـرَاتٍ وَهْـيَ لاَحِقَـةٌ ... ذَوَابِـلٌ مَسُّـهُنَّ الأَرْضَ تَحْلِيـلُ

سُـمْرُ العُجَايَـاتِ يَتْرُكْـنَ الْحَصَى زِيَمًا ... لَـمْ يَـقِـهِـنَّ رُؤُوسَ الأُكْـمِ تَـنْعِيـلُ

كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَـا إِذَا عَرِقَـتْ ... وَقَـدْ تَلَفَّـعَ بِالقُـورِ العَسَـاقِيلُ

يَوْمـاً يَظَـلُّ بِـهِ الْحِرْبَـاءُ مُصْطَخِـداً ... كَأَنَّ ضَاحِيَـهُ بِالشَّـمْسِ مَمْلُـولُ

وَقَــالَ لِلْـقَوْمِ حَادِيهِـمْ وَقَـدْ جَعَلَـتْ ... وُرْقَ الْجَنادِبِ يَرْكُضْنَ الْحَصَى: قِيلُوا

شَـدَّ النَّهَـارِ ذِرَاعَـا عَيْطَـلٍ نَصَـفٍ ... قَامَـتْ فَجَاوَبَهَـا نُكْـدٌ مَثَاكِيـلُ

نَوَّاحَـةٌ رِخْـوَةُ الضَّبْعَيْـنِ لَيْـسَ لَهَـا ... لَمَّـا نَعَـى بِكْرَهَـا النَّاعُـونَ مَعْقُـولُ

تَفْـرِي اللَّبَـانَ بِكَفَّيْهـا وَمِدْرَعُهـا ... مُشَـقَّقٌ عَـنْ تَرَاقِيهَـا رَعَابِيـلُ

يَسْعَى الوُشَاةُ جَنابَيْهَا وَقَوْلُهُمُ ... إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ آمُلُهُ ... لاَ أُلْفِيَنَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ

فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لاَ أَبَا لَكُمُ ... فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمنُ مَفْعُولُ

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلاَمَتُهُ ... يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي ... وَالعَفْوُ عَنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

فَقَدْ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ مُعْتَذِراً ... وَالعُذْرُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَقْبُولُ

مَهْلاً هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْـ ... ـقُرْآنِ فِيْهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ

لاَ تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الوُشَاةِ وَلَمْ ... أُذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِيَّ الأَقَاوِيلُ

لَقَدْ أَقُومُ مَقَاماً لَوْ يَقُومُ بِهِ ... أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَمْ يَسْمَعِ الفِيلُ

لَظَلَّ يُرْعَدُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ... مِنَ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللهِ تَنْوِيلُ

حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي لاَ أُنَازِعُهُ ... فِي كَفِّ ذِيْ نَقِمَاتٍ قِيلُهُ القِيلُ

لَذَاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذْ أُكَلِّمُهُ ... وَقِيلَ إِنَّكَ مَنسُوبٌ وَمَسْؤُولُ

مِنْ خَادِرٍ مِنْ لُيُوثِ الأُسْدِ مَسْكَنُهُ ... مِنْ بَطْنِ عَثَّرَ غِيلٌ دُونَهُ غِيلُ

يَغْدُو فَيُلْحِمُ ضِرْغَامَيْنِ عَيْشُهُمَا ... لَحْمٌ مِنَ القَوْمِ مَعْفُورٌ خَرَادِيلُ

إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنًا لاَ يَحِلُّ لَهُ ... أَنْ يَتْرُكَ القِرْنَ إِلاَّ وَهْوَ مَفْلُولُ

مِنْهُ تَظَلُّ سِبَاعُ الْجَوِّ ضَامِزَةً ... وَلاَ تُمَشَّى بِوَادِيهِ الأَرَاجِيلُ

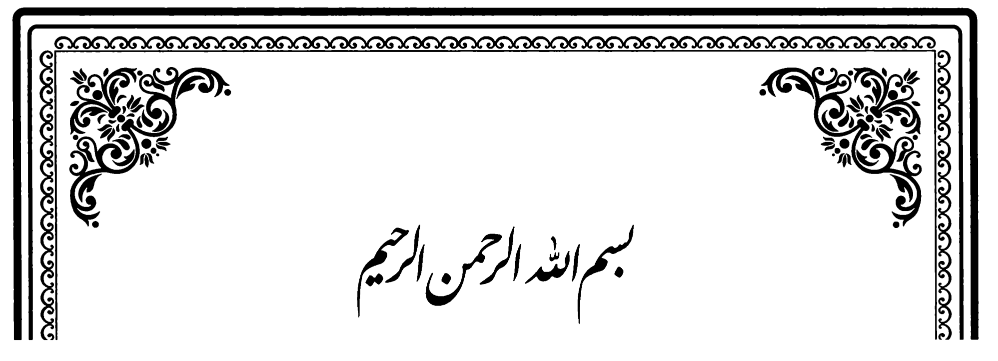
وَلاَ يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخُو ثِقَةٍ ... مُطَرَّحُ البَزِّ وَالدِّرْسَانِ مَأْكُولُ

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا: زُولُوا

زَالُـوا فَمَـا زَالَ أَنْـكَاسٌ وَلاَ كُشُـفٌ   عِنْـدَ اللِّقَـاءِ وَلاَ مِيـلٌ مَعَازِيـلُ
شُـمُّ الـعَـرَانِيـنِ أَبْطَـالٌ لَبُوسُـهُمُ   مِـنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِـي الْهَيْجَـا سَـرَابِيلُ
بِيـضٌ سَـوَابِغُ قَـدْ شُـكَّتْ لَهَـا حَلَـقٌ   كَأَنَّهَـا حَلَـقُ القَفْعَـاءِ مَجْـدُولُ
لاَ يَفْرَحُـونَ إِذَا نَالَـتْ رِمَاحُهُـمُ   قَوْمـاً وَلَيْسُـوا مَجَازِيعًـا إِذَا نِيلُـوا
يَمْشُونَ مَشْـيَ الْجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ   ضَـرْبٌ إِذَا عَـرَّدَ السُّـودُ التَّنَابِيـلُ
لاَ يَـقَـعُ الـطَّـعْـنُ إِلاَّ فِـي نُحُورِهِـمُ   وَمَـا لَهُـمْ عَـنْ حِيَـاضِ الْمَـوْتِ تَهْلِيلُ

***



بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ الذي خَلَقَ السُّعداءَ مِن العِبَاد، وجَعَلَ منهُم الأشقياءَ كما أراد، بمقتضَى نُعوتهِ الجَمَاليَّة، وبمَوْجِبِ صِفاتهِ الجَلَاليَّة، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ السَّادات، ومَنْبعِ السَّعَادات، وعلى مَن سَعِدَ بقُربتهِ وصُحْبتهِ وخِدْمتهِ ومُتابَعَتهِ مِن أمَّتهِ، أصحابِ الكَمَالاتِ، وأربابِ الهِمَمِ العالِيَات.

أمَّا بعدُ:

فيقولُ المفتقِرُ إلى بِرِّ ربِّه الغنيِّ البارِي، عليُّ بنُ سلطانِ محمدٍ القارِيْ، عامَلَهُ اللهُ بلُطْفهِ الخَفِيّ، وكَرَمهِ الوَفِيّ: إنَّ هذا شرحٌ لطيفٌ وفتحٌ شريفٌ؛ لحلِّ بعضِ مُشكِلاتِ القصيدةِ الشَّهيرةِ بـ: «بانت سعاد» مِن مَنْظوماتِ كعبِ بنِ زُهيرِ بنِ أبي سُلْمَى، الذي هَدَاهُ اللهُ إلى سبيلِ الرَّشادِ، وتَشَرَّفَ بصُحبةِ النَّبيِّ ﷺ، وشَرَّفَ وكَرَّم، وعَرَضَ قصيدتَهُ على مَسَامِعِهِ الشَّريفة، وحَصَلَ لهُ النُّكاتُ اللَّطيفَة، والصِّلاتُ المُنِيفَة، فأَحْبَبْتُ أنْ أخدُمَ تلكَ القَصيدةَ السَّعيدة، ببيانِ بعضِ ما فيها مِن المقاصِدِ الحَمِيدة؛ لأكونَ مِن جُملةِ خَدَمةِ المادِحِينَ في المَراصِدِ العَدِيدة، ولقد أَحْسَنَ مَن قال مِن أربابِ الحال:

ما إنْ مَدَحْتُ محمَّداً بمَدِيحَتي ... لكنْ مَدَحْتُ مَدِيحَتي بمحمَّدِ

وقال آخَرُ مِن الفُضَلاء[1]:

---

(١) هو أبو إسحاق الغزي كما في «أبجد العلوم» للقنوجي (١/ ٣٣٧).

جُحُـودُ فضيلـةِ الشُّـعراءِ غـيٌّ ... وتَفْخيـمُ المديـحِ مِـن الرَّشـادِ
مَحَتْ بانَـتْ سـعادُ ذنـوبَ كَعْـبٍ ... وأَعْـلَتْ كَـعْبَـهُ فـي كـلِّ نـادِ
ومـا افْتَقَـرَ النَّبـيُّ إلـى قَصيـدٍ ... مُشَـبَّبَةٍ ببانَـتْ[1] مِـن سُـعادِ
ولكـنْ سَـنَّ إسْـداءَ[2] الأَيـادي ... وكانَ إلـى[3] المـكارِمِ خيـرَ هـادِ

قـال ابـنُ عبدِ البَـرِّ فـي كتـاب «الاسْـتِيْعاب لأَحْـوالِ الأَصْحـابِ»: إنَّ كعبَ ابـنَ زُهيـرٍ كانَ شـاعراً مُجِيـداً[4] مُكْثِـراً مُقدَّمـاً فـي طبقتـهِ هـو وأخـوهُ بُجيـرٌ، وهو بضـمِّ الموحَّـدةِ وفتـحِ الجيـمِ وسـكونِ التَّحْتيَّةِ فـراءٍ، وكعـبٌ أشـعَرُهما، وأبوهُما زهيـرٌ فوقَهُمـا وأَشـهَرُهما، ولكعبٍ ابنانِ شـاعِرانِ جَليـلانِ؛ أحدُهما عُقبـةُ والآخَرُ العَـوَّامُ، مـا كان لهما نَظيـرٌ بيـنَ الخَـوَاصِّ والعَوَامِّ.

وقـد قَـدِمَ كعبُ بنُ زُهيـرٍ على النَّبـيِّ ﷺ بعـدَ انْصِرافهِ مِن الطَّائـف، ورجوعِ الوافِدِيـنَ إليـهِ مِـن الطَّوائـف، فأَنْشـدَهُ قصيدتَهُ التـي أوَّلُها: «بانَتْ سُـعادُ» بأسـرِها، وأَثْنَـى بهـا علـى الـمُهاجِرينَ ولَـمْ يَذْكُرِ الأنصـارَ فيهـا، فكلَّمهُ الأنصـار في ذلك، فصَنَـعَ فيهم شـعراً هنالك.

ولا أعلمُ له في صُحبتهِ وروايتهِ غيرَ هذا الخبرِ[5].

وكان من بني مُزينةَ، لكنَّهُ سكنَ بين بني غَطفانَ، كما في الأثرِ.

وأخـرج الحاكـمُ فـي «المسـتدرك» وصحَّحـهُ، والبيهقيُّ فـي «دلائـل النبوة»

---

(١) في «أبجد العلوم»: «ببين».

(٢) أي: إيصالها وإبداءها.

(٣) في «و»: «من»، والمثبت من «س»، وهو الصواب.

(٤) في مطبوع «الاستيعاب»: «مجوداً».

(٥) انظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٢/ ١٣١٣).

بأسانيدهما: أن كعباً وأخاه بُجَيراً خرجا حتَّى أَتَيَا أبرقَ العزَّاف[1]، فقال بُجيرٌ لكعبٍ: اُثبتْ في هذا المكانِ حتى آتيَ هذا الرجلَ العجيبَ الشأنِ ـ يعني: النبيَّ ﷺ ـ فأسمعَ ما يقولُ، فجاءَ[2] فأسلمَ، فبلغَ ذلكَ كعباً، فقالَ:

أَلَا أَبْلِغَا عنِّي بُجَيراً رسالةً ... على أيِّ شيءٍ ويْبَ غيْركَ دَلَّكَا

على خُلُقٍ لمْ تُلفِ أُمَّاً ولا أباً ... عليهِ ولم تُدرِكْ عليه عليهِ أخاً لَكَا

رُويَ أنه عليهِ السَّلامُ لمَّا سمعَ هذا الكلامَ، قالَ: «أجلْ لم يُلفِ عليهِ أبَاهُ ولا أمَّهُ».

ومنهَا:

سقاكَ أبُو بكرٍ بكأسٍ رويَّةً

وفي روايةٍ:

شَربتَ بكأسٍ عندَ آلِ محمدٍ ... وأَنْهلكَ المأمونُ منها وعلَّكَا

فلمَّا بلغَتِ الأبياتُ إليهِ صلَّى الله وسلَّم عليهِ أهدرَ دمَهُ، وقال: مَن لقِيَ كعباً، فلْيقتلهُ، فكتبَ بذلك بُجيرٌ إلى أخيهِ، وقالَ: اعلمْ أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يأتيهِ أحدٌ يشهدُ أن لا إلهَ إلا الله إلا قبلَ ذلكَ، وكتبَ إليهِ يُخوِّفهُ ويدعوهُ إلى الإسلامِ بقولهِ:

---

(١) أَبرقُ العَزّافِ: ماءٌ لبَنِي أَسَد بنِ خُزَيمةَ بن مُدْركةَ مَشهُورٌ، لهُ ذِكرٌ في أَخبارِهِم، وَهُوَ فِي طَرِيقِ القاصِدِ إِلى المَدينةِ من البَصْرَةِ، يُجاءُ مِنْ حَومانَةِ الدَّراجِ إِليهِ، وَمِنهُ إِلى بَطْنِ نَخْلٍ، ثُم الطَّرْفِ، ثُم المدينة. وهو بينَ المدينة والرّبذة على عشرينَ ميلاً منها. وفي رواية: على اثني عشر ميلاً، والأبارقُ في بلاد العرب كثيرةٌ، والأبرقُ لغةً: الموضعُ المرتفعُ ذو الحجارةِ والرملِ والطين، وسمّي أبرق العزّاف: لأنهم كانوا يسمعون به عزيفَ الجنِّ؛ أي: صوتهم، والله أعلم. انظر: «تاج العروس» للزبيدي (٢٤/ ١٥٥) (مادة: عزف)، و«المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» (ص ١٦). ووقع في النسختين وفي مطبوع «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ١٣١٣): «أبرق العراق»، والمثبتُ هو الصوابُ.

(٢) في «س»: «فجاءه».

فمَن مُبْلغٌ كعباً فهلْ لكَ في التي تلومُ عليهَا باطلاً وهيَ أَحْزمُ

إلى اللهِ لا العُزَّى ولا الَّلاتِ وحدَهُ فتنجُو إذا كانَ النَّجاءُ وتَسْلمُ

لدَى يومِ لا ينجو وليسَ بمُفْلتٍ من النارِ إلَّا طاهرُ القلبِ مُسلمُ

فدِينُ زهيرٍ - وهوَ لا شيءَ - باطلٌ ودينُ أبي سُلْمَى عليَّ مُحرَّمُ

فأسلمَ كعبٌ كذلكَ، وقال قصيدتَهُ: (بانتْ سُعادُ) هُنالكَ، ثم أقبلَ حتى أناخَ بباب المسجدِ، ودخلَ ورسولُ اللهِ ﷺ مكانَ المائدةِ من القومِ، يتحلَّقونَ حولهُ، يلتفتُ إلى هؤلاءِ مرةً وإلى هؤلاءِ مرةً؛ فيُحدِّثهُم، قال كعبٌ: فعرفتُ رسولَ الله ﷺ بالصِّفةِ؛ فتخطيتُ حتى جلستُ إليهِ، فأسلمتُ، وقلتُ: الأمانَ يا رسولَ اللهِ!

قال: «ومَن أنتَ؟» قلتُ: أنا كعبٌ. قال: «الذي يقولُ»، ثم التفتَ إلى أبي بكرٍ، فقال: كيفَ يا أبا بكرٍ؟ فأنشدهُ أبو بكرٍ:

سقاكَ أَبُو بكرٍ بكأسٍ رَويَّةً وأنهلكَ المأمونُ منهَا وعَلَّكَا

فقلتُ: يا رسولَ الله! ما هكذا قلتُ! قال: «كيفَ قلتَ؟» قالَ: قلتُ:

وأنهلكَ المأمولُ منهَا وعلَّكَا

فقال رسولُ الله ﷺ: «مأمولٌ[1] واللهِ»، ثم أنشدَ القصيدةَ كلَّها، وساقَ الحاكمُ القصيدةَ بتمامها[2].

وقال محمدُ بنُ سلامٍ في «طبقات الشعراء» بسندهِ عن سعيدِ بن المسيِّبِ قال: قَدِمَ كعبٌ مُتنكِّراً حين بلغهُ عن رسولِ الله ﷺ أنه أَوْعَدهُ، فأتى أبا بكرٍ، فلمَّا صلَّى

(١) في «س»: «مأمون».

(٢) رواها الحاكم (٦٤٧٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٠٧) من حديث عبد الرحمن بن كعب بن زهير.

الصُّبحَ أتاه وهو مُتَلَثِّمٌ بعِمامتِهِ، فقال: يا رسولَ الله! رجلٌ يبايعُكَ على الإسلامِ، وبسطَ يدهُ وحسرَ عن وجههِ، فقالَ: بأبي وأمِّي أنتَ يا رسولَ الله! هذا مكانُ العائذِ بكَ، أنا كعبُ بنُ زهيرٍ، فأمَّنَهُ رسولُ الله ﷺ، فأنشدهُ مِدْحتَهُ التي يقولُ فيها: بانتْ سُعادُ فقلبي اليومَ متبولُ، حتى أتى على آخِرِها، فكساهُ رسولُ الله ﷺ بُردةً، اشْتَرَاها معاويةُ بمالٍ كثيرٍ؛ فهي البردةُ التي يَلْبَسها الخلفاءُ في العيدينِ [١].

وقد ذكرَ التِّبريزيُّ في «طبقات النحاة»: أن بُندارَ الأصفهانيَّ كان يحفظُ تسعَ مئةِ قصيدةٍ، أولُ كلِّ قصيدةٍ منها: بانتْ سُعادُ [٢].

وذكرَ السيوطيُّ منها عشرةً؛ منها: قولُ زهيرٍ والدِ كعبٍ:

بانتْ سُعَادُ وأمسَى حَبْلُهَا انقطعَا ... وليتَ وصْلاً لنَا مِن حَبْلهَا رجَعَا [٣]

وأخرجَ الحاكمُ والبيهقيُّ والزبيرُ بنُ بكَّارٍ في «أخبار المدينة» من طريق عليِّ بنِ زيدِ ابنِ جُدْعانَ، قال: أنشدَ كعبُ بنُ زُهيرٍ رسولَ الله ﷺ في المسجدِ: بانتْ سُعَادُ [٤].

وأخرجه في «الأغاني» بلفظِ: في المسجدِ الحرامِ [٥]، لا مسجدِ المدينةِ.

ثم اعلمْ: أنَّ أولَ شيءٍ احتوتْ عليه هذه القصيدةُ المباركةُ النسيبُ [٦]، وهو مشتمِلٌ على أربعةِ أنواعٍ من التركيبِ.

---

(١) انظر: «طبقات فحول الشعراء» (١/ ١٠٣). وقوله: (فهي البردةُ التي يلبسها الخلفاءُ في العيدينِ) قال ابن سلام: زعم ذلك أبان.

(٢) انظر: «طبقات النحويين واللغويين» (ص: ٢٠٨).

(٣) انظر: «شرح شواهد المغني» للسيوطي (٢/ ٥٢٩).

(٤) رواه الحاكم (٦٤٧٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢١١)، والزُّبيرُ بن بكَّار كما في «شرح شواهد المغني» للسيوطي (٢/ ٥٢٩)، وعنه نقلَ المؤلف.

(٥) انظر: «الأغاني» (١٧/ ٩٢).

(٦) في «س»: «التشبيب».

منها: ذكرُ ما في المحبوبِ من الصفاتِ المحمودةِ؛ كحُمْرةِ الخدِّ، ورشاقةِ القدِّ.

ومنها: ما في المُحِبِّ المتبولِ[1]؛ كالنُّحولِ والذُّبولِ.

ومنها: ما يتعلَّقُ بهما من وصلٍ وهجرٍ، وشكوى وعُذْرٍ، ووفاءٍ وجفاءٍ.

ومنها: ما يتعلَّقُ بغيرهِمَا؛ كالوُشَاةِ والرُّقباءِ.

والنوعُ الأولُ يُسمَّى أيضاً تشبيباً[2].

فالآنَ آنَ أنْ نَشْرَعَ في المقصودِ بعونِ الملكِ المعبودِ:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

(**بَانَتْ**) من البَيْنِ، وهو الفِراقُ والوَصلُ؛ فهو مِن الأضدادِ، ولم يَقُلْ نحوَ: ذهبتْ وراحتْ؛ تفاؤلاً بما في (بانتْ) من ذكرِ الوَصلِ للمُشتاقِ، وتحرُّزاً عمَّا هو نصٌّ في معنى الفِراقِ.

و(**سُعَادُ**) بضمِّ أولِهِ: علمُ امرأةٍ يَهْواها في الحقيقةِ، أو ادِّعاءً في الطريقةِ.

والفاءُ في (**فَقَلْبِي**) لمحضِ السَّببيةِ لا لمجرَّدِ العَطْفيةِ، والمرادُ بالقلبِ هنا: الفؤادُ، وسمِّي قلباً لتقلُّبِهِ في هَوَى نحوِ سُعاد.

و(**اليَوْمَ**) ظرفٌ لِمَا بعدَهُ، وقُدِّمَ للحصرِ.

و(**مَتْبُولُ**) بتقديمِ الفوقيَّةِ على الموحَّدةِ، مِن تَبَلهُ الحبُّ؛ أي: أسقَمهُ

---

(١) في «و»: «المقبول».

(٢) قال أبو علي القيرواني في «العمدة في محاسن الشعر وآدابه» (٢/ ١١٧): حق النسيب أن يكون حلوَ الألفاظ رسلها، قريب المعاني سهلها، غيرَ كزٍّ ولا غامض، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهرَ المعنى، ليِّنَ الإيثار، رطبَ المكسر، شفَّاف الجوهر، يُطرب الحزين، ويستخف الرصين... والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد.

وأضناهُ وأضعفهُ، وفي نسخةٍ بتقديم الموحَّدةِ، مِن البَتْلِ بمعنى القَطْعِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]؛ أي: انْقطِعْ إليه كمالاً وتكميلاً، ومنه البَتُولُ للزهراءِ؛ لانقطاعِهَا عن[1] الدنيا بأنواعِها.

و(مُتيَّمٌ) بتشديدِ التحتيَّةِ المفتوحةِ، خبرٌ بعدَ خبرٍ، من تيَّمَهُ الحُبُّ وتامَهُ، بمعنى: استعبَدهُ وأذلَّهُ، وقيل في معناهُ: المجعولُ عبداً؛ إذِ المُحِبُّ في جَنابِ الحبيبِ كالعبدِ اللَّبيبِ في مقامِ الإطاعةِ في كلِّ ساعة، أو مُذلَّلٌ محقَّرٌ مأمورٌ مُنقادٌ؛ إذ العبوديةُ تستلزمُ ذلكَ في المعتاد.

و(إِثْرَهَا) بكسرٍ فسكونٍ، ظرفُ (مُتيَّمٌ)، أو حالٌ من ضميرِه، والأولُ أظهرُ.

والأثرُ: ما يَظهرُ في الأرضِ من أثَرِ القَدمِ؛ أي: مُتيَّمٌ وقتَ ظهورِ أثرِها، بحذفِ مُضافينِ، ولذا جازَ كونُه ظرفاً.

و(لَمْ يُفْدَ) بصيغةِ المجهولِ، من فَدَى الأسيرَ: إذا أعطاهُ فِداءً واستنقَذَهُ وخلَّصهُ، صفةُ (مُتيَّمٌ)، أو خبرٌ آخرُ لـ (قَلْبي)، وكذا (مَكْبُولُ)؛ أي: عاشقٌ مأسورٌ، ومشتاقٌ محصور، من الكَبْلِ والأسْرِ، وهو ما يُشدُّ به الأسيرُ من حبلٍ أو غيرِهِ، يقالُ: كَبَلَهُ بتخفيفِ المُوَحَّدةِ: وضعَ رِجْلَهُ في الكَبْلِ، بفتحِ الكافِ وتُكسرُ، وهو القيدُ.

والمعنى: ظهرَ بِعادُ سُعَادٍ؛ ففؤادُ العاشقِ المُشتاقِ سقيمٌ من ألمِ الفِراق، ومنقطِعٌ عن كلِّ حظٍّ ومراد، ومُتَحَيِّرٌ في عَقبِها في كلِّ واد؛ إذ لم يحصُلْ له خلاصٌ من أسرِ الرِّقِّ بين العباد.

ولا يَخْفَى حُسنُ هذا المَطلعِ من مَشرِقِ الأقوالِ، وبراعةِ الاستهلالِ، الذي يصلُحُ أن يُعدَّ منَ السِّحرِ الحلالِ.

وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ البَيْنِ إِذْ رَحَلَتْ ... إِلَّا أَغَنُّ غَضِيْضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

---

(١) في «و»: «من».

(مَا) نافيةٌ، والغَداةُ: اسمٌ لمُقَابلِ العَشيِّ، وقد يُرادُ بها مطلقُ الزمانِ، كالساعةِ واليومِ، كما هو المرادُ هنا.

و(البَيْن) مصدرُ بانَ و(أل) فيهِ لتعريفِ الحقيقةِ.

و(غَدَاةَ البَيْنِ) ظرفٌ لِمَا فُهِمَ من الكلامِ؛ أي: يُحكمُ عليهِ هذا الحكمُ التامُّ، أو قصرتِ[1] الصفةُ المذكورةُ غداةَ البينِ من الأيام، والجملةُ حالٌ من فاعلِ (بانتْ)، أو عطفٌ على الفِعليةِ، لا على الاسميَّةِ وإن كانت أقربَ وأنسبَ لكونها اسميةٌ؛ لأنَّ هذه الجملةَ لا تُشاركُ تلكَ في التسبُّبِ عن البينونةِ، والأصلُ: وما هيَ، فوَضعَ الظاهرَ موضعَ المُضمرِ استلذاذاً بتذكارِ اسمِها، وتلطُّفاً بتكرارِ وسْمِهَا، كما قيلَ:

أَعِدْ ذِكْرَ نَعْمانٍ لنَا إِنَّ ذِكْرَهُ ... هُوَ المِسْكُ مَا كَرَّرْتَهُ يَتَضَوَّعُ[2]

وفي الحديثِ: «منْ أحبَّ شيئاً أكثرَ من ذِكْرِهُ»[3].

وقدْ قالَ تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وورد: «أكثِروا ذكرَ اللهِ حتى يقولُوا: مجنونٌ»[4].

وحسَّنهُ الفصلُ بالجُمَلِ، وكونُه في بيتٍ آخرَ من المحلِّ.

وقولُه: (إِذْ رَحَلَتْ) بدلٌ من (الغَدَاة) بدلَ الكلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [مريم: ٣٩]، وفي نسخةٍ: (إذ رحلوا) بصيغةِ الجمعِ باعتبارِ أنها

---

(١) في «و»: «واقتصرت»، مكان: «أو قصرت»، والمثبت من «س».

(٢) البيت، أورده الزبيدي في «تاج العروس» (٢١/ ٤٢٩) مادة (ضوع).

(٣) رواه أبو نعيم، والديلمي من حديث مقاتل بن حيان عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة به مرفوعاً، كما في «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص ٦١٩).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٦٨)، وأبو يعلى في «المسند» (١٣٧٦)، والحاكم في «المستدرك» (١٨٣٩) من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وإسناده ضعيف لضعف دراج ـ وهو ابن سمعان ـ في روايته عن أبي الهيثم وهو سليمان بن عمرو العتواري.

رحلتْ مع قومها، أو بإرادةِ تعظيمِها، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ [طه: ١٠].

و(**الأغنُّ**): مَن في صوتِهِ غُنَّةٌ، وهي صوتٌ لذيذٌ يخرجُ من أقصى الأنفِ يُشبَّهُ به صوتُ الرياحِ المؤتلِفةِ في الأشجارِ المُلتفَّةِ، وهو صفةُ محذوفٍ؛ أي: إلا إنسانٌ أو غزالٌ أغنُّ، لا خبرٌ حتى يَرِدَ أنَّه غيرُ مطابقٍ للمبتدأ في التأنيثِ.

وقولُه: (**غَضِيْضُ الطَّرْفِ**) بسكونِ الراءِ، هو: العينُ؛ أي: في طرْفِهِ كُسورٌ خَلْقيٌّ وفتورٌ جِبِلِّيٌّ، فَعيلٌ بمعنى مفعولٍ، وهو يحتملُ أن يُرادَ به: خفضُ العينِ، فإنَّ ذلكَ نفسَهُ من صفاتِ الحُسنِ؛ أي: أنها عفيفةٌ لا تنظرُ إلى أحدٍ كغيرِ العَفيفةِ من النِّساءِ، بل عينُها عن عينِ الأجانبِ كَليلةٌ غيرُ حَديدةٍ، أو هوَ كنايةٌ عن شدَّةِ الحياءِ؛ فإنه مِن لَوَازمِها، أو عن تحمُّلِ مساوئِ الرُّقباءِ وتجاهلِ أحوالِهم، وتركِ النظرِ إلى أعمالهم.

و(**مَكْحُولُ**) إمَّا من الكُحْلِ بالضمِّ، أو منَ الكَحَل بفتحتين، وهو: الذي يعلُو جفونَ عينهِ سوادٌ من غيرِ اكتحالٍ.

والمعنى: وليستْ سُعادُ في غَداةِ بِعاد، حينَ ارتحالها إلى زادِ مَعادٍ، إلا كظبيٍ أغنَّ في مَقامِ التَّغنِّي وحالِ التَّغنِّي، غيرَ مُلتفتٍ إلى غيرِها في سلوكِها وسيرِها، مُستَحْيِيةً من حالها الواقعةِ في شرِّها وخيرِها ونفعِها وضرِّها، مُستغنيةً بما أعطاها اللهُ من جمالِ عينِها وكمالِ زَينِها، المُبرَّأةِ عن عَيبِها وشَينِها.

وحاصلُ البيتينِ: أنَّ الأولَ يُشيرُ إلى كمالِ احتياجِ المُحبِّ إلى المحبوبِ، والثاني يومئُ إلى كمالِ استغناءِ المحبوبِ عن المُحبِّ في مقامِ المطلوب، كما يُشيرُ إليهِ قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]؛ أي: المفتقِرون إلى إيجادهِ أولاً، وإلى إمدادهِ ثانياً، ويومئ إليه[1] قوله عليه السلامُ: «اللَّهُمَّ لا تكِلني إلى نفسِي

---

(١) في «و»: «إلى».

طرفةَ عينٍ؛ فإنَّكَ إن تَكِلْني إلى نفسِي تَكِلني إلى ضَعْفٍ وعورةٍ وذنبٍ وخطيئةٍ»[(١)].

هَيْفَـاءُ مُقْبِلَـةً عَجْـزَاءُ مُدْبِـرَةً لَا يُشْـتَكَى قِصَـرٌ مِنْهَـا وَلَا طُـوْلُ

أي: سُعَادُ دَقيقةُ الوَسَطِ، والمعنى: يُحكمُ عليها بكذا حالَ كونِها مُقبلةً، وهي عَجْزاءُ؛ أي: عظيمةُ العَجُزِ ـ وهو: مؤخَّرُ الشيءِ ـ حالَ كونِها مُدْبرةً، والجملةُ استئنافيةٌ مقرِّرةٌ، كأنه قيلَ: هل لها صفاتٌ غيرُ ذلك؟ فإنْ كانت لها هنالكَ فاذكرهَا بكمالاتِها؛ فإنِّي مشتاقٌ إلى بقيَّةِ صفاتِها.

وقيَّدَ الحُكْمَ بكونِها هيفاءَ بحالِ الإقبالِ، وعجزاءَ بحالِ الإدبارِ، مع أنَّ هاتينِ النعتينِ ثابتتان[(٢)] لها في جميعِ الأحوالِ والآثارِ؛ إذ ظهورُهُما في هذينِ الحالينِ أكثرُ في نظرِ الأبرارِ وأصحابِ الأسرار: أمَّا الثاني فظاهرٌ على الآراءِ، وأمَّا الأولُ، فلأنه قد يَستترُ دِقَّةُ الوسطِ بلُبْسِ الثيابِ من الخلفِ دونَ الوراءِ.

وفي قولِه: (لَا يُشْتَكَى) بصيغةِ المجهولِ، وإسنادُه إلى (قِصَرٌ) مجازٌ عقليٌّ، من بابِ: سرَّتني رؤيتُكَ؛ أي: لا تَشتكِي هي بِقِصَرٍ منها ولا طُولٍ من أعضائها.

وقدَّم (منها) على (ولا طول) لرعايةِ القافيةِ.

وفي ذكرِ المُقبلةِ والمدبرةِ والقِصَرِ والطُّولِ من صنعةِ المطابقةِ ما لا يخفى على أهلِ الصَّفا.

---

(١) هذا مجموع من حديثين: الأول رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٤٤)، وأبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤١٢)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعا بلفظ: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله، لا إله الا أنت». وإسناده حسن. والباقي قطعة من حديث رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١٩١)، والحاكم في «المستدرك» (١٩٠٠)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٤٢) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه. وإسناده ضعيف لانقطاعه. انظر الكلام عليه في «المسند» (٢١٦٦٦) ط الرسالة.

(٢) في «س»: «ثابتان».

والمعنى: أن سُعادَ كلَّما تَنَقَّلَتْ[1] من وضعٍ إلى وضعٍ، ومن حالٍ إلى حالٍ، يَحكمُ الناظرُ إليها في كلِّ وضعٍ بحُسنِ طَبعٍ، وفي كلِّ حالٍ بزينِ جمالٍ؛ فإذا أقبلتْ يَحكُمُ بأنها هيفاءُ، وإذا أدبرتْ يَحكمُ بأنها عجزاءُ، لا تُعابُ بقِصَرٍ ولا تُذمُّ بطولٍ، وقِسْ على هاتينِ النعتينِ بقيةَ صفاتِها فإنها تطول.

وفيه تلويحٌ بأن كلَّ شيءٍ من المَليحِ مليحٌ، وتصريحٌ بتسليمٍ صحيح.

وهذا البيتُ غيرُ ثابتٍ في بعضِ النُّسخِ.

تَجْلُوْ عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّــهُ مُنْهَــلٌ بِالــرَّاحِ مَعْلُــولُ

الجملةُ استئنافيةٌ؛ أي: تكشفُ سُعادُ وتُوضحُ للحاضرِ والبادِ عوارضَ ثَغْرِ ذِيْ ظَلْمٍ، وهو من إضافةِ العامِّ إلى الخاصِّ؛ فإنَّ العوارضَ مطلقُ الأسنانِ لأفرادِ الإنسانِ.

والظَّلْـمُ: بفتـحِ المُعْجمَة: ماءُ الأسـنانِ وبريقُها، وقيل: رقَّتُها وشـدَّةُ بياضِها، ومنـه قولُ العارفِ ابـنِ الفارضِ:

عليـكَ بها صِرْفـاً وإنْ شِـئتَ مَزْجَها فعَدْلُـكَ عن ظَلْمِ الحبيـبِ هوَ الظُّلْمُ

وفي نسخةٍ: (ذا ظَلْم)، وهو ظاهرٌ، وكأنَّهُ[2] من بابِ الترخيمِ للضرورةِ، أو أوَّلَ (عوارضَ) بالجنسِ، وإلا كان الظاهرُ: ذاتِ ظَلْمٍ، وأمَّا القولُ بأنَّ التقديرَ: عوارضَ فَمٍ ذيْ ظَلْم، فليسَ بسديدٍ؛ إذ كونُ الفمِ ذا ماءٍ ليسَ من الصفاتِ الحميدةِ[3].

وقولُه: (**إِذَا ابْتَسَمَتْ**) متعلِّقٌ بـ (**تجلُو**) على أنَّ (إذا) لمجرَّدِ[4] معنى الوقتِ.

وقولُه: (**كَأَنَّهُ**) صفةُ (**ذي ظَلْم**).

---

(١) في «و»: «تنقلب».

(٢) في «س»: «فكأنه».

(٣) في «س»: «صفات الحميد».

(٤) في «و»: «علي إذا المجرد»، والمثبت من «س» وهو الصواب.

و(مُنْهَلٌ) اسمُ مفعولٍ، من أنهلَهُ: إذا سقاهُ نَهَلاً بفتحتين، وهو الشُّربُ الأولُ، ورُويَ بفتحِ الميمِ: اسمُ موضعٍ بمعنى مَوردِ الماءِ.

و(بِالرَّاحِ) أي: الخمرِ، متعلِّقٌ بـ(مُنْهَل)، وحَذَفَ مثلَهُ متعلِّقاً بقولِه: (معلولُ) مِن علَّهُ يَعُلُّهُ ـ بالضمِّ على القياسِ ـ ويَعِلُّهُ بالكسرِ؛ عَلَلاً بفتحتينِ أيضاً: إذا سقاهُ ثانياً، وأصلُ ذلكَ: أنَّ الإبلَ إذا شربتْ في أولِ الوِرْدِ سمِّي ذلك نَهَلاً، فإذا رُدَّتْ إلى أعْطَانها ثم سُقِيتْ الثانيةَ سُمِّيَ ذلكَ عَلَلاً.

شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ ... صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهْوَ مَشْمُولُ

(شُجَّتْ) بضمِّ الشينِ المُعْجمَةِ وتشديدِ الجيمِ؛ أي: مُزِجتْ وخُلِطتْ، والجملةُ صفةُ (الرَّاح)، أو حالٌ منها على حدِّ:

ولقدْ أمرُّ على اللئيمِ يسُبُّني[1]

ومنهُ قولُه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

والمعنى: كُسرتْ سَورتَها وخَمَدَتْ فَورَتَها.

(بِذِي شَبَمٍ) بفتحِ الشينِ المُعْجمَة والمُوحدَّة: البردُ الشَّديدُ، والحالُ السَّديد، و(من) في (مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ) بيانيَّةٌ، والإضافةُ من إضافةِ الشيءِ إلى محلَّتِه العيانيَّة، وقعَ صفةً لـ(ذِي شَبَمٍ)، أو حالاً[2] منه.

والمَحْنِيَةُ: بفتحِ فسكونٍ فكسرٍ فتحيةٍ مخفَّفةٍ: مُنعطَفُ الوادِي ومُنفرَجُهُ ومُنحَناهُ؛ فإنَّ ماءَهُ أصفى وأرقُّ، وبالمدحِ أحقُّ، فإنَّ أفضلَ مياهِ المطرِ باعتبارِ المكانِ: ما كانَ بأبطحِ مَحْنيَةٍ، وهو مسيلٌ واسعٌ فيه دُقَاقُ الحَصَى، وباعتبارِ

---

(١) صدر بيت، وتمامه: (فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لاَ يَعْنِيني)، وهو لرجل من سَلُول، كما في «الكتاب» (٣/ ٢٤)، و«شرح شواهد المغني» (١/ ٣١٠)، ولشمْرِ بن عمرٍو الحنفيِّ في «الأصمعيّات» (ص: ١٢٦).

(٢) في «و» و«س»: «حال»، والصواب المثبت.

الزمانِ: ما كان وقتَ الضُّحى، وباعتبارِ الصفاتِ القائمةِ به: ما كانَ صافياً[١] في لونِه، شَبِماً في طبعِه، وباعتبارِ ما يطرأُ عليهِ: ما هبَّت ريحُ الشَّمالِ لديهِ، كما أشارَ إليه بقولِه: (صَافٍ...) إلخ، وهو صفةُ (ماء)، وكذا ما بعدهُ مِن قولِه: (بِأَبْطَحَ) لجريانهِ على دقاقِ[٢] الحَصَى، وقوله: (أَضْحَى) لأن صفاءَ المياهِ فيه أوفى، (وَهْوَ مَشْمُولُ)؛ أي: أصابتهُ ريحُ الشَّمالِ في جميعِ الأحوالِ؛ إذ لها تأثيرٌ قويٌّ في تصفيةِ الماءِ وتبريدِه، وتجليةِ الحالِ وتسديدِه.

ولقد كانَ عليهِ السلامُ يُعجبهُ الماءُ الحلوُ الباردُ، حتى قالَ في دعائهِ: «اللَّهُمَّ اجعلْ حُبَّكَ أحبَّ إليَّ من الماءِ البارِدِ»[٣]، وكان سيِّدُنا الشَّاذليُّ يقولُ: إذا شربتُ الماءَ الحُلْوَ الباردَ أشكرُ ربِّي من وسطِ قلبِي لمُلاقاةِ حِبِّي[٤].

ولا يَبعدُ أنه أشارَ بالرَّاحِ المُنْهَلِ إلى الكتابِ الأوَّلِ، المُورِثِ إيمانُهُ بالوجهِ الأكملِ والذَّوقِ الأشملِ شراباً طهُوراً، وبالماءِ الصافي المُبينِ الحديثَ الكافي الصادرَ من صَدرِ[٥] الرسولِ الأمينِ، الموجبَ نوراً وسروراً، وبالجملةِ فهو مِدْحةٌ للكتابِ والسُّنةِ ومعرفتِهما التي ليسَ فوقهَا مزيةٌ من اللَّذةِ.

تَنْفِي الرِّيَاحُ القَذَى عَنْهُ وَأَفْرَطَهُ   مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ بِيضٌ يَعَالِيلُ

---

(١) في «و»: «حلما».

(٢) في «و»: «دقائق».

(٣) رواه الترمذي (٣٤٩٠)، والحاكم (٣٦٢١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وفيه أنه كان من دعاء داود عليه السلام. قال الترمذي: حديث حسن.

(٤) جاء في هامش «و»:

قعقعةُ الثلجِ بماءٍ عذبِ   يستخرجُ الحمدَ من اقصى القلبِ

وهو بيت من الرجز، كانَ الصاحبُ بنُ عبَّاد إذا شرب مَاء بثلج أنْشده على أَثَره. انظر: «يتيمة الدهر» (٣/ ٢٣٣).

(٥) في «و»: «الصدر».

(**الرِّيَاحُ**): جمعُ ريحٍ، و(**القَذَى**) بفتحِ القافِ والذالِ المُعْجمَةِ: ما يسقطُ في العينِ أو الماءِ من ترابٍ وغيرِهِ من الأذى، والجملةُ صفةُ (ماء)، أو حالٌ.

(**عنه**)؛ أي: تطردهُ عنهُ وتُبعدهُ منهُ، والضميرُ إلى الماء، وهو بإشباع الهاءِ.

(**وَأَفْرَطَهُ**) حالٌ من ضميرِ (عنه)؛ أي: ملأَهُ، والمرادُ: ملأَ مكانَهُ.

وقولُه: (**مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ**) متعلقٌ بـ (أَفْرطَه)، والصَّوْبُ له معانٍ، والمرادُ به هاهنا: المطرُ، بقرينةِ (ساريةٍ)، وهي سحابةٌ تأتي ليلاً، ورُويَ: (غاديةٍ) بدلَ (ساريةٍ)، وهيَ سحابةٌ تأتي غُدوةً.

و(**بِيضٌ**) مرفوعٌ على أنه فاعلُ (أفرطَهُ)، و(**يَعَالِيلُ**) نعتهُ؛ أي: سُحُبٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، أو نفَّاخاتُ الماءِ تعلوهُ، والواحدةُ يَعلولٌ، ومن القاعدةِ المُقرَّرةِ: أنَّ النكرةَ إذا أُعيدتْ[1] كانت الثانيةُ غيرَ الأولى، بخلافِ المعرفةِ، ولذا وردَ: «لن يَغلبَ عُسْرٌ يُسرينِ» في تفسيرِ قولهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ـ٦][2]، إلا إذا دلَّ دليلٌ على اتِّحادِهما؛ فيكونُ عينَ الأولى، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وهاهنا كذلك؛ إذ من البيِّنِ أن إفراطَ البِيضِ لا يكونُ من صَوْبِ غيرِها، فالبِيضُ هيَ الساريةُ، فلا يَرِدُ القاعدةُ المقرَّرةُ في النكرةِ المكرَّرةِ، فيلزمَ أن يكونَ إفراطُ اليَعاليلِ مِن صَوبِ ساريةٍ هيَ غيرَها، وهو مُحالٌ من الأحوالِ.

أَكْرِمْ بِهَا خُلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ ... مَوْعُودَهَا أَوْ لَوَ ٱنَّ النُّصْحَ مَقْبُولُ

---

(١) في «و»: «عهدت».

(٢) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٣٨٠)، والحاكم (٣٩٥٠) عن الحسن البصري عن النبي ﷺ مرسلاً. ورواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٤٤٦) من قول عمر رضي الله عنه. وعبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٣٨١) من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

(أَكْرِمْ بِهَا) صيغةُ تعجُّبٍ و(خُلَّةً) تمييزٌ من ضميرِ (بها)، أو حالٌ عنهُ، وهي بضمِّ المُعْجمَةِ: الخليلُ، يستوِي فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ، و(لَوْ) للتمنِّي، فلا حاجةَ إلى تقديرِ جوابٍ للشرطِ؛ فالمعنى: لو ثبتَ أنها صدقتْ في وعدِها مِن وصلِها لكانتْ خُلَّةً من أصلِها، يُتعجَّبُ من كرمِها وفضلِها.

والمرادُ بالكرم هنا: ضدُّ البُخلِ، وهو أعمُّ من الكرمِ بالمالِ، أو بالوِفاقِ والوصالِ.

و(صَدَقَ) بالتخفيفِ مُتعدٍّ إلى مفعولَينِ، كـ: صدَقَهُ الحديثَ، والأولُ هنا مقدَّرٌ؛ أي: صدَقَتْنا موعودَهَا، وهو اسمُ مفعولٍ بمعنى الشخصِ الموعودِ به، أو مصدرٌ على زِنَةِ مفعولٍ؛ كمَعْسورٍ ومَيْسورٍ، كقولهم: دعْهُ من مَعْسورِهِ إلى مَيْسورِهِ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ [القلم: ٦].

و(أَوْ) هنا بمعنى الواوِ، و(لو ٱنَّ) بالنقلِ موزونٌ.

و(النُّصْحَ) بضمِّ النونِ: النصيحةُ، وهي: إرادةُ الخيرِ للمنصوحِ له، واللامُ بدلٌ عن المُضافِ إليهِ؛ أي: نُصحَها؛ من إضافةِ المَصدرِ إلى مفعولِه.

و(مَقبُولُ) خبرُ (أنَّ)، وفيهِ: أنَّ خبرَ (أنَّ) الواقعةِ بعدَ (لو) الشرطيَّةِ إذا كانَ مُشتقّاً، وجبَ كونهُ ماضياً؛ كما صرَّحَ بِهِ الزمخشريُّ وغيرهُ.

ودُفِعَ بأنهُ صفةُ جامدٍ محذوفٍ؛ أي: أمرٌ مقبولٌ.

وقيلَ: كونُ الخبرِ المشتقِّ ماضياً غيرُ لازمٍ عندَ بعضهم، فليَكُنِ البيتُ على نحو قولِهم هذا.

ورُويَ (فيَا لَهَا خُلَّةً)، ورُويَ أيضاً: (يا ويْحَها خُلَّةً)، و: (يا ويْلَهَا خُلَّةً)، والفرقُ بين الوَيحِ والوَيلِ: أنَّ الأولَ كلمةٌ تُقالُ لمن وقعَ في هَلكَةٍ لا يَستحِقُّها فيُترحَّمُ عليه، و(ويلٌ) تُقالُ لمن يَستحقَّها.

فـ(يا) حرفُ نداءٍ والمنادَى محذوفٌ، أو حرفُ تنبيهٍ بمنزلةِ (ألَا)؛ فاللامُ متعلِّقةٌ بمحذوفٍ؛ أي: فيا قومِ اعجبُوا لها خُلَّةً، أو: ألَا اعْجَبوا لها خُلَّةً.

وليسَ الضميرُ منادًى[1] دخلَ عليه لامُ التعجُّبِ، كما في قولِهِ: فيا لكَ من ليلٍ؛ أي: يا إيَّاكَ، أو: يا أنتَ، ثم دخلَ لامُ الجرّ؛ فانقلبَ الضميرُ المتَّصلُ المرفوعُ ضميراً متَّصلاً مخفوضاً = لأنَّ ضميرَ الغائبِ لا يُنادَى، كما حقَّقهُ ابنُ جَمَاعةَ.

لَكِنَّهَا خِلَّةٌ قَدْ سِيطَ مِنْ دَمِهَا فَجْعٌ وَوَلْعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ

الخِلةُ بكسرِ أولِها: الخَصلةُ؛ أي: لكنَّها ذاتُ خصلةٍ، أو عينُ خَصلةٍ، على طريقةِ[2] المبالغةِ.

و(قَدْ سِيطَ) بصيغةِ المجهولِ ـ أي: خُلطَ ـ صفةُ (خِلَّةٍ)، وبه تَحْصلُ الفائدةُ، على حدِّ قولِهِ تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]، والفائدةُ كما تحصلُ من الخبرِ تحصلُ من صفتهِ.

وقولُه: (مِنْ دَمِهَا)؛ أي: في دمِها، على حدِّ قولِهِ سبحانهُ: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠]، وقولِهِ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩].

و(فَجْعٌ) مرفوعٌ على أنه نائبُ الفاعلِ من (سِيْطَ)، وكذا مَن بعدَهِ، وهُنَّ مصادرٌ؛ أي: إفجاعٌ وإيجاعٌ وولعٌ؛ أي: كذبٌ وزورٌ وإخلافٌ في وعدِ الوصالِ، وتبديلٌ وتغييرٌ في الأحوالِ.

والمعنى: وهي مع ذلك خِلَّةٌ لا يُزاحمُ جفاؤُها كونَها خُلَّةً؛ فعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ، وورَدَ: «حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ»[3]، مع أنَّها معذورةٌ في

---

(١) في «س»: «بمنادى».

(٢) في «س»: «طريق».

(٣) رواه أبو داود (٥١٣٠)، والإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١٩٤) من طريق بلال بن أبي الدرداء عن =

تلـكَ الصفـاتِ؛ لكونهـا مجبولـةً عليها في أصـلِ الذاتِ.

قيل: ما ذكرَهُ من المعِيْبةِ لا يُلائمُ بحالِ الأحبَّةِ.

وأجيبَ: بأنَّ للمُحِبِّ أحوالاً لا تُدرَكُ إلَّا بالتجرُبةِ، ولا تُعرفُ إلَّا بالمعامَلةِ؛ فلعلَّهُ لَمَّا بانتْ سُعَادُ فتبَّلَ قلبَهُ ذكرُ صفاتِ حُسنِها شوقاً إلى ذكرِها، وذوقاً إلى أمرِها، ثم لَمَّا رأى رغبةَ المُستمِعينَ فيها، خافَ أن يعشقَهَا غيرهُ غَيرةً عليها، فأخذَ يذكرُ ذمائِمَها وسوءَ أخلاقِها وأسبابَ جفائِها، ليُعِلَّ لهم ما عَرَضَ من الرغبةِ.

أو أنَّه لَمَّا ذكرَ صِفاتَها رأى الاشتياقَ إليها والتشوُّقَ لِـمَا لديها، وأنَّ الكآبةَ تتزايدُ عليها؛ بحيثُ إنَّ ذلكَ ربما يكونُ سبباً لهلاكهِ هنالكَ، فأخذَ يذكرُ ما عسى أنْ يكونَ تسليةً لقلبهِ من ذكرِ الصفاتِ المنَفِّرةِ[1].

كـذا ذكرهُ الشُّـرَّاحُ، والأظهرُ في مقامِ الصُّراحِ وحالـةِ الصِّحاحِ: أن المحبوبَ لـه صفـاتُ الجمالِ ونعوتُ الجـلالِ؛ فإنَّ بهمـا تَتِمُّ مَنْقبـةُ الكمـالِ، وأن المُحِبَّ لا بُـدَّ له مـن حظٍّ فيهما فـي الأحوالِ، كما يُشـيرُ إليـه قولُه تعالـى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]، ويـدلُّ عليـه قولُـه عليهِ السـلامُ: «أريـدُ أنْ أجوعَ يومـاً فأصبرَ، وأشـبعَ يوماً فأشـكرَ»[2]، وقد قالَ

= أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً. قال المنذري في «مختصر سنن أبي داود» (٨/ ٣١): (يُروى عن بلال عن أبيه موقوفاً عليه غير مرفوع، وقيل: إنه أشبه بالصواب). قلت: رواه موقوفاً البيهقي في «الشعب» (٤١٢) من طريق بلال بن أبي الدرداء، عن أبيه. وإسناده صحيح.

(١) في «و»: «المنفردة»، ولعله تصحيف.

(٢) رواه بنحوه الترمذي (٢٣٤٧)، وأحمد (٥/ ٢٥٤) من طريق عُبَيْدِ اللهِ بنِ زَحْرٍ، عن عَلِيِّ بنِ يَزِيدَ، عَنِ القاسِمِ، عن أبي أُمَامةَ، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم. وهذا إسناد ضعيف جداً، عبيد الله بن زَحْر ـ وهو الضَّمْري الإفريقي ـ ضعيف، وعلي بن يزيد ـ وهو ابن أبي هلال الألْهاني ـ واهي الحديث.

تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، ووَرَدَ: «الإيمانُ نصفانِ؛ نصفـهُ[١] صبرٌ، ونصفهُ[٢] شُكرٌ»[٣].

وقـد عبَّـر الصُّوفيـةُ عـن المقاميـنِ: بالقَبـضِ والبَسـطِ، والمحـوِ والصَّحـوِ، والتَّلويـنِ والتمكيـنِ، والفنـاءِ والبقـاءِ، ونحـوِ ذلـكَ ممـا لا يخفـى علـى أربـابِ الصفـاء، وأصحـابِ الوفـاء.

فَمَـا تَـدُومُ عَلَـى حَـالٍ تَكُـونُ بِهَـا ... كَمَـا تَلَـوَّنُ فِـي أَثْوابِهَـا الغُـولُ

الفاءُ للنتيجةِ أو للسببيةِ؛ أي: لأَجْلِ ما جُبلتْ عليها من الأوصافِ المتقدِّمةِ لا تدومُ على حالةٍ[٤] مُستمرَّةٍ، وهي ما عليه الإنسانُ من خيرٍ وشرٍّ، ونفعٍ وضُرٍّ، وتأنيثُها كما في البيتِ أَوْلى مِن تذكيرِها، على أنَّ الثانيَ هو لغةُ أهلِ الحجازِ.

وقولُه: (**تَكُونُ بِهَا**) صفةُ لـ (حالٍ)؛ أي: تكونُ متلبِّسةً بها أو عليها؛ فالباءُ للمُلابسةِ، أو بمعنى (على)، على حدِّ قولِهِ تعالى: ﴿إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ولا يَبْعدُ أنْ يكونَ (في) كما في قولِهِ سبحانهُ: ﴿تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

ثم (ما) مصدريةٌ، والكافُ مع مدخولها صفةُ مصدرٍ محذوفٍ دلَّ عليه ما قبلَهُ؛ إذ الذي لا يَدومُ على حالٍ يكونُ متلوِّناً؛ فكأنَّهُ قالَ: تتلوَّنُ تلوُّناً، كما تتلوَّنُ، فـ(**تَلَوَّنُ**) فعلٌ مضارعٌ حُذفَ إحدى تاءَيهِ، وفاعلهُ (**الغُولُ**) وهو بضمِّ أولِهِ: كلُّ شيءٍ اغتالَ الإنسانَ فأهلكَهُ.

قال ابنُ جَمَاعةَ: والمرادُ هنا: الواحدةُ من السَّعالي، وهي إناثُ الشياطينِ.

---

(١) في «س»: «نصف».

(٢) في «س»: «ونصف».

(٣) رواه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (١٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٢٦٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) في «س»: «حال».

و(فِـي أَثْوابِهَـا) متعلِّـقٌ بالفعـلِ، وهـي إمَّـا تخييليَّـةٌ للغُـولِ، وإمَّـا يُـرادُ بهـا ألوانُهـا المشـبَّهةُ بالأثـوابِ فـي إحاطتِهـا محالَّهـا[1].

والحاصلُ: أنه شبَّهَ تلوُّنَ سُعادٍ في حالِ القُرب والبِعادِ بتلوُّنِ الغُولِ في البلادِ، والوجهُ: سرعةُ تلوُّنها وكثرةُ تَقَلُّبِها[2].

قيـل: العـربُ تزعـمُ أن الغُـولَ تتحـوَّلُ مـن شـأنٍ إلـى شـأنٍ؛ فتصيـرُ تـارةً بصـورةِ إنسـانٍ وأخـرى بهيئةِ حيـوانٍ، وهذا مِـن أكاذيـبِ العربِ، وقـد جرى على زَعْمِهـمُ الناظـمُ، والأظهـرُ أن العـربَ تسـمِّي كلَّ داهيـةٍ غُـولاً علـى التهويـلِ، كما جـرتْ عادتُهم في الأشـياء التـي لا أصلَ لها ولا حقيقـةَ، كالعَنقَاء ونحوِهـا، وللهِ دَرُّ مَن قـالَ مـن أربـابِ الحالِ:

لَمَّـا اختبـرتُ بنـي الزَّمـانِ ومـا بهِمْ ... خِـلٌّ وفـيٌّ للشـدائدِ أصطَفِـي

أيقنـتُ أنَّ المسـتحيلَ ثلاثـةٌ ... الغُـولُ والعَنقـاءُ والِخـلُّ الوَفِـيّ

وفـي الخبـرِ: «أُخْبُـرْ تَقْلُـهْ»[3]، و: «النـاسُ كإبـلٍ مئةٍ لا تجـدُ فيها راحلـةً»[4]، وقـد قالَ تعالـى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقالَ سـبحانهُ: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وَلاَ تُمَسِّـكُ بِالعَهْـدِ الَّـذِي زَعَمَـتْ ... إِلاَّ كَمَـا يُمْسِـكُ الْمَـاءَ الغَرَابِيـلُ

(١) في «س»: «بحالها».

(٢) في «و»: «تنقلها».

(٣) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٤٩٣)، وابن الجوزي في «العلل» (١٢٠٥)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، قال في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩٠). وفيه أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، قال يحيى: أبو بكر ابن أبي مريم ليس بشيء.

(٤) رواه البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(تُمَسِّكُ) بضمِّ التاءِ وكسرِ السِّين المشدَّدةِ، مضارعُ: مسَّكَ، بخلافِ (يُمْسِكُ) الثاني؛ فإنه مضارعُ: أَمْسَكَ، فوقعَ الجمعُ بينهما تفنُّناً، وبهما قُرِئ قولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، والتخفيفُ لشُعبةَ[١]؛ فهو أَوْلى مِن ضبطِ بعضِهم بفتحِ التاءِ والسينِ على حذفِ إحدى التاءينِ، مضارعُ: تَمسَّكَ.

والمرادُ بالعهدِ: المَوثِقُ الشديدُ، وفي نسخةٍ: (بالوَعْدِ)؛ أي: الميعادِ الأكيدِ.

(الـذي زَعَمَـتْ) أَنَّها تفِي بـه؛ أي: تكفَّلَت بوقوعهِ، ومصـدرهُ: الزَّعْمُ بالفتحِ، ومنهُ قولُه سـبحانهُ حكايةً: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسـف: ٧٢].

أو المعنى: قالتْهُ وتَفوَّهَت به، ومصدرُهُ: الزّعْمُ بتثليثِ أوَّلِه، وهو: قولٌ يدَّعيهِ المُدَّعِي محتمِلٌ للحقِّ والباطلِ، وغلبَ استعمالهُ في الباطلِ أو الظنِّ، ومنه قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وقولُه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ [التغابن: ٧]، وقد يُستعملُ في الحقِّ واليقينِ، ومنه قولُ أبي طالبٍ للنبيِّ ﷺ:

ودَعَوْتَنِـي وزَعَمْـتَ أَنَّـكَ صَـادِقٌ ... ولقَـدْ صَدَقْـتَ وكُنْـتَ ثَـمَّ أَمِينـاً

والمعنـى: فلا تَعتصِمْ بموثـقٍ تفوَّهتْ به أنْ لا تَنْسـاني ولا[٢] تَهْجُرَني، أو: لا تَعتمِـدْ بيميـنٍ أظهرتْ أنَّهـا تُحبُّنِي، أو: لا تَثـقْ بأمانٍ ذكرتْـهُ أنْ لا تقطعَنِي؛ فإنه ليسَ تمسُّكُها (إلاَّ كَمَـا)؛ أي: إلَّا تمسُّـكاً كائنـاً كشـيءٍ، أو: إلَّا كائنـاً كما (يُمْسِـكُ الْمَاءَ الغَرَابِيـلُ) جمعُ غِربَالٍ كمِفتـاحٍ ومَفاتِيحَ.

وفيه تشبيهُ معدومٍ بمعدومٍ في صفةِ العدمِ، كالصَّبرِ في قلبِ العَاشقِ المُتيَّمِ[٣]،

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» لأبي عمرو الداني (ص: ١١٤)، وشعبة هو ابن عياش الكوفي أحد راويي عاصم، وقرأ حفص وباقي السبعة بالتشديد.

(٢) في «س»: «فلا».

(٣) في «س»: «المهتم».

والمالِ في يدِ أهلِ الكرمِ، والغرضُ من التشبيهِ راجعٌ إلى المشبَّهِ وهو بيانُ امتناعِهِ؛ ففيه تأكيدُ المدحِ بما يُشبِهُ الذمَّ، نحو: فلانٌ لئيمٌ، إلَّا أنه يُسيءُ إلى مَن أحسنَ إليهِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [البروج: ٨]، وقولُه سبحانهُ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقولُ الشاعرِ:

ولا عيبَ فيهمْ غيرَ أنَّ سُيوفَهُمْ ... بهِنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكَتَائبِ

فَلاَ يَغُرَّنْكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ ... إِنَّ الأَمَانِيَّ وَالأَحْلاَمَ تَضْلِيلُ

الفاءُ للنتيجةِ، و(**يَغُرَّنْكَ**) بسكونِ نونِ التأكيدِ؛ مِن غرَّهُ: خَدَعهُ وجعَلَهُ مغرُوراً، قالَ الخليلُ: نونُ التأكيدِ الخفيفةِ بمنزلةِ إعادةِ الفعلِ ثانياً، والثقيلةِ بمنزلةِ إعادتهِ ثانياً وثالثاً. كذا ذكرهُ ابنُ جَمَاعةَ.

ولا يَبعدُ أن يكونَ التخفيفُ للوزنِ، وإلا فمقامُ[1] المبالغةِ يقتضي التشديدَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ١٩٦].

والخطابُ إما لغيرِ مُعيَّنٍ، نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وإمَّا لنفسهِ على طريقِ التَّجريدِ.

و(مَا) موصولةٌ صلتُها (**مَنَّتْ**) من التَّمنِيَةِ، وهي: أنْ يحملَ أحداً على التمنِّي بشيءٍ (**وَمَا وَعَدَتْ**) عطفٌ.

والمعنى: لا يغُرَّنْكَ تمنِيْتُها إيَّاكَ الوصلَ، ووعدُهَا بتركِ الهجرِ والفصلِ؛ فالإسنادُ سببيٌّ مجازيٌّ؛ أي: لا يغُرَّنْكَ سُعَادُ بسببِ تمنِيتِها في المقالِ، ووعدِها بمقامِ الوِصَالِ.

و(إِنَّ) بكسرِ الهمزةِ على ما ثبتَ في الروايةِ، كما ذكرهُ ابنُ جَمَاعةَ، وجوَّزَ فتحَهَا على إضمارِ لامِ العِلَّةِ.

---

(١) في «س»: «فتام».

و(الأَمَانِـيَّ): جمـعُ أُمنِيَّـةٍ، وهيَ اسـمٌ من التمنِّـي، وتخفيفُ يائـهِ جائزٌ، ومنهُ قولُـه تعالـى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقـرة: ٧٨]، ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١].

و(الأَحْـلامَ) جمـعُ حُلُـمٍ، بضمَّتيـنِ، وهـو مـا يـراهُ النائـمُ، أو مختـصٌّ بالأضغـاثِ، وهـو الظاهـرُ في مقـام المبالغةِ للمَـرَام، ومنـهُ قولُه تعالـى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسـف: ٤٤].

و(تَضْلِيـلُ) معنـاهُ: إبطالٌ وتضييـعٌ، ومنهُ قولُـه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾ [الفيـل: ٢]، والتقديـرُ: ذواتُ تضليـلٍ، علـى حدِّ قولـهِ سـبحانهُ: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ [آل عمـران: ١٦٣]، أي: ذوو مراتـبَ عاليـاتٍ، أو جُعلـتْ نفسَ التضليـلِ مبالغةً، على حدِّ قولهـم: رجلٌ عَـدْلٌ، و: إنمـا هي إقبـالٌ وإدبارٌ.

أو: صاحـبُ الأمانـي مُضلَّـلٌ بفتحِ الـلامِ؛ أي: منسـوبٌ إلى الضَّـلالِ، أو: إنَّ الأمانـيَّ سـببُ تضليـلٍ، أو: إنَّ الأمانيَ مُضلِّلةٌ، على الإسـنادِ المجازيِّ العقليِّ، من بـابِ الإسـنادِ إلـى السـببِ، فالمِصراعُ الثانـي تعليلٌ مسـتأنَفٌ على حدِّ قولـهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النسـاء: ٢].

وحاصلُ البيتِ: نهى نفسَهُ تجريداً، أو مخاطَباً مُريداً، عن الاغترارِ بالأمانيِّ، والمواعيدِ في العالَمِ الخياليِّ، ثم علَّلَ ذلكَ: بأنَّ الأمانيَّ والأحلامَ تضييعٌ في الأنفاسِ والأيامِ؛ فلا يُلتفتُ إليها ولا يُعوَّلُ عليها.

وفـي البيـتِ إشـارةٌ إلـى قولـهِ تعالـى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمـان: ٣٣]، وقولـهِ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديـد: ٢٠].

ولله دَرُّ منْ قالَ:

أضغـاثُ نـومٍ أو كظِـلٍّ زائـلٍ إنَّ اللبيـبَ بمثلِهَـا لا يُخْـدَعُ[(١)]

ولآخر من أربابِ الحالِ:

هَـبِ الدُّنيـا تُسَـاقُ إليـكَ عفـواً أليـسَ مصيـرُ ذاكَ إلـى الـزَّوالِ
ومـا دنيـاكَ إلا مِثـلُ ظِـلٍّ أظلَّـكَ ثُـمَّ آذَنَ بارتحـالِ[(٢)]

كَانَـتْ مَوَاعِيـدُ عُرْقُـوبٍ لَهَـا مَثَـلاً وَمَـا مَواعِيدُهَـا إلاَّ الأَبَاطِيـلُ

(مَوَاعِيـدُ): جمـعُ ميعـادٍ بمعنـى المُواعَـدةِ، كموازيـنَ جمـعِ ميـزانٍ بمعنـى الموازنـةِ، لا جمـعُ موعـودٍ بمعنى وعيـدٍ؛ لأنَّ المعنى ليسَ عليه بسـديد، ولا حاجةَ إلـى جعلـهِ جمعَ موعـودٍ بمعنى وعْـدٍ؛ إذ مجيءُ المصـدرِ على مفعـولٍ؛ إمَّا معدومٌ مـن أصلـهِ، أو نادرٌ فـي نقلهِ.

و**(عُرْقُـوبٍ)** بضـمِّ العيـنِ والقـافِ: اسـمُ رجلٍ وعدَ أخـاهُ ثمرَ نخلـهِ، وقال: ائْتِنـي إذا طَلَّـعَ نَخْلِـي؛ أي: خـرجَ طَلْعُهُ، فلمَّـا أَطْلَعَ قـالَ: إذا أبلحَ؛ أي: صـار بَلَحاً بفتحتَيـنِ، والبلـحُ قبلَ البُسْـرِ بضمٍّ فسـكونٍ؛ فلمَّـا أَبْلَحَ قـال: إذا أَزْهَـى؛ أي: احمرَّ واصفـرَّ بُسْـرهُ، فلمَّـا أَزْهَى قـال: إذا أَرْطَبَ، فلمَّـا أَرْطَبَ قـال: إذا صارَ تمـراً، فلمَّا صـار تمـراً أَخَـذَهُ مِـن اللَّيـلِ، ولـم يُعطـهِ شـيئاً إلَّا الويـلَ، فضربـوا بـه المثـلَ فـي الإخـلافِ، فقالوا: أخلـفُ مِن عُرْقُـوبٍ[(٣)].

وقولُه: **(لَهَا)** خبرُ **(كانت)**؛ أي: حاصلةً لها، فقولُه: **(مَثَلاً)** حالٌ. أو (مَثَلاً) خبرُ (كانت)، و(لها) حالٌ؛ أي: صفةً، أو مُشابهاً.

---

(١) البيت، نسب للحسن البصري، كما في «التذكرة الحمدونية» (١/ ٣٢١).

(٢) البيتـان ذكرهمـا الجاحـظ فـي «الرسـائل» (١/ ٥٩) بـدون ذكـر قائله، ونُسـبا لعلي بـن أبي طالب رضـي الله عنـه. انظـر: «ديـوان علـي بن أبـي طالب» مـع اختلاف فـي البيـت الثاني.

(٣) انظر: «مجمع الأمثال» للعسكري (١/ ٤٣٣).

و(مَا) نافيةٌ، وضميرُ (مَوَاعِيدُهَا) إلى سُعاد، ورُويَ: (مواعيدُهُ)؛ أي: عُرْقوبٍ، و(الأَبَاطِيلُ): جمعُ باطلٍ؛ ضدُّ الحقِّ.

أَرْجُو وَآمُلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتُهَا ... وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكِ تَنْوِيلُ

فيهِ التفاتٌ من الخطابِ إلى التكلُّمِ على تقديرِ التجريدِ في (فلا يَغُرَّنْكَ).

والرجاءُ له معنيانِ:

أحدُهما: الطمعُ، وهو المرادُ هنا، ويُستعملُ في الإيجابِ والنَّفي، وقد اجتمَعَا في قولهِ تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

وثانيهما: الخوفُ؛ فقيل: مختصٌّ بالنفيِّ؛ نحو قولهِ تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وقيل: لا يَختصُّ؛ بدليلِ قولهِ: ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

و(آمُلُ) بمدِّ الهمزةِ وضمِّ الميمِ، عطفٌ للتأكيدِ، وإنما حسَّنهُ اختلافُ اللفظِ، نحوَ قولهِ تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقولهِ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وقولهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وقولهِ: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

ولا يُعطفُ هذا النوعُ إلا بالواوِ، وقال ابنُ مالكٍ: وقد أُنيبَ (أو) عنها في اللفظ؛ نحو: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ [النساء: ١١٢][1].

وفيه: أنهُ يجوزُ أن يُرادَ بالخطيئةِ ما وقعَ خطأً، وبالإثمِ ما وقع عمداً، كذا حقَّقهُ ابنُ جَمَاعةَ.

وفيه: أنَّ الأمثلةَ السابقةَ أيضاً تحتمِلُ المغايرةَ؛ بأنْ يُحمَلَ الوهنُ على ضعفِ القلبِ؛ من الُجبنِ، والضعفُ على القالبِ بالتكاسُلِ والتهاونِ، وأنَّ البثَّ: هو الحُزْنُ الذي لا يزولُ إلَّا بأنْ يُبَثَّ، والصَّلواتِ: أنواعُ البركاتِ وأصنافُ الصِّلاتِ، و{أَمْتَاً} فُسِّرَ بـ: ارتفاعاً، و{عِوَجاً} بـ: انخفاضاً.

---

(١) انظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (٣/ ٣٦٥).

وكذا الكلامُ في البيتِ؛ فيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عطفُ (آمُلُ) على (أرجو) للتأكيدِ، أو أحدُهما يُحمَلُ على ما يُتخيَّلُ في الباطنِ، والآخَرُ ما يُتبيَّنُ في الظاهرِ، أو المعنى: أرجو من اللهِ وآمُلُ من الممدوحةِ أن تدنوَ مودتُها وتثبُتَ محبتُها إيَّايَ كمحبَّتِي إيَّاها؛ لأنَّ حقيقتَها لا تُتصوَّر إلَّا من الجانبينِ، كما يُشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وفي تقديمِ (يحبُّهم) نكتةٌ لطيفةٌ وحِكَمٌ شريفةٌ، مُشعِرةٌ بأنَّ الأصلَ هي محبةُ المحبوبِ، لا سيَّما المحبةُ الأزليَّةُ القَديميَّةُ اللازمُ منها المحبةُ الحادثةُ الأبديةُ.

و(**تَدْنُو**) بسكونِ الواوِ هو الروايةُ، وذلك إمَّا بأنَّه أهملَ (أنْ) المصدريةَ حملاً على أختِها وهي (ما)[1]؛ كقراءةِ مجاهدٍ: (لِمَن أرادَ أنْ يُتِمُّ الرَّضاعةَ) بالرفعِ[2]، وإمَّا بأنهُ أجرى السكونَ على الواو مُجرى الفتحةِ؛ للوزنِ، قال المُبرِّدُ: وهو مِن أحسنِ الضرورةِ.

ثم لا يَبعدُ أن يكونَ (أنْ تدنو) مفعولَ (آمُلُ)، و(أرجو) بمعنى: أخافُ، يُقدَّرُ له مفعولٌ؛ أي: أخافُ أنْ لا تدنوَ وآمُلُ أنْ تدنو؛ فأنا بينَ الخوف والرجاء؛ كما هو مقامُ أربابِ الوفاءِ.

أو يُقالُ: (آمُلُ) تفسيرٌ لـ(أرجو)؛ لاحتمالِهِ معنى الخوفِ أيضاً، كما يُستفادُ من شرح الفاضلِ الهنديِّ[3].

و(**مَا**) نافيةٌ، و(**إِخَالُ**) بكسرِ الهمزةِ؛ أي: وما أظنُّ.

---

(١) يعني: (ما) المصدرية، فقد تشبه بها (أن) المصدرية في عدم العمل، قال ابن مالك في «ألفيته» (ص ٥٧):

وبعضهُم أهمَلَ (أنْ) حملاً على (ما) أختِها حيثُ استحَقَّتْ عملاً

(٢) انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (٢/ ٢٢٣).

(٣) الفَاضِلُ الهندِيُّ، بهاء الدِّين مُحَمَّد بن تَاج الدِّين حسن الأصبهاني، من عُلَمَاء الشِّيعَة الإمامية (ت ١١٣٧) بأصبهان، له عدَّة مصنفات، ولعل له شرحاً لقصيدة بانت سعاد، كما يدل نقلُ القاري عنه في مواضعَ عديدة. انظر: «هدية العارفين» (٢/ ٣١٨).

(لَدَيْنَا) أي: عندنا (مِنْكِ) بكسرِ الكافِ؛ أي: من جهتكَ، وفيه التفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخِطابِ، وقولُه: (تَنْوِيلُ)؛ أي: إعطاءُ نوالٍ، وإيصالُ وُصالٍ، فاعلُ الظرفِ الأوَّل أو الثَّاني، أو مبتدأٌ خبرُهُ مقدَّمٌ عليه، ولا امتناعَ من أن يرجوَ مودَّتهَا ولا يَظنَّ نوالهَا الدالَّ على محبَّتها؛ إذ من الجائزِ أنْ تودَّهُ بقلبها في باطنِ حالِها وتمنعَ حصولَ نوالِها ووصولَ منالِهَا.

وقيل: المرادُ الرجاءُ من ربِّ العباد، وهو لا يُنافي نفيَ نوالِ الوِصالِ من سُعَاد.

أَمْسَتْ سُعَادُ بِأَرْضٍ لاَ تُبَلِّغُهَا إِلاَّ العِتَاقُ النَّجِيبَاتُ الْمَرَاسِيلُ

(أَمْسَتْ)؛ أي: دخلتْ في المساءِ، أو: صارتْ بأرضٍ بعيدةِ الهوى[1] (لاَ يُبَلِّغُهَا) بتشديدِ اللامِ المكسورةِ، وفي نسخةٍ (ما تُبْلِغُهَا)؛ أي: ما تُوْصِلُها ولا تُلْحِقُها.

ورُوِيَ بصيغةِ التفعُّلِ أيضاً، والتبليغُ: الإيصالُ، والتبلُّغُ: الوصولُ.

وعلى الأولِ مفعولُهُ الأوَّلُ محذوفٌ؛ أي: لا تُبلِّغُنِي إليها؛ ففيهِ الحذفُ والإيصالُ؛ نحو: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، و﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢].

وعلى الثاني[2]: الضميرُ المنصوبُ إلى (سُعَاد)، وعائدُ الموصوفِ محذوفٌ؛ أي: لا تُبْلِغُهَا إليهَا؛ أي: إلى تلك الأرضِ.

(إِلاَّ العِتَاقُ) بكسرِ العينِ: جمعُ عتيقٍ؛ ككِرامٍ: جمع كريمٍ، من قولهم: وجهٌ عتيقٌ؛ أي: حَسَنٌ؛ كأنه عُتِقَ من العيوبِ، وكذا[3] لُقِّبَ به أبو بكرٍ الصدِّيقُ

---

(١) في «س»: «الهواء».

(٢) أي: على ما في النسخة الثانية، وهي: «تُبْلِغُها».

(٣) في «س»: «ولذا».

لحُسنِ وجهِهِ، وروى الترمذيُّ أنه لُقِّبَ به لقولِهِ عليهِ السلامُ: «أبو بكرٍ عتيقُ اللهِ من النارِ» قال: فمِن يومئذٍ سُمِّيَ عَتِيقاً[(١)].

و(**النَّجِيبَاتُ**): جمعُ النَّجِيبةِ، وهيَ الكريمةُ الحبيبةُ، ورُوِيَ: (النَّجِيَّاتُ) بالتحتيَّةِ المشدَّدةِ؛ أي: السَّريعاتِ.

و(**الْمَرَاسِيلُ**): جمعُ مِرسالٍ، ناقةٌ سريعةُ السَّيرِ سهلةُ المَشيِ.

وَلَنْ يُبَلِّغَهَا إلاَّ عُذَافِرَةٌ فيهَا عَلَى الأَيْنِ إرْقَالٌ وَتَبْغِيلُ

في نسخةٍ (ولا يُبَلِّغَهَا)؛ أي: إلى تلكَ الأرضِ.

(**إلَّا عُذَافِرَةٌ**) بضمِّ مُهملةٍ، فمعجَمةٍ، ثم فاءٍ مكسورةٍ، فراءٍ؛ أي: ناقةٌ صُلبةٌ عظيمةٌ جَسيمةٌ (**فيهَا عَلَى الأَيْنِ**)؛ أي: مع الإعياءِ، على حدِّ قولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وقولِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

و(الإرقالُ) بكسرِ أوَّلِهِ: نوعٌ من الخَبَبِ، وضربٌ من العَدْوِ.

و(التبغيلُ) بموحَّدةٍ ومُعْجَمةٍ: مشيٌ فيه اختلافٌ بين العَنَقِ والهَمْجَلَةِ، وكأنهُ مشبَّهٌ بسيرِ البغلِ في شدَّتهِ.

والعَنَقُ بفتحتينِ: ضربٌ من سَيرِ الدابَّةِ، قال الرَّاجزُ:

يا ناقُ سِيْري عَنَقاً فَسِيحاً إلى سُلَيْمانَ فَنَستَرِيحَا[(٢)]

والهَمْجَلَةُ: فارسيٌّ مُعَرَّبٌ، وهو نوعٌ من السيرِ قريبٌ من العَدْوِ.

والمعنى: أنَّ تلكَ الأرضَ لِمَا فيها من الطُّولِ والعرضِ لا تبلُغُهَا إلا ناقةٌ عظيمةٌ صُلبةٌ جسيمةٌ سريعةُ العَدْوِ والسيرِ، على هيئةِ الطيرِ، من صفتها أنَّها إذا أعيتْ من

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٧٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) البيت لأبي النجم. انظر: «شرح ديوان المتنبي» للعكبري (٤/ ٢٠٤).

السيرِ سارتْ هذين النوعينِ منه، فما ظنُّكَ بها إذا لم تعيَ؟ فإنها حينئذٍ تكونُ كالطيرِ.

وفيه إشارةٌ إلى طريقِ السالكينَ من السائرينَ، وسيرِ الطالبينَ من الطائرينَ بحسبِ تفاوتِ مراتبِ قُوَّةِ الجَذبةِ في سبيلِ المحبة، وإيماءٌ إلى ما خَلَقَ اللهُ من عجائبِ القُدرةِ وغرائبِ القوةِ في خِلْقةِ الإبلِ، وما فيها من الهيئةِ المُورِثةِ للعِبرةِ، كما قالَ تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، وإشعارٌ إلى قولِه تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧].

وفيه تلويحٌ إلى أنَّ الإنسانَ لا بُدَّ أنْ يَسْعَى في طريقِ الإحسانِ ليصلَ إلى مَيدانِ العِرفانِ، ويحصُلَ له وِصَالُ الجِنانِ، ويخلُصَ من وَبالِ النيرانِ.

مِنْ كُلِّ نَضَّاخَةِ الذِّفْرَى إِذَا عَرِقَتْ   عُرْضَتُهَا طَامِسُ الأَعْلَامِ مَجْهُولُ

(مِنْ) بيانيةٌ صفةُ (عُذَافرة)؛ أي: عُذَافِرةٌ كائنةٌ من كلِّ ناقةٍ نضَّاخةٍ ذِفْراها، وفيهِ من المبالغةِ ما لا يَخفى، حيثُ جعلها متَّحدَةً لكلِّ نضَّاخةٍ. و(النَّضاخَّةُ) بتشديدِ الضَّادِ ثم الخاءِ المعجَمَتينِ: كثيرةُ الماءِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦]؛ أي: فوَّارَتانِ.

و(**الذِّفْرَى**) بكسرِ الذالِ المُعْجمَةِ: نُقرةٌ خلفَ أُذُنِ الناقةِ، وهي أوَّلُ ما يَعْرَقُ منها، وفيه إقامةُ المُفرَدِ مُقامَ التثنيَّة؛ إذ لكلِّ ناقةٍ ذِفريانِ.

وقولُه: (**إِذَا عَرِقَتْ**) ظرفُ (نضَّاخة)؛ أي: وقتَ عرقِهَا، وذلكَ من كثرةِ السيرِ وسرعتِه.

و(**عُرْضَتُهَا**) مبتدأٌ، خبرهُ: (**طَامِسُ الأَعْلَامِ**): جمعُ عَلَمٍ، بمعنى علامةٍ؛ أي: طريقٌ مُنطمِسُ العلاماتِ، مُندرسُ الإشاراتِ، (**مَجْهُولُ**) صفةُ (طامسُ) مؤكِّدٌ؛ إذ كلُّ طامسٍ مجهولٌ.

والمعنى: همَّتُها سلوكُ طريقٍ ممحوٍّ علاماتُه، مجهولٍ ذاتُه؛ لغايةِ قوتِها على

سلوكِها وسيرها وحُرقِها[١]، وإدراكِهَا الطريقَ المجهولةَ من غيرِ أَمَارةٍ وعلامةٍ.

تَرْمِـي الغُيُـوبَ بِعَيْنَـيْ مُفْـرَدٍ لَهِـقٍ إِذَا تَوَقَّـدَتِ الْحِـزَّانُ وَالْمِيـلُ

يقال: رمى السهمَ رمياً، ورماهُ بالسهمِ، كما وردَ هنا.

و(**الغُيوبَ**) بضمِّ أولهِ ويُكسُر: جمعُ غائبٍ؛ كشاهدٍ وشُهودٍ، أو غَيْبٍ كبَيْتٍ وبُيُوتٍ، والأولُ أَوْلى، ولم يَذْكرِ الشُّرَّاحُ إلَّا الثانيَ مع أنه مَجازٌ؛ إذ الغيبُ في الأصلِ مصدرُ غَابَ، فأطلقَ على الغائبِ إطلاقَ الغَورِ على الغَائرِ في قولهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا﴾ [الملك: ٣٠].

وفي «القاموس»: الغيبُ: ما اطمَّأنَّ من الأرضِ، وجمعهُ: الغُيوبُ[٢].

ثم المرادُ برمِي الغُيوبِ: إيقاعُ النظرِ إليها بسُرعةٍ؛ فإنه يُشبهُ الرَّميَ في سُرعةِ الوقوعِ على المحلِّ.

وقولُه: (**بِعَيْنَيْ مُفْرَدٍ**) فيه تشبيهٌ بليغٌ؛ أي: بعينينِ كعَينَيْ ثورٍ وحشيٍّ مُتفرِّدٍ عن القطيعِ، أو بازيٍّ منفردٍ عن أمثالِهِ البديع، فكلٌّ من المُشبَّهِ والمُشبَّهِ به حِسِّيٌّ، ووجهُ الشَّبهِ وهو حدَّةُ النظر عقليٌّ، كما حقَّقهُ الفاضلُ الهنديُّ.

و(اللَّهِق) بكسرِ الهاءِ وفتحِها: الأبيضُ.

وقولُه: (**إِذَا تَوَقَّدَت**) ظرفُ (ترمي) يصفُها بأنها حديدةٌ في النَّظرِ، ترمِي في وقتِ شدَّةِ الحرِّ، والتوقُّدُ: الإيقادُ، وشبَّهَ كمالَ حرِّ الشمسِ بتوقُّدِ النارِ.

و(**الْحِـزَّانُ**) بكسرِ الحاءِ المهملةِ، وبالزاي المشدَّدةِ: جمعُ حَزيزٍ بزاءينِ بمعنى: مكانٍ صُلْبٍ غليظٍ، و(**المِيلُ**) بكسرِ الميمِ: جمعُ مَيْلاءَ، بفتحِها، وهيَ العُقْدةُ الضخمةُ من الرَّملِ.

---

(١) في «س»: «وحزمها».

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (مادة: غيب).

ضَخْـمٌ مُقَلَّدُهَـا عَبْـلٌ مُقَيَّدُهَـا فِي خَلْقِهَا عَنْ بَنَاتِ الفَحْلِ تَفْضِيلُ

(**ضَخْمٌ**)؛ أي: غليظٌ، وهو خبرُ (**مُقَلَّدُهَا**) بفتحِ اللامِ؛ أي: موضعُ القِلادةِ من العُنقِ، والمرادُ: وصفُ الناقةِ بِغلَظِ الرقبةِ، وقد عِيبَ ذلكَ، قال الأصمعيُّ: هذا خطأٌ في الوصفِ، وإنَّما خَيرُ النجائبِ ما يَدِقُّ مَذبحهُ، كذا ذكرهُ ابنُ هشامٍ[1].

وفيه: أنَّ ضخامةَ كلِّ نجيبةٍ بحسبِ ما يُناسبُها من طُولِهَا وعَرضها، على أنَّ الضخمَ يُمكنُ تفسيرهُ بالعظيمِ في حدِّ ذاتهِ وحُسْنِ صفاتهِ.

و(**عَبْلٌ**) كضَخْمٍ؛ وزناً ومعنًى، ورُوِيَ: (فَعْمٌ) بالفاءِ والعينِ، وهو كعَبْلٍ مبنًى ومعنًى، كذا قالهُ ابنُ هشامٍ[2]، وفسَّرهُ الفاضلُ بممتلئٍ.

وقولُه: (**مُقَيَّدُهَا**) بفتحِ التحتيةِ المُشدَّدةِ؛ أي: موضعُ القيدِ منها؛ يعني: قوائمُها غليظةٌ؛ لأنها إذا كانت كذلكَ كان أقوى على السيرِ فيما هنالكَ.

والجملتانِ صفةٌ لـ(ناقة)، وكذا قولُه: (**فِي خَلْقِهَا**) بفتحِ أولهِ؛ أي: في خِلْقَتِها وفِطرتها.

(**عَنْ بَنَاتِ الفَحْلِ**) متعلِّقٌ بقولهِ: (**تَفْضِيل**) على أنَّ (عن) بمعنى (على)، وقيل: حالٌ من ضميرِ (خَلْقِهَا)؛ أي: في خلقِ اللهِ إيَّاها متميِّزةً ومُتباينةً عن بناتِ الفحلِ تفضيلٌ لها عن سائرِ النُّوقِ في الهيئةِ والقوَّةِ، وهو مبتدأٌ سوَّغهُ تقدُّمُ الخبرِ؛ أي: (في خَلْقِهَا)، أو الوصفُ المُستفادُ من تنوينِ التعظيمِ؛ أي: تفضيلٌ جليلٌ فيه تبجيلٌ.

غَلْبَـاءُ وَجْنَـاءُ عُلْكُـومٌ مُذَكَّـرَةٌ فِـي دَفِّهَـا سَـعَةٌ قُدَّامَهَـا مِيـلُ

---

(١) انظر: «شرح ابن هشام لبانت سعاد» (ص: ٥٠).

(٢) المصدر السابق.

(**غَلْبَاءُ**) بغينٍ مُعجمةٍ مفتوحةٍ فباءٍ موحَّدةٍ؛ أي: عظيمةُ الرقبةِ، صفةٌ لـ (عُذَافِرَة)، وكذا ما بعدَهُ، أو أخبارٌ لمبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هي غَلْبَاءُ...، والجملةُ صفةٌ لـ (عُذَافِرَة).

وقولُه: (**وَجْنَاءُ**)؛ أي: عظيمةُ الوَجْنتينِ، وهما طَرَفا الوجهِ.

(**عُلْكُومٌ**) بضمَّتين؛ أي: شديدةٌ. (**مُذَكَّرَةٌ**) بفتحِ الكافِ المشدَّدةِ؛ أي: إنها مع عِظَمِ خَلْقِها كالذَّكَرِ من الأباعرِ.

و(**فِي دَفِّهَا سَعَةٌ**) مبتدأ سوَّغهُ تقدُّمُ الخبرِ، أو فاعلُ الظرفِ؛ لاعتمادِهِ على موصوفٍ أو مبتدأ.

و(الدَّفُّ) بفتحِ الدالِ المهملةِ والفاءِ المُشدَّدةِ: الجَنْبُ، والمرادُ به الجنسُ ليشملَ الجَنبَينِ. والسَّعةُ بفتحِ السينِ، والقياسُ الكسرُ كالعِدَةِ والزِّنة والهِبَةِ، لكنهم فتحوا عينَ هذا المصدرَ لفتحِها في المضارعِ كالضَّعَةِ.

وقولُه: (**مِيلُ**) مبتدأٌ، أو فاعلُ[1] الظرفِ المتقدِّمِ، وهو قولُه: (**قُدَّامَهَا**) بالنصبِ، وجُوِّزَ رفعهُ، قال الفاضلُ: نحوُ: خَلْفَ، وقُدَّامَ، وأمامَ، إذا كانت مُضافةً ظروفٌ وفاقاً، ويجوزُ رفعهُ عند البصريَّةِ والكوفيةِ والجَرْميِّ في الشعرِ لا غير، وإذا كانت مفردةً فليست بظروفٍ عندَ الكوفيينَ، بل هيَ بمعنى اسمِ الفاعلِ، فخلْفَ، بمعنى مُتأخِّرٌ، وقُدَّامَ بمعنى مُتقدِّم، فإذا وقعتْ أخباراً يجبُ رفعُها عندهُم، وعندَ البصريينَ يجوزُ فيهما النصبُ على الظرفيةِ والرفعُ بحذفِ المضافِ، كذا في بعضِ شروحِ «الكافية»[2].

فـ(قدَّامَها) هنا مضافٌ واقعٌ في الشعرِ؛ فيجوزُ رفعهُ بالاتِّفاقِ.

---

(١) في «و»: «وفاعله»، والمثبت من «س» وهو الصواب.

(٢) انظر: «شرح الكافية الشافية» لابن مالك (٢/ ٩٦٥).

وَجِلْدُهَا مِنْ أَطُومٍ لاَ يُؤَبِّسُهُ[1] طِلْحٌ بِضَاحِيَةِ الْمَتْنَيْنِ مَهْزُولُ

(**جِلْدُهَا**) مبتدأٌ خبرهُ (**مِنْ أَطُومٍ**)؛ أي: من جِلدهِ، وهوَ بفتحِ الهمزةِ وضمِّ الطاءِ المُهملةِ، قيل: هي سُلحفاةٌ بحريةٌ، وقيل: سمكةٌ غليظةُ الجلدِ في البحرِ يُشبَّهُ بها جلدُ البعيرِ الأملَسِ، ويُتخذُ منها الخِفَافُ للجمَّالينَ، ويُخصَفُ بها النِّعالُ للحمَّالينَ.

وجملةُ (**لاَ يُؤَبِّسُهُ طِلْحٌ**) صفةُ (أَطوم) يقال: أَبَسَهُ يَأْبِسَهُ: وبَّخهُ وروَّعهُ وبه: ذلَّلَه وقَهَرَه، وفلاناً: صغَّرهُ وحقَّرهُ، كأَبَّسهُ تأبيسَاً.

و(طِلْح) بكسرٍ فسكونٍ: قرادٌ، صفتُه (**بِضَاحِيَةِ الْمَتْنَيْنِ**) وهما مُكتَنفَا الصُّلبِ عن يمينٍ وشمالٍ من عَصَبٍ ولحمٍ، والباءُ بمعنى (في)، والإضافةُ بمعنى اللامِ، وضَاحِيةُ كلِّ شيءٍ: ناحيتهُ البارزةُ منه، وهيَ اسمُ فاعلٍ؛ من ضَحِيَتْ بالكسرِ تَضْحَى بالفتحِ: إذا برزتْ للشمسِ، و(أل) في (المتنين) خَلَفٌ عن الضميرِ؛ فهو كـ: حَسَنة الوجهِ، فالمرادُ: ما برزَ من مَتنيهَا للشمسِ.

و(**مَهْزُولُ**) صفةٌ أخرى.

والمعنى: جلدُها أصلبُ أملسُ، لسِمَنها وضخَامتِها؛ فالقُرادُ المهزولُ من الجوعِ لا يلتزقُ بناحيةِ منها، ولا يَلصقُ بها ولا يَثبتُ عليها.

حَرْفٌ أَخُوهَا أَبُوهَا مِنْ مُهَجَّنَةٍ وَعَمُّهَا خَالُهَا قَوْدَاءُ شِمْلِيلُ

(**حَرْفٌ**) خبرُ محذوفٍ؛ أي: هيَ، والجملةُ صفةُ (عُذَافِرَة)، و(**أَبُوهَا**) مبتدأٌ خبرهُ (**أَخُوهَا**)، والجملةُ صفةُ (حَرْف)، وحرفُ كلِّ شيءٍ: طَرَفُهُ، ومنهُ: حرْفُ الجبلِ، وهو أعلاهُ المحدودُ، والحَرْفُ: الناقةُ الضَّامرةُ الصُّلبةُ، شُبِّهتْ بحرْفِ الجَبَلِ؛ أي:

---

(١) في «و»: «يؤيسه» بالياء، والمثبت من «س» وهو الصواب.

أنها مثلُهُ في القوَّةِ والصُّلبةِ، أو المرادُ بالحرفِ: الخَطِّيُّ[١]؛ أي: أنَّها مثلُهُ في الضُّمورِ والرِّقَّةِ؛ ففيهِ تشبيهٌ بليغٌ؛ أي: كالحرفِ.

وقولُه: (أَخُوهَا أَبُوهَا) كنايةٌ عن كمالِ قوَّتها وصلابتِها، وغايةِ كرمِها ونجابتِها؛ إذ ذاكَ من لوازمِ إنزاءِ البعيرِ على النُّوقِ القريبةِ منهُ؛ كالأمِّ والبنتِ؛ فإنَّ البهائمَ إلى قرابتِها أشهَى منها إلى غيرهِنَّ، بخلافِ الإنسانِ، ومتى كانتِ الشهوةُ أكملَ كان الولدُ أقوى.

وقولُه: (مِنْ مُهَجَّنَةٍ) صفةُ (حرفٍ)، و(مِن) بيانيَّةٌ؛ أي: ناقةٌ مُهجَّنةٌ، أو تبعيضِيةٌ؛ أي: مِن نياقٍ مُهَجَّنةٍ؛ أي: مُكْرمَةٍ.

و(عَمُّهَا خَالُهَا) جملةٌ أخرى، صفةُ (حرفٍ).

والمعنى: ناقةٌ صُلبةٌ مرتفعةٌ، كحرْفِ الجبلِ، كاملةُ القُوَّةِ من حيثُ إنَّ أبَاها أخوها، وعمَّها خالُها؛ فإنَّ ذلكَ مِن كمالِ قوَّةِ البهيميَّةِ وغايةُ نجابتِها.

وهي (قَوْدَاءُ)؛ أي: طويلةُ الظَّهرِ والعُنقِ.

(شِمْلِيلُ) بكسرِ الشينِ المُعْجمَةِ؛ أي: سريعةُ السيرِ خفيفةٌ كالطيرِ.

قال الفاضلُ الهنديُّ: صورةُ ذلكَ بعيرٌ ضربَ ـ يعني: نكحَ ـ أُمَّهُ، فولدتْ بعيراً وناقةً، ثم ضربَ البعيرُ الأولُ بنتَهُ هذهِ فولَدتْ ناقةً، فهذهِ الناقةُ أَبُوهَا ـ وهوَ البعيرُ الثالثُ ـ أخوهَا من أُمِّها؛ لأنه ولدُ أمِّهَا قد نزا عَلَيها، فولدتْ هذهِ الناقةَ، والبعيرُ الثاني أخُو أبيها من الأبِ؛ إذ أبُو كلٍّ منهُمَا هو البعيرُ الأولُ؛ فهذهِ ناقةٌ أبوهَا أخوها، وعمُّها خالُها.

وذكرَ في «التكملةِ» صورةً أخرى، وهيَ في مقامِ القُربِ أحْرَى: جملٌ ضربَ ابنتَهُ فجاءتْ بجملينِ؛ فهما ابناهَا مع أنهما أخوَاها لأبيها أيضاً لأنهُما ولدا أبيهَا، ثم

---

(١) الخطي: نوع من الرماح ينسب إلى الخط، وهو موضع باليمامة تحمل إليه الرماح من بلاد الهند فتقوَّم به فنسبت إليه. ووقع في النسختين: «أو المراد الحرف الخطي»، ولعل المثبت هو الصواب.

ضربَ أحدُهما أمَّهُ فجاءَ بناقةٍ، فهذه ناقةٌ أبوهَا أخوهَا لأمِّهَا، والجملُ الآخرُ الذي لم يضربْ أمَّهُ عمُّها؛ لأنه أخُو أبيها لأبٍ وأمٍ، وهو خالُها أيضاً؛ لأنهُ أخو أمِّها لأبٍ؛ لأنَّ أباها وأباهُ واحدٌ، وهو الجملُ الذي ضربَ بنتَهُ، فولدتْ جَمَلينِ.

وقالَ ابنُ هشامٍ: التهجينُ مدحٌ في الإبلِ، ذمٌّ في الإنسانِ؛ إذ معناهُ في الإبلِ: كريمُ الأبوينِ، وفي الإنسانِ: أن يكون الأبُ عربياً والأمُّ أَمَةً، وإن كان الأمرُ بالعكسِ قيلَ: رجلٌ معرَّبٌ[1].

ومن الملَحِ: أنَّ أعرابياً جاء إلى ابنِ شُبْرُمةَ القاضي، فقال: مسألةٌ؟ فقال: هاتِ، فقال: إنَّ أبي ماتَ وخلَّفني وشقيقاً لي وخطَّ بأُصبعيهِ في الأرضِ خَطَّينِ مُتجاورينِ، ثم قالَ: وخلَّفَ هَجِيناً، وخطَّ خطًّا آخرَ بعيداً، ثم قال: ولم يُخَلِّفْ غيرَنا، فاقسِمْ المالَ بيننا.

قالَ: هو بينكُم أثلاثاً، فقال: سبحانَ اللهِ! كأنَّكَ لم تفهمِ المسألةَ، فقالَ أعِدْهَا فأعَادها، فأجابهُ كالأولِ، فقالَ: أَيرِثُ الهَجِينُ كما أرِثُ؟! فقالَ[2]: لقد علمتُ واللهِ أنَّ خالاتِكَ بالدَّهْناءِ قليلةٌ[3]، فقال: لا يَضرُّني ذلكَ عندَ اللهِ شيئاً[4].

يَمْشِي القُرَادُ عَلَيْهَا ثُمَّ يُزْلِقُهُ ... مِنْهَا لَبَانٌ وَأَقْرَابٌ زَهَالِيلُ

(القُرَادُ) بضمِّ القافِ: دُوَيبَّةٌ معروفةٌ تَلتزقُ الدابَّةَ، يقالُ لها بالفارسيةِ: كنه، والمعنى: أنَّ جلدهَا أملسُ لِسمنها؛ فالقُرَادُ لا يثبتُ عليهَا، وهذا تأكيدٌ لقولهِ: (وجلدُهَا من أُطُوم) فلو ذكرهُ بجَنْبِه لكانَ أليقَ، ذكرهُ ابنُ هشامٍ[5].

---

(١) في «س»: «مقرَّف».

(٢) أي: الأعرابي. انظر: «محاضرات الأدباء» لأبي القاسم الأصفهاني (١/ ٤٢١)، لكنه ذكر القصة عن سوار القاضي لا عن ابن شبرمة كما ذكرها ابن هشام.

(٣) في «المحاضرات»: «أعلم أنك قليل الحالات بالدهناء».

(٤) انظر: «شرح ابن هشام لبانت سعاد» (ص: ٥٣).

(٥) انظر: المصدر السابق (ص: ٥٠).

ولعلَّ وجهَهُ: أنَّ البيتَ الوسطانيَّ جملةٌ معترضةٌ.

وقولُه: (**ثُمَّ يُزْلِقُهُ**) بضمِّ الياءِ وبكسرِ اللامِ من الإزلاقِ، وهو إفعالٌ من الزَّلقِ، وهو نقيضُ ثباتِ القَدمِ[1]، والزَّلْقُ أيضاً جاءَ مُتعدِّياً، وقُرئ بالوجهينِ قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ﴾ [القلم: ٥١]، ونافعٌ يفتحُهَا[2].

و(**ثُمَّ**) هنا للترتيبِ لا للتراخي؛ إذ لا يَحسُنُ أن يُخبرَ عنها بتراخي سقوطِهِ عنها، بل بقُربِهِ وسرعتِهِ منها.

و(مِن) في (**مِنْهَا**) للابتداءِ، أو بمعنى (عن)، ويؤيِّدُهُ أنه رُويَ: (عنها).

(**لَبَانٌ**) بفتحِ اللامِ والمُوحَدَّةِ: الصدرُ، أو وسطهُ، أو ما بينَ الثديينِ.

و(**أَقْرَابٌ**) بفتحِ أولِهِ؛ أي: خواصرُ، وفيهِ إقامةُ الجمعِ مُقامَ المُثنَّى؛ نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

وقولُه: (**زَهَالِيلُ**): جمعُ زُهْلولٍ بالضمِّ، بمعنى: أملسَ، صفةُ (أقراب)، كما ذكرهُ الفاضلُ، وهو أقربُ، أو صفةُ (لَبان) و(أَقْرَاب) كما ذكرهُ ابنُ جَمَاعةَ، وهو أنسبُ.

عَيْرَانَةٌ قُذِفَتْ بِالنَّحْضِ عَنْ عُرُضٍ   مِرْفَقُهَا عَنْ بَنَاتِ الزَّوْرِ مَفْتُولُ

(**عَيْرَانَةٌ**) خبرٌ لمحذوفٍ؛ أي: هيَ، وهيَ بفتحِ عينٍ مُهملةٍ: ناقةٌ شبيهةٌ بعَيرِ الوحشِ في سرعتِها ونشاطِها، وصلابتِها وانبساطِها.

(**قُذِفَتْ**) بصيغةِ المجهولِ؛ أي: رُمِيتْ (**بِالنَّحْضِ**) بنونٍ مفتوحةٍ فحاءٍ مهملةٍ ساكنةٍ وضادٍ معجمةٍ: اللحمُ، ورُويَ: (قُذِّفتْ) بتشديدِ الذالِ، وقُذفتْ باللَّحمِ (**عَنْ عُرُضٍ**) بضمتينِ؛ أي: جانبٍ.

---

(١) في «و»: «الثبات القدم»، والمثبت من «س» وهو الصواب.

(٢) انظر: «التيسير» للداني (ص: ٢١٣).

والمعنى: رُميتْ باللحمِ عن كلِّ جانبٍ من جوانبِها؛ بإرادةِ العُمومِ المُستفادِ من النكرةِ المثبَتةِ، على حدِّ قولِهِ تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤].

و(**مِرْفَقُهَا**) مبتدأٌ خبرهُ (**مفتولُ**)، و(**عن بناتِ الزَّورِ**) متعلِّقٌ بهِ.

والمِرفقُ: بكسرِ الميمِ وفتحِ الفاءِ وعكسِهِ لغتانِ، وبهما قُرئ في السبعةِ قولُه تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦][1].

و(**الزَّورِ**) بفتحِ الزاي: أعلى الصدرِ، وبناتُه: ما يتصلُ بهِ مما حولَهُ من الأضلاعِ وغيرِهَا.

والفَتْلُ بالفاءِ: الصرفُ.

والمعنى: هي مَصُونةٌ عن الضَّغطِ والزَّلَقِ وانقطاعِها؛ لبُعدِ مَرفقِها عن أضلاعِهَا.

كَأَنَّمَا فَاتَ عَيْنَيْهَا وَمَذْبَحَهَا ... مِنْ خَطْمِهَا وَمِنَ اللَّحْيَيْنِ بِرْطِيلُ

(ما) موصولةٌ، وهيَ مع صلتِها ـ أعني: فاتَ عَيْنَيْهَا ـ اسمُ (كانَ)، و(**بِرْطِيلُ**) بكسرِ أولِهِ خبرُهُ، و(**فَاتَ**) بالفاءِ، وفي آخرِهِ التاءُ منَ الفوتِ؛ أي: تقدَّم، قالَ الأصمعيُّ: الوجهُ كلُّه فائتُ العينينِ إلا الجبهةَ.

و(**مَذْبَحَهَا**) بفتحِ المُوحدَّةِ؛ أي: منحَرَها، وهوَ ما يَلِي الصدرَ، و(**مِنْ خَطْمِهَا**) خبرٌ مقدَّمٌ، والخَطْمُ ـ بفتحِ الخاءِ المُعْجمَةِ ـ من كلِّ طائرٍ: منقارُه، ومن كلِّ دابةٍ مقدَّمُ أنفهِ وفمِهِ.

و(**مِنَ اللَّحْيَيْنِ**) عطفٌ، وهما بفتحِ اللامِ: العَظْمانِ اللَّذانِ ينبتُ عليهِمَا اللِّحيةُ ـ بالكسرِ ـ من الإنسانِ، ونظيرهُ من بَقِيَّةِ الحيوانِ.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ الباقون بكسر الميم وفتح الفاء. انظر: «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (٢/ ٣١٠).

و(بِرْطِيلُ) مبتدأٌ مؤخَّرٌ، وهو بكسرِ أولِهِ: مِعْوَلٌ من حديدٍ، وأيضاً: حجَرٌ مُستطيلٌ؛ شبَّه رأسهَا بأحدهما في الكِبَرِ والعِظَمِ والقوَّةِ.

والحاصلُ: أنهُ وصفَها بكِبَرِ الرأسِ وعِظَمِهِ وقوَّتِهِ وصلابتِهِ، وفيه إيماءٌ إلى فخامتِه وشهامتِه.

وفي نسخةٍ: (قابُ) بدل: (فاتَ)، وهو بالقافِ، وفي آخرِهِ موحَّدةٌ مرفوعةٌ.

قال الفاضلُ: (ما) كافَّةٌ؛ أي: مانعةٌ لـ(كأنَّ) عن العملِ، وقابُ الشيءِ: قَدْرُهُ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: ٩]، وهو مبتدأٌ مضافٌ إلى (عَيْنَيْهَا)، و(مَذْبَحِهَا)[١] عطفٌ على (عَيْنَيْهَا)، و(مِنْ خَطْمِهَا) و(مِنَ اللَّحْيَيْنِ) حالان من (قَابُ عَيْنَيْهَا وَمَذْبَحِهَا) على اللَّفِ والنشرِ المُرتَّب، و(مِن) للابتداءِ، والعاملُ فيهما معنى الفعلِ المُستفادِ من (كأنَّ)، وإضافةُ القابِ لأدنى ملابَسةٍ، والمرادُ: قابُ وجهِهَا المنتهِي إلى عَيْنَيهَا، وقابُ عُنقِها المنتهي إلى مَذْبَحِها، و(بِرْطِيلُ) خبرُ المبتدأ بحذفِ مضافٍ؛ أي: قَدْرُ بِرطيلٍ؛ يعني: كأنَّ قَدْرَ وجهِهَا المُنتهي إلى عينيهَا مبتدأً مِن خَطْمِهَا، وقَدْرَ عُنُقِهَا المُنتهي إلى مَذبحِهَا مبتدَأً من اللَّحيينِ، قَدْرُ حَجَرٍ طويلٍ في الطُّولِ والصَّلابةِ.

والمعنى: أنَّ وجهَها من مُقدَّمِ الأنفِ إلى العينينِ كحَجَرٍ طويلٍ، وكذا عُنُقُهَا من المَنْحَرِ إلى اللَّحْيَين كحَجَرٍ طويلٍ، فيما ذُكرَ من وجهِ الشَّبهِ.

تُمِرُّ مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذَا خُصَلٍ فِي غَارِزٍ لَمْ تَخَوَّنْهُ الأَحَالِيلُ

(**تُمِرُّ**) مِن أَمَرَّهُ: جعلَهُ مارّاً؛ أي: تُمِرُّ عِيرانَةُ ذنباً؛ (**مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ**) في الطولِ، وهو جَرِيدُهُ الذي لم يَنْبُتْ عليهِ الخُوصُ؛ فإنْ نبتَ عليهِ يسمَّى: سَعَفاً؛ بفتحِ السينِ والعينِ المهملتينِ وبالفاءِ.

---

(١) بالجر هنا على ما في «ج»، وعلى ما في «س» ـ يعني: فات ـ هي منصوبة.

(ذَا خُصَلٍ) بضمٍّ ففتحٍ: جمعُ خُصْلةٍ من الشَّعرِ، صفةٌ أخرى لموصوفٍ محذوفٍ.

(فِي غَارِزٍ) متعلِّقٌ بـ (تُمِرُّ) على أنَّ (في) بمعنى (على)، على حدِّ قولِه تعالى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وهو بغينٍ مُعجَمةٍ، ثم راءٍ مكسورةٍ فزايٍ؛ من غَرَزتِ الناقةُ ـ بالفتحِ ـ تَغرُز بالضمِّ: إذا قلَّ لبنُها، والمرادُ به هنا: الضَّرعُ.

وقولُه: (لَمْ تَخَوَّنْهُ) بفتحِ الخاءِ المعجَمةِ والواوِ المشدَّدةِ، حُذفَ منه إحدى التاءينِ؛ أي: لم تَتَنَقَّصْهُ.

(الأَحَالِيلُ) بفتحِ الهمزةِ والحاءِ المهملةِ: جمعُ إحليلٍ، وهو مخرجُ الَّلبنِ من الضِّرعِ، وهو المرادُ هاهنا، ويُطلقُ على مخرجِ البولِ أيضاً.

والمعنى: أنها حائلٌ لا تُحلبُ، وذلك أقوى لها على السيرِ؛ فنفَى الضَّعفَ عنها بنفيِهِ عن ضَرعِهَا.

قَنْوَاءُ فِي حُرَّتَيْهَا لِلبَصِيرِ بِهَا ... عِتْقٌ مُبِينٌ وَفِي الْخَدَّيْنِ تَسْهِيلُ

أي: هي قَنواءُ، أو صفةُ (عَيْرَانَةٌ)، مؤنَّثُ أقْنَى، من القَنَا؛ كالعَصَا، وهو احْدِيدَابٌ في الأنفِ؛ أي: ارتفاعٌ في وسطِهِ، وفي روايةٍ: (وجْنَاءُ) بدلُ (قَنْواءُ)، ويُضعِّفُها لزومُ تكرارِهِ بقولِهِ: (غَلْباءُ وجْنَاءُ)، ويُرجِّحُها ما قيلَ: من أنَّ القَنَا عيبٌ في الإبلِ.

و(فِي حُرَّتَيْهَا) بضمِّ الحاءِ وتشديدِ الرَّاءِ خبرٌ مُقدَّمٌ، وهما الأُذنانِ، وقد رَوَى اليَشْكُرِيُّ: أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا سمعَ هذا البيتَ قالَ لأصحابِهِ: «ما حُرَّتاها؟» فقالَ بعضُهم: عيناهَا، وسكتَ بعضُهم، فقال ﷺ: «أُذُنَاهَا» ذكرهُ ابنُ هشامٍ[1].

وقولُه: (لِلبَصِيرِ) متعلِّقٌ بـ (مُبِينٌ)؛ أي: للعليمِ بتلكَ الناقةِ؛ فالباءُ صلةٌ

(١) انظر: «شرح ابن هشام لبانت سعاد» (ص ٥٧)، وفيه: «العسكري» بدل: «اليشكري»، وفي «ج»: «السكري».

(البصيرِ)، أو للرائي إيَّاها؛ فالباءُ زائدةٌ، و(عِتْقٌ) مبتدأٌ، أو فاعلٌ للظرفِ، ومعناهُ: كرمٌ ونَجابةٌ، (مبينٌ) صفتُه؛ أي: ظاهرٌ.

و(فِـي الْخَدَّيْـنِ تَسْـهِيلُ) إعرابُه كما سبقَ؛ أي: وفـي خَدَّيهَا لِينٌ وسـهولةٌ لا خُشـونةٌ وحُزونةٌ.

والمعنى: إذا نظرَ البصيرُ بالإبلِ إلى أُذُنيها وسهولةِ خديَّها بانَ له عِتقُها وكرمُهَا.

تَخْـدِي عَلَـى يَسَـرَاتٍ وَهْـيَ لاَحِقَـةٌ ذَوَابِــلٌ مَسُّــهُنَّ الأَرْضَ تَحْلِيــلُ

(تَخْدِي) كتَرمِيْ، بمعجمَةٍ فمهمَلةٍ، بمعنى: تُسرعُ، وبمعجَمَتين: تَسترخِي، وهو أبلغُ؛ لأنَّها مع استرخَائِها في السيرِ تَلحَقُ النُّوقَ السَّوابقَ، فكيفَ لو أسرعتْ.

وقولُـه: (عَلَـى يَسَـرَاتٍ) بفتحتيـنِ؛ أي: قوائمَ خِفـافٍ، و(عَلَـى) بمعنى الباءِ الداخلـةِ علـى الآلةِ؛ أي: تُسـرعُ بها، أو على حقِيقتِها باعتبارِ اسـتعلاءِ الماشـيةِ على قوائمِها.

وجملـةُ (وَهْـيَ لاَحِقَـةٌ)؛ أي: مُدْرِكـةٌ، حـالٌ مـن (يَسَـرَاتٍ)، وسـوَّغَ مجيءَ الحـالِ مـن النكـرةِ عـدمُ صلاحيـةِ الجملـةِ للوصفيـةِ؛ لاقترانِهـا بالـواوِ، علـى حدِّ قولـهِ تعالـى: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقـرة: ٢٥٩].

ورُويَ: (لاهيـةٌ) بـدلَ (لاحقـةٌ)؛ أي: أنَّهـا تُسـرعُ مـن غيـرِ اكتـراثٍ ومبالاةٍ، كأنَّ ذلـك سـجيَّةٌ لهـا، وهـي تَفْعلُه وهـيَ غافلـةٌ عنهُ.

وقولُـه: (ذَوَابِـلٌ) نُوِّنَ للضرورةِ، وهو جمـعُ ذابلٍ؛ أي: اليابـسُ، خبرٌ ثانٍ، أو حـالٌ مـن ضمير (لاحقـةٌ)، أو صفـةُ (يَسَـرَاتٍ)، والفصـلُ بين الصفـةِ والموصوفِ جائـزٌ، نحوَ قولـه تعالـى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعـة: ٧٦]، وهذا أوفقُ لِمَـا بعدَهُ مـن الجملـةِ؛ فإنها صفةٌ لهـا أيضاً.

وفي نسخةٍ: (وقْعُهُنَّ) بدل: (مَسُّهُنَّ)، وهو مبتدأٌ خبرُه (تَحْلِيلُ)؛ أي: شيءٌ قليلٌ لم يُبالَغْ فيهِ؛ كأنَّهُ من تحليلِ القَسَمِ، يُشيرُ بالجملةِ إلى صفةِ رفعِهَا قوائمَها؛ فلا تمسُّ الأرضَ إلا تحلَّةَ القَسَمِ، كما يحلفُ الإنسانُ على الشيء لَيَفْعلنَّهُ، ففعلَ منهُ اليسيرَ ليتحلَّلَ به قسمُه، هذا أصلُه، ثم كثُرَ حتى قيلَ لكلِّ شيءٍ لم يُبالَغْ فيهِ.

ومعنى البيت: أنها تُسرعُ بقوائمِهَا الخِفافِ الدَّقيقةِ مسرِعةً في سَيرِها، كأنها لا تمسُّ الأرضَ إلا تَحِلَّةَ القَسَمِ، والحالُ أنَّها ضامرةٌ أو لاحقةٌ بالنُّوقِ السابقةِ[1] عليها، أو اللَّاحقةِ بالديارِ البعيدةِ إليها.

سُمْرُ العُجَايَاتِ يَتْرُكْنَ الْحَصَى زِيَمًا   لَمْ يَقِهِنَّ رُؤُوسَ الأُكْمِ تَنْعِيلُ

(**سُمْرُ**): جمعُ أسمرَ، والسُّمْرةُ: لونٌ يَقْرُبُ من السَّوَادِ، وهو بالرَّفعِ خبرُ محذوفٍ هو: (هي)، والجملةُ صفةُ (يَسَرَاتٍ)، والإضافةُ لفظيةٌ؛ أي: سُمْرٌ عُجَايَاتُها، وهي بضمِّ العينِ المُهملةِ وبالجيمِ: جمعُ عُجَايةٍ، وهي: لحمةٌ مُتَّصِلةٌ بالعَصبِ المُنحدرِ من ركُبَةِ البعيرِ إلى الفِرْسِنِ، والفِرْسِنُ في البعيرِ كالحافرِ في الدابةِ، وذلك مِن سِمَاتِ القوَّةِ والصَّلابةِ والنَّجَابةِ.

وجملة (**يَتْرُكْنَ**) صفةُ (يَسَرَاتٍ)، وهو بمعنى: يَجْعلَنَّ، متعدٍّ إلى مفعولينِ، وقيل: (زِيَمَاً) حالٌ من (الحَصَى) وهو بكسرِ الزاي وفتحِ الياءِ: المتفرِّقُ؛ أي: أنها لشدَّةِ وطئها الأرضَ تُفرِّقُ الحَصَى عن موضعِها.

وجملةُ (**لَمْ يَقِهِنَّ**) صفةُ (يَسَرَاتٍ) أيضاً، من الوِقَاية بمعنى الحفظِ، وفي بعضِ الرواياتِ: (لم يُبْقِهنَّ) من الإبقاءِ.

و(**رُؤُوسَ الأُكْمِ**) ظرفُ مكانٍ بحذفِ مضافٍ؛ أي: لم يَقِهنَّ ـ أو: لم يُبْقِهنَّ ـ فوقَ رؤوسِ الأُكْمِ، وهو بضمِّ الهمزةِ وسكونِ الكافِ مُخفَّفُ أُكُم بضمتينِ جمعُ

(١) في «س»: «المسابق».

إِكَام، ككُتبٍ وكِتَابٍ، و(الآكامُ) جمعُ أَكَمٍ بفتحتينِ، كجِبَالٍ وجَبَلٍ، والأَكَمُ، بفتحتينِ: جمعُ أَكَمَةٍ؛ كثَمَرٍ وثَمرةٍ.

والأصوبُ على روايةِ (لَمْ يَقِهِنَّ) كونُه مفعولاً ثانياً لـ (يَقِ)؛ إذ الوقايةُ تتعدَّى إلى مفعولينِ، يقالُ: وقيتُه الشرَّ، قالَ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [الإنسان: ١١].

والمعنى: لا يُحتاجُ لوقايتِها من أذَى رؤوسِ الأُكُمِ ـ أو لبقائِهَا فوقَ رؤوسِ الأُكُمِ ـ إلى تنعيلٍ كسائرِ النُّوقِ، بل كَفَى بصَلابَتِها وقايةً.

و(**تَنْعِيلُ**) فاعلُ (يَقِ)[1]، وهو شَدُّ النعلِ على حافرِ الدابةِ؛ أي: أَنَّها ناقةٌ صُلبةٌ، لا تَحْفَى في سَيرِهَا، ولا تَرِقُّ قَدَمَها، فلا تحتاجُ إلى النعلِ عندَ جريِها.

كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا إِذَا عَرِقَتْ ... وَقَدْ تَلَفَّعَ بِالقُورِ العَسَاقِيلُ

الجملةُ الأولى صفةُ (عَيْرَانَةٌ)، والأَوْبُ بفتحِ أولِهِ: سرعةُ تقليبِ[2] اليدينِ والرِّجلينِ، و(**إِذَا عَرِقَتْ**) ظرفُ (**أَوْبَ**)، وهو كنايةٌ عن وقتِ الهاجرةِ، وهو وقتُ اشتدادِ الحرِّ، وإنما خَصَّ التشبيهَ بهذا الوقتِ؛ لأنَّ السرابَ إنما يظهرُ عند قوةِ حرِّ الشمسِ.

وتلفَّعَ الرجلُ بالثوبِ: اشتملَ عليهِ وتغطَّى بهِ.

و(**القُور**) بالضمِّ: جمعُ قارَةٍ، وهي جبلٌ صغيرٌ، و(**العَسَاقِيلُ**): السَّرابُ، وهوَ ما تراهُ نصفَ النهارِ، والجملةُ حالٌ من ضميرِ (عَرِقَتْ).

قيل: ليسَ في هذهِ الجملةِ الحاليةِ ضميرُ صاحِبِها؟

وأجيبَ: بأنهُ يجوزُ إخلاءُ الجملةِ الحاليةِ عنهُ؛ كـ: لقيتُكَ والجيشُ قادمٌ. كذا في «المُفصَّلِ»[3].

---

(١) في «س»: «لم يق».

(٢) في «س»: «تقلب».

(٣) انظر: «المفصل بشرح ابن يعيش» (ص: ٩٢).

يَوْمـاً يَظَـلُّ بِـهِ الْحِرْبـاءُ مُصْطَخِـداً كَأَنَّ ضَاحِيَـهُ بِالشَّـمْسِ مَمْلُـولُ

(يَوْماً) ظرفُ (تلفَّعَ) أو (عَرِقَتْ)، أو بدلٌ من (إذا) بدلَ كلٍّ.

و(يَظَلُّ) بفتحِ الظاءِ المُعْجمَةِ، مضارعُ ظَلِلتُ بالكسرِ، يقال: ظَلِلتُ أعملُ كذا ظُلُولاً: إذا عملتُه بالنَّهارِ، وقد يُخفَّفُ بحذفِ إحدى اللامينِ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧]، وقد يُفسَّرُ (يَظَلُّ) بمعنى يَصيرُ.

و(بِهِ) بمعنى: فيهِ، و(الحِرْباءُ) بكسرِ الحاءِ: دُوَيْبَّةٌ مُخَطَّطَةٌ تستقبلُ الشمسَ وتدورُ معها، فتصيرُ وقتَ الهاجرةِ في أعلى الشجرِ، وقيل: حيوانٌ يُرى له سَنَامٌ كسَنَامِ الإبلِ، يَستقبلُ الشمسَ، ويدورُ معها كيفَ دارتْ، ويتلَّونُ ألواناً بحرِّ الشمسِ، وهو في الظلِّ أخضرُ، ويُكنى: أبا قُرَّةَ، وبه يُضربُ المثلُ؛ لأنهُ يُمسكُ ساقَ الشجرِ، فلا يُرسلُه إلا ويُمسكُ ساقاً آخرَ، وألفُه للإلحاقِ بقرطاسٍ.

وقولُه: (مُصْطَخِداً) بكسرِ الخاءِ المُعْجمَةِ؛ أي: محترِقاً، وأصلُه: مُصْتخِداً، يقالُ: اصْطخَدَ: إذا تصلَّى بحرِّ الشمسِ، ورُويَ (مُصْطَخِماً) واصْطخَمَ بالميمِ: انتصبَ قائماً.

والضَّاحِي: البارزُ، ويُروى: (بالنار) بدل (بالشمس)، والباءُ للسببيةِ.

و(مَمْلُولُ) مفعولٌ من مَلَلْتُ الخُبزَ بالفتحِ أمُلُّهُ بالضمِّ: إذا عَمِلتُه في المَلَّةِ، بفتحِ الميمِ: وهي الرمادُ الحارُّ، وقيلَ: الحُفْرةُ نفسُها، ويقالُ لذلكَ الخُبزِ: ملولٌ ومليلٌ أيضاً.

والحاصلُ: أنهُ شبَّهَ أَوْبَ ذراعَيها بأوبِ ذِراعَي عَيْطَلٍ وقتَ عرقِها في يومٍ شديدِ الحرِّ يظلُّ فيه الحرباءُ محترِقاً بحيثُ يكونُ ظاهرُه كأنهُ بسببِ الشمسِ مجعولٌ في الرمادِ الحارِّ.

وَقَالَ لِلقَوْمِ حَادِيهِمْ وَقَدْ جَعَلَتْ ... وُرْقُ الْجَنادِبِ يَرْكُضْنَ الحَصَى: قِيلُوا

(**قَالَ**) عطفٌ على (تلفَّعَ)، و(**حَادِيهِمْ**) سائقُ إبلِهم بالحُدَاءِ، وهو الغِناءُ.

و(الوُرقُ) بضمِّ أولِه: جمعُ أَوْرقَ؛ كحُمْرٍ وأَحْمَرَ، والوُرْقَةُ: لونٌ يُشبهُ الرمادَ، وقيل: أخضرُ يضربُ إلى سوادٍ.

و(**الْجَنادِب**): جمعُ جُنُدبٍ، بضمِّ الجيمِ والدالِ ويُفتحُ: ذَكَرُ الجرادِ، وقيل: ضربٌ منهُ، وقيلَ: الصِّغارُ منهُ، والإضافةُ فيه من بابِ: أخلاقُ ثيابٍ.

والرَّكضُ: تحريكُ الرِّجلِ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢].

أي: والحالُ أنَّ جَنادِبَ الوُرْقِ أخذنَ يُحرِّكنَ أرجُلهنَّ على الحَصَياتِ، لا يُمْكِنُ لهنَّ التمكُّنُ عليها لكونها مُحمَّاةً بالحرِّ، ولا الطيرانُ عنها؛ لإعيائها عنه لتأثيرِ الحرِّ فيها، أو: أَخَذْنَ يَضربْنَ الحَصَى بأرجُلِهنَّ لقصدِ النزولِ؛ للإعياءِ عن الطيرانِ، فيهربنَ من حرِّهَا.

وقولُه: (**قِيلُوا**) مقولُ (قالَ) وهو أمرٌ مِن قالَ يَقِيلُ قَيلُولةً: وهي النومُ في نصفِ النهارِ، وقيلَ: الاستراحةُ في النهارِ وقتَ شدَّةِ الحَرِّ وإن لم يكنْ مع ذلكَ نومٌ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، ومن الأولِ قولُه تعالى: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

شَدَّ النَّهَارِ ذِرَاعَا عَيْطَلٍ نَصَفٍ ... قَامَتْ فَجَاوَبَهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ

(**شَدَّ النَّهَارِ**): ارتفاعهُ؛ فهو مصدرٌ جُعلَ ظرفاً؛ أي: وقتَ ارتفاعهِ؛ كـ: لقيتُكَ قدومَ فلانٍ، فهو إمَّا ظرفٌ لغوٌ لـ(قيلوا)، أو بدلٌ مِن (يوماً) في (يَوْماً يَظَلُّ بِهِ الحِرْباءُ).

وقولُه: (**ذِرَاعَا عَيْطَلٍ**) خبرُ (كأنَّ) بحذفِ مضافٍ؛ أي: كأنَّ أوبَ ذراعَيها في هذهِ الحالاتِ أوبَ ذراعَيْ عَيْطلٍ.

والعَيْطَلُ: الطويلةُ.

و(النَّصَفُ) بفتحتينِ: التي بينَ الشَّابَّةِ والكَهْلةِ، وما أحسنَ قولَ الحَمَاسيِّ:

لَا تَنْكِحَـنَّ عَجُـوزاً إِنْ دُعِيْـتَ لَهَـا   واخْلَـعْ ثِيابَـكَ عنهـا مُمْعِنـاً هَرَبَـا

وإِنْ أَتَـوْكَ وقَالُـوا إنَّهـا نَصَـفٌ   فَـإِنَّ أَمْثَـلَ نِصْفَيْهَـا الـذيْ ذَهَبَـا[1]

وضميرُ (قَامَتْ) إلى (عَيْطَلٍ)، (**فَجَاوَبَهَا نُكْدٌ**) بضمِّ النونِ وسكونِ الكافِ: جمعُ نَكْدَاءَ، كحَمْراءَ وحُمْرٍ، وهي التي لا يعيشُ لها ولدٌ.

و(**مَثَاكِيلُ**) بفتحِ الميمِ: جمعُ مِثْكَالٍ بكسرِها، وهي الكثيرةُ الثُّكْلِ، والثُّكْلُ: فقدانُ المَرأةِ ولدَها؛ أي: التي ماتَ لها أولادٌ كثيرةٌ.

والمعنى: كأنَّ ذِراعَيْ هذه الناقةِ في سُرعةِ سيرها ذراعَا هذه المرأةِ في اللَّطْمِ لَمَّا فقدتْ ولدَها، جاوبَهَا نساءٌ فَقَدْنَ أولادَهُنَّ؛ إذ النساءُ المثاكيلُ إذا جاوبْنَها كانَ ذلكَ أقوى لحُزْنهَا وأنشطَ في ترجيعِ يديها عندَ النِّياحةِ لمُساعَدَتهنَّ لها.

نَوَّاحَـةٌ رِخْـوَةُ الضَّبْعَيْـنِ لَيْـسَ لَهَـا   لَمَّـا نَعَـى بِكْرَهَـا النَّاعُـونَ مَعْقُـولُ

(**نَوَّاحَـةٌ**) بتشـديدِ الواوِ: مبالغةُ نائحـةٍ، صفةٌ أُخرى لـ(عَيْطَـلٍ)، وكذا (**رِخْوَةُ الضَّبْعَيْـنِ**) بكسـرِ الـراءِ، وتُثلَّـثُ، والإضافةُ لفظيـةٌ؛ أي: رِخْـوةٌ ضَبْعَاهـا، والضَّبْعُ؛ بفتحٍ فسـكونٍ: العَضُدُ.

والنَّعيُ بالفتحِ: خبرُ الموتِ.

والبِكْرُ بالكسرِ: أولُ أولادِ المرأةِ ذكراً كان أو أنثى.

والنَّاعِي: مَن يأتي بخبرِ الموتِ.

والمعقولُ: اسمُ (ليسَ) بمعنى العَقْلِ، وهو أحدُ المصادرِ التي جاءتْ على صيغةِ

---

(١) انظر: «الحماسة» بشرح المرزوقي (ص: ١٣١١).

مفعولٍ؛ كمَعْسورٍ، ومَيْسُورٍ، ومَفْتونٍ، كما في الآيةِ[١] على ما قالهُ الأخفشُ والفرَّاءُ.

وأنكرَ سِيبَويه مجيءَ المصدرِ بزنةِ المفعولِ[٢]، وتأوَّلَ قولَهُم: دَعْهُ من معسورهِ إلى ميسورهِ، على أنه صفةٌ لزمنٍ محذوفٍ؛ أي: دَعْهُ من زمنٍ يُعْسِرُ فيهِ إلى زَمَنٍ يُوسرُ فيهِ.

وقولهُم: ما لهُ معقولٌ، على معنى: ما لهُ شيءٌ يُتعقَّلُ، ويلزمُ من انتفاءِ الشيءِ المُتعقَّلِ انتفاءُ العَقْلِ، كما يلزمُ من انتفاءِ المضروبِ انتفاءُ الضربِ.

وأمَّا الآيةُ، فقيلَ: الباءُ زائدةٌ.

والمعنى: إنَّ هذهِ المرأةَ كثيرةُ النَّوْحِ مُسترخِيةُ العَضُدينِ، فيدَاها سريعةُ الحركةِ، فلمَّا أخبرَها الناعونَ بموتِ ولدِهَا لم يبقَ لها عقلٌ، فأقبلتْ تُشقِّقُ مَنْحرَها وصدرَها بيدِهَا.

تَفْرِي اللَّبَانَ بِكَفَّيْها وَمِدْرَعُها ... مُشَقَّقٌ عَنْ تَرَاقِيهَا رَعَابِيلُ

(**تَفْرِي**) بالفاءِ وكسرِ الراءِ، ويجوزُ في تائهِ الفتحُ والضمُّ، يُقالُ: فريتُه وأَفْريتُه بمعنىً واحدٍ، وقيل: أفريتُ الأديمَ: قطعتُه للإفسادِ، وفريتُه: قطعتُه للإصلاحِ، والجملةُ صفةُ (عَيْطَلٍ).

و(**اللَّبَان**) بفتحِ اللامِ: الصَّدرُ، و(أل) فيه نائبةٌ عن الضميرِ؛ أي: لَبانَها؛ يعني: قميصَها.

والباءُ في (**بِكَفَّيْهَا**) للاستعانةِ.

وأُوردَ عليه: أن الفَرْيَ بالأناملِ لا بالكفَّينِ.

وأُجيبَ: بأنه قد يحصلُ الفَريُ بالكفِّ عندَ شدَّةِ الضربِ به وكثرتِهِ،

---

(١) أي: في قوله تعالى: ﴿بِأَيِيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦].

(٢) انظر: «شرح شافية ابن الحاجب» للرضي (١/ ١٦٨).

حيثُ يتورَّمُ به الجلدُ فيشقَّقُ، أو يُحملُ على حذفِ مضافينِ؛ أي: بأناملِ أصابعِ كفَّيهَا، والأولُ أبلغُ وأدلُّ على الوجعِ والمُصيبةِ.

و(**مِدْرَعُها**) مبتدأٌ، (**مُشَقَّقٌ**) خبرهُ؛ أي: مشقوقٌ شقّاً كثيراً، و(**رَعَابِيلُ**) خبرٌ ثانٍ، والجملةُ حالٌ من فاعلِ (تَفْرِي).

و(**عَنْ تَرَاقِيهَا**) متعلِّق بـ (مُشَقَّق) بتضمينِ معنى الإزالةِ أو التَّنحيةِ؛ أي: مُزالاً منها، أو مُنَحًّى عنها.

و(التراقِي) بفتحِ أوَّلهِ وكسرِ القافِ: جمعُ تَرْقُوةٍ؛ بفتحِ التَّاءِ، والعامَّةُ يَضُمُّونَها وهوَ خطأٌ، ووزنُهَا فَعْلُوَةٌ، وهي عظامُ الصدرِ التي تقعُ عليها القِلادةُ، وفيه استعمالُ الجمعِ موضعَ المُفرد للمُبالغةِ.

قيل: (الرَّعَابيلُ) بفتحِ الراءِ: قِطَعٌ، وقيلَ: ممزَّقٌ، وقيلَ: الرَّعَابيلُ: الأخلاقُ، واحدهُ: رُعْبُولٌ، وإنما يصحُّ حملُه على المِدْرعِ الواحدِ باعتبارِ حذفِ أداةِ التشبيهِ؛ أي: مِدْرَعُهَا كالثيابِ الأخلاقِ في التشقُّقِ وتفرُّقِ الأجزاءِ، أو باعتبارِ أنه أُريدَ بالمِدْرعِ الجنسُ، فكانَ حملُ الجمعِ عليه نظيرَ التَّوصيفِ، في نحوِ: الدرهمُ البِيضُ.

والمعنى: أنها تضربُ صدرَها بكفَّيهَا مُشقِّقةً درعَها؛ تأسُّفاً على ولدِها.

يَسْعَى الوُشَاةُ جَنابَيْهَا وَقَوْلُهُمُ ... إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ

جملةُ (يَسْعَى) بالتذكيرِ والتأنيثِ، صفةُ (عُذَافِرةٌ)، أو (حَرْفٌ) أو (عَيْرَانَةٌ)، والمرادُ بالسَّعيِ هنا: ما يقعُ من الوُشَاةِ -بضمِّ الواوِ-: وهم النمَّامونَ، من الإفسادِ بكلامِهم، والضَّررِ بِمَلامِهم.

و(**جَنابَيْهَا**) ظرفٌ لـ (يسعَى)، ونصبُه بالياءِ؛ لأنه مُثنَّى جَنَابٍ بفتحِ الجيمِ، وهو الفِناءُ، بكسرِ الفاءِ، وما قرُبَ من محَلَّةِ القومِ ودُورِهِم.

ورُوِيَ: (حَوَالَيْهَا) بدل (جَنَابَيْها)، وقد وردَ: «الَّلهُمَّ حَوَالَيْنَا ولا عَلَيْنا»[(١)]؛ أي: أنزلِ المطرَ حَوَالَيْنَا، ولا تُنزلْهُ عَلَيْنَا؛ لِمَا يُتوقَّعُ من الضَّرر لدينا.

وضميـرُ (جَنَابَيْهـا) أو (حَوَالَيْهَا) لـ (سُـعَادُ) التي ذَكَرَ أنـهُ لاَ يُبَلِّغُها أرضَها إلاَّ العِتَـاقُ النَّجِيبَـاتُ الْمَرَاسِـيلُ؛ أي: أنَّ الوُشَـاةَ يَسـعونَ إليها ويمشـونَ لديهـا بوعيدِ رسـولِ اللهِ ﷺ إيَّاها.

وقيـل: جملةُ (يسـعَى) للتخلُّصِ للمـدحِ، أو حالٌ مـن (سُـعَاد)؛ أي: فارقتْ والحالُ أنَّ الوشَـاةَ يسـعونَ حَولَهَا.

و(**قَوْلُهُمُ**) مُشْبَعاً بالرفعِ، وهو ومقولُه حالٌ من الوُشَاةِ، ويُروى (وقِيلِهم) بالكسرِ، وهو لغةٌ كالقَالِ، ورُويَ نصبُ (قولَهُم)؛ أي: ويقولونَ قولَهُم.

ثم (قَوْلُهُمُ) إنْ كان بمعنى المصدرِ؛ فقولُه: (إنَّكَ...) إلخ مقولُه، وخبرُ المبتدأِ محذوفٌ؛ أي: وقولُهُم هذا القولَ حاصلٌ، وإنْ كانَ بمعنى المفعولِ؛ فالجملةُ بتأويلِ هذا الكلام خبرُهُ.

و(**ابْنَ أَبِي سُلْمَى**) بضمِّ السِّينِ، قالَ التِّبريزيُّ: وليسَ في العَربِ سُلْمَى بالضمِّ غيرُه، وأبُو سُلْمَى كنيتُه ـ واسمُه: رَبيعةُ ـ والدُ زُهيرٍ جدُّ كَعْبٍ، ففيهِ نسبةٌ لجدِّهِ، كما في حديثِ: «أنا النَّبيُّ لا كذبْ، أنا ابنُ عبدِ المُطَّلبْ»[(٢)].

وقولُـه: (**لَمَقْتُـولُ**) أي: صائـرٌ إلى القتلِ، على حـدِّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ومنـهُ: «من قتـلَ قتيلاً فلهُ سَـلَبُهُ»[(٣)].

والحاصلُ: أنه وصفَ الناقةَ التي كانَ هو راكبَها بأنها تعدُو الوُشاةُ حولَهَا

---

(١) رواه البخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٧٠٩)، ومسلم (١٧٧٦)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٢٩٧٣)، ومسلم (١٧٥١)، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

قائلينَ: إنكَ يا ابنَ أبي سُلْمَى لَمُشَارِفُ القتلَ؛ حيثُ أهدرَ رسولُ الله ﷺ دمكَ لِمَا وُشِيَ إليهِ من قولِكَ: ألَا أبْلِغَا عنِّي... الأبياتَ.

وَقَـالَ كُلُّ خَلِيـلٍ كُنْـتُ آمُلُـهُ   لاَ أُلْهِيَنَّـكَ إِنِّـي عَنْـكَ مَشْـغُولُ

قولُه: (آمُلُهُ) أي: أرجو خيرَهُ وأطمعُ نصرَهُ؛ فإنَّ الذَّواتِ لا تُؤمَّلُ.

ويقالُ: أَلْـهَيتُه عنهُ: شغلتُه عنهُ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، ويجوزُ أن تكونَ (لا) نافيةً هنا، أو ناهيةً على حدِّ: لا أَرينَّكَ هاهنا[1]، والتوكيدُ بعدَ (لا) النافيةِ، قيلَ: قياسيَّةٌ، وقيلَ: ضروريَّةٌ.

والمعنى: لا أَشْغَلُكَ عمَّا أنتَ فيه بأنْ أُسَهِّلَهُ عليكَ وأُسَلِّيَكَ، فاعملْ لنفسكَ؛ فإني لا أُغْنِي عنكَ شيئاً.

وفي نسخةٍ (لَأُلْهِيَنَّكَ) فهو جوابُ قسمٍ محذوفٍ؛ أي: واللهِ لأَجْعَلنكَّ مشغولاً عنِّي؛ لأنِّي شُغِلْتُ عنكَ بغَيرِكَ[2]، وإنِّي لعليلٌ، فإنْ كانَ على طريقِ الاستئنافِ فـ(إنَّ) مكسورةٌ، وإن كان على إضمارِ لامِ التعليلِ فمفتوحةٌ؛ أي: لأنِّي شُغِلتُ عنكَ بِغَيركَ وأعرضتُ عنكَ بجُرمِكَ؛ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أهدرَ دمكَ.

والحاصلُ: أنَّهُ لَمَّا سَمِعَ هذا الوعِيدَ التجأ إلى إخوانهِ الذينَ كانَ يأمُلُهم في الأمرِ الشديدِ فتبرَّؤوا منه وأعرضوا عنهُ يأساً من سلامتهِ؛ لشدَّةِ مَلَامتهِ، وخوفاً من غضبهِ عليهِ السَّلامُ، وقالوا لهُ هذا الكلامَ على وجهِ الاهتمام.

فَقُلْـتُ خَلُّـوا سَـبِيلِي لاَ أَبَـا لَكُـمُ   فَـكُلُّ مَـا قَـدَّرَ الرَّحْمَـنُ مَفْعُـولُ

الفاءُ للتفريعِ، و(لاَ أَبَا لَكُمُ) بالألفِ وإشباعِ الميمِ، و: لا أبا لكَ، يُستعملُ في

(١) تحرفت في «و» إلى: «لا لدينك هنا».

(٢) في «و»: «بغيري»، والصواب المثبت.

المدحِ؛ أي: إنكَ شجاعٌ ماجدٌ مُستغنٍ عن الأبِ، وفي الذَّمِّ؛ أي: إنَّكَ مجهولُ النَّسبِ.

والفاءُ للتعليلِ، و(ما) موصوفةٌ لا موصولةٌ؛ لأنَّ إضافةَ (كلٍّ) إلى المعرفةِ يُوجِبُ إحاطةَ الأجزاءِ دونَ الأفراد، وإلى النكرةِ عكسُ ذلكَ، والمقصودُ: إحاطةُ الأفرادِ دونَ الأجزاءِ.

والحاصلُ: أنهُ يقولُ: لَمَّا سمعتُ الوُشَاةَ يقولونَ: إنَّك لمقتولٌ؛ أَيِستُ عن إمدادِ الخِلَّانِ، فقلتُ: دعوني أذهبُ إلى جنابِ رسولِ اللهِ ﷺ، وكلُّ أمرٍ قدَّرهُ الرحمنُ من فناءٍ أو بقاءٍ مفعولٌ.

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ

(**كُلُّ**) مبتدأٌ خبرهُ (**مَحْمُولُ**)، و(**إِنْ**) وَصْلِيةٌ، وهيَ عطفٌ على محذوفٍ؛ أي: إنْ لم تَطُلْ أو طَالتْ، والجملتانِ في محلِّ النصبِ على الحاليَّةِ من ضميرِ (محمولُ)؛ أي: محمولٌ على جنازةٍ مستوياً طولُ سلامتهِ وعدمُه، ويجوزُ للجملةِ الشرطيةِ أنْ تقعَ حالاً إذا شُرِطَ فيها الشيءُ ونقيضهُ؛ نحو: لأَضْرِبَنَّهُ إنْ ذهبَ وإنْ مَكَثَ.

وقيلَ: جوابُ الشرطِ محذوفٌ سدَّ مسدَّهُ خبرُ ما قبلَهُ، على حدِّ قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠].

و(**يَوْماً**) و(**عَلَى آلَةٍ**) ظرفا (**مَحْمُولُ**)، و(**حَدْبَاءَ**)؛ أي: ضيِّقةٍ أو مرتفعةٍ، والمرادُ بها النَّعشُ، وما أحسنَ قولَ الشاطبيِّ رحمه اللهُ مُلْغِزاً فيه:

أتعرفُ شيئاً في السماءِ يطيرُ إذا سارَ صاح الناسُ حيثُ يسيرُ
فتلقَاهُ مركُوباً وتلْقَاهُ راكباً وكلُّ أميرٍ يَعْتَلِيهِ أَسيرُ
يَحُضُّ على التَّقوى ويُكْرَهُ قُرْبهُ وتَنفِرُ منهُ النَّفسُ وهوَ نذيرُ
ولَمْ يَسْتَزِرْ عن رغبةٍ في زيارةٍ ولكنْ على رَغْمِ المَزورِ يَزورُ[1]

(١) الأبيات، أوردها ابن خلّكان في «وفيات الأعيان» (٤/ ٧٢) في ترجمة الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى.

يقولُ: إذا كان كلُّ مَنْ ولدَتهُ أُنثى وإنْ عاشَ زمناً طويلاً سالماً من النوائبِ وآمِناً من المصائبِ؛ فلا بُدَّ له من الموتِ، ولا محالةَ لهُ من الفَوْتِ، فمِمَّ الجَزَعُ يا صاحبَ الفَزَعِ؟! وبِمَ تفرحونَ أيُّها الشامِتونَ؟!

وللهِ دَرُّ مَن قالَ:

فَقُــلْ للشَّــامِتينَ بِنَــا أَفِيقُــوا ... سَــيَلْقَى الشَّــامِتُونَ كَمَــا لَقِينَــا[١]

هذا؛ و(كلُّ ابنِ أنثى) يشملُ عيسى عليهِ السَّلامُ، وسيموتُ ويُدفنُ بينَ نبيِّنا ﷺ وضجِيْعَيهِ من صاحبَيهِ[٢]، لكنَّهُ يُشكِلُ بآدمَ، إلا أن يُرادُ به هذا الجنسَ، كما قيلَ في حديثِ: «أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ»[٣]، والعمومُ يُستفادُ من قولِهِ تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ

---

(١) البيت نسب لفروةَ بن مُسيك، ولذي الإصبع العدواني. انظر: «الحماسة البصرية» (٢/ ٤١٦).

(٢) لم يرد في هذا خبر مرفوع عن النبي ﷺ يحتج به، فقد روى الترمذي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: مكتوبٌ في التَّوراةِ صِفَةُ مُحَمَّدٍ وصِفَةُ عيسى بن مَرْيَمَ يُدْفَنُ معه. قال: فقال أبو مَوْدُودٍ ـ أحدُ رُواته ـ: وقد بَقِيَ في البيتِ مَوْضِعُ قَبْرٍ. قال الترمذي: «هذا حديثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

قال المباركفوري في «تحفة الأحوذي» (١٠/ ٦٢): «ويؤيده ما روي عن عائشة في حديث قال الحافظ: لا يثبت، أنها استأذنت النبي ﷺ إن عاشت بعده أن تدفن إلى جانبه، فقال لها: «وأنَّى لكِ بذلك وليس في ذلك الموضعِ إلا قبري وقبرُ أبي بكر وعمر وعيسى بن مريم». وفي «أخبار المدينة» من وجه ضعيف عن سعيد بن المسيب قال: إن قبور الثلاثة في صفة بيت عائشة، وهناك موضع قبر يدفن فيه عيسى عليه السلام».

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٩٩): «وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساكر في آخر ترجمة المسيح عليه السلام في كتابه عن عائشة مرفوعاً أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية، ولكن لا يصح إسناده». وروى ابن الجوزي في «العلل» (١٥٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «ينزل عيسى بن مريم إلى الأرض فيتزوج ويولد ويمكث خمساً وأربعين سنة ثم يموت فيدفن معي في قبري فأقوم أنا وعيسى بن مريم من قبر واحد بين أبي بكر وعمر». قال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح».

(٣) رواه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهو أعمُّ من جنسِ الإنسانِ؛ فإنَّهُ شاملٌ للملائكةِ وأصنافِ الحيوانِ.

وجملةُ (على آلةٍ حدباءَ محمولُ) على الغالبِ، وفي معناهُ: كلُّ ما يستقرُّ الميت في مقرِّهِ، كما حُقِّقَ في حديثِ: «إذا دُفِنَ الميتُ في قبرِهِ»[١].

أُنبِئْتُ أنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي وَالعَفْوُ عَنْدَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

(أُنبِئْتُ) بصيغةِ المجهولِ؛ أي: أُخبرتُ، ورُوِيَ: (نُبِّئْتُ) وهوَ بمعناهُ، وكلٌّ منهُما يقتضي ثلاثةَ مفاعيلَ، الأولُ قائمٌ مقامَ الفاعلِ، والثاني والثالثُ (أنَّ) مع اسمِها وخبرِها سادٌّ مسدَّهُما، وقيل: الثالثُ محذوفٌ؛ أي: أُنبئتُ إيعادَ رسولِ اللهِ حاصلاً.

وأعادَ ذكرَ رسولِ الله ﷺ؛ إظهاراً للتعظيمِ، وإشعاراً للتفخيمِ، ولذا أتى بـ(عَنْدَ) دون (مِنْ)؛ لأن تلكَ أدلُّ على التعظيمِ، ولتقويةِ الرجاءِ من عند الكريمِ؛ إذ تواترَ أنَّ الصفحَ والكرمَ من أخلاقِ رسولِ الله ﷺ؛ ففي ذكرِ صريحِ اسمِهِ وصحيحِ وَسْمِهِ ما ليسَ في الضميرِ مِنْ رَسْمِهِ، ولأنَّ فيه تكرارَ الاعترافِ بالرسالةِ التي هي مقتضيةٌ للعفوِّ ومُستجلِبةٌ للرضا.

ثم اعلم: أنَّ جميعَ ما تقدَّم توطئةٌ لهذا البيتِ المُكرَّمِ؛ فإنَّ غرضَهُ من القصيدةِ وما فيها من الإتحافِ هو التَّنصُّلُ والاستعطافُ، ومُحصَّلُ البيتِ استرضاؤهُ عليه السلامُ، واستجلابُ أخلاقِهِ الكرام؛ من حصولِ رحمتِهِ وعنايتِهِ، ودفعِ سَخَطِهِ وغَضَبِهِ وملامتِهِ، وقد رُوِيَ أنَّهُ ﷺ لَمَّا سَمِعَ هذا البيتَ قال: «العفوُ عندَ اللهِ» ذكرهُ ابنُ جَماعَةَ[٢].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٣٥٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه، ولفظه: «إذا وضع الميت في قبره».

(٢) انظر: «شرح ابن هشام لبانت سعاد» (ص ٧٢).

فَقَـدْ أَتَيْـتُ رَسُـولَ اللهِ مُعْتَـذِراً وَالعُـذْرُ عِنْـدَ رَسُـولِ اللهِ مَقْبُـولُ

عطفٌ على (أُنبِئْتُ) أي: أُخبرتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوعدَني، فقدْ جئتُ مُعتذِراً، وهذا البيتُ غيرُ موجودٍ في أكثرِ النُّسخِ.

مَهْـلاً هَدَاكَ الَّـذِي أَعْطَـاكَ نَافِلَـةَ الْـ ـقُرْآنِ فِيْهَـا مَوَاعِيـظٌ وَتَفْصِيـلُ

(مَهْلاً) نصبٌ على المصدرِ لـ (أَمْهِلْ)؛ أي: أَمْهِلْ مَهْلاً، فيكونُ اسماً بمعنى المصدرِ، ويجوزُ كونُه اسمَ فعلٍ، وتنوينهُ للتنكيرِ، ذكرهُ الفاضلُ.

وقيـل: مصدرٌ أُنيبَ عـن فعلهِ، وأصلهُ: إمهـالاً؛ فحُذفَ زائـداهُ؛ وهما الهمزةُ والألفُ.

استَمْهَلَ مما يخافـهُ مـن الأخـذِ بأقـوالِ الوُشَـاةِ، حتـى يتمكَّـنَ مـن إظهارِ إيمانـهِ، وبيـانِ كـذبِ الوُشَـاةِ في شـانهِ.

والجملةُ استئنافٌ؛ كأنَّهُ قيلَ: ماذا قلتَ من الكلامِ حين ظَفِرتَ بإتيانِ جَنابهِ عليهِ السلامُ، فقال: مهلاً.

وجملةُ (هَدَاكَ) دُعائيَّةٌ، وأرادَ بالدعاءِ زيادةَ الهدى في مَعرِضِ الثناءِ بازديادِ آثارهِ وإشراقِ أنوارهِ، وليس المرادُ به الثباتَ على الهُدى؛ إذ ذاكَ ثابتٌ في حقِّه عليه السلامُ على وجهِ الدوامِ؛ ففيهِ تحصيلُ حاصلِ المَرامِ.

وقيلَ: المرادُ: هداكَ للصفحِ والعفوِ عمَّا أَوْعَدْتنِي به؛ فيكونُ في الحقيقةِ داعياً لنفسهِ؛ لِمَا فيه من التذلُّلِ والمَسكنةِ والتلطُّفِ في الدعاءِ والمسألةِ.

و(نافلة القرآنِ) مُدْرَجٌ.

وأصلُ النافلةِ: عطيةٌ يُتطوَّعُ بها زيادةً على غيرها، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، ومنه النوافلُ: لِمَا زادَ على الفرائضِ، ولذا سُمِّي ابنُ الابنِ نافلةً في قولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢].

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى أنعمَ على رسولِه ﷺ بعلومٍ عظيمةٍ علَّمهُ إيَّاها، وجعلَ الكتابَ زيادةً له على تلك العلومِ. والإضافةُ من بابِ: جَرْدُ قَطِيْفَةٍ، كذا ذكرَهُ بعضُهم.

والأظهرُ أنَّ المرادَ بزيادةِ القرآنِ مزيَّتُه وفضيلتُه على سائرِ الكُتُبِ، كما يُشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

أو المرادُ بـ(نافلة القرآنِ): أحاديثُه عليه السلامُ الزائدةُ على الكتابِ، والمُفيدةُ بالفوائدِ الخارجةِ عن حدِّ الحسابِ.

ثم يَجوزُ نصبُ (القرآن) على أنْ يكونَ حَذْفُ التنوينِ مِن (نافلة) ليسَ للإضافةِ بل لالتقاءِ الساكنين؛ فـ(نافلة) حالٌ، أو مفعولٌ ثانٍ، و(القرآنَ) بدلٌ.

و(**فِيهَا مَوَاعِيظٌ**) جملةٌ، قدَّمَ الخبرَ للاهتمامِ، وفي نسخةٍ: (مَواعِيدٌ) بدلَ (مَواعِيظٌ) وكلًّا بالتنوينِ ضرورةٌ، والمرادُ بها: وعدُ المؤمنينَ بالجنانِ، ووعيدُ الكافرينَ بالنيرانِ، ووعدُ المُخلِصينَ بالفردوسِ الأعلى، والمُنافقينَ بالدَّرْكِ الأسفلِ، والجملةُ صفةُ (نافلةَ القرآنِ) بحذفِ الموصولِ؛ أي: نافلةَ القرآنِ التي فيها، أو مُستأنفةٌ، كأنه قيلَ: ما فيها؟ فقالَ: فيها..، أو معترضةٌ لمدحِها.

(**وتَفْصِيلُ**) أي: تبيينُ ما يُحتاجُ إليهِ من أمرِ المَعَاشِ والمَعَادِ، وأحكامِ الأصولِ والفروعِ للعباد.

وفي البيتِ من الاستعطافِ: التذكيرُ بنعمةِ اللهِ تعالى على رسولِهِ ﷺ؛ ليكونَ ذلك أَدْعَى إلى العفوِ والكرمِ، وشكرِ المُنعمِ[1] الربِّ الجليلِ، والإقرارِ بالتنزيلِ، وما اشتملَ عليه من المواعظِ والتفصيلِ والتذكيرِ بما جاءَ في الكتابِ المُبينِ؛ من قولِه تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقد رُويَ أن

---

(١) في «س»: «شكراً لنعم».

جبريلَ قال بعدَ نزولِ الآيةِ: «إنَّ ربَّكَ يأمُركَ أن تَصِلَ مَن قطعكَ، وتُعطيَ مَن حَرَمكَ، وتعفوَ عَمَّنْ ظلمكَ»[١].

وقيلَ: ليسَ في القرآنِ آيةٌ أجمعُ في مكارمِ الأخلاقِ منهَا.

لاَ تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الوُشَاةِ وَلَمْ أُذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِيَّ الأَقَاوِيلُ

الجملةُ مُبيِّنةٌ لقولِه: (مهلاً)، وهي سؤالُ تضرُّعٍ ومسكنةٍ، و(لا) ناهيةٌ، والنونُ مؤكِّدةٌ.

والواوُ في (**وَلَمْ**) للحالِ لا للعطفِ؛ إذ الخبرُ لا يُعطفُ على الطلبِ، أو للاعتراضِ؛ لبيانِ براءتِه عمَّا قيلَ في شأنِه من مَلامتِه.

والواوُ في (**وَإِنْ كَثُرَتْ**) حاليَّةٌ، كذا يُعبِّرونَ عنها، والتحقيقُ أنَّها عاطفةٌ على حالٍ محذوفةٍ؛ أي: على كلِّ حالٍ وإنْ كنتُ على هذه الحالةِ.

وجوابُ (إنْ) محذوفٌ لدلالةِ (لا تأخُذَني) عليهِ، لا أنهُ المُتقدمُ، خلافاً للمُبرِّدِ وأبي زيدٍ والكوفيِّينَ، كذا حقَّقهُ ابنُ هشامٍ[٢].

وقال الفاضلُ: عطفٌ على محذوفٍ؛ أي: إنْ لم تكثُرْ وَإِنْ كَثُرَتْ، والجملتانِ بعدَ انسلاخِ معنى الشرطِ وإرادةِ التسويةِ في محلِّ النَّصبِ على الحاليةِ من فاعلِ (**لَمْ أُذْنِبْ**)؛ أي: حالَ كوني مستوياً كثرةُ الأقاويلِ في شأني وعدمُها.

---

(١) رواه ابن مردويه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٨). رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤٣) من طريق سفيان بن عيينة عن رجل قد سماه، ومن طريق سفيان عن أُميٍّ الصيرفي، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٣٨) من طريق سفيان عن أميٍّ عن الشعبي، وكل هذه مرسلات كما قال ابن كثير عند تفسير الآية، وزاد: «وقد روي له شواهد من وجوه أُخر».
قلت: ولقوله: «أن تصل من قطعك...» إلخ، شاهد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند أحمد (٤/ ١٤٨ و١٥٨).

(٢) انظر: «شرح ابن هشام لبانت سعاد» (ص ٧٣).

ويُرْوَى: (ولو كثُرتْ عنِّي).

والمعنى: لا تُبحْ دَمِي ولا تُعاقبْنِي[١] في جُرمِي بسببِ أقوالِ الوُشَاةِ الكاذبينَ، والحالُ أنِّي غيرُ مذنبٍ بعدَ أنْ هداني اللهُ؛ فإنَّ الإيمانَ يَجُبُّ ما قبلَه، أو: ولم أُذْنبِ الذَّنبَ الذي قيلَ عنِّي كلَّهُ، بدليلِ قولِه: (وإنْ كثُرتْ) في شأني الأكاذيبُ من الأقاويلِ، بل وقعَ ما يسعُه حِلمُكَ وعفوُكَ وكرمُكَ.

لَقَدْ أَقُومُ مَقَاماً لَوْ يَقُومُ بِهِ أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَو يَسْمَعُ الفِيلُ

اللامُ جوابُ القسمِ؛ أي: واللهِ لقدْ، ورُويَ: (وإنِّي لأقومُ مقاماً)؛ أي: عظيماً.

و(لو) للشرطِ في الماضي، وقد تدخلُ في المستقبلِ؛ نحو: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ [الحجرات: ٧]، وهاهُنا من هذا القبيلِ.

ومفعولُ (أَرَى) محذوفٌ بدلالةِ ما بعدهُ؛ أي: أَرَى ما لو يراهُ الفيلُ، والجملةُ عطفٌ على (أَقُومُ) بحذفِ عاطفٍ، أو حالٌ من فاعلِهِ، و(مَا) مفعولُ (أسمعُ)، والشرطيةُ الثانيةُ صلةُ (ما)، أو صفتُه، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: ما لو يسمعهُ الفيلُ.

وتنازَعَ (يقومُ) و(ما لو يراهُ) المُقدَّرُ و(يَسْمَع) في (الفِيلُ)؛ فأُعملَ الأخيرُ وأُضمرَ الفاعلُ في أَخَوَيه[٢].

وتنازعَ في الجزاءِ الآتي ـ أعني: (لظلَّ) ـ: (لو يقومُ) و(لو يراهُ) المُقدَّرُ و(لو يسمعِ الفيلُ)؛ فصُرِفَ الجزاءُ إلى الأخيرِ، وحُكِمَ بحذفِهِ من الأوَّلَينِ.

وفي نسخةٍ:

(لقد أقومُ مقاماً لو أقومُ بهِ أرى وأسمعُ..............) إلخ

---

(١) في «و»: «تعاتبني».

(٢) في «و» و«س»: «آخره»، والصواب المثبت.

فـ (أرى) جزاءُ (لو أقومُ بهِ). ومعنى (لقد أقومُ بهِ): لقد أُريدُ أنْ أقومَ بهِ[1]، على حدِّ قولِه تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الإسراء: ٤٥].

وفيهِ: أنَّ قولَه: (**أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ**) يقتضِي أنَّه قد تحقَّقَ القيامُ منهُ في جَنابِه عليهِ السلامُ، إلا أن يُحملَ (أتيتُ) أيضاً على إرادةِ الإتيانِ. كذا حقَّقهُ الفاضلُ، والحَمْلُ هو المُتعيِّنُ لوقوعِ القَصيدةِ قبلَ مُلاقاتِه الطَّلعةَ السعيدةَ.

لَظَلَّ يُرْعَدُ إلاَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ... مِنَ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللهِ تَنْوِيلُ

يقالُ: ظَلِلْتُ أعملُ كذا: إذا عمِلتَه بالنهارِ؛ ضدُّ باتَ، وقد يُستعملُ ظلَّ في معنى صارَ كما هنا.

و(**يُرْعَدُ**) ـ بصيغةِ المجهولِ ـ خبرهُ، يُقالُ: أُرعِدَ فلانٌ من الفزعِ: إذا أَخَذَتْهُ الرِّعْدةُ من الخوفِ.

والتنويلُ: إعطاءُ الأمانِ، وهوَ اسمُ (**يكون**)، و(**لهُ**) ظرفٌ مستقِّرٌّ منصوبُ المحلِّ على أنه خبرُهُ، ويجوزُ أن تكونَ تامةً؛ فـ (لهُ) حالٌ.

و(**مِنَ الرَّسُولِ**) متعلِّقٌ بـ (يكون)، أو بقولهِ: (لهُ)، والباءُ للاستعانةِ، أو للإلصاقِ؛ فيكونُ حالٌ بعدَ حالٍ.

والحاصلُ أنهُ يقولُ: واللهِ لقدْ أقومُ بعدَ ذهابي إلى رسولِ اللهِ ﷺ مقاماً ذا هَيْبةٍ، لو يقومُ فيهِ الفيلُ مع ما فيهِ من العَظَمةِ، وأَرَى لأَجْلِ ما وَشَى به الواشونَ إليه صلَّى الله وسلم عليه ما لو يراهُ الفيلُ من أصنافِ العُقوبةِ، وأسمعُ ما لو يَسْمعهُ الفيلُ من التهديداتِ الشديدةِ، لظَلَّ مُضْطَرِباً، إلَّا أنْ يكونَ لهُ من رسولِ الله إعطاءُ أمانٍ،

---

(١) قوله: «ومعنى لقد أقومُ بهِ: لقد أُريدُ أنْ أقومَ بهِ»، كذا في «و» و«س»، ولعل الصواب: «ومعنى لقد أقومُ مقاماً: لقد أُريدُ أنْ أقومَ مقاماً».

وإيصالُ مَرحَمةٍ، وهذا إظهارٌ لفظاعةِ شأنِ ما عَرَضَ لهُ من الخَطْبِ الجَلِيِّ، وأنه معَ ذلكَ يقتحِمُه قائلاً: خلُّوا سبيلِي... إلى آخره.

حَتَّـى وَضَعْـتُ يَمِينِـي لاَ أُنَازِعُـهُ فِـي كَـفِّ ذِيْ نَقِمَـاتٍ قِيلُـهُ القِيـلُ

(**حَتَّى**) غايةٌ لمُقدَّرٍ بدلالةِ ما سبقَ، أو عطفٌ عليهِ؛ أي: وكنتُ أخافُ حتَّى... إلخ، وما بعدَ (حتى) قد تدخلُ في حُكمِ ما قبلها، وهنا كذلكَ؛ فإنهُ كان عندَ وضع اليمينِ في كفِّ النبيِّ ﷺ أخوفَ بدلالةِ وصفهِ عليهِ السلامُ بـ(**ذِي نقِمَاتٍ**)، والجملةُ المُقَدَّرةُ -أعني: وكنتُ أخافُ- عطفٌ على (فقلتُ: خلُّوا سبيلِي).

ويجوزُ أن تكونَ (حتَّى) ابتدائيةً للتأكيدِ؛ أي: لقد قُمتُ مقاماً لو يقومُ... إلخ؛ حتى وضعتُ يمينِي في يمينه وضَعَ طاعةٍ.

ورُوِيَ: (حتَّى جعلتُ يمِينِي لا أُنازِعُهُ).

والمُنازعةُ: المُجاذَبةُ، والجملةُ حالٌ من فاعِلِ (وضعتُ)، وضميرُ الفاعلِ عائدٌ لـ(ذِي نقِمَاتٍ) باعتبارِ تقدُّمِ الظرفِ ـ أعني: (في كفِّ ذِيْ نَقِمَاتٍ) ـ على الحالِ؛ إذ رتبةُ[1] المُلحقاتِ بالمفاعيلِ التأخُّرُ عنها، ويجوزُ عَوْدُهُ إلى المصدرِ؛ أي: لا أُنازعهُ نزاعاً، على حدِّ (عبدُ الله أظنُّهُ مُنطلقٌ) أي: أظنُّ ظنَّاً.

والمعنى: وضعتُ يمينِي غيرَ منازعٍ نزاعاً في كفِّ ذِيْ نَقِمَاتٍ ـ بفتحِ النونِ وكسرِ القافِ ـ جمعُ نَقِمَةٍ؛ ككَلِمةٍ وكَلِمَاتٍ، والنَّقِمَةُ: الانتقامُ، وأرادَ به النبيَّ عليهِ السلامُ؛ فإنه كانَ ينتقمُ من أعداءِ أهلِ الإسلام.

وقولُه: (**قِيلُهُ القِيلُ**) صفةُ (ذِي نقِمَاتٍ)، على حدِّ:

أنا أبو النَّجمِ وشِـعْري شِـعْري

أي: قيلُهُ كاملٌ راسخٌ، والقِيلُ والقَوْلُ والقالُ، بمعنىً.

---

(١) في «و»: «مرتبة».

لَـذَاكَ أَهْيَـبُ عِنْـدِي إِذْ أُكَلِّمُـهُ وَقِيـلَ إِنَّـكَ مَنسُـوبٌ وَمَسْـؤُولُ

الـلامُ للابتداءِ، ويحتملُ تقدير القَسَـمِ قبلَهَـا؛ إذ المَقامُ يقتضيهِ، وفي نسـخةٍ: (فـذاكَ) بالفـاءِ، و(ذا) إشـارةٌ إلـى (ذِي نقِمَـاتٍ)، أو إلـى وضـعِ اليميـنِ فـي كـفِّ ذِي نقِمَـاتٍ، وهـو مبتدأٌ، خبـرهُ (أَهْيَـبُ)، ورُوِيَ: (أَرْهَـبُ)، وهُما مبنيَّـانِ من فعلِ المفعـولِ علـى حـدِّ (أَشْـغَل)، والمفضَّلُ عليـهِ (من خـادرٍ)، و(عنـدَ) و(إذْ) ظرفانِ لــ (أهيـبُ)، و(إِذْ) مضـافٌ إلـى (أُكَلِّمُـهُ)، و(أُكَلِّمُـهُ) بمعنـى: كلَّمتُـهُ، ويُـروى: (يُكلِّمُنـي)، وقيـلَ: عطـفٌ علـى (أُكَلِّمُـه)، أو حالٌ مـن ضميرِهِ.

وفي روايةٍ: (لِذَلِكَ) بلامٍ مكسورةٍ؛ فـ(أهيبُ) خبرٌ لمحذوفٍ؛ أي: هو أهيبُ لكونهِ ذا نَقِماتٍ؛ فـ(ذا) إشارةٌ إلى كونهِ ذَا نقماتٍ، ومعمولُ اسمِ التفضيلِ وإنِ امْتَنَعَ تقدُّمُه عليهِ؛ إلا أنه يجوزُ في الظرفِ ما لا يجوزُ في غيرِهِ.

وقولُه: (مَسْؤُولُ) عطفٌ على (مَنسُوبٌ)، والمعنى: إنِّي لَمَّا مثَلْتُ بينَ يديهِ صلَّى الله وسلم عليه، وكنتُ قد قيلَ لي قبلَ ذلكَ: إنه باحثٌ عنكَ وسائلٌ لكَ عمَّا نُقلَ منكَ؛ حصلَ لي من الرَّهْبِ ما حصلَ.

والحاصلُ: أنَّهُ يقولُ: واللهِ لَرسُولُ اللهِ ﷺ - أو: لَوضْعُ يميني على كَفِّهِ - أَهْيَبُ في نفسِي حينَ كلَّمتُه، وقيلَ لي - أو: مقولاً لي -: إنَّكَ منسوبٌ إلى أقوالٍ باطلةٍ، من نحوِ: سقاكَ بها المأمونُ، ومنعِ أخيكَ بُجيرٍ عن الإسلامِ، وتعييرِكَ عليهِ، ومسؤولٌ عن سببِهَا.

مِـنْ خَـادِرٍ مِنْ لُيُوثِ الأُسْـدِ مَسْـكَنُهُ مِـنْ بَطْـنِ عَثَّـرَ غِيـلٌ دُونَـهُ غِيـلُ

(الخَـادرُ) بخـاءٍ مُعجمةٍ ودالٍ مهملةٍ: الأسـدُ الداخـلُ في خِـدْرِهِ، والخِدْرةُ: الأَجَمَـةُ، وهـيَ الأشـجارُ المُلْتَفـةُ، و(مِـنْ) الأُولـى تفضيليـةٌ مُتعلِّقـةٌ بــ(أهيـبُ)، والثانيـةُ بيانيـةٌ وصفيَّـةٌ؛ أي: أَهْيَبُ من مُلابسـةِ أَسَـدٍ خَـادِرٍ كائنٍ من لُيوثِ الأُسـدِ.

قيلَ: الليثُ والأسدُ مُترادفانِ، فكيفَ يصحُّ إضافةُ أحدِهما إلى الآخرِ؟

وأُجيبَ: بأنَّ الليثَ مُشتَرَكٌ بينَ الأسدِ وضَرْبٍ من العناكبِ يَصطادُ الذُّبابَ بالوثبِ؛ فالإضافةُ من بابِ إضافةِ اللفظِ المُشترَكِ إلى أحدِ معانيهِ؛ كـ: عين الشمسِ، ولا رِيْبَةَ في صحتِها.

وبأنَّ المرادَ: القويَّةُ التامَّةَ[1] الكاملةُ البالغةُ في الشجاعةِ والضَّخامةِ والقوَّةِ والشَّوكةِ مبلغاً تكونُ هي أُسوداً بالنسبةِ إلى الأُسودِ، كما يُقالُ: خواصُّ الخواصِّ.

ويُروى: (من لُيوثِ الغابِ)؛ أي: الآجامِ.

ويُروى: (مِن ضَيْغمٍ من ضِراءِ الأُسدِ)، والضَّيغمُ: فَيْعَلٌ من الضَّغْمِ، وهو العَضُّ، والضِّراءُ بكسرِ الضادِ المُعْجمَةِ: جمعُ ضارٍ، من ضَرِيَ بكذا: إذا أُولِعَ.

و(مَسْكَنُهُ) بفتحِ الكافِ وكسرِها، مبتدأٌ خبرهُ (غِيلٌ)، والجملةُ صفةٌ أخرى لـ (خَادِرٍ)، و(مِنْ بَطْنٍ) حالٌ من (غِيلٌ)، ويُروَى (بـبطنٍ) فيَحتمِلُ الخبريةَ والحاليةَ.

و(عَثَّرَ) بفتحِ عينٍ مهملةٍ وثاءٍ مُثلَّثةٍ مُشدَّدةٍ: موضعٌ يُنسبُ إليه الأُسودُ، وهو غيرُ منصرفٍ للوزنِ والعَلَميةِ، والمعنى: مِن وسطِ غِيلٍ ـ بكسرِ مُعجمةٍ ـ أَجَمَةٍ.

(دُونَـهُ) أي: قريـبٌ منـه (غِيْـلٌ) فاعـلُ الظـرفِ، أو مبـدأٌ خبـرهُ الظـرفُ، والجملـةُ صفـةُ (غِيْـلٌ)؛ أي: أنـهُ فـي أَجَمَةٍ داخلٌ فـي أَجَمَةٍ، وذلك أشـدُّ لتوحُّشـهِ وقسـاوتهِ، وآكـدُ بضـررهِ وضراوتـهِ.

هذا، وقالَ الفاضلُ: (مِن) ابتدائيةٌ، والجارُّ والمجرورُ صفةُ (خَادِرٍ)؛ أي: من خَادرٍ ناشٍ[2] مِن بطنِ عثَّرَ، وكانَ من بابِ الفَصْلِ بين الصِّفةِ والموصوفِ بأجنبيٍّ، وهو (مَسكَنُهُ) وهو جائزٌ؛ نحو: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]، أو بيانيةٌ، ويكونُ (مِنْ بَطْنٍ) حالٌ من (غِيْل).

---

(١) «التامة» زيادة من «س».

(٢) في «و»: «فاشٍ».

يَغْـدُو فَيُلْحِـمُ ضِرْغَامَيْـنِ عَيْشُـهُمَا لَحْـمٌ مِـنَ القَـوْمِ مَعْفُـورٌ خَرَادِيـلُ

(يَغْـدُو) صفـةُ (خَـادِرٍ) مِـن: غَـذَوتُ الصَّبيَّ باللبـنِ؛ أي: ربَّيتُـه، وفي بعضِ الروايـاتِ: (يغـدو) بـدالٍ مُهملةٍ مـن الغُـدُوِّ، وهو خلافُ الـرَّواحِ، ويصـحُّ المعنى علـى أن يكـونَ بعيـنٍ ودالٍ مُهملتيـنِ من العَـدْوِ، لكنهُ لـم يُروَ.

ثم إن كانتِ الروايةُ (يغذو) بذالٍ معجمةٍ؛ فـ (ضِرغَامَينِ) تنازَعَ فيهِ (يغذُو) و(يُلحِمُ)، وإن كانت بدالٍ مهملةٍ؛ فهوَ مفعولُ (يُلْحِمُ)، والراجحُ فيه أن يكونَ من بابِ منعَ، والمرجوحُ كونُه من بابِ الإفعالِ. والضِّرغَام ـ بكسرِ الضادِ المُعْجمَةِ ـ: الأسدُ. والمعنى: يُطعمُهما لحماً.

و(عَيْشُهُمَا) مبتدأٌ خبرهُ (لحمٌ...) إلخ؛ أي: قُوْتُهُما لحمُ بنِي آدمَ، و(مِنْ) ابتدائيةٌ؛ أي: منتزعٌ من الرجالِ، أو بيانيةٌ؛ أي: لحمٌ كائنٌ من لحومِ الرجالِ.

و(مَعْفُورٌ) صفةُ (لحم)؛ أي: ملقًى في العَفَرِ ـ بفتحتين ـ وهو الترابُ.

و(خَرَادِيلُ) صفةٌ أخرى لهُ، جمعُ خَرْدلَةٍ، وهي قطعةٌ من الشيءِ.

وكـونُ الأسـدِ مُربِّياً لاحماً لشـبلينِ عيشُـهُمَا... إلخ، كنايةٌ عن كونـهِ أخوفَ، إذ ذاكَ يسـتلزمُ كونَـهُ كثيرَ الاصطيـادِ عظيمَ الافتراسِ؛ فإنَّ الأسـدَ إذا كان ذا شِـبلينِ كانَ أكثرَ افتراسـاً وأدومَ اصطياداً لإشـباعِهما.

ثم إنْ كانَ الضِّرغَامُ اسماً لجنسٍ يستويْ فيه الصغيرُ والكبيرُ؛ فالأمرُ ظاهرٌ، وإن كان اسماً للكبيرِ؛ فتسميةُ الشِّبلِ ـ وهو ولدُ الأسدِ ـ بهِ باعتبارِ ما يَؤُولُ.

والحاصلُ: أنهُ يقولُ: إنَّ رسولَ الله ﷺ حينَ وضعتُ يمينِي في كفِّه أَهْيَبُ عندي من أَسَدٍ خَادِرٍ ناشٍ[1] مِنْ بَطْنِ عَثَّرَ، مسكنُه أَجَمَةٌ بقُربها أَجَمَةٌ أُخرى حريصٌ

---

(١) في «و»: «فاشٍ».

على الاصطيادِ شديدٌ في الافتراسِ؛ لكونهِ ذا شِبلينِ عيشُهما لحمٌ من الرجالِ مُمرَّغٌ في الترابِ، مقطوعٌ قِطعةً قِطعةً.

إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنًا لاَ يَحِلُّ لَهُ ... أَنْ يَتْرُكَ القِرْنَ إلاَّ وَهْوَ مَفْلُولُ

الجملةُ صفةُ (خَادِرٍ)، والمساوَرةُ: المُواثَبةُ، و(**القِرْن**) بكسرِ القافِ: المُقاومُ في الشجاعةِ أو العلمِ ونحوِهما، وجوابُ (إذا): (لا يَحلُّ لهُ)؛ أي: لا يتأتَّى له حتَّى كأنَّهُ يحرمُ عليه أن يتركَ القِرنَ المعهودَ إلا (**وهْوَ**) بسكونِ الهاءِ (**مَفْلُولُ**) مِن فلَّهُ: إذا هزمَهُ وكسرَهُ، وأصلُ الفَلِّ: الكَسْرُ الحِسِّيُّ، ومنهُ:

ولا عَيبَ فيهِمْ غيرَ أنَّ سُيوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكَتَائبِ

ثم استُعملُ في غيرِهِ اتِّساعاً ومَجازاً، والاستثناءُ مِن أعمِّ الأحوالِ.

ويُروى: (مجدولُ) بدل (مفلولُ)؛ أي: مَرميٌّ بالجَدَالةِ، وهي وجهُ الأرضِ؛ أي: مُلقًى على الترابِ.

والحاصلُ: أنه يصفُ الخادرَ بأنه إذا يَصولُ على أَسَدٍ آخرَ مثلِهِ في الشَّجاعةِ، يلزمُ أن لا يتركَهُ غيرَ منهزمٍ ومُنكسِرٍ؛ لكمالِ شجاعتهِ؛ فكانَ أشدَّ مهابةً، وأليقَ بأنْ تكونَ لهُ مخافةٌ.

مِنْهُ تَظَلُّ سِبَاعُ الْجَوِّ ضَامِزَةً ... وَلاَ تُمَشِّي بِوَادِيهِ الأَرَاجِيلُ

(**مِنْهُ**) بالإشباعِ و(من) سببيةٌ، والجملةُ صفةٌ لـ(خَادِرٍ)، والضميرُ لهُ، و(**الْجَو**) ما بينَ السماءِ والأرضِ، وما اتَّسعَ من الأوديةِ، وهو المرادُ هنا.

وقيلَ: الجوُّ: البرُّ الواسِعُ.

و(ضَامِزَةً) بضادٍ مُعجمةٍ فزايٍ؛ أي: ساكنةً، والبعيرُ إذا أمسكَ جِرَّتهُ في فيهِ فهوَ ضامزٌ، كذا ذكرَهُ الشُّرَّاحُ.

وقالَ الفاضلُ الهنديُّ: إنه بالضادِ المعجمة والراءِ؛ يعني: أنه يصفُ كمالَ مهابةِ ذلك الخَادرِ بحيثُ إنَّهُ ضمَّرَ سِباعَ الوادِي جُوعاً لعدمِ اقتدارِها على الاصطيادِ خوفاً منهُ.

ثم قولُه: (**وَلاَ تُمَشِّي**) عطفٌ على (تَظَلُّ) وهو بضمِّ التاءِ وفتحِ الميمِ؛ من التَّمشيةِ، بمعنى المَشيِ، والباءُ في (**بِوَادِيهِ**) بمعنى (في)؛ أي: وادي خَادِرٍ.

و(**الأَرَاجِيلُ**) جمعُ راجلٍ؛ خلافُ الفارسِ، ورَجِلٌ[1] اسمُ جمعٍ؛ كصَاحبٍ وصَحْبٍ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقيلَ: الأراجيلُ: جمعُ رَجيلٍ؛ كأحاديثَ جمعُ حَديثٍ، والرَّجيلُ: خيلٌ قويٌّ على المشيِ.

وَلاَ يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخُو ثِقَةٍ ... مُطَرَّحُ البَزِّ وَالدِّرْسَانِ مَأْكُولُ

(**أَخُو ثِقَةٍ**) اسمُ (**لاَ يَزَالُ**) وخبرهُ (**بِوَادِيهِ**) بإشباعِ الهاءِ؛ أي: صاحبُ ثقةٍ لشجاعتهِ، وذو اعتمادٍ على جُرأتهِ، كائناً في واديهِ، معادِياً لثانيه.

(**مُطَرَّحُ البَزِّ**) صفةُ (أخو ثقةٍ) وهو بفتحِ الراءِ المشدَّدةِ وكسرِها، و(البَزُّ) بفتحِ المُوحَدَّة وتشديدِ الزاي: السلاحُ، و(**الدِّرْسَانِ**) عطفٌ على (البَزِّ)، وهو جمعُ الدِّرْسِ؛ أي: الثوبُ الخَلَقُ، و(**مَأْكُولُ**) صفةٌ ثانيةٌ لـ(أَخُو ثقةٍ).

والحاصلُ: أنَّه يصفُ ذلك الخادرَ بأنَّه لا يأتي عليهِ زمانٌ إلا ويُوجدُ في واديهِ شُجاعٌ ذو ثقةٍ بشجاعتهِ، مطروحٌ سلاحُه، أو طارحٌ هو سلاحَهُ وثيابَهُ المُمزَّقةَ، أو الخَلَقَ التي تُلبسُ تحتَ البَزِّ، وذلك يستلزمُ أشدَّ مهابةً وأكثرَ مخافةً، ورسولُ الله ﷺ حين وضعتُ يميني في كفِّه المعروفِ كان أهيبَ عندي من هذا الأسدِ الموصوفِ.

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

---

(١) في «و»: «وراجل».

(يُسْتَضَاءُ)؛ أي: يُهتدَى به إلى الحقِّ، ويُروى: (لسيفٌ) فهوَ تشبيهٌ بليغٌ؛ أي: كسيفٍ قاطعٍ في دفعِ الباطلِ ودمغهِ، و(مُهَنَّدٌ) بفتحِ النونِ المُشدَّدةِ؛ أي: مطبوعٌ من حديدِ الهندِ؛ خبرٌ بعدَ خبرٍ، أو صفةُ (نور) إن أُرِيدَ به السيفُ.

والمعنى: كصاحبِ مُهنَّدٍ، أو كسيفٍ مُهنَّدٍ؛ أي: منسوبٍ إلى الهندِ، وسيوفُ الهندِ أفضلُ السيوفِ.

والمعنى: أنهُ عليهِ السلامُ كسيفٍ قاطعٍ للخِصامِ، من سيوفٍ عظَّمَها اللهُ بنيلِ الظَّفَرِ والانتقامِ؛ رُويَ أنَّ كعباً رضي الله عنه أنشدَ: (من سيوفِ الهندِ)، فقالَ ﷺ: «من سيوفِ اللهِ»[1].

ورُويَ أيضاً: أنَّ كعباً لَمَّا وصلَ إلى قولهِ:

(إنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ)

رمى ﷺ إليهِ بُردةً كانت عليهِ، وأنَّ مُعاويةَ بذلَ له فيها عشرةَ آلافٍ، فقالَ كعبٌ: ما كنتُ لِأُوثِرَ بثوبِ رسولِ الله ﷺ أحداً، فلمَّا ماتَ كعبٌ بعثَ معاويةُ إلى ورثتهِ عشرينَ ألفاً، وأخذها منهم، وهي البردةُ التي عندَ السلاطينِ إلى اليومِ. ذكرهُ ابنُ جَمَاعَةَ[2].

وفي «العوارف»: أن البُردةَ كساءٌ أسودُ مُربَّعٌ، وهي البُردةُ الباقيةُ عندَ خلفاءِ بغدادَ، توارثاً كابراً عن كابرٍ، انتهى[3].

وقيل: هي التي كانت عندَ الخلفاءِ من معاويةَ، وصَلَتْ إلى بني أُميَّةَ، ثم إلى بني العبَّاسِ، وحُكِيَ أنها اليومَ عندَ سلاطينِ الأرْوامِ، حفظهُم اللهُ من حوادثِ الأيامِ إلى انتهاءِ الأنامِ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر «عوارف المعارف» للسهروردي (٢/ ٣٤).

فِـي عُصْبَـةٍ مِـنْ قُرَيْـشٍ قَـالَ قَائِلُهُـمْ ... بِبَطْـنِ مَكَّـةَ لَمَّـا أَسْـلَمُوا: زُولُـوا

(فِي عُصْبَةٍ) خبرٌ آخرُ لـ (إنَّ)، و(مِنْ قُرَيْشٍ) صفةُ (عُصبةٍ) و(قَالَ قَائِلُهُمْ) صفةٌ ثانيةٌ لها، ويُروى: (فِتيةٍ) بدل (عُصْبةٍ).

أي: إنَّ الرسولَ لسيفٌ مهندٌ كائنٌ في جماعةٍ كائنةٍ من قريشٍ، أو مبعوثٌ فيهم، وقائلُهُم هو عمرُ بنُ الخَطَّاب، كما ذكرهُ ابنُ جَمَاعةَ.

وفـي «شـرحِ الفاضـلِ»: رُويَ أنـه قالَ عبـدُ الله بنُ عمـر: حدَّثنـي إبراهيمُ بنُ المنـذرِ، قـالَ حدَّثني محمدُ بـنُ الضحَّاك الخُزاعـيُّ: أنَّ كعبـاً عَنَى بـ (قَـالَ قَائِلُهُمْ) عمـرَ بنَ الخطـابِ رضـي الله عنه[1].

ثـم قولُـه: (ببطـنِ مكَّةَ) ظـرفُ (قـالَ)، والبـاءُ بمعنى (فـي)، و(لَمَّـا) بمعنى (حيـن)، و(زُولُـوا) هـو المقولُ، وهو أمـرٌ من زَالَ يَـزولُ؛ أي: انفـرِدوا وتميَّزوا عن جماعـةِ الأعـداءِ على عَـزمِ قتالهـم لا على وجـهِ الفِرارِ عـن خدائهم.

قال السُّهيليُّ: وحين أنشدَ كعبٌ: (إنَّ الرسولَ لسيفٌ[2] يُستضاءُ به...) إلى قولِه: (زولوا)، نظرَ عليهِ السلامُ إلى أصحابِه الكرامِ، كالمُتعجِّبِ لهم من حُسنِ مقالِه، وجودةِ شعرِه وكمالِه في حالِه، وقالَ لهم: «اسمَعُوا»[3]. أخرجه الحاكمُ والبيهقيُّ[4].

وقد يُؤخذُ من هذا الأمرِ: استحبابُ سماعِ هذهِ القصيدةِ، وتحسينُ مراتبِ

---

(١) ورواه الأصفهاني في «الأغاني» (١٧/ ٩٦) من طريق إبراهيم: حدثني محمد بن الضحاك بن عثمان عن أبيه قال: عنى كعب بن زهير...، وذكره.

(٢) في «س»: «لنور».

(٣) انظر «الروض الأنف» (٧/ ٣٠٠). وليس في مطبوعه عبارة: «وقال لهم اسمعوا».

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٤٧٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢١١)، عن موسى بن عقبة. وهو منقطع.

مرامِهِ العديدةِ، على ما فيها من لفتِ الحَضْرةِ المُصطَفويَّةِ، ووصفِ أصحابِهِ المرضِيَّةِ، وغيرِهَا من الفضائلِ البَهيَّةِ، والشمائلِ السَّنيِّةِ، ومعرفةِ القواعدِ العربيَّةِ، والفوائدِ الأدبيَّةِ التي بها فاقتْ جميعَ القَصائدِ، ونالَ صاحبُها بها أعلى المراتبِ والمقاصدِ[1].

زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلاَ كُشُفٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلاَ مِيلٌ مَعَازِيلُ

(زالَ) هذهِ تامةٌ؛ أي: ذهبوا وانتقلوا، وهي التي بُنِيَ منها الأمرُ في البيتِ السابقِ، (**فَمَا زَالَ**) عطفٌ على (زالوا)، (**أَنْكَاسٌ**) بفتحِ الهمزةِ: جمعُ نِكْسٍ؛ بكسرِ النونِ، وهو رجلٌ ضعيفٌ.

(**لاَ كُشُفٌ**) بضمتينِ، والشينُ معجمةٌ: جمعُ أَكْشَفَ، وهو مَن لا تُرْسَ معهُ في الحربِ.

و(**عِنْدَ اللِّقَاءِ**) ظرفُ (ما زالَ)؛ أي: حالَ ملاقاةِ الأعداءِ ومحاربتِهم.

و(**لاَ مِيلٌ**) بكسرِ الميمِ: جمعُ أميلَ، وهو مَن لا سيفَ معهُ، ومَن لا يُحسِنُ الرُّكوبَ ولا يستقرُّ على السَّرْجِ، وكلٌّ منهما يناسبُ المقامَ، ومَن جوَّز حملَ المُشتَركِ على معنييهِ دُفعةً ـ كالشافعيِّ ـ جازَ عندهُ الحملُ عليهما معاً.

هذا؛ والبيتُ كنايةٌ عن قوَّةِ شجاعتِهم وغايةِ فخامتِهم؛ لأنه يدلُّ على أنهم زالُوا عن مكانِهم، وانتقلوا عن أوطانهم، وعندَ المُحاربةِ لم يَزُلْ عن مكانِ الحربِ ضَعْفاؤُهم ممن ليسَ معهم تُرسٌ ولا سيفٌ ولا رُمحٌ، فكيفَ أقوياؤُهم من أصحابِ دروعٍ وأسيافٍ وأتراسٍ ورماحٍ؛ فعدمُ زوالِهِمْ عن مكانِهم من لوازمِ غايةِ الشجاعةِ ونهايةِ الجُرْأةِ والفَخامةِ؛ إذ المُقاومةُ على المُحاربةِ في أرضِ الغيرِ أشقُّ وأصعبُ.

وقيلَ: المعنى: هاجروا من مكةَ إلى المدينةِ، وليسَ فيهم مَن هذهِ صفتُه، بل

---

(١) في «س»: «مراتب المقاصد».

المُهاجرونَ بأسرهِم أقوياءُ ذوُو أسلحةٍ، كلَّما سمعُوا صيحةً طاروا إليها وقاموا عليها وثبتُوا لديهَا، والأوَّلُ أَوْلى على ما لا يخفى.

شُمُّ العَرَانِينِ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ ... مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ

(**شُمٌّ**) بضمِّ أولهِ: جمعُ أشمَّ؛ كصُمٍّ وأصَمَّ، وهو [مَنْ] في قصبةِ أنفهِ عُلوٌّ مع استعلاءِ أعلاهُ، و(**العَرَانِينِ**) بفتحِ أولهِ: جمعُ عِرْنينَ بكسرِ أولهِ، وهو الأنفُ.

و(**أَبْطَالٌ**) بفتحِ الهمزةِ: جمعُ بَطَلٍ، بفتحتينِ، وهو من يبطُلُ عندهُ دماءُ خَصْمهِ، ويذهبُ هَدَراً، ولا يُدرَكُ لهُ بالثأرِ.

وقيل: مَن يبطُلُ فيه الحِيَلُ؛ فلا يُوصَلُ إليه.

واللَّبوسُ ـ بفتحِ اللامِ ـ: ما يُلبسُ من السِّلاحِ.

والمعنى: أنَّها منسوجةٌ من نسجِ داودَ عليه السلامُ، إمَّا على الحقيقةِ؛ لإمكانِ بقاءِ دروعٍ نسَجَها، وإمَّا دروعٌ مُشبَّهةٌ بها.

و(**الْهَيْجَاءُ**): بفتحِ الهاءِ ممدوداً: الحربُ، وقد يُقصَرُ كما هُنا.

وقولُه: (**سَرَابِيلُ**)؛ أي: مثلُها، لا دروعٌ مشقوقةُ الجيوبِ؛ فإنهُ أشقُّ في اللُّبسِ وأخفُّ للبدنِ.

هذا، وقال الفاضلُ: (شُمُّ العَرَانِينِ...)إلخ، بالرفعِ، خبرٌ لمحذوفٍ؛ أي: أولئكَ العُصبةِ، أو بالنصبِ على المدحِ، أو بالجرِّ على أنه صفةُ (عُصْبةٍ)، إذ الإضافةُ لفظيةٌ، وقيلَ: بالرفعِ على لغةِ (أكلُوني البَراغِيثُ)، قيلَ: ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ [الأنبياء: ٣]، وحديثُ: «يتعاقَبُونَ فيكُم ملائكةٌ»[1]، أو بدلٌ، أو مبتدأٌ مقدَّمُ الخبرِ على ما أُوِّلَ به الآيةُ والحديثُ المذكورانِ.

---

(١) رواه البخاري (٥٣٠)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والمعنـى: ما زالَ شُـمُّ العَرَانِينِ أبطـالٌ ذَوو دُروعٍ، دونَ الضُّعَفـاءِ العُزَّلِ؛ ففاءُ (فمَـا زَالَ) اعتراضيةٌ، علـى حدِّ قولِه:

واعلـمْ فعلـمُ المـرءِ يَنْفعُـهُ[1]

و(أبطال) صفةٌ ثانيةٌ لـ (عُصبةٍ)، أو خبرٌ لمحذوفٍ، و(لَبُوسُهُمُ) بإشباعِ الميمِ مبتدأٌ، خبرهُ: (من نسجِ داودَ)، (في الهيجا) ظرفٌ للمبتدأ، و(سَرَابِيلُ) خبرٌ آخرٌ لهُ، وحملُ الجمعِ على المفردِ باعتبارِ اشتمالِ الجنسِ على الأفرادِ، على حدِّ: الدُّنيا جيفةٌ وطُلَّابُها كلابٌ[2]، ونظيرهُ توصيفُ الجنسِ بالجمعِ؛ نحو: الدِّينارُ الصُّفرُ، والدِّرهمُ البيضُ، والفصلُ بينَ المبتدإِ ومعمولِهِ بخبرٍ ـ وهو أجنبيٌّ من المبتدإِ ـ يجوزُ ضرورةً.

أو (مِـن نسـجِ) صفـةُ (لَبُوسُـهُم)، و(سَـرَابِيلُ) خبـرهُ، و(في الهيجـاء) ظرفٌ للمبتـدإِ؛ فـلا فصـلَ؛ أي: لَبُوسُـهم الكائنُ مِـن منسـوجِ داودَ في الحربِ كسـرابيلَ.

أو (من نسجٍ) حالٌ من الخبرِ؛ لأنه مفعولٌ معنًى، لأنَّ[3] المعنى: أنهم يلبسونَ سرابيلَ حالَ كونِها من نسجِ داودَ.

وجملةُ (لَبُوسُهُم) صفةٌ أخرى لـ (عُصبةٍ)، أو صفةٌ لـ (أبطال).

بِيـضٌ سَـوَابِغُ قَـدْ شُـكَّتْ لَهَـا حَلَقٌ كَأَنَّهَـا حَلَـقُ القَفْعَـاءِ مَجْـدُولُ

أي: هيَ مَجلوَّةٌ صافيةٌ، وكواملُ تامَّةٌ، قال ابنُ هشامٍ: هما صِفتا (سَرَابِيلُ)[4]، ومفردُهما: أبيضُ، وسِربالٌ؛ إذ السربالُ مذكَّرٌ، وفاعلٌ يُجمعُ على فوَاعلَ في مسائلَ؛ منها: أن يكونَ صفةً لِمَا لا يَعقلُ.

---

(١) صدر بيت ذكره ابن هشام في «مغني اللبيب» (ص: ٥٢٠)، وعجزه:

أن سـوف يأتـي كل مـا قـدرا

(٢) أورده الشجري في «أماليه» (٢٣٨٧) من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) في «و»: «كأن».

(٤) انظر: «شرح ابن هشام لبانت سعاد» (ص ٨٢).

و(شُكَّتْ) بضمِّ الشينِ المُعْجمَةِ وتشديدِ الكافِ المفتوحةِ، و(حَلَقٌ) نائبُ الفاعلِ، والجملةُ صفةٌ أُخرى لـ (سَرَابِيلُ).

و(الحَلَقُ) بفتحتينِ: جمعُ حَلْقةٍ بالسُّكونِ على غيرِ القياسِ، وهذا هوَ الصحيحُ، وخالفَ أبُو عمرٍو في المُفردِ، فقالَ: حَلَقةٌ، بالفتحِ، وقالَ أبو عمرٍو الشَّيبانيُّ: ليسَ في الكلامِ حَلَقةٌ بالتحريكِ إلا جمعُ حالقٍ، وخالفَ الأصمعيُّ في الجمعِ، فقالَ: حِلَقٌ؛ بكسرِ الحاءِ؛ كقَصْعةٍ وقِصَعٍ.

ثم ضميرُ (كَأَنَّهَا) للحَلَق، والجملةُ صفةُ (حَلَق).

و(حَلَقُ القَفْعَاءِ) بقافٍ مفتوحةٍ وفاءٍ ساكنةٍ فعينٍ مهملةٍ: نبتٌ يَنبسطُ على وجهِ الأرضِ، له حَلَقٌ يُشبَّهُ بِهِ حَلَقَ الدُّروعِ، وهيَ شجرةٌ خضراءُ ما دامتْ رطبةً، فإذا همَّتْ بالجفوفِ انقفعتْ عن الأرضِ وتقبضتْ، ولقبْضِها شُبِّهَ الدُّروعُ بها، وقيلَ: حشيشةٌ ضعيفةٌ.

قالَ الفاضلُ: شَبَّهَ حَلَقَ الدُّروعِ بحَلَقِ القَفْعَاء، وهو تشبيهُ حِسِّيٍّ بحِسِّيٍّ، ووجهُ الشَّبهِ مُتعدِّدٌ حِسيٌّ، وهوَ الاستدارةُ، والكثرةُ، والضِّيقُ على مقدارٍ مخصوصٍ.

و(مَجْدُول): مُحْكَمُ الصَّنعةِ، صفةٌ ثانيةٌ لـ (حَلَق)، وفيه تقديمُ الوصفِ بالجملةِ على الوصفِ بالمفردِ، وهو جائزٌ فصيحٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

والتذكيرُ بكلِّ واحدٍ منها؛ أي: مجدولٌ كلُّ واحدةٍ منها.

لاَ يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمُ ... قَوْماً وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا

جملةُ (لاَ يَفْرَحُونَ) صفةُ (عُصْبةٍ)، و(إِذَا) ظرفٌ لهُ.

و(نَالَتْ)؛ أي: أصابتْ، و(رِمَاحُهُمُ) بإشباعِ الميمِ فاعلُه، ومفعولُه (قَوْماً)؛ أي: رجالاً.

و(**لَيْسُوا**)؛ أي: العُصْبةُ (**مَجَازِيعاً**) جمعُ مِـجْزاعٍ: كثيرُ الجَزَعِ، كمَحَاريبَ ومِحرابٍ، وصُرِفَ للضرورةِ، و(**نِيلُوا**) مجهولُ (نالوا) بمعنى: أُصِيبوا.

والمعنى: إذا غَلبوا لم يفرَحوا؛ لأنَّ ذلكَ شأنُهم وسيرتُهم، وإذا غُلِبوا لا يَجزعونَ؛ لشدَّةِ صبرِهم وقِلَّةِ مبالاتهم، وكثرةِ معرفتهم؛ حيثُ قالَ تعالى: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقالَ قائلُهم:

فيوماً علينا ويوماً لنا ... ويَوماً نُسَاءُ ويَوماً نُسَرُّ[1]

أو عدمُ فَرحِهم بإصابةِ رِماحِهم قوماً، وعدمُ جَزَعِهم بإصابةِ رِماحِ الخُصومِ إيَّاهُم؛ كنايةٌ عن قوَّةِ باطنِهم بعدَ بيانِ قوَّةِ ظاهرِهم، وإشارةٌ إلى عملِهم بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿**لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٣].

يَمْشُونَ مَشْيَ الْجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ... ضَـرْبٌ إِذَا عَـرَّدَ السُّـودُ التَّنَابِيـلُ

أي: يمشونَ مشياً كمَشي الجِمالِ في الإسراعِ، أو في الوَقَارِ والامتناعِ، والجملةُ صفةُ (عُصْبة).

و(**الزُّهْرِ**) بضمِّ الزاي وسكونِ الهاءِ: جمعُ أزهرَ بمعنى الأبيضِ، كحُمْرٍ وأحْمرَ.

وجملةُ (**يَعْصِمُهُمْ ضَرْبٌ**) حالٌ من فاعلِ (يمشونَ)، أو صفةٌ أخرى لـ(عُصْبة)؛ أي: يَحفظُهم في الهَيجاءِ ضربُهمُ الأعداءَ بالسيوفِ والرماحِ، لا التحصُّنُ بالحصونِ والقِلاعِ.

وقد تنازعَ في (**إِذَا**) قولُه: (يَمْشون) و(يَعْصِمُهم).

و(**عَرَّدَ**) بتشديدِ الراءِ؛ بمعنى: فرَّ، ورُويَ بغينٍ مُعْجمةٍ، بمعنى طَرِبَ بالرَّجَزِ والشِّعرِ عندَ القتالِ.

و(**السُّودُ**): جمعُ أَسْودَ، والمرادُ بهم الكفارُ.

---

(١) البيت للنمرِ بن تَوْلب.

و(**التَّنَابِيلُ**): جمعُ تِنْبَالٍ؛ كتِمساحٍ، وهو القصيرُ.

والبيتُ كنايةٌ عن كَمالِ شجاعتِهم؛ إذ المعنى: يُسرعونَ إلى الهيجاءِ إسراعَ الجِمالِ وقتَ فِرارِ القومِ، يَعصمُهم عن الأعداءِ في ذلكَ الوقتِ ضربُهم إيَّاهُم بالسيوفِ والرماحِ، لا حُصونٌ[1] يفرُّونَ إليها، ولا جماعةٌ يستعينونَ بها، ولا يَخْفَى أنَّ الإسراعَ وقتَ فِرارِ القومِ من لوازمِ كمال الشجاعةِ وغايةِ الرُّسوخِ في أمرِ المُحاربةِ.

لاَ يَقَـعُ الطَّعْـنُ إِلاَّ فِـي نُحُورِهِـمُ وَمَا لَهُمْ عَـنْ حِيَاضِ الْمَـوْتِ تَهْلِيلُ

الجملةُ صفةٌ أخرى لـ (عُصْبةٍ)؛ أي: لا يقعُ طعنُ الرِّماحِ (**إلا في نُحورِهمُ**) بإشباعِ ضمِّ الميمِ؛ أي: صُدورِهم، رُويَ عن عليٍّ كرَّم اللهُ وجهَهُ: أنهُ كانَ دِرعُه صدراً لا ظهراً، فقيلَ له: لو احْتَرَزْتَ من ظهركَ، فقال: إذا أَمْكَنْتُ من ظَهرِي فلا نجوتُ[2].

و(**مَـا**) نافيـةٌ؛ أي: ليـسَ لهـم (**تَهْلِيـلُ**)؛ أي: تأخُّـرٌ (**عـن حِيَـاضِ الْمَـوْتِ**) بالضَّـادِ المُعْجمَـة: جمـعُ حـوضٍ، والمـرادُ بهـا الأمكنـةُ التـي فيهـا مُجتمعاتُـه؛ كحـوضِ الماءِ للَّـذي فيه مُجتمَعُـهُ؛ أي: لا يتأخَّـرونَ عنها إذا تأخَّـر غيرُهم ونكَصَ منهـا، ورُويَ بالصَّـادِ المُهملةِ؛ جمعُ حَـوْصٍ، وحِياصُ المَوتِ: مضائقُه وشـدائدُه.

قال الفاضلُ: وجملةُ (ما لهم) عطفٌ على الفِعليةِ، أو حالٌ من المضافِ إليهِ؛ أي: الضميرِ (في نحورهم)، أو جملةٌ معترضةٌ للمدحِ.

وفي روايةٍ (فما لهم) بالفاءِ؛ فالجملةُ مُعلِّلةٌ؛ أي: لا يقعُ الطعنُ إلا في نحورِهم؛ لأنه ليسَ لهم عن مضائقِ الحربِ نُكوصٌ ورجوعٌ، بل سعادةُ الشَّهادةِ هيَ مطلوبُهم، والموتُ في حضرةِ الحبيبِ هو محبوبُهم.

ولا يَخفى على أربابِ الصَّفا ما في القَصيدةِ من حُسنِ المَقطعِ والمَطلعِ، وصَنعةِ

---

(١) في «س»: «بحصون».

(٢) أورده أبو بكر السجستاني في «غريب القرآن» (ص ٤٢٠).

تشابهِ الأطرافِ، وغيرِهِ من بدائعِ الأصناف[1]؛ حيثُ ختمَ الكلامَ في المَبنَى بما يُناسبُ ابتداءَ المَرامِ في المَعنَى؛ فإنهُ قد ابتدأَ بذكرِ الفِراقِ والجَفَاءِ، وختمَ بذكرِ الموتِ والفناءِ على وصفِ الشهادةِ المُوجِبةِ للِّقاءِ في دارِ البقاء، ولا ارتيابَ في أنه ليسَ بينَ الموتِ والفراقِ فرقٌ عندَ أربابِ الاشتياقِ، على أنَّ ذِكرَ الموتِ هو مُنتهى أمورِ المرءِ عندَ الانتهاء، وإن طالَت مُدَّةُ الابتلاءِ في دارِ البَلاءِ من الابتداء؛ فبلغَ القَصِيدُ في الحُسنِ أقصى غايتِه، وانْتَهَى إلى مُنتهى نهايتِه.

فنسألُ اللهَ العافيةَ في الدُّنيا، وحُسنَ الخَاتمةِ في حالِ الرُّجوعِ إلى العُقْبى، وأن يتفضَّلَ علينا بالجزاءِ الأَوْلى، وأن يُبلِّغنا المقامَ الأَسنَى، ويُلحِقَنا بالرفيقِ الأعلى؛ معَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم من النبيِّينَ والصِّديقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ، عِلماً وعَمَلاً، وتصديقاً وتحقيقاً وتوفيقاً، وحسُنَ أولئكَ رفيقاً.

وقد حرَّرهُ مؤلِّفُه ـ رُحِمَ وسلفَهُ ـ في أواخرِ شهرِ صفرَ، خُتمَ بالخيرِ والظَّفَرِ، من شهورِ عامِ اثني عشرَ بعدَ الألفِ من[2] هِجرةِ سيِّدِ البَشرِ، عليهِ من الصَّلواتِ أتمُّهَا، ومن التحياتِ أعمُّهَا.

ومما يُستَحسَنُ من شعرِ كَعبٍ رضي الله عنه:

لَوْ كُنْتُ أعْجَبُ منْ شيءٍ لَأَعْجَبَنِي ... سَعيُ الفَتى وهوُ مخبوءٌ لهُ القَدَرُ

يَسْعَى الفَتى لأمورٍ ليسَ يُدْركُها ... فالنفسُ واحدةٌ والهمُّ مُنتشرُ

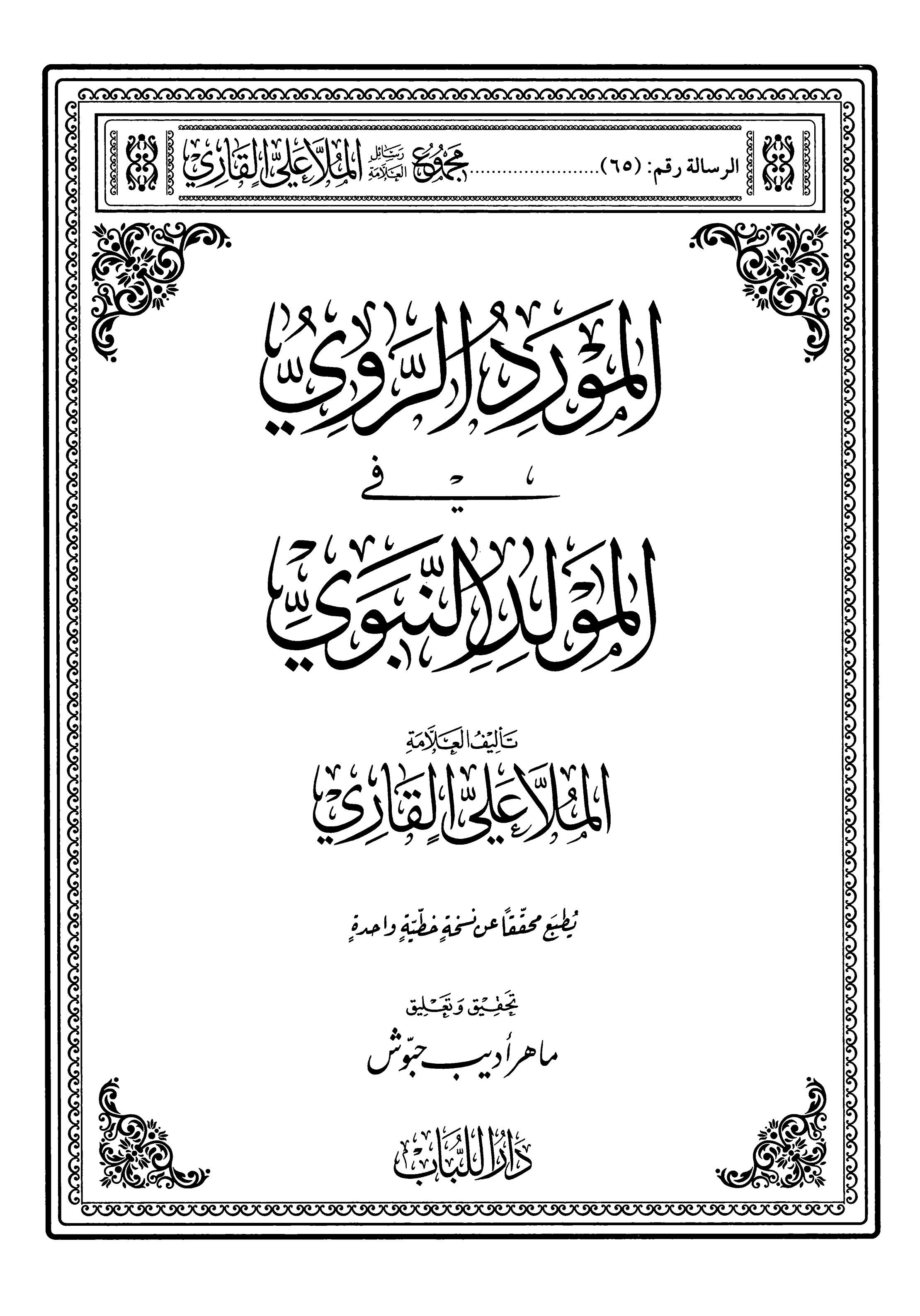
والمرءُ ما عَاشَ مَمْدُودٌ لهُ أمَلٌ ... لَا تَنتَهِي العينُ حتَّى يَنتَهِي الأَثَرُ

* * *

---

(١) في «س»: «الأوصاف».

(٢) في «س»: «من بعد».



مجموع رسائل العلامة الملا علي القاري .... الرسالة رقم: (٦٥)

المورد الروي في المولد النبوي

تأليف العلامة
الملا علي القاري

يُطبع محققاً عن نسخة خطية واحدة

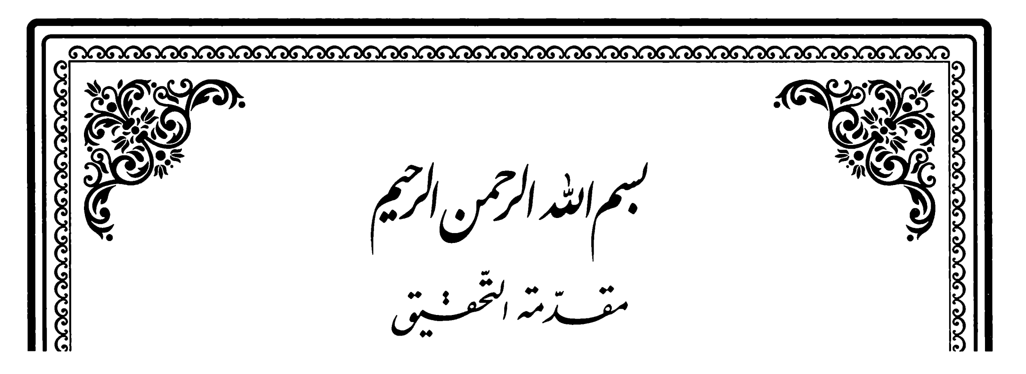
تحقيق وتعليق
ماهر أديب حبوش

دار اللباب

بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود صريح في ان المقدار المشترك لارباب الطواف والصلوة والاعتكاف هو البقعة المنيعة لا الابنية الرفيعة ولا يمكن حمل احد المعنيين على الحقيقة والآخر على المجاز ولا جعله من قبيل استعمال الاسم المشترك في معنييه فان كلا الطريقين ليس على اصول ائمتنا الحنفية واصولهم الحنيفية بل يقولون في مثل هذا بعموم المجاز المرسل بقيناً على ان الحكمة في كون هذه البقعة هي المعتبرة دون الهيئة المصورة انها من بدء التجلي الالهي على بحر الماء قبل خلق السماء فاضطرب البحر وازبد منه هذا القدر وصعد دخانه خارج الى الهواء فجعل منه السماء ثم وقع فيه للبناء مرة بعد اخرى بحسب القضاء ولانها بيت الرب كقلب العبد ومحل تجليات رحمته سبحانه ولا اعتبار للقالب بحسب الغالب ولذا ورد ان الله لا ينظر الى صوركم واعمالكم ولكن ينظر الى قلوبكم واحوالكم وللايماء الى ان هذه البقعة اصل بنية بني آدم كما قال تعالى منها خلقناكم ومرجع افراد العالم في اواخر القدم كما قال وفيها نعيدكم ومنشأ ثانيا بعد العدم كما قال ومنها نخرجكم تارة اخرى فكانهم امروا بانهم في مرتبة الطاعات وعمدة العبادات من الطواف والاعتكاف والصلوات بل في جميع الحالات وسائر الاوقات نظروا الى اصل معدنهم وتوجهوا الى فصل منبعهم فقد ورد خير المجالس ما استقبل القبلة هدانا الله الى سواء الطريق واعتق رقابنا ببركة البيت العتيق وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه اجمعين والحمد لله رب العالمين حرره افقر عباد الله الغني الباري علي بن سلطان محمد القاري الحنفي عاملهما الله بلطفه الخفي وكرمه الوفي آمين نقل من خط المؤلف

المورد الروي في المولد النبوي

بسم الله الرحمن الرحيم احمد الله الازلي الابدي على ما اضاء النور الاحمدي واشرق الضياء المحمدي المنعوت بالمحمود في عالم الوجود واقام على العرب والعجم بانواع النعم واصناف الجود واهداه الى الناس كافة ارسال هداية وهدية ورحمة ورأفة وهو الرحيم الودود بابراز هذا المولود في احسن المورود وهو شهر ربيع الاول على ما عليه المعول صلى الله وسلم عليه وشرف وكرم واحسن اليه وقربه واصطفانا لديه ولقد احسن المقال من قال من بعض ارباب الحال لهذا الشهر في الاسلام فضل ومنقبة تفوق على الشهور فمولود ربيع واسم ومعنى وآيات بهن لدى الظهور ربيع في ربيع في ربيع ونور فوقها نور فوق نور وقد قال تعالى في القرآن العظيم والفرقان الحكيم لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم واظهر هذا الاخبار المتضمن لحصول الانوار مصدرا بالقسم المقدر ومؤكدا بحرف التحقيق اشارة الى ان مجيئه صلى الله عليه وسلم اليهم من علامات العناية وامارات التوفيق والخطاب عام شامل المؤمنين والكافرين لكنه هدى للمتقين وعمى على الآخرين كماء النيل ماء للمحبوبين ودماء للمحجوبين وايماء الى ان مجيئه موجود اليكم ومنقود لديكم بمقتضى قوله تعالى فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون وفي الآيتان الشرطية الاكيدة



الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على النَّبيِّ الأمينِ، وعلى آلهِ وصَحْبِه أجمعِين.

اللهُمَّ صلِّ على سيِّدِ الأنبياء، وأكرمِ الأصفياء، المرسَلِ رحمةً للعالمين، الكائنِ نبيَّاً وآدمُ بينَ الماءِ والطِّين، الذي زُوِيَتْ لهُ مشارِقُ الأرضِ ومَغارِبُها، وفُتِحَتْ له كنوزُها وخزائنُها.

وبعد:

فهذهِ الرِّسالةُ للعلَّامة القاري رحمهُ اللهُ قد أَلَّفَها للكلامِ عن المولِدِ الشَّريفِ، وسمَّاها:

«المَورِدُ الرَّوِيُّ في المَولِدِ النَّبَوِيِّ»

لكنَّها لا تَتَعلَّقُ بالكلامِ عن الاحْتِفالِ بالمَولِدِ فحسب ـ كما قد يتبادَرُ ـ وإنْ كانَ ذلكَ أَحَدَ فُصولها، بل إنَّها اشْتَمَلَتْ على مَبَاحِث عِدَّةٍ كلُّها له ارْتِباطٌ بالموضوع، منها الكلامُ على الاحتفالِ بالمولِدِ، كما تَناوَلَ المؤلِّفُ رحمهُ اللهُ كلَّ ما يتعلَّقُ بولادةِ النَّبيِّ ﷺ، مِن إرْهاصاتٍ ترافَقَتْ مع الولادةِ الشَّريفةِ السَّعيدة، وحَوَادِثَ عظيمةٍ وَقَعتْ في البُلْدانِ المترامِيَةِ القَريبةِ والبَعِيدة.

وكذا الخلافُ في خاتَمِ النُّبوَّةِ: هل وُلِدَ معه، أم كانَ ذلكَ حينَ شَقِّ صَدْرِه؟

والخلافُ: هَلْ وُلِدَ مختوناً أم لا؟

وكيفَ سُمِّي محمَّداً؟ ومَن الذي سمَّاه؟

كما ذَكَرَ الخلافَ في تاريخِ ولادَتِهِ مقارنةً مع عامِ الفيل، وكذا الخلافُ في أيِّ شهرٍ كانتِ تلك الوِلادةُ المبارَكةُ، وفي أيِّ يومٍ، وكم كانَتْ مُدَّةُ الحَمْلِ، وهل كانَتْ ولادتُه ليلاً أو نهاراً أو مع الفَجْر؟

وقد بَدَأَ الرِّسالةَ بذِكْرِ قولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] فذَكَرَ بعضَ ما يتعلَّقُ بها؛ مِن كونِ بعثتِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن علاماتِ العِنايةِ، وأَماراتِ التَّوفيقِ، كما أَوْرَدَ الكثيرَ مِن الإشاراتِ البَلاغيَّةِ في الآيةِ الكَريمة.

ثُمَّ انْتَقَلَ إلى الكلامِ عن الاحتفالِ بالمَولدِ النَّبَويِّ، ونَقَلَ أقوالَ بعضِ العلماءِ في بيانِ حُكْمِهِ؛ كأبي شَامةَ وابنِ الجَزَريِّ والسَّخَاويِّ.

كما نَقَلَ عن السَّخَاويِّ بعضَ مظاهِرِ الاحتِفالِ بذلك في زَمَانِهِ وفي زمانِ ابنِ الجَزَريِّ قَبْلَه، وتَخلَّلَ ذلك كلامُه عَلَى ما كانَ سائداً في بعضِ البُلْدانِ في زمانِهِ هو مِن تلك المظاهِر.

ثُمَّ انْتَقَلَ إلى بحثٍ آخَرَ، وهو الكلامُ في الحديثِ النَّبويِّ الشَّريفِ: «كُنْتُ نَبيًّا وآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ» فأطالَ في هذا البَحْثِ، وتَخلَّلَ كلامَهُ فيهِ ذِكْرُ الأمرِ للأنبياءِ باتباعِ النبيِّ ﷺ.

كما ذَكَرَ في أثناءِ ذلك الخلافَ في أيِّ الأشياءِ خُلِقَتْ بعدَ النُّورِ

المحمَّديِّ: العَرشِ أو الماءِ أو القَلَمِ، فتوصَّلَ مِن خلالِ المُقارَنةِ بينَ النُّصوصِ الواردةِ في ذلك إلى أنَّ أوَّلَ الأشياءِ على الإطلاقِ النُّورُ المُحمَّدِيُّ، ثمَّ الماءُ، ثمَّ العرشُ، ثمَّ القَلَمُ.

وفي آخِرِ الرِّسالةِ تَطَرَّقَ إلى مَباحِثَ عِدَّةٍ:

منها: الكلامُ عن رَضاعِهِ عندَ حَليمةَ، وما رُوِيَ في ذلك مِن بركاتِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ التي عَمَّتْ عائلتَها بإرضاعِهِ ومُكْثِهِ عندَها.

ومنها: ذِكْرُ شَقِّ صَدْرِه الشَّريفِ، وكم مَرَّةً وَقَعَ ذلك.

ومنها: الكلامُ عن موتِ والدِه عبدِ اللهِ، ثُمَّ وفاةِ والدتِهِ، مع الإشارةِ إلى الخِلَافِ في قضيَّةِ نجاتهما مِن النَّار.

ومنها: ذِكْرُ رحلتِهِ ﷺ إلى الشَّامِ، وكم مَرَّةً وَقَعَ ذلك، وكيف كانَ ذلك سبباً لزواجِهِ بأمِّ المؤمنينَ وأمِّ أولادِهِ خديجةَ رضيَ اللهُ عنها.

ثُمَّ ذَكَرَ قصَّةَ بناءِ قريشٍ للكعبةِ وما كان مِن وقوعِ النَّبيِّ ﷺ مَغْشيًّا عليه أثناءَ ذلك؛ لأنَّه حَلَّ إزارَه وجَعَلَه على مَنكبَيْه.

وآخِرُ المباحِثِ في هذه الرسالةِ اللَّطيفةِ، كان الكلامَ عن البِعثةِ الشَّريفة، وللمؤلِّفِ فيها عَوْدٌ على بَدْءٍ.

حيثُ خَتَمَها كما بَدَأها بشرحِ الآيةِ الكريمةِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآيةَ شرحاً وافياً.

ويَظْهرُ في هذهِ الرِّسالةِ قوَّةُ تحريرِ المؤلِّفِ رحمهُ اللهُ وبَراعةُ تَقْريرِه، حيثُ إنَّه في نَقْلِهِ لكلامِ بعضِ العلماءِ ـ كالسَّخاويِّ مَثَلاً ـ يُتْبِعُ كلَّ فقرةٍ منهُ

بتنبيهٍ أو استِشْكالٍ أو زيادةٍ أو تعقيبٍ، فانْظُرْ كيف تَعَقَّبَ كلامَ ابنِ الجَزَريِّ في استدلالِهِ على صِحَّةِ الاحتفال بالمولدِ بفِعْلِ النَّصارَى في ذِكْرَى مولدِ نبيِّهم، فقال: ممَّا يَرِدُ عليه أنَّا مَأمورونَ بمُخالفةِ أهلِ الكتاب، ولَمْ يَظهَرْ من الشَّيخِ لهذا السُّؤالِ جَواب.

ثُمَّ كيفَ زادَ على ما ذَكَرهُ ابنُ حجرٍ مِن استدلالٍ على صحَّةِ الاحتفالِ بالمولدِ بحديثِ صيامِ النبيِّ ﷺ ليومِ عاشوراءَ.

وهو اليومُ الذي نَجَّى اللهُ فيه موسَى عليه السَّلامُ.

ومِن حُسْنِ أسلوبِ المؤلِّفِ رحمهُ اللهُ في هذهِ الرِّسالةِ أنَّهُ لا يَترُكُ غامضاً خلالَ الأخبارِ إلَّا شَرَحَه.

ويكونُ ذلك في مَوضِعِهِ دونَ انتظار، فهو لا يُهْمِلُ شرحَ الغريبِ مِن الأَثَر، ولا يَنْتظِرُ حتَّى انتهاءِ الخبر.

كما شَرحَ (مسروراً) في حديثِ ابن عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما بقوله: (مختوناً)، وشَرَحَ (الشَّارِفَ) في حديثِ حَليمةَ بقوله: (أي: ناقةٌ مُسِنَّةٌ مُهرَمَةٌ)، وشَرَحَ (فَصَلَتْه) في حَدِيثِها الآخرِ بقولِهِ: (فَطَمَتْه).

فإليكَ يا أخي هذهِ الرِّسالةَ الغنية ـ عَلَى اختصارِها ـ بالمباحِثِ الدَّقيقةِ، والمعلوماتِ المفيدةِ، والإشاراتِ اللَّطيفة الرقيقة.

وقد اعْتَمَدْنا في تحقيقِها على نُسخةٍ خطِّية وحيدةٍ منقولة من خط المؤلف رحمه الله وهي:

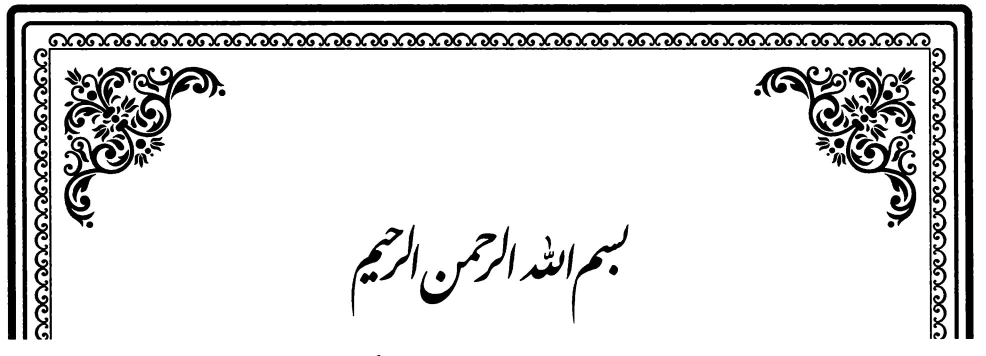
* نسخة مكتبة فيض الله ورمزها «ف»، لكنْ مع الرُّجوعِ إلى المصادرِ

التـي نَقَـلَ عنهـا المؤلِّـفُ أو رَوَى منهـا، ومُقابلـةِ الـكلامِ عليهـا لتوثيقِـهِ، أو إصـلاحِ تحريـفٍ إنْ وُجِـدَ، أو اسـتدراكِ سَـقْطٍ إنْ وَقَـعَ، واللهُ الموفِّـق.

والحمدُ لله ربِّ العالمين

المحقق

* * *



أحمدُ اللهَ الأزَليَّ الأبدِيَّ على ما أضاءَ النُّورَ الأحمَدِيَّ، وأشرَقَ الضِّياءَ المُحمَّدِيَّ، المَنعوتَ بالمحمودِ في عالَمِ الوُجودِ، وأفاءَ على العَرَبِ والعَجَمِ بأنواعِ النِّعَمِ وأصنافِ الجُودِ، وأهداهُ إلى النَّاسِ كافَّةً إرسالَ هِدايةٍ وهَدِيَّةٍ ورَحمةٍ ورَأفةٍ وهو الرَّحيمُ الوَدُود، بإبرازِ هذا المولودِ في أحسَنِ المَورُود، وهو شهرُ ربيعٍ الأوَّل، على ما عليه المُعوَّلُ، صلَّى اللهُ وسلَّمَ عليه وشَرَّفَ وكرَّمَ، وأحسَنَ إليه، وقرَّبَه واصطَفاه لدَيه.

ولقد أحسَنَ المَقالَ مَن قالَ من بعضِ أربابِ الحالِ:

لهـذا الشَّـهرِ فـي الإسـلامِ فَضْـلٌ	ومَنقَبـةٌ تفـوقُ علـى الشُّـهورِ
فمَولــودٌ بــه واســمٌ ومعنًــى	وآيــاتٌ بَهَــرْنَ لــدَى الظُّهــورِ
ربيــعٌ فــي ربيــعٍ فــي ربيــعٍ	ونــورٌ فــوقَ نــورٍ فــوقَ نــورِ

وقد قالَ تعالى في القُرآنِ العظيمِ، والفُرقانِ الحكيمِ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وأظهرَ هذا الإخبارُ، المُتضَمِّنُ لحُصولِ الأنوار، مُصَدَّراً بالقَسَمِ المُقدَّرِ، ومُؤَكَّداً بحرفِ التَّحقيقِ، إشارةً إلى أنَّ مجيئَه ﷺ إليهم من علاماتِ العِنايةِ، وأَماراتِ التَّوفيقِ، والخِطابُ عامٌّ شامِلٌ للمؤمنين والكافرين، لكنَّه هُدًى للمُتَّقين، وحُجَّةٌ على الآخَرين، كماءِ النِّيلِ: ماءٌ للمَحبوبين، ودِماءٌ للمَحجوبين. وإيماءً إلى أنَّ مَجيئَه مَوعودٌ إليكم، ومَقصودٌ لدَيكم، بمُقتَضى قولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي

هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩]، وفي الإتيانِ بـ «إنْ» الشَّرطيّةِ المُؤكَّدَةِ بـ «ما» المَزيدةِ في إتيانِ الرَّسولِ ومجيئِه المَقبولِ؛ دَلالةٌ كاملةٌ وعلامةٌ شاملةٌ إلى أنَّ بعثَ الرَّسولِ ليسَ بواجبٍ عليه سُبحانَه، إلَّا بمُوجِبِ وَعدِه وفَضلِه وكرَمِه على عبادِه.

وفيه إشعارٌ بأنَّه لولا إرسالُنا إيَّاه بالمَجيءِ إليكم لَمَا تنَزَّلَ عن مرتبتِه، ولا نزَلَ باختيارِه عليكم، فإنَّه من المُقرَّبينَ إلينا، ومن المُعظَّمين لدَينا، وهو لا يحبُّ الغيبةَ عن حضرةِ الحقِّ بالإقبالِ والتَّوجُّهِ إلى الخلقِ.

أمَا ترَى إلى إيازَ الخاصِّ، حيثُ كانَ من عبيدِ الخوَّاصِ، كلَّما عَرَضَ عليه سيِّدُه وسُلطانُه من المَناصبِ الجليلةِ لم يقبَلْه، وأقبلَ على إقبالِ الحضرَةِ العليَّةِ، لكنَّه ﷺ ترَكَ ما يُريدُ لِمَا يَختارُه تعالى ويُريدُ، كما هو شأنُ المُرادِ والمُريدِ، وقد قالَ قائلُهم:

أُرِيدُ وِصالَهُ ويُرِيدُ هَجْري ... فأتـرُكُ ما أُريدُ لِما يُريدُ

فهذه مَرتبةُ أهلِ الكَمالِ من أربابِ الأحوالِ، الجامعين بينَ تجلِّياتِ الجَمالِ والجَلالِ، الفانين عمَّا سِواهُ في الإدبارِ والإقبالِ، ولذا لمَّا قيلَ لأبي يزيدَ: ما تُريدُ؟ قالَ: أُريدُ أن لا أُريدَ.

وقد قالَ بعضُ أربابِ التَّوفيقِ من أصحابِ التَّحقيقِ والتَّدقيقِ: هذه أيضاً إرادةٌ عندَ الصُّوفيّةِ السَّادة؛ إذ إرادةُ عَدَمِ الإرادةِ من بابِ الزِّيادة، تلميحاً إلى مَقامِ الفَناءِ عن السِّوَى، وحالةِ التَّسليمِ والرِّضا في فَضاءِ القَضا.

ثمَّ التَّنوينُ في ﴿رَسُولٌ﴾ للتَّعظيمِ المُحتَوي للتَّكريمِ، فكأنَّه تعالى قالَ: لقد جاءَكُم أيُّها الكِرامُ رسولٌ كريمٌ من ربٍّ كريمٍ بكتابٍ كريمٍ، فيه دُعاءٌ إلى رَوحٍ ورَيحانٍ وجنَّةِ نعيمٍ، وزيادةُ بِشارةٍ إلى لقاءٍ كريمٍ، وإنذارٌ عن الحميمِ والجحيمِ، كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

ومـن عظَمَـةِ هـذا الرَّسـولِ أنَّـه أخـذَ الميثاقَ مـن الأنبيـاءِ الكِـرامِ، والرُّسـلِ العِظـامِ، أنَّ كلَّ مَـن أدركَ وقتَ مجيئِه بالرِّسـالة، علـى جهةِ العَظَمـةِ والجَلالة، آمَنَ بـه ونَصَـرَه وأظهـرَ كمالَه، كما أشـارَ إليه المُفسِّـرونَ فـي قولِه تعالـى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقـد هُـدِيَ عليه السَّـلامُ إلى هـذا المَقـامِ العالي بقَولِـه: «لو كانَ مُوسـى حيّاً لَمـا وَسِـعَه إلا اتِّباعـي»[١]، وأومَـأَ إلى ذلك، بـل إلى أنَّه فـوقَ ما هُنالك فـي المَرتبةِ بقَولِـه: «آدَمُ ومَـن دونَه تحـتَ لوائي يـومَ القِيامة»[٢].

ثمَّ كأنَّه سُبحانَه يقولُ: اعلَموا أنَّه ﷺ ما جاءَكُم إلى جانبِكم إلا باعتِبارِ القالبِ الصُّورِيِّ على وَجهِ الظُّهورِ النُّورِيِّ، ولكنَّه باعتبارِ القَلبِ الحُضورِيِّ واقِفٌ عندَ بابِنا، حاضِرٌ في جَنابِنا، لا يغيبُ من البَينِ لمحةَ عين، فهو مجمَعُ البَحرَين؛ لأنَّه غَريبٌ عندَكم وقريبٌ إلينا، وبائِنٌ عنكم وكائِنٌ علينا، وفَرشِيٌّ معَكم وعَرْشِيٌّ لدَينا.

ومـعَ هـذا مرجِعُـه إلـى الحضـرةِ، وإن طالَـتِ الغيبةُ، كما هو شـأنُ الرَّسـولِ بالنِّسـبةِ إلـى المُرسِـلِ بعـدَ حُصـولِ المَقصِـدِ المُوصِـلِ، ففيـه مَـزْجُ الهنـا بالعَزاءِ، علـى مـا عليه جميعُ نعيـمِ الدُّنيا بظُهـورِ البَقـاءِ وتعقيبِ الفَنـاءِ، ومنَ الغَريـبِ أنَّهما وقَعـا في موسـمٍ واحـدٍ وربيـعٍ مُتَّحِدٍ علـى السَّـواءِ، كما وقَعَ مـن عجائـبِ التَّاريخِ أنَّ عُـرسَ مَيمونَـةَ رضـيَ اللهُ عنهـا كانت بسَـرِفَ حيـثُ بنَى بهـا وهَنَّاهـا، ووَقَعَ فيه مَوتُهـا ودَفْنُهـا وعَزَاها.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٨٧) (١٥١٥٦)، وفي إسناده ضعف، وانظر الكلام عليه في التعليق على «المسند» ط الرسالة.

(٢) قطعة من حديث رواه الترمذي (٣١٤٨) عن أبي سعيد رضيَ اللهُ عنه، وقال: حسن صحيح.

فسُبحانَ الحيِّ الذي لا يموتُ ولا يفوتُ، ولا يزولُ ولا يحولُ، والحمدُ للهِ الذي أحيانا بالإسلام، وجَعَلَنا من أمَّةِ محمَّدٍ عليه السَّلام، الذي هو مُتَمَنَّى الأنبياءِ الكِرام، فمَجيئُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من تَمامِ النِّعمةِ وغايةِ الإكرام، فوَجَبَ الإقبالُ والاستِقبالُ في زمانِ الإرسالِ ومَكانِ الإيصالِ.

وقد جَمَعَ اللهُ تعالى مِن محضِ الإفضالِ بينَ حُصولِ النِّعمتَينِ العَظيمتَينِ لأهلِ البُقعتَينِ الكَريمتَين، أعني الحرَمَينِ الشَّريفَين، والمَحَلَّينِ المُنيفَين، زادَهُما اللهُ تشريفاً وتكريماً، ومَهابةً وتعظيماً، حيثُ وَقَعَ المَولدُ المُكرَّمُ بمَكَّةَ الأمينةِ، والمَدفنُ المُعظَّمُ في المدينةِ السَّكينةِ، على ساكنِها منَ الصَّلواتِ أفضَلُها، ومنَ التَّحيّاتِ أكمَلُها.

وقد قامَ أهلُ كلٍّ بما هو أهلٌ له، وفعَلَ كلٌّ من الجميلِ بما هو مُيَسَّرٌ وسَهْلٌ له، من زيارةِ المَولدِ والمَولود، وحَصَلَ لهم غايةُ الفَوزِ ونهايةُ المَقصود.

قالَ شيخُ مَشايخِنا الإمامُ العلَّامةُ الحَبْرُ البَحرُ الفَهَّامةُ شمسُ الدِّينِ محمَّدٌ السَّخاوِي، بلَّغَه اللهُ المَقامَ العالي: وكنتُ ممَّن تَشَرَّفَ بإدراكِ المَولِدِ في مكَّةَ المُشرَّفةِ عدَّةَ سنين، وتعرَّفَ ما اشتَمَلَ عليه من البركةِ المُشارِ لبَعضِها بالتَّعيينِ، وتكرَّرتْ زِيارتي فيه لمَحَلِّ المَولدِ المُستَفيض، وتصوَّرتْ فِكرَتي ما هُنالك من الفَخْرِ الطَّويلِ العَريض.

قالَ: وأصلُ عمَلِ المَولدِ الشَّريفِ لم يُنقَلْ عن أحدٍ منَ السَّلَفِ الصَّالحِ في القُرونِ الثَّلاثةِ الفاضِلَةِ، وإنَّما حَدَثَ بعدَها بالمَقاصِدِ الحسنةِ والنِّيَّةِ التي للإخلاصِ شاملةٌ.

ثمَّ لا زالَ أهلُ الإسلام، في سائرِ الأقطارِ والمُدُنِ العِظام، يَحتَفِلون في شهرِ مَولِدِه ـ ﷺ وشرَّفَ وكرَّمَ ـ بعَمَلِ الوَلائمِ البَديعة، والمَطاعِمِ المُشتمِلَةِ على الأمورِ البهيجةِ الرَّفيعة، ويتصدَّقون في لَياليهِ بأنواعِ الصَّدَقات، ويُظهِرون المَسرَّات، ويَزيدون في المَبَرَّات.

بل يَعتَنونَ بقراءةِ مَولِدِه الكريم، ويظهَرُ عليهم من بركاتِه كلُّ فضلٍ عَميم، بحيثُ كانَ ممَّا جُرِّبَ ـ كما قالَ الإمامُ الشَّمسُ ابنُ الجَزَرِيِّ المَقدِسيُّ المُقرَّب ـ مِن خَواصِّه أنَّه أمانٌ تامٌّ في ذلك العام، وبُشرى تُعجِّلُ بنَيلِ ما ينبَغي ويُرام، قال: وأكثَرُهم بذلك عنايةً أهلُ مِصرَ والشَّام، ولسُلطانِ مِصرَ في تلك اللَّيلةِ من العامِ أعظَمُ مَقام.

قال[1]: ولقد حضَرْتُ في سنةِ خمسٍ وثمانينَ وسبعِ مئةٍ ليلةَ المَولدِ عندَ الملكِ الظَّاهرِ بَرْقُوقَ رحِمَه اللهُ بقَلعَةِ الجبَلِ العليَّةِ، فرأيتُ ما هالَني وسرَّني وما ساءَني، وحزَرْتُ ما أُنفِقَ في تلك اللَّيلةِ على القُرَّاءِ والحاضِرين، من الوُعَّاظِ والمُنشِدِين، وغيرِهم من الأتباعِ والغِلمانِ والخُدَّامِ المُتَرَدِّدين، بنحوِ عشرةِ آلافِ مِثقالٍ من الذَّهبِ العَين، بالحَدْسِ المُصيبِ لا المَين، ما بينَ خِلَعٍ ومَطعوم، ومَشروبٍ ومَشموم، وشُموع، وغَيرِها ممَّا يستقيمُ به الضُّلوع.

وعَدَدْتُ في ذلك خمساً وعشرينَ جَوْقَةً من القُرَّاءِ الصَّيِّتين، المَرجُوِّ كونَهم مُثْبِتين، ولم يَنزِلْ واحدٌ منهم إلا بنحوِ عشرينَ خِلعَةً من السُّلطانِ، ومن الأُمراءِ الأعيانِ.

قالَ السَّخاوِيُّ: قُلتُ: ولم يزَلْ مُلوكُ مِصرَ خُدَّامُ الحَرَمَينِ الشَّريفَين، ممَّن وفَّقَهم اللهُ لهَدْمِ كثيرٍ من المَناكيرِ والشَّين، ونظَرُوا في أمرِ الرَّعيَّةِ كالوالدِ لوَلَدِه، وشَهَروا أنفُسَهم بالعَدْلِ فأسعَفَهُم اللهُ بجُندِه ومَدَدِه، كالملكِ السَّعيدِ الشَّهيدِ الظَّاهِرِ المُصدِّقِ أبي سعيدٍ جَقْمَقَ= يعتَنونَ به، ويتوَجَّهون لطَريقِ سبَبِه، بحيثُ ارتقَتْ جُوَقُ القُرَّاءِ في أيَّامِه بيقينٍ للزِّيادةِ على الثَّلاثين، فذكَّرُوا بكُلِّ جميلٍ، وكفَوا من المُهِمَّاتِ كلَّ عريضٍ وطويلٍ.

وأمَّا مُلوكُ الأندَلُسِ والغَرْبِ فلهم فيه ليلةٌ تسيرُ بها الرُّكبان، يجتمِعُ فيها أئمَّةُ العُلماءِ الأعلامِ فمَن يليهم من كلِّ مكان، وتعلُوها بينَ أهلِ الكُفْرِ كلمةُ الإيمان.

---

(١) أي: ابن الجزري.

وأظنُّ أهلَ الرُّومِ لا يتخَلَّفون عن ذلك، اقتِفاءً لغَيرِهم من المُلوكِ فيما هُنالِك، وبلادُ الهِندِ تزيدُ على غَيرِها بكثير، كما أعلَمَنيه بعضُ أولي النَّقدِ والتَّحرير[1].

قُلتُ: وأمَّا العَجَمُ، فمِن حيثُ دَخَلَ هذا الشَّهرُ المُعظَّمُ، والزَّمانُ المُكرَّمُ، لأهلِها مَجالِسُ فِخَامٌ من أنواعِ الطَّعامِ للقُرَّاءِ الكِرام، وللفُقَراءِ من الخاصِّ والعامّ، وقراءاتُ الختماتِ والتِّلاواتِ المُتواليات، والإنشادات المُتَعاليات، وأنواعُ السُّرورِ وأصنافُ الحُبورِ، حتَّى بعضُ العَجائزِ من غَزْلهنَّ ونَسجِهِنَّ يجمَعْنَ ما يَقْمنُ بجَمْعِهنَّ الأكابرُ والأعيانُ، وبضِيافَتِهِنَّ ما يقدِرْنَ عليه في ذلك الزَّمانِ.

ومن تعظيمِ مَشايخِهم وعُلمائِهم هذا المَولِدَ المُعظَّمَ والمَجلِسَ المُكرَّمَ: أنَّه لا يأباهُ أحَدٌ في حُضورِه، رَجاءَ إدراكِ نُورِه وسُرورِه.

وقد وَقَعَ لشيخِ مَشايخِنا مَولانا زَينِ الدِّينِ محمودِ البهداينيِّ النَّقشبَنديِّ، قُدِّسَ سِرُّه العَليّ: أنَّه أرادَ سلطانُ الزَّمانِ وخاقانُ الدورانِ همايون بادشاه، تغمَّدَه الله وأحسَنَ مَثواهُ، أن يجتَمِعَ به، ويحصُلَ له المَدَدُ والمدد بسببِه، فأباهُ الشَّيخُ، وامتَنَعَ أيضاً أن يأتيَه السُّلطان، استِغناءً بفَضْلِ الرَّحمن، فألَحَّ السُّلطانُ على وَزيرِه بيرَم خان، بأنَّه لا بُدَّ من تدبيرٍ للاجتماعِ في المَكان، ولو في قليلٍ من الزَّمان، فسَمِعَ الوزيرُ أنَّ الشَّيخَ لا يحضُرُ في دَعوةٍ مِن هَناءٍ وعَزاءٍ إلا في مَولِدِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، تعظيماً لذلك المَقام، فأَنهى إلى السُّلطانِ، فأمرَه بتَهيئَةِ أسبابِه المُلوكانيَّةِ؛ من أنواعِ الأطعمةِ والأشربةِ ومما يُشَمُّ به ويبَخَّرُ في المجالسِ العَلِيَّةِ، ونادى الأكابِرَ والأهالي، وحضَرَ الشَّيخُ معَ بعضِ المَوالي، فأخَذَ السُّلطانُ الإبريق بيدِ الأدبِ ومُعاونةِ التَّوفيقِ، والوزيرُ

---

(١) انظر: «الأجوبة المرضية فيما سئل عنه السخاوي من الأحاديث النبوية» لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٣/ ١١١٦ ـ ١١١٧). وانظر أيضاً «التبر المسبوك في ذيل السلوك» له (ص ٥٥ ـ ٥٦).

أَخَذَ الطَّسْتَ من تحتِ أمرِه، رجاءَ لُطفِه ونظَرِه، وغَسَلا يدَ الشَّيخِ المُكرَّم، وحَصَلَ لهما ببركةِ تواضُعِهما للهِ ولرسولِه ﷺ المَقامُ المُعظَّمُ، والجاهُ المُفخَّمُ.

قال السَّخاوِيُّ: وأمَّا أهلُ مكَّةَ مَعدِنِ الخيرِ والبركةِ، فيتوجَّهون إلى المَكانِ المُتواترِ بينَ النَّاسِ أنَّه محلُّ مَولِدِه، وهو في سوقِ اللَّيلِ رجاءَ بُلوغِ كلٍّ منهم بذلك لمقصدِه، ويزيدُ اهتِمامُهم به على يومِ العيدِ، حتَّى قلَّ أن يتخلَّفَ عنه أحدٌ من صالحٍ وطالحٍ، ومُقِلٍّ وسعيد، سيَّما الشَّريفُ صاحِبُ الحِجاز، بدونِ تَوَارٍ وانحِجاز[١].

قُلتُ: الآنَ سِيماءُ الشَّريفِ لا تَبَانُ في ذلك المَكان، ولا في ذلك الزَّمان.

قالَ: وجَدَّدَ قاضيها وعالمُها البُرهانِيُّ الشَّافِعِيُّ رحِمَه اللهُ تعالى إطعامَ غالبِ الوارِدينَ، وكثيرٍ من القاطنينَ المُشاهِدينَ، فاخِرَ الأطعِمةِ والحَلوى، ويَمُدُّ للجُمهورِ في منزِلِه صبيحتَها سِماطاً جامِعاً رَجاءً لكَشْفِ البَلوى، وتبعَه ولدُه الجَماليُّ في ذلك للقاطِنِ والسَّالِكِ.

قُلتُ: أمَّا الآن، فما بقِيَ من تلك الأطعِمةِ إلا الدُّخان، ولا يَظهَرُ ممَّا ذَكَرَ إلا ريحُ الرَّيحان، فالحالُ كما قال:

أمَّا الخِيامُ فإنَّها كخِيامهم ... لكنَّ نساءَ الحيِّ غيرُ نِسائِها

قال: ولأهلِ المَدينةِ كثَّرَهُم اللهُ تعالى به احتِفالٌ، وعلى فِعلِه إقبالٌ.

وكان للملِكِ المُظَفَّرِ صاحِبِ إِرْبِلَ رحِمَه الله بذلك فيها أتمُّ العِناية، واهتِمامٌ[٢] بشأنِه جاوَزَ الغاية، أثنَى عليه به العلَّامةُ أبو شامَة، أحدُ شُيوخِ النَّوويِّ السَّابقِ في

(١) المصدر السابق (٣/ ١١١٧).

(٢) في «ف» و«الأجوبة المرضية»: «واهتماماً»، والمثبت من «التبر المسبوك»، وهو الصواب؛ أي: بالرفع عطفاً على اسم «كان»، وهو: «أتمُّ».

الاستِقامَة، في كتابِه: «الباعِثُ على إنكارِ البِدَعِ والحوادِثِ»، وقالَ: مثلُ هذا الحَسَنِ يُندَبُ إليه، ويُشكَرُ فاعِلُه ويُثنَى عليه(١).

زادَ ابنُ الجزَرِيِّ: ولو لم يكُنْ في ذلك إلَّا إرغامُ الشَّيطانِ وسُرورُ أهلِ الإيمانِ.

قـالَ ـ يعنـي الجـزَرِيَّ ـ: وإذا كانَ أهـلُ الصَّليبِ اتَّخذُوا ليلةَ مولـدِ نبيِّهم عيداً أكبر(٢)، فأهلُ الإسـلامِ أَوْلَـى بالتَّكريمِ وأجدَر(٣).

قُلـتُ(٤): ممَّـا(٥) يَرِدُ عليه أنَّـا مَأمورونَ بمُخالفـةِ أهلِ الكتاب، ولَـمْ يَظهَرْ من الشَّيخِ لهذا السُّـؤالِ جَواب.

قال السَّخاوِيُّ على سبيلِ الإضرابِ: بل خَرَّجَ [شيخُنا](٦) شيخُ مَشايخِ الإسلام، خاتمةُ الأئمَّةِ الأعلام، أبو الفَضْلِ ابنُ حَجَر، الأستاذُ المُعتبَر، تَغمَّدَه اللهُ برَحمتِه، وأَسكَنَه فَسيحَ جَنَّتِه، فِعْلَه على أصلٍ ثابتٍ إمامٍ، يميلُ إلى الاستِنادِ إليه كلُّ حَبرٍ هُمَامٍ، وهو ما ثبتَ في «الصَّحيحَينِ»: من أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَدِمَ المدينةَ فوَجَدَ اليهودَ يصومونَ يومَ عاشوراءَ، فسألهم، فقالوا: هو يومٌ أغرَقَ اللهُ سُبحانَه فيه فِرعَونَ، ونَجَّى مُوسَى عليه السَّلامُ، فنحنُ نصومُه شُكراً للهِ عَزَّ وجَلَّ، فقالَ ﷺ: «فأنا أحَقُّ بمُوسَى ـ عليه السَّلامُ ـ مِنْكُم»، فصامَه وأمَرَ بصيامِه(٧)، وقالَ: «إنْ عِشتُ إلى قابِلٍ» الحديثَ(٨).

---

(١) انظر: «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص ٢٣).

(٢) في «ف»: «عيد الأكبر»، والمثبت من «الأجوبة المرضية» و«التبر المسبوك».

(٣) انظر: «الأجوبة المرضية» (٣/ ١١١٧)، و«التبر المسبوك» (ص ٥٦)، وهنا انتهى كلام السخاوي عن المولد في «التبر المسبوك»، وما سيرد عنه بعد هذا فمن «الأجوبة المرضية».

(٤) القائل المؤلف.

(٥) في «ف»: «لما»، والصواب المثبت.

(٦) من «الأجوبة المرضية» (٣/ ١١١٧).

(٧) رواه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠)، من حديث ابن عباس رضيَ اللهُ عنهما.

(٨) رواه مسلم (١١٣٤) من حديث ابن عباس رضيَ اللهُ عنهما بلفظ: «لئن بقيتُ إلى قابلٍ لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ».

قُلتُ: وافقَهم أوَّلاً للأُلفَةِ، ثمَّ خالَفَهم آخِراً تحقيقاً لصُورَةِ المُخالفَةِ.

قال ـ أي: الشَّيخُ[١] ـ: فيُستَفادُ منه فِعلُ الشُّكرِ للهِ تعالى على ما مَنَّ به في يومٍ مُعيَّنٍ؛ من إِسداءِ نعمةٍ، أو دَفعِ نِقمَةٍ، ويُعادُ ذلك في نظيرِ ذلك اليومِ من كلِّ سنةٍ، والشُّكرُ للهِ تعالى يَحصُل بأنواعِ العِبادةِ كالصَّلاةِ والصِّيامِ والتِّلاوةِ، وأيُّ نعمةٍ أعظَمُ من نعمةِ بُروزِ هذا النَّبيِّ نبيِّ الرَّحمةِ ﷺ؟!

قُلتُ: وفي قولِه تعالى ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] إشعارٌ بذلك، وإيماءٌ إلى تعظيمِ وَقتِ مَجيئِه لِـمَا هُنالِك.

قال: وعلى هذا فينبغي أن يُقتَصَرَ فيه على ما يُفهِمُ الشُّكرَ للهِ تعالى مِن نحوِ ما ذُكِرَ، وأمَّا ما يتبَعُه منَ السَّماعِ واللَّهوِ وغيرِهما فينبَغي أن يُقالَ: ما كانَ من ذلك مُباحاً بحَيثُ يُعينُ السُّرورَ بذلك اليومِ فلا بأسَ بإلحاقِه، وما كانَ حَراماً أو مَكرُوهاً فيُمنَعُ، وكذا ما كانَ فيه خِلافٌ، بل يَحسُنُ في أيَّامِ الشَّهرِ كلِّها ولياليه، يعني: كما جاءَ عن ابنِ جَماعةَ تَمنِّيه.

فقد اتَّصَلَ بنا: أنَّ الزَّاهِدَ القُدوَةَ المُعمَّرَ أبا اسحاقَ إبراهيمَ بنَ عبدِ الرَّحمنِ بنِ إبراهيمَ ابنِ جماعةَ[٢] لمَّا كانَ بالمدينةِ النَّبويَّةِ ـ على ساكنِها أفضَلُ الصَّلاةِ وأكمَلُ التَّحيَّةِ ـ كانَ يعمَلُ طَعاماً في المَولدِ النَّبويِّ، ويُطعِمُ النَّاسَ ويقولُ: لو تمكَّنتُ عَمِلتُ بطُولِ الشَّهرِ كلَّ يومٍ مَولِداً.

قُلتُ: وأنا لـمَّا عجَزْتُ عن الضِّيافةِ الصُّورِيَّة، كتبتُ هذه الأوراقَ لتصيرَ ضِيافةً

(١) أي: ابن حجر، ففي «الأجوبة المرضية»: «قال شيخنا».

(٢) الكناني الحموي الأصل، المقدسي الشافعي، ابن أخي القاضي بدر الدين بن جماعة، ولد سنة ست أو ثمان وسبعين وست مائة، وقد جاور بالمساجد الثلاثة المشرفة زماناً، وقدم القاهرة وحدث بها، كان زاهد وقته، وقال الولي العراقي: كان عابداً زاهداً ذا حظ من الخير. ومات ببيت المقدس سنة (٧٦٤هـ). انظر: «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» للشمس السخاوي (١/ ٩٢).

معنويَّةً نُورِيَّة، مُستمِرَّةً على صفَحاتِ الدَّهر، غيرَ مختصَّةٍ بالسَّنةِ والشَّهر، وسمَّيتُه بـ: «المَورِدِ الرَّوِيِّ في المَولِدِ النَّبوِيِّ».

قالَ: وأمَّا قِراءةُ المَولدِ فينبَغي أن يُقتَصَرَ منه على ما أورَدَه أئمَّةِ الحديثِ في تصانيفِهم المُختصَّةِ بذلك، كـ«المَورِدِ الهنِيِّ»[1]، وغيرِ المُختصَّةِ به بل ذُكِرَ ضِمْناً كـ«دَلائلِ النُّبوَّةِ» للبَيهَقيِّ، ولا بأسَ بـ«لَطائِفِ المَعارِفِ» لابنِ رَجَبٍ في ذلك؛ لأنَّ أكثرَ ما بأيدي الوُعَّاظِ منه كَذِبٌ واختِلاقٌ، بل لم يزالُوا يُوَلِّدون ما هو أقبَحُ وأسمَجُ ممَّا لا تحِلُّ رِوايتُه ولا سَماعُه، بل يجبُ على مَن عَلِمَ بُطلانَه إنكارُه، والأمرُ بتَركِ قِراءتِه.

على أنَّه لا ضرورةَ إلى سياقِ ذكرِ المَولِدِ، بل يُكتَفى بالتِّلاوةِ والإطعامِ والصَّدَقةِ وإنشادِ شيءٍ من المَدائحِ النَّبويَّةِ والزُّهدِيَّةِ، المُحرِّكةِ للقُلوبِ إلى فعلِ الخيرِ وعَمَلِ الآخرةِ، والصَّلاةِ والسَّلامِ على صاحبِ المَولدِ[2].

واعلَمْ أنَّ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾؛ أي: رجلٌ مَوصوفٌ بوَصفِ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ، ومَنعوتٌ بنَعتِ العَظَمةِ والجَلالةِ، إمَّا إشارةً إلى مآلِه حينَ بُلوغِ زمانِ كمالِه وظُهورِ أوانِ جَمالِه، أو إيماءً إلى ما وَرَدَ من قولِه ﷺ: «كنتُ نبيّاً وآدمُ بينَ الماءِ والطِّينِ»، وهو وإن قالَ بعضُ الحُفَّاظِ: لم نقِفْ عليه بهذا اللَّفظِ[3]، لكنْ جاءَ معناه في طُرُقٍ صحيحةٍ.

منها: ما رَواهُ أحمدُ والبَيهَقِيُّ والحاكِمُ وقالَ: صحيحُ الإسنادِ، عن العِرْباضِ

---

(١) «المورد الهني في المولد السني» لأبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي المتوفى (٨٠٦هـ)، مطبوع في (دار السلام).

(٢) انظر: «الأجوبة المرضية» (٣/ ١١٢٠).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٣٦٩)، وفيه: لا أصل له، لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث بهذا اللفظ، وهو باطل فإنه لم يكن بين الماء والطين إذ الطين ماء وتراب.

ابنِ سارِيةَ عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «إنِّي مَكتوبٌ عندَ اللهِ خاتمَ النَّبيينَ، وإنَّ آدَمَ لَـمُنجَدِلٌ في طينَتِه»[١]؛ أي: لَطَريحٌ مَلْقيٌّ على الأرضِ قبلَ نفخِ الرُّوحِ فيه.

ومنها: ما رَواهُ أحمدُ والبُخارِيّ في «تاريخِه»، وأبو نُعَيمٍ في «الحِليةِ»، وصحَّحَه الحاكِمُ، عن مَيسَرَةَ الضَّبِّيِّ، قالَ: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ! متَى كنتَ نبِيّاً؟ فقالَ: «وآدَمُ بينَ الرُّوحِ والجسَدِ»[٢]، ويُروَى: «كُتِبْتَ» من الكِتابةِ[٣].

ومنها: خبرُ التِّرمِذِيِّ ـ وحسَّنَه ـ عن أبي هُرَيرَةَ: أنَّهم قالوا: يا رسولَ الله! متى وَجَبَتْ لك النُّبُوَّةُ؟ قالَ: «وآدمُ بينَ الرُّوحِ والجسَدِ»[٤].

ووَرَدَ: «أنا أوَّلُ الأنبياءِ خَلْقاً وآخِرُهم بَعثاً»[٥].

وفي «صحيحِ مُسلمٍ» من حديثِ عَمرِو بنِ العاصِ: أنَّه ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ كتَبَ مَقاديرَ الخلقِ قبلَ أن يَخلُقَ السَّماواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألفَ سنةٍ، وكانَ عَرشُه على الماءِ»[٦]. ومن جُملَةِ ما كتَبَ في الذِّكرِ وهو أمُّ الكتابِ: أنَّ محمَّداً خاتَمُ النَّبيينَ[٧].

والمُـرادُ ظُهـورُ نُبوَّتِـه للمَلائكـةِ المُقرَّبيـن، وعُلُـوِّ رُوحِـه فـي أعلـى مقـامِ عِلِّيِّـين، إعلامـاً بعظيـمِ شـرَفِه وتَميُّـزِه على سـائرِ الأنبياءِ والمُرسَـلين، ثـمَّ خصَّصَ

(١) رواه الإمـام أحمـد فـي «المسـند» (٤/ ١٢٧)، والبيهقـي فـي «الشـعب» (١٣٨٥)، والحاكـم في «المسـتدرك» (٤١٧٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٥٩)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ٣٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤٢٠٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٥٣).

(٣) هي رواية الإمام أحمد. انظر التعليق السابق.

(٤) رواه الترمذي (٣٦٠٩)، وجاء في مطبوعه: «حديث حسن صحيح غريب». والذي قاله المؤلف موافق لما في «تحفة الأشراف» للمزي (١١/ ٧٤).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٣) عن قتادة مرسلًا.

(٦) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٧) هذه الزيادة من كلام ابن رجب في «لطائف المعارف» (ص ٨٠)، وليست من الحديث.

الإظهـارَ بحالـةِ كـونِ آدمَ ﷺ بينَ الـرُّوحِ والجسَـدِ؛ لأنَّـه أوانُ دُخـولِ الأرواحِ إلى عالـمِ الأجسـادِ، وتميُّـزِ الذُّرِّيـةِ والأولادِ مـن الآبـاءِ والأجدادِ.

وأجابَ الإمامُ حُجَّةُ الإسلامِ في كتاب «النَّفخِ والتَّسويةِ» عن وَصفِه نفسَه بالنُّبوةِ قبلَ وُجودِ ذاتِه وتحقُّقِ كمالاتِ صِفاتِه، بأنَّ المُرادَ بالخلقِ هنا التَّقديرُ لا الإيجادُ، فإنَّه قبلَ أن تحمِلَ به أمُّه لم يكُنْ مَخلوقاً مَوجوداً، ولكنَّ الغاياتِ والكَمالاتِ سابقةٌ في التَّقديرِ لاحِقَةٌ في الوُجودِ.

قـالَ: وهـو معنَى قولهـم: أوَّلُ الفِكرَةِ آخِرُ العَمَـلِ، وآخِرُ العَمَـلِ أوَّلُ الفِكرةِ، فقولُـه: «كنـتُ نبيّاً»؛ أي: فـي التَّقديرِ قبلَ تَمـامِ خِلقـةِ آدمَ؛ إذ لم ينشَـأْ إلا ليُنتَزَعَ من ذُرِّيتِـه محمَّدٌ ﷺ.

وتحقيقُه: أنَّ للدَّارِ في ذِهْنِ المُهندِسِ وُجوداً ذِهْنيَّاً سبَباً للوُجودِ الخارِجيِّ وسابِقاً عليه، فاللهُ تعالى يُقَدِّرُ ثمَّ يُوجِدُ على وَفْقِ التَّقديرِ ثانياً. انتهَى مُلَخَّصاً.

وذهـبَ السُّـبكِيُّ إلـى مـا هـو أحسَـنُ، وللمَقصـودِ أبيَـنُ، وهـو أنَّـه جـاءَ أنَّ الأرواحَ خُلِقَـت قبـلَ الأجسـادِ، فالإشـارةُ بـ«كنـتُ نبيَّـاً» إلـى رُوحِه الشَّـريفةِ، أو حقيقـةٍ مـن حقائقِـه[1]، ولا يعلَمُهـا إلا اللهُ، ومَـن حَبَـاه بالاطِّـلاعِ علَيهـا.

ثـمَّ إنَّـه تعالـى يُؤتي كلَّ حقيقـةٍ منها ما شـاءَ فـي أيِّ وقتٍ شـاءَ، فحقيقتُه ﷺ قـد تكـونُ من حينِ خلـقِ آدمَ آتاها الله ذلـك الوَصْفَ بـأنْ خلَقَها مُتَهيِّئـةً له، وأفاضَ عليهـا مـن ذلـك الوقـتِ، فصـارَ نبيَّـاً، وكتـبَ اسـمَه علـى العـرشِ ليعلَـمَ ملائكتُه وغيرُهـم كرامتَه الزَّائـدَةَ عندَه.

فحقيقتُـه موجـودةٌ مـن ذلـك الوقـتِ، وإنْ تأخَّـرَ جَسَـدُه الشَّـريفُ المُتَّصِفُ

---

(١) العبارة في «فتاوى السبكي» (١/ ٣٩): «... إلى روحه الشريفة ﷺ وإلى حقيقته...».

بهـا، فحينئـذٍ[١] إيتـاؤُه النُّبوَّةَ والحكمةَ وسـائرَ أوصـافِ حقيقتِه وكمالاتِـه مُعَجَّل لا تأخُّـرَ فيـه، وإنَّمـا المُتأخِّـرُ تكوُّنُه وتنقُّلُه فـي الأصـلابِ والأرحامِ الطَّاهـرةِ، إلى أن ظَهَرَ علـى الوجهِ الأتـمِّ ﷺ[٢].

قالَ: ومَن فسَّرَ ذلك بعلمِ اللهِ بأنَّه سيصيرُ نبيّاً لم يصِلْ لهذا المعنى؛ لأنَّ علمَه تعالى محيطٌ بجميعِ الأشياءِ، فالوَصفُ بالنُّبوَّةِ في ذلك الوقتِ ينبغي أن يُفهَمَ منه أنَّه أمرٌ ثابتٌ له فيه، وإلا لمْ يَختصَّ بأنَّه نبيٌّ [حينئذٍ][٣]؛ إذ الأنبياءُ كلُّهم كذلك بالنِّسبةِ لعِلمِه سُبحانَه[٤].

قال القَسْطَلَانِيُّ: لمَّا تعلَّقَتْ إرادةُ الحقِّ تعالى بإيجادِ خلقِه وتقديرِ رِزْقِه، أبرَزَ الحقيقةَ المُحمَّديّةَ من الأنوارِ الصَّمَدِيّةِ في الحضْرةِ الأحَدِيَّةِ، ثمَّ سَلَخَ منها العَوالمَ كلَّها ـ عُلُوَّها وسُفلَها ـ على صورةِ حُكمِه، كما سبَقَ في سابقِ إرادتِه وعلمِه، ثمَّ أعلمَه تعالى بنُبوَّتِه وبشَّرَه برسالتِه.

هذا، ولم يكُنْ آدَمُ إلا كما قالَ: «بينَ الرُّوحِ والجسَدِ»، ثمَّ انبَجَسَت منه ﷺ عيونُ الأرواحِ، فظَهَرَ بالملأِ الأعلَى وهو بالمَنظَرِ الأَجلى، فكانَ لهم المَورِدَ الأَحْلَى، فهو ﷺ الجنسُ العالي على جميعِ الأجناسِ، والأبُ الأكبرُ لجميعِ المَوجوداتِ والنَّاسِ.

ولمَّـا انتَهـى الزَّمانِ بالاسـمِ الباطنِ فـي حقِّه ﷺ إلـى وُجودِ جِسـمِه وارتِباطِ الـرُّوحِ بـه، انتقَـلَ حُكـمُ الزَّمـانِ إلى اسـمِه الظَّاهـرِ، فظَهَـرَ محمَّدٌ ﷺ، [فهـو] وإنْ

---

(١) بعدها في «ف» كلمة: «تنجر»، والمثبت من كتاب المؤلف «أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل» (ص ٣٥)، وهو الموافق لما في «فتاوى السبكي»، والكلام في هذا الموضع منقول منه بالمعنى.

(٢) انظر: «فتاوى السبكي» (١/ ٣٩ـ ٤٠).

(٣) ما بين معكوفتين من «أشرف الوسائل» (ص ٣٥)، وانظر التعليق الذي بعده.

(٤) انظر: «فتـاوى السـبكي» (١/ ٣٨ـ ٣٩)، وفيـه بدل قولـه: «وإلا لم يختص...»: «ولـو كان المراد بذلـك مجـرد العلـم بمـا سـيصير في المسـتقبل لـم يكن لـه خصوصيـة بأنه نبـي وآدم بيـن الروح والجسـد لأن جميـع الأنبياء...».

تأخَّـرَتْ طينَتُـه فقـد عُرِفَـتْ قيمَتُه، فهو خِزانةُ السِّـرِّ، وموضِـعُ نُفوذِ الأمـرِ، فلا ينفُذُ أمـرٌ إلا منـه، ولا يُنقَلُ خيـرٌ إلا عنه.

أَلَا بأبـي مَـن كانَ مَلِـكاً وسـيِّداً ... وآدَمُ بيـنَ المـاءِ والطِّيـنِ واقِـفُ

فـذاكَ الرَّسـولُ الأبطَحِـيُّ محمَّـدٌ ... لـه فـي العُـلا مَجـدٌ تَليـدٌ وطـارِفُ

أَتـى بزَمـانِ السَّـعدِ فـي آخـرِ المَدَى ... وكانَ لـه فـي كلِّ عصـرٍ مَواقِـفُ

إذا رامَ أمـراً لا يكـونُ خِلافُـه ... وليسَ لـذاكَ الأمرِ في الكونِ صارِفُ

قـالَ: ورُوِينـا فـي جُـزْءٍ مـن «أمالـي أبـي سَـهْلٍ القَطَّـانِ»، عـن سـهلِ بـنِ صالـحٍ الهَمْدانـيِّ، قالَ: سـألتُ أبـا جَعْفَـرٍ محمَّدَ بنَ علـيٍّ: كيفَ صـارَ محمَّدٌ ﷺ يتقـدَّمُ الأنبيـاءَ وهـو آخِـرُ مَن بُعِـثَ؟ قـالَ: إنَّ الله تعالـى لمَّا أخـذَ من بنـي آدَمَ من ظُهورِهـم ذرِّيَّتَهم وأشـهدَهُم على أنفُسِـهم ألسـتُ ربَّكم؟ كانَ محمَّـدٌ ﷺ أوَّلَ مَن قـالَ: بلى[١].

وأخـرَجَ ابـنُ سـعدٍ عـن الشَّـعبيِّ: [قال رجـلٌ للنبـيِّ ﷺ]: متـى اسـتُنبِئْتَ يا رسـولَ الله؟ قـالَ: «وآدَمُ بيـنَ الـرُّوحِ والجسَـدِ، حيـنَ أُخِـذَ منِّي الميثـاقُ»[٢].

وهو يدلُّ على أنَّ آدمَ لمَّا صُوِّرَ طيناً، استُخرِجَ منه محمَّدٌ ﷺ ونُبِّئَ، وأُخِذَ منه الميثاقُ، ثمَّ أُعيدَ إلى ظَهرِه ليَخرُجَ أوانَ وُجودِه، فهو أوَّلُهم خَلقاً، وخَلْقُ آدَمَ السَّابقُ كانَ مَواتاً لا رُوحَ فيه.

وهو ﷺ كانَ حيَّاً حينَ استُخرِجَ ونُبِّئَ وأُخِذَ منه ميثاقُه، فهو أوَّلُ النَّبيينَ خَلْقاً وآخِرُهم بَعثاً، ولا يُنافي هذا أنَّ استخراجَ ذُرِّيةِ آدمَ إنَّما كانَ بعدَ نفخِ الرُّوحِ فيه؛ لأنَّه ﷺ خُصَّ من بينِ بني آدمَ بذلك الاستِخراجِ الأوَّلِ.

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٣٩ ـ ٤١)، وما سلف بين معكوفتين منه.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٤٨)، وما بين معكوفتين منه.

وفي «تفسيرِ العمادِ ابنِ كثيرٍ»، عن عليٍّ وابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهم في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآيةَ [آل عمران: ٨١]: إنَّ اللهَ لم يبعَثْ نبيًّا إلا أَخَذَ العهدَ عليه في محمَّدٍ ﷺ لَئِنْ بُعِثَ وهو حَيٌّ ليُؤمِنَنَّ به وليَنصُرَنَّه، ويأخُذُ العهدَ بذلك على قومِه[1].

وأخَذَ السُّبكِيُّ من الآيةِ: أنَّه ﷺ على تقديرِ مجيئِه في زَمانِه مُرسَلٌ إليهم، فتكونُ نُبوَّتُه ورِسالتُه عامَّةً لجميعِ الخلقِ من آدمَ إلى يومِ القيامةِ، وتكونُ الأنبياءُ وأُمَمُهم من أمَّتِه، يعني: في الجملةِ، فقولُه: «وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ كافَّةً»[2] يتَناوَلُ مَن قَبْلَ زَمانِه أيضاً، وبه يتبيَّنُ معنَى: «كنتُ نبيّاً وآدمُ بينَ الرُّوحِ والجَسَدِ»، وحِكمَةُ كونِ الأنبياءِ في الآخرةِ تحتَ لوائِه، وصلاتِه بهم ليلةَ الإسراءِ.

قُلتُ: ويُؤيِّدُه ما ذكرَ الإمامُ فخرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ في قولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ يشمَلُ المَلائكةَ وغيرَهم[3].

قالَ: ورَوَى عبدُ الرَّزَّاقِ بسَنَدِه، عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ الأنصارِيِّ، قالَ: قُلتُ: يا رسولَ الله! بأبي أنتَ وأُمِّي، أخبِرْني عن أوَّلِ شيءٍ خلقَه الله تعالى قبلَ الأشياءِ، قالَ: «يا جابِرُ! إنَّ اللهَ خَلَقَ قبلَ الأشياءِ نورَ نبيِّك من نُورِه، فجعَلَ ذلك النُّورَ يدورُ بالقُدْرَةِ حيثُ شاءَ الله، ولم يكُنْ في ذلك الوقتِ لَوحٌ ولا قَلَمٌ، ولا جنَّةٌ ولا نارٌ، ولا مَلَكٌ ولا سَماءٌ ولا أرضٌ، ولا شَمسٌ ولا قَمَرٌ، ولا جِنِّيٌّ ولا

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» عند شرح الآية المذكورة.

(٢) رواه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١)، من حديث جابر رضيَ اللهُ عنه.

(٣) انظر: «تفسير الرازي» (٢٤/ ٤٢٩)، وفي كلامه ما يدل على منع شموله للملائكة، حيث قال: «قالوا: هذه الآية تدل على أحكام: الأول: أن العالَم كلُّ ما سوى الله تعالى، ويتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة، لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولاً إلى الملائكة، فوجب أن يكون رسولاً إلى الجن والإنس جميعاً».

إنسِيٌّ، فلمَّا أرادَ اللهُ أن يخلُقَ الخلقَ قسَمَ ذلك النُّورَ أربعةَ أجزاءٍ، فخَلَقَ من الجزءِ الأوَّلِ القَلَمَ، ومن الثَّاني اللَّوحَ، ومن الثَّالثِ العَرشَ، ثمَّ قسَمَ الجزءَ الرَّابعَ أربعةَ أجزاءٍ، فخَلَقَ من الأوَّلِ حمَلَةَ العَرشِ، ومن الثَّاني الكُرسِيَّ، ومن الثَّالثِ بقيَّةَ الملائكةِ، ثمَّ قسَمَ الرَّابعَ أربعةَ أجزاءٍ، فخَلَقَ من الأوَّلِ السَّماواتِ، ومن الثَّاني الأرَضِينَ، ومن الثَّالثِ الجنَّةَ والنَّارَ، ثمَّ قسَمَ الرَّابعَ أربعةَ أجزاءٍ، فخَلَقَ من الأوَّلِ نورَ أبصارِ المُؤمنين، ومن الثَّاني نورَ قُلوبِهم، وهي المَعرِفةُ باللهِ، ومن الثَّالثِ نورَ ألسِنَتِهم، وهو التَّوحيدُ، لا إلهَ إلا اللهُ، محمَّدٌ رسولُ اللهِ»، الحديث[1].

قُلتُ: ويُشيرُ إلى هذا المعنَى قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾؛ أي: نورُ محمَّدٍ ﷺ ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ الآية [النور: ٣٥].

واختَلَفُوا في أوَّلِ المَخلوقاتِ بعدَ النُّورِ المُحمَّديِّ، فقيلَ: العرشُ، لِمَا صَحَّ من قولِه ﷺ: «قدَّرَ اللهُ مَقاديرَ الخلقِ قبلَ أن يخلُقَ السَّماواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألفَ سنةٍ، وكانَ عرشُه على الماءِ»[2]، فهذا صريحٌ في أنَّ التَّقديرَ وَقَعَ بعدَ خَلْقِ العَرْشِ، والتَّقديرُ وَقَعَ عندَ أوَّلِ خَلْقِ القَلَمِ؛ لحديثِ عُبادَةَ بنِ الصَّامتِ مرفوعاً: «أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، وقالَ لهُ: اكتُبْ، قالَ: رَبِّ وما أكتُبُ؟ قالَ: اكتُبْ مَقاديرَ كلِّ شيءٍ». رَواهُ أحمدُ والتِّرمذِيُّ وصحَّحَه[3].

لكِنْ صَحَّ في حديثٍ مرفوعٍ من حديثِ أبي رَزينٍ العقيليِّ، رَواهُ أحمدُ والتِّرمذِيُّ: أنَّ الماءَ خُلِقَ قبلَ العَرْشِ[4]، وفي قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ إشارةٌ إليه ودَلالةٌ عليه.

---

(١) لم أجده عند عبد الرزاق ولا عند غيره.

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضيَ اللهُ عنهما.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٣١٧)، والترمذي (٢١٥٥) و(٣٣١٩)، وورواه أيضاً أبو داود (٤٧٠٠)، واللفظ له.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١١)، والترمذي (٣١٠٩) وقال: حديث حسن.

ورَوَى السُّدِّيُّ بأسانيدَ مُتعَدِّدةٍ: إنَّ اللهَ لم يخلُقْ شيئاً ممَّا خَلَقَ قبلَ الماءِ[١].

فعُلِمَ أنَّ أوَّلَ الأشياءِ على الإطلاقِ النُّورُ المُحمَّدِيُّ، ثمَّ الماءُ، ثمَّ العرشُ، ثمَّ القَلَمُ، فذِكرُ الأوَّليَّةِ في غيرِ نُورِه ﷺ إضافيَّةٌ.

ووَرَدَ: لمَّا خلَقَ اللهُ آدمَ جَعَلَ ذلك النُّورَ في ظَهرِه، فكانَ يَلمَعُ في جَبينِه، ثمَّ رفَعَه اللهُ تعالى على سريرِ مملكَتِه، وحمَلَه على أكتافِ ملائكَتِه، وأمرَهُم فطافُوا به في السَّماواتِ ليَرَى عَجائِبَ مَلَكوتِه.

قالَ جَعفَرُ بنُ محمَّدٍ: مكَثَتِ الرُّوحُ في رأسِ آدَمَ مئةَ عامٍ، وفي صَدرِه مئةَ عامٍ، وفي ساقَيهِ وقَدَمَيه مئةَ عامٍ، ثمَّ علَّمَه اللهُ تعالى أسماءَ جميعِ المَخلوقاتِ، ثمَّ أمرَ المَلائكَةَ بالسُّجودِ له سجودَ تعظيمٍ وتحيَّةٍ لا سُجودَ عبادةٍ، كسُجودِ إخوةِ يوسُفَ له، فالمَسجودُ له بالحقيقةِ هو اللهُ تعالى، وآدَمُ كالقِبلةِ[٢].

وعن ابنِ عبَّاسٍ: كانَ يومَ الجُمُعةِ من وقتِ الزَّوالِ إلى العصرِ، ثمَّ خَلَقَ اللهُ تعالى له حوَّاءَ زَوجَتَه من ضِلعٍ من أضلاعِه اليُسرَى وهو نائِمٌ، وسُمِّيت حَوَّاءَ لأنَّها خُلِقَت من حيٍّ، فلمَّا استيقَظَ ورَآها سَكَنَ إليها[٣]، ومدَّ يدَه لها، فقالت المَلائكةُ: مَهْ يا آدَمُ، قالَ: ولِمَ وقد خلَقَها اللهُ لي؟ فقالُوا: حتَّى تُؤَدِّيَ مَهرَها، قالَ: وما مَهرُها؟ قالُوا: تُصلِّي على محمَّدٍ ثلاثَ مرَّاتٍ.

وذكرَ ابنُ الجَوزِيِّ في كتابِ «سَلْوَة الأحزانِ»: أنَّه لمَّا رامَ القُربَ منها طَلَبَتِ المَهرَ منه، فقالَ: يا رَبِّ! وماذا أُعطيها؟ قالَ: يا آدَمُ! صَلِّ على حبيبي محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ عشرينَ، ففَعَلَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٦٢).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٥٩) عن ابن عباس بإسناد منقطع، دون قوله: «وسميت حواء لأنها خلقت من حي». وقد روى ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣٩) عن ابن عباس خلافه، ولفظه: «إنما سميت حواء لأنها أم كل حي». وباقي الخبر لم أقف عليه.

قُلتُ: ولعلَّ الثَّلاثَ كانَ مَهْراً مُعَجَّلاً، والعِشرينَ صَداقاً مُؤَجَّلاً.

وعن عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لمَّا اقترَفَ آدَمُ الخطيئةَ قالَ: يا رَبِّ! أسألُكَ بحَقِّ محمَّدٍ لمَّا غَفَرْتَ لي، فقالَ اللهُ تعالى: يا آدَمُ! وكيفَ عَرَفتَ محمَّداً ولم أخلُقْه؟ قالَ: لأنَّك يا ربِّ لمَّا خلَقتَني بيدِكَ، ونفَختَ فيَّ من رُوحِك، رفَعتُ رأسي فرأيتُ على قَوائمِ العرشِ: لا إلهَ إلا اللهُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ، فعَلِمْتُ أنَّكَ لم تُضِفْ إلى اسمِك إلا أحبَّ الخلقِ إليك، فقالَ اللهُ تعالى: صَدَقتَ يا آدَمُ، إنَّه لأَحَبُّ الخلقِ إليَّ، وإذا سألتَني بحقِّه فقد غَفَرتُ لك، ولولا محمَّدٌ ما خلَقتُكَ». رَواهُ البَيهَقِيُّ في «دَلائِله» من حديثِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسلَمَ، وقالَ: تفرَّدَ به عبدُ الرَّحمنِ[١]، ورَواهُ الحاكِمُ وصحَّحَه[٢]، وذكرَه الطَّبَرانِيُّ وزادَ فيه: «وهو آخِرُ الأنبياءِ من ذُرِّيَّتِك»[٣].

وفي حديثِ سلمانَ عندَ ابنِ عَساكِرَ قالَ: هبَطَ جبريلُ على النَّبيِّ ﷺ فقالَ: إنَّ ربَّكَ يقولُ: إنْ كنتُ اتَّخذتُ إبراهيمَ خليلاً، فقد اتَّخذتُك حبيباً، وما خَلَقتُ خَلْقاً أكرَمَ عليَّ منكَ، ولقد خلقتُ الدُّنيا وأهلَها لأُعَرِّفَهم كرامَتَك ومَنزِلتَك عندي، ولولاكَ ما خَلَقتُ الدُّنيا[٤].

ولله درُّ العارِفِ الوَليِّ سيِّدي عليٍّ الوَفَوِيِّ:

---

(١) رواه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٤٨٩) وقال: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه عنه، وهو ضعيف، والله أعلم.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٢٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذا الكتاب. فتعقبه الذهبي بقوله: بل موضوع.

(٣) لم أجده في المطبوع من كتب الطبراني، ورواه من طريقه أبو نعيم في «دلائل النبوة» كما في «مجموع الفتاوى» (٢/ ١٥١).

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/ ٥١٨)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢١٤) وقال: موضوع لا شك فيه.

سَكَنَ الفُؤادُ عِشْ هَنيئاً يا جَسَدْ هذا النَّعيمُ هو المُقيمُ إلى الأبَدْ
رُوحُ الوُجودِ خيالُ مَن هو واحِدٌ لولاه ما تَمَّ الوُجودُ لِمَن وَجَدْ
عيسى وآدَمُ والصُّدورُ جميعُهم هُمْ أعيُنٌ هو نُورُها لَمَّا وَرَدْ
لو أبصرَ الشَّيطانُ طَلعَةَ نُورِهِ في وَجْهِ آدَمَ كانَ أوَّلَ مَن سَجَدْ
أو لو رأى النُّمرُودُ نُورَ جمالِه عَبَدَ الجَليلَ معَ الخَليلِ ولا عَنَدْ
لكنَّ جَمالَ اللهِ جلَّ فلا يُرَى إلا بتَخْصيصٍ مِنَ اللهِ الصَّمَدْ

وإنَّما خَلَقَ اللهُ تعالى حَوَّاءَ لتَسكُنَ إلى آدمَ ويسكُنَ إليها، فحينَ صارَ لدَيها فاضَتْ بَرَكاتُه عليها، فولَدَت له في تلكَ الأعوامِ الحُسنَى أربعينَ ولداً في عِشرينَ بطناً، ووضَعَتْ شِيثاً وَحْدَه كرامةً لمن أَطْلَعَ اللهُ بالنُّبوَّةِ سَعدَه، ولمَّا تُوفِّيَ آدَمُ عليه السَّلامُ كانَ شيثٌ عليه السَّلامِ وَصِيَّاً على ولدِه، ثمَّ أوصى شيثٌ ولدَه بوصيَّةِ آدمَ أن لا يَضَعَ هذا النُّورَ إلا في المُطَهَّراتِ من النِّساءِ.

ولم تزَلْ هذه الوصيَّةُ جارِيةً تُنقَلُ من قَرْنٍ إلى قَرْنٍ إلى أن أدَّى اللهُ النُّورَ إلى عبدِ المُطَّلبِ ووَلَدِه عبدِ اللهِ، وطهَّرَ اللهُ تعالى هذا النَّسَبَ الشَّريفَ من سِفاحِ الجاهليَّةِ، كما وَرَدَ عنه ﷺ في الأحاديثِ المَرضيَّةِ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ فيما رَواهُ البَيهَقِيُّ في «سُنَنِه»: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ما وَلَدَني من سِفاحِ الجاهليَّةِ شيءٌ، ما وَلَدَني إلا نكاحُ الإسلامِ»[1].

قالَ القَسْطَلَانيُّ: والسِّفاحُ بكسرِ السِّينِ المُهمَلةِ: الزِّنى، والمُرادُ به هاهنا: أنَّ المرأةَ تُسافِحُ الرَّجُلَ مُدَّةً، ثمَّ يتزَوَّجُها بعدَ ذلك.

ورَوَى ابنُ سَعدٍ، وابنُ عساكِرَ، عن هشامِ بنِ محمَّدِ بنِ السَّائبِ الكَلْبيِّ، عن

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ١٩٠).

أبيه قالَ: كتَبْتُ للنَّبيِّ ﷺ [خمسَ] مئةِ أُمٍّ، فما وَجدتُ فيهِنَّ سِفاحاً، ولا شيئاً ممَّا كانَ عليه من أمرِ الجاهليَّةِ[1].

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «خَرَجْتُ من نِكاحٍ، ولم أخرُجْ من سِفاحٍ، من لَدُنْ آدَمَ إلى أن وَلَدني أبي وأُمِّي، لم يُصِبْني من سِفاحِ أهلِ الجاهليَّةِ شيءٌ». رَواهُ الطَّبَرانِيُّ في «الأوسَطِ»، وأبو نُعَيمٍ، وابنُ عساكِرَ[2].

ورَوَى أبو نُعَيمٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ مرفوعاً: «لم يلتَقِ أبَوايَ قطُّ على سِفاحٍ، لم يزَلِ اللهُ ينقُلُني من الأصلابِ الطَّيِّبةِ إلى الأرحامِ الطَّاهِرَةِ مُصَفًّى مُهَذَّباً، لا تتَشَعَّبُ شُعبَتانِ إلا كنتُ في خَيرِهما»[3].

وعنه في قَولِه تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]؛ قالَ: من نبِيٍّ إلى نبِيٍّ حتَّى أخرَجْتُكَ نبِيًّا. رَواهُ البزَّارُ، ورَواهُ أبو نُعَيمٍ نحوَه[4].

وفيه تنبيهٌ على أنَّه عليه السَّلامُ انتقَلَ من أصلابِ الأنبياءِ الكِرام، وليسَ معناهُ أنَّ آباءَه كلَّهم من الأنبياءِ؛ فإنَّه خِلافُ ما عليه إجماعُ العُلماءِ، ولا أنَّ آباءَه جميعَهم

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٦٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٤٠٣)، وما بين معكوفتين منهما ومن «المواهب اللدنية».

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٧٢٥)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (١٤) من طريق محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن جده، عن علي بن الحسين، عن علي رضيَ اللهُ عنه. قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٢/ ١٥): وهو منقطع إن صح عن جعفر بن محمد، لكن معناه صحيح.

(٣) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (١٥).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٥)، والبزار (٢٢٤٢ ـ كشف الأستار)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (١٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٠٢١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٢٤٧): رواه البزار والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح غير شبيب بن بشر، وهو ثقة. وانظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٥٥ ـ ٥٦).

من أهلِ الإسلامِ؛ فإنَّ فيهم من أَجمعَ على كُفرِه الفُقَهاءُ الأعلامُ، كعبدِ المُطَّلِبِ وأبي إبراهيمَ عليه السَّلامِ، وأبوَيْهِ كما بيَّنْتُ في هذا المَقامِ، ممَّا أَلَّفتُ في تحقيقِ هذه المَسألةِ رسالةً مُستقِلَّةً، وأتيتُ بالأدِلَّةِ القاطِعَةِ القامِعَةِ، في ردِّ ما أَلَّفَه السُّيوطِيُّ من الرَّسائلِ الثَّلاثةِ في هذه المادَّةِ اللَّامِعَةِ(١).

ثمَّ قولُه تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من جِنْسِكُم، وهو بشَرٌ مثلُكم، لكنَّه رسولٌ منَّا مُبلِّغٌ عنَّا، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، والحِكمَةُ فيه: أنَّ الجِنسيَّةَ علَّةُ الانضِمام، وبها يحصُلُ الالتِئامُ وكَمالُ النِّظام، وأيضاً يسهُلُ الاقتِداءُ به على وَجهِ التَّمام؛ إذ لو أُرسِلَ مَلَكٌ لقيلَ له: القُوَّةُ المَلَكيَّة، ونحنُ عاجِزون عن مُتابعتِه لضَعْفِ البَشريَّة، بخِلافِ ما إذا كانَ الرَّسولُ بشَراً، فإنَّه يُقتَدَى به قولاً وفعلاً وحالاً وأثراً، فإنَّه ﷺ واسِطَةٌ بينَ المُرسِلِ والمُرسَلِ إليه، بأخذِ الفَيضِ من الحقِّ وإيصالِه إلى الخلقِ.

ولم يَفهَمْ هذا المَعنَى، وغَفَلَ عن هذا المَبنَى جمعٌ من الكُفَّار، حيثُ قالُوا بطَريقِ الإنكار: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وهذا يدُلُّ على سَخافةِ عُقولِهم، حيثُ رَضُوا أن يكونَ الإلهُ حَجَراً، واستبْعَدوا أن يكونَ الرَّسولُ بشَراً.

والحاصِلُ: أنَّ مَجيءَ الرَّسولِ نِعمةٌ جَسيمَةٌ، وكَونَه من جنسِ البَشَرِ مِنحَةٌ عَظيمةٌ.

وقالَ بعضُهم: قولُه: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: جنسِ العَرَبِ، وهو لا يُنافي ما

---

(١) في هامش «ف»: «مما يجبُ أن يُقالَ في هذا المَقامِ: جَزَى اللهُ السُّيوطيَّ ومَن حَذا حَذْوَه من الأئمَّةِ الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ خيراً، وسامَحَ اللهُ هذا المُؤلِّفَ بما زَلَّ به قدَمُه، ويُرجَى لكثرةِ عِلمِه أن لا يكونَ [لعلها: حقيقاً] في آخرِ أمرِه».

قلت: يشير إلى رسالته: «أدلة معتقد أبي حنيفة في والدي النبي ﷺ»، فانظرها في موضعها وما تم التقديم لها في هذا المجموع.

سبَقَ، ويُؤَيِّدُه قولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقد صَحَّ عن ابنِ عبَّاسٍ بأسانيدَ مُتعَدِّدةٍ أنَّه قالَ: ليسَ من العَرَبِ قبيلةٌ إلا وقد وَلَدَتِ النَّبيَّ ﷺ، مُضَرِيُّها ورَبيعِيُّها ويَمانيُّها[(١)].

ويُؤَيِّدُه قولُه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

ورَوَى الإمامُ أحمدُ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه قالَ: لم يكُنْ بطنٌ من قُرَيشٍ إلا ولرسولِ اللهِ ﷺ فيهم قَرابةٌ، فنزَلَت: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؛ أي: أن تَصِلُوا ما بيني وبينكم[(٢)].

وقُرِئَ: (مِنْ أَنْفَسِكُمْ) بفَتحِ الفاءِ؛ أي: من أعظَمِكُم قَدْراً، نقَلَه الحاكِمُ عن ابنِ عبَّاسٍ[(٣)].

وأخرَجَ ابنُ مَرْدَوَيهِ، عن أنسٍ قالَ: قرأَ رسولُ اللهِ ﷺ: (لقد جاءكم رسول مِنْ أَنْفَسِكُمْ)، فقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ: يا رسولَ اللهِ! ما معنَى (أَنْفَسِكُمْ)؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أنا أنفَسُكُم نَسَباً وصِهْراً وحَسَباً، ليسَ فيَّ ولا في آبائي من لدُنْ آدَمَ سِفاحٌ، كلُّنا نِكاحٌ»[(٤)].

وأخرجَ البَيهَقِيُّ في «الدَّلائلِ» عن أنسٍ قالَ: خطَبَ النَّبيُّ ﷺ فقالَ: «أنا محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ بنِ هِشامِ بنِ عبدِ مَنافِ بنِ قُصَيِّ بنِ كِلابِ ابنِ مُرَّةَ بنِ كعبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالبِ بنِ فِهْرِ بنِ مالكِ بنِ النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ بنِ خُزَيمَةَ بنِ مُدرِكَةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضَرَ بنِ نزارٍ، وما افترَقَ النَّاسُ فِرقتَينِ إلا

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٩٥) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضيَ اللهُ عنهما. والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٢٩)، والبخاري (٣٤٩٧).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٩٤٥). والقراءة شاذة.

(٤) انظر: «الدر المنثور» تفسير الآية (١٢٨) من سورة التوبة.

جعَلَني اللهُ في خيرِهما، فأُخرِجْتُ من بينِ أبوَيَّ فلم يُصِبْني شيءٌ من عهدِ الجاهليَّةِ، وخرَجْتُ من نكاحٍ، ولم أخرُجْ من سِفاحٍ من لدُنْ آدَمَ حتَّى انتهَيتُ إلى أبي وأُمِّي، فأنا خيرُكم نَفْساً، وخيرُكم أباً»[١].

وأخرجَ أحمدُ، والتِّرمذِيُّ وحسَّنَه، عن العبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلبِ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ حينَ خَلَقَ الخلقَ جَعَلَني في خيرِ خلقِه، ثمَّ حينَ فرَّقَهم جعَلَني في خيرِ الفريقَينِ، ثمَّ حينَ خَلَقَ القَبائِلَ جعَلَني من خيرِهم قبيلةً، وحينَ خَلَقَ الأنفُسَ جعَلَني من خيرِ أنفُسِهم، ثمَّ حينَ خَلَقَ البُيوتَ جعَلَني من خيرِ بيوتِهم، فأنا خيرُهم بيتاً، وخيرُهم نفساً»[٢].

أي: خيرُهم أصلاً ونسَباً، وخيرُهم ذاتاً وحَسَباً.

وأخرجَ الحكيمُ التِّرمِذِيُّ والطَّبَرانِيُّ وأبو نُعَيمٍ والبَيهَقِيُّ وابنُ مَردَوَيهِ، عن ابنِ عمرَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ خَلَقَ الخلقَ فاختارَ من الخلقِ بني آدَمَ، واختارَ من بني آدَمَ العَرَبَ، واختارَ من العَرَبِ مُضَرَ، واختارَ من مُضَرَ قُريشاً، واختارَ من قريشٍ بني هاشمٍ، واختارَني من بني هاشمٍ، فأنا من خِيارٍ إلى خِيارٍ»[٣].

وأخرجَ ابنُ سعدٍ عن قتادةَ قالَ: ذُكِرَ لنا أنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قالَ: «إذا أرادَ اللهُ أن يبعَثَ نبيَّاً نظرَ إلى خيرِ أهلِ الأرضِ قبيلةً، فيبعَثُ من خيرِها رجُلاً»[٤].

---

(١) رواه البيهقي في «الدلائل» (١/ ١٧٤).

(٢) رواه من حديث العباس: الترمذي (٢٦٠٧)، ورواه الترمذي أيضاً (٢٦٠٨) لكن من حديث المطلب بن أبي وداعة، ورواية أحمد في «المسند» (٤/ ١٦٥) من حديث عبد المطلب (ويقال: المطلب) بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وسبب الاختلاف في الحديث هو اضطراب الراوي لهذه الروايات جميعاً، وهو يزيد بن أبي زياد.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦١٨٢)، و«الكبير» (١٣٦٥٠)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٦٩٥٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٧٢).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٤).

ويُروَى عن زينِ العابدين عليِّ بنِ الحُسَينِ عن جدِّه عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه رفعَه: «كنتُ نُوراً بينَ يدَي اللهِ عَزَّ وجَلَّ قبلَ أن يخلُقَ آدمَ بأربعةَ عشَرَ ألفَ عامٍ، فلمَّا خلَقَ اللهُ آدَمَ جَعَلَ ذلك النُّورَ في صُلبِه، فلم يزَلْ ينقُلُه من صُلْبٍ إلى صُلْبٍ حتَّى استقَرَّ في صُلبِ عبدِ المطَّلبِ»[١].

وكذا عندَ القاضي عِياضٌ في «الشِّفا» بلا سَنَدٍ عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ قُرَيشاً[٢] كانت نُوراً بينَ يدَي اللهِ تعالى قبلَ أن يخلُقَ آدَمَ بألفَي عامٍ، يُسبِّحُ ذلك النُّورُ، وتُسبِّحُ الملائكَةُ بتَسبيحِه، فلمَّا خَلَقَ اللهُ آدمَ ألقَى ذلك النُّورَ في صُلبِه، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فأَهْبَطَني اللهُ إلى الأرضِ في صُلْبِ آدمَ، وجعَلَني في صُلْبِ نُوحٍ، وقَذَفَ بي في صُلبِ إبراهيمَ، ثمَّ لم يزَلِ اللهُ يُقَلِّبُني في الأصلابِ الكريمةِ الطَّاهرةِ حتَّى أخرجَني بينَ أبوَيَّ لم يلتَقِيا على سِفاحٍ قَطُّ»[٣].

ولبَعضِهم:

حَفِظَ الإلهُ كرامةً لمُحَمَّدٍ ... آباءَه الأمجادَ صَوْناً لاسمِهِ
ترَكُوا السِّفاحَ فلم يُصِبْهم عائِبٌ ... من آدمٍ وإلى أبيهِ وأُمِّهِ

وفي «البُخاريِّ» عن أبي هُرَيرَةَ عنهُ ﷺ: «بُعِثْتُ من خيرِ قُرونِ بني آدَمَ قَرْناً فقَرْناً، حتَّى كنتُ من القَرْنِ الذي كنتُ فيه»[٤].

قال السَّخاوِيُّ: فالرَّسولُ هو ﷺ سيِّدُ الأوَّلين والآخِرين، والمَلائكةِ المُقرَّبين،

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في هامش «ف»: «كتب المؤلف في الهامش: لعله أنه عليه السلام. وكتب عليه ظ، وبقي عليه إبدال (كانت) بـ (كان)».

(٣) انظر: «الشفا» (١/ ٧٢)، والحديث رواه الآجري في «الشريعة» (٩٦٠) من طريق الضحاك عن ابن عباس، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٤) رواه البخاري (٣٥٥٧).

وسَنَدُ الخلائقِ أجمعين، وحبيبُ ربِّ العالمَين، المَخصوصُ بالشَّفاعةِ العُظمَى يومَ الدِّين، مَولانا أبو القاسِمِ وأبو إبراهيمَ، **محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المُطَّلبِ**، واسمُه شَيبَةُ الحَمْدِ.

قيلَ: وإنَّما قيلَ له: عبدُ المُطَّلبِ؛ لأنَّ أباه هاشِماً قالَ لأخيه المُطَّلبِ وهو بمكَّةَ حينَ حَضَرتْه الوَفاةُ: أدرِكْ عَبدَكَ بيَثرِبَ[1].

وقيلَ: إنَّ عمَّه المُطَّلِبَ جاءَ به إلى مكَّةَ رَديفَه، وهو بهيئةٍ بَذَّةٍ، فكانَ يُسألُ عنه فيقولُ: هو عبدي؛ حَياءً أن يقولَ: ابنُ أخي، فلمَّا أدخلَه وأحسَنَ من حالِه أظهَرَ أنَّه ابنُ أخيه.

وهو أوَّلُ مَن خَضَبَ بالسَّوادِ من العَرَبِ، وعاشَ مئةً وأربعين سنةً.

ابنِ هاشمٍ؛ واسمُه: عَمرٌو، وإنَّما قيلَ له: هاشِمٌ؛ لأنَّه كانَ يهشِمُ الثَّريدَ لقَومِه حينَ الجَدْبِ.

ابنِ عبدِ مَنافِ بنِ قُصَيٍّ، تصغيرُ قَصِيٍّ؛ أي: بعيدٍ، لأنَّه بعُدَ عن عَشيرَتِه في بلادِ قُضاعَةَ حينَ احتَمَلَت أمُّه فاطمةُ.

ابنِ كِلابٍ، وهو إمَّا مَنقولٌ من المَصدرِ الذي في مَعنَى المُكالَبة، نحو: كالَبتُ العَدُوَّ مُكالَبةً؛ أي: مُشارَّةً ومُضايقَةً، وإمَّا من الكِلابِ جمعُ كلبٍ؛ لأنَّهم يريدون الكثرةَ كما تَسَمَّوا بِسِباعٍ.

وسُئِلَ أعرابيٌّ: لِمَ تُسَمُّون أبناءَكم بشرِّ الأسماءِ نحوَ كلبٍ وذِئبٍ، وعبيدَكم بأحسَنِ الأسماءَ نحوَ مَرزُوقٍ ورَباحٍ؟ فقال: إنَّما نُسمِّي أبناءَنا لأعدائِنا، وعَبيدَنا لأنفُسِنا، يُريدون أنَّ الأبناءَ عُدَّةٌ للأعداءِ وسِهامٌ في نُحورِهم، فاختارُوا لهم هذه الأسماءَ.

---

(١) لم أقف عليه.

ابنِ مُرَّةَ، بضَمِّ الميمِ وتشديدِ الرَّاءِ.

ابنِ كَعْبٍ، وهو أوَّلُ مَن سمَّى يومَ الجُمُعةِ: يومَ العُروبةِ[١]، وكانَ يَخطُبُ فيه، وتجتَمِعُ قُرَيشٌ لسَماعِه، وأوَّلُ مَن قالَ: أمَّا بَعدُ، ورُبَّما أنذَرَ في خُطبَتِه بخُروجِ النَّبيِّ ﷺ، ويُعلِمُهم بأنَّه من وَلَدِه، ويأمرُهُم باتِّباعِه، ويقولُ:

يـا ليتَنـي شـاهِدٌ فَحْـواءَ دَعوَتِـه ... حيـنَ العَشـيرةُ تنفـي الحـقَّ خُذْلانا

ابنِ لُؤَيٍّ، تصغيرُ اللَّأْيِ[٢].

ابـنِ غالِبِ بنِ فِهرٍ، بكسـرِ الفاءِ، واسـمُه: قُرَيـشٌ، أو لقَبُه، وفِهْرٌ اسـمُه، وإليه ينتَهـي نسَـبُ قُرَيـشٍ، فمَـن لـم يكُنْ من وَلَـدِه فليسَ بقُرَشـيٍّ، بـل كِنانـيٌّ، وهذا هو الأصـحُّ، وعليه نُسَّـابُ قُرَيشٍ.

ابـنِ مالـكِ بـنِ النَّضـرِ، وقيلَ: إنَّـه لقَبُه لنَضـارَةِ وَجهِه، واسـمُه: قَيـسٌ، وعندَ كثيريـنَ أنَّه جِمـاعُ قُرَيشٍ.

ابنِ كِنانَةَ، بكسرِ الكافِ أبو قَبيلَةٍ.

ابنِ خُزَيمَةَ، تصغيرُ خَزْمَةٍ، بالخاءِ والزَّاءِ المُعجَمَتَينِ.

ابنِ مُدرِكَةَ، على صيغةِ الفاعِلِ.

---

(١) كذا قال، والذي في المصادر خلافه؛ أي كانت العرب تسميه: العروبة، فسماه كعب: الجمعة. انظر: «أدب الكاتب» لابن قتيبة (ص ٢٦)، و«الأحكام السلطانية» للماوردي (ص ١٨٤)، و«الاكتفاء» للكلاعي (١/ ٢٨).

(٢) وهـو الثـور. انظر: «الزاهر» لابـن الأنباري (٢/ ١٢٤). وقال السـهيلي في «الـروض الأنف» (١/ ٥٤): وهـو عِنْـدِي تصغيـرُ لَأْيٍ، واللَّأْيُ: البُـطْءُ، كأَنَّهُمْ يُريـدون معنَى الأَنَاةِ وتَـرْكِ العَجَلَةِ، وذلك أنِّـي أَلْفَيْتـه في أشـعارِ بَـدْرٍ مُكَبَّـرًا على هذا اللَّفْظِ في شـعرِ أبي أسـامةَ، حيثُ يقولُ:

فَدُونَكُـمْ بَنِـي لَأْيٍ أَخَاكُـمْ ... وَدُونَـكِ مَالِـكًا يَـا أُمَّ عَمْـرِو

واستدل بأشعار أخرى تنظر في كتابه.

ابنِ إلياس، بكسرِ الهَمزَةِ قَطْعاً في قولِ ابنِ الأنبارِيِّ[١]، وقيل: بفَتحِها وَصْلاً، وهو قَولُ قاسمِ بنِ ثابتٍ، ضِدُّ الرَّجاءِ، باسمِ النَّبيِّ المَشهورِ[٢]، واللَّامُ فيه للتَّعريفِ، وقال السُّهَيليُّ: وهذا أصحُّ، ويُذكَرُ أنَّه كانَ يسمَعُ في صُلبِه تلبيةَ النَّبيِّ ﷺ بالحجِّ[٣].

ويُذكَرُ أنَّه ﷺ قالَ: «لا تسُبُّوا إلياسَ فإنَّه كانَ مُؤمِناً»[٤]، ذكرَ ذلك السُّهَيليُّ في «رَوضَتِه»[٥].

وحَكَى الزُّبَيرُ: أنَّه كانَ يُنكِرُ على بني إسماعيلَ ما غيَّروا من سَنَنِ آبائِهم، وكانَ يقومُ فيهم ويَعِظُهم، حتَّى جمَعَهم على رَأيِه، ورَضُوا به رِضًى لم يرضَوا مِن أحدٍ بعدَ أُدَدٍ، وهو أوَّلُ مَن أهدى البُدْنَ إلى البيتِ، ولم تَبرَحِ العَرَبُ تُعظِّمُه تعظيمَ أهلِ الحِكمَةِ[٦].

ابنِ مُضَرَ، على وَزْنِ عُمَرَ، قيلَ: لأنَّه كانَ يَضيرُ قلبَ مَن رآه لحُسنِه وجَمالِه، وكانَ حَسَنَ الصَّوتِ، فاتَّفَقَ أنَّه سقَطَ عن بعيرِه فأُصيبَتْ يدُه، وهو يقولُ: وايَداهُ وايَداهُ، فنَشَطَتِ الإبلُ لسَماعِ صَوتِه ذلك، بحيثُ كانَ ذلك أصلَ الحِداءِ في العَرَبِ، وصَدَقَ قَولُ القائلِ: إنَّه أوَّلُ مَن حَدَا.

ومن كلماتِه: مَن يَزرَعْ شَرّاً يَحصُدْ نَدَامةً، و: خيرُ الخيرِ أعجَلُه.

---

(١) انظر: «الزاهر» لابن الأنباري (٢/ ١٢٤)، و«الروض الأنف» للسهيلي (١/ ٥٧).

(٢) قوله: «باسم النبي المشهور» كذا وقع هنا في «ف»، وحقه أن يكون مع قول ابن الأنباري بقطع الهمزة المكسورة، وهو الذي جاء عند السهيلي في «الروض الأنف».

(٣) انظر: «الروض الأنف» (١/ ٥٩ ـ ٦١).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) انظر: «الروض الأنف» (١/ ٦١).

(٦) انظر: «أخبار مكة» للفاكهي (٢٩).

ويُروَى عن ابنِ عبَّاسٍ: لا تَسبُّوا مُضَرَ ورَبيعةَ ـ يعني: أخاهُ ـ فإنَّهما كانا مُسلِمَينِ على مِلَّةِ إبراهيمَ[1].

بل يُروَى عن ابنِ عبَّاسٍ معَهما أيضاً خُزَيمَةُ الماضي، ومَعَدٌّ وعدنانُ وأُدَدُ وقَيسٌ وتَميمٌ وأسَدٌ وضَبَّةُ، وأنَّهم ماتوا على مِلَّةِ إبراهيمَ، فلا تذكُرُوهم إلا بما يُذكَرُ به المُسلمون[2].

ابنِ نِزَارٍ، بكسرِ النُّونِ وتخفيفِ الزَّايِ، مَأخوذٌ من النَّزْرِ وهو القَليلُ؛ لأنَّه كانَ فريدَ عَصرِه، وقيلَ: لأنَّه لمَّا وُلِدَ ونظَرَ أبوه نورَ محمَّدٍ ﷺ بينَ عينَيه فرِحَ فَرَحاً شديداً، وأطعَمَ طَعاماً كثيراً وقالَ: إنَّ هذا كلَّه نَزْرٌ؛ أي: قليلٌ لحقِّ هذا المَولودِ.

ابنِ مَعَدٍّ، بفتحِ الميمِ والعَينِ المُهملَةِ وتشديدِ الدَّالِ، ويُروَى: أنَّ بُخْتَ نَصَّرَ لمَّا غَزا بلادَ العَرَبِ أوحَى اللهُ إلى أَرْمِيَا نبيِّ بني إسرائيلَ إذ ذاكَ: أن ائتِ مَعَدّاً فأخرِجْه عن بلادِه واحمِلْه إلى الشَّامِ، وتولَّ أمرَه، فإنَّه يخرُجُ من ولَدِه محمَّدٌ ﷺ خاتَمُ النَّبيينَ، ففعَلَ به ذلك.

ويُروَى: أنَّ أولادَه لمَّا بلَغوا عشرينَ أو أربعينَ أغارُوا على عَسكرِ مُوسى، فانتَهَبُوه فدعا موسى عليهم، فأوحَى اللهُ تعالى إليه: لا تَدْعُ عليهم، وفي لفظٍ: أنَّه دعا

---

(١) رواه ابن الجوزي في «المنتظم» (١/ ٤٠٨) من طريق محمد بن زياد، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس رضيَ اللهُ عنهما مرفوعاً، وأورده الديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (٧٣٠٣). قال عَبدُ اللهِ بنُ أَحْمَد بن حنبل: وسألته ـ يعني أباه ـ عن مُحَمَّد بن زياد كان يحدث عن ميمون بن مهران؟ قال: كذاب خبيث أعور يضع الحديث. انظر: «تهذيب الكمال» (٢٥/ ٢٢٣). وقال الحافظ في «التقريب»: كذبوه.

ورواه البلاذري في «أنساب الأشراف» (١/ ١٣) من طريق الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٢) روى ابن حبيب بسند جيد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: مات أدد والد عدنان، وعدنان، ومعد، وربيعة، ومضر، وقيس عيلان، وتيم، وأسد، وضبة، وخزيمة، على الإسلام على ملة إبراهيم ﷺ. انظر: «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (١/ ٢٩١).

فلم يُجَبْ حتَّى فعَلُوا ذلك ثلاثاً، فقالَ: يا ربِّ! دَعَوتُكَ على قومٍ أغارُوا علينا فلم تُجِبْني فيهم، فقالَ: يا موسى! دَعَوتَني على قومٍ فيهم خِيرَتي في آخرِ الزَّمانِ.

ابنِ عَدنانَ، بفتحِ العينِ.

وإلى هُنا من النَّسَبِ الشَّريفِ لا خِلافَ فيه، وإنَّما الخِلافُ فيمَن فوقَ عدنانَ، على أقوالٍ كثيرةٍ مُتباينةٍ جِدَّاً، ولذا يُروَى: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا بلَغَ في النَّسبِ إلى عَدنانَ أمسَكَ وقالَ: «كذَبَ النَّسَّابونَ، قال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]»، قال ابنُ عبَّاسٍ: ولو شاءَ [رسولُ] اللهِ أن يَعْلَمَه لعَلِمَه[١].

وقالَ ابنُ دِحيَةَ: أجمَعَ العُلماءُ ـ والإجماعُ حُجَّةٌ ـ على أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إنَّما انتَسَبَ إلى عدنانَ ولم يتَجاوَزْه.

وفي «مُسنَدِ الفِردَوسِ»، عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّه ﷺ كانَ إذا انتَسَبَ لم يُجاوِزْ مَعْدَ ابنَ عَدنانَ، ثمَّ يُمسِكُ ويقولُ: «كذَبَ النَّسَّابونَ»[٢].

وقالَ السُّهَيليُّ: الأصَحُّ في هذا الحديثِ أنَّه من قَولِ ابنِ مَسعودٍ[٣].

وقالَ غيرُه: كانَ ابنُ مَسعودٍ إذا قرأ قولَه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٥٦)، والبلاذري في «أنساب الأشراف» (١/ ٥) من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضيَ اللهُ عنهما مرفوعاً. وذكره الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ١٨) وقال: هشام وأبوه متروكان. ولفظ ابن سعد: «أنَّ النبي ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان بن أدد، ثم يمسك ويقول: كذب...».

(٢) لم أجده في المطبوع من «الفردوس»، وانظر التعليق الذي قبله.

(٣) انظر: «الروض الأنف» (١/ ٦٦)، وانظر تخريجه في التعليق الذي بعده.

[إبراهيم: ٩] قالَ: كذَبَ النَّسَّابون[١]؛ يعني: أنَّهم يدَّعونَ عِلْمَ الأنسابِ، ونفَى اللهُ عِلْمَها عن العبادِ في الكتابِ[٢].

ورُوِيَ عن عُمَرَ أنَّه قالَ: أنا أنتسِبُ إلى عدنانَ، وما فوقَ ذلك لا ندري ما هو[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ: بينَ عدنانَ وإسماعيلَ ثلاثون أباً لا يُعرَفون[٤].

وقالَ عُروَةُ بنُ الزُّبَيرِ: ما وَجَدْنا أحَداً يعرِفُ بعدَ مَعْدِ بنِ عَدنانَ[٥].

وسُئِلَ مالكٌ عن الرَّجُلِ يرفَعُ نسبَه إلى آدمَ، فكَرِهَ ذلك وقالَ: مَن أخبرَه بذلك؟ وكذا رُوِيَ عنه في رفعِ نسبِ الأنبياءِ.

وعن ابنِ شِهابٍ: أنَّ أوَّلَ ما ذُكِرَ من فضائلِ عبدِ المُطَّلبِ: أنَّ قُريشاً خَرَجَتْ من الحَرَمِ لمَّا قَدِمَ عليهم أصحابُ الفيلِ، وقالَ هو: واللهِ لا أخرُجُ

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٥٦)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٠٤).

(٢) وخالف ابن عبد البر هذا المعنى من الآية الذي ذهب إليه ابن مسعود وبعض السلف، فقال في «الإنباه على قبائل الرواة» (ص ١٩): وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود وعمرو بن ميمون الأودي ومحمد بن كعب القرظي إذا تلوا: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ قالوا: كذب النسابون، ومعنى هذا عندنا على غير ما ذهبوا إليه، وإنما المعنى فيها ـ والله أعلم ـ تكذيبُ مَن ادعى إحصاء بني آدم، فإنه لا يحصيهم إلا الذي خلقهم، فإنه هو الذي أحصاهم وحده لا شريك له، والله أعلم، وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها قد وعوا وحفظوا جماهيرها وأمهات قبائلها واختلفوا في بعض فروع ذلك.

(٣) انظر: «الروض الأنف» (١/ ٦٦)، ورواه خليفة في «الطبقات» (ص ٢)، وفي إسناده ابن لهيعة، وهو سيئ الحفظ.

(٤) انظر: «الروض الأنف» (١/ ٨٤)، ورواه خليفة بن خياط في «الطبقات» (ص ٣) دون قوله: «لا يعرفون»، وفي إسناده هشام عن أبيه محمد بن السائب الكلبي، وهما متروكان كما تقدم. وقال ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ٢٦): وليس هذا الإسناد بما يُقطَعُ بصحته، ولكنه عمَّن عِلْمُ الأنساب صنعتُه.

(٥) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٥٨)، وفي إسناده ابن لهيعة.

مِن حَرَمِ اللهِ أبغي العِزَّ في غيرِه، ولا أبغي سِواهُ عنه تَبديلاً[١]، وأقامَ عندَ البَيتِ المُحتَرمِ حتَّى كانَ مِن أمرِه معَ صاحِبِ الحبَشةِ حينَ خرَجَ إليه مَطلوباً ما عَظُمَ به عندَه وعندَ قومِه أُولي الوَجاهةِ والكرَمِ[٢].

وأهلَكَ اللهُ سُبحانَه الحبشَةَ وردَّهُم عن بيتِه، وأزالَ عن أهلِهِ تلك الوَحْشَة، وكانَ السِّقايةُ والرِّفادَةُ لعبدِ المُطَّلبِ بعدَ عمِّه المُطَّلبِ، فإنَّه أقامَ لقَومِه ما كانَ آباؤُه يُقيمونَه لهم من قبلِه، فشَرُفَ بذلك شرَفاً لم يبلُغْه آباؤُه، ولا وَصَلَ أحدٌ منهم إلى مثلِه، وأحبَّه قومُه وعَظُمَ خَطَرُه فيهم، واعتَمَدوا في إرشادِهم وتَنبيههم.

والرِّفادَةُ: شيءٌ كانَت قُرَيشٌ في الجاهليَّةِ تتَخارَجُه من بينِهم على قَدْرِ طاقتِهم، بحيثُ يجتَمِعُ من ذلك شيءٌ كثير، ثمَّ يشترُونَ به طعاماً وزَبيباً للنَّبيذِ، ويُطعِمُونَ النَّاسَ، ويسقُونَهم أيَّامَ مَوسِمِ الحجِّ حتَّى ينقضِيَ.

ويُروَى عنه ﷺ أنَّه قالَ: «أنا ابنُ الذَّبيحَينِ»[٣]؛ يعني بهما جَدَّه إسماعيلَ، وأباه عبدَ اللهِ.

والقِصَّةُ أخرجَها الطَّبَرانِيُّ من طريقِ ابنِ وهبٍ عن أسامةَ بنِ زَيدٍ عن الزُّهريِّ عن قَبيصَةَ بنِ ذُؤَيبٍ: أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عبَّاسٍ قالَ: كانَ عبدُ المُطَّلبِ نذَرَ إن كَمُلَ له عشرةٌ من الوِلدانِ ينحَرُ أحدَهم، فلمَّا كَمُلَ عشرةٌ أقرَعَ بينَهم، أيُّهم ينحَرُ؟ فطارَتِ

---

(١) في «ف»: «بديل».

(٢) رواه بنحوه الأزرقي في «أخبار مكة» (٢/ ٤٢).

(٣) قال الولي العراقي كما في «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٥٥)، و«روح المعاني» (٢٣/ ١٥٣): «لم أقف عليه». **قلت**: ولعل أصله ما رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٧ ـ ٥٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٣٦)، عن معاوية في قصة فيها: أن أعرابياً قال للنبي ﷺ: يا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه. لكن قال السيوطي في «الحاوي» (١/ ٣٠٧)، والآلوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ١٥٣): في إسناده من لا يعرف حاله.

القُرعَةُ على عبدِ اللهِ، وكانَ أحبَّ النَّاسِ إلى عبدِ المُطَّلبِ، فقالَ: اللَّهُمَّ هو أو مئةٌ من الإبلِ، ثمَّ أقرَعَ فطارَتِ القُرْعَةِ على المئةِ من الإبلِ[١].

وذكرَ الزُّبَيرُ بنُ بكَّارٍ: أنَّه نحرَها وترَكَها للنَّاسِ فأخَذُوها.

قالَ السَّخاوِيُّ: وصارَتِ الدِّيةُ مَشروعةٌ بتَعيينِ مئةٍ من الإبلِ بينَ المُسلمين بعدَ أن كانت في الجاهليَّةِ عشرةً، ولهذا اقتُصِرَ على هذا العددِ في القُرعةِ المُتكرِّرةِ، حيثُ كانَ عبدُ المُطَّلبِ يزيدُ عشرةً، ثمَّ عشرةً، إلى أن صارَتْ مئةً، فجاءَت عليها القُرعةُ.

قال القَسْطَلَانيُّ: وكانَ سبَبُ نَذْرِه[٢] حَفْرَ أبيه عبدِ المُطَّلبِ زَمزَمَ؛ لأنَّ الجُرْهُمِيَّ عَمرَو بنَ الحارثِ لمَّا أحدَثَ قومُه بحَرَمِ اللهِ الحوادِثَ، وقيَّضَ اللهُ لهم مَن أخرَجَهم من مكَّةَ، فعَمِدَ عمرٌو إلى نفائِسَ فجَعَلَها في زَمْزَم وبالغَ في طَمِّها، وفَرَّ إلى اليَمَنِ بقَومِه، فلم تَزَلْ زَمزَمُ من ذلك العهدِ مَجهولةً إلى أن رُفِعَتْ عنها الحُجُبُ برُؤيا مَنامٍ رآها عبدُ المُطَّلبِ، دلَّته على حَفْرِها بأماراتٍ علَيها، فمَنَعَتْه قُرَيشٌ من ذلك، ثمَّ آذاه من السُّفَهاءِ مَن آذاه، واشتَدَّ بذلك بَلواهُ، ومعَه ولدُه الحارِثُ، ولم يكُنْ له وَلَدٌ سِواه، فنَذَرَ لَئِنْ جاءَه عشرةُ بنينَ، وصارُوا له أعواناً، لَيَذبَحَنَّ أحدَهم قُرْباناً، ثمَّ احتفَرَ عبدُ المُطَّلبِ زَمزَمَ فكانت له فَخْراً وعِزّاً[٣].

وذكرَ البَرْقِيُّ في **سببِ تزويجِ عبدِ اللهِ بآمنةَ**: أنَّ جدَّه كانَ يأتي اليَمَنَ فينزِلُ عندَ عظيمٍ من عُظَمائِهم، فنزَلَ عندَه مرَّةً فإذا عندَه رجلٌ ممَّن قرأَ الكتُبَ، فقالَ له: ائذَنْ لي

---

(١) لم أجده عند الطبراني، ورواه الطبري في «التاريخ» (١/ ٤٩٧).

(٢) قوله: «وكان سبب نذره» كذا في «ف»، والذي في «المواهب اللدنية»: «وكان سببها»؛ أي: سبب قصة نذر ذبح عبد الله، كما هو واضح من سياقه.

(٣) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٦٥).

أُفتِّش متجَرَكَ فقالَ: دُونَك فانظُرْ، فقالَ: أرى نُبوَّةً ومُلْكاً، وإنَّما هي في الـمَنافِيِّنَ؛ يعني عبدَ مَنافِ بنَ قُصَيٍّ، وعبدَ مَنافِ بنَ زُهرَةَ، فلمَّا انصرَفَ عبدُ المُطَّلبِ انطلَقَ بابنِه عبدِ اللهِ، فزوَّجَه بآمنةَ بنتِ وَهْبِ بنِ عبدِ مَنافِ بنِ زُهرةَ أمِّ حمزةَ.

قالَ كعبُ الأحبارِ: وأعطَى اللهُ آمنةَ عندَ ذلك من النُّورِ والبَهاءِ والوَقارِ والجَمالِ والكَمالِ ما كانت تُدعَى به سيِّدَةَ قَومِها، وبقيَ عبدُ اللهِ والنُّورُ بينَ عينَيه لا يخرُجُ حتَّى أذِنَ اللهُ للنُّورِ أن يخرُجَ إلى بطنِ أمِّه.

وأخرَجَ البَيهَقيُّ في «الدَّلائلِ» من طريقِ مَعمَرٍ عن الزُّهرِيِّ قالَ: كانَ عبدُ اللهِ من أحسَنِ فَتًى في قُريشٍ، فمَرَّ بنِسوةٍ مُجتَمِعاتٍ، فقالَت امرأةٌ منهُنَّ: يا نِساءَ قُرَيشٍ! أيَّتكُنَّ تتزَوَّجُ هذا الفتى فتصطادَ النُّورَ الذي بينَ عَينَيه؟ قالَ: فتزَوَّجَ آمنةَ فحَمَلَت برسولِ اللهِ ﷺ[1].

قالَ ابنُ عبدِ البرِّ: لمَّا تزَوَّجَ عبدُ اللهِ آمنةَ كانَ ابنَ ثلاثين سنةً، وقيلَ: ابنَ خمسٍ وعشرين[2].

وقالَ غيرُه: ثمانيةَ عَشَرَ.

قالَ السَّخاوِيُّ: وهو الرَّاجِحُ، وقالَ سَهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّستَرِيُّ فيما رَواهُ الخطيبُ البَغدادِيُّ الحافِظُ: لمَّا أرادَ اللهُ خَلقَ محمَّدٍ ﷺ في بطنِ أمِّه، وذلك في ليلةِ الجُمُعَةِ من رَجَبٍ، أمرَ اللهُ في تلك اللَّيلَةِ رِضوانَ خازِنَ الجِنانِ أن يفتَحَ أبوابَ الفِرْدَوسِ ويُنادِيَ مُنادٍ في السَّماواتِ والأَرَضِين: ألَا إنَّ النُّورَ المَخزونَ المَكنونَ الذي يكونُ منه النَّبيُّ ﷺ الهادي في هذه اللَّيلَةِ يستقِرُّ في بطنِ أُمِّه الذي فيه يَتِمُّ خَلْقُه، ويخرُجُ إلى النَّاسِ نذيراً[3].

---

(١) رواه البيهقي في «الدلائل» (١/ ٨٧).

(٢) انظر: «الاستيعاب» (١/ ٢٨).

(٣) أورده ابن جماعة في «المختصر الكبير في سيرة الرسول» (ص ٢٠).

وذكرَ الزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ: أنَّه كانَ في أيَّامِ التَّشريقِ في شِعْبِ أبي طالبٍ عندَ الجَمْرَةِ الوُسطَى.

وللواقِدِيِّ من جهةِ [علي بن يزيد بن عبد الله بن] وَهْبِ بنِ زَمعَةَ، [عن أبيهِ]، عن عمَّتِه قالَت: كنَّا نَسمَعُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمَّا حمَلَت به أمُّه آمنةُ كانت تقولُ: ما شَعَرْتُ أنِّي حَمَلتُ به، ولا وَجَدْتُ ثِقَلاً كما تجِدُ النِّساءُ، إلا أنِّي أنكَرْتُ رَفْعَ حَيضَتي، ورُبَّما كانت تقولُ: وأتاني آتٍ وأنا بينَ النَّائمِ واليَقظانِ فقالَ: هل شَعَرتِ أنَّكِ حَمَلتِ؟ فكأنِّي أقولُ: ما أدري، فقالَ: إنَّكِ حمَلتِ بسيِّدِ هذه الأمَّةِ ونبيِّها، وسمِّيه محمَّداً، وذلك يومَ الإثنَينِ[1].

ولابنِ حِبَّانَ في «صحيحِه» من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ جَعفَرٍ، عن حليمَةَ السَّعدِيَّةِ مُرضِعَتِه، أنَّ آمنةَ قالَت لها: إنَّ لابني هذا شأناً، إنِّي حَمَلتُ حَمْلاً، فلم أحمِلْ حَمْلاً قطُّ كانَ أخَفَّ عليَّ ولا أعظَمَ بركَةً منه، ثمَّ رأيتُ نُوراً كأنَّه شِهابٌ خرَجَ منِّي حينَ وَضَعتُه أضاءَتْ له أعناقُ الإبلِ ببُصرَى من أرضِ الشَّامِ، ثمَّ وضَعتُه فما وقَعَ كما يقَعُ الصِّبيانُ، وقَعَ واضِعاً يدَه بالأرضِ رافِعاً رأسَه إلى السَّماءِ[2].

وفي «صحيحِ ابنِ حِبَّانٍ»، و«مُستَدرَكِ الحاكِمِ»، و«مُسنَدِ أحمدَ»، وغيرِهم عن العِرْباضِ بنِ ساريةَ السُّلَمِيِّ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنِّي عندَ اللهِ في أمِّ الكِتابِ لخاتَمُ النَّبيينَ، وإنَّ آدمَ لمُنجَدِلٌ في طينَتِه، وسأُنَبِّئُكم بأوَّلِ ذلك، دَعوةُ إبراهيمَ، وبُشرَى أخي عيسى قومَه، ورُؤْيا أمِّي التي رأَتْ أنَّه خرَجَ منها حين وَضَعَتْ نُورٌ أضاءَتْ له قصورُ الشَّامِ»[3].

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٩٨) ـ ومن طريقه ابن الجوزي في «المنتظم» (٢/ ٢٤٢) ـ عن شيخه الواقدي، وما بين معكوفتين منهما. وهذا إسناد منقطع.

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٣٣٥).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٤٠٤)، والحاكم في =

قالَ السَّخاوِيُّ: قولُه «ببُصرَى»، قالَ شيخُنا: يحتملُ أن يُقرَأ بضَمِّ المُوحَّدةِ وسُكونِ المُهملةِ مَقصوراً، ويحتملُ أن يُقرَأَ: ببَصَرِي، بفتحِ الباءِ والصَّادِ؛ أي: أنَّها رأَتْ رُؤيا عَينٍ ببَصَرِها.

قالَ: وبُصْرَى على الأوَّلِ بلدةٌ معروفةٌ بطَرَفِ الشَّرقِ من عَمَلِ دِمشقَ، ممَّا يلي حَوْرانَ، وهي قَصَبةٌ من جِهةِ الحِجازِ، بينَها وبينَ الشَّامِ نحوُ مرحلَتَينِ، والنُّكتَةُ في تخصيصِها بالذِّكرِ ـ معَ أنَّه في روايةٍ: (أضاءَ ما بينَ المَشرِقِ والمَغربِ)، وفي لفظٍ: (الأرض)، وهما أشمَلُ ـ كونُه ﷺ وَصَلَ بنفسِه الشَّريفةِ إليها وما جاوَزَها.

وقالَ بعضُهم: الإشارةُ إلى ما خُصَّ الشَّامُ به من نورِ نُبوَّتِه، فإنَّها دارُ مُلكِه كما ذُكِرَ أنَّ في الكتبِ السَّالفةِ: محمَّدٌ رسولُ اللهِ، مَولِدُه بمكَّةَ، ومُهاجَرُه يثرِبُ، ومُلكُه بالشَّامِ[1]. فمِن مكَّةَ بدأت نُبُوَّةُ محمَّدٍ ﷺ، وإلى الشَّامِ تنتهي، ولهذا أُسرِيَ بالنَّبيِّ ﷺ إلى بيتِ المَقدِسِ، وهو من الشَّامِ، كما هاجَرَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ قبلَه إلى الشَّامِ.

بل قالَ بعضُ السَّلَفِ: ما بَعَثَ اللهُ نبيّاً إلا من الشَّامِ، فإنْ لم يُبعَثْ منها هاجَرَ إليها، وفي آخرِ الزَّمانِ يستقِرُّ العِلمُ والإيمانُ بالشَّامِ، فيكونُ نورُ النُّبوَّةِ فيها أظهَرَ منه في سائرِ البلادِ، انتهى.

وما وَقَعَ من اختِلافِ الرِّواياتِ في خُروجِ النُّورِ، أَهُوَ حينَ الحملِ أو الوَضعِ؟ لا مانعَ من وُقوعِه في الوَقتَينِ، وإن كانتِ الرِّوايةُ حينَ الوَضْعِ أولى بالاتِّصالِ[2].

وبالجُملَةِ: فهذا النُّورُ إشارَةٌ إلى أنَّ ما يجيءُ به مِن النُّورِ الذي اهتَدَى به

= «المستدرك» (٤١٧٥). وقد تقدمت قطعة منه.

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣٦٠)، وابن شبة في «أخبار المدينة» (١٠٣٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٨٧)، عن كعب الأحبار.

(٢) انظر ما تقدم قريباً من حديث حليمة والعرباض رضيَ اللهُ عنهما.

أهلُ الأرض، وامتِدادِ ملكِ أمَّتِه ودينِ مِلَّتِه إلى الآفاقِ بالطُّولِ والعَرْضِ، وهو أكثرُ ممَّا بينَ الجُنوبِ والشَّمالِ، بحيثُ زالَت به ظُلمَةُ الشِّركِ منها والضَّلال، كما قالَ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦]، وقالَ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد قالَ ﷺ كما في «مسلمٍ» وغيرِه عن ثَوبانَ: «زُوِيَت ـ أي: جُمِعَت ـ لي مَشارِقُ الأرضِ ومَغارِبُها، وسيبلُغُ ملكُ أمَّتي ما زُوِيَ منها»[1].

وقولُها: (فلَمْ أحمِلْ حَمْلاً كانَ أخفَّ عليَّ منه)، يُفهَمُ أنَّها حَمَلَت بغَيرِه، سيَّما وعندَ ابنِ سعدٍ ـ ممَّا هو أصرَحُ منه ـ حديثُ إسحاقَ بنِ عبدِ اللهِ قالَ: قالَت أُمُّ النَّبيِّ ﷺ: قد حمَلتُ الأولادَ فما حمَلتُ[2].

وقالَ ابنُ سعدٍ: قالَ الواقِدِيُّ: وهذا ممَّا لا يُعرَفُ عندَنا، ولا عندَ أهلِ العلمِ، فلَمْ تَلِدْ آمنَةُ ولا عبدُ اللهِ غيرَ رسولِ اللهِ ﷺ[3].

قالَ الواقِدِيُّ: وحدَّثني ـ يعني: ابنُ أخي الزُّهرِيُّ ـ عن عمِّه قالَ: قالَت آمنَةُ: لقد عَلِقْتُ به، فما وَجَدْتُ له مشَقَّةً حتَّى وضَعتُه[4].

وهو عندَ غيرِه[5] بلفظِ: ما شعَرتُ به ولا وجَدتُ له ثِقَلاً كما تجِدُ النِّساءُ.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٩٨).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) أي: غير الزهري، فقد رواه ابن سعد (١/ ٩٨) عن شيخه الواقدي، عن علي بن يزيد بن عبد الله بن =

قـال السَّـخاوِيُّ: واللَّفظانِ يُمكِنُ التَّأويلُ فيهما على أنَّ ما سبَقَ عن إسـحاقَ ابـنِ عبـدِ اللهِ إنْ كانَ هـو ابـنَ طلحَةَ فهو مُرسَـلٌ رِجالُـه رِجالُ الصَّحيـحِ، لا يمنعُ أن تكـونَ آمنةُ أسـقَطَتْ من عبدِ اللهِ سِـقْطاً، فأشـارَتْ بذلك إليه، وبه تجتمِـعُ الرِّواياتُ إنْ قبِلْنا كلامَ الواقدِيِّ.

وقد قالَ ابنُ الجوزِيِّ: أجمعَ عُلماءُ النَّقلِ على أنَّ آمنَةَ لم تحمِلْ بغَيرِ النَّبيِّ ﷺ.

فقَولُها: (لم أحمِلْ) خَرَجَ على وَجهِ المُبالغةِ، أو على أنَّه وَقَعَ اتِّفاقاً، والجمعُ الذي قيلَ أنسَبُ.

وأمَّـا دَعـوَةُ إبراهيمَ عليه السَّـلامِ فيُشـيرُ بهـا إلى أنَّه لمَّا شـرَعَ في بنـاءِ الكعبةِ دَعـا اللهَ تعالـى أن يجعَـلَ ذلـك البلـدَ آمِنـاً، ويجعَـلَ أفئِـدةَ النَّـاسِ تَهـوي إليهـم، ويرزُقَهـم مـن الثَّمـراتِ، فقـالَ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فاستَجابَ اللهُ دُعاءَه في هذا النَّبيِّ ﷺ، وجعَلَه الرَّسولَ الذي سألَه إبراهيمُ عليه السَّلامُ ودعاه أن يُبعَثَ إلى أهلِ مكَّةَ، والمعنَى: أنَّ اللهَ تعالى لمَّا قضَى أن يجعلَ محمَّداً ﷺ خاتَمَ النَّبيين، وأثبتَ ذلك في أمِّ الكتابِ، أنجزَ هذا القَضاءَ بأن قيَّضَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ للدُّعاءِ الذي ذكرَه؛ ليكون إرسالُه إيَّاه بدُعائِه، كما يكونُ نقلُه من صُلبِه إلى أصلابِ أولادِه.

وأمَّا بُشرَى عيسى عليه السَّلامُ فيُشيرُ بها إلى أنَّ اللهَ تعالى أمرَه به، فبَشَّرَ به ﷺ قومَه، فعرَفَه بنو إسرائيلَ قبلَ أن يُخلَقَ، كما حَكَى تعالى عنه في قولِه: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

قال السَّخاوِيُّ: وقد كانتِ السَّنةُ التي حُمِلَ فيها به ﷺ ـ فيما نُقِلَ ـ سنةً شَديدَةَ

= وهب بن زمعة، عن أبيه، عن عمته، وقد تقدم قريباً.

الجَدْبِ والضِّيقِ على قُرَيشٍ، فاخضَرَّت لهم الأرضُ، وحملَتِ الأشجارُ، وأَخْصَبَ أهلُ مكَّةَ خَصْباً عظيماً، بحيثُ سُمِّيَت سنَةَ الفَتْحِ والابتِهاجِ، وأتاهُم الوَفْدُ من كلِّ مكانٍ بهذا الإفراجِ.

وعبدُ المُطَّلبِ ـ وهو يومَئذٍ صاحِبُ أحكامِ قُريشٍ وسائرِ العربِ ـ يخرُجُ كلَّ يومٍ مُتوشِّحاً يطوفُ بالبيتِ ويقولُ: يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ! إنِّي أنظُرُ إلى تمثالِ شَخْصٍ مُمثَّلاً بين عينَيَّ كأنَّه قِطعَةُ نورٍ كاملٍ، لا أمَلُّ رُؤيتَه، وتَجحَدُ قُرَيشٌ رُؤيتَه كذلك، إمَّا حَسَداً أو عَمًى.

بل نُقِلَ عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ كلَّ دابَّةٍ لقُرَيشٍ نطَقَتْ تلك اللَّيلةَ، وقالَت: حُمِلَ بمُحَمَّدٍ ﷺ ورَبِّ الكعبةِ، وهو إمامُ الدُّنيا وسِراجُ أهلِها، ولذا لم يبقَ كاهِنَةٌ في قُرَيشٍ، ولا قبيلةٌ من قَبائلِ العَرَبِ إلا حُجِبَت عن صاحبِها، وانتُزِعَ علمُ الكَهَنةِ منهم، ولم يبقَ سريرُ مَلِكٍ من مُلوكِ الدُّنيا إلا أصبحَ مَنكوساً، وأصبحَ كلُّ مَلِكٍ أخرَسَ لا ينطِقُ يومَه ذلك، ومرَّتْ وَحْشُ المَشارِقِ إلى وَحْشِ المَغارِبِ بالبِشاراتِ، وكذا بشَّرَ أهلُ البِحارِ بعضَهم بعضاً، ونُودِيَ في كلِّ شَهْرٍ من شُهورِه في كلٍّ منَ السَّماءِ والأرضِ: أن أبشِرُوا، فقد آنَ لأبي القاسِمِ محمَّدٍ ﷺ أن يخرُجَ إلى الأرضِ مَيمُوناً مُبارَكاً(١).

قال: وبقِيَ في بطنِ أمِّه تسعةَ أشهُرٍ، لا تشكُو وَجَعاً ولا رِيحاً، ولا ما يعرِضُ للنِّساءِ ذَواتِ الحَمْلِ(٢).

قال الواقِدِيُّ: وفي غُضونِ هذا الحملِ المُكمَّلِ بَعثَ جَدُّه عبدُ المُطَّلبِ بابنِه عبدِ اللهِ إلى غزَّةَ من بلادِ الشَّامِ يَمتارُ لهم طعاماً معَ تُجَّارِ قُرَيشٍ، ولمَّا رَجعُوا مَرِضَ

---

(١) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٥٥٥)، ونقله عن أبي نعيم: السيوطي في «الخصائص الكبرى» (١/ ٨١). قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ٢٩٩): وهو غريب جداً.

(٢) ليست هذه الزيادة في رواية أبي نعيم، وذكرها السيوطي في «الخصائص الكبرى» (١/ ٨١) عقب الخبر.

فتخَلَّفَ لذلك بالمدينةِ النَّبويَّةِ عندَ أخوالِ أبيه، بني عَدِيِّ بنِ النَّجَّارِ شهراً، ثمَّ ماتَ بالمدينةِ، ودُفِنَ في دارِ النَّابغةِ[١].

وعندَ ابنِ وَهْبٍ عن يُونُسَ عن ابنِ شِهابٍ: أنَّه بعثَه يَمْتارُ لهم تمراً من يثرِبَ فماتَ بها[٢].

وهذا القَولُ هو الذي رجَّحَه ابنُ إسحاقَ[٣]، ورَواهُ ابنُ سَعدٍ أيضاً[٤]، وجَزَمَ به الزُّبَيرُ بنُ بكَّارٍ، وغيرُ واحدٍ.

وقالَ ابنُ الجَوزِيِّ: هو الذي عليه مُعظَمُ أهلِ السِّيَرِ[٥]، وأطلَقَ غيرُه عَزْوَه للجُمهورِ.

وقالَ بعضُهم: ماتَ بعدَ وَضْعِه، فقد أخرَجَه يحيى بنُ سعيدٍ الأمويُّ في «المَغازِي» من طريقِ عثمانَ بنِ عبدِ الرَّحمنِ الوَقَّاصِيِّ أحدِ الضُّعَفاءِ عن الزُّهريِّ عن سعيدِ بنِ المُسَيِّبِ: أنَّ آمنَةَ لمَّا وضَعَتْه أمرَ عبدُ المُطَّلبِ ابنَه عبدَ اللهِ أن يأخُذَه فيطوفَ به في أحياءِ العرَبِ، فطافَ به حتَّى استأجَرَ حليمةَ على إرضاعِه.

وذَكَرَ: أنَّه أقامَ عندَهم سِتَّ سنين، حتَّى كانَ من شقِّ صدرِه ما كانَ، فرَدَّتْه إلى أمِّه ﷺ[٦].

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٩٩) عن شيخه الواقدي عن موسى بن عبيدة الربذي عن محمد بن كعب، وعن سعيد بن أبي زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، قالا...، فذكره بنحوه. وقوله: «ودُفِنَ في دارِ النَّابغةِ» وقع في «ف» عقب خبر الزهري، والصواب المثبت؛ لأنه قطعة من هذا الخبر لا من خبر الزهري.

(٢) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٨٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٨٧).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٥٨).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٩٩).

(٥) انظر: «صفة الصفوة» (١/ ٢١).

(٦) ذكره عن الأموي: ابن كثير في «السيرة النبوية» (١/ ٢٣٢).

واختَلَفُوا كم كانَ سِنُّه حينَئذٍ، فقيلَ: كانَ ابنَ سنتَينِ وأربعةِ أشهُرٍ، حكاهُ ابنُ إسحاقَ[١]، وقيلَ: كانَ ابنَ سبعةِ أشهُرٍ، حكاهُ ابنُ سعدٍ[٢].

ويُقالُ: إنَّ عبدَ اللهِ خَرَجَ وهو في هذا السِّنِّ إلى أخوالِ أبيه بالمدينةِ زائِراً، فتُوفِّيَ بها.

ويُقالُ: إنَّ المَلائكةَ قالَت: إلهَنا وسيِّدَنا بقِيَ نبيُّك يتيماً، فقالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لهم: أنا له وليٌّ وحافِظٌ ونَصيرٌ.

وقيلَ لجعفرٍ الصَّادِقِ: لِمَ يُتِّمَ النَّبيُّ ﷺ من أبوَيه؟ فقالَ: لئَلَّا يكونَ عليه حَقٌّ لمَخلوقٍ. نقلَه عنه أبو حيَّان في «البَحرِ»[٣].

قالَ السَّخاوِيُّ: وقد خَلَّفَ أبوه جاريَتَه أمَّ أيمَنَ برَكَةَ الحبشيَّةَ، وخمسةَ أجمالٍ، وقِطعَةَ غَنَمٍ، فوَرِثَ ذلك رسولُ الله ﷺ، فكانت أمُّ أيمَنَ رضيَ اللهُ عنها تحضُنُه.

ثمَّ إنَّ الخُؤولةَ المُشارَ إليها كَونُ هاشمِ بنِ عبدِ مَنافٍ تزوَّجَ في المَدينةِ سَلْمَى ابنَةَ عمرٍو، أحدِ بني عَدِيٍّ بنِ النَّجَّارِ، فولَدَت له عبدَ المُطَّلبِ، وقد ثبتَ في الصَّحيحِ في حديثِ الهِجرةِ قولُه ﷺ: «إنِّي أنزلُ على [بني النَّجار] أخوالِ عبدِ المُطَّلبِ، أُكرِمُهم بذلك»[٤].

وأمَّا ما وَقَعَ في روايةٍ أُخرَى من قولِه: «نَزَلَ على أخوالِه»، أو قالَ: «على

---

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (١/ ٢٢).

(٢) حكى القولين ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٠٠) عن محمد بن السائب الكلبي وعن عوانة بن الحكم قالا: توفي عبد الله بن عبد المطلب بعدما أتى على رسول الله ﷺ ثمانية وعشرون شهراً، ويقال: سبعة أشهر. قال ابن سعد: والأول أثبت، أنه توفي ورسول الله ﷺ حمل.

(٣) انظر: «البحر المحيط» (٨/ ٤٨١)، ونقله أبو حيان عن ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٤).

(٤) رواه مسلم (٢٠٠٩/ ٧٥) كتاب الزهد والرقائق من حديث البراء بن عازب رضيَ اللهُ عنه، وما بين معكوفتين منه.

أجدادِه»[١]؛ فالشَّكُّ فيه من رِوايةِ أبي إسحاقَ السَّبيعِيِّ، وأيّاً ما كانَ فمَجازٌ، فالخؤولةُ من جهةِ الأُمومةِ، والنُّزولُ إنَّما كانَ على بني مالكِ بنِ النَّجّارِ، لا على بني عَدِيٍّ.

ورَوَى البَيهَقِيُّ في «الدَّلائلِ»، والطَّبَرانِيُّ وأبو نُعَيم، من طريقِ محمَّدِ بنِ أبي سُوَيدٍ الثَّقفِيِّ، عن عُثمانَ بنِ أبي العاصِ، حَدَّثَتني أُمِّي فاطِمةُ ابنةُ عبدِ اللهِ الثَّقفيَّةُ إحدى الصَّحابياتِ: أنَّها حَضَرَتْ آمنةَ لمَّا ضَرَبَها المَخاضُ ليلاً، قالَت: فجعَلتُ أنظُرُ إلى النُّجومِ تُدلي وتَدنُو، حتَّى قُلتُ: لَيَقَعْنَ عليَّ، فلمَّا وَلَدَتْ خَرَجَ منها نورٌ أضاءَ له البيتُ والدَّارُ[٢].

قالَ ابنُ سعدٍ: أخبرَنا الهَيثَمُ بنُ خارِجَةَ، ثنا يحيى بنُ حمزَةَ، عن الأوزاعِيِّ، عن حسَّانِ بنِ عطيَّةَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا وُلِدَ وَقَعَ على كفَّيهِ ورُكبَتَيهِ، شاخِصاً بصَرَه إلى السَّماءِ[٣]. وهو مُرسَلٌ قوِيٌّ.

ومن مُرسَلِ إسحاقَ بنِ أبي طلحةَ: أنَّ آمنَةَ قالَت: وضَعتُه نظيفاً، ما[٤] وَلَدتُه كما يُولَدُ السَّخْلُ ـ أي: المَولودُ المُحبَّبُ إلى أهلِه ـ ما به قَذَرٌ، [ووقعَ إلى الأرضِ] وهو جالِسٌ على الأرضِ بيدِه[٥].

ولأبي الحُسينِ بنِ بَشْرانَ، عن ابنِ السَّمَّاكِ، أنا أبو الحسَنِ بنُ البَراءِ، قال: قالَت آمنَةُ: وَلَدْتُه جاثِياً على رُكبَتَيهِ ينظُرُ إلى السَّماءِ، ثمَّ قَبَضَ قبضةً من الأرضِ، وأهوى ساجِداً، قالَت: وكبيتُ عليه إناءً، فوَجَدتُه قد انفَلَقَ الإناءُ وهو يَمَصُّ إبهامَه يَشخُبُ لبناً[٦].

---

(١) رواه البخاري (٤٠) من طريق أبي إسحاق السبيعي عن البراء رضيَ اللهُ عنه.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٥/ ١٤٧ و١٨٦)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٧٠٠٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١١١).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٠٣).

(٤) كلمة «ما» ليست في مطبوع «الطبقات».

(٥) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٠٢).

(٦) رواه ابن الجوزي في «المنتظم» (٢/ ٢٤٨).

قالَ السَّخَاوِيُّ: وكانَت آمنةُ لمَّا وَضَعَته ﷺ أرسلَتْ إلى جَدِّه أنَّه قد وُلِدَ لك اللَّيلَةَ غُلامٌ فانظُرْ إليه، فلمَّا جاءَ أخبرَته خبرَه، وحَدَّثَته بما رَأَت حينَ حمَلَت به، فأخَذَه وقامَ يدعو للهِ ويشكُرُه لِـما أعطاه، ويقولُ:

الحمـدُ لله الـذي أعطَانـي هـذا الغُـلامَ الطَّيِّـبَ الأردانِ
قـد سـادَ فـي المَهـدِ على الغِلمـانِ أُعيـذُه بالبَيـتِ ذي الأركانِ[١]

وذهبَتْ ثُوَيبَةُ جارِيةُ أبي لهبٍ عمِّهِ ﷺ فبشَّرَته أنَّه وُلِدَ لأخيه عبدِ اللهِ غُلامٌ فأعتَقَها في الحالِ.

قال القَسْطَلَانيُّ: وهي ممَّن أرْضَعْنَه ﷺ، قالَ: وقد رُئِيَ أبو لهبٍ بعدَ موتِه في النَّومِ فقيلَ له: ما حالُك؟ فقالَ: في النَّارِ، إلا أنَّه خُفِّفَ عنِّي كلَّ ليلةِ إثنَينِ، وأَمَصُّ من بينَ أصبُعَيَّ هاتَينِ ماءً، وأشارَ لرَأسِ أُصبُعِه، وأنَّ ذلك بإعتاقي لثُوَيبَةَ عندَما بشَّرَتني بوِلادَةِ النَّبيِّ ﷺ وبإرضاعِها له[٢].

قـال ابـنُ الجَـزَرِيِّ: فـإذا كانَ هـذا أبـو لهـبٍ الكافِرُ الـذي نـزَلَ القُـرآنُ بذَمِّه جُـوزِيَ فـي النَّـارِ بفَرَحِـه ليلـةَ مَولِـدِ النَّبـيِّ ﷺ به، فمـا حـالُ المُسـلِمِ المُوحِّدِ من أُمَّتِـه عليه السَّـلامُ يُسَـرُّ بمَولِدِه، ويبـذُلُ ما تصِلُ إليـه قُدرَتُه في محبَّتِـه ﷺ؟ لَعَمري إنَّمـا يكـونُ جَزاؤُه مـنَ اللهِ الكريـمِ أن يُدخِلَـه بفَضلِه العَميـمِ جنَّـاتِ النَّعيمِ[٣].

---

(١) انظر: «سيرة بن إسحاق» (١/ ٢٢). ورواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٠٣) عن الواقدي عن علي ابن يزيد بن عبد الله بن وهب بن زمعة، عن أبيه، عن عمته قالت: «ولما ولدت آمنة...». وإسناده منقطع.

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٨٩). وروى نحوه البخاري (٥١٠١) عن عروة بن الزبير، وفيه: «قـال عُـرْوَةُ: وثُوَيْبَـةُ مولاةٌ لأبـي لَهَبٍ، كان أبـو لَهَـبٍ أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَـت النبيَّ ﷺ، فلما ماتَ أبو لَهَـبٍ أُرِيَـهُ بعـضُ أهلِـهِ بِشَـرِّ حيبـةٍ، قال لـه: ماذا لَقِيـتَ؟ قال أبـو لَهَبٍ: لـم أَلْـقَ بَعْدَكُـمْ، غير أنِّي سُـقِيتُ في هـذه بِعَتَاقَتِـي ثُوَيْبَةَ».

(٣) يعنـي: مـع فعـل الطاعـات، وتـرك المحرمـات، واجتنـاب البـدع والمحدثـات، وإلا فـلا يكفـي السـرور بمولـد النبـي ﷺ لدخـول الجنـات.

ورَوَى الحاكِمُ في «صَحيحِه» عن عائشَةَ قالَت: كانَ بمكَّةَ يهودِيٌّ سكَنَ سَكَنَها يتَّجِرُ بها، فلمَّا كانتِ اللَّيلَةُ التي وُلِدَ فيها رسولُ اللهِ ﷺ، قالَ: يا معشرَ قُرَيشٍ! هل وُلِدَ فيكم اللَّيلَةَ مَولودٌ؟ قالَوا: لا نعلَمُه، قالَ: انظُرُوا فإنَّه وُلِدَ في هذه اللَّيلةِ نبيُّ هذه الأمَّةِ الأخيرَةِ، بينَ كتِفَيه علامةٌ فيها شَعَراتٌ مُتَواتِراتٌ كأنَّهُنَّ عُرْفُ فرسٍ ـ بضَمِّ العَينِ، وقد تُضَمُّ راؤُه؛ أي: شَعرُ عُنُقِه ـ لا يرضَعُ ليلتَينِ؛ لأنَّ عِفريتاً من الجِنِّ وضَعَ يدَه على فمِه، فانصَرَفُوا فسَأَلُوا، فقيلَ لهم: قد وُلِدَ لعبدِ اللهِ بنِ عبدِ المُطَّلبِ غُلامٌ، فخَرَجُوا باليَهودِيِّ حتَّى أدخَلُوه على أُمِّه، فقالُوا لها: أَخرِجي إلينا ابنَكِ، فأخرَجَتْه وكَشَفُوا عن ظَهرِه، فرأى تلكَ الشَّامةَ، فوقَعَ اليَهودِيُّ مَغشِيّاً عليه، فلمَّا أفاقَ قيلَ له: وَيلَكَ، ما لَكَ؟ قالَ: ذهَبَتْ واللهِ النُّبوَّةُ من بني إسرائيلَ، يا مَعشَرَ قُرَيشٍ! أمَا واللهِ لَيَسطُوَنَّ بكم سَطوَةً يخرُجُ خَبَرُها بينَ المَشرِقِ والمَغربِ[1].

قالَ السَّخاوِيُّ: وهو دليلٌ على أنَّه وُلِدَ ﷺ بخاتَمِ النُّبوَّةِ بينَ كتِفَيه، وهو من العلاماتِ التي كانَ يعرِفُه بها أهلُ الكتابِ، ويسأَلُون عنها، ويطلُبُونَ الوُقوفَ عليها.

حتَّى إنَّه رُوِيَ: أنَّ هِرَقْلَ بعثَ إلى النَّبيِّ ﷺ مَن ينظُرُ له خاتَمَ النُّبوَّةِ، ثمَّ يُخبِرُه عنه، ولكِنْ سيأتي أنَّ الملَكَينِ اللَّذين شقَّا صَدْرَه ومَلآه حِكمَةً هُما اللَّذانِ خَتَماهُ بخَاتَمِ النُّبوَّةِ، وهو أصَحُّ ممَّا قبلَه.

قُلتُ: الجمعُ بينَهما مُمكِنٌ.

قالَ: وأمَّا ما رُوِيَ من رَفعِه بعدَ مَوتِه من بينِ كتِفَيه؛ فسَنَدُه ضَعيفٌ[2].

وللخَطيبِ من حديثِ محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ عُثمانَ، عن أمِّه فاطمَةَ

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤١٧٧).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٧١)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٢١٩). وفي إسناده الواقدي، وهو متروك، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٥/ ٢٤٤): ثم هو منقطع بكل حال، ومخالف لما صح، وفيه غرابة شديدة.

ابنةِ الحُسَينِ بنِ عليٍّ، عن أبيها قالَ: لمَّا كانتِ اللَّيلةُ التي وُلِدَ فيها النَّبيُّ ﷺ قالَ حَبرٌ كانَ بمكَّةَ: يُولَدُ اللَّيلةَ في بلدِكُم هذا النَّبيُّ الذي وُصِفَ بأنَّه يُعظِّمُ مُوسى وهارونَ، ويَقتُلُ أمَّتَهُما، فإنْ أخطَأَكُم فبَشِّروا به أهلَ الطَّائفِ أو أهلَ ليلة، قالَ: فوُلِدَ في تلكَ اللَّيلةِ، فخرَجَ الحَبرُ حتَّى دخَلَ الحِجْرَ، ثمَّ قالَ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ موسى حقٌّ، وأنَّ محمَّداً حقٌّ، قالَ: ثمَّ فُقِدَ الحَبرُ فلم يُقدَرْ عليه[1].

ورَوَى أبو نُعَيمٍ في «الدَّلائلِ» من طريقِ شُعَيبِ بنِ شُعَيبٍ، عن أبيه، عن جَدِّه قالَ: كانَ بمَرِّ الظَّهرانِ راهِبٌ يُدعَى عيصا، فذَكَرَ حديثاً، وفيه: أنَّه أعلَمَ عبدَ اللهِ بنَ عبدِ المُطَّلبِ ليلةَ وُلِدَ له النَّبيُّ ﷺ بأنَّه نبيُّ هذه الأمَّةِ، وذكرَ له أشياءَ من صِفَتِه[2].

قالَ السَّخاوِيُّ: والعَلاماتُ التي ظَهَرَت عندَ مَولِدِه وبعدَه جمَّةٌ، فَضْلاً عمَّا وَقَعَ في الإسلامِ من حينِ المَبعَثِ، وهَلُمَّ جراً، ممَّا هو مَشهورٌ بينَ الأئمَّةِ من الأمَّةِ، وقد اعتنَى بجَمعِها جماعةٌ كأبي نُعَيمٍ، والسُّهَيليِّ، وجمَعَ ما وَقَعَ من ذلك قبلَ المَبعَثِ ـ بل قبلَ المَولدِ ـ الحاكِمُ في «الإكليلِ»، وأبو سعدٍ النَّيسابورِيُّ في «شَرَفِ المُصطَفَى»، وأبو نُعَيمٍ والبَيهَقِيُّ في «دلائلِ النُّبوَّةِ»، وصاحِبُ «الشِّفاءِ».

وقد أخرَجَ ابنُ السَّكَنِ وغيرُه في «معرفَةِ الصَّحابةِ» من حديثِ مخزومِ بنِ هانئٍ عن أبيه، وكانَ قد أتَتْ عليه مئةٌ وخمسونَ سنةً، أنَّه ارتَجَسَ إيوانُ كِسرَى[3].

أي: اضْطَرَبَ وتحرَّكَ حركةً سُمِعَ لها صوتٌ مَهُولٌ، بحيثُ انصَدَعَ وانشقَّ من عُلاه.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أورده ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٢٧٢) عن أبي نعيم بسنده ومتنه، ثم قال: هكذا رواه أبو نعيم وفيه غرابة.

(٣) قطعة من خبر طويل رواه الطبري في «التاريخ» (١/ ٤٥٩)، والخرائطي في «هواتف الجنان» (ص ٧٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٢٦). وأورده ابن الأثير في «أسد الغابة» (٥/ ٣٩٧)، ثم قال: ذكره ابن الدباغ عن ابن السكن، وليس فيه ما يدل على صحبته، والله أعلم.

قالَ شيخُ مشايخِنا ابنُ الجزَرِيِّ: وهذا الشَّقُّ إلى الآنَ باقٍ، أخبرَنا بذلك جماعةٌ ممَّن رَآه بالمَدائنِ، وأنَّه سَقَطَ عن أعلى الإيوانِ أربعَ عشرَةَ شُرفةً، وهي واحِدةُ الشُّرَفِ التي تكونُ على حيطانِ السُّورِ وغيرِها؛ ليَحسُنَ منظَرُها.

وخَمَدَت نارُ فارسَ التي كانوا يعبُدونَها، ولم تَخمُدْ قبلَ ذلك بألفَي عامٍ يَعدُّونَها، بل كانَت تُوقَدُ وتُضْرَمُ ليلاً ونهاراً، فلم يستطِعْ أحدٌ تلكَ اللَّيلةِ إضرامَها عَجْزاً لا اختِياراً.

وغاضَتْ بُحَيرَةُ ساوَةَ، المُظهِرُ أهلُها للشِّركِ والعَداوة، وكانَت بُحَيرةً كبيرةً أكبرَ من فرسَخٍ، بمملكةِ عِراقِ العَجَمِ بين هَمَدانَ وقُمْ، تُركَبُ فيها السُّفُنُ ويُسافَرُ بها إلى ما حولَها من البلادِ والمُدُنِ، مثلُ فَرْغَانَةَ والرَّيِّ، فأصبحَتْ من ليلةِ مَولدِه ﷺ ناشِفَةً يابِسَةَ الأرضِ، كأَنْ لم يكُنْ بها شيءٌ من الماءِ في الطُّولِ والعَرْضِ، بل غارَ ماؤُها وذهبَ، حتى بُنِيَ موضعَها مدينةٌ تُسمَّى ساوَةَ، باقيةٌ إلى اليومِ حَصينةٌ.

ورأى المُوْبِدانُ ـ وهو قاضِيهِمُ الأَعلى بتلك الجِهاتِ والبُلدانِ ـ إبِلاً صِعاباً، تقودُ خَيْلاً عِراباً، قد قَطَعَتْ دِجْلَةَ وانتَشَرَت في بلادِها ووِهادِها.

ووَقَعَ مِن تلك اللَّيلةِ رَمْيُ الشَّياطينِ بالشُّهُبِ الثَّواقبِ، وكانَت قبلَ ذلك تستَرِقُ السَّمعَ من كلِّ جانبٍ، وحُجِبَ إبليسُ عن السَّماءِ كما يُروَى، ولعلَّه كانَ يقعُدُ فيستَرِقُ السَّمعَ ويُشيرُ إليه بالإيماءِ.

وذكرَ بقِيُّ بنُ مَخْلَد صاحبُ «المُسنَد» في «تفسيرِه»: وممَّا رَوَيناه عن مُجاهدٍ: أنَّه رَنَّ ـ أي: نَخَرَ ـ أربعَ رنَّاتٍ: حينَ لُعِنَ، وحينَ أُهبِطَ، وحين وُلِدَ النَّبيُّ ﷺ، وفي لفظٍ: حينَ بُعِثَ، وحينَ أُنزِلَت فاتحةُ الكتابِ[1].

واختُلِفَ في كونِه ﷺ وُلِدَ وهو بخاتَمِ النُّبوَّةِ كما تقدَّمَ في حديثِ عائشةَ،

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٩٩).

أو حينَ وضْعِه، أو ختَمَه أحدُ المَلَكَينِ حينَ شقَّ صَدرَه عندَ مُرضِعَتِه، وممَّن حَكَى الأوَّلَ ابنُ سيِّدِ النَّاسِ[(١)]، والثَّاني مُغْلْطاي عن يحيَى بنِ عائذٍ[(٢)] بصيغةِ التَّمريضِ، والثالثُ أثبَتُ.

ففي حديثِ عائشةَ عن الطَّيالِسيِّ والحارِثِ في «مُسنَدَيهما»، وأبي نُعَيمٍ في «الدَّلائلِ»: قولُه ﷺ: «وخَتَمَ - يعني جبريلُ - في ظَهرِي حتَّى وَجَدتُ مسَّ الخاتمِ في قَلبي»[(٣)]، ومثلُه في حديثِ أبي ذرٍّ عندَ أحمدَ والبَيهَقِيِّ في «الدَّلائلِ»[(٤)].

قُلتُ: والجمعُ ممكِنٌ بظُهورِ الزِّيادةِ في كلِّ مَرتبةٍ وإفادَةٍ.

وكذا اختُلِفَ أَوُلِدَ وهو مختونٌ، أو خُتِنَ بعدَ ذلك؟ فرَوَى الطَّبَرانِيُّ وأبو نُعَيمٍ وغيرُهما من طريقِ الحسَنِ عن أنسٍ: أنَّه ﷺ قالَ: «من كَرامَتي على اللهِ أنِّي وُلِدتُ مَختوناً، ولم يرَ أحدٌ سَوْءَتي»[(٥)].

وعندَ ابنِ سعدٍ من حديثِ عَطاءٍ الخُراسانيِّ، عن عِكرِمةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ، عن

---

(١) حكى ابن سيد الناس القولين، والأول منهما بصيغة التمريض. انظر: «عيون الأثر» (٢/ ٣٩٧).

(٢) في «ف»: «عابد»، والصواب المثبت. انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٥٦٢).

(٣) رواه الطيالسي في «مسنده» (١٥٣٩)، والحارث في «مسنده» (٩٢٨ - بغية الباحث)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (١٦٣). وفيه أن شق صدره وقع في مقدمات البعثة لا وقت الرضاع.

(٤) لم أقف عليه عندهما، ورواه ابن أبي الدنيا في «الهواتف» (٣).

(٥) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦١٤٨)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٩١)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢٦٤)، وقال ابن الجوزي: «لا شك أنه ولد مختوناً، غير أن هذا الحديث لا يصح به».
قلت: في المسألة خلاف اختصره المناوي في «فيض القدير» (٦/ ١٦) بقوله: «قال في «المستدرك»: تواترت الأخبار بولادته مختوناً. ومراده بالتواتر الاشتهارُ لا المصطَلَحُ عليه عند أهل الأثر، كيف وقد قال الذهبي: لا أعلم صحة ذلك فضلاً عن تواتره؟ وقال الزين العراقي عن ابن العديم: أخبار ولادته مختوناً ضعيفة، بل لم يثبت فيه شيء. وسبقه لنحوه ابن القيم». وسيأتي كلام الحاكم قريباً عند المؤلف.

أبيه: أنَّه ﷺ وُلِدَ مَختوناً مَسرُوراً ـ أي: مَقطُوعَ السُّرَّةِ ـ ففَرِحَ به جَدُّه وقالَ: ليَكونَنَّ لابني هذا شأنٌ[١].

وقالَ أبو جَعفَرٍ الطَّبريُّ في «تاريخِه»: وُلِدَ ﷺ مَعذُوراً؛ أي: مَختُوناً.

وقالَ الحكيمُ أبو عبدِ اللهِ التِّرمِذيُّ: إنَّه وُلِدَ مَختُوناً.

ورَوَى ابنُ عبدِ البَرِّ في «التَّمهيدِ»: أنَّ جَدَّه ختَنَه يومَ السَّابعِ وعَمِلَ له مَأدُبةً[٢].

قُلتُ: لعلَّه لمَّا عَمِلَ المَأدُبةَ وقتَ الخِتانِ، ظنَّ أنَّه خُتِنَ في ذلك الزَّمانِ، فمعنَى قولِه: (خَتَنَه): أظهَرَ الخِتانَ، وأنَّه عليُّ الشَّأنِ جليُّ البُرهانِ؛ إذ في روايةٍ لابنِ عبدِ البَرِّ: أنَّه لمَّا كانَ يومُ السَّابعِ ذَبَحَ كَبْشاً ودَعا إلى طَعامِه قُرَيشاً، فلمَّا أكَلُوا قالوا له: يا عبدَ المُطَّلبِ! أرأيتَ ابنَكَ هذا الذي أكرَمْتَنا على وَضْعِه، ما سمَّيتَه؟ فقالَ: محمَّداً، فقالُوا له: فلِمَ رَغِبْتَ به عن أسماءِ أهلِ بيتِه؟ قالَ: أرَدْتُ أن يحمَدَه اللهُ عَزَّ وجَلَّ في السَّماءِ، وخَلقُه في الأرضِ[٣].

هذا وقد أغرَبَ مَن قالَ: خَتَنَه جبريلُ.

وقالَ العِراقيُّ: لا يثبُتُ في هذا كلِّه شيءٌ.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٠٣)، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٢٦٥): هذا الحديث في إسناده نظر. وقال ابن القيم في «تحفة المولود» (ص ٢٠١): قال ابن عبد البر: ليس إسناد حديث العباس هذا بالقائم، قال: وقد روي موقوفاً على ابن عمر ولا يثبت أيضاً. وقال في «زاد المعاد» (١/ ٨٠): وليس فيه حديث ثابت، وليس هذا من خواصه فإن كثيراً من الناس يولد مختوناً.

(٢) رواه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢١/ ٦١) من حديث ابن عباس رضيَ اللهُ عنهما، وقال: حديث مسند غريب. ونقل ابن القيم في «تحفة المودود» (ص ٢٠٦) عن ابن العديم قوله: وهو على ما فيه أشبه بالصواب وأقرب إلى الواقع.

(٣) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١١٣).

وتوقَّفَ الإمامُ أحمدُ في كونِ جَدِّه خَتَنَه، وكذا توَقَّفَ في مُقابِلِه، فقالَ المُرِّيُّ: إنَّه سُئِلَ: هل وُلِدَ النَّبيُّ ﷺ مختوناً؟ فقالَ: اللهُ أعلَمُ، ثمَّ قالَ: لا أَدرِي[١].

قالَ أبو بكرٍ عبدُ العزيزِ بنُ جَعفرٍ[٢] من أئمَّةِ الحنابلةِ: قد رُوِيَ أنَّه ﷺ وُلِدَ مختوناً مَسروراً، ولم يَجتَرِئْ أبو عبدِ اللهِ - يعني الإمامَ أحمدَ بنَ حَنبلٍ - على تصحيحِ هذا الحديثِ.

وقالَ بعضُ الأئمَّةِ: إنَّ خِتانَ جَدِّه له على ما في المَروِيِّ به أشبَهُ، لكِنْ قالَ الحاكِمُ: إنَّ الأوَّلَ قد تواتَرَتْ به الرِّوايةُ[٣].

قالَ السَّخاوِيُّ: وهو الذي أَميلُ إليه، سيَّما معَ قولِ أمِّه: وَلَدتُه نَظيفاً.

قالَ بعضُ الأئمَّةِ: ألهَمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أهلَه ﷺ أن يُسَمُّوه مُحمَّداً؛ لِـمَا فيه من الصِّفاتِ المَحمودةِ، ليُطابِقَ الاسمُ المُسمَّى، وقد قيلَ: الأسماءُ تنزِلُ من السَّماءِ، وما أحسَنَ قولَ حَسَّانَ:

فضَمَّ الإلهُ اسمَ النَّبيِّ إلى اسمِه ... إذْ قالَ في الخمسِ المُؤذِّنُ أشهَدُ
وشَقَّ له من اسمِهِ ليُجِلَّهُ ... فَذُو العَرْشِ مَحمودٌ وهذا مُحمَّدُ[٤]

---

(١) رواه الخلال في «السنة» (٢٠٢) عن أبي بكر المروذي قال: سئل...، فلعل قول المؤلف: «المري» محرف عن «المروذي».

(٢) المعروف بغلام الخلال، وهو تلميذه، قال الذهبي: ما جاء بعد أصحاب أحمد مثل الخلال، ولا جاء بعد الخلال مثل عبد العزيز، إلا أن يكون أبا القاسم الخرقي، توفي سنة (٣٦٣هـ) وله ثمان وسبعون سنة، في سن شيخه الخلال، وسن شيخ شيخه أبي بكر المروذي، وسن شيخ المروذي الإمام أحمد. انظر: «السير» (١٦/ ١٤٣).

(٣) انظر: «المستدرك» عقب الحديث (٤١٧٧)، وقد ذكرنا قريباً تعقب الذهبي له، وقول غيره ممن خالفه.

(٤) انظر: «ديوان حسان» (ص ١٣٤).

قالَ السَّخاوِيُّ: وتسميةُ جَدِّه له بذلك كانَ بتوفيقٍ منَ اللهِ تعالى، إمَّا ابتداءً، أو بمَنامٍ رآه، فقد قالَ أبو الرَّبيعِ بنُ سالمٍ الكُلاعِيُّ: زَعَموا أنَّه رَأى في نَومِه كأنَّ سِلْسِلَةً من فِضَّةٍ خرَجَت من ظهرِه، لها طرَفٌ في السَّماءِ، وطَرَفٌ في الأرضِ، وطَرَفٌ في المَشرِقِ، وطَرَفٌ في المَغرِبِ، ثمَّ عادَتْ كأنَّها شجرَةٌ على كلِّ ورَقَةٍ منها نورٌ، وإذا أهلُ المَشرِقِ والمَغربِ يتعلَّقُونَ بها، فقَصَّها؛ فعُبِّرَت له بمَولودٍ يكونُ من صُلبِه، يتبعُه أهلُ المَشرِقِ والمَغرِبِ، ويحمَدُه أهلُ السَّماءِ والأرضِ، فلذلك سمَّاه به، معَ ما حدَّثَته به آمنةُ من أمرِها بتَسمِيَتِه بذلك[1].

فمُحمَّدٌ وأحمدُ اسمانِ له ﷺ كما نطَقَ به القُرآنُ في قولِه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي قَولِه: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وأخرَجَ الحاكِمُ في «صحيحِه»: أنَّ آدَمَ عليه السَّلامُ رأى اسمَ محمَّدٍ ﷺ مَكتوباً على العَرشِ، وأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قالَ لآدمَ: لولا محمَّدٌ ما خَلَقتُكَ[2].

وأمَّا حديثُ: «لولاكَ ما خَلَقتُ الأفلاكَ»؛ فمَعناه صَحيحٌ، وإنْ قالَ الصَّغانيُّ: إنَّه مَوضُوعٌ[3].

قال القاضي عِياضٌ: فأمَّا «أحمدُ» فأفعَلُ تفضيلٍ مُبالغَةٌ من صفةِ الحمدِ منه، و«مُحمَّدٌ» مُفَعَّلٌ مُبالَغَةٌ من كثرةِ الحمدِ فيه، فهو أجَلُّ مَن حَمِدَ، [وأفضلُ مَن حُمِدَ] وأكثَرُ النَّاسِ حمداً في الدُّنيا والآخرةِ، فهو أحمدُ المَحمودين وأحمدُ الحامِدين، ومعَه لِواءُ الحمدِ في المَحشَرِ يومَ القِيامةِ لِيَتِمَّ له كمالُ الحمدِ، ويشتَهِرَ في العَرَصاتِ

---

(١) انظر: «الاكتفا في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفا» للكلاعي (١/ ١٣٢).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٢٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. فتعقبه الذهبي بقوله: بل موضوع.

(٣) انظر: «الموضوعات» للصغاني (ص ٥٢).

بصِفَةِ الحمدِ، ويُبعَثَ المَقامَ المَحمودَ ويحمَدَه فيه الأوَّلون والآخِرون، ويُفتَحَ عليه فيه من المَحامدِ ـ كما ثبَتَ في «الصَّحيحَينِ»[(١)] ـ ما لم يُعطَ غيرُه.

وسُمِّيَت أمَّتُه في كُتُبِ أنبيائِه بالحمَّادِين، فحَقيقٌ أن يُسمَّى ﷺ محمَّداً وأحمَدَ.

وفي هذين الاسمَينِ من عَجائبِ خَصائصِه وبَدائعِ آياتِه فَنٌّ آخَرُ، وهو أن الله عَزَّ وجَلَّ حَمَى أن يُسمَّى بهما أحَدٌ قبلَ زَمانِه، أمَّا أحمَدُ الذي ذُكِرَ في الكُتُبِ وبشَّرَت به الأنبياءُ فمَنَعَ اللهُ بحِكمَتِه أن يُسَمَّى به أحَدٌ غيرُه، ولا يُدعَى به مَدعُوٌّ قبلَه، حتَّى لا يدخُلَ اللَّبسُ ولا الشَّكُّ على ضَعيفِ القلبِ.

وكذلك محمَّدٌ ـ أيضاً ـ لم يُسَمَّ به أحَدٌ من العَرَبِ ولا غيرِهم، إلى أن شاعَ قُبيلَ وُجودِه وميلادِه أنَّ نبيَّاً يُبعَثُ اسمُه محمَّدٌ، فسمَّى قومٌ قليلٌ من العربِ أبناءَهم بذلك رجاءَ أن يكونَ أحدَهم هو، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ثمَّ حَمَى اللهُ تعالى كلَّ مَن يُسمَّى به أن يدَّعِيَ النُّبوَّةَ، أو يدَّعيها أحدٌ له، أو يظهرَ عليه سببٌ يُشَكِّكُ أحداً في أمرِه، حتَّى تحقَّقَتِ السِّمَتانِ له ﷺ، ولم ينازِعْ له أحدٌ فيهما[(٢)].

قالَ السَّخاوِيُّ: وأسماؤُه كثيرةٌ جِدَّاً، قيلَ: إنَّها بلَغَتْ ألفاً، لكنَّ أكثرَها اشتُقَّ من أفعالٍ وُصِفَ ﷺ بها، ولا شَكَّ أنَّ كثرةَ الأسماءِ دليلٌ على جَلالةِ المُسمَّى، وناهيكَ بشَرَفِه تشريفَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ له بما سمَّاه به من أسمائِه الحُسنَى، ووَصَفَه به من صِفاته العُلا، كما بيَّنَه صاحِبُ «الشِّفا» وغَيرُه.

قُلتُ: وقد جَمَعَها شيخُ مَشايخِنا الحافِظُ جَلالُ الدِّينِ السُّيوطِيُّ في رسالةٍ له أيضاً بلَغَت خمسَ مئةٍ، وأخَذتُ منها عُمدَتَها وزُبدَتَها العُليا، واقتَصَرْتُ على تسعةٍ وتسعينَ، وِزانَ أسماءِ اللهِ الحُسنَى:

---

(١) رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣)، من حديث أنس رضيَ اللهُ عنه.

(٢) انظر: «الشفا» (١/ ١٧٦ ـ ١٧٧)، وما بين معكوفتين منه.

هـذا الحبيـبُ فمِثلُـه لا يُولَـدُ والنُّـورُ مـن وَجَناتِـه يتَوَقَّـدُ
جبريـلُ نـادَى فـي مَنَصَّـةِ حُسْـنِهِ هـذا مَديـحُ الكَـوْنِ هـذا أحمَـدُ
هـذا مَليـحُ الوَجـهِ هـذا المُصطَفَـى هـذا جميـلُ الوَصـفِ هـذا المَسـنِدُ
هـذا الجَليـلُ النَّعـتِ هـذا المُرتَضَى هـذا كحيـلُ الطَّـرفِ هـذا الأمجَـدُ
هـذا الـذي خُلِعَـت عليـه مَلابـسٌ ونَفائِـسٌ فنَظيـرُه لا يُوجَـدُ

وكانَ مَولِدُه ﷺ عامَ الفيلِ، كما رَواهُ التِّرمِذيُّ في «جامِعِه» من حديثِ قَيسِ بنِ مَخرَمَةَ بنِ أَشيَمَ[1]، والبَيهَقِيُّ في «الدَّلائلِ» من حديثِ سُوَيدِ بنِ غَفَلَةَ أحَدِ المُخَضرَمين[2]، والبَيهَقِيُّ أيضاً، وشيخُه الحاكِمُ وصحَّحَه، كلاهُما من طريقِ حَجَّاجِ بنِ محمَّدٍ، عن يونُسَ بنِ أبي إسحاقَ، عن أبيه، عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ[3].

ورَواهُ ابنُ سَعدٍ بلفظِ: يومَ الفيلِ[4].

ورَواهُ الحاكِمُ أيضاً من طريقِ حُمَيدِ بنِ الرَّبيعِ، عن حَجَّاجٍ كذلك، وقالَ: إنَّ حُمَيداً تفرَّدَ بقَولِه: (يومَ الفيلِ)[5]، وتُعُقِّبَ بروايةِ ابنِ مَعينٍ[6]، ولكنَّ المَحفوظَ بلفظِ «عام»، وقد لا يُنافيهُ اللَّفظُ الآخَرُ؛ لعَدَمِ صَراحتِه في ذلك؛ لِـمَا فيه من الاحتِمالِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٦١٩) وقال: حسن غريب.

(٢) رواه البيهقي في «الدلائل» (١/ ٧٩)، ورواه أيضاً الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٩١)، ورواية البيهقي من طريقه.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤١٨٠)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٧٥).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٠١).

(٥) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤١٨١)، وقال: تفرد حميد بن الربيع بهذه اللفظة في هذا الحديث ولم يتابع عليه.

(٦) هي رواية ابن سعد في «الطبقات» وقد تقدمت قريباً، ورواه عن ابن معين أيضاً: عبد الله بن أحمد في «العلل» لأبيه (٥٢٢١)، لكنه عقبه بقوله: فبلغني عن يحيى بن معين أنه رجع عنه فقال: عام الفيل.

قال ابنُ عبدِ البَرِّ: إنَّه يحتمِلُ أن يكونَ أرادَ باليومِ الذي حَبَسَ اللهُ الفيلَ فيه عن وَطءِ الحَرَمِ، وأهلَكَ الذين جاؤُوا به، ويحتملُ أن يكونَ أرادَ باليومِ العامَ[١].

قال السَّخاوِيُّ: ومالَ شيخُنا إلى الأوَّلِ، حيثُ قالَ: يُطلَقُ اليومُ ويُرادُ به مُطلَقُ الوَقتِ، كما يُقالُ: يومُ الفَتحِ، ويومُ بَدرٍ؛ فإنَّ المُرادَ حقيقةُ اليومِ، فيكونُ أخَصَّ من الأوَّلِ، وبذلك صرَّحَ ابنُ حِبَّانَ في أوَّلِ «تاريخِه» فإنَّه قالَ: وُلِدَ عامَ الفيلِ في اليومِ الذي بعَثَ اللهُ الطَّيرَ الأبابيلَ على أصحابِ الفيلِ[٢].

وأخرَجه البَيهَقِيُّ أيضاً من مُرسَلِ محمَّدِ بنِ جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ بلفظِ «عام»[٣].

وقد عايَنَ ذلك حَكيمُ بنُ حِزامٍ، وحُوَيطِبُ بنُ عبدِ العُزَّى، وحَسَّانُ بنُ ثابتٍ، وكلٌّ منهم عاشَ مئةً وعشرين سنةً.

وقال إبراهيمُ بنُ المُنذرِ: هو الذي لا شكَّ فيه عندَ أحدٍ من عُلمائِنا[٤].

وممَّن حَكَى الإجماعَ: ابنُ قُتَيبةَ[٥]، ثمَّ عِياضٌ[٦]، وقالَ ابنُ دِحيَةَ: اتِّفاقُ العُلماءِ بالأثرِ والسُّنَنِ عليه، انتهى.

وكأنَّهم عُمدَةُ ابنِ القَيِّمِ في الاتِّفاقِ[٧]، ولكِنَّ الخِلافَ فيه ثابتٌ، ويتحَصَّلُ منه أقوالٌ أُخَرُ:

---

(١) انظر: «الاستيعاب» (١/ ٣٠).

(٢) انظر: «الثقات» لابن حبان (١/ ١٥ ـ ١٦).

(٣) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٧٨).

(٤) رواه عن إبراهيم بن المنذر: تلميذه يعقوب بن سفيان الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٢٨١).

(٥) انظر: «المعارف» (ص ١٥٠).

(٦) انظر: «إكمال المعلم» (٧/ ٣١٦).

(٧) أي: في حكاية الاتفاق. انظر: «زاد المعاد» (١/ ٧٤).

بعـدَ الفيـلِ بأربعينَ سـنةً، قالَـه أبو زَكرِيَّـا العَجلانيُّ، وحَـكاهُ ابنُ عَسـاكِرَ في التَّرجمـةِ النَّبويَّةِ مـن أوَّلِ «تاريخِه»[(١)].

أو بثلاثينَ سنةً، حَكاهُ مُوسَى بنُ عُقبَةَ عن الزُّهرِيِّ[(٢)].

أو بثلاثٍ وعشرينَ، أورَدَه ابنُ عَساكِرَ من رِوايةِ شُعَيبِ بنِ شُعَيبٍ[(٣)].

أو بخَمسَ عَشرَةَ، حَكاهُ ابنُ الكَلبِيِّ عن أبيه عن أبي صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ[(٤)]، لكنَّ المُعتَمَدَ عن ابنِ عبَّاسٍ ما تقدَّمَ.

أو بشَهْرٍ، حَكاهُ ابنُ عبدِ البرِّ[(٥)].

أو بعشرٍ، أورَدَه ابنُ عساكِرَ من طريقِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ أَبْزَى[(٦)].

أو بثلاثينَ يوماً، أو بأربعينَ يوماً.

قـالَ السَّـخاوِيُّ: وأمَّـا ما يُذكَـرُ على الألسـنةِ بلفظِ: وُلِـدتُ في زَمَـنِ الملكِ

---

(١) انظر: «تاريخ دمشق» (٣/ ٧٦)، وقد نقله ابن عساكر عن خليفة بن خياط، وهو في «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٥٣). وأورده ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٢٦٢) وقال: هذا غريب جدًّا. وقال خليفة: المجتمع عليه عام الفيل. وقد تحرف «العجلاني» في الأصل إلى: «العلائي». والمثبت من المصادر المذكورة. وهو يحيى بن عبد الحميد بن عبد الرحمن، أبو زكريا الحماني العجلاني الكوفي، قال ابن نمير: كذاب، وقال أحمد: كان يكذب جهاراً، ما زلنا نعرف ابن الحماني يسرق الأحاديث، وقال السعدي: ساقط، وقال النسائي: ضعيف، وقال يحيى بن معين: ثقة. انظر: «الضعفاء والمتروكون» لابن الجوزي (٣/ ١٩٧).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (٢/ ٢٦٢)، وحكاه خليفة في «تاريخه» (ص ٥٢) عن موسى بن عقبة قوله، ويؤيده قول ابن كثير: واختاره موسى بن عقبة أيضاً.

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٦٦) من طريق شعيب بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

(٤) رواه خليفة بن خياط في «تاريخه» (ص ٥٣)، والكلبي وأبوه متروكان، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٥) انظر: «الاستيعاب» (١/ ٣٠).

(٦) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٧٦).

العادِلِ[1]؛ فشيءٌ لا أصلَ له، على أنَّ بعضَهم اغتَرَّ به وقالَ ممَّا جازَفَ فيه: إنَّه لا خِلافَ بينَ العُلماءِ أنَّه ﷺ وُلِدَ بمكَّةَ في أيَّامِ كِسرَى أَنُوشَرْوَانَ العادِلِ.

قُلتُ: وقد قالَ الزَّرْكَشِيُّ: كذبٌ باطِلٌ[2].

قالَ السُّيوطِيُّ: قالَ البَيهَقِيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ»: تكلَّمَ شيخُنا أبو عبدِ اللهِ الحافِظُ في بُطلانِ ما يرويه بعضُ الجُهَلاءِ عن نبيِّنا ﷺ: وُلِدتُ في زَمَنِ الملكِ العادِلِ، يعني: أَنُوشَرْوَانَ، ثمَّ رأى بعضُ الصَّالحينَ رسولَ اللهِ ﷺ في المَنامِ فحَكَى له ما قالَ أبو عبدِ اللهِ، فصَدَّقَه في تكذيبِ هذا الحديثِ وإبطالِه، وقالَ: ما قلتُه قَطُّ[3].

فإنْ قُلتَ: تُربَةُ الشَّخصِ مَدفَنُه، فكان مُقتضَى هذا أن يكونَ مَدفَنُه عليه السَّلامُ بمَكَّةَ حيثُ كانَ تربتُه منها.

فقد أجابَ عنه صاحِبُ «العَوارِفِ» أفاضَ اللهُ علينا من عَوارِفِه، وتعَطَّفَ علينا بعَواطِفِه، بأنَّه قيلَ: إنَّ الماءَ لمَّا تموَّجَ رَمَى الزَّبَدَ إلى النَّواحي، فوَقَعَتْ جوهَرَةُ النَّبيِّ ﷺ إلى ما يُحاذِي تُربَتَه بالمدينةِ، فكانَ ﷺ مَكِّياً مَدَنيّاً، حنينُه إلى مكَّةَ وتُربتُه بالمدينةِ.

ثمَّ اختُلِفَ في الشَّهرِ الذي وُلِدَ فيه، والمَشهورُ أنَّه وُلِدَ في شهرِ ربيعٍ الأوَّلِ، وهو قَولُ جُمهورِ العُلَماءِ، ونقَلَ ابنُ الجَوزِيِّ الاتِّفاقَ عليه[4]، وفيه نظَرٌ، فقد قيلَ: في صَفَرٍ، وقيلَ: في ربيعٍ الآخرِ.

وقيلَ: في رَجَبٍ، ولا يصِحُّ.

---

(١) ذكره الصغاني في «الموضوعات» (ص ٣٦).

(٢) انظر: «التذكرة في الأحاديث المشتهرة» (ص ١٧٩).

(٣) انظر: «شعب الإيمان» (٥١٩٥). وانظر: «الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة» للسيوطي (ص ٢٠١).

(٤) انظر: «صفة الصفوة» (١/ ٢٢)، و«تلقيح فهوم أهل الأثر» (ص ١٤).

وقيلَ: في شهرِ رَمَضانَ. ورُوِيَ عن ابنِ عمَرَ[1] بإسنادٍ لا يصِحُّ، وهو مُوافِقٌ لمَن قالَ: إنَّ أُمَّه حملَتْ به في أيَّامِ التَّشريقِ.

وأغرَبَ مَن قالَ: وُلِدَ في عاشوراءَ.

وكذا اختُلِفَ أيضاً في أيِّ يومٍ من الشَّهرِ، فقيلَ: إنَّه غيرُ مُعَيَّنٍ، إنَّما وُلِدَ يومَ الإثنَينِ من ربيعٍ الأوَّلِ من غيرِ تعيينٍ، والجُمهورُ على أنَّه يومٌ مُعيَّنٌ منه:

فقيل: لِلَيلتَينِ خلَتا.

وقيلَ: لثَمانٍ خلَتْ منه.

قالَ الشَّيخُ قُطبِ الدِّينِ القَسْطَلَانيُّ[2]: وهو اختيارُ أكثرِ أهلِ الحديثِ، ونُقِلَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وجُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ، وهو إطلاقُ أكثرِ مَن له معرفةٌ بهذا الشَّأنِ، واختارَه الحميدِيُّ، وشيخُه ابنُ حَزْمٍ[3]، وحَكَى القُضاعِيُّ في «عيونِ المَعارِفِ» إجماعَ أهلِ الزِّيجِ عليه.

---

(١) قوله: «ابن عمر» كذا في «ف»، ولعل الصواب: «ابن عمرو»، فقد رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٦٦) من طريق شعيب بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: حُمل برسول الله ﷺ في عاشوراء المحرم، وولد يوم الإثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل.
وشعيب بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، هو أخو عمرو بن شعيب كما في «الثقات» لابن حبان (٨/ ٣٠٧)، فإن كان المراد بجده هو جد أبيه عبد الله بن عمرو كما قيل فيما يماثله من إسناد أخيه، يكون الحديث من مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضيَ اللهُ عنهما، وقد قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ٢٥) بعد أن ذكر الحديث بإسناده: هذا حديث ساقط كما ترى.

(٢) محمد بن أحمد بن علي القَيْسي الشاطبي، أبو بكر، قطب الدين التوزري القسطلاني عالم بالحديث ورجاله. مولده بمصر، ومنشؤه بمكة، له: «الإفصاح عن المعجم من الغامض والمبهم» في أسانيد رجال الحديث، و«اقتداء الغافل باهتداء العاقل»، ورسالة في تفسير آيات من القرآن الكريم، وغيرها، توفي سنة (٦٨٦هـ). انظر: «الوافي بالوفيات» (٢/ ٩٤). وذكر كلامه الشيخ شهاب الدين القسطلاني في «المواهب اللدنية» (١/ ٨٥).

(٣) انظر: «جوامع السيرة» لابن حزم (ص ٧).

وقيلَ: لعشرٍ.

وقيلَ: لاثنَي عَشَرَ، وعليه أهلُ مكَّةَ في زيارتِهم مَوضِعَ وِلادَتِه في هذا الوقتِ.

وقيلَ: لسبعَ عَشرةَ، وقيلَ: لثَمانٍ بقينَ منه.

والمَشهورُ: أنَّه وُلِدَ يومَ الإثنين ثاني عَشَرَ ربيعٍ الأوَّلِ، وهو قَولُ ابنِ إسحاقَ وغيرِه[1].

واختُلِفَ أيضاً في الوَقتِ الذي وُلِدَ فيه، والمَشهورُ أنَّه يومُ الإثنَين، فعَن أبي قَتادَةَ الأنصارِيِّ: أنَّه سُئِلَ ﷺ عن صيامِ يومِ الإثنين، قالَ: «ذاك يومٌ وُلِدتُ فيه، وأُنزِلَت عليَّ فيه النُّبوَّةُ». رَواهُ مُسلِمٌ[2]، وهذا يدُلُّ على أنَّه وُلِدَ نَهاراً.

وفي «المُسنَدِ» عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: وُلِدَ ﷺ يومَ الإثنَينِ، واستُنبِئَ يومَ الإثنينِ، وخَرَجَ مُهاجِراً من مكَّةَ إلى المَدينةِ يومَ الإثنينِ، ودخَلَ المَدينةَ يومَ الإثنينِ، ورَفَعَ الحَجَرَ يومَ الإثنينِ[3].

قال القَسْطَلَانيُّ: وكذا فتحُ مكَّةَ، ونزولُ سورةِ المائدةِ يومَ الإثنين[4].

يعني: المُشتملةَ على آيةِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، وهي آخِرُ سورةٍ نزلَت.

وقد رَوَى ابنُ أبي شَيبةَ وأبو نُعَيمٍ في «الدَّلائلِ»: أنَّه وُلِدَ عندَ طُلوعِ الفَجرِ[5].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٥٨).

(٢) رواه مسلم (١١٦٢).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٧٧)، وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٤) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٨٦).

(٥) المصدر السابق (١/ ٨٧)، وفيه بعد أن أورد الخبر المروي في ذلك من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «رواه أبو جعفر بن أبي شيبة، وخرجه أبو نعيم في «الدلائل» بسند فيه ضعف». قلت: ورواه من طريق أبي جعفر محمد بن عثمان بن محمد بن أبي شيبةَ: ابنُ عساكر =

وقيلَ: وُلِدَ ليلاً.

قال الزَّركَشِيُّ: والصَّحيحُ أنَّ ولادتَه عليه السَّلامُ كانَت نهاراً.

قُلتُ: وأغرَبَ القَسْطَلَانيُّ وقال: ليلةُ مَولِدِه ﷺ أفضَلُ من ليلةِ القَدْرِ من وُجوهٍ ثلاثةٍ..، ذكَرَها[1]، حيثُ لا يُفيدُ الإطلاقُ، معَ أنَّ الأفضليَّةَ ليسَ إلا لكونِ العبادةِ فيها أفضَلَ بشَهادةِ النَّصِّ القُرآنيِّ: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]، ولا تُعرَفُ هذه الفَضيلةُ لِلَيلةِ مَولِدِه عليه السَّلامُ والتَّحيَّةُ ﷺ لا من الكتابِ ولا من السُّنَّةِ، ولا من أحدٍ من عُلماءِ الأمَّةِ.

وأمَّا تضعيفُ ابنِ دِحيَةَ روايةَ سُقوطِ النَّجمِ عندَ مَولِدِه بأنَّه وُلِدَ نَهاراً[2] فغَيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ سُقوطَها خارِقٌ للعادةِ، فلا فرقَ فيه بينَ اللَّيلِ والنَّهارِ، على أنَّه بعدَ الفَجْرِ، وللنُّجومِ حينَئذٍ سُلطانٌ كما في اللَّيلِ، أو يُقالُ: سُقوطُ النَّجمِ كانَ في ليلةِ مَولِدِه إظهاراً لدُنوِّه وقُربِه، وما قارَبَ الشَّيءَ يُعطَى حُكمَه.

ثـمَّ اختُلِـفَ فـي مُـدَّةِ الحمـلِ، فقيـلَ: تسـعةُ أشـهرٍ، وقيـلَ: عشـرةٌ، وقيـلَ: ثَمانيـةٌ، وقيـلَ: سـبعةٌ، وقيـلَ: سـتَّةٌ.

قـال القَسْـطَلَانيُّ: ووُلِـدَ عليـه السَّـلامُ فـي الـدَّارِ التـي كانـت لمُحمَّـدِ بـنِ يوسُـفَ أخـي الحجَّـاجِ، ويُقـالُ: بالشِّـعبِ، ويُقـالُ: بالـرَّدْمِ، ويُقـالُ: بعُسْـفانَ[3].

قـالَ شـيخُنا ابـنُ حَجَـرٍ المكِّـيُّ: الصَّحيـحُ ـ بـل الصَّـوابُ ـ بمَكَّـةَ بمَولـدِه المَشـهورِ الآنَ.

= فـي «تاريـخ دمشـق» (٣/ ٤٢٦)، وفـي إسـناده المسـيب بـن شـريك، قال عنـه يحيى: ليس بشـيء. وقـال أحمـد: ترك النـاس حديثه. وقـال مسـلم وجماعة: متـروك. انظـر: «الميـزان» (٤/ ٣٣٣).

(١) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٨٨).

(٢) ذكره الزركشي عن ابن دحية كما في «المواهب اللدنية» (١/ ٨٨).

(٣) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٨٨).

قالَ العلماءُ: ولم يكُنْ مَولِدُه ﷺ في المُحرَّمِ، ولا في رَجَبٍ، ولا في رَمَضانَ، لئَلَّا يتشرَّفَ بالزَّمانِ، وإنَّما الزَّمانُ يتشرَّفُ به كالمكانِ[١].

قالَ القَسْطَلَانيُّ: وقد ذُكِرَ أنَّه لمَّا وُلِدَ ﷺ قيلَ: مَن يكفُلُ هذه الدُّرَّةَ اليتيمَةَ التي لا يُوجَدُ لمِثلِها قيمةٌ؟ فقالتِ الطُّيورُ: نحنُ نكفُلُه ونغنَمُ خِدمتَه العظيمةَ، وقالَتِ الوُحوشُ: نحنُ أَولى بذلك، ننالُ شَرَفَه وتعظيمَه، فنادى لسانُ القُدرَةِ: أنْ يا جميعَ المَخلوقاتِ! إنَّ اللهَ تعالى قد كَتَبَ في سابقِ حِكمَتِه القَديمةِ أنَّ نبيَّه الكريمَ يكونُ رضيعاً لحليمَةَ الحليمَةِ[٢].

قالَت حليمةُ فيما رَواهُ ابنُ إسحاقَ، وابنُ رَاهَوَيهِ، وأبو يَعْلى، والطَّبَرانِيُّ، والبَيهَقِيُّ، وأبو نُعَيمٍ[٣]: قَدِمَتْ مكَّةَ نِسوةٌ من بني سعدِ بنِ بكرٍ يلتَمِسْنَ الرُّضَعاءَ في سنةٍ شَهباءَ، فقَدِمتُ على أتانٍ لي ومعي صبيٌّ لنا، وشارِفٌ لنا ـ أي: ناقةٌ مُسِنَّةٌ مُهرَمَةٌ ـ واللهِ ما تبِضُّ بقطرةٍ، وما نَنامُ ليلَنا ذلك أجمَعَ معَ صبيِّنا ذاك، لا يجِدُ في ثَدْيي ما يُغنيه، ولا في شارِفِنا ما يُغَذِّيه، فقَدِمْنا مكَّةَ، فوَاللهِ ما علِمتُ منَّا امرأةً إلا وقد عُرِضَ عليها رسولُ الله ﷺ، فتَأباهُ إذا قيلَ: يتيمٌ، فواللهِ ما بقيَ من صَواحبي امرأةٌ إلا أخذَتْ رَضيعاً غيري.

فلمَّا لم أجِدْ غيرَه قُلتُ لزَوجي: واللهِ إنِّي لأكرَهُ أن أرجِعَ من بينِ صَواحبي ليسَ معيَ رَضيعٌ، لأنطَلِقَنَّ إلى ذلك اليتيمِ فلآخُذَنَّه، فذَهَبتُ فإذا هو مُدرَجٌ في ثوبِ

---

(١) في هامش «ف»: «يقالُ: هذا ممَّا يُرَجِّحُ كلامَ القَسْطَلَانيِّ في أفضليَّةِ ليلةِ المَولِدِ، وقد أتى الشَّيخُ ابنُ حَجَرٍ المَكِّيُّ بالكلامِ الشَّافعيِّ في مولدِه، فلْيُراجَعْ».

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٩٠)، وعنه نقل المؤلف أيضاً خبر حليمة الآتي.

(٣) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦٢)، وإسحاق بن راهويه كما في «المطالب العالية» (٤٢٠٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧١٦٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢١٤)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٩٤)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٣٣). ونقله المؤلف عن «المواهب اللدنية» (١/ ٩٠ ـ ٩٢).

صُوفٍ أبيضَ من اللَّبنِ، يفوحُ منه المِسكُ، وتحتَه حريرةٌ خَضراءُ، راقِدٌ على قَفاه يغُطُّ، فأشفَقْتُ أن أوقِظَه من نومِه لحُسنِه وجَمالِه.

فدَنَوتُ منه رُوَيداً، فوَضَعتُ يدي على صدرِه فتبَسَّمَ ضاحِكاً، وفتَحَ عينَيه ينظُرُ إليَّ، فخرَجَ من عينَيه نورٌ حتَّى دَخَلَ خِلالَ السَّماءِ، وأنا أنظُرُ، فقَبَّلتُه بينَ عينَيه، وأعطَيتُه ثَديي الأيمَنَ، فأقبَلَ عليه بما شاءَ من لبَنٍ، فحوَّلتُه إلى الأيسرِ فأبى، وكانت تلكَ حالُه بعدُ.

قال أهلُ العلمِ: أعلَمَه اللهُ تعالى أنَّ له شَريكاً، فألهمَه العَدْلَ.

فقالَت: فرَوِيَ ورَوِيَ أخوه، ثمَّ أخذتُه فما هو إلا أن جِئْتُ به رَحْلي، وقامَ صاحبي ـ تعني زَوجَها ـ إلى شارِفِنا تلكَ، فإذا إنَّها لحافِلٌ، فحَلَبَ ما شرِبَ وشرِبتُ حتَّى رَوِينا، وبِتْنا بخَيرِ ليلةٍ.

فقالَ صاحِبي: يا حليمَةُ! واللهِ إنِّي لأراكِ قد أخَذْتِ نَسَمَةً مُباركةً، ألَمْ تَرَي ما بِتْنا به اللَّيلةَ من الخيرِ والبرَكةِ حينَ أخذناه؟ فلمْ يزَلِ اللهُ يزيدُنا خَيراً.

قالَت حليمَةُ: فوَدَّعتِ النَّاسُ بعضَهم بعضاً، ووَدَّعْتُ أنا أُمَّ النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ رَكِبتُ أتاني، وأخَذْتُ محمَّداً ﷺ بينَ يدَيَّ، قالَت: فنَظَرْتُ إلى الأتانِ وقد سَجَدَتْ نحوَ الكَعبةِ ثلاثَ سجَداتٍ، ورَفَعَتْ رأسَها إلى السَّماءِ، ثمَّ مشَتْ حتَّى سبَقَتْ دَوابَّ النَّاسِ الذين كانوا معي، وصارَ النَّاسُ يتعَجَّبون منِّي، ويقُلْنَ لي النِّساءُ وهُنَّ ورائي: يا بنتَ أبي ذُؤَيبٍ! أهذِه أتانُكِ التي كُنتِ عليها وأنتِ جائِيَةٌ معَنا تخفِضُكِ طَوْراً وترفَعُكِ أُخرى؟!

فأقولُ: تاللهِ إنَّها هي، فيَتَعَجَّبْنَ منها، ويقُلْنَ: إنَّ لها شأناً عظيماً.

قالَت: فكنتُ أسمَعُ أتاني تنطِقُ وتقولُ: إنَّ لي شأناً ثمَّ شأناً، بعَثَني اللهُ بعدَ مَوتي، ورَدَّ لي سِمَنِي بعدَ هَزْلي، وَيحكُنَّ يا نساءَ بني سَعدٍ، إنَّكُنَّ لَفي

غَفلـةٍ، وهـل تَدرِينَ مَـن على ظَهري؟ علـى ظَهري خيرُ النَّبيِّينَ، وسـيِّدُ المُرسَـلين، وأفضَـلُ الأوَّليـن والآخِريـن، وحَبيـبُ رَبِّ العالَمين[١].

قالَت حَليمَةُ فيما ذكرَه ابنُ إسحاقَ وغَيرُه: ثمَّ قَدِمْنا منازِلَ بني سَعدٍ، ولا أعلَمُ أَرْضاً من أرضِ الله أجدَبَ منها، فكانَت غَنَمي تَروحُ عليَّ حينَ قَدِمنا به شِباعاً لبَناً فنحلُبُ ونشرَبُ، وما يحلُبُ إنسانٌ قطرةَ لبَنٍ، ولا يجِدُ في ضَرْعٍ، حتَّى كانَ الحاضِرُ من قَومِنا يقولونَ لرُعيانِهم: اسرَحُوا حيثُ يسرَحُ راعي غَنَمِ بنتِ أبي ذُؤَيبٍ، فتروحُ أغنامُهم جِياعاً ما تبِضُّ بقَطرَةِ لبَنٍ، وتروحُ أغنامي شِباعاً لَبَناً.

فلِلَّه دَرُّها من بركةٍ كَثُرَت بها مواشي حليمةَ، ونَمَتْ وارتفَعَ قَدْرُها به وسَمَتْ، ولـم تزَلْ حليمَةُ تتعرَّفُ الخيرَ والسَّعادةَ، وتفوزُ منه بالحُسنى وزيادةٍ:

لقـد بلَغَـتْ بالهاشِـميِّ حَليمَـةٌ ... مَقامـاً عَـلا فـي ذِرْوَةِ العِـزِّ والمَجـدِ

وزادَتْ مَواشـيها وأخصَـبَ رَبْعُهـا ... وقـد عَـمَّ هـذا السَّـعدُ كلَّ بني سَـعْدِ

وفي كتابِ «التَّرقيصِ» لأبي عبدِ اللهِ محمَّدِ بنِ المُعلَّى الأزْدِيِّ: أنَّ من شِعْرِ حليمَةَ ممَّا كانَتْ تُرَقِّصُ به النَّبيَّ ﷺ:

يـا رَبِّ إذ أعطَيْتَـهُ فأَبقِـهِ ... وأَعْلِـهِ إلـى العُـلا ورَقِّـهِ

وادحَـضْ أباطيـلَ العِـدَى بحَقِّـه[٢]

وزِدت أنا[٣]: بحَقِّهِ بحَقِّهِ بحَقِّهِ

وأخـرَجَ البَيهَقِـيُّ، والخطيبُ وابنُ عسـاكِرَ في «تاريخِهمـا»، عـن الـعبَّاسِ بنِ

---

(١) مـن قولـه: «قالـت: فكنت أسـمع أتانـي...» إلـى هنا، كـذا نقلـه المؤلف مـن «المواهـب اللدنية» (١/ ٩٢)، ولـم أجـده مسـنداً فـي الخبـر المذكـور ولا فـي غيره.

(٢) انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (١/ ١٠٠).

(٣) كتب تحتها في «ف»: من كلام المؤلف.

عبدِ المُطَّلِبِ قالَ: قُلتُ: يا رسولَ الله! دعاني الدُّخولَ في دينِك أمارةٌ لنبُوَّتِك، رأيتُكَ في المَهدِ تُناغي القَمَرَ، وتُشيرُ إليه بأُصبُعِك، فحَيثُ أشرتَ إليه مالَ، قالَ: «إنِّي كنتُ أُحدِّثُه ويُحدِّثُني، ويُلهيني عن البُكاءِ، وأسمَعُ وَجْبَتَه يسجُدُ تحتَ العرشِ»[١].

وفي «فتحِ البارِي» عن «سيرةِ الواقِدِيِّ»: أنَّه ﷺ تكلَّمَ في أوائلِ ما وُلِدَ[٢].

وذكرَ ابنُ سَبُعٍ في «الخصائصِ»: أنَّ مَهدَه كانَ يتحَرَّكُ بتحريكِ الملائكةِ[٣].

وأخرَجَ البَيهَقِيُّ وابنُ عَساكِرَ عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: كانَت حليمَةُ تُحدِّثُ أنَّها أوَّلُ ما فَطَمَتْ رسولَ اللهِ ﷺ تكلَّمَ فقالَ: اللهُ أكبرُ كبيراً، والحمدُ للهِ كثيراً، وسُبحانَ اللهِ بُكرَةً وأصيلاً، فلمَّا ترَعْرَعَ كانَ يخرُجُ فينظُرُ إلى الصِّبيانِ يلعَبُون فيتَجَنَّبُهم. الحديثَ[٤].

وقد رَوَى ابنُ سَعدٍ، وأبو نُعَيمٍ، وابنُ عساكِرَ، عن ابن عبَّاسٍ قال: كانت حليمةُ لا تدَعُه يذهَبُ مكاناً بعيداً، فغَفِلَت عنه، فخَرَجَ معَ أُختِه الشَّيماءِ في الظَّهيرةِ إلى البُهمِ، فخَرَجَتْ حليمَةُ تطلُبُه حتَّى تجدَه معَ أُختِه، فقالَت: في هذا الحرِّ؟ فقالَت أختُه: يا أُمَّه! ما وَجَدَ أخي حرّاً، رأيتُ غَمامةً تُظِلُّ عليه إذا وَقَفَ وَقَفَتْ، وإذا سارَ سارَتْ، حتَّى انتَهَى إلى هذا المَوضِعِ. الحديث[٥].

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٤١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠). قال البيهقي: تفرد به هذا الحلبي بإسناده، وهو مجهول. قلت: والحلبي المذكور اسمه أحمد بن إبراهيم كما جاء مصرحاً به في الإسناد.

(٢) انظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٨٠).

(٣) انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (١/ ٩١). وابن سبع هو أبو الربيع سليمان بن سبع ـ بضم الباء وإسكانها ـ السبتي، واسم كتابه: «شفاء الصدور في أعلام نبوة الرسول وخصائصه»، انظر: «الرسالة المستطرفة» (١/ ٢٠٢).

(٤) رواه البيهقي في «الدلائل» (١/ ١٣٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٤٧٤).

(٥) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٥٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٣٦٠)، وفي إسناده الواقدي، وهو متروك. ولم أجده بهذا السياق في «دلائل النبوة» لأبي نعيم.

قالَت حليمةُ: فلمَّا فَصَلْتُه ـ أي: فَطَمتُه ـ قَدِمْنا به على أُمِّه ونحنُ أحرَصُ شيءٍ على مُكثِه عندَنا؛ لِمَا نرَى من برَكَتِه، فكلَّمنا أُمَّه، قُلنا: لو تَركتِيهِ عندَنا حتَّى يغلُظَ، فإنَّا نَخشَى عليه وباءَ مكَّةَ، ولم نزَلْ بها حتَّى ردَّتْه معَنا، فرَجَعْنا بهِ.

فوَاللهِ إنَّه لبعدَ مَقدَمِنا بشَهرَينِ أو ثلاثةٍ معَ أخيه من الرَّضاعةِ لَفي بُهمٍ لنا خَلْفَ بُيوتِنا جاءَ أخوه يشتَدُّ، فقالَ: ذاك أخي القُرَشيُّ قد جاءَه رَجُلانِ عليهما ثيابٌ بيضٌ، فأَضْجَعاهُ وشَقَّا بطنَه، فخَرَجْتُ أنا وأبوه نشتَدُّ نحوَه، فنَجِدُه قائماً مُنتَقِعاً لونُه، فاعتَنَقَه أبوه وقالَ: يا بُنَيَّ! ما شأنُكَ؟

قالَ: جاءَني رَجُلانِ عليهما ثيابٌ بيضٌ، فأَضجَعاني، فشَقَّا بطني، ثمَّ استَخْرَجا منه شيئاً فطَرَحاهُ، ثمَّ رَدَّاه كما كانَ، فرَجَعْنا به معَنا، فقالَ أبوه: يا حليمَةُ! لقد خَشيتُ أن يكونَ ابني قد أُصيبَ، فانطَلِقي نَرُدُّه إلى أهلِه قبلَ أن يظهَرَ به ما نتَخَوَّفُ.

قالَت حليمةُ: فاحتَمَلْناه حتَّى قَدِمْنا به إلى أُمِّه، فقالَت: ما رَدَّكُما به؟ فقد كُنتُما حريصَينِ عليه، قُلنا: نَخشى الإتلافَ والأحداثَ، فقالَت: ما ذاكَ بكُما فاصدُقاني بشَأنِكُما، فلم تدَعْنا حتَّى أخبَرْنا خَبرَه، قالَت: أخَشيتُما عليه الشَّيطانَ؟ فلا واللهِ ما للشَّيطانِ عليه سبيلٌ، وإنَّه لكائِنٌ لابني هذا شأنٌ، فدَعاهُ عنكُما[١].

هذا وقد وَقَعَ شَقُّ صَدرِه الشَّريفِ مرَّةً أُخرَى عندَ مجيءِ جبريلَ له بالوَحيِ في غارِ حِرَاءٍ[٢]، ومرَّةً أُخرَى ليلةَ الإسراءِ[٣].

---

(١) قطعة من خبر رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٣٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧١٦٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٣٣٥)، من حديث عبد الله بن جعفر رضيَ اللهُ عنهما عن حليمة السعدية رضيَ اللهُ عنها. وقصة شق صدره وهو غلام يلعب مع الغلمان رواها أيضاً مسلم (١٦٢/ ٢٦١) من حديث أنس رضيَ اللهُ عنه.

(٢) رواه الطيالسي في «مسنده» (١٥٣٩)، والحارث في «مسنده» (٩٢٨ ـ بغية الباحث)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (١٦٣).

(٣) رواه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢/ ٢٦٢)، من حديث أنس رضيَ اللهُ عنه. ورواه البخاري =

ولمَّا بلَغَ ﷺ أربعَ سنينَ، وقيلَ: خمساً، وقيلَ: سِتّاً، وقيلَ: سبعاً، وقيلَ: تسعاً، وقيلَ: اثنتَي عشرَةَ سنةً وشهراً وعشرةَ أيَّامٍ، ماتَتْ أمُّه بالأبواءِ، وهو مَوضِعٌ بينَ مكَّةَ والمدينةِ، وقيلَ: بشِعبِ أبي دُبٍّ بالحَجونِ[1].

وفي «القاموسِ»: ودارُ رائعةَ بمكَّةَ فيه مَدفَنُ أمِّ النَّبيِّ ﷺ[2].

وقد أخرَجَ ابنُ سعدٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، وعن الزُّهرِيِّ، وعن عاصِمِ بنِ عُمَرَ بنِ قَتادَةَ، دَخَلَ حديثُ بعضِهم في بعضٍ قالَوا: لمَّا بلَغَ رسولُ اللهِ ﷺ سِتَّ سنينَ خَرَجَتْ به أُمُّه إلى أخوالِه بني عَدِيِّ بنِ النَّجَّارِ بالمَدينةِ تزورُهم، ومعَه أمُّ أيمنَ، فنزلَت به دارَ النَّابغةِ، فأقامَت به عندَهم شَهْراً، فكانَ ﷺ يذكُرُ أموراً كانَت في مُقامِه ذلك، ونظرَ إلى الدَّارِ فقالَ: ههُنا نزَلَت بي أُمِّي وأحسَنْتُ العَوْمَ في بئرِ بني عَدِيٍّ بنِ النَّجَّارِ.

وكانَ قومٌ من اليهودِ يختلِفونَ، ينظُرون إليَّ، قالَت أمُّ أيمَنَ: فسَمِعتُ أحدَهم يقولُ: هو نبيُّ هذه الأمَّةِ، وهذه دارُ هِجرَتِه، فوَعَيتُ ذلك كلَّه من كلامِهم، ثمَّ رَجَعَت به أمُّه إلى مكَّةَ، فلمَّا كانَت بالأبواءِ تُوُفِّيَت[3].

وقد جَزَمَ الحافِظُ جَلالُ الدِّينِ السُّيوطِيُّ بأنَّ أبوَيهِ ﷺ ناجِيانِ[4]، والجُمهورُ على خِلافِه، وقد بيَّنتُه في رسالةٍ مُستَقِلَّةٍ[5]، وقد كانَت أمُّ أيمَنَ برَكةُ دايتَه

= (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أنس عن أبي ذر رضيَ اللهُ عنهما. ورواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤)، من حديث أنس عن مالك بن صعصعة رضيَ اللهُ عنهما.

(١) وهذا استبعده البلاذري فقال: وزعم بعض البصريين أن آمنة أم النبي ﷺ ماتت بمكة، ودفنت في شعب أبي دبٍّ الخزاعي. وذلك غير ثبت. انظر: «أنساب الأشراف» (١/ ٤٠).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (مادة: روع). وتحرفت «رائعة» في «ف» إلى: «نابغة»، والتصويب من «القاموس»، ومثله في «الأماكن» للحازمي (ص ٥٩)، و«معجم البلدان» (٣/ ٢٢ و٣٤٧).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١١٦).

(٤) انظر رسالة «مسالك الحنفا في والدي المصطفى» ضمن «الحاوي» للسيوطي (٢/ ٢٤٤).

(٥) وهي مطبوعة ضمن هذا المجموع.

وحاضِنَتَه بعدَ موتِ أمِّه، وكانَ عليه السَّلامُ يقولُ لها: «أنتِ أُمِّي بعدَ أُمِّي»[١].

وماتَ جَدُّه عبدُ المُطَّلِبِ كافِلُه وله ثماني سنينَ، وقيلَ: تسعٌ، وقيلَ: عَشرٌ، وقيلَ: سِتٌّ. ولجدِّه عَشرٌ ومئةُ سنةٍ، وقيلَ: مئةٌ وأربعونَ سنةً.

وكَفَلَه أبو طالبٍ، واسمُه عبدُ مَنافٍ، وكانَ عبدُ المُطَّلبِ قد أوصاهُ بذلك لكَونِه شقيقَ عبدِ اللهِ.

ولمَّا بلَغَ رسولُ الله ﷺ اثنتَي عشرَةَ سنةً خرَجَ معَ عمِّه أبي طالبٍ إلى الشَّامِ، حتَّى بلَغَ بُصرَى، فرآه بَحيرا الرَّاهِبُ، واسمُه جرجيس، فعَرَفَه بصِفَتِه، فقالَ وهو آخِذٌ بيدِه: هذا سيِّدُ العالَمين، هذا يبعَثُه اللهُ رحمةً للعالَمين.

فقيلَ له: وما عِلمُك بذلك؟ فقالَ: إنَّكم حينَ أشرَفْتُم به من العَقَبةِ، فلم يبقَ شَجَرٌ ولا حَجَرٌ إلا خَرَّ ساجِداً، ولا يَسجُدُ إلا لنبيٍّ، وإنِّي أعرِفُه بخاتَمِ النُّبوَّةِ في أسفلَ من غُضروفِ كَتِفِه مثلُ التُّفَّاحةِ، وإنَّا نجِدُه في كُتُبِنا، وسأَلَ أبا طالبٍ أن يرُدَّه خَوفاً عليه من اليهودِ..، الحديثَ. رَواهُ ابنُ أبي شيبةَ، وفيه: أنَّه ﷺ أقبلَ وعليه غَمامةٌ تُظِلُّه[٢].

وللهِ دَرُّ القائلِ:

إنْ قالَ يوماً ظَلَّلَتْهُ غَمامَةٌ هي في الحقيقةِ تحتَ ظِلِّ القائلِ

وأخرَجَ ابنُ مَندَه ـ بسَنَدٍ ضَعيفٍ ـ عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضيَ اللهُ عنه صَحِبَ النَّبيَّ ﷺ وهو ابنُ ثَماني عشرَةَ، والنَّبيُّ ﷺ ابنُ عشرينَ سنةً، وهم يُريدونَ الشَّامَ في تجارةٍ، حتَّى نزَلا مَنزِلاً فيه سِدرَةٌ، فقَعَدَ في ظِلِّها، ومضَى أبو بكرٍ إلى راهِبٍ يُقالُ له: بَحيرا، يسأَلُه عن شيءٍ، فقالَ له: مَن الرَّجُلُ الذي في ظِلِّ الشَّجرَةِ؟ قالَ: محمَّدُ

---

(١) رواه ابن عبد البر في «الاستيعاب» من طريق سليمان بن أبي شيخ عن النبي ﷺ، وهذا إسناد منقطع.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٥٤١) من حديث أبي موسى رضيَ اللهُ عنه، ورواه الترمذي (٣٦٢٠) وقال: حسن غريب.

بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المُطَّلبِ، قالَ: هذا واللهِ نبيٌّ، ما استَظَلَّ تحتَها بعدَ عيسى عليه السَّلامُ إلا محمَّدٌ ﷺ، ووَقَعَ في قلبِ أبي بكرٍ التَّصديقُ، فلمَّا بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ اتَّبعَه[١].

قالَ الحافِظُ العَسْقَلانِيُّ في «الإصابةِ»: إنْ صَحَّتْ هذه القِصَّةُ فهي سَفْرَةٌ أُخرَى بعدَ سَفْرَةِ أبي طالبٍ[٢].

ثمَّ خرَجَ ﷺ ومعَه مَيسرَةُ غُلامُ خديجةَ ابنةِ خُوَيلدِ بنِ أسدٍ في تجارةٍ لها، حتَّى بلغَ سُوقَ بُصرَى، وله إذ ذاك خمسٌ وعِشرون سنةً، فنزلَ تحتَ شَجَرةٍ، فقالَ نُسْطُورُ الرَّاهبُ: ما نَزَلَ تحتَ ظِلِّ هذه الشجرةِ إلا نبيٌّ، وفي روايةٍ: بعدَ عيسى، وكانَ مَيسرَةُ يرى في الهاجِرةِ مَلَكَين يُظِلَّانِه من الشَّمسِ.

ولمَّا رجَعوا إلى مكَّةَ في ساعةِ الظَّهيرةِ وخَديجةُ في عِلِّيَّةٍ لها، فرأَتْ رسولَ اللهِ ﷺ وهو على بعيرِه ومَلَكانِ يُظِلَّانِ عليه. رَواهُ أبو نُعَيمٍ[٣].

وتزوَّجَ ﷺ خديجةَ بعدَ ذلك بشَهرَينِ وخمسةٍ وعشرينَ يوماً، وقيلَ: كانَ سنُّه إحدَى وعشرينَ سنةً، وقيلَ: ثلاثين.

وكانَت تُدعَى في الجاهليَّةِ بالطَّاهِرَةِ، وكانَت تحتَ أبي هالةَ بنِ زُرارَةَ التَّميميِّ، فوَلَدَت له هِنْداً وهالَةَ، وهما ذَكَرانِ، ثمَّ تزَوَّجَها عَتيقُ بنُ عائذٍ المَخزومِيُّ فولَدَتْ له هنداً[٤]، وكانَ لها حينَ تزويجِها بالنَّبيِّ ﷺ من العُمرِ أربعون سنةً.

وكانَت عَرَضَتْ نفسَها عليه، فذكرَ ذلك لأعمامِه، فخَرَجَ معَه منهم حمزةُ حتَّى

---

(١) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١٢٨٤)، وفي إسناده عبد الغني بن سعيد أحد الضعفاء المتروكين، كما ذكر ابن حجر في «الإصابة» (١/ ٣٥٣).

(٢) انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (١/ ٣٥٣).

(٣) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (١١٠) من حديث نفيسة بنت منية أخت يعلى بن منية، ورواه أيضاً ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٣٠ و١٥٦).

(٤) وهي أنثى. انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٨/ ١٥).

دخلَ على خُوَيلدِ بنِ أسدٍ فخَطَبها إليه، فتزَوَّجَها ﷺ وأصدَقَها عشرينَ بَكْرةً، وحَضَرَ أبو بكرٍ ورُؤَساءُ مُضَرَ، فخَطَبَ أبو طالبٍ فقالَ:

الحمدُ للهِ الذي جعَلَنا من ذُرِّيةِ إبراهيمَ، وزَرْعِ إسماعيلَ، وضِئْضِئِ مَعدٍّ، وعُنصُرِ مُضَرَ، وجَعَلَنا حَضَنَةَ بيتِه، وسُوَّاسَ حَرَمِه، وجَعَلَ لنا بيتاً مَحجُوجاً وحَرَماً آمِناً، وجَعَلَنا الحُكَّامَ على النَّاسِ، ثمَّ إنَّ ابنَ أخي هذا محمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ لا يُوزَنُ برجُلٍ إلا رَجَحَ به، فإنْ كانَ في المالِ قُلٌّ، فإنَّ المالَ ظِلٌّ زائِلٌ وأمرٌ حائِلٌ، ومحمَّدٌ مَن قَدْ عَرَفتُم قرابتَه، وقد خَطَبَ خديجةَ بنتَ خُوَيلدٍ، وبذَلَ لها من الصَّداقِ ما آجِلُه وعاجِلُه من مالي كذا، وهو واللهِ بعدَ هذا له نبأٌ عظيمٌ، وخَطَرٌ جليلٌ، فتزَوَّجَها.

ولمَّا بلَغَ ﷺ خَمساً وثلاثينَ سنةً خافَتْ قُريشٌ أن تَنْهَدِمَ الكعبةُ من السُّيولِ، فأَمَروا باقُومَ مَولى سعيدِ[1] بنِ العاصِ بأن يبنيَ الكعبةَ المُعظَّمةَ، وحَضَرَ ﷺ، وكانَ يَنقُلُ معَهم الحِجارةَ، وكانُوا يضَعونَ أُزُرَهُم على عَواتِقِهم ويحمِلُون الحِجارَةَ، ففَعَلَ ذلك ﷺ، فلُبِطَ به ـ أي: سَقَطَ من قيامٍ، كما في «القاموسِ»[2] ـ ونُودِيَ: عَورَتَكَ، فكانَ ذلك أوَّلَ ما نُودِيَ، فقالَ له أبو طالبٍ أو العبَّاسُ: يا ابنَ أخي! اجعَلْ إِزارَكَ على رأسِكَ، فقالَ: «ما أصابَني، ما أصابَني إلا منَ التَّعرِّي»[3].

ولمَّا بلَغَ ﷺ أربعينَ سنةً ـ قيلَ: وأربعينَ يوماً، وقيلَ: وعشرةَ أيَّامٍ، وقيلَ: وشَهرَينِ، يومَ الإثنينِ لسبعَ عشرَةَ خلَتْ من شهرِ رمَضانَ، وقيلَ: لسبعٍ، وقيلَ: لأربعٍ وعشرينَ ليلةً، وقالَ ابنُ عبدِ البَرِّ: يومَ الإثنينِ لثَمانٍ من ربيعٍ الأوَّلِ سنةَ إحدَى

---

(١) تحرفت في «ف» إلى: «سعد».

(٢) انظر: «القاموس» (مادة: لبط).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٤٥) عن ابن عباس، وعن عمرو الهذلي، وعن محمد بن جبير بن مطعم دخل حديث بعضهم في حديث بعض. وأصل القصة في «صحيح البخاري» (٣٦٤)، و«صحيح مسلم» (٣٤٠)، من حديث جابر رضيَ اللهُ عنه.

وأربعينَ من الفيلِ[(١)] ـ بعثَه اللهُ رَحمةً للعالَمين، ورَسولاً إلى كافَّةِ الثَّقلَينِ أجمعين.

وأخرَجَ ابنُ جَريرٍ، وابنُ المُنذِرِ، وغيرُهما، عن قتادَةَ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، قالَ: جعلَه اللهُ من أنفُسِكُم، فلا تَحسُدوه على ما أعطاهُ اللهُ من النُّبوَّةِ والكَرامةِ، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ ما عَنَتَ مُؤمِنَهم، ﴿حَرِيصٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] على ضالِّهم أن يهدِيَه الله[(٢)].

وأخرَجَ ابنُ أبي حاتمٍ وأبو الشَّيخِ عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ قالَ: شديدٌ عليه ما شَقَّ عليكم، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أن يُؤمِنَ كُفَّارُكُم[(٣)].

والحاصِلُ: أنَّه ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: شاقٌّ عليه وصَعبٌ لدَيه عَنَتُكم وتَعَبُكم، ولذا رُفِعَ ببَركتِه الخطَأُ والنِّسيانُ والإكراهُ عنكم، ووُضِعَ عنكم الآصارُ والأغلالُ التي كانت على الأُمَمِ الماضيةِ، حيثُ أتى ﷺ بالمِلَّةِ الحنيفيَّةِ السَّمحاءِ، والطَّريقَةِ المَرضيَّةِ النَّوراءِ.

ويحتملُ أن يكونَ: ﴿عَزِيزٌ﴾ منفصِلاً عمَّا قبلَه[(٤)] متَّصلاً بما سيقَ له، فهو صِفَةٌ لـ «رسول»؛ أي: هو عزيزُ الوُجودِ، وكامِلُ الجُودِ، وبديعُ الجَمالِ، عَديمُ المِثالِ.

أو: عزيزٌ مُكرَّمٌ لدَينا، فأعِزُّوه وأكرِمُوه، وانصُرُوه وعَظِّمُوه، ويُؤَيِّدُه القِراءةُ الشَّاذَّةُ بالزَّاءَينِ في قولِه: (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزِّزُوه)[(٥)].

أو معناهُ: غالِبٌ على جميعِ المُرسَلين، لكَونِه خاتمَ النَّبيينَ، أو لكَونِ دينِه غالباً على جميعِ الأديانِ، شامِلاً لكُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ، أو هو مُنتَقِمٌ لأعدائِه كما هو رَحيمٌ بأحبَّائِه.

---

(١) انظر: «الاستيعاب» (١/ ٣١).

(٢) رواه مفرقاً الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٩٧ ـ ٩٩).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٧). وانظر: «الدر المنثور» (٤/ ٣٣٣).

(٤) كذا في «ف»، ولعل الصواب: «بعده» بدلالة المعنى والسياق.

(٥) ذكرها ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٩) عن محمد بن السميفع وابن عباس.

﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: ضَررٌ عليه ضَررُكم، وشاقٌّ عليه مِحَنكم؛ لكونِه رحمةً للعالمين، ورأفةً للمُؤمنين.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ أي: على إيمانِكُم وإيقانِكُم وإحسانِكُم.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: على الخُصوصِ ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ في غايةٍ من الرَّأفةِ والشَّفقَةِ، ونِهايةٍ من اللُّطفِ والمَرحَمَةِ.

فقد أخرَجَ ابنُ أبي حاتمٍ عن عكرمةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «جاءَ جبريلُ فقالَ لي: يا محمَّدُ! إنَّ ربَّك يُقرِئُكَ السَّلامَ، وهذا مَلَكُ الجِبالِ قد أرسَلَه إليكَ، وأمَرَه أن لا يفعَلَ شيئاً إلا بأمرِكَ، [فقالَ له مَلَكُ الجِبالِ: إنَّ اللهَ أمرَني ألا أفعَلَ شيئاً إلا بأمرِك]، إنْ شئتَ هدَمْتُ عليهم [الجِبالَ]، وإنْ شِئتَ رَمَيتُهم بالحَصباءِ، وإنْ شِئتَ خَسَفْتُ بهم الأرضَ، قالَ: يا مَلَكَ الجبالِ! فإنِّي آنى بهم، لعلَّه أن يخرُجَ منهم ذُرِّيَّةٌ يقولونَ: لا إلهَ إلا اللهُ، فقالَ ملَكُ الجِبالِ: أنتَ كما سمَّاكَ ربُّكَ: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»[1].

وأخرَجَ ابنُ مَردَويهِ، عن أبي صالحِ الحنَفيِّ قالَ: قالَ عبدُ اللهِ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ رحيمٌ، ولا يضَعُ رحمتَه إلا على رحيمٍ»، قُلنا: يا رسولَ اللهِ! كلُّنا نَرحَمُ أموالَنا وأولادَنا، قال: «ليسَ بذلك، ولكِنْ كما قالَ اللهُ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]»[2].

ففي الحديثِ إشارَةٌ إلى أنَّ الرَّحمةَ ينبَغي أن تكونَ عامَّةً وخاصَّةً؛ كما قالَ في الحديثِ الصَّحيحِ: «لا يُؤمِنُ أحدُكم حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنَفسِه»[3].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٨)، وما بين معكوفتين منه. والخبر مرسل.

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٤/ ٣٣٣)، وقد عزاه السيوطي لابن مردويه لكن دون قوله: «قال عبد الله»، وكذا رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠١)، وهو على هذا مرسل.

(٣) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، من حديث أنس رضيَ اللهُ عنه.

وفي الصَّحيحِ أيضاً: «الرَّاحِمونَ يَرْحَمُهم الرَّحمنُ، ارحَموا مَن في الأرضِ يَرحمْكم مَن في السَّماءِ»[١].

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾؛ أي: أعرَضُوا، يعني الكفَّارَ عن الإيمانِ بك، أو جميعَ الخلقِ عنك وعن مُتابعَتِك، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافِيَّ في جميعِ أُموري، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: ليسَ لي رَبٌّ سِواهُ، فلا أعبُدُ إلا إيَّاهُ، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتمَدْتُ، وإليه استَنَدْتُ، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] بالجرِّ على أنَّه صفةُ «العرشِ» ـ وقُرِئَ بالرَّفعِ على أنَّه صِفَةُ الرَّبِّ[٢] ـ أي: الهَيكَلُ الجسيمُ المُحيطُ بجميعِ المَخلوقاتِ.

وقد ورَدَ: أنَّ الأرَضينَ السَّبعَ في جَنْبِ سماءِ الدُّنيا كحَلْقَةٍ في فلاةٍ، وكذا كلُّ سماءٍ بالنِّسبةِ إلى أُخرَى، ثمَّ جميعُ الأرَضينَ والسَّماواتِ العُلى بجَنْبِ العَرشِ كحَلْقَةٍ في فلاةٍ، ومعَ هذا رُوِيَ في الحديثِ القُدسِيِّ: «لا يَسَعُني أرضي ولا سَمائي، ولكِنْ يسَعُني قَلبُ عبديَ المُؤمنِ»[٣].

وأخرَجَ أبو داودَ عن أبي الدَّرداءِ مَوقوفاً[٤]، وابنُ السُّنِّيِّ عنه مَرفوعاً: «مَن قالَ حينَ يُصبِحُ وحينَ يُمسي: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ سبعَ مرَّاتٍ، كفاهُ اللهُ ما أهمَّه من أمرِ الدُّنيا والآخِرَةِ»[٥].

وأخرَجَ ابنُ أبي شيبَةَ وغيرُ واحِدٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ، عن أُبيِّ بنِ كعبٍ قال: آخِرُ

---

(١) رواه الترمذي (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو، وقال: حسن صحيح.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص ٦١).

(٣) قال في «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٣٧٦): هذا مذكور في الإسرائيليات، ليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ.

(٤) رواه أبو داود (٥٠٨١).

(٥) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٧١).

آيةٍ نزلَت على النَّبيِّ ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرِ السُّورَةِ[١].

وفي روايةٍ: قالَ أُبيٌّ: فهذا آخِرُ ما أُنزِلَ من القُرآنِ، فخُتِمَ الأمرُ بما فُتِحَ به، وهو لا إلهَ إلا اللهُ، يقولُ اللهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥][٢].

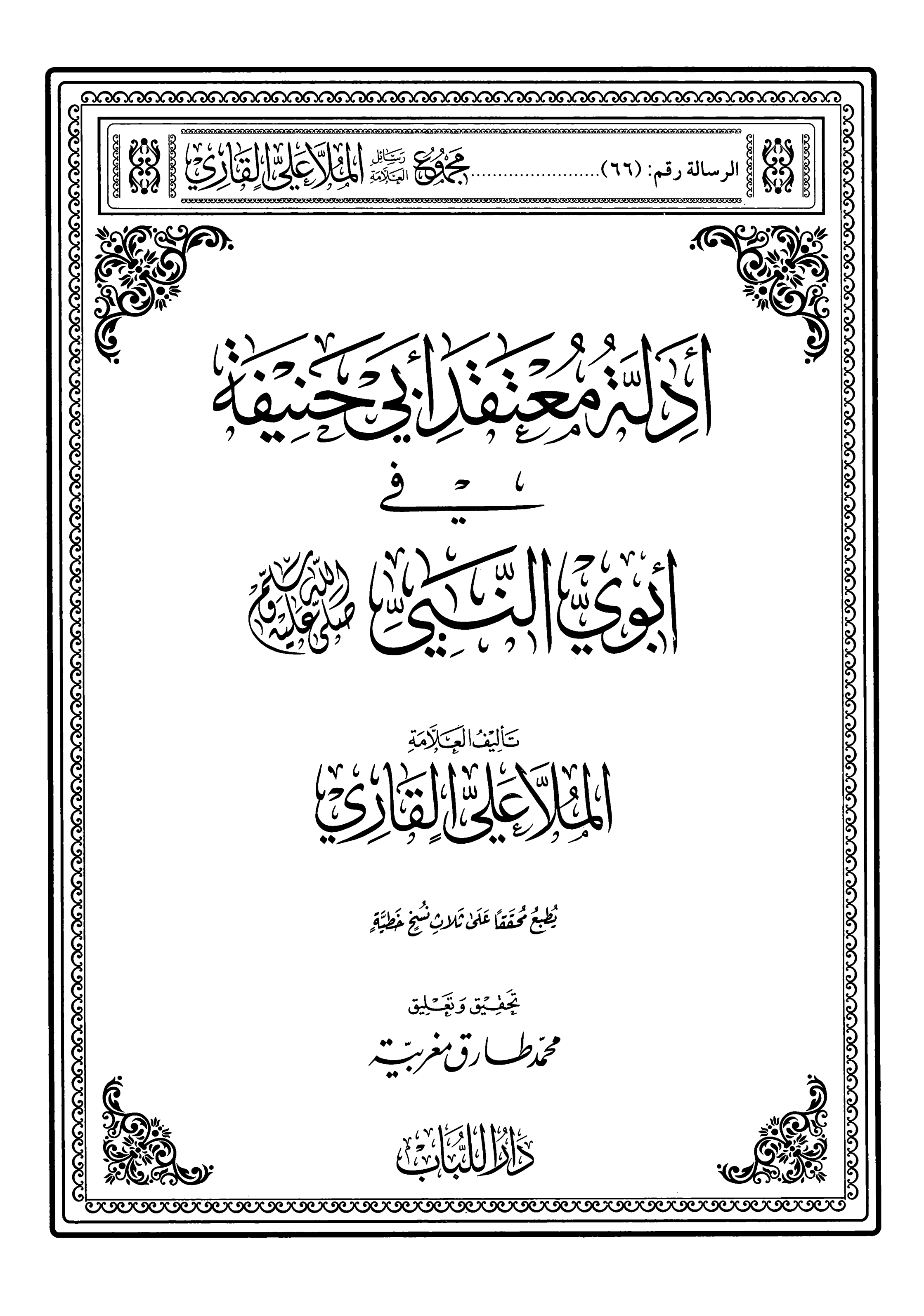
فلْنَختِمْ بما خَتَمَ اللهُ تعالى به نُزولَ كلامِه المُبينِ على خاتَمِ النَّبيِّين، رجاءَ أن يَختِمَ لنا بالخاتمةِ الحُسنَى، وأن يُبَلِّغَنا المَقامَ الأَسنَى، فَضْلاً من اللهِ وتوفيقاً، مع الذينَ أنعَمَ اللهُ عليهم من النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ، وحَسُنَ أولئكَ رَفيقاً، ذلك الفَضْلُ منَ اللهِ، وكفَى باللهِ عليماً، والحمدُ للهِ أوَّلاً وآخِراً، وباطِناً وظاهِراً، وحَديثاً وقديماً، وصلَّى اللهُ على سيِّدِنا محمَّدٍ وآلِه وصحبِه وسلَّمَ تسليماً، وزادَه تكريماً وتَشريفاً ومَهابَةً وتعظيماً[٣].

* * *

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١١٧)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠١).

(٢) رواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (٢٧)، وابن أبي داود في «المصاحف» (ص ٥٦).

(٣) جاء بعده في «ف»: «من خط مؤلفه نقل».

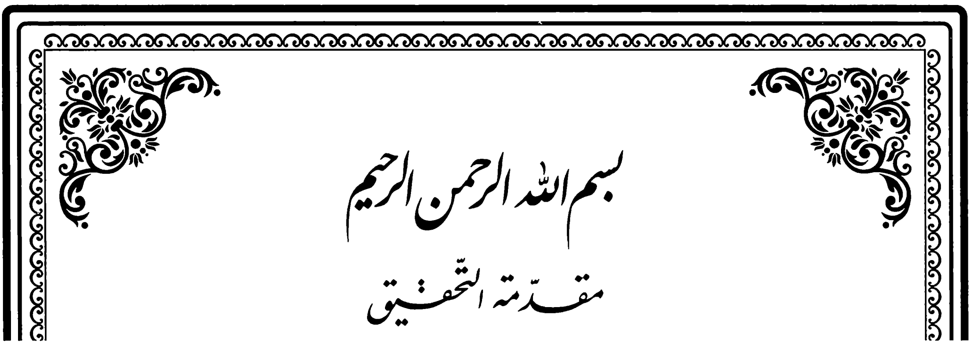


مجموع رسائل العلامة الملا علي القاري
الرسالة رقم: (٦٦)
أدلة معتقد أبي حنيفة
في
أبوي النبي صلى الله عليه وسلم
تأليف العلامة
الملا علي القاري
يطبع محققاً على ثلاث نسخ خطية
تحقيق وتعليق
محمد طارق مغربية
دار اللباب

مكتبة قيصري رشيد أفندي (ق)

المكتبة الأحمدية (أ)

المكتبة السليمانية (س)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحَمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ، وصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدنا مُحمَّدٍ وعَلَى آلِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرينَ، وأصْحابِهِ الغُرِّ المَيامِينَ، وتابِعِيهمْ بإحْسانٍ إلى يَومِ الدِّينِ، وبَعْدُ:

فهذه رسالةٌ للعلَّامةِ الملَّا عليٍّ القارِيْ في مسألةِ مَوتِ والدَي النَّبيِّ ﷺ، على أيِّ حالٍ ماتا؟! أَفردها الملَّا عليٌّ في هذه الرسالةِ، كما أفردهَا قبلَه غيرُه مِنَ العُلماء، وقد اختلفَتْ أَنظارُهم فيها، كلٌّ يُدْلي فيها بِدلْوِهِ، بما عندهُ مِنْ أدلَّةٍ ونُقُولٍ عَمَّن سَبَقهُ.

والأقوالُ المنقولةُ المشهورةُ في هذهِ المسألةِ باختصارٍ ثلاثةٌ:

الأوّلُ: القولُ بنجاتِهما.

الثَّاني: القولُ بأنَّهما لم يموتا على الإسلامِ.

الثّالثُ: القولُ بأنَّهما مِنْ أهلِ الفترةِ، ويتفرَّعُ عنه قولانِ:

أوّلهُما: أنَّهما مِنْ أَهْلِ الفترةِ، وأحكامُ أَهْلِ الفترةِ تَسْرِي عليهما كما تَسْرِي على غيرِهما، وقد تُكتب لهما النَّجاة.

وثانيهما: أنَّهما مِنْ أَهْلِ الفترةِ ولكن لا تُكتب لهما النَّجاة؛ لِمَا أخبرَ به النبيُّ ﷺ مما جاء عنهُ في «صحيح مسلم» وغيرِه.

وقد قالَ بكلٍّ واحدٍ منها جَماعةٌ، ونَصروا ما ذهبوا إليه بتآليفَ ورسائل.

وقد قالَ جماعةٌ بإسلامِ والدَيِّ النبيِّ ﷺ، وأَنَّ اللهَ أَحياهُما فأَسْلَما ثم أماتَهما، معتمدينَ في ذلكَ على أحاديثَ لا تقومُ بمثلها حُجَّةٌ، ولا يُعتمدُ عليها في إثباتِ مَسْأَلة،

وممَّن ذهبَ إلى هذا: الإمامُ السُّيوطيُّ رحمه الله، وأَفردَ في ذلك تأليفاً. فَرَدَّ عليه العلَّامةُ القارِيْ وشَنَّعَ عليه مَقَالتَه، وأَغْلظَ كثيراً في الرَّدِّ عليهِ، سامَحهُ اللهُ وغَفر لَهُ.

فإذا قَرأنا كَلامَ الملا عَلِيٍّ القَارِيْ في هذهِ الرِّسالَةِ وجَدنَاه يَصُبُّ جُلَّ اهْتِمامِهِ عَلَى تَفْنِيدِ ما قالَهُ الجَلالُ السُّيوطِيُّ، وبَيان ضَعفِهِ، ويَجعَلُ وَكْدَهُ وهَجِّيراهُ تَخطِئتَهُ في كُلِّ ما ذَهبَ إلَيهِ، مَعَ ما رَدَّ بهِ عَلى الإمامِ ابْنِ حَجَرَ الهَيتَمِيِّ، والإمَام القُرطُبِيِّ.

ويُضَافُ إلى هَذا أنَّ الرِّسالَةَ دِفاعٌ مُستَميتٌ عنْ قَولِ الإمَامِ الأعظَمْ أبي حَنيفَةَ النَّعمانِ رَحِمهُ اللهُ تَعالَى الَّذي ضَمَّنهُ كِتابَهُ «الفِقهُ الأكبرُ» الَّذي يُنْسَبُ إلَيهِ، ويَقولُ أتْباعُهُ ومُقلِّدُوه إنَّهُ لهُ مُتَّصلاً عنهُ بالرِّوايةِ، وهُنا لا بُدَّ مِن وَقفةٍ مُتأنيةٍ معَ هذا المَوضُوعِ.

فمَطبُوعاتُ «الفِقهِ الأكْبرِ» تخلُو منَ الجُملَةِ الَّتي يُدِيرُ الملا عَلِيٌّ القَارِيْ رِسالَتَهُ عَلَيها، ومِنها نُسخَةُ شَرحِهِ عَلَيهِ «مِنحُ الرَّوضِ الأزْهرِ» فلا تَجِدُ لها أثَراً!!!

وقدْ تعرَّضَ الدُّكتور خَلِيل إبْراهِيم قُوتلاي في كِتابِهِ «الإمامُ عَليٌّ القارِيْ وجُهودُهُ في عِلمِ الحَدِيثِ» واجْتَهَدَ في تَفْسِيرِ الأمْرِ بعدَّة أمورٌ:

فمِنها: أنَّ المَذكُورَ في النُّسَخِ القَديمةِ مِنها: أنَّ والِدَي رَسُولِ اللهِ ﷺ (ما ماتا عَلَى الكُفْر)، فتَصحَّفَتِ العِبارةُ عَلى القَارِي وبَنَى شَرحَهُ عَلَيها، وأثْبَتَ ـ دَفاعاً عَنْ أبي حَنِيفةَ رَحمهُ اللهُ ـ كُفرَهُما!!

ومِنها: أنَّ الكَلامَ مُوجُودٌ في النُّسَخِ الخَطيَّةِ للشَّرحِ، وطَبعَةِ دِهلِي سنةَ (١٣١٤) هِجريَّة، وتَخلو مِنهُ طَبعاتُ مِصرَ وبَيرُوتَ، وهذهِ مُشكِلةٌ منْ مَشاكِلِ مَخطُوطاتِنا الَّتي يَستَحِلُّ بَعضُ ناسِخِيها أو ناشِريها تَغْييرَ نَصِّ المؤلِّفِ لغاياتٍ حَسنةٍ أو خَبيثَةٍ، فلا بدَّ أنْ يَبْقَى كَلامُ المُصنِّفِ كما هوَ، ويُترَكَ الحُكمُ عَليهِ لأهْلِ العِلمِ منَ القُراءِ والبَاحِثينَ.

وذَكرَ آخرُونَ: أنَّهُ عادَ وأضْرَبَ عنْ ذلِكَ، وذكَرَ هذا في شَرحِهِ لـ «الشِّفا»

للقاضِي عياضٍ الَّذِي رَجَّحَ الدُّكتور خَليل قُوتلاي أَنَّهُ مِنْ آخرِ تَصانِيفِهِ، والله تَعَالى أَعْلَمُ بحَقيقَةِ الحالِ.

ومما ينبغي التنبيهُ عليهِ ونَراهُ لِزاماً الوقوفَ عندهُ: أَنَّ هذه المسألةَ ليست مِنَ الاعتقاديَّاتِ، فلا حَظَّ للقلبِ منها، وأمَّا اللِّسانُ فحقُّه أَنْ يُصانَ عَمَّا يتبادَرُ منه النُّقصانُ خُصوصاً إلى وَهْمِ العَوَام؛ لأَنَّهم لا يقدِرونَ على دَفْعِهِ وتَدارُكِهِ، كما قالَ الإمامُ ابنُ كمالِ باشا رحمه اللهُ تعالى. وإنْ أدخلَها قومٌ ـ ومنهم العلَّامةُ القارِيْ ـ في جملةِ المسائلِ الاعتقاديةِ، غيرَ أَنَّه صَرَّحَ: أَنَّه لو لم يخطُرْ ببالِ مؤمنٍ هذا البحثُ لا نَفياً ولا إثباتاً، فإنَّه لا يضرُّهُ، والله تعالى أعلم.

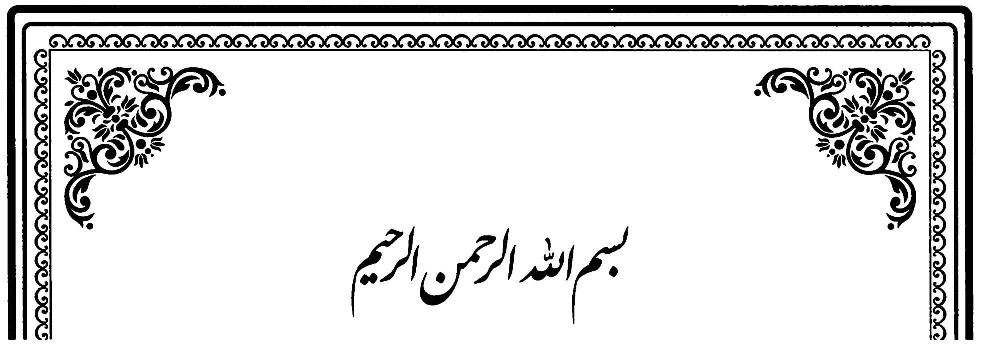
ثمَّ إنَّ هذه المسألةَ مما تحيَّرتْ فيها العقولُ، واضطربتْ فيها النُّقولُ، فَنُسلِّمُ الأمرَ إلى خالِقهما فيما قضى عليهما ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، وليس لأحدٍ الوصولُ إلى حقيقةِ هذا الحكمِ فيهما، إلا أنْ يقولَ كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

هذا، وقد تمَّ الاعتمادُ في تحقيقِ هذه الرسالةِ على ثلاثِ نُسخٍ خَطِّية: الأولى: النسخةُ السُّليمانيةُ ورمزُها «س»، ونسخةُ قيصري رشيد أفندي ورمزُها «ق»، والنسخةُ الأحمديةُ ورمزُها «أ».

والحَمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصَلاتُهُ وسَلامُهُ على نَبيِّنا وحَبيبنا وقُدوَتِنا، وعَلَى صَحابَتِهِ الكِرامِ أهلِ الجَلالِ والكَمالِ، وآلِهِ خَيرِ آلْ.

المحقق

***



الحمدُ للهِ الذي خَصَّ مَن شاءَ من عبادِه في عالمِ القَضاءِ بالإيمانِ، وهداه بجُودِه إلى معرفةِ نورِ وُجودِه وظُهورِ شُهودِه في مَقامِ العِرْفانِ، ومَرامِ الإحسانِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ الأتمَّانِ الأكملانِ على سيِّدِنا وسَنَدِنا محمَّدٍ من أولادِ عدنانٍ، وعلى آلِه الكِرامِ، وأصحابِه الفِخامِ، إلى يومِ القيامِ، وعلى أتباعِه خُلاصةِ أهلِ الأديانِ.

أمَّا بعدُ:

فيقولُ أحقَرُ عبادِ اللهِ البارِيْ، عليُّ بنُ سُلطانِ محمَّدٍ القارِيْ: قد قالَ الإمامُ الأعظَمُ والهُمامُ الأقدَمُ، في كتابِه المُعتبَرِ المُعبَّرِ بـ «الفِقهِ الأكبرِ» ما نصُّه: (ووالِدا رسولِ الله ﷺ ماتا على الكُفرِ)[1].

فقالَ شارِحُه: (هذا ردٌّ على مَن قالَ: بأنَّ والدَي رسولِ الله ﷺ ماتا على الإيمانِ، وعلى مَن قالَ: ماتا على الكُفرِ، ثمَّ رسولُ اللهِ ﷺ دعا اللهَ لهما فأحياهُما الله وأسلَما ثمَّ ماتا على الإيمانِ).

فأقولُ وبحَولِه سُبحانَه أَصُولُ: إنَّ هذا الكلامَ من حضرةِ الإمامِ لا يُتصَوَّرُ في هذا المَقامِ لتحصيلِ المَرامِ، إلا أن يكونَ قَطعِيَّ الدِّرايةِ لا ظَنِّيَّ الرِّوايةِ؛ لأنَّه في بابِ الاعتقادِ لا يُعمَلُ بالظَّنِّياتِ، ولا يُكتَفَى بالآحادِ من الأحاديثِ الواهِياتِ، والرِّواياتِ

---

(١) لم أجد بعد التتبع ما نسبه الإمام القاري هنا في مطبوعات «الفقه الأكبر»، ومنها نسخة شرحه عليه: «منح الروض الأزهر»، فالله سبحانه أعلم بحقيقة الحال، ويراجع ما كتبته في المقدمة ففيه بيان وتفصيل.

الوَهميَّاتِ؛ إذ من المُقرَّرِ المُحرَّرِ في الأصلِ المُعتبَرِ: أنَّه ليسَ لأحدٍ من أفرادِ البشرِ أن يَحكُمَ على أحدٍ بأنَّه من أهلِ الجنَّةِ، ولا بأنَّه من أهلِ العُقوبةِ، إلا بنقلٍ[1] ثبتَ بنصٍّ من الكتابِ، أو تواترَ من السُّنَّةِ، أو إجماعِ علماءِ الأمَّةِ بالإيمانِ المقرونِ بالوفاةِ، أو بالكُفرِ المُنضَمِّ إلى آخرِ الحياةِ.

فإذا عَرَفْتَ ذلك، فنستدِلُّ على مَرامِ الإمامِ بحسَبِ ما أُطلِعْنا عليه في هذا المقامِ، بالكتابِ، والسُّنَّةِ، واتِّفاقِ أئمَّةِ الأنامِ.

* **أمَّا الكتابُ**: فقولُه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [البقرة: ١١٩]، فقراءةُ الجمهورِ على المجهولِ في النَّفيِ، وقراءةُ نافِعٍ على المعلومِ بالنَّهيِ[2].

وقد أخرجَ وكيعٌ، وسُفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ، وعبدُ الرَّزَّاقِ، وعبدُ بنُ حُميدٍ، وابنُ جريرٍ، وابنُ المُنذِرِ عن محمَّدِ بنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ رَضِي الله عَنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ليتَ شِعري، ما فعلَ أبوايَ؟»، فنزلَت: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [البقرة: ١١٩]، فما ذَكَرَهُما حتَّى توفَّاهُ اللهُ تعالى[3].

---

(١) في جميع النسخ: «فيخل»، ولعل الصواب المثبت.

(٢) وهي قراءة نافع وحده كما في «السبعة» لابن مجاهد (١٦٩)، وفيه وجهان أحدهما: أنه نهي عن السؤال عمن كفر من الأحياء، لأنه قد يتغير حاله فينتقل من الكفر إلى الإيمان، وعن المعصية إلى الطاعة. والثاني - وهو الأظهر - أنه نهي عن السؤال عمن مات على الكفر تعظيما لحاله، وتغليظا لشأنه، وهذا كما قد يقال: لا تسأل عن فلان؛ أي: قد بلغ فوق ما تحسب. «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٩٣).

(٣) ينظر: «الدر المنثور» (١/ ٢٧١)، ورواه الإمام الطبري في «تفسيره» (٢/ ٥٥٨ - ٥٥٩) بتعليق الشيخين الأخوين شاكر، وهو مرسل لأن محمد بن كعب القرظي تابعي، وفي إسناده موسى بن عبيدة بن نشيط الربذي، قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: لا تحل عندي الرواية عن موسى بن عبيدة، وقال ابن معين: لا يحتج بحديثه، «التاريخ الكبير» للبخاري (٤/ ٢٩١)، وينظر تعليق الشيخ أحمد شاكر على الطبري في الموضع المذكور.

وفيه دليلٌ واضِحٌ على المُدَّعَى، وتنبيهٌ نبيهٌ على أنَّ هذا حكمٌ لم يُنسَخْ بالإحياءِ، كما لا يخفى. قالَ العلَّامةُ السُّيوطيُّ: هذا مُرسَلٌ ضعيفُ الإسنادِ(١).

قلتُ: المُرسَلُ حُجَّةٌ عندَ الجمهورِ من علماءِ الأصولِ والاعتقادِ(٢)، والطُّرُقُ المُتعدِّدةُ للحديثِ ترفعُ الضَّعفَ وتُوصِلُه إلى الحُسنِ أو الصِّحَّةِ عندَ الكلِّ في الاعتمادِ.

وأخرجَ ابنُ جريرٍ عن داودَ بنِ أبي عاصمٍ رَضِي الله عَنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ ذاتَ يومٍ: «أينَ أبوايَ؟» فنزلَتْ(٣). قالَ السُّيوطيُّ: والآخَرُ مُعضَلُ الإسنادِ ضَعيفٌ(٤).

قلتُ: المُعضَلُ عندَنا حُجَّةٌ(٥)، وضَعفُه يتقوَّى بالتَّعدُّدِ، لا سيَّما وقد تعلَّقَ به اجتهادُ المُجتهدِ، فدلَّ على صِحَّتِه، ولو حَديثٌ ضُعِّفَ بالنِّسبةِ إلينا في روايتِه(٦)، ويُكتَفَى بمثلِ ذلك في أسبابِ النُّزولِ، كما هو معقولٌ عندَ أربابِ النُّقولِ.

---

(١) «الدر المنثور» (١/ ٢٧١).

(٢) لا بد من تحرير مصطلح المرسل عند الحنفية والجمهور؛ فالمرسل عند الحنفية: هو ما انقطع سنده، سواء كان الانقطاع في أوله، أو آخره، أو أوسطه، واحدا كان أو أكثر، وهذا ما أطبق عليه محققو متأخريهم، كالبخاري، وابن الهمام، وتلميذه ابن أمير حاج، وابن عابدين، أما متقدموهم كالجصاص، والبزدوي، والسرخسي فهو قول غير الصحابي: قال رسول الله ﷺ. أما عند المحدثين فقول التابعي: قال رسول الله ﷺ، ومذهب جمهور الفقهاء الاحتجاج بالمرسل، واشترط الشافعي لذلك شروطاً لا يحتج به دونها، فهو عنده من أنواع الحديث الضعيف. ينظر: «دراسات في أصول الحديث عند الحنفية» (٣٧٦)، و«كشف الأسرار» (٣/ ٥)، و«توجيه النظر في أصول الأثر» (٢/ ٥٥٧).

(٣) «تفسير الإمام الطبري»، (٢/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩)، وداود بن أبي عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي: تابعي ثقة، ويروي عن بعض التابعين أيضاً. مترجم في «التهذيب» (١/ ٥٦٥)، والحديث مرسل.

(٤) «الدر المنثور» (١/ ٢٧١).

(٥) لأنه من أنواع المرسل عند الحنفية كما مر قريباً.

(٦) كذا في جميع النسخ الخطية.

وأخرجَ ابنُ المُنذرِ عن الأعرجِ أنَّه قرأَ: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: أنتَ يا محمَّدُ. كذا في «الدُّرِّ المنثورِ»[1].

وفي «تفسيرِ العِمادِ ابنِ كثيرٍ»: قالَ عبدُ الرَّزَّاقِ: أنبأَ الثَّوْرِيُّ، عن موسى بنِ عُبيدَةَ، عن محمَّدِ بنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ رَضِي الله عَنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ليتَ شِعْري، ما فعلَ أبوايَ؟ ليتَ شِعْري، ما فعلَ أبوايَ؟ ليتَ شِعْري، ما فعلَ أبوايَ؟» ثلاثَ مرَّاتٍ، فنزلَ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩]، فما ذَكَرَهُما حتَّى توفَّاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ[2]، وهذا يُؤَيِّدُ ما قدَّمناه، فتدبَّرْ وتأمَّلْ.

ورواهُ ابنُ جَريرٍ، عن أبي كُرَيبٍ، عن وَكيعٍ، عن موسى بنِ عُبيدَةَ، به مثلَه، وذكرَ الحديثَ الآخَرَ بسندِه كما تقدَّم.

ثمَّ قالَ ابنُ كثيرٍ: وقد رَدَّ ابنُ جَريرٍ هذا القولَ المَروِيَّ عن محمَّدِ بنِ كَعْبٍ وغيرِه في ذلك لاستِحالةِ الشَّكِّ من الرَّسولِ ﷺ في أمرِ أبوَيه، واختارَ القراءةَ الأُولى. يعني النَّفيَ.

قالَ: وهذا الذي سلكَه ها هنا فيه نَظَرٌ؛ لاحتِمالِ أنَّ هذا كانَ في حالِ استغفارِه[3] لأبوَيهِ قبلَ أن يعلمَ أمرَهُما، فلمَّا علمَ ذلك تبرَّأَ منهُما، وأخبرَ عنهما أنَّهما من أهلِ النَّارِ، ولهذا أشباهٌ كثيرةٌ ونظائِرُ، ولا يلزمُ ما ذكرَه ابنُ جريرٍ[4]. انتهى كلامُ ابنِ كثيرٍ.

وقالَ مُحيي السُّنَّةِ في تفسيرِه «معالمِ التَّنزيلِ»: قالَ عطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي الله عَنهما: وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ ذاتَ يومٍ: «ليتَ شِعْري، ما فعَلَ أبوايَ؟»، فنزلتْ هذه الآيةُ[5].

---

(١) «الدر المنثور» (١/ ٢٧١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٩).

(٣) في «س»: كذا في الأصل، وفي «ق» وهامش «س»: (استفساره) ورمز لها بـ(ظ).

(٤) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٩).

(٥) «معالم التنزيل» (١/ ١٤٣).

أقـولُ: وهـذا النَّقلُ من ابـنِ عبَّاسٍ حبرِ الأمَّـةِ كافٍ في الحُجَّةِ، لا سـيَّما وهو مـن أهـلِ بيـتِ النُّبـوَّةِ، ولـو كانَ هنـاك تـردُّدٌ فـي القضيَّةِ لمـا ذكرَ مثـلَ هـذه القِصَّةِ المُستَلزِمةِ للغَصَّةِ.

وكـذا نقـلَ الواحِـدِيُّ عـن ابنِ عبَّـاسٍ رَضِـي الله عَنهما، ثـمَّ قـالَ: وهذا على قـراءةِ مَـن قـرأَ ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾، جزماً[1].

وقـالَ البَيضـاوِيُّ: قرأَ نافعٌ ويعقـوبُ (ولا تَسْـأَلْ) على أنَّه نهيٌ للرَّسـولِ ﷺ من السُّـؤالِ عـن حالِ أبوَيـه[2]، انتهى.

والحاصِلُ أنَّ عامَّةَ المُفسِّرين كالمُجمِعين على أنَّ هذا سببُ نزولِ الآيةِ، ومن المُقرَّرِ في علمِ الأصولِ أنَّ نَقْلَ الصَّحابيِّ في سببِ النُّزولِ ولو كانَ موقوفاً فهو في حُكمِ المرفوعِ الموصولِ[3]، فكيفَ وقد ثبتَ رفعُه بطُرقٍ مُتَعدِّدةٍ وأسانيدَ مختلفةٍ؟

هـذا، وقد قـالَ من أئمَّـةِ التَّفسـيرِ صاحبُ «التَّيسـيرِ»[4]: ولمـا أُمِرَ رسـولُ اللهِ ﷺ بتبشـيرِ المؤمنين وإنذارِ الكافريـن، كانَ يذكرُ عُقوباتِ الكُفَّارِ، فقـامَ رجلٌ وقالَ: يـا رسـولَ اللهِ! أيـنَ والدِيَّ؟ فقـالَ: «فـي النَّارِ»، فحَـزِنَ الرَّجـلُ، فقالَ عليه السَّـلامُ: «إنَّ والِدَيـكَ ووالِـدَيَّ ووالِدَيْ إبراهيمَ فـي النَّارِ»، فنزلَ قولُـه تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾، فلـم يسـألُوا[5] بعدَ ذلـك، وهو قولُه تعالـى: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائـدة: ١٠١]، انتهى.

---

(١) «الوسيط» للواحدي (١/ ١٩٩) وفيه: وقرأنا مع: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ﴾ بفتح التاء وجزم اللام، على النهي للنبي ﷺ، وينظر: «حجة القراءات»، لابن زنجلة (١١١).

(٢) «أنوار التنزيل» (١/ ١٨٥).

(٣) ينظر: «إرشاد طلاب الحقائق» (٧٩).

(٤) هو الإمام عمر بن أحمد النسفي (ت ٥٣٧)، ولا زال التفسير مخطوطا.

(٥) زاد في «ق»: «شيئا».

وفيه تنبيهٌ على أنَّ قراءةَ النَّفيِ أيضاً تدلُّ على المُدَّعَى، فتُبيِّنُ ما ذكرَه العلماءُ من المُفسِّرين والقُرَّاءِ من أنَّ الأصلَ في القراءتينِ أن يتَّفِقَ حالُهما ويجتمعَ مآلُهما، ثمَّ تفَطَّنْ لما في الحديثِ من تصريحِ ذكرِ والدِ إبراهيمَ في هذا المَقامِ الفَخيمِ.

* * *

* **وأمَّا السُّنَّةُ**: فما رواهُ مُسلمٌ عن أنسٍ: أنَّ رَجُلاً قالَ: يا رسولَ الله! أينَ أبي؟ فقالَ: «في النَّارِ»، فلمَّا قَفَّى دعاهُ فقالَ: «إنَّ أبي وأباك في النَّارِ»[١].

وكذا ما رواهُ البزَّارُ من: أنَّه ﷺ أرادَ أن يستغفرَ لأمِّه فضربَ جبريلُ صدرَه، وقالَ: لا تَستَغفِرْ لِمَن ماتَ مُشركاً[٢].

وكذا ما رواهُ الحاكِمُ في «مُستدرَكِه» وصحَّحَه: أنَّه ﷺ قالَ لابنَيْ مُلَيْكَةَ: «أُمُّكُما في النَّارِ»، فشَقَّ عليهما، فدعاهُما، فقالَ: «إنَّ أُمِّي معَ أُمِّكما»[٣].

وتعَقُّبُ الذَّهبيِّ له بكونِ عثمانَ بنِ عُمَيرٍ ضعَّفَه الدَّارقطنيُّ[٤] لم يُخرِجْه عن كونِه ثابتاً حَسَناً قابِلاً للاستدلالِ، إمَّا على الاستقلالِ، وإمَّا معَ غيرِه لتقويةِ الحالِ.

وكذا ما أخرَجَه الإمامُ أحمدُ في «مُسنَدِه» عن أبي رَزِينٍ العُقَيليِّ رَضِي الله عَنه قالَ: قلتُ: يا رسولَ الله! أينَ أُمِّي؟ قالَ: «أُمُّكَ في النَّارِ»، قلتُ: فأينَ مَن مَضى من أهلِكَ؟ قالَ: «أمَا تَرْضى أن تكونَ أُمُّكَ معَ أُمِّي»[٥].

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٠٣).

(٢) عن بريدة رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كنا بودان، أو بالقبور، سأل الشفاعة لأمه، أحسبه قال: فضرب جبريل عليه السلام صدره وقال: لا تستغفر لمن مات مشركا. رواه البزار ـ كما في «كشف الأستار» (١/ ٦٦) ـ قال البزار: لا نعلم رواه بهذا الإسناد إلا محمد بن جابر. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١١٧): ولم أر من ذكر محمد بن جابر هذا.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢١١) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) «تلخيص المستدرك» (٣/ ٢١١).

(٥) «مسند أحمد» (١٩٨٩٥).

وكذا ما رَوى ابنُ جَريرٍ عن عَلْقَمَةَ بنِ مَرْثَدٍ، عن سُليمانَ بنِ بُرَيدَةَ، عن أبيه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا قَدِمَ مكَّةَ أتى رَسْمَ قبرٍ فجلسَ إليه، فجَعَلَ يُخاطِبُ ثمَّ قامَ مُستَعبِراً، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ! إنَّا رأينا ما صنَعْتَ، قالَ: «إنِّي استأذَنْتُ ربِّي في زيارةِ قبرِ أُمِّي فأَذِنَ لي، واستَأذَنتُه في الاستغفارِ لها فلم يأذَنْ لي»، فما رُئِيَ باكياً أكثرَ من يومِئذٍ[1].

وسيأتي سببُ بُكائِه ﷺ منصوصاً عن بعضِ العلماءِ، واللهُ أعلَمُ.

وكذا حديثُ مُسلِمٍ، وأبي داودَ عن أبي هريرةَ رَضِي الله عَنه: أنَّه ﷺ استأذنَ في الاستغفارِ لأُمِّه، فلم يُؤذَنْ له[2].

وأمَّا القولُ بأنَّه ثَمَّ استأذَنَه ثانياً وأَذِنَ له؛ فيَحتاجُ إلى دليلٍ صريحٍ ونَقْلٍ صحيحٍ.

ثمَّ لا يُنافي الحديثَ الأوَّلَ ما وردَ من طريقٍ آخرَ ولم يُذكَرْ فيه: «إنَّ أبي وأباكَ في النَّارِ»، بل قالَ: «إذا مَرَرْتَ بقبرِ كافرٍ فبَشِّرْه بالنَّارِ»؛ فإنَّه يُفيدُ التَّعميمَ، والأوَّلُ يدلُّ على التَّخصيصِ، فذكرَه أوَّلاً تسليةً له، وثانياً لئَلَّا يتقيَّدَ الحكمُ بالمذكورِ، بل يعُمُّ مَن هو بالكُفْرِ مشهورٌ.

كما يدلُّ عليه روايةُ ابنِ ماجَه من طريقِ إبراهيمَ بنِ سعدٍ، عن الزُّهرِيِّ، عن سالمٍ، عن أبيه، قالَ: جاءَ أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ الله! إنَّ أبي كانَ يصِلُ الرَّحِمَ، وكانَ وكانَ، فأينَ هو؟ قالَ: «في النَّارِ»، قالَ: فكأنَّه وَجَدَ من ذلك، فقالَ: يا رسولَ الله! فأينَ أبوكَ؟ قالَ رسولُ الله ﷺ: «حيثُما مرَرْتَ بقبرِ مُشرِكٍ فبَشِّرْه بالنَّارِ»، قالَ: فأسلَمَ الأعرابيُّ بعدُ، وقالَ: لقد كلَّفني رسولُ اللهِ ﷺ تعَباً، ما مرَرْتُ بقبرِ كافرٍ إلا بشَّرتُه بالنَّارِ[3].

---

(١) «تفسير الإمام الطبري» (١٣٤٧٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٩٧٦)، وأبو داود (٣٢٣٥).

(٣) «سنن ابن ماجه» (١٥٧٣).

وفي هذا التَّعميمِ دَلالةٌ واضِحةٌ، وإشارةٌ لائحةٌ بأنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كلَّهم كُفَّارٌ، إلا ما خُصَّ منهم بالأخبارِ عن النَّبيِّ المُختارِ.

وممَّا ثبَتَ في الكتابِ والسُّنَّةِ: ما أخرجَه ابن جَريرٍ عن قتادةَ قالَ: ذُكِرَ لنا أنَّ رجالاً من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ قالوا: يا نبيَّ اللهِ، إنَّ من آبائِنا مَن كانَ يُحسِنُ الجِوارَ، ويصِلُ الأرحامَ، ويفُكُّ العاني، ويُوفي بالذِّمَمِ، أفلا نستغفِرُ لهم؟ فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «والله لأستغفِرَنَّ لأبي كما استغفرَ إبراهيمُ لأبيه»، فأنزلَ اللهُ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [التوبة: ١١٤] الآيةَ، ثمَّ عذَرَ اللهُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فقالَ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ إلى قوله: ﴿ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ ﴾ [التوبة: ١١٤][1].

وذُكِرَ لنا: أنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قالَ: «أُوحِيَ إليَّ كلماتٌ قد دخَلْنَ في أُذُني ووَقَرْنَ في قلبي، أُمِرْتُ أن لا أستغفرَ لِمَن ماتَ مُشرِكاً، ومَن أعطى فضلَ مالِه فهو خيرٌ له، ومَن أمسكَ فهو شَرٌّ له، ولا يلومُ اللهُ على كَفافٍ»[2].

وتأويلُ السُّيوطيِّ: أنَّ المُرادَ بأبيه عمُّه أبو طالبٍ، وبأبي إبراهيمَ عمُّه آزرُ؛ في غايةٍ من السُّقوطِ. فتدَبَّرْ، وسيأتي زيادةُ الكلامِ للرَّدِّ عليه بالوَجْهِ الآخرِ الأوفرِ.

وأخرجَ ابنُ جريرٍ[3] من طريقِ عطيَّةَ العوفيِّ، عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي الله عَنهما في قولِه: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ الآية، قالَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أرادَ أن يستغفِرَ لأُمِّه فنهاهُ الله عن ذلك، قالَ: فإنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قد استغفرَ لأبيه فنزلَ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ [التوبة: ١١٤].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٣٤٧٥).

(٢) «تفسير الطبري» (١٣٤٧٥).

(٣) «تفسير الطبري» (١٣٤٧٣).

قالَ السُّيوطيُّ: هذا الأثرُ ضعيفٌ مَعلولٌ؛ فإنَّ عطيَّةَ ضعيفٌ[(١)]، وهو مُخالِفٌ لروايةِ عليِّ بنِ أبي طلحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ السَّابقةِ، وتلك أصَحُّ، وعليٌّ ثِقةٌ جليلٌ[(٢)].

قلتُ: عطيَّةُ مُختلَفٌ فيه، ولو سُلِّمَ أنَّه ضعيفٌ فيتقوَّى بانضِمامِ غيرِه إليه، ثمَّ لا مُخالَفَةَ بينَ الرِّوايتين؛ لإمكانِ الجمعِ بين القضيَّتين بتعدُّدِ الواقعةِ في الحالتين، وقد نقلَه الحافظُ عمادُ الدِّين في «تَفسِيرِه» عن العوفِيِّ عن ابنِ عبَّاسٍ وسكتَ عليه، وهذا دليلُ ثُبوتِه عندَه[(٣)].

وقد أخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ والحاكمُ وابنُ مَردَوَيهِ والبَيهَقِيُّ في «الدَّلائل» عن ابنِ مسعودٍ رَضِي الله عَنه قالَ: خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ يوماً إلى المقابرِ فاتَّبعناه، فجاءَ حتَّى جلسَ إلى قبرٍ منها فناجاه طويلاً، ثمَّ بكى فبَكَينا لبُكائِه، ثمَّ قامَ فقامَ إليه عمرُ فدعاه، ثمَّ دعانا فقالَ: «ما أبكاكُم؟» قلنا: بَكَينا لبُكائِك، قالَ: «إنَّ القبرَ الذي جلستُ عندَه قبرُ آمنةَ، وإنِّي استأذَنْتُ ربِي في زيارتِها فأذِنَ لي، وإنِّي استأذَنْتُ ربِّي بالاستغفارِ لها فلم يأذَنْ لي، وأنزَلَ عليَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، فأخَذَني ما يأخذُ الولدَ للوالدةِ من الرَّأفةِ، فذاك الذي أبكاني»[(٤)].

---

(١) عطية بن سعد بن جنادة العوفي القيسي الكوفي، أبو الحسن، من التابعين، روى له البخاري في «الأدب المفرد» وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، اختلف فيه، فوثقه جمع من الأئمة، وضعفه آخرون، وكان فيه تشيع، ينظر: «تهذيب الكمال» (٢٠/ ١٤٨).

(٢) علي بن أبي صالح، يروي التفسير عن ابن عباس رضي الله عنه، لكنه لم يسمعه منه، قال الإمام الخليلي في «الإرشاد»: وأجمع الحفاظ على أن ابن أبي طلحة لم يسمعه ـ أي: التفسير ـ من ابن عباس. «الإرشاد» (١/ ٣٩٤)، وأخرج الخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/ ٤٢٨) عن صالح جزرة أنه سئل: ممن سمع ابن أبي طلحة التفسير؟ فقال: من لا أحد.

(٣) ينظر: «تفسيره» (٤/ ١٧١٦).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٥١)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٣٦)، والبيهقي في =

وكذا ذكرَه الواحِدِيُّ في «أسبابِ نزولِه»[1] بإسنادِهِ عنه مثلَه، ورواه الطَّبرانيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي الله عَنهما نحوَه، كما ذكرَه القَسطَلانِيُّ، قالَ القاضي عِياضٌ: وبُكاؤُه عليه السَّلامُ على ما فاتَها من إدراكِ أيَّامِه والإيمانِ به[2].

وأخرجَ ابنُ مَردَوَيه عن بُرَيدةَ رَضِي الله عَنه قالَ: كنتُ معَ النَّبيِّ ﷺ إذ وقَفَ على عُسْفَانَ فنظرَ يميناً وشِمالاً فأبصرَ قبرَ أُمِّه آمنَةَ، فورَدَ الماءَ فتوضَّأ ثمَّ صلَّى رَكعتَين، فلم يفجَأْنا إلا ببُكائِه، فبَكَينا ببُكائِه، ثمَّ قامَ فصلَّى ركعتين ودعا، فلم يَفجَأ إلا وقد علا بُكاؤُه فعَلا بُكاؤُنا لبُكائِه، ثمَّ انصرَفَ إلينا فقالَ: «ما الذي أبكاكُم؟» قالوا: بَكَيتَ فبَكَينا يا رسولَ اللهِ! قالَ: «وما ظَنَنتُم؟» قالوا: ظننَّا أنَّ العذابَ نازِلٌ علينا بما نعمَلُ، قالَ: «لم يكُنْ من ذلك شيءٌ».

قالوا: فظَنَّنا أنَّ أُمَّتَك كُلِّفَت من الأعمالِ ما لا يُطيقون فرَحِمْتَها، قالَ: «لم يكُنْ من ذلك شيءٌ، ولكِنْ مررتُ بقبرِ آمنةَ أُمِّي فصلَّيتُ ركعتَين ثمَّ استأذنتُ أن أستغفرَ لها، فنُهيتُ فبكَيتُ، ثمَّ عُدتُ فصَلَّيتُ ركعتَين فاستأذنتُ ربِّي أن أستغفرَ لها فزُجِرْتُ زَجْراً، فعلا بُكائي، ثمَّ دعا براحلتِه فركِبَها، فما سار إلا هُنَيهَةً حتَّى قامتِ[3] النَّاقةُ لثِقَلِ الوَحْيِ، فأنزلَ اللهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤] الآيتين[4].

وأخرجَ الطَّبَرانيُّ وابنُ مَردَوَيهِ من طريقِ عِكرِمَةَ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي الله عَنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا أقبلَ من غزوةِ تبوكَ اعتمرَ، فلمَّا هبطَ من ثَنيَّةِ عُسْفَانَ أمر

«دلائل النبوة» (١/ ١٨٨).

(١) «أسباب النزول» للواحدي (٢٦٨).

(٢) انظر: «إكمال المعلم» للقاضي عياض (٣/ ٤٥٢).

(٣) في «س»: أشار فوقها: «أي وقفت».

(٤) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٠٣) حيث عزاه إلى ابن مردويه.

أصحابَه أن يستَنِدوا إلى العَقَبةِ حتَّى أرجِعَ إليكم، فذَهَبَ فنَزَلَ على قبرِ آمنةَ، فناجَى ربَّه طويلاً، ثمَّ إنَّه بكى فاشتدَّ بُكاؤُه، فبكى هؤلاءِ لبُكائِه، فقالوا: ما بكى نبيُّ اللهِ هذا البُكاءَ إلا وقد حَدَثَ في أمَّتِه شيءٌ لم تُطِقْه، فلمَّا بكى هؤلاءِ قامَ فرجَعَ إليهم فقالَ: «ما يُبكيكُم؟» قالوا: يا نبيَّ اللهِ، ما هذا البُكاءُ إلا وقد حَدَثَ في أمَّتِك شيءٌ لم تُطِقْه، قالَ: «لا، وقد كانَ بعضُه، ولكنَّني نزلتُ على قبرِ أمِّي، فدَعَوتُ اللهَ ليأذَنَ لي في شفاعتِها يومَ القيامةِ، فأبى أن يأذَنَ لي فرحِمتُها، وهي أمِّي، فدَعَوتُ ربِّي أن يرفَعَ عن أُمَّتي أربعاً، فرَفَعَ عنهم اثنتَين، وأبى أن يرفعَ عنهم اثنتين، دَعَوتُ ربِّي أن يرفعَ عنهم الرَّجْمَ من السَّماءِ، والغَرَقَ من الأرضِ، وأن لا يُلبِسَهم شِيَعاً، وأن لا يُذيقَ بعضَهم بأسَ بعضٍ، فرفعَ اللهُ عنهم الرَّجمَ من السَّماءِ، والغَرَقَ من الأرضِ، وأبى أن يرفعَ عنهم القَتْلَ والهَرْجَ».

قال: وإنَّما عَدَلَ إلى قبرِ أُمِّه لأنَّها كانت مدفونةً تحتَ كَدَاءٍ، وكانت عُسْفَانُ لهم، وبها وُلِدَ النَّبيُّ ﷺ، أي: على قَولٍ[1].

وقد أخرجَ العِمادُ ابنُ كثيرٍ هذا الحديثَ بسندِ الطَّبرانيِّ المُتَّصلِ إلى ابنِ عبَّاسٍ رَضِي الله عَنهما معَ تغييرٍ قليلٍ، وزادَ في آخرِه: «ثمَّ جاءَني جبريلُ وقالَ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة: ١١٤]، فتبَرَّأ من أُمِّك كما تبرَّأ إبراهيمُ من أبيهِ، فرَحِمتُها وهي أُمِّي، ودَعَوتُ ربِّي»[2]... إلى آخره.

وأخرجَ ابنُ المُنذِرِ والطَّبَرانيُّ والحاكِمُ وصحَّحَه عن ابنِ مسعودٍ رَضِي الله

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٠٤٩)، قال في «مجمع الزوائد» (١/ ١١٧): رواه الطبراني في «الكبير» وفيه أبو الدرداء، وعبد الغفار بن المنيب عن إسحاق بن عبد الله عن أبيه عن عكرمة، ومن عدا عكرمة لم أعرفهم ولم أر من ذكرهم.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧١٥).

عَنه قالَ: جاءَ ابنا مُلَيكَةَ، وهما من الأنصارِ، فقالا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أُمَّنا كانت تحفَظُ على البَعْلِ، وتُكرِمُ على الضَّيفِ، وقد وَأَدَت في الجاهليَّةِ، فأينَ أمُّنا؟ قالَ: «أمُّكُما في النَّارِ»، فقاما وقد شقَّ ذلك عليهما، فدَعا رسولُ اللهِ ﷺ فرَجَعا، فقالَ: «ألا إنَّ أُمِّي معَ أُمِّكُما في النَّارِ»[1].

وأخرجَ ابنُ سَعْدٍ عن الكَلبيِّ وأبي بكرِ بنِ قَيْسٍ الجعفِيِّ نحوَه[2].

وفي «المعالِمِ»: قالَ أبو هُريرَةَ وبُرَيدَةُ رَضِي الله عَنهما: لمّا قَدِمَ النَّبيُّ ﷺ أتى إلى قبرِ أمِّه آمنةَ فوقَفَ عليه حتَّى حَمِيَت الشَّمسُ رجاءَ أن يُؤذَنَ له فيستغفِرَ لها، فنزلَت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣][3].

ثمَّ ذكرَ إسنادَه المُتَّصِلَ إلى مُسلِمِ بنِ الحجَّاجِ عن أبي هُريرَةَ رَضِي الله عَنه قالَ: زارَ النَّبيُّ ﷺ قبرَ أُمِّه فبَكَى وأبكَى مَن حولَه، فقالَ: «استأذَنْتُ ربِّي في أَنْ أستغفرَ لها فلم يأذَنْ لي، واستأذَنْتُه في أن أزورَ قبرَها فأذِنَ لي، فزُورُوا القُبورَ؛ فإنَّها تُذَكِّرُ الموتَ»[4].

***

* **وأمَّا الإجماعُ**: فقد اتَّفقَ السَّلَفُ والخَلَفُ من الصَّحابةِ والتَّابعين، والأئمَّةُ الأربعةُ وسائرُ المُجتهدين على ذلك، من غيرِ إظهارِ خلافٍ لِما هنالك، والخلافُ من اللَّاحِقِ لا يقدحُ في الإجماعِ السَّابقِ، سواءٌ يكونُ من جنسِ المُخالِفِ، أو صنفِ المُوافِقِ.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ١٠٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٩٦). ينظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧١٤)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ١١٣).

(٢) «الطبقات الكبرى» (١/ ١١٦).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» للبغوي (٢/ ٣٣١).

(٤) «صحيح مسلم» (٩٧٦). وانظر: «معالم التنزيل» للبغوي (٢/ ٣٣١).

والعَجَبُ من الشَّيخِ جلالِ الدِّينِ السُّيوطيِّ مع إحاطتِه بهذه الآثارِ التي كادَت أن تكونَ مُتواترةً في الأخبارِ؛ أنَّه عدَلَ عن مُتابعةِ هذه الحُجَّةِ، وموافقةِ سائرِ الأئمَّةِ، وتبعَ جماعةً من العلماءِ المُتأخِّرين، وأوردَ أدلَّةً واهيةً في نظرِ الفُضَلاءِ المُعتبَرين.

منها: أنَّ اللهَ سبحانَه أحيى له أبوَيه حتَّى آمَنا به، مُستدِلاً بما أخرجَه ابنُ شاهينَ في «النَّاسخِ والمنسوخِ»، والخطيبُ البغداديُّ في «السَّابقِ واللَّاحقِ»، والدَّارَقُطنِيُّ، وابنُ عساكِرَ كلاهما في «غرائبِ مالكٍ» بسندٍ ضعيفٍ عن عائشةَ رَضِي الله عَنها قالَ: حَجَّ بنا رسولُ الله ﷺ حَجَّةَ الوداعِ، فمرَّ بي على عَقَبةِ الحُجونِ وهو باكٍ حزينٌ مُغتَمٌّ فنزلَ فمَكَثَ عنِّي طويلاً، ثمَّ عادَ إليَّ وهو فَرِحٌ مُتبسِّمٌ، فقلتُ له، فقالَ: «ذهبتُ لقَبْرِ أُمِّي، فسألْتُ اللهَ أن يُحيِيَها فآمنَتْ بي، ورَدَّها اللهُ عزَّ وجلَّ»[1].

وهذا الحديثُ ضعيفٌ باتِّفاقِ المُحدِّثين كما اعترفَ به السُّيوطِيُّ[2]، وقالَ ابنُ كثيرٍ: إنَّه مُنكَرٌ جدّاً[3]، ورُواتُه مجهولون، فقَولُ الشَّيخِ ابنِ حَجَرٍ المَكِّيِّ في «شرحِ الهمزيَّةِ»[4]: هو حديثٌ صحيحٌ صحَّحَه غيرُ واحدٍ من الحُفَّاظِ؛ مردودٌ عليه، بل كَذِبٌ صريحٌ، وعَيبٌ قبيحٌ، مُسقِطٌ للعدالةِ، ومُوهِنٌ للرِّوايةِ؛ لأنَّ السُّيوطيَّ معَ جلالتِه، وكمالِ إحاطتِه، ومُبالغتِه في رسائلَ مُتعدِّدةٍ من تصنيفاتِه، ذكرَ الاتِّفاقَ على ضَعفِ هذا الحديثِ، فلو كانَ له طريقٌ واحدٌ صحيحٌ لذَكَرَه في مَعرِضِ التَّرجيحِ.

ومن المعلومِ أنَّ بعدَه لم يُحدِّثْ غيرُ واحدٍ من المُحدِّثين الذين يصِحُّ كونُهم من المُصحِّحين، ومَن ادَّعى فعليه البيانُ في معرِضِ الميدانِ.

---

(١) الحديث رواه ابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ» (٤٨٩). وقد أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٠٩)، والسيوطي في «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٢٤٥) إلا أنه صوب الحكم عليه بالضعف لا الوضع.

(٢) كما في: «نشر العلمين المنيفين» (٢٠٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧١٥).

(٤) «المنح المكية بشرح الهمزية» (١٠١).

هـذا وقـد قـالَ الحافظُ ابـنُ دِحْيَـةَ[1] كمـا نقلَه العِمـادُ ابـنُ كثيرٍ عنـه: إنَّ هذا الحديـثَ موضـوعٌ يـرُدُّه القـرآنُ والإجمـاعُ، قـالَ اللهُ تعالـى ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النسـاء: ١٨][2]، انتهـى.

والمعنـى: أنَّـه ثبـتَ كُفْرُهمـا بما سـبقَ من دَلالـةِ الآيـةِ السَّـابقةِ المُنضَمَّةِ إلى روايـةِ السُّـنَّةِ المُتقوِّيـةِ بإجمـاعِ الأمَّـةِ مـعَ قولِـه تعالـى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النسـاء: ١٨]؛ أي: ليسـتِ التَّوبةُ صحيحةً ممَّن ماتَ وهو كافرٌ؛ لأنَّ المُعتبَرَ هـو الإيمـانُ الغَيبِيُّ؛ لقولِـه تعالـى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر: ٨٤].

والحاصِلُ: أنَّه لم يثبُتْ إحياؤُهما وإيمانُهما، والدَّليلُ على انتفائِهما عدَمُ اشتهارِهما عندَ الصَّحابةِ، لا سيَّما والواقعةُ في حَجَّةِ الوداعِ، والخَلْقُ الكثيرُ في خدمتِه بلا نزاعٍ، معَ مُنافاتِه للقواعدِ الشَّرعيَّةِ من عَدَمِ قَبولِ الإيمان بعد مُشاهدةِ الأحوالِ الغَيبيَّةِ بالإجماعِ، ثمَّ دَعوى الخُصوصيَّةِ يحتاجُ إلى إثباتِ الأدلَّةِ القويَّةِ، فمَن ادَّعى هذا العُنوانَ فعليه البيانُ.

وأمَّـا الاسـتِدلالُ بالقُدرةِ الإلهيَّـةِ وقابليَّـةِ الخُصوصيَّةِ للحَضـرةِ النَّبويَّةِ، فأمرٌ لا يُنكِـرُه أحـدٌ من أهلِ المِلَّـةِ الحنيفيَّـةِ، وإنَّما الكلامُ فـي إثباتِ هذا المـرامِ بالأدلَّةِ علـى وجهِ النِّظـامِ، لا بالاحتمالِ الذي لا يصلُحُ للاسـتدلالِ خُصوصـاً في مُعارضةِ نصوصِ الأقوالِ.

---

(١) أبـو الخطـاب عمر بن الحسـين الكلبي السـبتي، الحافظ الرحـال، جال البلاد في طلـب الحديث، ولـه سـماعات عاليـة، وحـدث كثيـراً، وأدب أولاد الملـك الكامل، وتوطـن مصر ومـات بها وقد ناهز التسـعين (ت ٦٣٣)، «بغية الوعـاة» (٢/ ٢١٨).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧١٥).

وأمَّا قولُ القُرطبيِّ: فليس إحياؤُهما يمتنِعُ عَقلاً ولا شَرعاً[١]؛ فلا شُبهةَ في إمكانِه أصلاً ولا فرعاً، وإنَّما الكلامُ في ثُبوتِه أوَّلاً ونفيِه ثانياً.

وبهذا يندفعُ ما أوردَه السُّهَيلِيُّ في «الرَّوضِ الأُنُفِ»[٢] بسنَدٍ فيه جماعةٌ مجهولون: إنَّ اللهَ أحيى له أباه وأُمَّه فآمنَا به.

ثمَّ قالَ بعدَ إيرادِه: اللهُ قادِرٌ على كلِّ شيءٍ، وليس تَعجَزُ رحمتُه وقُدرتُه عن شيءٍ، ونبيُّه ﷺ أهلٌ أن يُختَصَّ بما شاءَ من فضلِه وينعَمُ بما شاءَ من كرامتِه.

قلتُ: ولو صَحَّ هذا الإحياءُ، لأظهَرَه ﷺ على الأعداءِ، فَضْلاً عن الأحبَّاءِ من أكابرِ أصحابِه، ولم يكتَفِ بذكرِه لعائشةَ من بينِ أحبابِه، على أنَّ روايةَ عائشةَ رَضِي الله عَنها لو صحَّت لانتَشَرَ عنها إلى التَّابعين وغيرِهم وشاعَت؛ فإنَّه لو صحَّ إحياءُ أبوَيه وإيمانُهما لكانَ من أظهرِ مُعجزاتِه، وأكبرِ كراماتِه ﷺ، فتبيَّنَ أنَّ هذا من موضوعاتِ الرَّافضةِ، وإنَّما نَسبوا الحديثَ إلى عائشةَ تبعيداً عن الظَّنِّ بوَضعِهم، وتأكيداً للقَضيَّةِ في ثقةِ إثباتِهم.

وأغْرَبَ القُرطُبيُّ حيثُ قالَ: لا تعارُضَ بينَ حديثِ الإحياءِ وحديثِ النَّهيِ عن الاستغفارِ لهما، بدليلِ حديثِ عائشةَ رَضِي الله عَنها: أنَّ ذلك كانَ في حَجَّةِ الوَداعِ، ولذلك جعَلَه ابنُ شاهينَ ناسخاً لما ذُكِرَ من الأخبارِ[٣]، انتهى.

ولا يخفى وَجهُ الغَرابةِ؛ فإنَّ الحديثَ إذا كانَ ضعيفاً باتِّفاقِ المُحدِّثين، وموضوعاً عندَ المُحقِّقين، ومُخالفاً للكتابِ عندَ المُفسِّرين، كيفَ يصلُحُ أن يكونَ مُعارِضاً لحديثِ مسلمٍ في «الصَّحيحِ»، ومُناقِضاً لما سبقَ ممَّا كادَ أن يكونَ مُتواتِراً

---

(١) «التذكرة» للقرطبي (١/ ١٤١).

(٢) «الروض الأنف» (١/ ١٩٤).

(٣) «التذكرة للقرطبي» (١/ ١٣٨).

في التَّصريحِ؟ أو كيفَ يُمكِنُ أن يكونَ ناسخاً؟ والنَّسخُ لا يجوزُ في الأخبارِ عندَ علماءِ الأعلامِ، وإنَّما هو من مُختصَّاتِ الإنشاءِ والأحكامِ، وإلا فيَلزَمُ الخُلْفُ في أخبارِه ويتَوَجَّه البَداءُ[1] في آثارِه، وهو مُتعالٍ عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

ومنها قولُ السُّيوطِيِّ: إنَّهما ماتا قبلَ البَعثَةِ، وإنَّهما كانا من أصحابِ الفَترةِ[2].

وهذا كما لا يخفى مُعارَضَةٌ لِما ثبَتَ في الكتابِ والسُّنَّةِ، ومُناقضَةٌ لِما صُرِّحَ بإشراكِهما فيما سبقَ من صاحبِ النُّبوَّةِ.

فما ذكرَه من تطويلِ البَحثِ وتكثيرِ الأدلَّةِ غيرُ مُفيدٍ له في هذه القضيَّةِ معَ ظُهورِ التَّناقُضِ في كلامِه لتحصيلِ مَرامِه، فإنَّهما لو كانا من أهلِ الفَترَةِ لَما احتاجا إلى الإحياءِ والإيمانِ بالنُّبوَّةِ بناءً على أنَّهما من أهلِ النَّجاةِ في الفِطرةِ.

ثمَّ هذه المسألةُ فيها خلافُ المُعتزلةِ، وأكثرِ أكابرِ أهلِ السُّنَّةِ، حتَّى قالَ بعضُ المُحقِّقين: لا يُوجَدُ صاحبُ الفترةِ إلا من ولدٍ في مفازةٍ خاليةٍ عن سماعِ بَعثةِ صاحبِ النُّبوَّةِ بالكُلِّيَّةِ، على خلافٍ في أنَّه هل هو مُكلَّفٌ بالعقلِ توحيدَ الرَّبِّ وشُكرَ نِعمتِه ووُجوبَ النَّظرِ في صَنعتِه أم لا[3]؟

(١) البداء ظهور بعد خفاء، وهو بهذا المعنى محال على الله تعالى، لأن منشأه الجهل بعواقب الأمور، ولا يبدو له تعالى شيء كان عنه غائباً. «الكليات» للإمام الكفوي (٢٠١).

(٢) ينظر: «السبل الجلية في الآباء العلية»، ضمن «الرسائل التسع» للسيوطي (٢٢٥).

(٣) قال السيوطي: وحكم من لم تبلغه الدعوة أنه يموت ناجياً ولا يعذب ويدخل الجنة، هذا مذهبنا لا خلاف بين أئمتنا الشافعية في الفقه، والأشاعرة في الأصول، وقد نص على ذلك إمامنا الشافعي رضي الله عنه في «الأم» و«المختصر».. ثم قال السيوطي: وهذه مسألة فقهية مقررة في كتب الفقه، وهي فرع من فروع قاعدة أصولية متفق عليها عند أئمتنا الأشاعرة، وهي قاعدة: شكر المنعم وأنه واجب بالسمع لا بالعقل، وهذه القاعدة مرجعها إلى قاعدة كلامية؛ وهي قاعدة التحسين والتقبيح العقليين، وإنكارهما متفق عليه من الأشاعرة كما هو معروف في كتب الكلام والأصول. «السبل المرضية في الآباء العلية» (٢٢٦).

وممَّا يتفرَّعُ عليه ما ذكرَه البَغَوِيُّ في «التَّهذيبِ»: أمَّا مَن لم تبلُغْه الدَّعوةُ فلا يجوزُ قتلُه قبلَ أن يُدعى إلى الإسلامِ، فإن قُتِلَ قبلَ أن يُدعى إلى الإسلامِ وَجَبَ في قتلِه الدِّيةُ والكفَّارةُ، وعندَ أبي حنيفةَ رَضِي الله عَنه لا يجبُ الضَّمانُ بقَتلِه.

وقالَ الغزاليُّ في «البسيطِ»: مَن لم تبلُغْه الدَّعوةُ يُضمَنُ بالدِّيةِ والكفَّارةِ لا بالقِصاصِ على الصَّحيحِ؛ لأنَّه ليسَ مُسلِماً على التَّحقيقِ، وإنَّما هو في معنى المُسلِمِ.

قالَ ابنُ الرِّفعَةِ في «الكِفايةِ»: لأنَّه مولودٌ على الفِطرةِ، ولم يظهَرْ منه عِنادٌ. انتهى[1].

ولا يخفى ما فيه من الدَّلالةِ على أنَّ أهلَ الفَترةِ هو الذي يكونُ على أصلِ الفِطرةِ من التَّوحيدِ، ولم يظهَرْ منه من الكُفرِ ما يُنافي التَّفريدِ، كما يدُلُّ عليه قولُه سبحانَه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وكما ورَدَ في حديثِ: «كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطرةِ، فأبَواهُ يُهوِّدانِه ويُنصِّرانِه ويُمَجِّسانِه»[2]. الحديث.

وفيه دليلٌ على أنَّ كلَّ مولودٍ في حالِ عَقلِه وكمالِ حالِه إذا خُلِّيَ هو وطَبعُه اختارَ التَّوحيدَ للهِ في الذَّاتِ، والتَّفريدَ له في الصِّفاتِ، كما يدُلُّ عليه قضيَّةُ الميثاقِ الذي وقعَ عليه الاتِّفاقُ، على ما هو مُقَرَّرٌ في محلِّه الأليَقِ به.

ولهذا قالَ الإمامُ فَخْرُ الدِّينِ: مَن ماتَ مُشرِكاً فهو في النَّارِ، وإن ماتَ قبلَ البَعثةِ؛ لأنَّ المُشركينَ كانوا قد غَيَّروا الحنيفيَّةَ دينَ إبراهيمَ، واستَبدَلوا بها الشِّركَ وارتكبوه، وليسَ معَهم حُجَّةٌ، ولم يزَلْ معلوماً من دينِ الرُّسُلِ كلِّهم من أوَّلِهم إلى

---

(١) هذه النقول عن البغوي والغزالي وابن الرفعة نقلها الملا القاري من رسالة السيوطي: هل أبوا رسول الله ﷺ ناجيان؟ ضمن «الحاوي للفتاوي» (٢/ ٢٠٦).

(٢) رواه البخاري (١٣١٩)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

آخرِهم قُبْحُ الشِّركِ والوَعيدُ عليه في النَّارِ، وأخبارُ عُقوباتِ اللهِ لأهلِه مُتداوَلةٌ بينَ الأُمَمِ قَرْناً بعدَ قَرْنٍ، فللَّهِ الحُجَّةُ البالغةُ على المُشركين في كلِّ وقتٍ وحينٍ.

ولـو لم يكُـنْ إلا ما فطرَ اللهُ عليه عبادَه من توحيـدِ رُبوبيَّتِه، وأنَّه يستحيلُ في كل فِطـرةٍ وعَقـلٍ أن يكـونَ معَـه إلهٌ آخَـرُ، وإن كانَ سـبحانَه لا يُعـذِّبُ بمُقتَضَى هذه الفِطـرةِ وحدَهـا، فلـم تزَلْ دعوةُ الرُّسـلِ إلـى التَّوحيدِ فـي الأرضِ معلومـةً لأهلِها، فالمُشـرِكُ مُسـتَحِقٌّ للعـذابِ فـي النَّـارِ لمُخالفَتِـه دَعـوى الرُّسـلِ، وهو مُخَلَّـدٌ فيها دائمـاً كخُلـودِ أهلِ الجنَّـةِ في الجنَّـةِ، انتهى.

ولا يخفى أنَّ ما وَرَدَ عنه ﷺ في حقِّ بعضِ أربابِ الفترةِ من التَّعذيبِ يدُلُّ دَلالةً صريحةً للرَّدِّ على ما عليه بعضُ الشَّافعيَّةِ[1] من أنَّ أهلَ الفترةِ لا يُعذَّبون مُطلَقاً.

قـال: وأصلُـه أنَّـه عندَهـم محجـوجٌ عليـه بعقلِـه، وعندَنا هـو غيـرُ محجوجٍ عليـه قبـلَ بُلـوغِ الدَّعـوةِ إليه.

ومنها قولُ السُّيوطِيِّ: إنَّه وَرَدَ في أهلِ الفترةِ أحاديثُ أنَّهم يُمتَحَنون يومَ القيامةِ بأن تُرفَعَ لهم نارٌ فيُقالُ لهم: اُدخُلوها، فيدخُلُها مَن كانَ في علمِ اللهِ سعيداً لو أدرَكَ العَمَلَ، ويمتنِعُ من دُخولِها مَن كانَ في علمِ الله شقِياً لو أدرَكَ العمَلَ، فيقولُ تبارَكَ وتعالى: إيَّايَ عصَيتُم، فكيفَ برُسُلي بالغيبِ؟[2].

ولا يخفى أنَّ هذا على تقديرِ صِحَّتِه وقُوَّتِه لِمُعارضةِ مُخالفتِه إنَّما يكونُ فيمَن ماتَ من أهلِ الفَترةِ ولم يُعلَمْ حالُه من إحداثِ الشِّركِ أو التَّوحيدِ على الفِطرةِ.

وأمَّا مَن ثبتَ كُفرُه بالكتابِ والسُّنَّةِ واتِّفاقِ الأئمَّةِ؛ فلا وجهَ لإدخالِه في أصحابِ

(١) هو مذهب جمهور الشافعية، والمنقول عن نص الإمام كما مر آنفاً.

(٢) ينظر: «مسالك الحنفا» ضمن «الرسائل التسع» (١٥) وما بعد.

الامتحانِ للطَّاعةِ، كوَرَقَةَ بنِ نَوْفَلٍ، وقُسِّ بنِ ساعِدَةَ، وغيرِهما ممَّن ثبَتَ توحيدُهما، ولا نحوَ صاحِبِ المِحْجَنِ[١] وغيرِه ممَّن ثبَتَ شِركُهما.

وأَغْرَبُ من هذا أنَّه استدَلَّ بقولِ الحافظِ ابنِ حَجَرِ العَسْقَلانيِّ في بعضِ كُتُبِه: الظَّنُّ بآلِه ﷺ ـ يعني الذين ماتُوا قبلَ البَعثَةِ ـ أنَّهم يُطيعون عندَ الامتحانِ إكراماً له ﷺ لتَقَرَّ بهم عينُه[٢]، انتهى.

ووَجْهُ الغَرابةِ: أنَّ هذه القضيَّةَ بالطَّريقةِ الظَّنِّيةِ في أهلِ الفترَةِ الحقيقيَّةِ المُبهَميَّةِ لا تُفيدُ في المسألةِ العَينيَّةِ.

وكذا من العجيبِ ما نُسِبَ إلى العَسْقَلانيِّ في قولِه: ونحنُ نرجو أن يدخُلَ عبدُ المُطَّلِبِ وآلُ بيتِه في جُملةِ مَن يدخلُها طائعاً فيَنجُو، إلا أبا طالبٍ فإنَّه أدركَ البَعثَةَ ولم يُؤمِنْ، وثبتَ في «الصَّحيحِ» أنَّه في ضَحْضاحٍ من نارٍ[٣]، انتهى.

ولا يخفى أنَّ إدخالَ عبدِ المُطَّلبِ في القِصَّةِ خارجٌ عن الصِّحَّةِ؛ لما ورَدَ في «صحيحِ البُخاريِّ ومُسلمٍ»[٤] وغيرِهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دخلَ على أبي طالبٍ عندَ موتِه وعندَه أبو جَهْلٍ وابنُ أُبَيٍّ وأُميَّةُ قائلينَ: أترغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلبِ؟ فقالَ: أنا على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلبِ، وأبى أن يقولَ: لا إلهَ إلا اللهُ، فنزَلَ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، فهذا يقتَضي أنَّ عبدَ المُطَّلبِ ماتَ على الشِّركِ بلا شكٍّ.

---

(١) رجل من أهل الجاهلية كان يسرق متاع الحاج بمحجنه، فإن رآه أحد قال: إنما تعلق بمحجني، وقد شهد رسول الله ﷺ بأنه رآه متكئا على محجنه في النار. ينظر: «صحيح ابن خزيمة» (١/ ١٥٦ ـ ١٥٧).

(٢) «الدرج المنيفة في الآباء الشريفة»، ضمن «الرسائل التسع» للسيوطي (٩١).

(٣) رواه البخاري (٣٦٧٠) ومسلم (٣٥٧) عن العباس رضي الله عنه.

(٤) «صحيح البخاري» (٩٩) ومسلم (٣٩) عن سعيد بن المسيب، عن أبيه.

وفي الأصلِ المُهذَّبِ أنَّ المجَرَّبَ لا يُجرَّبُ.

وممَّا يُقوِّيه ويُؤكِّدُه ما في «مُسنَدِ البزَّارِ» و «كتابِ النَّسائيِّ» من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رَضِي الله عَنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لفاطِمَةَ رَضِي الله عَنها وقد عَزَّت قوماً من الأنصارِ عن ميِّتِهم: «لعلَّكِ بلَغْتِ مَعَهم الكُدَى»[1]، فقالَ: «لو كُنتِ بلَغْتِ معَهم الكُدَى ما رأيتِ الجنَّةَ حتَّى يراها جدُّ أبيكِ»[2].

وقد أخرجَه أبو داودُ أيضاً، إلا أنَّه لم يذكُرْ فيه: «حتَّى يراها جَدُّ أبيكِ».

وفي هذا تهديدٌ شديدٌ ووَعيدٌ أكيدٌ على مُرتكِبِ المعصيةِ ولو كانَ صاحِبُها من أعلى أهلِ بيتِ النُّبوَّةِ.

وأمَّا ما وَرَدَ من قولِه: «أنا النَّبيُّ لا كَذِبَ... أنا ابنُ عبدِ المُطَّلبِ»[3]، فمَحمولٌ على أنَّه ليسَ من بابِ الافتِخارِ في الانتِسابِ بالآباءِ الكُفَّارِ، بل لإظهارِ الجَلادةِ والشَّجاعةِ والاشتهارِ، كما بيَّنتُه في «شرحِ الشَّمائلِ» للتِّرمذِيِّ.

وأمَّا ما حكاه ابنُ سيِّدِ النَّاسِ: إنَّ اللهَ أحياه بعدَ بَعثَةِ النَّبيِّ ﷺ حتَّى آمَنَ به وأسلَمَ ثمَّ ماتَ[4]، فهو مَردودٌ؛ لأنَّه لا دليلَ عليه من حديثٍ ضعيفٍ ولا غيرِه، وإنَّما حكَوْهُ عن بعضِ الشِّيعةِ، وخِلافُهم غيرُ مُعتبَرٍ عندَ أهلِ السُّنَّةِ.

---

(١) قال ابن الأثير: أراد المقابر؛ وذلك لأنها كانت مقابرهم في مواضع صلبة، وهي جمع كدية. «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ١٥٦).

(٢) «سنن النسائي» رقم (١٨٨٠)، وعقب عليه: ربيعة ـ أي: المعافري أحد رواته ـ ضعيف، وأخرجه به أبو داود (٣١٢٣)، وهو في «مسند أحمد» (٦٥٧٤)، و ابن حبان (٣١٧٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧١٩) عن البراء رضي الله عنه.

(٤) «عيون الأثر» (١/ ٢٢٨)، وقد صرح ابن سيد الناس بذلك فقال بعد إيراده خبر إيمان عبد المطلب ووالدي النبي ﷺ بصيغة التضعيف: وهي روايات لا معول عليها.

وكـذا قـولُ القُرطبيِّ علـى ما ذكرَه ابـنُ العِمادِ ابـنُ كثيرٍ عنه في «تفسـيرِه»[(١)]: إنَّ اللهَ أحيـا أبـا طالـبٍ حتَّى آمَنَ؛ باطِـلٌ موضوعٌ بإجمـاعِ أهلِ الحديـثِ، ومُخالِفٌ لمذهَـبِ الحـقِّ، على أنَّه سـبقَ أنَّه لا ينفَـعُ الإيمانُ بعـدَ العيانِ، بل أقـولُ: لا يُتَصَوَّرُ هـذا البيـانُ؛ إذ قالَ اللهُ تعالـى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ولا خُلْـفَ في إخبارِه سُـبحانَه.

ومنهـا قـولُ السُّـيوطِيِّ: إنَّ ابـنَ جريـرٍ ذكـرَ فـي «تفسـيرِه» عـن ابـنِ عبَّـاسٍ رَضِـي الله عَنهمـا فـي قولِـه تعالـى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]، قـالَ: مِـن رِضَـى محمَّـدٍ ﷺ أن لا يدخُـلَ أحـدٌ مـن أهـلِ بيتِـه النَّـارَ[(٢)].

وفيه أنَّ هذا قولُ صحابيٍّ من قِبَلِ رأيِه، وعلى تسليمِ صِحَّتِه ودَلالتِه فأهلُ بيتِه لا يتناوَلُ أقارِبَه المُتقدِّمين من الكُفَّارِ بالإجماعِ، نعم يُفيدُ أنَّ مَن كانَ نَسَبُه ثابتاً إلى صاحبِ النُّبوَّةِ يُرجى له حُسنُ الخاتمةِ وحُصولُ الشَّفاعةِ، أو توفيقُ التَّوبةِ عن المعصيةِ إذا كانَ من أهلِ المِلَّةِ؛ لِـما أخرَجَه أبو سعيدٍ في «شَرَفِ النُّبوَّةِ»، والمُلَّا في «السِّيرةِ» عن عِمْرانَ بنِ حُصَينٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «سألتُ ربِّي أن لا يُدخِلَ النَّارَ أحَداً من أهلِ بيتي فأعطاني ذلك».

على أنَّه يُمكِنُ أن يُقالَ: المُرادُ بالنَّفيِ دُخولُ الآباءِ، فيكونُ بشارةً إلى مَوْتِ أهلِ البيتِ على الإسلامِ، ودُخولِهم دارَ السَّلامِ، ولو كانَ بعدَ مُضِيِّ الأيَّامِ[(٣)].

وأمَّـا مـا أخـرجَ تمَّـامٌ الـرَّازِيُّ فـي «فوائـدِه» بسـنَدٍ ضعيـفٍ عـن ابـنِ عُمَـرَ رَضِـي الله عَنهمـا قـال: قـالَ رسـولُ اللهِ ﷺ: «إذا كانَ يـومُ القيامـةِ شَـفَعْتُ لأبـي

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧١٥)، وهو في «التذكرة للقرطبي» (١/ ١٣٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٨) ط ـ دار هجر، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٠١)، وقال: رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن السدي، وقال الحسن: يعني بذلك الشفاعة، وهكذا قال أبو جعفر الباقر.

(٣) «مسالك الحنفا» (٢٤).

وأُمِّي وعَمِّي أبي طالبٍ وأخٍ لي كانَ في الجاهليَّةِ»[١]؛ أي: بالرَّضاعةِ، كما في روايةٍ، فهو حُجَّةٌ لنا لا علينا، لإدراجِه أبوَيه معَ عمِّه أبي طالبٍ المُجمَعِ على كُفرِه، فالحديثُ إن ثَبَتَ فهو محمولٌ على ما وَرَدَ في الصَّحيحِ من تخفيفِ العذابِ عنهم بشفاعتِه ﷺ، واللهُ سُبحانَه أعلَمُ.

ثمَّ أغْرَبَ السُّيوطِيُّ في قولِه: وممَّا يُرَشِّحُ ما نحنُ فيه ما أخرجَه ابنُ أبي الدُّنيا عن أبي هُرَيرةَ رَضِي الله عَنه مرفوعاً قالَ: «سألتُ ربِّي أبناءَ العشرينَ من أُمَّتي فوَهَبَهم لي»[٢].

ثمَّ قالَ: وممَّا ينضَمُّ إلى ذلك وإن لم يكُنْ صريحاً في الحقِّ ما أخرجَه الدَّيلَمِيُّ عن ابنِ عُمَرَ رَضِي الله عَنهما مرفوعاً: «أوَّلُ مَن أشفَعُ له يومَ القيامةِ أهلُ بيتي، ثمَّ الأقرَبُ فالأقرَبُ»[٣]، الحديث.

فذِكْرُ هذا وأمثالِه ممَّا لا يُناسِبُ حالَه؛ إذ الكلامُ ليس في أهلِ بيتِه من أهلِ الإسلامِ، ولذا قالَ النَّوويُّ في «شرحِ مُسلمٍ» عندَ حديثِ «إنَّ أبي وأباك في النَّارِ»: فيه أنَّ مَن ماتَ كافِراً في النَّارِ لا تنفَعُه قَرابةُ الأقرَبين[٤]، وتعقَّبَه السُّهَيليُّ بما ظاهرُه من البُطلانِ البَديهيِّ، وهو قولُه: ليسَ لنا أن نقولَ ذلك، فقد قالَ ﷺ: «لا تُؤْذُوا الأحياءَ بسَبِّ الأمواتِ»[٥]، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧]،

---

(١) رواه تمام في «فوائده» (٢/ ٤٥). وانظر: «مسالك الحنفا» (٢٤).

(٢) «جامع الأحاديث» للسيوطي (٤/ ٢٦٠) رقم الحديث (١٢٧٩٦).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٥٥٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٨٠): وفيه من لم أعرفهم.

(٤) «شرح مسلم» (١/ ٤٣٩).

(٥) رواه الترمذي عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه رقم (١٩٨٢) بلفظ: «لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء».

ولعلَّه يصِحُّ ما جاءَ أنَّه ﷺ سألَ اللهَ سُبحانَه فأحيى له أبوَيهِ، ورسولُ اللهِ ﷺ فوقَ هذا، ولا يُعجِزُ اللهَ سُبحانَه شيءٌ(١).

ثمَّ أَوْرَدَ قولَ النَّوَوِيِّ: إنَّ مَن ماتَ على الفَترةِ على ما كانت عليه العَرَبُ من عبادةِ الأوثانِ فهو في النَّارِ، وليسَ هذا من التَّعذيبِ قبلَ بُلوغِ الدَّعوةِ؛ لأنَّه بلَغَتهم دعوةُ إبراهيمَ وغيرِه من الرُّسُلِ(٢)، انتهى.

وهو في غايةٍ من البَهاءِ كشَمسِ الضُّحى وبَدْرِ الدُّجَى، لكِنْ معَ هذا تعقَّبَه بما هو كالهباءِ في الهواءِ من المُناقَشةِ في العبارةِ على توَهُّمِ المُناقضَةِ بينَ كلامَي النَّوَوِيِّ مُعتَرِضاً عليه بقولِه: إنَّ مَن بلَغَته الدَّعوةُ لا يكونُ من أهلِ الفَترَةِ، ودَفعُه سَهْلٌ؛ فإنَّ مُرادَ النَّوَوِيِّ من أهلِ الفَترَةِ: مَن كانَ قبلَ بَعثَةِ نبيِّنا ﷺ المُعَبَّرِ عنهم بالجاهليَّةِ.

ومنها قولُ السُّيوطِيِّ: إنَّهما لم يثبُتْ شِرْكٌ عنهما، بل كانا على الحنيفيَّةِ دينِ جَدِّهما إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٣).

قلتُ: وهذا يُعارِضُه ما صَحَّ في «صحيحِ مُسلِمٍ» عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كما سبَقَ عليه الكلامُ.

قالَ: وهذا المَسْلَكُ ذهبَتْ إليه طائفةٌ، منهم الإمامُ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ، فقالَ في كتابِه «أسرارِ التَّنزيلِ» ما نصُّه: قيلَ: إنَّ آزَرَ لم يكُنْ والِدَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ بل كانَ عمَّه، واحتَجُّوا عليه بوُجوهٍ:

منها: أنَّ آباءَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ ما كانوا كُفَّاراً، ويدلُّ عليه وجوهٌ: منها قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨]، قيلَ: معناه أنَّه

(١) ينظر: «مسالك الحنفا» (٢٦).

(٢) «شرح مسلم» (١/ ٤٣٩).

(٣) «مسالك الحنفا» (٢٨).

كانَ يُنقَلُ نورُه من ساجِدٍ إلى ساجِدٍ[١]، وبهذا التَّقديرِ فالآيةُ دالَّةٌ على أنَّ جميعَ آباءِ محمَّدٍ ﷺ كانوا مسلمين، وحينئذٍ يجبُ القَطعُ بأنَّ والدَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ما كانَ من الكافرين، إنَّما ذاك عمُّه، أقصى ما في البابِ أن يُحمَلَ قولُه تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨] على وُجوهٍ أُخرى.

وإذا ورَدَتِ الرِّوايةُ بالكُلِّ، ولا مُنافاةَ بينَها؛ وَجَبَ حَملُ الآيةِ على الكُلِّ، ومتى صَحَّ ذلك ثَبَتَ أنَّ والِدَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ما كانَ من عَبَدَةِ الأوثانِ، ثمَّ قالَ: وممَّا يدُلُّ على أنَّ آباءَ محمَّدٍ ﷺ ما كانوا مُشرِكين قولُه ﷺ: «ولم أزَلْ أُنقَلُ من أصلابِ الطَّاهرين إلى أرحامِ الطَّاهراتِ»[٢]، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، فوَجَبَ أن لا يكونَ أحدٌ من أجدادِه مُشرِكاً.

قالَ السُّيوطِيُّ: هذا كلامُ الإمامِ فَخرِ الدِّينِ بحُروفِه، وناهيك به إمامةً وجَلالةً؛ فإنَّه إمامُ أهلِ السُّنَّةِ في زمانِه، والقائمُ بالرَّدِّ على فِرَقِ المُبتَدِعةِ، والنَّاصِرُ لمذاهبِ الأشاعِرَةِ في عَصرِه، وهو العالمُ المَبعوثُ على رأسِ المئةِ السَّادسةِ ليُجدِّدَ لهذه الأمَّةِ أمرَ دينِها[٣]. انتهى.

ولا يَخفى معَ مُعارضةِ كلامِه لما سبَقَ من الكتابِ والسُّنَّةِ، واتِّفاقِ الأئمَّةِ، وما هو صريحٌ في «صحيحِ مُسلمٍ» من كلامِ صاحِبِ النُّبوَّةِ، أنَّه قالَ اللهُ تعالى في كلامِه القديمِ ما يدُلُّ على كُفرِ أبي إبراهيمَ[٤].

---

(١) «السبل المرضية في الآباء العلية» للسيوطي.

(٢) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (١/ ٥٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: لم يلتق أبواي في سفاح، لم يزل الله عز وجل ينقلني من أصلاب طيبة إلى أرحام طاهرة صافياً مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما.

(٣) «مسالك الحنفا» (٢٩).

(٤) روى البخاري (٣٣٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول =

والأصلُ في حَمْلِ الكلامِ على الحقيقةِ، ولا يُعْدَلُ عنه إلى المجازِ إلا حالَ الضَّرورةِ، عندَ دليلٍ صريحٍ ونَقلٍ صحيحٍ يُضطرُّ منه إلى ارتكابِ المجازِ، فبِمُجرَّدِ قولِ إخبارِيٍّ تاريخيٍّ يهودِيٍّ أو نَصرانِيٍّ، كما عبَّرَ عنه بقيلَ: إنَّ آزَرَ لم يكُنْ والِدَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بل كانَ عمَّه، كيفَ يُعدَلُ عن آياتٍ مُصرَّحَة فيها إثباتُ الأُبُوَّةِ[1]؟

منها: قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وهو عَطْفُ بيانٍ أو بدَلٌ، بناءً على أنَّه لقَبٌ له أونعتٌ بلسانِهم ونحوُ ذلك.

ومنها: قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤]، وفي قراءةٍ شاذَّةٍ: (أباه).

ومنها: قولُه تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ مُكرَّراً.

ومنها: قولُه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

وأقولُ زيادةً على ذلك: وهو أنَّه ﷺ كانَ مُبَيِّناً للكتابِ، ومُمَهِّداً الطَّريقَ الصَّوابَ، فلو كانَ المُرادُ بأبي إبراهيمَ عمَّه لبيَّنَه؛ ولو في حديثٍ للأصحابِ ليَحمِلوا الأبَ على عمِّه بطريقِ المجازِ في هذا البابِ، ثمَّ دَعوتُه أنَّ آباءَ الأنبياءِ

= إبراهيم: اللهم أنت وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: انظر إلى ما تحت رجليك، فينظر، فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار. الذيخ: ذكر الضبع كثير الشعر.

(١) وقد رجح الإمام الطبري أنه أبوه، واحتمال أن له اسمين، أو اسماً ولقباً، وقال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله جيد وقوي. «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٣٢٤).

عليهم السَّلامُ لم يكونوا كُفَّاراً تحتاجُ إلى بُرهانٍ واضحٍ ودليلٍ لائحٍ، فاستِدلالُه بقولِه تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨] بناءً على (قيلَ) في غايةٍ من السُّقوطِ، كما يُعلَمُ من قولِ سائرِ المُفسِّرين في الآيةِ.

فقد ذكرَ البَيضاوِيُّ وغيرُه في تفاسيرِهم أنَّ معنى الآيةِ: وتردُّدُكَ في تصفُّحِ أحوالِ المُتهَجِّدين[1]، كما رُوِيَ أنَّه لمَّا نُسِخَ فَرْضُ قيامِ اللَّيلِ طافَ تلك اللَّيلةَ بُيوتَ أصحابِه لينظُرَ ما يصنَعون حِرْصاً على كثرةِ طاعاتِهم، فوجدَها كبُيوتِ الزَّنابيرِ لِما سمِعَ لها من دَنْدَنَتِهم بذكرِ اللهِ تعالى[2].

ونقلَ الإمامُ أبو حيَّان في «البحرِ»[3] عندَ تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّٰجِدِينَ﴾: أنَّ الرَّافِضَةَ هم القائلون: إنَّ آباءَ النَّبيِّ ﷺ كانوا مؤمنين مُستَدِلِّين بقولِه تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّٰجِدِينَ﴾، وبقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «لم أزَلْ أُنقَلُ من أصلابِ الطَّاهرين»، الحديث.

وأمَّا قولُ ابنِ حَجَرٍ المكِّيِّ: فلَكَ ردُّ قولِ أبي حيَّان: بأنَّ مثلَه إنَّما يُرجَعُ إليه في علمِ النَّحوِ وما يتعلَّقُ به[4]؛ فظاهِرُ البُطلانِ للإجماعِ على قَبولِ شهادةِ النَّحويين ورِوايتِهم عن المُحدِّثين إذا لم يكُنْ فيه ضَعفٌ في الدِّين، كيفَ وله ثلاثةٌ من التَّفاسيرِ؟ وله في السِّيَرِ كتابٌ كبيرٌ، معَ أنَّ الشِّيعةِ بأجمَعِهم مُقرُّون بأنَّ هذا قاعدةُ مَذهَبِهم، وله أن يُعارِضَكَ ويقولَ: وأنتَ فقيهٌ صِرْفٌ، لم تعرِفْ إلا رُؤوسَ المسائلِ الفِقهيَّةِ المُتعلِّقةِ بالخُصوماتِ العُرفِيَّةِ.

---

(١) «أنوار التنزيل» (٤/ ١١١)، وفيه: المجتهدين، بدل: المتهجدين.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٦/ ٣٣٧).

(٣) «البحر المحيط» (٧/ ٤٤).

(٤) «المنح المكية» (١٠٣).

وبهـذا يظهَرُ أيضاً بُطـلانُ قولِ ابنِ حَجَـرٍ، وأمَّا مَن أخذَه بظاهـرِه كالبَيضاوِيِّ وغيرِه فقد تساهَلَ واستَرْوَحَ، انتهى.

فكيفَ يصِحُّ قولُ الرَّازِيِّ: إنَّ جميعَ آباءِ محمَّدٍ ﷺ كانوا مُسلمين معَ حديثِ مُسلِمٍ وإجماعِ جُمهورِ المسلمين؟ ثمَّ أغْرَبَ في قولِه: وحينئذٍ يجبُ القَطْعُ بأنَّ والِدَ إبراهيمَ عليه السَّلامَ ما كانَ من الكافرين، انتهى.

ولا يخفى أنَّه لم يثبُتْ به الظَّنُّ فَضلاً عن القَطعِ، بل إنَّما هو في مرتبةِ الشَّكِّ أو الوَهْمِ، ثمَّ الاستِدلالُ على أنَّ آباءَ محمَّدٍ ﷺ ما كانوا مشركين بقولِه ﷺ: «ولم أزَلْ أُنقَلُ من أصلابِ الطَّاهرين إلى أرحامِ الطَّاهراتِ»... إلى آخرِ ما ذكرَه؛ مردودٌ عليه بما أشَرْنا إليه، وبأنَّ المُرادَ بالحديثِ ما وَرَدَ من طُرُقٍ مُتَعدِّدةٍ.

منهـا: مـا أخرجَـه البَيهَقِـيُّ فـي «دَلائـلِ النُّبـوَّةِ» عـن أنـسٍ رَضِـي الله عَنـه: أنَّ النَّبـيَّ ﷺ قـالَ: «مـا افتـرقَ النَّـاسُ فِرقَتَيـن إلا جَعَلَنـي اللهُ تعالـى فـي خيرِهمـا، فأُخرِجْـتُ مـن بيـنِ أبوَيَّ فلم يُصِبني شـيءٌ من عُهْـرِ الجاهليَّةِ، وخرَجـتُ من نكاحٍ ولـم أخـرُجْ من سِـفاحٍ من لَـدُنْ آدمَ عليه السَّـلامُ، حتَّـى انتهَيتُ إلى أبـي وأمي، فأنا خيرُكـم نَفْسـاً ـ أي: رُوحـاً وذاتـاً ـ وخيرُكم أباً»[1] أي: نَسَـباً وحسَـباً.

ومنهـا: مـا أخرجَـه أبـو نُعَيمٍ فـي «دَلائـلِ النُّبـوَّةِ» مـن طُرقٍ عـن ابـنِ عبَّاسٍ رَضِـي الله عَنهمـا مرفوعـاً: «لـم يلتَقِ أبـوايَ قطُّ على سِـفاحٍ، لـم يزَلِ اللهُ عـزَّ وجلَّ ينقُلُنـي من الأصـلابِ الطَّيِّبـةِ والأرحامِ الطَّاهِـرةِ مُصَفًّى مُهَذَّباً لا يتشَـعَّبُ شُـعبتانِ إلا كنـتُ فـي خيرِهما»[2].

---

(١) «دلائـل النبـوة» للبيهقـي (١/ ١٧٠)، وقـال الحافـظ ابـن كثيـر: وهـذا الحديـث غريـب جـدا من حديـث مالـك، تفـرد بـه القدامي وهـو ضعيف، لكن سـنذكر له شـواهد مـن وجوه أخـر. وذكر له شـواهد يتقـوى بها، ينظـر: «البدايـة والنهايـة» (٢/ ٣١٤).

(٢) «دلائل النبوة» (١/ ٥٧) وقد تقدم قريباً.

ومنهـا: مـا أورَدَه البَيهَقِيُّ في «سُـنَنِه»: «ما وَلَدني من سِـفاحِ الجاهليَّةِ شـيءٌ، مـا وَلَدني إلا نِكاحُ الإسـلامِ»[١].

وأمَّا ما ذكرَه ابنُ حَجَرٍ المَكِّيُّ ـ تبعاً للسُّيوطِيِّ ـ من أنَّ الأحاديثَ مُصَرِّحةٌ لفظاً في أكثرِه، ومعنًى في كلِّه: أنَّ آباءَ النَّبيِّ ﷺ ـ غيرَ الأنبياءِ ـ وأمَّهاتِه إلى آدمَ وحوَّاءَ ليس فيهم كافرٌ؛ لأنَّ الكافرَ لا يُقالُ في حقِّه: إنَّه مُختارٌ ولا كريمٌ ولا طاهِرٌ[٢]؛ فمَردودٌ عليه؛ إذ ليسَ في الأحاديثِ لفظٌ صريحٌ مُشيرٌ إليه.

وأمَّـا المعنَـى: فكأنَّه أرادَ بـه لفظَ المُختـارِ والكريم والأطهارِ، وهـو لا دَلالةَ فيـه علـى الإيمـانِ أصـلاً، وإلا فيلـزَمُ منـه أن تكـونَ قبيلـةُ قُريـشٍ كلُّهـم مؤمنيـن؛ لحديـثِ: «إنَّ اللهَ اصطَفَـى بنـي كِنانَـةَ مـن وَلَـدِ إسـماعيلَ، واصطَفَـى قُريشـاً مـن كِنانَـةَ»[٣]، ولـم يقُلْ به أحدٌ من المسـلمين، وكذا حديثُ: «فاختـارَ منهم العربَ»[٤].

ولا يصِـحُّ عُمـومُ إيمانِهـم قَطعـاً، بل لـو اسـتُدِلَّ بمِثلِ هـذا المبنَى لَـزِمَ أن لا يُوجَـدَ كافِـرٌ علـى وجـهِ الأرضِ؛ لقولِه تعالـى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ إلـى أن قالَ: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسـراء: ٧٠]، فتأمَّـلْ؛ فإنَّـه مَوضِـعُ زَلَـلٍ، ومَقـامُ خَطَـلٍ، واحـذَرْ أن لا تكـونَ ضـالاً مُضِلاً فـي الوَحَلِ.

ثمَّ ما أبعدَ قوله في حديثِ مُسلِمٍ: «إنَّ أبي وأباكَ في النَّارِ»: قَصَدَ بذلك تَطييبَ خاطِرِ ذلك الرَّجُلِ خشيةَ أن يرتَدَّ لو قَرَعَ سمعَه أوَّلاً أنَّ أباه في النَّارِ[٥]، انتهى.

وهذا نعوذُ باللهِ وحاشاه ﷺ أن يُخبرَ بغيرِ الواقعِ، ويحكُمَ بكُفْرِ والِدِه لأجلِ

---

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (٧/ ١٩٠).

(٢) «المنح المكية» (١٠٠).

(٣) «دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ١٦٧) بنحوه.

(٤) «دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ١٧٢).

(٥) «المنح المكية» (١٠٣).

تألُّفِ قلبِ واحدٍ يُؤمِنُ به أو لا يُؤمِنُ، فهذه زَلَّةٌ عظيمةٌ، وجُرأَةٌ جَسيمةٌ، حَفِظَنا اللهُ عن مثلِ هذه الجريمةِ.

ومنها: استِدلالُ السُّيوطِيِّ[١] على إيمانِ جميعِ آبائِه ﷺ: بما ذكرَه عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصَنَّفِ» عن مَعْمَرٍ عن ابنِ جُرَيج قالَ: قالَ ابنُ المُسَيِّبِ: قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ: لم يزَلْ على وَجْهِ الأرضِ في الدَّهرِ سبعةٌ مسلمون فصاعداً، ولولا ذلك هَلَكَتِ الأرضُ ومَن عليها.

وهذا إسنادٌ صحيحٌ على شَرْطِ الشَّيخَينِ، ومثلُه لا يُقالُ من قِبَلِ الرَّأيِ، فله حُكْمُ الرَّفعِ[٢].

وأطالَ في ذكرِ أمثالِه من الأخبارِ والآثارِ ممَّا ليسَ له مُناسبةٌ في هذا البابِ، وإنَّما هو تسويدُ الكِتابِ عندَ مَن يُمَيِّزُ بينَ الخطأ والصَّوابِ.

هذا، وما أخرَجَ ابنُ أبي حاتمٍ بسنَدٍ ضَعيفٍ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي اللهُ عَنهما من أنَّ أبا إبراهيمَ لم يكُنِ اسمُه (آزَرَ) وإنَّما كانَ اسمُه (تارِح)[٣]؛ فلا دَلالةَ له فيه على المُدَّعى؛ لأنَّا نقولُ: ولو سُلِّمَ أنَّ اسمَه تارِحُ، ولقَبُه آزَرُ، لا يلزَمُ أنَّ أباه لم يكُنْ مُشرِكاً.

وكذا ما أخرجَ ابنُ أبي شيبةَ وابنُ المُنذرِ وابنُ أبي حاتمٍ من طُرُقٍ بعضُها صحيحٌ عن مُجاهِدٍ قالَ: ليسَ آزَرُ أبا إبراهيمَ، يعني اسمَه، بل لقَبُه[٤]، لِما سَبَقَ جَمعاً بينَ الأدِلَّةِ.

---

(١) «مسالك الحنفا» (٣٤).

(٢) «مسالك الحنفا» (٣٤).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٧٤٩١)، و«مسالك الحنفا» (٣٨).

(٤) قال ابن أبي حاتم (١٣٢٤): عن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني بآزر الصنم، وأبو إبراهيم اسمه يازر.

ويُؤَيِّدُه: ما أخرجَه ابنُ أبي حاتمٍ بسنَدٍ صحيحٍ عن السُّدِّيِّ أنَّه قيلَ له: اسمُ أبي إبراهيمَ آزَرُ؟ فقالَ: بل اسمُه تارِخُ، يعني: ولقَبُه آزَرُ[1].

وكـذا مـا أخرجَه ابـنُ المُنذِرِ بسـنَدٍ صحيحٍ عـن ابنِ جُرَيـجٍ في قولِـه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾، ليـسَ آزَرُ بأبيـه، يعنـي بـل لقَبُـه، إنَّما هـو إبراهيمُ بنُ تَيـرَخَ، أو تـارِخَ بنِ شـارُوخَ بـنِ ناصُورَ بـنِ فايخَ.

هذا ولم يذكُرْ أحَدٌ من هؤلاءِ الأعلامِ أنَّ آزَرَ عمُّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فثبَتَ أنَّ ذلك القيلَ من القَولِ العليلِ.

وقد أخرَجَ ابنُ أبي حاتمٍ بسنَدٍ صحيحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي الله عَنهما قالَ: ما زالَ إبراهيمُ يستغفِرُ لأبيه حتَّى ماتَ، فلمَّا ماتَ تبيَّنَ له أنَّه عدُوٌّ للهِ فلم يستغفِرْ له[2].

وأخرَجَ عن محمَّدِ بنِ كعبٍ وقَتادَةَ ومُجاهِدٍ والحسَنِ وغيرِهم قالوا: كانَ يرجو إيمانَه في حياتِه، فلمَّا ماتَ على شِركِه تبرَّأ منه، وقد قدَّمنا هذا المَبحَثَ مُستَوعباً.

ومنها: اسـتدلالُه بقولِه تعالـى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨]، حيـثُ قـالَ: أخـرَجَ عبدُ بـنُ حُمَيـدٍ في «تفسيرِه» بسـنَدِه عن ابـنِ عبَّـاسٍ رَضِي الله عَنهمـا أنَّـه قـالَ: لا إلـهَ إلا اللهُ باقيةٌ فـي عَقِـبِ إبراهيمَ عليه السَّـلامُ[3].

أقولُ: أي: في ذُرِّيَّتِه، ولا يلزَمُ منه عمومُهم، ويكفي وجودُه في بعضٍ منهم؛ إذ الإجماعُ مُنعَقِدٌ أنَّ جميعَ ذرِّيَّةِ إبراهيمَ من أولادِ إسماعيلَ وإسحاقَ عليهم السَّلامُ لم يكونوا مؤمنين، ولهذا قالَ قَتادَةُ رَضِي الله عَنه: لا يزالُ في ذُرِّيَّتِه مَن يقولُها من بعدِه،

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٧٤٩٠). وينظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٣٢٤).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠٠٥٥).

(٣) «مسالك الحنفا» (٤٤).

وفي روايةٍ: مَن يُوَحِّدُ اللهَ عزَّ وجلَّ ويعبُدُه، وقالَ ابنُ جُرَيجٍ: فلم يزَلْ بعدُ من ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مَن يقولُ: لا إلهَ إلا اللهُ[١].

ومنها: استِدلالُه بقولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، حيثُ قالَ: أخرَجَ ابنُ جَريرٍ في «تفسيرِه» عن مُجاهِدٍ في هذه الآيةِ قالَ: فاستجابَ اللهُ تعالى لإبراهيمَ عليه السَّلامُ دعوتَه في وَلَدِه فلم يعبُدْ أحدٌ من وَلَدِه صَنَماً بعدَ دَعوتِه، واستجابَ اللهُ وجعلَ هذا البلدَ آمِناً، ورزَقَ أهلَه من الثَّمراتِ، وجعلَه إماماً، وجعلَ من ذُرِّيَّتِه مَن يُقيمُ الصَّلاةَ[٢]، انتهى.

ولا يخفى أنَّه لا يصِحُّ حَمْلُ ولدِه على عُمومِ ذُرِّيَّتِه؛ للإجماعِ على أنَّ في أولادِ إسماعيلَ وإسحاقَ كَفَرَةً مُشركين من العربِ واليهودِ والنَّصارى، فيجبُ حَملُه على أنَّ المُرادَ بولدِه أولادُ صُلْبِه، كما هو ظاهرُ كلامِه تعالى حكايةً عنه بقولِه: ﴿وَبَنِيَّ﴾.

قالَ البَغَوِيُّ: فإن قيلَ: قد كانَ إبراهيمُ مَعصوماً عن عبادةِ الأصنامِ، فكيفَ يستقيمُ السُّؤالُ وقد عبَدَ كثيرٌ مِنْ بنيه الأصنامَ؟ فأينَ الإجابةُ؟ قيلَ: الدُّعاءُ في حقِّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لزِيادةِ العِصْمَةِ والتَّثبيتِ.

وأمَّا دُعاؤُه لبَنيه فأرادَ بنيه من صُلْبِه، ولم يعبُدْ أحَدٌ منهم الصَّنمَ، وقيلَ: إنَّ دُعاءَه لِمَن كانَ مُؤمناً مِنْ بنيهِ؛ أي: ذُرِّيَّتِه[٣].

وبهذا اندفَعَ ما أخرجَه ابنُ أبي حاتمٍ عن سُفيانَ بنِ عُيَينَةَ أنَّه سُئِلَ: هل عَبَدَ أحَدٌ من ولدِ إسماعيلَ الأصنامَ؟ قالَ: ألا تسمَعُ قولَه تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾؟ قيلَ: فكيفَ لم يدخُلْ ولَدُ إسحاقَ وسائرُ ولَدِ إبراهيمَ عليه

---

(١) «مسالك الحنفا» (٤٤).

(٢) «تفسير الطبري» (١٧/ ١٧)، و«مسالك الحنفا» (٤٥).

(٣) «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥٢).

السَّـلامُ؟ قـالَ: لأنَّه دعـا لأهلِ هذه البلـدِ أن لا يعبدُوا إذا أسـكَنَهم إلا إيَّـاهُ فقالَ: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، ولـم يـدْعُ لجميعِ البُلدانِ بذلـك فقالَ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ فيـه، وقـد خَصَّ أهلَـه وقـالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧][1].

قالَ السُّيوطِيُّ[2]: فانظُرْ إلى هذا الجوابِ من سُفيانَ بنِ عُيينَةَ، وهو أحَدُ الأئمَّةِ المُجتَهدين، وهو شيخُ إمامِنا الشَّافعِيِّ.

قلـتُ: انظُـرْ إلـى ما قـالَ ولا تنظُـرْ إلى مَـن قـالَ، ليَتبيَّنَ لـك حقيقـةُ الحالِ؛ فـإنَّ الاتِّفـاقَ علـى أنَّ العـربَ من نَسْـلِ إسـماعيلَ عليه السَّـلامُ، وهم سُـكَّانٌ حولَ البَيـتِ الحـرامِ، وكانـوا يعبُـدون الأصنامَ فـي جميـعِ اللَّيالـي والأيَّـامِ، وأنَّ الأوثانَ داخِـلَ البيـتِ وخارِجَـه في مكَّةَ كانت فـي غايةٍ من الكثـرةِ إلى أن غَلَـبَ عليهم ﷺ يـومَ الفَتحِ فكسـرَها وأخرَجَها قائِـلاً: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]؛ أي: مُضْمَحِـلاً مـن نفسِـه وفـي حـدِّ ذاتِـه فـي جميـعِ أوقاتِـه، كقولِه تعالـى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وكقـولِ لبيـدٍ:

ألا كلُّ شـيءٍ مـا خـلا اللهَ باطِـلُ[3]

وقـالَ البَيضـاوِيُّ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ بَعِّدْني وإيَّاهم أن نعبُـدَ الأصنامَ[4]، وهو بظاهـرِه لا يتناوَلُ أحفادَه وجميـعَ ذُرِّيَّتِه.

وزعَمَ ابنُ عُيَينَةَ أنَّ أولادَ إسماعيلَ عليه السَّلامُ لم يعبدوا الصَّنَمَ مُحتجًّا به،

---

(١) ينظر: «مسالك الحنفا» (٤٥).

(٢) «مسالك الحنفا» (٤٦).

(٣) شطر البيت، وعجزه: وكل نعيم لا محالة زائل.

(٤) «أنوار التنزيل» (٣/ ١٦١).

وإنَّما كانت لهم حِجارَةٌ يدورون بها ويُسمُّونَها الدَّوَّارَ، ويقولون: البيتُ حَجَرٌ فحيثُما نصَبْنا حَجَراً فهو بمنزلتِه، انتهى.

وبُطلانُه ظاهِرٌ ممَّا قدَّمناه كما لا يخفى.

ومنها: **استِدلالُه بقولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾** [إبراهيم: ٤٠].

فقد أخرَجَ ابنُ المُنذِرِ عن ابنِ جُرَيجٍ أنَّه قالَ: فلن يزالَ من ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ناسٌ على الفِطرةِ يعبُدون اللهَ.

قلتُ: هذا كلامٌ صحيحٌ، ودَلالتُه على التَّبعيضِ صَريحٌ، وأمَّا ما وَرَدَ عن ابنِ عبَّاسٍ وغيرِه من أنَّه كانَ عَدْنانُ وجَعْدٌ ورَبيعةُ ومُضَرُ وخُزَيمَةُ وأَسَدٌ على مِلَّةِ إبراهيمَ فلا تذكروهم إلا بخيرٍ؛ فلا دَلالةَ فيه على تقديرِ صِحَّتِه إلا على أنَّ هؤلاءِ كانوا على التَّوحيدِ، وإنَّما أشرَكَ أولادُهم من بعدِهم بخُروجِهم عن حيِّزِ التَّوفيقِ والتَّأييدِ.

ومنها: **أنَّه قد ثَبَتَ عن جماعةٍ كانوا في زَمَنِ الجاهليَّةِ أنَّهم تَحنَّفوا** وتديَّنوا بدينِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وتَرَكوا الشِّرْكَ، فما المانِعُ من أن يكونَ أبوا النَّبيِّ ﷺ سلَكُوا سبيلَهم في ذلك؟

قلتُ: بعدَما كانَ مُستَدِلاً قاطِعاً رَجَعَ فصارَ مانِعاً، وهذا مَسلَكُه أَوْهَنُ من بيتِ العنكبوتِ، ولا يصلُحُ أن يُقالَ مِثلُ هذا إلا في البيوتِ؛ إذ حديثُ مُسلِمٍ يُنادي على خلافِ ذلك، وبقيَّةُ ما ذَكرنا من الدَّلالاتِ في الآياتِ والأحاديثِ يرُدَّ احتِمالَ خلافِ ما هُنالك؛ لأنَّ الحافظَ أبا الفَرَجِ بنَ الجَوْزِيِّ ذكرَ في «التَّلقيحِ» تسميةَ مَن رَفَضَ عبادَةَ الأصنامِ في الجاهليَّةِ: أبو بَكرٍ الصِّدِّيقُ، زَيدُ بنُ عَمْرِو بنِ نُفَيلٍ، عُبَيدُ اللهِ بنُ جَحْشٍ، عُثمانُ بنُ الحُوَيرِثِ، [وَرَقَةُ بنُ نَوفَلٍ، رياب بنُ البراءِ الشَّمني، أُمَيَّةُ بنُ أبي الصَّلتِ،

أسعَدُ بنُ كرب الحِمْيَريُّ](١)، قُسُّ بنُ ساعدةَ الإيادِيُّ، أبو قَيسِ بنِ صرمةَ(٢)، انتهى.

ولو كانا من هذا القَبيلِ لَكانَ ذِكرُهما أَوْلى في مَقامِ التَّعليلِ، هذا وقد رَوَى ابنُ إسحاقَ وأصلُه في «الصَّحيحِ»(٣) تعليقاً عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رَضِي الله عَنهما قالت: لقد رأيتُ زيدَ بنَ عُمَيرِ بنِ نُفَيلٍ مُسنِداً ظهرَه إلى الكعبةِ يقولُ: يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ! ما أصبَحَ منكم أحدٌ على دينِ إبراهيمَ غيري، ثمَّ يقولُ: اللَّهُمَّ إنِّي لو أعلَمُ أحَبَّ الوُجوهِ إليك عبَدْتُكَ به، ولكنِّي لا أعلمُ.

وهذا يدُلُّ على ما حرَّرْناه، وفيما تقدَّمَ قرَّرْناه من أنَّ جميعَ ذُرِّيَّةِ إسماعيلَ عليه السَّلامُ لم يثبُتوا على دينِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ من التَّوحيدِ.

وأخرجَ أبو نُعَيمٍ في «دَلائلِ النُّبوَّةِ» عن عَمْرِو بنِ عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ(٤) قالَ: رَغِبْتُ عن آلهةِ قومي في الجاهليَّةِ، ورأيتُ أنَّها الباطِلُ، يعبُدون الحِجارةَ(٥).

وأخرَجَ أبو نُعَيمٍ والبَيْهَقِيُّ كلاهُما في «الدَّلائلِ» من طريقِ الشَّعبيِّ عن شيخٍ من جُهَينةَ: أنَّ عُمَيرَ بنَ حبيبٍ الجُهَنِيَّ تركَ الشِّركَ في الجاهليَّةِ وصلَّى للهِ تعالى، وعاشَ حتَّى أدركَ الإسلامَ(٦).

هذا، وقد أظهرَ السُّيوطِيُّ مُجادَلَتَه معَ كلٍّ من الحنفِيِّ والمالكيِّ والشَّافعيِّ

(١) ما بين معكوفين سقط من جميع النسخ، والمثبت من «التلقيح».

(٢) «تلقيح فهوم أهل الأثر» (٣٣٣).

(٣) «صحيح البخاري»، باب فضائل الصحابة (٣٦١٤).

(٤) أبو نجيح ويقال: أبو شعيب، عمرو بن عبسة بن خالد الظريفي السلمي البجلي، أحد السابقين الأولين، قدم المدينة بعد الخندق واستوطنها، وكان من القواد الشجعان، قال الإمام الذهبي: لم يؤرخوا وفاته، وأظنه توفي في حدود (٦٠). «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٤٥٩).

(٥) «دلائل النبوة» لأبي نعيم (١/ ٢٥٧).

(٦) «دلائل النبوة» لأبي نعيم (١/ ٢٥٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١١٩).

والحنبليِّ[١] في عُدولِهم من الحديثِ الصَّحيحِ، لِـما قامَ عندَهم من الدَّليلِ الصَّريحِ، الصَّارِفِ عن العملِ بذلك الحديثِ والأخذِ به، معَ أنَّ أدلَّةَ كلٍّ من المذاهبِ مذكورةٌ في مُؤلَّفاتِهم، ومَسطورةٌ في مُطوَّلاتِهم، وليسَ في قواعِدِهم أن يترُكوا الحديثَ الصَّحيحَ ويأخُذوا بالحديثِ الضَّعيفِ في مَقامِ التَّرجيحِ.

على أنَّ الشَّافعيَّ قالَ: إذا صَحَّ الحديثُ فاترُكوا قولي، ثمَّ قالَ: وإن كانَ المُجادِلُ ممَّن يكتُبُ الحديثَ ولا فِقهَ عندَه يُقالُ له، فقد قالَ الأقدَمون: المُحدِّثُ بلا فِقْهٍ كعَطَّارٍ غيرِ طبيبٍ، فالأدويةُ حاصِلَةٌ في دُكَّانِه ولا يدري لماذا تصلُحُ، والفَقيهُ بلا حديثٍ كطَبيبٍ ليسَ بعطَّارٍ، يعرِفُ ما تصلُحُ له الأدويةُ إلا أنَّها ليسَت عندَه.

وإنِّي بحَمْدِ اللهِ قد اجتمعَ عندي الحديثُ والفِقهُ والأصولُ وسائرُ الآلاتِ من العربيَّةِ والمعاني والبيانِ وغيرِ ذلك، فأنا أعلَمُ كيفَ أتكلَّمُ، وكيفَ أقولُ، وكيفَ أستَدِلُّ، وكيفَ أُرَجِّحُ، وأمَّا أنتَ أُخَيَّ ـ وَفَّقني اللهُ تعالى وإيَّاكَ ـ فلا يصلُحُ لك ذلك؛ لأنَّك لا تدري الفِقهَ ولا الأصولَ ولا شيئاً من الآلاتِ.

والكلامُ في الحديثِ والاستدلالُ به ليسَ بالهيِّنِ، ولا يحِلُّ الإقدامُ على التَّكلُّمِ فيه لِـمَن لم يجمَعْ هذه العلومَ، فاقتَصِرْ على ما آتاكَ الله تعالى، وهو أنَّك إذا سُئِلتَ عن حديثٍ مَقولٍ وَرَدَ أو لم يَرِدْ وصَحَّحَه الحُفَّاظُ أو حَسَّنوه أو ضَعَّفوه؛ لا يحِلُّ لك في الإفتاءِ سِوى هذا القَدْرِ، وخلِّ ما عدا ذلك، واللهُ أعلَمُ.

لا تَحْسَبِ المَجدَ تَمراً أنت آكِلُه ... لن تَبلُغَ المجدَ حتَّى تلعَقَ الصَّبِرا

انتهى[٢].

وقد أطْنَبَ الشَّيخُ رحمَه اللهُ في مَنقَبَتِه، وهو كذلك في حَدِّ ذاتِه وصِفاتِه، معَ

---

(١) في: «مسالك الحنفا» (٧٠) وما بعدها.

(٢) «مسالك الحنفا» (٧٢ ـ ٧٣) والبيت للمتنبي.

استِحقاقِ زيادةٍ في تزكِيَتِه؛ لأنَّه صنَّفَ في كلِّ صِنْفٍ من العلومِ الشَّرعيَّةِ كالتَّفسيرِ والحديثِ والفِقهِ والآلاتِ العربيَّةِ، إلا أنَّه في هذه الرِّسالةِ عَمِلَ عَمَلَ العطَّارين في تكبيرِ النَّوالةِ وتكثيرِ الحوالَةِ، ولم ينظُرْ إلى كلامِ العلماءِ المُتقَدِّمين، والأئمَّةِ المُعتبَرين، الذين همُ الأطِبَّاءُ والحُكَماءُ في نظَرِ الخَواصِّ والعَوامِ أجمعين.

ثمَّ أقولُ له بطريقِ المُجادَلةِ على أُسلوبِ الجَدَلِ: هل يُعارَضُ حديثُ مُسلِمٍ المُجمَعُ على صِحَّتِه الدَّالُّ على كُفْرِ أبوَيهِ ﷺ بحديثِ إحيائِهما وإيمانِهما به بعدَ بَعثِهما، والحالُ أنَّه ضعيفٌ باتِّفاقِ المُحدِّثين، بل موضوعٌ باطِلٌ لا أصلَ له عندَ المُحقِّقين، معَ أنَّه مُخالِفٌ للآياتِ السَّابقةِ، والأحاديثِ اللَّاحِقَةِ، ولكلامِ الأئمَّةِ الأربعةِ وغيرِهم من أكابرِ هذه الأمَّةِ، وعُلماءِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وإنَّما هو على الأصولِ الباطلةِ للطَّائفةِ الرَّافِضَةِ.

أو نقولُ: إذا صَحَّ الحديثُ عن الرَّسولِ، وتلَقَّتهُ الأمَّةُ[1] بالقَبولِ، فهل يَحِلُّ لأحدٍ من أربابِ الفُضولِ أن يرُدَّ عليه؟ ويقولَ: إنَّهما ماتا في الفَترةِ قبلَ البَعثةِ، أو يُمتَحنانِ يومَ القيامةِ، أفَلَيسَ هذا مُعارَضَةً بالتَّعليلِ في مُقابلةِ النَّصِّ من الدَّليلِ؟

أمَا ذَكَرَ أربابُ الأصولِ في الحديثِ والفقهِ الجامعون بينَ المنقولِ والمعقولِ أنَّ الحديثَ إذا ثَبَتَ في «الصَّحيحَينِ» أو أحدِهما فلا يُعارِضُه حديثٌ غيرُهما، ولو صَحَّ من طريقِهما[2]، وإن كانَ من بقيَّةِ صِحاحِ السِّتِّ، فكيفَ إذا أخرجَه أصحابُ الكُتُبِ الغيرِ المُعتبَرةِ من الطُّرقِ الغَيرِ المُشتهِرَةِ.

وصرَّحَ الحُفَّاظُ بضَعفِ طُرُقِه كلِّها، بل بوَضْعِها، والحالُ أنَّه لم يقُلْ بهذه

(١) في جميع النسخ: «الأئمة».

(٢) بل ذكروا عكس ذلك، قال الحافظ العراقي: ما اتفق الستة على توثيق رواته أولى بالصحة مما اختلفوا فيه؛ وإن اتفق عليه الشيخان. «تدريب الراوي» (١/ ١٢٣).

الرِّوايـةِ إلا جَمـعٌ مـن المُقلِّديـن لـم يصِلـوا إلـى مرتبـةِ المُجتَهدين، كابنِ شـاهينَ، والخطيـبِ البَغـدادِيِّ، والسُّـهَيليِّ، والقُرطُبـيِّ، والمُحِـبِّ الطَّبَـريِّ، وابـنِ المُنيـرِ، وأمثالِهـم، فهـل يَحِـلُّ لأحـدٍ مـن الحنفيَّـةِ وغيرِهـم أن يُقلِّـدوا هـؤلاءِ المذكورين ويترُكـوا الاقتِـداءَ بأئمَّتِهـم المُعتبَرين؟ معَ ظُهـورِ أدِلَّةِ الجُمهورِ من علمـاءِ الأمَّةِ، لا سـيَّما والمسـألةُ مـن الاعتِقاديَّـاتِ التي لا بُدَّ لهـا من الأدلَّـةِ اليقينيَّةِ، لا مـن الفُروعِ الفِقهيَّـةِ التي يغلِـبُ مَدارُها علـى القواعِـدِ الظَّنِّيَّةِ.

انتَهى ما تعلَّقَ بزُبدَةِ كلامِه وخُلاصَةِ مَرامِه وعَدَلْنا عن التَّعرُّضِ لما ذكرَه من التَّطويلِ الذي لا يُفيدُ التَّعليلَ في مَقامِ التَّحصيلِ، وإنَّما هو بيانُ قالَ وقيلَ، واللهُ هو الهادي إلى سواءِ السَّبيلِ.

وبهذا يتبيَّنُ أنَّه كحاطِبِ ليلٍ، وخاطِبِ وَيلٍ، فتارَةً يقولُ: إنَّهما مُؤمِنانِ من أصلِهما، فإنَّهما من أهلِ الفَترَةِ أو لكونِهما من آباءِ أربابِ النُّبوَّةِ.

وأُخرَى يقولُ: إنَّهما كانا كافِرَين لكنَّهما أحياهُما اللهُ وآمَنَا.

ومـرَّةً يقـولُ: مـا كانـا مُؤمنَينِ ومـا كانا كافِرَيـنِ، بل كانا فـي مَرتبـةِ المجانينِ جاهِلَيـن فيُمتَحَنـانِ يـومَ القيامـةِ، وبالظَّـنِّ يحكُـمُ بأنَّهمـا ناجيـانِ. فانظـرْ إلـى هذه المُعارَضـاتِ الواضِحَـةِ، والمُناقَضـاتِ اللَّائحـةِ، فهـل تثبُـتُ المسـائِلُ الاعتِقاديَّـةُ بأمثـالِ هـذه الاحتمـالاتِ العقليَّةِ؟

فدلَّت تصانيفُه في هذه القضيَّةِ بأنَّه أقلُّ العَطَّارين بالنِّسبةِ إلى إمامِ الحُكَماءِ المُعتبَرين، فإنَّه رحمَه الله أعلَمُ عُلماءِ الشَّافعيَّةِ في زمانِه، وتفَوَّقَ على جميعِ أقرانِه، وأنا الفقيرُ الحقيرُ من أقلِّ عُلماءِ الحنفيَّةِ بيَّنتُ خطَأَه بما أخذتُه غالباً من كتُبِ التَّفسيريَّةِ والحديثيَّةِ، ولكنَّ ذلك الفَضْلَ من اللهِ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

وفيـه الدَّلالـةُ علـى أنَّ بـابَ الفَيـضِ مفتـوحٌ على هـذه الأمَّـةِ، وأنَّـه لا بُدَّ في

الوُجـودِ مَـن يكشِـفُ الغُمَّـةَ، ممَّا اختلفَـت فيه الأئمَّـةُ، ويُميِّزُ بيـنَ الحـقِّ والباطِلِ، ويُبيِّـنُ المُزيَّنَ مـن العاطِلِ.

ثمَّ اعلَمْ أنَّ ما اختارَه الفَخْرُ الرَّازِيُّ، وتبِعَه السُّيوطِيُّ في أنَّ أبا إبراهيمَ عليه السَّلامُ لم يكُنْ كافِراً فَسادٌ عظيمٌ في الدِّينِ، وتَشكيكٌ لعَقيدةِ أربابِ اليقينِ، وإن كانَ كلُّ واحدٍ منهما يدَّعي أنَّه من المُجدِّدين، بل يصِحُّ أن يُقالَ: إنَّهما من المُحْدِثين؛ لِـما وَرَدَ أنَّه: «مَن أحدَثَ في أمرِنا ما ليسَ منه فهو رَدٌّ»[١] من بينِ المُجتهدين.

وبيانُه: أنَّ المسلمين من أهلِ الشَّرقِ والغَربِ أجمعين يقرَؤونَ القُرآنَ العظيمَ ويتلون الفُرقانَ الكريمَ، فإذا رأَوا فيه نَصَّاً على انتسابِ الكُفْرِ إلى أبي إبراهيمَ عليه التَّحيَّةُ والتَّسليمِ، ويعتَقِدون ذلك حيثُ لم يكُنْ صارِفٌ عن حَملِه على الحقيقةِ هُنالك، ولا يدرون أنَّ إخبارِيَّاً يهودِيَّاً أو نَصرانِيَّاً ذكرَ أنَّ المُرادَ بأبيه عمُّه، قاصِداً بذلك الطَّعنَ في دينِ النَّبيِّ ﷺ وكتابِ ربِّه، هل يُحكَمُ ببُطلانِ هذا القولِ الذي هو مُخالِفٌ لظاهِرِ الكتابِ، ومُعارِضٌ لِـما قدَّمناه في هذا البابِ؟ أو يُحكَمُ بفسادِ اعتقادِ جميعِ المسلمين من أهلِ البَرِّ والبَحرِ أجمعين، إلا من اعتقدَ اعتِقادَ الرَّازِيِّ والسُّيوطِيِّ، معَ أنَّهما قبلَ وُصولِ هذا القولِ الباطِلِ إليهما لم يكونا شاكَّينِ في أنَّ أبا إبراهيمَ عليه السَّلامُ ما كانَ على الدِّينِ القَويمِ والطَّريقِ المُستقيمِ، فلمَّا حقَّقا ذلك وصنَّفا بيانَ ما هُنالك، رجَعا من اعتِقادِهما الباطلِ على زَعمِهما إلى الاعتِقادِ الحقِّ عندَهما، حتَّى قلَّدَهما ابنُ حَجَرٍ المكِّيُّ، وبالغَ حتَّى قالَ: وهذا هو الحقُّ فماذا بعدَ الحقِّ إلا الضَّلالُ[٢]. والله سُبحانَه يُصلِحُ الأحوالَ.

ثمَّ انظُرْ إلى ما قالَه السُّيوطِيُّ من الاستِدلالِ السُّقوطِيُّ، وهو أنَّه قد وَجَّهَ من

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) ينظر: «المنح المكية» (١٠٠) وما بعد.

حيثُ اللُّغَةُ بأنَّ العربَ تُطلِقُ لفظَ الأبِ على العَمِّ إطلاقاً شائِعاً، وإن كانَ مَجازاً، ففي التَّنزيلِ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] صلَّى اللهُ عليهم، فأطلَقَ على إسماعيلَ لفظَ الأبِ، وهو عمُّ يعقوبَ عليه السَّلامُ، كما أطلقَ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ وهو جدُّه.

أخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي الله عَنهما أنَّه كانَ يقولُ: الجدُّ أبٌ، ويتلو ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾[1] الآية.

وأخرجَ عن أبي العاليةِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ عليهما السَّلامُ قالَ: سَمَّى العَمَ أباً.

وأخرجَ عن محمَّدِ بنِ كعبٍ القُرَظِيِّ قالَ: الخالُ والِدٌ والعَمُّ والِدٌ، وتلا هذه الآيَةَ. فهذه أقوالُ السَّلَفِ من الصَّحابةِ والتَّابعين في ذلك[2].

قلتُ: هذه طَنْطَنَةٌ مَصرِيَّةٌ ليسَ تحتَها فائدةٌ قويَّةٌ؛ إذ نفسُ الآيةِ الشَّريفةِ يُستفادُ منها عندَ كلِّ عاقلٍ للإنباءِ أنَّه لا يصِحُّ إطلاقُ جمعِ الآباءِ حقيقةً بالنِّسبةِ إلى واحدٍ من الأبناءِ لا شرعاً ولا عُرفاً على عُمومِ الجزاءِ، بأن يُقالَ: المُرادُ بالآباءِ الأسلافُ، كما قالَه الأئمَّةُ الحنفيَّةُ، أو على استِعمالِ اللَّفظِ بالاشتراكِ بينَ الحقيقةِ والمجازِ كما اختارَه الشَّافعيَّةُ.

فإذا عَرَفْتَ ذلك، فهل ترى أن تكونَ هذه الآيةُ نظيرَ الآياتِ الدَّالَّةِ على أنَّ المُرادَ بأبي إبراهيمَ أبوه حقيقةً، ولا يصِحُّ أنَّه أرادَ عمَّه مَجازاً، حيثُ لا دليلَ من جهةِ العقلِ الصَّريحِ، ولا من طريقةِ النَّقلِ الصَّحيحِ، ما يصلُحُ أن يكونَ مانِعاً من إرادةِ الحقيقةِ، وباعثاً على قصدِ المجازِ.

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٢٨١).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم»، الموضع السابق.

ثمَّ رأيتُ رسالةً في هذه المسألةِ لابنِ كمالِ باشا، وفيها ما لا ينبَغي من الأشياءِ، منها قولُه: إنَّ السَّلَفَ اختلَفوا، والحالُ أنَّه لا يصِحُّ الخُلْفُ إلا في الخلَفِ.

ومنها نقلُه عن الحافظِ ابنِ دِحيَةَ ما قدَّمناه أنَّه قالَ: فمَنْ ماتَ كافِراً لم ينفَعْه الإيمانُ بعدَ الرَّجعةِ، بل لو آمَنَ عندَ المُعاينةِ، فكيفَ بعدَ الإعادةِ؟ وتعَقَّبَه بأنَّه مدفوعٌ بما وَرَدَ من أنَّ أصحابَ الكَهْفِ يُبعَثون في آخرِ الزَّمانِ، ويحُجُّون ويكونون من هذه الأمَّةِ تشريفاً لهم بذلك، أخرَجَه ابنُ عساكِرَ في «تاريخِه»، وأخرجَه ابنُ مَردَوَيه في «تفسيرِه» من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِي الله عَنهما مَرفوعاً: «أصحابُ الكَهْفِ أعوانُ المَهدِيِّ»[1]، انتهى.

ولا يخفَى بُطلانُ هذا التَّعَقُّبِ؛ لأنَّ أصحابَ الكهفِ ماتوا مُؤمنين بإجماعِ المسلمين، وإنَّما الكلامُ في قَبولِ توبةِ الأمواتِ من المُشرِكين.

ثمَّ قالَ: ولا بِدْعَ أن يكونَ اللهُ كتبَ لأبَوَي النَّبيِّ ﷺ عُمراً ثمَّ قبَضَهما قبلَ استيفائِه، ثمَّ أعادَهما لاستيفاءِ تلك اللَّحظةِ الباقيةِ، وآمَنا فيها فيُعتَدُّ به، انتهى.

ولا يخفَى أنَّ البحثَ ليسَ في إمكانِ القُدرةِ؛ لأنَّها قابلةٌ للطَّرفَين وشامِلَةٌ للصِّنفَين، وإنَّما الكلامُ في صِحَّةِ وُقوعِ أيِّ الشِّقَّين.

ثمَّ قالَ: وأمَّا قولُه: بل لو آمَنَ عندَ المُعايَنَةِ فكيفَ بعدَ الإعادةِ؟ فمَردودٌ بأنَّ الإيمانَ عندَ المُعايَنَةِ إيمان يأسٍ فلا يُقبَلُ، بخِلافِ الإيمانِ بعدَ الإعادةِ، وقد دَلَّ على هذا قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

أقولُ: الكَمالُ للهِ، وإلا فمِثلُ هذا الفاضِلِ في مَقامِ الأقصى كيفَ يغفُلُ عن البُرهانِ الأَولى؟ فإنَّ الإيمانَ إذا لم يُقبَلْ عندَ مُشاهدةِ بعضِ أحوالِ الآخرةِ الذي هو عَينُ اليَقينِ، فكيفَ يُقبَلُ بعدَ خُروجِه من الدُّنيا وتحقُّقِه بأمورِ العُقبَى الذي يُسَمَّى حقَّ اليقينِ؟

(١) «الدر المنثور» (٤/ ٢١٥).

على أنَّ المطلوبَ من العبدِ أن يُؤمِنَ بالغَيبِ الذي هو علمُ اليقينِ، معَ أنَّ الله تعالى نصَّ على الحالتَينِ بقولِه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾، وهو حالُ الغَرْغَرةِ ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]، وهو بعدَ الإعادةِ.

ثمَّ من أعجَبِ العَجائبِ وأغرَبِ الغرائبِ قولُه: وينبني على هذا قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]؛ فإنَّه دلَّ عليه صحيحاً، لكِنْ على ردِّه صريحاً؛ لأنَّهم إذا عادُوا لِما نُهوا عنه من الكُفرِ والمعصيةِ، فلا يُتَصَوَّرُ منهم وُجودُ الإيمانِ معَ الطَّاعةِ.

وأمَّا ما ذكرَه ابنُ الكمالِ تبعاً للسُّيوطِيِّ من أنَّه سُئِلَ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ أحدُ المالكيَّةِ عن رجُلٍ قالَ: إنَّ أبا النَّبيِّ ﷺ في النار فأجابَ بأنَّه ملعونٌ؛ لأنَّ الله تعالى يقولُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، قالَ: ولا أذى أعظَمُ من أن يُقالَ عن أبيه: إنَّه في النَّار، مَحمولٌ على مَن قَصَدَ أذى النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بإطلاقِ هذا الكلامِ، فإنَّه ملعونٌ، بل كافرٌ مَطعونٌ.

وأمَّا مَن أخبرَه بما ثَبَتَ عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، واعتَقَدَه كأبي حنيفَةَ وغيرِه من عُلماءِ الأعلامِ، فحاشاهُم من نِسبَةِ الطَّعنِ إليهم، ويحرُمُ اللَّعنُ عليهم.

ثمَّ نقلُه تبعاً له عن السُّهيليِّ: ليسَ لنا أن نقولَ ذلك في أبوَيهِ ﷺ لقولِه عليه السَّلامُ: «لا تُؤذُوا الأحياءَ بسَبِّ الأمواتِ»، كما رَواه الطَّبرانيُّ؛ فدَفعُه ظاهِرٌ، على مَن عندَه عِلمٌ باهِرٌ وعَقلٌ قاهِرٌ.

ثمَّ قالَ ابنُ الكَمالِ: وبالجُملةِ هذه المسألةُ ليسَت من الاعتِقاديَّاتِ، فلا حَظَّ للقلبِ منها، وأمَّا اللِّسانُ فحَقُّه أن يُصانَ عمَّا يتبادَرُ منه النُّقصانُ، خُصوصاً إلى وَهْمِ العامَّةِ؛ لأنَّهم لا يقدِرونَ على دَفعِه وتَدارُكِه.

قلتُ: ما ثَبَتَ بالكتابِ والسُّنَّةِ يجبُ اعتِقادُه مُجمَلاً أو مُفَصَّلاً، نعم لو لم يخطُرْ ببالِ مُؤمنٍ هذا المَبحَثُ لا نَفياً ولا إثباتاً لا يضرُّه، ككثيرٍ من المسائلِ المذكورةِ في كُتُبِ العقائدِ المسطورةِ، ثمَّ هذه المسألةُ لو لم تكُنْ في الجُملةِ من المسائلِ الاعتِقاديَّةِ لَـما ذكرَها الإمامُ المُعَظَّمُ المُعتبَرُ في خَتْمِ فِقهِه الأكبرِ، وكانَ هذا من علامةِ وِلايتِه رَضِي الله عَنه، حيثُ كُوشِفَ له هذا المعنى، أن يقَعَ الاختِلافُ في هذا المَبنى.

ثمَّ لا عبرةَ بالعوامِ كالأنعامِ في عقائدِهم الفاسِدَةِ، وتأويلاتِهم الكاسِدَةِ، وإنَّما المَدارُ على كلامِ الخواصِّ من العُلماءِ الأعلامِ، الذين هم قُدوَةُ أهلِ الإسلامِ.

ثمَّ من الوقائعِ الغريبةِ في الأزمنةِ القريبةِ أنَّ بعضَ علماءِ الحنَفيَّةِ مع أنَّه بلَغَ غايةَ القُصوى في مرتبةِ الفَتوى، أفتى تبعاً للسُّيوطِيَ وجَمعٍ من الشَّافعيَّةِ معَ اطِّلاعِه على عقيدةِ إمامِ المِلَّةِ الحنيفيَّةِ، حيثُ قالَ: المشهورُ عندَ العلماءِ ما ذكرَه الإمامُ الأعظَمُ، ولم يرجِعْ عنه، غيرَ أنَّ العلَّامةَ السُّيوطِيَّ أخرجَ بسنَدِه حديثاً يصِحُّ التَّمَسُّكُ به، مَضمونُه أنَّ اللهَ أحيا أبوَيه فآمَنَا به.

ثمَّ قالَ في آخرِه: وهو الذي نعتَقِدُه ونَدينُ اللهَ به... ثمَّ ذكرَ أنَّه يُعارِضُ حديثَ ابنِ مسعودٍ، وحديثَ ابنِ عبَّاسٍ رَضِي الله عَنهما، وأَمكَنَ الجمعُ بينَهما بأنَّه مُنِعَ من الاستغفارِ أوَّلاً، وهو مَضمونُ حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضِي الله عَنه، ثُمَّ أُذِنَ له ثانياً، وهو مَضمونُ حديثِ ابنِ عبَّاسٍ الذي أخذَ به الجَلالُ السُّيوطِيُّ. انتهى مُلَخَّصاً.

وأنتَ عَرَفْتَ أنَّ الحديثَ الأوَّلَ الذي تمسَّكَ به السُّيوطِيُّ ليسَ بإسنادِه، ولا يصِحُّ بالاتِّفاقِ، بل هو ضَعيفٌ كما اعترفَ به السُّيوطِيُّ، أو موضوعٌ كما صرَّحَ به غيرُه، وأمَّا ما نسبَه إلى ابنِ عبَّاسٍ؛ فلا أصلَ له لا عندَ السُّيوطِيِّ ولا عندَ غيرِه، واللهُ أعلَمُ.

وكانَ الواجِبُ عليه حيثُ لا دليلَ قُدَّامَه أن يقتَفِيَ إمامَه، ولا يعتَدِيَ أمامَه، تصديقاً لقَولِ القائلِ:

إذا قالَتْ حَذَامِ فصَدِّقوها فإنَّ القَولَ ما قالَتْ حَذامِ[1]

ثمَّ قالَ ابنُ الكَمالِ: لا خَفاءَ في أنَّ إثباتَ الشِّركِ في أبوَيهِ إضلالٌ ظاهِرٌ بشَرَفِ نسبِه الطَّاهِرِ.

قلتُ: هذا القَولُ ليسَ له دَخْلٌ في نسَبِه الطَّاهرِ، بل إثباتٌ لِما أثبَتَه عليه الصَّلاةُ والسَّلام بنَفسِه الطَّاهرِ، نعم مَن قَذَفَ أمَّ النَّبيِّ ﷺ قُتِلَ؛ مُسلِماً كانَ أو كافراً، كما قالَه الإمامُ مُوَفَّقُ الدِّينِ ابنُ قُدامةَ الحنبليُّ في «المُقْنِعِ»[2] ونقَلَه عنه السُّيوطِيُّ، وإنَّما خَصَّ الأُمَّ بالذِّكرِ لثُبوتِ أحاديثَ دلَّتْ على أنَّه ﷺ وُلِدَ عن أمِّه بنِكاحٍ غيرِ سِفاحٍ، فإنكارُ ما ثبَتَ عنه ﷺ كُفرٌ، فلا يَرِدُ أنَّ حُكمَ القاذفِ الحدُّ المعروفُ.

ثمَّ قولُه (كافِراً) فيه بَحثٌ من جِهةِ إطلاقِه؛ لأنَّ الحربيَّ لا كلامَ فيه، والمُستأمنُ لا يجوزُ قَتلُه، والذِّمِّيُّ ظاهِرُه القَتلُ؛ لأنَّه له ما لنا وعليهِ ما علينا، إلا ما خُصَّ بدليلٍ.

وأمَّا ما ذكرَه الكَرْدَرِيُّ في «المناقبِ» من أنَّه مَن ماتَ على الكُفرِ أُبيحَ لَعنُه إلا والِدَي رسولِ اللهِ ﷺ لثُبوتِ أنَّ اللهَ تعالى أحياهُما له حتَّى آمَنا به؛ ففيه معَ ما سبَقَ من التَّنبيهِ أنَّه أثبَتَ كُفْرَ والدَيه ومَنَعَ لعْنَهُما بشُبهَةِ الحديثِ المذكورِ، ولو لم يصِحَّ نَقْلاً ولا شرعاً.

غايتُه أنَّه يجوزُ عَقلاً، فلا شَكَّ أنَّ الأحوَطَ لصاحِبِ الدِّينِ أن لا يلعَنَ أحداً، فإنَّ الاشتِغالَ بذكرِ المولى في كلِّ حالٍ هو الأَولى.

---

(١) البيت للجيم بن صعب أحد شعراء الجاهلية، ونسبه بعضهم لديسم بن طارق، وهو من شواهد النحو المشهورة. ينظر: «لسان العرب» (مادة: رقش).

(٢) قال في شرحه: يعني أن حده القتل، ولا تقبل توبته، نص عليه أحمد، وحكى أبو الخطاب رواية أخرى، أن توبته تقبل، وبه قال أبو حنيفة والشافعي، مسلماً كان أو كافراً. «المقنع» و«الشرح الكبير» (٢٦/ ٤٠٢).

ثمَّ ظَهَرَ لي وجهٌ آخرُ في مَنعِ اللَّعنِ، وهو ما قالَ ﷺ: «لا تُؤذُوا الأحياءَ بسَبِّ الأمواتِ»[١]، فعلى هذا لا يجوزُ لَعْنُ والِدَي رسولِ اللهِ، ووالِدَي عُمَرَ رَضِي الله عَنه، ولا آباءَ سائرِ الصَّحابةِ، ولا آباءَ بقيَّةِ المسلمين.

إذاً لا فائدةَ في اللَّعنِ، وقد يتفرَّعُ عليه الطَّعنُ، وينجَرُّ إلى الفسادِ فيما بينَ العبادِ على الخُصوصِ بالنِّسبةِ إلى والِدَيه ﷺ، فإنَّه أبٌ للأمَّةِ، وله كَمالٌ في الحُرمَةِ، ولولا النَّفيُ المُتضَمِّنُ لِـمَنعِنا من الاستغفارِ لهما ولأمثالِـهما في الآيةِ لكُنَّا دَعَونا لهما بالمَغفرةِ، فلا يُناسِبُ أن نَدعوَ عليهما باللَّعنِ والطَّردِ عن الرَّحمةِ، بل رُبَّما يجوزُ لنا أن ندعوَ لهما بتخفيفِ العذابِ عنهما، ونُسلِّمَ الأمرَ إلى خالقِهما فيما قضى عليهما ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] و﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

وهـذه مسـألةٌ تحَيَّـرَ فيهـا العُقـولُ، واضطَّـربَ فيهـا النُّقـولُ، وليـسَ لأحـدٍ الوصـولُ إلـى حقيقـةِ هـذا المحصـولِ، إلا أن يقولَ كما قـالَ تعالـى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبيـاء: ٢٣].

ثمَّ من الواقعةِ الغَريبةِ في الحالةِ القريبةِ: أنَّ الفاضِلَ العِصامِيَّ مُفتي مذهبَ الشَّافعِيِّ أنكرَ على الحنفيَّةِ في قولِهم: إنَّ ذا أبٍ مُسلمٍ لا يكونُ كُفُواً لِـمَن لم يكُنْ له أبٌ مُسلِمٌ، مُعتَرِضاً بأنَّه يلزَمُ منه أن لا يكونَ النَّبيُّ ﷺ كُفُواً لعائشةَ رَضِي الله عَنها.

وإنَّما نشأ هذا منه بناءً على جَهلِه بالقواعدِ الحَنَفيَّةِ؛ فإنَّهم قالوا: قُرَيشٌ بعضُهم كُفُؤٌ لبعضٍ[٢]، والعَرَبُ كذلك، وإنَّما اعتبَروا إيمانَ الآباءِ فيما عدا العَرَبَ من الأعجامِ والأروامِ وسائرِ الأنامِ في مَسألةِ الأكفاءِ.

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٢) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه بلفظ: «لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء».

(٢) قال الغنيمي رحمه الله في «اللباب» (٢/ ١٤٨): فقريش بعضهم أكفاء لبعض، وبقية العرب بعضهم أكفاء لبعض، وليسوا بأكفاء لقريش.

هـذا، وفيه بيـانٌ لكَمـالِ قُدرَتِه فـي خَلقِه وأمـرِه، وتِبيانٌ لسِـرِّ قَضائِـه وقَدْرِه، ورَدٌّ علـى الحُكَمـاءِ والفلاسـفةِ والطَّبيعيَّةِ في بناءِ أمـرِ النُّبوَّةِ والمعرفـةِ على الأمورِ النِّسـبيَّةِ والأحـوالِ الكَسـبيَّةِ، لا علـى المواهِـبِ الإلهيَّـةِ السُّـبحانيَّةِ، والجَذبـاتِ الرَّبَّانيَّـةِ الصَّمَدانيَّةِ.

كما أشارَ اللهُ سُبحانَه إلى هذا المعنى في رَدِّ ذلك المَبنى بقولِه: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الروم: ١٩]، فأخرَجَ اللهُ سُبحانَه المؤمنَ من الكافرِ، والكافرَ من المؤمنِ كابنِ نوحٍ عليه السَّلامُ، فإنَّه كافرٌ بإجماعِ أئمَّةِ الإسلامِ، وكقابيلَ قاتلِ هابيلَ من بني آدمَ عليه السَّلامُ، فإنَّه كافِرٌ باتِّفاقِ علماءِ الأعلام.

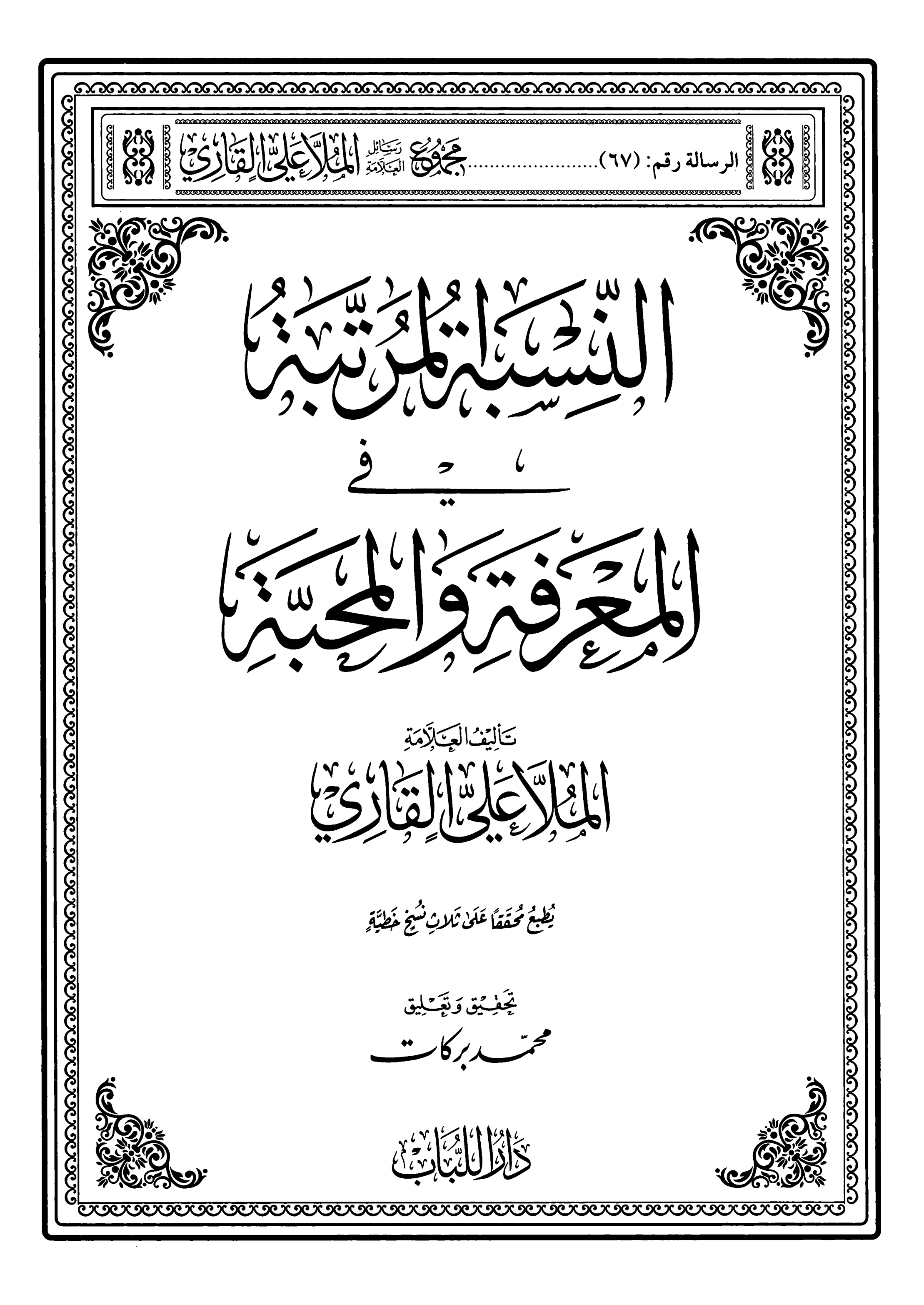
ولمَّـا رأى عليـه السَّـلامُ عِكْرِمَـةَ بنَ أبي جَهْـلٍ بعدَ الإسـلامِ قرأ ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ [الروم: ١٩].

وفـي هـذا بيـانٌ عظيمٌ إلـى أنَّ الإيمانَ إنعـامٌ جَسـيمٌ، لا يصِلُ إليـه إلا نبيٌّ أو ولـيٌّ كريـمٌ، ممَّن سـبَقَت لهمُ الحُسـنى بالوُصولِ إلـى المقامِ الأَسْـنَى.

فنسأَلُ اللهَ تعالى حُسْنَ الخاتمةِ الدَّالَّةِ على سَبْقِ العِنايةِ، بتعَلُّقِ الإرادةِ لتَحَقُّقِ السَّعادةِ، داعِينَ ربَّنا: توَفَّنا مسلمين، وأَلحِقنا بالصَّالحين، وأَدخِلنا الجنَّةَ آمنين، غيرَ خَزايا ولا مَفتونين، آمين، وسلامٌ على المُرسَلين، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمين.

***

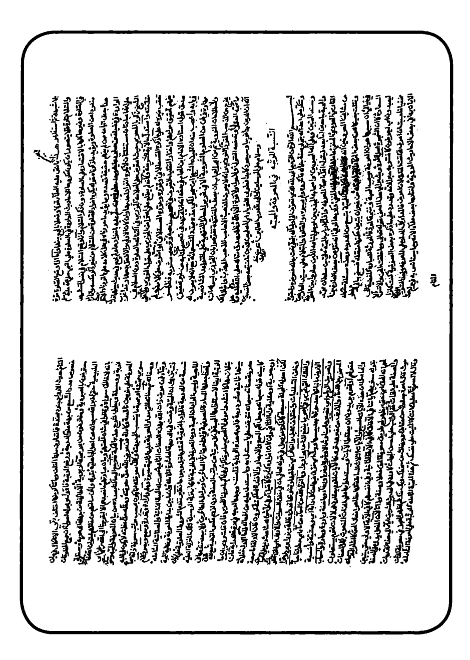




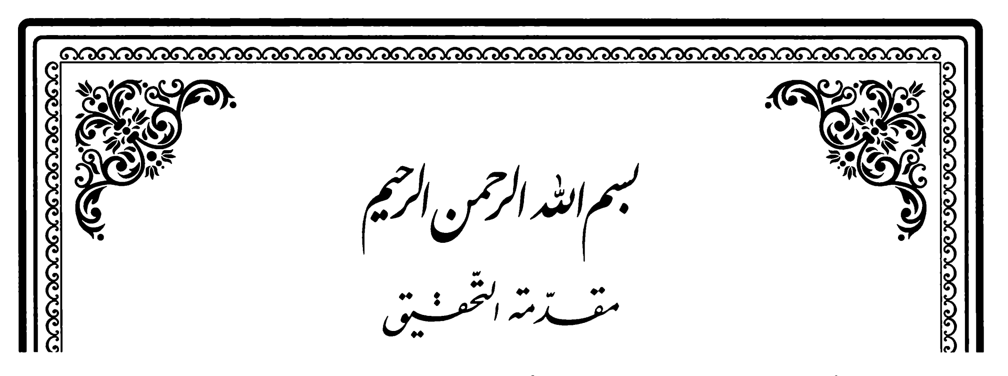
مجموع رسائل العلامة الملا علي القاري
الرسالة رقم: (٦٧)
النسبة المرتبة في المعرفة والمحبة
تأليف العلامة
الملا علي القاري
يطبع محققاً على ثلاث نسخ خطية
تحقيق وتعليق
محمد بركات
دار اللباب

مكتبة الجامعة الإسلامية (ج)

مكتبة عاطف أفندي (ط)



مكتبة فيض الله (ف)



الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على محبوبِ ربِّ العالمين محمدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

وبعد: فهذه رسالةُ «النِّسبة المُرتَّبة بين المَعْرفةِ والمحبَّة» للعلَّامة الملا عليٍّ القاري، رسالة لطيفة في مسألةٍ من مسائلِ السَّالكينَ إلى ربِّ العالمينَ في مراقي العُبُوديةِ، والمُتَقرّبين إليهِ تعالى بمَعْرفتِه والمُجْتهدينَ بالطَّاعات للحُصُولِ علي مَرْتبةِ محبَّتهِ، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وفي هذه الرسالة أَراد المُصنِّفُ شَرْحَ مَقُولةِ بعضِ الشُّيوخ: المعرفةُ فوق مَرْتبةِ المحبةِ بتسع درجاتٍ. وقولِ بعضِهم الآخر: ما بينهما ثمانية عشر درجة. وفي هذا الشرح بيانٌ للنِّسبيةِ الحاصلةِ بعينهما.

ثم شرع في بيان مفهومِ «المعرفة» يعني درايةَ صفاتهِ سُبْحانهِ، ومَراتِبها، ثم ثنَّى بذِكْر تعريفِ المحبةِ ومراتِبها، وَضَّح ذلكَ بعباراتٍ مختصراتٍ مستشهداً بقوله بما ينقله من مَقُولاتِ عن أصحابِ هذا الفنِ ممن عُرف بالزُّهد والتَّصُّوفِ وتزكيةِ النفس، وفي هذا بيانٌ للقارئ لمعرفةِ العلامةِ والنِّسبة بين المعرفةِ والمحبةِ.

وفي ثنايا هذه الرِّسالةِ شَرَحَ المُصنِّفُ بعضَ المقولاتِ المَنْقُولةِ عن العلماءِ العابدينَ، مثل: «عرفتُ اللهَ حقَّ معرفتهِ»، و«ما عَرَفناك حقَّ مَعْرفتِكَ»، و«من عَرَف نفَسه فقد عَرَف ربَّه»، و«أَعْرفُكم بنفسِه أَعْرفُكم بربِّه»، وقول

الصِّدِّيق: «العَجْز عن دَرْكِ الإدْراكِ إدْراكٌ»، و«مَنْ عَرفَ اللهَ كَلَّ لسانُه»، و«مَنْ عَرَف اللهَ طال لسانُهُ»، إلى غير ذلك من أقوالٍ قالها شيوخ وعُبَّاد مشتغلون بأنواع الطاعات، راجينَ القُرْبَ إليه تعالى وراغبينَ في نَيْل محبَّتِهِ ورضاهُ.

كما أنَّه ذَكَر أشعاراً قالها متذوقون في باب المحبة الإلهية، فأوردها وبيَّن مرادتهم في عباراتهم.

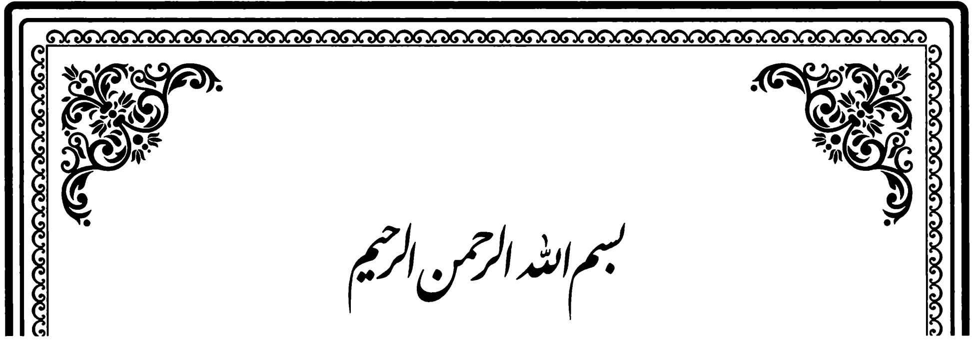
ويمكنُ القولُ بأنَّ هذه الرسالةَ تُبيِّن طرفاً من اهتمامات المُصنِّفِ ومشاركاتِه العِلميَّةِ في الفُنونِ المُتَعدِّدةِ، ففي هذه الرسالة تَظْهر مشاركتهُ في علم التَّصوفِ الذي عُرِف به، لكن ما يُميِّز العلَّامةُ القاري عن غيرِهِ من المُتَصوِّفة: هو اشتغالُه بعلومُ الحديثِ والاطلاعِ على السُّنَّةِ المُطهرةِ بنُصوصِها وشُروحها، مما جَعَله بعيداً عن نَقْلِ ما لا يُؤَيِّده نصٌّ قرآنيٌّ أو سُنَّةٌ مطهرةٌ، وإذا استشهد لأقواله تجنَّبَ ما كان موضوعاً أو منكراً، هذا غالباً، وإن كان وَقَع منهُ خلافُ ذلكَ.

هذا وقد اعْتَمدنا في تحقيقِ هذه الرِّسالةِ على ثلاثِ نسخٍ خطية: نسخة فيض الله، ورمزها «ف»، ونسخة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ورمزها «ج»، ونسخة عاطف أفندي ورمزها «ط».

وفي الختام أرجو من اللهِ تعالى القَديرِ حُسْنَ القبولِ، والعفوَ عن الزَّلَلِ، إنه تعالى سميعٌ مجيبٌ. والحمد لله ربِّ العالمين، وصَلَّى اللهُ على سيدنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين.

المحقق

***



الحمدُ للهِ الذي تَعرَّفَ إلى أوليائِه بتَجَلِّي نَعْتِ جمالِه فعَرَفوه وأَحَبُّوه، وتنكَّرَ على أعدائِه بتَجَلِّي صِفةِ[1] جَلالِه فأَنْكروه ولم يُجِيبُوه، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدِ العارفينَ، وسَنَدِ المحبِّينَ، وعلى آلِه المَحْبُوبينَ، وأصحابِه المَجْذُوبينَ، وعلى أتباعِه الذينَ صاروا بين المعرفةِ والمحبَّةِ جامعينَ.

أمَّا بعدُ: فيقولُ أَقَلُّ أصحابِ المعرفةِ، وأَذَلُّ أربابِ المحبَّةِ، عليُّ بنُ سُلطانِ محمَّدٍ القارِيْ، الهَرَويُّ الحَنَفيُّ، عاملَهما اللهُ بِلُطْفِه الخفيِّ، وكَرَمِه الوفيِّ:

إنَّه نُقِلَ عن بعضِ العارفينَ من مشايخِنا المعروفينَ: أنَّه قال: **المعرفةُ فوقَ مرتبةِ المحبَّةِ بتِسعٍ من الدَّرجةِ.**

وهذه مسألةٌ مُشكِلةٌ، ونُقِلَتْ بعينِها عن بعضِ الحُكماءِ أيضاً مُجمَلَةً، من غيرِ أن يتبيَّنَ حِكمَتَها مُفصَّلَةً، فسَنَحَ ببالي، وخطرَ في خَيالي[2]، أنَّ سببَها هو أنَّ المعرفةَ موجِبُ المحبَّةِ[3]، ونتيجةُ المودَّةِ المورثَةِ[4] للعبادةِ، المُفضيةِ إلى السَّعادةِ، كما أنَّ الشَّجرةَ أصلُ الثَّمرةِ، ويُشيرُ إلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ أي: ليعرفونَ، كما فَسَّرَ به حَبْرُ الأُمَّةِ[5].

---

(١) في «ط»: «صفات».

(٢) في «ط»: «بحالي» بدل «في خيالي».

(٣) في «ط»: «موجبة للمحبة».

(٤) في «ط»: «المؤدية».

(٥) رواه الدنيوري في «المجالسة» (٢٢٥) عن مجاهد عن ابن عباس حبر الأمة. وفي «تفسير الثعلبي» =

وقد وَرَدَ[١] على ما ذَكَرَه بعضُ الصُّوفيَّةِ: (كنتُ كَنْزاً مَخفيّاً، فأَحببْتُ أن أُعرفَ، فخَلَقْتُ الخَلقَ لأَنْ أُعرفَ)[٢].

فالمدارُ كلُّ المدارِ على المعرفةِ، ولهذا فُسِّرَ الإيمانُ بها في بعضِ الأحاديثِ المَرْويَّةِ، واختارَها بعضُ علماءِ الأُمَّةِ.

وممَّا يُستأْنَسُ به في مَرامِ هذا المقامِ: حديثُ: «الأَرواحُ جُنودٌ مُجنَّدةٌ؛ فما تعارفَ منها ائتَلفَ، وما تناكرَ منها اختَلفَ»[٣].

بقيَ الإشكالُ في بيانِ خُصوصِ عددِ التِّسعِ من جهةِ عُلُوِّ الدَّرجةِ، ورفعِ المرتبةِ، فأقولُ، وبحَوْلِه أَصُولُ:

إنَّ جميعَ المخلوقاتِ مُعترِفونَ بالعُبوديَّةِ، ومُغترِفونَ من بحرِ محبَّةِ الرُّبوبيَّةِ، إلَّا طائفةً من جَهلَةِ الدَّهْريَّةِ، وسَفَلَةِ الطَّبيعيَّةِ، حتى أخبرَ اللهُ سبحانَه عن أهلِ الجاهليَّةِ، بقولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فأقرُّوا بأنَّه لا خالقَ سواهُ، وقالوا في شأن آلهتِهم، وبيانِ عبادتِهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]؛ أي: قُرْبةً ووسيلةً. ويطولُ شرحُ هذه الحكمةِ.

فنرجعُ إلى ما كنَّا بصَدَدِهِ من بيانِ المعرفةِ والمحبَّةِ:

= (٩/ ١٢٠) و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٥) عن مجاهد.

(١) في «ف»: «رد علي». والمثبت من «ط» و«ج».

(٢) أورده ابن الوزير في «العواصم والقواصم» (٦/ ٣٥٥) منسوباً لداود عليه السلام. وأورده أيضاً السخاوي في «المقاصد الحسنة»، والسيوطي في «الدر المنتثرة»، وقالا: لا أصل له.
وقال الآلوسي في «روح المعاني» (١٤/ ٢٢): ذكره سعد الدين الفرغاني في «منتهى المدارك» وذكره غيره كالشيخ الأكبر.. وتعقبه الحفاظ فقال ابن تيمية: أنه ليس من كلام النبي ﷺ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وكذا قال الزركشي والحافظ ابن حجر وغيرهما: ومن يرويه من الصوفية معترف بعدم ثبوته نقلاً، لكن يقول: إنه ثابت كشفاً. اهـ. وانظر «كشف الخفا» (٢/ ١٥٦).

(٣) رواه البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (٢٦٣٨). من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ونقـولُ: **المعرفـةُ** على نوعيـنِ: ناقصـةٌ، وكاملةٌ. فمَـن عرفَ اللهَ حـقَّ معرفتِه وعَظَّمَـه حـقَّ عَظَمَتِه، لا يكونُ في قلبِه سـوى محبَّتـه أو محبَّة ما يَنْتَسِـبُ إلى جِهتِه، وكمـالُ معرفتِه إنَّمـا يكونُ بحسـبِ مراتبِ معرفةِ ذاتِه سـبحانَه وتعالـى وصفاتِه.

ثـم صفاتُـه التي مَـدارُ المعرفـةِ عليها ثمانيـةٌ: حيـاةٌ، وعلـمٌ، وإرادةٌ، وقُدرةٌ، وسـمعٌ، وبَصَـرٌ، وكلامٌ، وبقاءٌ. فمَن عـرفَ ذاتَ اللهِ بهذه الصِّفـاتِ الثَّمانيةِ صحَّتْ له المحبَّـةُ الذَّاتيَّةُ والصِّفاتيَّةُ الشَّـاملةُ.

فتبيَّـنَ لـكَ أنَّ المحبَّـةَ وقعَـتْ فـي الدَّرجـةِ العاشـرةِ الكاملـةِ، وأنَّ مـا بيـن بدايـةِ المعرفـةِ ونهايـةِ المحبَّـةِ تسـعةٌ مـن الدَّرجـةِ، فالمـراد بالفَوقِيَّـةِ تحقُّقُها قبل وجودِهـا؛ نظيـر تقـدُّمِ الشُّـروطِ الصَّلاتيَّـةِ علـى أركانِ المَاهيَّـةِ، وليـس المـرادُ أنَّ المحبَّـةَ دون المعرفـةِ في الرُّتبـةِ؛ فإنَّها بمنزلةِ الوسـيلةِ لتلك المنزلـةِ العَليَّةِ، ولهذا جعلَهـا السَّـادةُ الصُّوفيَّـةُ فـي أواخـرِ منـازلِ السَّـائرينَ ومراحـلِ الطَّائريـنَ[1]، ولا يبعُـدُ تقدُّمُهـا فـي الرُّتبةِ أيضاً؛ لاسـتلزامِها المحبَّةَ فـي كلِّ مرتبةٍ من مراتـبِ الصِّفةِ دون لـزوم عكـسِ القَضيَّـةِ، مـع أنَّـه قيـل بتلازُمهما؛ كما أنشـدوا:

ولـولا الهَـوى مـا عَرَفْنَاكُـمُ ولولاكـمُ مـا عَرَفْنَـا الهَـوَى

إلَّا أنَّ الأوَّلَ هو المُعَوَّلُ كما أشارَ إليه بعضُهم بقولِه شِعراً:

وهَـوَاكَ أَوَّلُ مـا عَرَفْـتُ مـن الهَوَى والقَلْـبُ لا يَنْسَـى الحَبِيـبَ الأَوَّلَا

فإنْ قلتَ: رُوي أنَّ ما بينهما ثمانيةَ عشرَ درجةً، فما وجهُ هذه الرِّوايةِ؟

قلتُ: وجهُها أوجهُ في مرتبةِ الدِّرَايةِ؛ فإنَّ معرفةَ صفاتِه سبحانَه تتوقَّفُ على ما يُستدلُّ به، وما يُستدلُّ عليه من أفعالِه.

---

(١) زاد في «ط»: «المرابطين».

فأمَّا الأوَّلُ: فثلاثةٌ، كما بيَّنَه قولُه سبحانَه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]؛ فإنَّ الأدلَّةَ إمَّا سمعيَّةٌ أو بَصَريَّةٌ أو عقليَّةٌ.

وأمَّا الثَّاني، وإنْ كانَ أفرادُه كثيرٌ؛ كما قيلَ:

وفـي كُلِّ شَـيءٍ لـه شَـاهِدٌ ... دَلِيـلٌ علـى أنَّـه واحِـدُ

لكنَّ أصولَه المُجْملةَ سبعةٌ كما ذَكرَه الله عَزَّ وجَلَّ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خَلْقِ العُلْويَّاتِ وخَلْقِ السُّفليَّاتِ، ﴿وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: تعاقُبِهما وتفاوتِهما قَدْراً وظُلْمةً ونُوراً وبَرْداً وحَرّاً، ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ بحراً وبرّاً، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾؛ أي: مطراً، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾؛ بإنْباتِها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: بعد يُبْسِها، ﴿وَبَثَّ﴾؛ أي: فَرَّقَ ﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ أي: وحشِيَّةٍ وإنسِيَّةٍ، ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ﴾؛ أي: تغييرِها يميناً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، ورُخاءً وعاصفةً، وباردةً وحارَّةً، ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من غيرِ عَمَدٍ ترونَها ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ لدَلالات لقومٍ يستعملونَ عقولَهم، أو لقومٍ يُريدونَ أنْ يعقلوا الآياتِ ويستدلُّوا بها على الذَّاتِ المنعوتِ بكمالِ الصِّفاتِ.

والحاصلُ: أنَّ هـذه الآيـاتِ السَّبعَ، والآيـاتِ الثَّلاثَ السَّابقةَ كلَّها مظاهرُ أفعالِ الحقِّ كما أشارَ إليه سبحانَه بقولِه ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِي ٱلْـَٔافَاقِ﴾، كما في الآيةِ الثَّانيةِ[1] ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾، كما في الآيةِ الأُولى[2] ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ أي: حتى يظهرَ لهم طريقُ معرفةِ الحقِّ؛ فِعلاً وصفةً وذَاتاً؛ لأنَّ الفعلَ يدلُّ على الصِّفةِ، والصِّفةُ على الذَّاتِ، فتَتَمُّ المراتبُ على أحسنِ الجهاتِ.

---

(١) أي آية البقرة السالفة.

(٢) أي آية النحل السالفة

كما وردَ في الحديثِ الشَّريفِ إيماءٌ إلى هذه الدَّرجاتِ؛ حيثُ قال: «أعوذُ بعَفْوِكَ من عقابِكَ، وبرِضاكَ من سَخَطِك، وبكَ منكَ»، ثم أظهرَ العجزَ في معرفةِ الذَّاتِ وقال: «لا أُحْصي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أَثْنيتَ على نَفْسِكَ»(١).

ثم هذه المحبَّةُ الكاملةُ المُرتَّبَةُ على المعرفةِ الشَّاملةِ ما وُجِدَتْ مجتمعةً إلَّا في الحضرةِ المصطفويَّةِ الجامعةِ للمرتبةِ المُحِبِّيَّةِ والمَحْبُوبيَّةِ، وإنَّما حصلَ لأتباعِه من السَّابقينَ واللَّاحقينَ بمقدارِ اتِّباعِه، كما أخبرَ اللهُ سبحانَه عنه بقولِه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال صاحبُ «التَّعَرُّفِ»(٢) في كتابِه الذي هو زُبدَةُ التَّصوُّفِ عن بعضِ الشُّيوخِ: المعرفةُ معرفتانِ: معرفةُ حقٍّ، ومعرفةُ حقيقةٍ. فمعرفةُ الحقِّ: إثباتُ وحدانيَّتِه على ما أبرزَ من الصِّفاتِ، ومعرفةُ الحقيقةِ: على أنْ لا سبيلَ إليها؛ لامتناعِ الصَّمَديَّةِ وتحقيقِ الرُّبوبيَّةِ، قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لأنَّ الصَّمَدَ هو الذي لا تُدرَكُ حقائقُ نُعُوتِه وصفاتِه(٣).

أقولُ: فمَنْ قالَ: (عرفتُ اللهَ حقَّ معرفَتِه)، نَظَرَ إلى معرفةِ الصِّفاتِ، ومَن قالَ: (ما عرفناكَ حقَّ معرفتِك)(٤)، نَظَرَ إلى معرفةِ الذَّاتِ، وإلى هذا المعنى الأخيرِ أشارَ قولُه ﷺ: «لا أُحْصي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أثنيتَ على نَفْسِك».

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦)، وأبو داود (٨٧٩)، والترمذي (٣٤٩٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٥٨)، وفي «المجتبى» (١/ ١٠٢)، وابن ماجه (٣٨٤١) والدارقطني في «سننه» (٥١٥) واللفظ له وأحمد (٢٥٦٥٥) من حديث عائشة.

(٢) هو كتاب «التَّعُّرف لمذهب أهل التصوف»، لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي المتوفى سنة (٣٨٠هـ). انظر: «كشف الظنون» (١/ ٤١٩).

(٣) انظر: «التعرف لمذهب أهل التصوف» (ص ١٣٢).

(٤) في «ف» «معرفته». وجاء في هامشها ما نصه «خط المصنف كما ترى والظاهر: ما عرفناه حق معرفته». اهـ. **قلت**: والمثبت من بقية النسخ، وقد تكلم المصنف في هذه المسألة في رسالته «المقدمة السالمة في خوف الخاتمة» المطبوعة ضمن هذا المجموع، فانظرها ثمة.

وأما ما رُوِيَ عن بعضِ العارفينَ، وليسَ بحديثٍ كما صرَّحَ به بعضُ المحدِّثينَ[(١)]: (مَن عَرَفَ نفسَه، فقد عَرَفَ ربَّه)؛ فمعناه: مَن عرفَ نفسَه بالعَدَمِ، عَرَفَ ربَّه بالقِدَمِ، ومَن عرفَ نفسَه بالفَناءِ، عرفَ ربَّه بالبقاءِ، ومن عرفَ نفسَه بالعجزِ، عرفَ رَبَّه بالقُدْرَةِ.

وقال بعضُ أربابِ التَّحقيقِ وأصحابِ التَّدقيقِ: إنَّ هذا تعجيزٌ للخَلْقِ عن دَرْكِ الحقِّ؛ فإنَّ الشَّخصَ إذا كان عاجزاً عن معرفةِ نفسِه وروحِه وحقيقةِ ذاتِه وصفتِه، كيف يُتَصَوَّرُ أن يعرف حقيقةَ ذاتِ اللهِ وكُنْهَ أفعالِه وصفاته.

وكذا ما وردَ في الخبرِ: (**أَعرَفُكم بنفسِه، أَعرَفُكم بربِّه**)[(٢)].

وفيه تنبيهٌ نَبِيهٌ على ما وردَ من الصِّدِّيقِ الأكبرِ من قولِه: (العَجْزُ عن دَرْكِ الإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ)[(٣)].

وعن سَيِّدِ البشرِ: «**أنتَ كما أَثنيتَ على نَفْسِكَ**»[(٤)].

وبهذا التَّقريرِ، وتقديرِ التَّحريرِ، ارتفعَ التَّناقُضُ بين قولِ بعضِهم: (مَن

(١) ذكره السخاوي في «المقاصد» (ص ٦٥٧)، ونقل عن السمعاني في «القواطع»: أنه لا يعرف مرفوعاً، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي، يعني من قوله، وكذا قاله النووي: إنه ليس ثابت.

(٢) أورده أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢/ ٦٨)، والراغب الأصفهاني في «الذريعة في مكارم الشريعة» (ص ٧٣)، والغزالي في «ميزان العمل» (ص ٢٠٠) مرفوعاً دون إسناد.
وبنحوه يروى عن علي بن أبي طالب قوله، انظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية (٥/ ٢٩١)، وقال ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٧): وليس هذا حديثاً عن رسول الله ﷺ وإنما هو أثر إسرائيلي بغير هذا اللفظ أيضاً: يا إنسان! اعرف نفسك تعرف ربك. اهـ. **قلت**: وقد نسبه إلى بعض كتب المنزلة: الراغب الأصفهاني والغزالي، انظر المصادر السابقة.

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٠٥)، و«الفروق» للقرافي (٤/ ١٢٤).

(٤) تقدم تخريجه.

عـرفَ اللهَ كَلَّ لِسـانُه)[١]. وبيـن قـولِ آخرين: (مَـن عرفَ اللهَ طـالَ لِسـانُه). فالأوَّلُ مشـيرٌ إلـى الـذَّاتِ، والثَّانـي معبِّرٌ عن الصِّفـاتِ، على أنَّـه قد يُقـالُ: مَن عَـرَفَ اللهَ بصفـاتِ الجمالِ، طالَ لِسـانُه فـي بيانِ الحـالِ وبُرهـانِ المَقالِ، وحصلَ له البَسْـطُ والصَّحْـوُ والبَقـاءُ، ومَـن عـرفَ اللهَ بصفـاتِ الجـلالِ، كَلَّ لِسـانُه عـن كُلِّ مَقـالٍ، وتغيَّـرَ فـي جميعِ حـالٍ، وتَحَيَّـرَ في مَقـامِ القَبـضِ والسُّـكرِ والفناءِ.

ولعلَّه سـبحانَه أشـارَ إلـى المقاميـنِ بقولِه مخاطِبـاً لإبليسَ، ومعاتِبـاً على ما وقـعَ لـه[٢] مـن التَّلبيـسِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٣]، وإنَّمـا حُرِمَ عـن هـذا المعنـى؛ لأنَّه فـي تركيـبِ المبنـى كان مِـن مَظهرِ الجـلالِ الـذي يقتضي عـدمَ مُبالاتِـه بمـا[٣] يقـعُ من أهـلِ الضَّـلالِ[٤]، وهذا قـولُ بعـضِ أربابِ الحـالِ[٥] مـن أصحـابِ الكمـالِ: لا تُنكـر الباطلَ في طَـورِه؛ فإنَّـه بعـضُ ظُهوراتِه[٦].

ولمَّـا كان الملائكـةُ مـن أهـلِ الجمـالِ، صَـدَرَ منهـم مـا كان علـى وَفْـقِ الكمـالِ، وتوضيحُـه: أنَّ الشَّـياطينَ مظهرُ صفـاتِ الجـلالِ، وكذا أنـواعُ الظُّلُماتِ وأصنـافُ الضَّـلالِ، والمكروهـاتُ ودارُ البَوارِ والنَّـكالِ والأَغـلالِ، وأنَّ الملائكةَ مظهـرُ نُعُـوتِ الجمـالِ، وكـذا أجنـاسُ الأنـوارِ وأنـواعُ الهدايـةِ والمُستَحسَـناتُ وأصنـافُ النَّعيـمِ ودارُ[٧] القـرارِ ومجلِـسُ الآمـالِ.

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٨/ ٢١٦).

(٢) في «ط»: «منه».

(٣) في «ط»: «مما».

(٤) في «ط»: «الإضلال».

(٥) في «ط»: «الجمال».

(٦) هـو قـول أبـي مديـن المغربـي، انظـر: «مرقـاة المفاتـح» (٨/ ٣٤٥٣) وأبـو مديـن هـو شـعيب، المتوفـى سـنة (٥٩٤هـ). انظـر: «طبقـات الشـعراني» (٢/ ١٠١).

(٧) في «ط»: «في» بدل «و».

وبيانُـه: أنَّ الآدمـيَّ ـ لكونِـه مـن أربـابِ الكمـالِ ـ مُرَكَّـبٌ فيـه مـا يصلحُ أن يكـونَ مظهـراً للجمـالِ والجـلالِ، فـإنْ غَلَبَ عليـه آثـارُ الجمـالِ، ترَقَّى مـن مقامِ الملائكـةِ المقرَّبيـنَ حتـى صـارَ أعلى منهـم، وإنْ غَلَـبَ عليه آثـارُ الجـلالِ، تَدَلَّى إلـى مقامِ مَـرَدَةِ الشَّـياطينَ حتـى كانَ أدنـى منهم.

وفي الجُملةِ: نبيُّنا ﷺ رئيسُ المحبوبينَ من مظاهرِ الجَمَالِ، وإبليسُ رئيسُ المحجوبينَ من مظاهرِ الجلالِ، وبَحْثُ هذا يطولُ على المَلُولِ، فنرجعُ ونقولُ:

قد قالَ بعضُ الكُبَراءِ(١): المعرفةُ: إحضارُ السِّرِّ بصُنوفِ الفِكرِ، في مراعاةِ مَوَاجيدِ الأذكارِ، على حسَبِ تَوَالي أعلامِ كُشوفِ الأَستارِ.

قال بعضُ العارفينَ: معناه: أنْ يُشاهدَ السِّرُّ من عَظَمَةِ اللهِ تعالى وتعظيمِ حقِّه وإجلالِ قَدْرِه ما تعجِزُ عنه العبارةُ.

وسُئلَ الجُنَيدُ قُدِّسَ سِرُّه عن المعرفةِ، فقال: هو تردُّدُ السِّرِّ بين تعظيمِ الحقِّ عن الإحاطةِ وإجلالِه عن الدَّرْكِ. فيَالَها حَيرةً! لا لها حَظٌّ من أحدٍ، ولا لأحدٍ منه حَظٌّ، وإذا هو وجودٌ يتردَّدُ في العَدَمِ لا تتهَيَّأُ العبارةُ عنه؛ لأنَّ المخلوقَ مسبوقٌ، والمسبوقُ غيرُ محيطٍ بالسَّابقِ.

قيل: معنى (هو وجودٌ يتردَّدُ في العَدَمِ): أنَّ صاحبَ الحالِ يقولُ: هو موجودٌ عِياناً وشَخْصاً، وكأنَّه معدومٌ صفةً ونَعْتاً.

وعن الجُنَيد قال: المعرفةُ هي: شهودُ الخواطرِ بعواقبِ المصيرِ، وأنْ لا يتصرَّفَ العارفُ بسرفٍ(٢) ولا تقصيرٍ.

---

(١) انظر: «التعرف لمذهب أهل التصوف» (ص ١٣٣)، ففيه ما سيرد من نقولٍ، نقله عنه المصنف.

(٢) في «ف»: بسوف. والمثبت من النسخ، و«التعرف» (ص ١٣٣).

قيل: معناه: لا يشهدُ حالَه، وإنَّما يشهدُ سابقَ علمِ الحقِّ فيه، وأنَّ ما سبقَ له منه، ويكونُ مصروفاً في الخِدمة والتَّقصيرِ.

وقال بعضُهم: المعرفةُ إذا وردَتْ على السِّرِّ، ضاقَ السِّرُّ[1] عن حَمْلِه؛ كالشَّمسِ يمنعُ شُعاعُها عن إدراكِ نهايتِها وجوهرِها.

قال ابنُ الفَرْغَانيِّ[2]: مَن عَرَفَ الرَّسمَ تَجبَّرَ، ومَن عرفَ الوَسْمَ تَحَيَّرَ، ومَن عرفَ السَّبْقَ تَعَطَّلَ، ومَن عرفَ الحقَّ تمكَّنَ، ومَن عرفَ التَّولِّيَ تَمَسْكَنَ.

قيل: معناه: مَن شاهدَ نفسَه قائماً بوظائفِ الحقِّ أُعجِبَ، ومن شاهدَ ما سَبَقَ له من اللهِ تحيَّرَ؛ لأنَّه لا يدري ما عَلِمَ الحقُّ سبحانَه فيه، وماذا جرى له القلمُ، ومَن عرفَ أنَّ ما سبقَ له من القِسمةِ لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ تعطَّلَ عن الطَّلبِ، ومَن عرفَ اللهَ سبحانَه بالقُدْرَةِ عليه والكِفايةِ له تمكَّنَ فلا يضْطَربُ عند المَخُوفاتِ ولا عند الحاجاتِ، ومَن عرفَ أنَّ اللهَ متولِّيَ أمره تَذَلَّلَ له في أحكامِه وأقضيتِه.

قالَ بعضُ الكبارِ: إذا عَرَّفَه الحقُّ إيَّاه، أوقفَ المُعرَّفَ[3] حيث لا يشهدُ محبَّةً، ولا خوفاً ولا رجاءً، ولا فقراً ولا غنًى؛ لأنَّها دون الغاياتِ، والحقُّ وراءَ النِّهاياتِ.

قيل: معناه: لا يشهدُ هذه الأحوالَ؛ لأنَّها أوصافُه، وأوصافُه أقصرُ من أنْ تَبْلُغَ ما يستحقُّه الحقُّ من ذلك.

---

(١) في «ط»: «الصدر».

(٢) هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطي المعروف بابن الفرغاني، صاحب الجنيد، توفي سنة (٣٢٠هـ). انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (ص ٢٣٢).

(٣) في «ط»: «المعرفة» وهو الموافق لما في «التعرف» (ص ١٣٣).

وأنشدوا لبعضِ الكُبَراءِ شِعراً:

رَاعَيتَنـي بالحِفَـاظِ حتَّـى حُمِيـتُ عـن مَرْتَـعٍ وَبِـيِّ
فأَنـتَ عنـد الخِصَـامِ عُـذْرِي وفـي ظَمَائِـي فأَنـتَ رِيِّـي
إذا امْتَطَـى العـارفُ المُعَلَّـى سَـرَا إِلَـى مَنْظَـرٍ عَلِـيِّ
وخَـاضَ فـي أَبْحُـرٍ غِـزَارٍ تَفِيـضُ بالخَاطِـرِ الوَصِـيِّ
فـضَّ[1] خِتَـامَ الغُيُـوبِ حتَّـى يحيـى فُـؤَادُ الشَّـجِيِّ الوَلـيِّ
مَـن حَـارَ فـي دَهْشَـةِ التَّلاقِـي أَبْصَـرْتَـهُ مَيْتـاً كَحَـيِّ

يعني: مَن حَيَّرتْهُ دَهْشَةُ[2] ما يبدو له من شاهدِ تعظيمِ اللهِ وإجلالِه، أبصَرْتَه حَيّاً كمَيِّتٍ؛ يعني: عن رؤيةٍ تأمَنُه، ولا يجدُ له متَقَدّماً ولا متأخّراً[3]، والحمدُ للهِ أوَّلاً وآخِراً.

***

وهذا شَمَّةٌ من روائحِ **فَوائحِ المعرفة**[4]، وإنْ أردْتَ أنْ تذوقَ طَعمَ حَبَّةٍ من شجرةِ المحبَّةِ، أو تشربَ قَطرةً من بحرِ المودَّةِ.

فقالَ الجُنَيدُ رحمَه اللهُ: المحبَّةُ مَيْلُ القلبِ.

ومعناه: أن تميلَ حَبَّةُ[5] قلبِه إلى محبَّةِ ربِّه.

وقيل: معناه: أن يميلَ قلبُه إلى اللهِ، وإلى ما للهِ، من غيرِ تكلُّفٍ في مبناه، وأن يُعرِضَ عمَّا سواهُ من حيث إنَّه سِواه.

---

(١) في «ف» و«ط»: «فص».

(٢) في «ط»: «حيرة دهشته».

(٣) إلى هنا ينتهي ما نقله المصنف عن كتاب «التعرف» (ص ١٣٤).

(٤) في «ف»: «المحبة». والمثبت من بقية النسخ.

(٥) في «ط»: «محبة».

وقال غيرُه: المحبَّةُ: هي الموافَقَةُ.

ومعناه: الطَّاعةُ له فيما أمرَ، والانتهاءُ عمَّا زَجَرَ، والرِّضا بما حَكَمَ وقَدَّرَ[١].

ومجملُه: قولُه سبحانَه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ولله دَرُّ القائلِ[٢]:

تَعْصِي الإلَـه وأنـتَ تُظْهـرُ حُبَّـهُ ... هـذا لَعَمْـرُكَ[٣] فـي الصَّنيـعِ بَدِيـعُ

لـو كانَ حُبُّـكَ صَادِقـاً لَأَطْعْتَـه ... إنَّ المُحِـبَّ لمَـن يُحِـبُّ مُطِيـعُ

وقال محمَّدُ بنُ عليٍّ الكَتَّانيُّ[٤]: المحبَّةُ: هي الإيثارُ للمحبوبِ.

ومعناه: أنَّك تختارُ رِضا اللهِ على ما تُحبُّه وتهواه.

وقال بعضُهم: المحبَّةُ لَذَّةٌ في المخلوقِ، واستهلاكٌ في الخالقِ. والاستهلاكُ: أنْ لا يبقَى لك حَظٌّ، ولا يكونَ لمحبَّتِكَ عِلَّةٌ، ولا تكونَ قائماً بعِلَّةٍ.

وقال سَهلٌ التُّسْتَريُّ: مَن أحبَّ اللهَ، فهو العيشُ، ومَن أحبَّ غيرَ اللهِ، فلا عَيشَ له.

قيل: معنى (فهو العَيشُ): أنْ يطيبَ عيشُه؛ لأنَّ المحبَّ يتلذَّذُ بكلِّ ما يردُ عليه من المحبوبِ؛ من مكروهٍ أو مطلوبٍ.

ومعنى: (لا عيشَ له)؛ لأنَّه يطلبُ الوصولَ إليهِ، ويخافُ الانقطاعَ دونَه، فيذهبُ عَيشُه[٥].

---

(١) من قول الجنيد إلى هاهنا منقول من «التعرف» (ص ١٠٩).

(٢) القائل هو أبو العتاهية.

(٣) في «ط»: «لعمري».

(٤) هو أبو بكر محمد بن علي الكتاني المكي، صاحب الجنيد، المتوفى سنة (٣٢٢هـ). انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (ص ٢٨٢).

(٥) من قول الكتاني إلى هاهنا منقول من كتاب «التعرف» (١٠٩ ـ ١١٠).

أقولُ: وهذا المعنى مُقْتَبسٌ من قولِه تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]، ومن قولِه سبحانَه: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]؛ جنَّةٌ في الدُّنيا: وهي مقامُ المُراقبَةِ، وجنَّةٌ في العُقبى: وهي مقامُ المشاهدةِ.

وفي الحديثِ: «اللَّهمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ عِيشَةً نَقِيَّةً، ومِيتَةً سَوِيَّةً»(١).

وقال بعضُهم(٢): المحبَّةُ على وجهين: محبَّةُ الإقرارِ: وهو للخاصِّ والعامِّ. ومحبَّةُ الوَجْدِ: من طريقِ الإصابةِ، فلا يكونُ فيه رؤيةُ النَّفسِ والخَلْقِ، ولا رؤيةُ الأسبابِ والأحوالِ؛ بل يكونُ مُستغرِقاً في رؤيةِ اللهِ المَلِكِ المُتعالِ.

وأنشدَ بعضُ أربابِ الأقوالِ:

أُحبُّك حُبَّيْنِ: حُبَّ الهَوى ... وحُبّاً لأنَّكَ أهلٌ لذَاكَا
فأمَّا الذي هو حُبُّ الهوى ... فشُغْلي بذِكْرِكَ عمَّا سِواكَا
وأمَّا الذي أنتَ أهلٌ له ... فلستُ أَرَى الكونَ حتَّى أَرَاكَا
فمَا الحَمْدُ في ذا ولا ذَاكَ لي ... ولكنْ لكَ الحَمْدُ في ذَا وذَاكَا

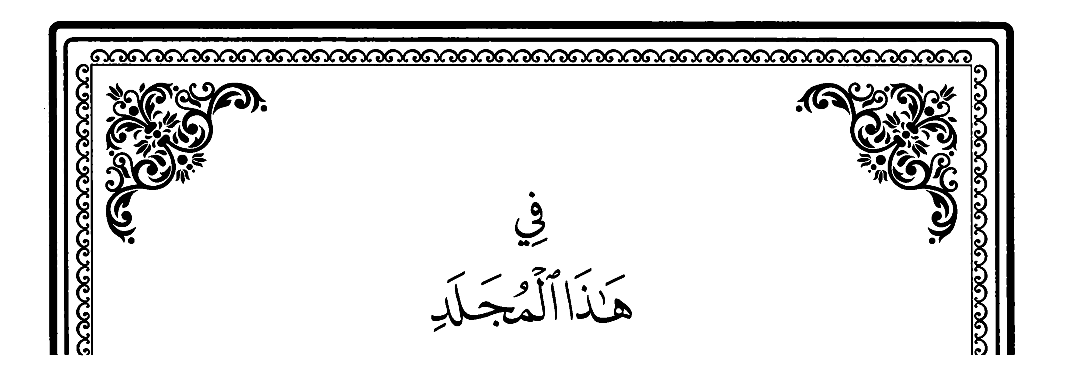
***

وإنْ أردْتَ استيفاءَ **المعرفةِ**، واستقصاءَ **المحبَّةِ**، فعليكَ بـ «إحياءِ عُلُومِ الدِّينِ» وبكتابِ «منازلِ السَّائرينَ»، لتحصُلَ لك مراتبُ اليقينِ، وتدخلَ في زُمرَةِ العارفينَ وروضةِ المحبِّينَ، وسلامٌ على المرسلينَ، والحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، وصلَّى اللهُ على سَيِّدِنا محمَّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه، وسلَّمَ تسليماً كثيراً إلى يومِ الدِّينِ.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٣/ ١٤٢٨٨)، والحاكم (١/ ٥٤١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٩٩)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١٩٦) من حديث عبد الله بن عمر، وعند بعضهم: عبد الله ابن عمرو بن العاص. وصححه الحاكم، لكن في إسناده شريك النخعي وهو ضعيف.

(٢) انظر: «التعرف» (ص ١١٠).



الموضوع	الصفحة

* * *